

تفسير النفس في

(مدارك لشرائع وحقائق لتأويل)

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود لنسفي

(ت ٧١٠ هـ)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يوسف علي بدوي

رَاجَعَهُ وَتَدَمَّرَ لَهُ
محيي الدين ديبستو

المجلد الأول

دار الكتب للطباعة

بيروت



تفسير النسيجي
(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقوقُ الطَّبعِ وَالنَّصْرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
الطَّبعةُ الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

١٢

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمد الشاكرين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من اتبع هدي كتاب الله المبين، وعمل بسنة رسول الله ﷺ الأمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، وهو الدستور الخالد للأمة الإسلامية، منه تستمد عقيدتها وتنبع تشريعاتها، وبنور مبادئه وأدابه تهتدي إلى الحق، وتستقيم على الصراط، وتعتصم من كل ضلال أو زيغ.

وقد أنزله الله قرآناً عربياً، بلغة العرب ووفق أساليب بلاغتهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وكان الصحابة يفهمونه ويعلمون معاني مفرداته وتراكيبه، ولكنهم يتفاوتون في معرفة تأويله وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، وكان أكثرهم كلاماً في التفسير عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

كما اشتهر من التابعين مفسرون، ثم جاء دور المؤلفين في التفسير على اختلاف مدارسهم، وأساليبهم، وتنوع مناهجهم واتجاههم في شرحهم لكتاب الله تعالى بما يتناسب مع كل عصر.

ومن المفسرين الذين حفظت لنا الأجيال تصنيفه أبو البركات عبد الله بن محمود النسفي المتوفى سنة (٧١٠هـ). وتفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» حظي باهتمام العلماء قديماً وحاضراً قراءة وتدریساً في حلقات العلم، وهو من مقررات المعاهد والكليات الشرعية، وقد قرأت منه جزءاً كبيراً على شيخنا العلامة عبد الرحمن الزعبي (الطبيي) - رحمه الله تعالى - في

معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء بدمشق ما بين سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٨ م. وقد حاولتُ التعرفُ على المميزات الجوهرية لهذا التفسير فوجدتها لا تتعدى خمسة أمور:

١- جمعه بين محاسن تفسيري الكشاف والبيضاوي، وابتعاده عما في «الكشاف» من الاعتزال، وعما في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة بشكل عام.

٢- التوسط بين القصر والطول، والبعد عن الاختصار المُخلّ، والشرح المُمل.

٣- اعتناؤه بالقراءات ووجوه الإعراب من غير استطراد.

٤- اهتمامه بالأحكام الفقهية من خلال المذاهب الاجتهادية، وهو حنفي ينتصر لمذهبه، ويردُّ على من خالفه من غير غلو ولا تعصب مذموم.

٥- لم يحفل بكثير من الإسرائيليات، وردَّ كثيراً منها، ولكنه لم ينج من إيراد بعضها.

وقد وفقنا الله تعالى لإخراج هذا التفسير في طبعة جديدة محققة، تبرز هذه الجوانب العلمية المتقدمة، وقد تمت مقابلة المطبوع منه على نسخة خطية موثقة، وانصبَّ جهد الأستاذ يوسف علي بديوي على تصحيح نصوصه وتخراج أحاديثه، كما تفضل الأستاذ أحمد محمد السيد بقراءة التجربة الثالثة من تجارب تصحيحه، وكان من نصيبي مراجعة التجربة الثانية من تجارب تنزيده على أحدث وأجمل برامج الحاسوب (الكمبيوتر).

فأسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل في خدمة كتابه العزيز، وأن يكتب له القبول التام عند الأساتذة الأجلاء والطلاب الأعزاء، وأن يجعل أجر ذلك في صحائف أعمالنا، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

محبي الدين ديب مستو
(أبو أديب)

دمشق في ٣ رجب ١٤١٦ هـ

٢٥/١١/١٩٩٥ م



مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل الكتاب للعالمين نذيراً؛ فيذكر المؤمن ليكون صَبَراً شكوراً، ويُنذِر الكافر ناراً وسعيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أرسله ربّه شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً رسول الله لا نبي بعده.

أمّا بعد: فإنَّ الله تعالى أنزل كتابه الكريم يهدي به إلى الصُّراط المستقيم مَنْ اتَّبَعَ رضوانه سُبُل السلام، ويُخْرِج النَّاسَ من ظلمات الجهل والعماية إلى نور العلم والإيمان والحجة الساطعة.

ووقف الصَّحابةُ أمام القرآن يفهمون نصوصه، ويسألون رسولهم ﷺ عمّا خفي من معانيه، وعمّا دَقَّتْ مراميهِ، فيكشف لهم الرسولُ ذلك، ويُجَلِّي لهم بيانه وبلاغته النبوية. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وخلَّف خلفاً أولوا القرآن على غير تأويله، وسلکوا في شرح نصوصه طرقاً ملتوية، فيها التعسُّف والتكلُّف، فكان في ذلك فتنة كبرى وفساد عريض. وتصدَّى لهؤلاء جبهة العلماء البارعين، فوضَّحوا المعاني، وكشفوها، وأفهموا النَّاسَ المرادُ بأدقِّ لفظ، وأعذب بيان.

ونشأت مدارس في التفسير كثيرة، كال تفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي الجائز والمذموم، إضافةً إلى تفسير الفلاسفة، والفقهاء، والتفسير العلمي، والمذهبي، والأدبي الاجتماعي...

ولكلِّ وجهةٍ هو مؤلِّها.

ويأتي الإمام النسفي علماً بارزاً في دنيا المفسرين، فيدوّن مُصنّفه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ليكون موجز العبارة، سهل المأخذ، وسطاً، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، مُحلّى بأقوال أهل السُنّة والجماعة، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة... إلى ما هنالك من محاسن كثيرة.

وممّا يُلحَظ على هذا التفسير أنّه مُقِلٌّ جدّاً في ذكره للإسرائيليات، وهذه حمدةٌ له، فإن ذَكَرَ شيئاً من ذلك تعقّبه في الغالب، وأحياناً يترك ذلك لفطنة القارئ.

وهو تفسيرٌ متداول بين أهل العلم، وقد رغبت دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، أن تُقدِّما لقرائتهما الأعزاء، طبعةً محققة، ونشرة علمية، فأحضرتا له نسخة مخطوطة، فخرج في أصدق مخبر، وحلّته بأرقى أنواع التنضيد الضوئي، والورق الفاخر، والحلة القشبية، فبدا بأبهى منظر، فهو يجمع بين الحسنين.

ومن الله تعالى نسالُ حُسْنَ الثواب، وكمال الرضا، وتمام المغفرة، وأن يكتب ثوابَ ذلك في صحائفنا، وصحائف والدينا، إنه على ما يشاء قدير.

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

يوسف بدوي

دمشق في ١ / ٧ / ١٤١٦ هـ

١ / ١٢ / ١٩٩٦ م



ترجمة المؤلف

● اسمه ونشأته:

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسْفِي، أبو البركات. لُقِّب: حافظ الدين، ونُسِبَ إلى مدينة نَسَف^(١)، فغلبت نسبته إليها.

وُلِدَ في مدينة إِيَذَج^(٢)، إلا أننا لا نعرف سنة ولادته بالتحديد.

كان مشهوراً بالزهد، والصلاح، والتقوى. وقد تفرَّغ للعلم، والدراسة، والبحث، وعرف اللغة العربية والفارسية، ورحل إلى بغداد في نهاية حياته، وذاع صيته في الآفاق.

قال اللكنوي: «كان إماماً كاملاً، عديم النظر في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه»^(٣).

ونعته ابن حجر العسقلاني بـ «علامة الدنيا»^(٤).

وعلى هذا نرى أنَّ النسفي ذو مكانة مرموقة بين فقهاء عصره ومتكلميهِ، وقد عدَّه ابن كمال باشا من طبقات المقلِّدين القادرين على التمييز بين القويِّ والضعيف؛ الذين شأنهم ألاَّ ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة، وهي أدنى طبقات المتفقيهِين^(٥). وقال: «وبه اختتم الاجتهاد، ولم يوجد بعده مجتهد في المذاهب»^(٦).

(١) معجم البلدان (٢٨٥/٥) والروض المطار (٥٧٩).

(٢) معجم البلدان (٢٨٨/٥ - ٢٨٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٠٢ - ٣٠٣).

(٣) الفوائد البهية (١٠١).

(٤) الدرر الكامنة (٢٤٧/٢).

(٥) النسفي ومنهجه في التفسير، لأميمة بدر الدين، رسالة ماجستير عام ١٩٩٠م، غير منشورة.

(٦) الفوائد البهية (١٠١ - ١٠٢).

وقد نشأ النسفي في بيئة علمية دينية، كان لها أهمية كبيرة في حياته، وفي نشأته العلمية، فمال إلى اعتزال الحياة السياسية، والتفرغ للعلم.

● شيوخه:

لم تذكر المصادر أكثر من ثلاثة شيوخ للإمام النسفي؛ مما يحملنا على الظن أنَّ ثمة شيوخاً آخرين أغفلت الكتب ذكرهم، فلم يصل إلينا شيءٌ عنهم. أمَّا الثلاثة فهم:

(١) شمس الأئمة الكردي، محمد بن عبد الستار بن محمد العمادي^(١)، توفي سنة (٦٤٢هـ).

(٢) بدر الدين خواهر زادة، محمد بن محمود بن عبد الكريم^(٢)، توفي سنة (٦٥١هـ).

(٣) حميد الدين الضرير، علي بن محمد بن علي الرامشي^(٣)، توفي سنة (٦٦٦هـ).

● تلامذته:

ذكر المؤرخون تلميذَيْن له، هما:

١ - السفناقي، الحسين بن علي بن حجاج، حسام الدين^(٤)، توفي سنة (٧١٤هـ).

٢ - الجيلي، محمد بن محمد^(٥).

● مذهبه الفقهي والكلامي:

تابع النسفي أستاذه الكردي في موافقة أبي حنيفة في الفقه، كما أكَّد ذلك

(١) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٧٦ - ١٧٧ - ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٢٥).

(٣) انظر ترجمته في الفوائد البهية (٢٠٠).

(٤) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٠٢).

(٥) ذكره طاشكبري زادة في مفتاح السعادة (٥٧/٢).

كُتِبَ الفقهية، وبشكل خاص «كنز الدقائق» الذي جعله خالصاً في الفقه الحنفي، كما أنَّ آراءه الفقهية المبثوثة في تفسيره تدلُّ على ذلك.

أمَّا نزعته الكلامية فتبدو واضحة في تفسيره، حيث يؤيِّد مذهب أبي منصور الماتريدي - رحمه الله -.

● مؤلفاته:

أمَّا المطبوعة فهي:

- (١) بحر الكلام: كتاب في أصول الكلام.
 - (٢) عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة: مطبوع بعناية الأستاذ كيورتن.
 - (٣) كشف الأسرار شرح المصنف على المنار: لخص فيه أصول الفقه لشمس الأئمة السرخسي، وهو مطبوع في جزأين.
 - (٤) كنز الدقائق: متن مشهور في الفقه.
 - (٥) منار الأنوار: في أصول الفقه.
 - (٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: وهو كتابنا هذا^(١).
- وأمَّا كتبه المخطوطة فهي:

- (١) الاعتماد في الاعتقاد.
 - (٢) عمدة العقائد.
 - (٣) الكافي في شرح الوافي.
 - (٤) المستصفى في شرح الفقه النافع.
 - (٥) المصفى في شرح المنظومة.
- وهذه المؤلفات الكثيرة تشهد بمكانة النسفي العلمية، وأستاذيته.

(١) صدرت الطبعة الأولى في وزارة المعارف بالقاهرة سنة (١٩٤٢م) في (٣) مجلدات، ثم صدر في دمشق عن المكتبة الأموية (مجلدان)، ثم صدر مع تفسير الخازن، عن دار الفكر ببيروت (٤ أجزاء) وغير ذلك.

● وفاته:

اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة النسفي، فذهب اللكنوي^(١) والبغدادى^(٢) وصاحب كشف الظنون^(٣) إلى أنَّ وفاته كانت عام (٧١٠هـ). أمَّا ابنُ حجر العسقلاني^(٤) فرأى أنَّ وفاته كانت عام (٧٠١هـ)، وذهب القاسم بن قطلوبغا^(٥) إلى أنه توفي بعد عام (٧١٠هـ).



-
- (١) الفوائد البهية (١٠١).
 (٢) هدية العارفين (١/٤٦٤).
 (٣) كشف الظنون (٢/١٩٢٢ - ١٢٧٤ - ١٨٢٣ - ١٨٦٧).
 (٤) الدرر الكامنة (٢/٢٤٧).
 (٥) الفوائد البهية (١٠١).

تفسير النسفي

- استعان النسفي في تفسيره بعدد من تفاسير السابقين له، وهي:
- ☆ الكشف، للزحشري: وهو مصدر أساس في تفسيره، حيث لخص النكات البلاغية، والإشارات اللغوية، والاستطرادات الأدبية.
 - ☆ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: ويبدو تأثر النسفي به في تتبع الكثير من نظرات البيضاوي اللغوية، ونقل عبارات حرفية.
 - ☆ تفسير قتادة: حيث نقل عنه في كثير من المواضع.
 - ☆ تفسير مجاهد: حيث استعان به، وأخذ عنه أقواله.
 - ☆ التأويلات، لأبي منصور الماتريدي: ولا غرابة في ذلك؛ حيث أن النسفي ماتريدي، وأحب أن تكون آراء شيخه أبي منصور مؤيدة لآرائه في كتبه ومؤلفاته.
 - ☆ شرح التأويلات.
 - ☆ اللباب.
- والكتابان الأخيران لم يذكر النسفي اسمي مؤلفيهما.
- كما استعان النسفي بمصادر كثيرة من كتب الحديث، ومنها:
- صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحاح المصابيح للبغوي، وبعض المسانيد.
 - أمّا مصادره في الفقه فقد أشار إلى:
 - المبسوط، للبرزدوي (ت ٤٨٢هـ).
 - الكافي (له).

- شرح المنار (له).

ومن مصادره اللغوية:

- كتاب سيويه.
- التبيان في إعراب القرآن.
- الصحاح، للجوهري.
- كشف المعضلات وإيضاح المشكلات، للباقولي الضرير.
- ومن مصادره في القراءات:

- مصحف عبد الله بن مسعود.
- مصاحف أهل الكوفة، وأهل الحرمين، والبصرة، والشام.
- مصحف نافع.
- مصحف حفصة.
- الإشارة والبشارة.
- الوقوف.

وقد كان للعلماء آراء في تفسير النسفي، نذكر منها ما قاله عطية الجبوري^(١):

«القارىء في تفسير النسفي يلاحظ أنه ملخص لتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي. ولما كان النسفي من أهل السنة والجماعة، وهو حنفي المذهب؛ لذا لم يذكر كل ما يُصادفه من قضايا الاعتزال في الكشاف، ويستخلص منه النكت البلاغية، والمعاني العقلية الدقيقة. أضف إلى ذلك المحسنات اللفظية، فجاء كتابه هذا وسطاً بين الطول والقصر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل زاد عليها كثيراً من أقوال النحاة والإعراب ووجوه القراءات، وإسناد القراءات إلى أصحابها. وكان مقتصرأ في ذلك على القراءات السبع. وهو يسيّر في تفسيره على طريقة الأسئلة والأجوبة؛ إلا أنه لم يجعلها ظاهرة».

(١) دراسات في التفسير ورجاله (١٠٧).

وقال الدكتور الذهبي في «التفسير والمفسرون» (٣٠٥/١): «لم يقع فيما وقع فيه صاحبُ الكشف من ذكره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور»^(١).

وقال الدكتور منيع محمود:

«تبني النسفي كل ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية»^(٢).
ويتابع فيقول:

«والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً، وخبرة دقيقة، وإطلاعاً واسعاً، وحسن استفادة من هذا الاطلاع... ويمتاز تفسيره بإقلاله من الإسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها. كما يمتاز بتحرّيه في اختيار الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور. كما أنه لم يتوسّع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعية تُشتّتُ الذهن، وتبتعد بالقارئ عن الجوِّ القرآني، ولم يخلُ تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي»^(٣).

إلا أن النسفي رغم احتياطه وتحفّظه لم يسلم من الإسرائيليات، ولم يشِرْ إلى خطئها، أو ضعف روايتها، كما في: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] قال: «روي: أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تُدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحداة تقول: كل شيء هالك إلا الله...» دون أن يتعقّب ما ذكره من ذلك كله!

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان، وما كان من امتحانها له. وهو خبرٌ أشبه ما يكون بقصة نسجها خيالُ شخصٍ مسرفٍ في

(١) التفسير والمفسرون؛ للذهبي (٣٠٥/١).

(٢) مناهج المفسرين (٢٢٠).

(٣) المصدر السابق (٢١٧).

تخيله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة!
وقال قاسم القيسي^(١):

«هو تفسيرٌ وسطٌ في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، مُتَضَمِّنٌ لدقائق البديع والإشارات، مُوشَّحٌ بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة والشناعة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وقال الدكتور صبحي الصالح^(٢):

«وَأَمَّا النَّسْفِيُّ فَيَعْنِيهِ بِالدرْجَةِ الْأُولَى: الدِّفَاعُ عَنْ وَجْهَةِ نَظَرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَتَفْسِيرُهُ جَامِعٌ لَوْجُوهِ الْإِعْرَابِ وَالْقِرَاءَاتِ، وَفِيهِ إِشَارَاتٌ دَائِمَةٌ إِلَى رَوَائِعِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي عِبَارَةٍ مُوجِزَةٍ».



(١) تاريخ القرآن (١٤١).

(٢) مباحث في علوم القرآن (٢٩٣).

وصف المخطوطة

تقعُ المخطوطة في مجلدين، وهي من وقف المدرسة الأحمدية بحلب.

● المجلدة الأولى:

تحمل رقم (١٣٢٣٠)، عدد الأوراق (٢٨٦)، قياس (١٤ × ٢١ سم)، في الصفحة (٢٣) سطراً، في السطر (١٣ - ١٥) كلمة.

● المجلدة الثانية:

تحمل رقم (١٣٢٣١)، عدد الأوراق (٣٠٢)، قياس (١٥ × ٢٢ سم)، في الصفحة (٢٥) سطراً، في السطر (١٢ - ١٨) كلمة.

والخط في المجلدتين واضح، مقروء، وبعضه مشكول، وآيات مكتوبة بحرف أكبر لتوضيحها وإبرازها.

وقد نسخ هذه المخطوطة: ميكائيل بن حاجي محمد بن حاجي، وفرغ منها في يوم الجمعة وقت الضحوة الكبرى من شهر ربيع الآخر سنة (٧٢٧هـ) أي: بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاماً.



منهج التحقيق

بعد حصولنا على نسخة مخطوطة من مكتبة الأسد العامرة، كانت هذه الخطوات:

- (١) مقابلة المخطوط على المطبوع، وإثبات الفروق ذات الأهمية.
- (٢) تخريج الآيات الشواهد من أماكنها من سور القرآن، مع ذكر أرقامها، وقد أخذت من المصحف؛ نائياً بها عن أخطاء الطباعة.
- (٣) تخريج الأحاديث قدر المستطاع من مظانها الحديثية.
- (٤) توزيع فقرات النص، مع وضع علامات الترقيم.
- (٥) جعل المصحف في أعلى الصفحة، ثم يأتي شرح الآيات مرقمة.
- (٦) ضبط الشعر؛ منعاً للبس في قراءته.
- (٧) التعليق على بعض المواضع بما يُفيد ويُغني.
- (٨) صنّع «ترويسة» في كل صفحة؛ لتسهيل الدلالة، والظفر بالبغية بأيسر سبيل، وأسرع وقت.
- (٩) كتابة مقدّمة عن حياة الإمام النسفي، ولمحة عن مصادر كتابه.
- (١٠) إعداد فهرس للسور والآيات في نهاية كل جزء، وفهرس عام للأحاديث في نهاية الكتاب.

نسأل الله تعالى التوفيق، والنفع بهذا العمل، إنه على ما يشاء قدير.
والحمد لله ربّ العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم هو حي لا اله الا هو عليه يؤمن صلى الله عليه وسلم
سيدنا محمد وسلم المودة النوة بذاته عن اغارة الاوصال المقدس بصفاته عن ذرار
العقول والافهام المتقف بلا نوصية قبل كان موجود الباقى بنعت السيرة مدية بعك كل
محدود الملك الذي طست سجات جلالة الابصار المتكبر الذي ازاحت سطوات كبريائه
الافكار القديم الذي تعالى عن مماثلة المحدثان العظيم الذي نزع عن حماسة المكان
التعالى عن مضاعفات الاحتمام ومشاغلة الاثام القادر الذي لا يستار اليه
بالكيفية القاهر الذي لا يسار عن التحيل والتكيف العظيم الذي يخلق الانسان وعلمه
البيان العظيم الذي نزل القرآن شفاء لدار وراح والابدان والخلود والسلام على المستر
من ارومية البلاد والبراءة المحل في بحيرة النفاحة والنفاحة حمة المبعوث الى حليقة
الداعي الى الحق وطريقته لى الله عليه وعلى الوصي عليه وعلى الاخذين به وولديهم
تعالى موردنا الى الانعام العظم والجبر الهام المقدم استدار اهل الارض محي السنة
والفرق كنيسة حقايق اسرار التزويل مقفاح وقابق اسرار التاويل نترجم كلام
الرحمن صاحب على المعاني والبيان الجامع بين الاسود والفرع المرجوع اليه
في العقول والمشيى حافظ الملة والدين شيخ الاسلام والمسلمين وارث علوم
والايتيات المستبين لكل تحول المحدثين قدوة قدوم المحققين وذو السعادات
والكرامات ابوالعزائم عبد الله بن محمد والنسعى شيخ الله الاسلام بطول
بقائه والمسلمين بمقتضى قايده قدسنا لى من سعيين اجابته كتابا وسطا في التاويل
الجامع لوجوه الاسرار والقرآن شمسنا لدقايق علم البديع والاشادات
حائنا انا وبلا اهل السنة والجماعة طالبنا عن ابا طير لى البدع والصلوات ليس
بالطويل الممل ولا بالقصير المحل ولنت اقدم فيه رجلا واخر اخرى استقصارا
لقوة النشر من مرك هذا الوطر واحدا بسبيل الخدوع من ركب الخطر صتى
شهرت فيه توفيق الله تعالى والعوائق لشرة وامتنه في مدته شرة
وسببه بحدود تزييل وحقايق التاويل وهو الميسر لكل مستبره وعلى ما في قدر
ولما ياب

تفسير النفس

(مدارك لشرائع وحقائق لتأويل)

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود النسفي

(ت ٧١٠ هـ)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

رَاجَعَهُ وَتَدَمَّرَ لَهُ

يوسف علي بدوي

محيي الدين ديبستو

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

هو حسبي، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

الحمد لله المنزه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتصف بالألوهية قبل كلّ موجود، الباقي بنعت السرمدية^(١) بعد كلّ محدود، الملك الذي طمست سُبُحات^(٢) جلاله الأبصار، المتكبر الذي أزاحت سطوات كبريائه الأفكار، القديم الذي تعالى عن مُماثلة الحُدُثان^(٣)، العظيم الذي تنزه عن مماسة المكان؛ المتعالي عن مُضاهاة الأجسام، ومُشابهة الأنام، القادر الذي لا يُشار إليه بالتكليف، القاهر الذي لا يُسأل عن التّحميل والتكليف^(٤)، العليم الذي خَلَق الإنسانَ، وعَلَّمه البيان، الحكيم الذي نَزَلَ القرآنَ شفَاءً للأرواح والأبدان.

والصَّلَاة والسَّلَام على المستلّ من أرومة^(٥) البلاغة والبراعة، المحتل في بحبوحة النصيحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعي إلى الحقّ وطريقته. صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته.

(١) «السرمدية»: الدائمة.

(٢) «سُبُحات»: أنوار.

(٣) «الحُدُثان»: جمع أحاديث، وهي جمع حديث، وهو: الجديد من الأشياء.

(٤) في الأصل المخطوط: التكيف، والمثبت من المطبوع.

(٥) «الأرومة»: الأصل.

قال مولانا الشيخ الإمام المعظم، والخبر الهمام المقدم، أستاذ أهل الأرض، محيي السُّنة والفرض، كشاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح دقائق أسرار التأويل، ترجمان كلام الرحمن، صاحب علم المعاني والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه في المعقول والمسموع، حافظ الملة والدين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قُدوم^(١) المحققين، ذو السَّعادات والكرامات، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمين لقائه^(٢) :-

قد سألني مَنْ تتعَيَّن إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السُّنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البِدْع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل.

وكنْتُ أقدم فيه رجلاً وأؤخر أخرى استقصاراً لقوَّة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً بسبيل الحذر، عن ركوب الخطر، حتى شرعتُ فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدَّة يسيرة، وسمَّيته بـ: «مدارك التنزيل، وحقائق التأويل» وهو الميسر لكلِّ عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.



(١) «القُدوم»: جمع قُدُم: الجريء الكثير الإقدام.

(٢) هذا الكلام إما من النسخ أو من أحد تلاميذ المؤلف - رحمه الله - .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

مكية، وقيل : مدنية. والأصح أنها مكية ومدنية. نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حُوِّلَت القبلة إلى الكعبة. وتسمَّى أم القرآن للحديث^(١)، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورة الوافية والكافية لذلك، وسورة الكنز، لقوله ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي»^(٢). وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاء من كلِّ داء إلا السَّام»^(٣). وسورة المثاني؛ لأنها تُثَنَّى في كلِّ صلاة. وسورة الصلاة لما يُروى، ولأنها تكون واجبة أو فريضة. وسورة الحمد والأساس، فإنها أساس القرآن. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس. وآيها سبع بالاتفاق، والله أعلم.

١- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قُرَاء المدينة والبصرة والشام على أنَّ التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كُتبت للفصل والتبؤك بالابتداء بها، وهو مذهب أبي حنيفة ومَن تابعه - رحمهم

(١) قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأمِّ القرآن» رواه مسلم (٣٩٤) (٣٦).

(٢) رواه ابن راهويه. (فيض القدير ٤/٤٢٠).

(٣) رواه سعيد بن منصور، وأبو الشيخ في «الثواب». (فيض القدير ٤/٤١٨) والديلمي في

مسند الفردوس (٤٣٨٥) بلفظ: «فاتحة الكتاب شفاء من السم».

الله - ولذا لا يُجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه - رحمهم الله - ولذا يجهرون بها، وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن [عما ليس منه]^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من تركها فقد ترك مئة وأربع عشرة آية من كتاب الله. ولنا حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة» أي: الفاتحة «بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سألت. فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجَّدني عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سألت. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صرَّطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ قال: هذا لعبدني، ولعبدني ما سألت»^(٢).

فلا ابتداء بقوله: «الحمد لله رب العالمين» دليلٌ على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعاً. والحديث مذكورٌ في «صحيح المصابيح». وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل وللتبرك في الابتداء بها بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في «المبسوط»، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن، وتمايم تقريره في «الكافي». وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ، أو أتلو، لأنَّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حلَّ وارتحل فقال: باسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلُّ، وبسم الله أرتحل، وكذا الذابح. وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له. وإنما قدر المحذوف

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه أحمد (٢/٢٤١) ومسلم (٣٩٥) (٣٨) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤).

متأخراً لأنَّ الأهم من الفعل والمتعلِّق به [هو المتعلِّق به]^(١). وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزوجل بالابتداء، وذا بتقديمه وتأخير الفعل. وإنما قدّم الفعل في ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنها أول سورة نزلت في قول، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم^(٢) الفعل أوقع. ويجوز أن يحمل ﴿أَقْرَأْ﴾ على معنى: افعل القراءة وحقّقها، كقولهم: فلان يعطي ويمنع، غير متعدّ إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعده. واسم الله يتعلّق بالقراءة تعلق الدّهن بالإنبات في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبركاً باسم الله اقرأ، ففيه تعليم عباده كيف يتبرّكون باسمه تعالى، وكيف يعظمونه. وبنيت الباءُ على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر، فكسرت لتشابه حركتها عملها. والاسم من الأسماء التي بنوا أوائلها على السُّكون كالابن والابنة وغيرهما، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفادياً عن الابتداء بالساكن تعذراً، وإذا وقعت في الدّرج لم يفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزدّها، واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سِمٌ وَسُمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز، كيد، ودم، وأصله: سمو بدليل تصريفه كأسماء، وسمى، وسميت. واشتقاقه من السمو، وهو: الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره. وحذفت الألف في الخط هنا، وأثبتت في قوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنه اجتمع فيها^(٣) مع أنها تسقط في اللفظ لكثرة الاستعمال، وطولت الباء عوضاً من حذفها. وقال عمر بن عبد العزيز لكاّته: طولُ الباء وأظهر السينات، ودوّر الميم.

والله: أصله الإله، ونظيره الناس، أصله: الأناس، حُذفت الهمزة، وعُوّض عنها حرف التعريف. والإله من أسماء الأجناس، يقع على كل معبود

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) من المطبوع.

(٣) أي: في التسمية.

بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه، ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل، وتقول: إله واحد صمد، ولأن صفاته تعالى لا بُدَّ لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وإذا لا يجوز. ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضل. وقيل: معنى الاشتقاق: أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد. وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم **أَلَهْ**: إذا تحير، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذا كثر الضلال، وفشا الباطل، وقلَّ النظر الصحيح. وقيل: هو من قولهم **أَلَهْ يَأَلَهْ** إلهاً: إذا عبد، فهو مصدر بمعنى مألوه، أي: معبود، كقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. وتفخم لأمه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة، وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرققها بكل حال، ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول.

والرحمن: فعلان من رحم، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء، كغضبان من غضب، وهو الممتلئ غضباً. وكذا الرحيم: فاعيل منه، كمريض من مرض. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ لأن في الرحيم زيادة واحدة، وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدلُّ على زيادة المعنى؛ ولذا جاء في الدعاء: «يا رحمن الدنيا» لأنه يعم المؤمن والكافر «ورحيم الآخرة» لأنه يخصُّ المؤمن. وقالوا: الرحمن خاص تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه لأنه يوصف به غيره، ويخصُّ المؤمنين، ولذا قدم الرحمن - وإن كان أبلغ - والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان عالم نحير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله. ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها: العطف. وأما قول الشاعر في مسيلمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وأنت غيثُ الورى لا زلتَ رحماناً^(١)

فباب من تعنتهم في كفرهم.

ورحمَن غير منصرف عند مَنْ زعم أنَّ الشرط انتفاء فعلاية، إذ ليس له فعلاية، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

٢ - ﴿الْحَمْدُ﴾ الوصف بالجميل على جهة التفضيل. وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً. والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. والخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف، أي: واجب أو ثابت. وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال:

أفادتكم التَّعماءُ مني ثلاثةٌ يدي ولساني والضَّمير المحجَّبُ
والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شُعَبِ الشكر، ومنه الحديث: «الحمدُ رأسُ الشكر، ما شكر الله عبداً لم يحمده»^(٢). وجعله رأسَ الشكر؛ لأن ذكر النعمة باللسان أشيعُ لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لحفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح: ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً، قادراً، عالماً، أبدياً، أزلياً. والشكر: ثناء على ما هو منه من أصناف الإفضال، والحمد يشملهما. والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة؛ ولذا قرن باسم

(١) عجز بيت، وصدره: سموت بالمجد يا بن الأكرمين أبا.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٩٥) والديلمي في مسند الفردوس (٢٧٨٤).

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

الله؛ لأنه اسم ذات، فيستجمع صفات الكمال. وهو بناءٌ على مسألة خلق الأفعال، وقد حَقَّقَتْه في مواضع.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: المالك، ومنه: قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجلٌ من قريش أحب إليّ من أن يربني رجلٌ من هوازن. تقول: ربّه يربّه، فهو ربّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كما وصف بالعدل. ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في العبيد مع التقييد: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. وقال الواسطي: هو الخالقُ ابتداءً، والمرتبّي غذاءً، والغافر انتهاءً، وهو اسم الله الأعظم. والعالم: هو ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى، سُمّي به لأنه علّم على وجوده، وإنما جمع بالواو والنون مع أنه يختص بصفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، لما فيه معنى الوصفية، وهي: الدلالة على معنى العلم.

٣ - ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذَكَرْهُمَا قَدْ مَرَّ، وهو دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة، إذ لو كانت منها لما أعادها؛ لخلو الإعادة عن الإفادة.

٤ - ﴿مَلِكِ﴾ عاصم وعلي، (مَلِكٍ): غيرهما. وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن الإضافة، ولقوله ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ولأنَّ كُلَّ مَلِكٍ مَالِكٌ، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً. وقرأ أبو حنيفة والحسن - رحمهما الله -: مَلَكٌ.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، ويقال: كما تدين تُدان، أي: كما تفعل تُجازى. وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، أي: مالك الأمر كله في يوم الدين. والتخصيص بيوم الدين لأن الأمر فيه لله وحده. وإنما ساغ وقوعه صفةً للمعرفة مع أنَّ إضافة اسم الفاعل إضافةً غير حقيقية؛ لأنه أريد به الاستمرار، فكانت الإضافة حقيقيةً، فساغ أن يكون صفةً للمعرفة.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

وهذه الأوصاف التي أجريَتْ على الله سبحانه وتعالى من كونه رباً، أي: مالِكاً للعالمين، ومنعماً بالنعم كلها، ومالكاً للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أَنَّ مَنْ هذه صفاته لم يكن أحداً أحقَّ منه بالحمد والثناء عليه.

٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمَر. والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمَر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم. وتقديمُ المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخضُك بالعبادة، وهي: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخضُك بطلب المعونة. وعدَل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْنَا بِهِمْ يَرِيحَ طَيْبَةً﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ السَّحَابَ فَاسْقِنَهُ﴾ [فاطر: ٩] وقول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمَدِ ونَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَزُقْ^(١)
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلِيلَةُ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْمَدِ^(٢)
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي وَخُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْهَدِ

فالتفت في الآيات الثلاثة حيث لم يقل: ليلي، وبت، وجاءك، وللمعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظريةً لنشاطه، وأملاً^(٣) باستدراب إصغائه. وقد تختصَّ مواقعُه بفوائد ولطائف قلماً تصح إلا للحدِّاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم. وما اختصَّ به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء،

(١) «الأثمَد»: اسم موضع. «الخلي»: هو الرجل الخُلُو من الهموم.

(٢) «العائِر»: الذي يجد وجعاً في عينه.

(٣) في حاشية الأصل: في نسخة: وأميل.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك. وقُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو لنظم الآي كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كل مستعان فيه. ويجوز أن يراد الاستعانة به ويتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله «اهدنا» بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

٦ - ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: ثبتنا على المنهاج الواضح، كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: اثبت على ما أنت عليه. أو: اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال. وهدى يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كما في هذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وإلى، كقوله تعالى: ﴿هَدَيْنَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿هَدَيْنِي رَحْمَةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]. والسرائ: الجادة، من سراط الشيء: إذا ابتلعه، كأنه يسطر السَّابِلَة^(١) إذا سلكوه. والسرائ من قلب السين صاداً؛ لتجانس الطاء في الإطباق؛ لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق. وقد تشمَّ الصاد صوت الزاي؛ لأن الزاي إلى الطاء أقرب؛ لأنهما مجهورتان. وهي قراءة حمزة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، وهو الأصل في الكلمة. الباقون بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش، وهي الثابتة في الإمام^(٢). ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

(١) «السابِلَة»: الطريق المسلوكة، والمأثور عليها.

(٢) أي: المصحف الإمام.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

٧ - ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الصراط، وهو في حكم تكرير العامل. وفائدته: التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه، وأكدته. وهم المؤمنون، أو الأنبياء عليهم السلام، أو قوم موسى قبل أن يُغَيَّرُوا.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعني: أنَّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله تعالى والضلال، أو صفة للذين، يعني: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال. وإنما ساغ وقوعه صفةً للذين، وهو معرفة، وغير لا يتعرف بالإضافة؛ لأنه إذا وقع بين متضادين، وكانا معرفتين، تعرف بالإضافة، نحو: عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان، ولأن الذين قريبٌ من النكرة؛ لأنه لم يُرَدَّ به قومٌ بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة؛ للتخصيص الحاصل له بإضافته، فكل واحد منهما فيه إبهامٌ من وجه، واختصاص من وجه، فاستويا. وعليهم - الأولى - محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]. و«لا» زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى غير.

أمين: صوتٌ سُمِّيَ به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد اسمٌ لأمهل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: سألتُ رسول الله ﷺ عن معنى أمين، فقال: «افعل»^(١). وهو مبنيٌّ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها، وهو الأصل، والمند بإشباع الهمزة، قال:

(١) رواه الكلبي. تفسير القرطبي (١/١٢٨).

..... ويرحمُ اللهُ عبداً قال آميناً^(١)
وقال:

..... أمين، فزاد الله ما بيننا بُعداً^(٢)
قال ﷺ: «لَقَنَنِي جبريلُ آمين عند قراءة فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالختم
على الكتاب»^(٣). وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف.

* * *

(١) صدره: يا رب لا تسلبني حَيَّها أبداً.

(٢) عجز بيت، صدره: تباعد في فُطْحُلٍ إذ سألتُه.

(٣) قال ابنُ حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشف ١/١٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم

١ - ﴿الْم﴾ ونظائرها: أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فالألف تدلُّ على أوسط حروف قال، واللام تدلُّ على الحرف الأخير منه وكذلك ما أشبهها. والدليل على أنها أسماء أن كلاً منها يدلُّ على معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير.

وهي معربة، وإنما سكنت سكون زيد وغيره من الأسماء، حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه. وقيل: مبنية لأنها كالأصوات نحو: غاق، في حكاية صوت الغراب. ثم الجمهور على أنها أسماء السور. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أقسم الله بهذه الحروف. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إنها اسمُ الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجزة إلا لإعجامها وإبهامها. وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تُحَدِّي بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أنَّ هذا المتلو عليهم، وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤدبهم النَّظْرُ إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن

يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولات، وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلامُ خالقِ القوى والقدر. وهذا القولُ من الخلاق^(١) بالقبول بمنزل.

وقيل: إنما وردت السورُ مصدرّةً بذلك ليكون أول ما يقرعُ الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أنَّ النطقَ بالحروف أنفسها كانت العربُ فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف، فإنه كان مختصاً بمن خط، وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأميِّ التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأفاصيص المذكورة في القرآن؛ التي لم تكن قريش ومن يضاھيهم في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته ﷺ.

واعلم أنَّ المذكورة في الفواتح نصفُ أسامي حروف المعجم، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. فمن المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن المطبقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن

(١) «الخلاق»: الحظ والنصيب من الخير.

المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف، والطاء. وغير المذكورة من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء ينزل منزلة كله، فكأن الله تعالى عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما مرّ من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقة على السور؛ لأن إعادة التنبيه على المتحدّي به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كلُّ تكرير ورّد في القرآن، فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

ولم تجيء على وتيرة واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ص، وق، ون، وطه، وطس، ويس، وحم، والم، والر، وطسم، والمص، والمر، وكهيعص، وحم عسق، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة، كعادة افتنانهم في الكلام. وكما أنّ أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، سلك في الفواتح هذا المسلك. والم آية حيث وقعت، وكذا المص آية، والمر لم تعد آية، وكذلك الر لم تعد آية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص. ون وق ثلاثتها لم تعد آية. وهذا عند الكوفيين، ومن عداهم لم يعد شيئاً منها آية.

وهذا علمٌ توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويُوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله: ﴿الْعَمَّ﴾ [آل عمران: ١] أي: هذه الم، ثم ابتداء فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ولهذه الفواتح محلٌّ من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو الرفع على الابتداء، أو النصب والجر لصحة القسم بها، وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ

لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة وللنفردات المعدودة.

٢ - ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ذلك إشارة إلى الم. وإنما ذكر اسم الإشارة، والمشار إليه مؤنث، وهو السورة؛ لأنّ الكتاب إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير، وإن كان صفة فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسم الإشارة مشارٌ به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا. ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسماً للسورة أن يكون الم مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه: أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الم جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الم بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك، وهو مصدر رابني: إذا حصل فيه الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة، وإن الصدق طمأنينة»^(١) أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو: ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه. وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثير؛ لأن المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان، بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، لا أن أحداً لا يرتاب. وإنما لم يقل: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]

(١) رواه أحمد (٢٠٠/١) والترمذي (٢٥١٨).

فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

لأن المراد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق لا باطل كما يزعم الكفار. ولو أولى الظرف لبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصفات: ٤٧] تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفاً على لا ريب، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، والتقدير: لا ريب فيه ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء، مكى. ووافقه حفص في ﴿فِيهِ مُهْكَنًا﴾ [الفرقان: ٦٩] وهو الأصل، كقولك: مررت به، ومن عنده، وفي داره، فكما لا يقال: في داره، ومن عنده، وجب ألا يقال: فيه. قال سيبويه: ما قاله مؤد إلى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الياء قبل الهاء والهاء، إذ الهاء المتحركة في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية فالخفي قريب من الساكن، والياء بعدها. والهدى مصدر على فعل كالبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]. وإنما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون؛ لأنه كقولك للعزیز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ولأنه سَمَاهُمْ عند مشارفتهم لا كتساء لباس التقوى متقين، كقوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(١) وقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا أراد أحدكم الحجَّ فليعجل فإنه يمرضُ المريض. فسَمَى المشارف للقتل والمرض قَتِيلًا ومريضاً. ولم يقل: هدى للضالين؛ لأنهم فريقان: فريق علم بقاءهم على الضلالة، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب، فلو جيء بالعبرة المفصحة عن ذلك لقليل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، فقليل: هدى للمتقين مع أن فيه تصديراً للسورة؛ التي هي أولى

.....

الزهاوين، وسنام القرآن؛ بذكر أوليائه تعالى.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، فإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء، وأدغمتها في التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية: فرط الصيانة؛ وفي الشريعة: مَنْ يقي نفسه تعاطي ما يستحقُّ به العقوبة من فعل أو ترك. ومحل هدى الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع لا ريب فيه لـ: ذلك، أو النصب على الحال من الهاء في: فيه. والذي هو أرسخُ عرفاً في البلاغة أن يقال قوله: ﴿الم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة.

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متأخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نبّه أولاً على أنه الكلام المتحدّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرفٌ من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لعالم: فيم لذّتك؟ قال: في حجة تتبخر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً.

ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى للمتقين﴾ فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحومُ الشك حوله وحقاً ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ثم لم تخلُ كلُّ واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب بألطف وجه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة الحذف، ووضع المصدر، الذي هو هدى، موضع الوصف، الذي هو هاد، كأن نفسه هداية، وإيراده منكراً، ففيه إشعارٌ بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين كما مرّ.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

٣ - ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع أو نصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يؤمنون﴾ أو: أعني ﴿الذين يؤمنون﴾ أو هو مبتدأ، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾ أو جر على أنه صفة للمتقين. وهي صفة واردة بياناً وكشفاً للمتقين، كقولك: زيد الفقيه المحقق؛ لاشتغالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان؛ الذي هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة: فهما أمّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار^(١) على غيرهما. ألا ترى أن النبي ﷺ سَمَّى الصلاة عماد الدين، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة، وسَمَّى الزكاة قنطرة الإسلام، فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات؛ ولذا اختصر الكلام بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. أو صفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطيب، ويكون المراد بالمتقين: الذين يجتنبون السيئات ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمَنه، أي: صدقه، وحقيقته: آمَنه التكذيب والمخالفة. وتعديته بالباء لتضمُّنه معنى أقرّ واعترف ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم؛ مما أنبأهم به النبي ﷺ من أمر البعث، والنشور، والحساب وغير ذلك. فهو بمعنى الغائب، تسمية بالمصدر، من قولك: غاب الشيء غيباً. هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته: متلبسين بالغيب. والإيمان الصحيح أن يقرّ باللسان، ويصدق بالجنان، والعمل ليس بداخل في الإيمان ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها، فعبّر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها، كما عبّر عنه بالقنوت، وهو: القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها. أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها، من أقام العود: إذا قومه؛ أو الدوام عليها والمحافظة، من قامت السوق: إذا نفقت؛ لأنه إذا حوِّط عليها كانت كالشيء الثاقف الذي تتوجّه إليه الرغبات،

(١) «العيار»: ما اتُّخذ أساساً للمقارنة والتقدير.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

وإذا ضيَّعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. والصلاة فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرك الصلوتين، أي: الأليتين؛ لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده. وقيل للداعي: مصل، تشبيهاً له في تحشُّعه بالراعي والساجد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذي ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون. أدخل من التبعية صيانة لهم عن التبذير المنهي عنه، وقدم المفعول دلالة على كونه أهم. والمراد به: الزكاة؛ لا اقترانه بالصلاة التي هي أختها، أو هي وغيرها من النفقات في سبيل الخير لمجيئه مطلقاً. وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، كنفق الشيء ونفد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فداً على معنى الخروج والذهاب. ودلت الآية على أن الأعمال ليست من الإيمان، حيث عطف الصلاة والزكاة على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه؛ من الذين آمنوا بكل وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات. ثم إن عطفهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا في جملة المتقين. وإن عطفهم على المتقين لم يدخلوا، فكأنه قال: هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك. أو المراد به وصف الأولين، ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد. وقوله:

إلى الملك القزم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن. والمراد جميع القرآن لا القدر الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ لأن الإيمان بالجميع واجب. وإنما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقباً، تغليبا للموجود على ما لم يوجد، ولأنه إذا كان بعضه نازلاً، وبعضه منتظر النزول،

وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

جعل كأن كله قد نزل ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة على النبيين عليهم الصلاة والسلام ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ هي تأنيث الآخر الذي هو ضد الأول، وهي صفة، والموصوف محذوف، وهو الدار؛ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على اللام ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

٥ - ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ الجملة في موضع الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ويجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء، وأولئك خبره، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب؛ الذين لا يؤمنون بنبوّة رسول الله ﷺ، وهم ظانّون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ مثلاً لتمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسّكهم به بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل، واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوتوه من عنده. ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أي هدى. ونحوه: لقد وقعت على لحم، أي: على لحم عظيم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاح: درك البغية، والمفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر. والتركيب دالٌّ على معنى الشق والفتح، وكذا أخواته في الفاء والعين نحو: فلق، وفلذ، وفلى. وجاء بالعطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا، واتحاد الغفلة، والتشبيه بالبهايم ثم، فكانت الثانية مقرّرة للأولى، وهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائدته الدلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ،

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك. فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح. وتعريف «المفلحون» ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو، فقل: زيد التائب، أي: هو الذي أُخْبِرْتُ بتوبته. وتوسط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا. اللهم زيننا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة مَنْ صَدَرَتْ بذكرهم سورة البقرة.

٦ - لما قَدَّمَ ذكر أولياته بصفاتهم المقربة إليه، وَبَيَّنَّ أَنَّ الكتاب هدى لهم، قَفَّى على أثره بذكر أضدادهم، وهم العتاة المردة الذين لا ينفعُ فيهم الهدى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. الكفر: ستر الحق بالجحود. والتركيب دالٌّ على الستر، ولذا سَمَّى الزارع كافراً، وكذا الليل. ولم يَأْتِ بالعاطف هنا كما في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٣] وَلَئِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [١٤] لأنَّ الجملة^(١) هنا مسوقة لذكر الكتاب بياناً، لا خبراً عن المؤمنين، وسيقت الثانية للإخبار عن الكفار بكذا. فبين الجملتين تفاوتٌ في المراد، وهما على حدٍّ لا مجال للعطف فيه. وإن كان مبتدأ على تقديرٍ فهو كالجاري عليه. والمراد بالذين كفروا: أناس بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون، كأبي جهل، وأبي لهب، وأضراهما ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزين، كوفي. وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: مستوية. وارتفاعه على أنه خبر لأن ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ أم لم تنذرهم مرتفعٌ به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه. أو يكون سواء خبراً مقدماً و﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ أم لم تنذرهم في

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ

موضع الابتداء، أي: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن. وإنما جاز الإخبار عن الفعل، مع أنه خبر أبدأ؛ لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى. والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني: إن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبر لأن، والجملة قبلها اعتراض، أو خبر بعد خبر. والحكمة بالإنذار مع العلم بالإصرار إقامة للحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول ﷺ.

٧ - ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزجاج: الختم: التغطية؛ لأنَّ في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه. وقال ابن عباس: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير. يعني: إنَّ الله طبع عليها، فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان. وحاصل الختم والطبع: خَلَقَ الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه؛ وعند المعتزلة إعلامٌ محضٌ على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار، فيلعبونهم، ولا يدعون لهم بخير. وقال بعضهم: إنَّ إسنَادَ الختم إلى الله تعالى مجاز، والخاتم في الحقيقة الكافر، إلا أنه تعالى لما كان هو الذي أقدره وأمكنه أسند إليه الختم، كما يسند الفعل إلى السبب، فيقال: بنى الأمير المدينة؛ لأنَّ للفعل ملابسات شتى، يلبس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء مجازاً؛ لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته، فيستعار له اسمه. وهذا فرع مسألة خَلَقَ الأفعال ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وخذ السمع كما وُحِدَ البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا؛ لأمن اللبس، ولأنَّ السمع مصدر في أصله، يقال: سمعت الشيء سمعاً وسماعاً، والمصدر

وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ

لا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل والكثير، فلا يحتاج فيه إلى التثنية والجمع، فلمح الأصل. وقيل: المضاف محذوف، أي: وعلى مواضع سمعهم. وقرئ ﴿وعلى أسماعهم﴾ ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ بالرفع خبر ومبتدأ. والبصر: نور العين، وهو: ما يبصر به الرائي، كما أن البصيرة: نور القلب، وهي: ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهرا ن لطيفان خلقهما الله تعالى، فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. والغشاوة: الغطاء، فعالة، من غشاه: إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتمل على الشيء، كالعصابة، والعمامة، والقلادة. والأسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغطية؛ لقوله: ﴿وَحُتِّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم. ونصب المفضل وحده غشاوة بإضمار جعل. وتكرير الجار في قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ دليل على شدة الختم في الموضوعين. قال: الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: الكافر لما لم يسمع قول الحق، ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقين ليرى آثار الحدث، فيعلم أن لا بد له من صانع، جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة، وإن لم يكن ذلك حقيقة. وهذا دليل على أن الأسماع عنده داخلة في حكم التغطية. والآية حُجَّةٌ لنا على المعتزلة في الأصلح، فإنه تعالى أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أن ترك الختم أصلح لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء: إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه. والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم يقابل الحقيق، والكبير يقابل الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقيق دون الصغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد: جثته، أو خطره. ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من التغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعمامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيم من العذاب، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

٨ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ افتتح سبحانه وتعالى بذكر

وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وعناداً، ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقال مجاهد: أربع آيات من أول السورة في نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين، نعى عليهم فيها مكرهم، وخبثهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمهم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة. وأصل ناس: أناس حذفته همزته تخفيفاً. وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس. ويشهد لأصله: إنسان، وأناسي، وإنس. وسُمُّوا بذلك لظهورهم، وأنهم يؤنسون، أي: يبصرون، كما سُمِّي الجن لاجتنانهم. ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، فإنك تقول وزن قِ افعِل، وليس معك إلا العين. وهو من أسماء الجمع، ولام التعريف فيه للجنس. ومن موصوفة، ويقول: صفة لها، كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا، وإنما خصّوا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع. وإنما سمي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنهم أوهموا في هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبَي الإيمان أوله وآخره. وهذا لأنَّ حاصل المسائل الاعتقادية يرجعُ إلى مسائل المبدأ، وهي: العلم بالصانع وصفاته وأسمائه، ومسائل المعاد، وهي: العلم بالنشور، والبعث من القبور، والصراط، والميزان، وسائر أحوال الآخرة. وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كلّ واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام. وإنما طابق قوله ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - وهو في ذكر شأن الفاعل لا الفعل - قولهم ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وباليوم الآخر؛ وهو في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، لأنَّ المراد إنكارُ ما ادَّعوه

يُخَادِعُونَ اللَّهَ

ونفيه على أبلغ وجه وأكده، وهو: إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول؛ لأنه يحتمل أن يراد التقييد، ويترك للدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يُراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولاً. والآية تنفي قول الكرامية: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللسان لا غير؛ لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم. وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. ودخلت الباء في خبر ما مؤكدة للنفي؛ لأنه يستدلُّ به السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام. ومَنْ موحد اللفظ، فلذا قيل: يقول. وجمع ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نظراً إلى معناه.

٩ - ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: رسول الله، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقُرَيْةَ﴾ [يوسف: ٨٢] كذا قاله أبو علي - رحمه الله - وغيره، أي: يظهرون غير ما في أنفسهم، فالخداعُ: إظهارُ غير ما في النفس. وقد رفع الله منزلة النبي ﷺ حيث جعل خداعه هو خداعه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقيل: معناه يخادعون الله في زعمهم؛ لأنهم يظنون أنَّ الله ممن يصحُّ خداعه. وهذا المثال يقع كثيراً لغير اثنين، نحو قولك: عاقبت اللص. وقد قرئ: يخدعون الله. وهو بيانٌ ليقول، أو مستأنف، كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين؟ وما منفعتهم في ذلك؟ فقيل: ﴿يخادعون الله﴾ ومنفعتهم في ذلك: متاركتهم عن المحاربة التي كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراء أحكام المؤمنين عليهم، ونيلهم من الغنائم، وغير ذلك. قال صاحب «الوقوف»: الوقف لازم على ﴿بمؤمنين﴾ لأنه لو وصل لصار التقدير: وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفي الوصف، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمراد: نفي الإيمان عنهم، وإثبات الخداع لهم. ومَنْ جعل يخادعون حالاً من الضمير في: يقول، والعامل فيها: يقول، والتقدير: يقول آمنا بالله مخادعين، أو حالاً من الضمير في المؤمنين، والعامل فيها اسم الفاعل،

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

والتقدير: وما هم بمؤمنين في حال خداعهم، لا يقف. والأول الوجه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يخادعون رسول الله والمؤمنين بإظهار الإيمان، وإضمار الكفر ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأنَّ ضررها يلحقهم، وحاصل خداعهم - وهو العذاب في الآخرة - يرجع إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أبو عمرو ونافع ومكي للمطابقة. وعذر الأولين أن خدع وخادع - هنا - بمعنى واحد. والنفس: ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح: النفس؛ لأن النفس بهما، وللدنفس نفس؛ لأنَّ قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. والمراد بالأنفس - هاهنا -: ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم، لا يعدوهم إلى غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصل خداعهم يرجع إليهم. والشعور: علم الشيء علم حس، من الشعار، وهو: ثوب يلي الجسد. ومشاعر الإنسان: حواسه؛ لأنها آلات الشعور. والمعنى: إن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمامي غفلتهم كالذي لاحس له.

١٠ - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق؛ لأن الشك تردّد بين الأمرين، والمنافق متردد. في الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(١). والمريض متردد بين الحياة والموت. ولأن المرض ضد الصحة، والفساد يقابل الصحة، فصار المرض اسماً لكل فساد، والشك والنفاق فساد في القلب ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: ضعفاً عن الانتصار، وعجزاً عن الاقتدار. وقيل: المراد به خلق النفاق في حالة البقاء بخلق أمثاله، كما عرف في زيادة الإيمان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاعيل بمعنى مفعول، أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كوفي. أي: بكذبهم في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فما مع الفعل بمعنى

(١) رواه أحمد (٣٢/٢ و ٤٧) ومسلم (٢٧٨٤) والنسائي (١٢٤/٨).

و «العائرة»: هي التي تفارق جماعة الغنم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

المصدر. والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ﴿يَكْذِبُونَ﴾ غيرهم، أي: بتكذيبهم النبي ﷺ فيما جاء به. وقيل: هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدق. ونظيرهما: بان الشيء وبين.

١١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على: يقول آمنا^(١)، لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحاً. والفساد: خروجُ الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، وضده: الصلاح، وهو: الحصول على الحال المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن؛ لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس، والزروع، والمنافع الدينية والدنيوية. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمداواة، يعني: إن صفة المصلحين خلصت لنا، وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد؛ لأن إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب. وما: كافة؛ لأنها تكفها عن العمل.

١٢ - ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، فحذف المفعول للعلم به. ألا: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؛ لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِيرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]. ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وقد ردَّ الله ما ادَّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردُّ، وأدلّه على سخط عظيم. والمبالغة فيه

(١) في المطبوع: معطوف على: يكذبون، ويجوز أن يعطف على: يقول آمنا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

من جهة الاستئناف، وما في الأوان من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل،
وقوله: ﴿لَا يشعرون﴾.

١٣ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ نصحوهم
من وجهين: أحدهما: تقييح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجره إلى الفساد،
وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام. فكان من جوابهم أن
سفهوهم لتماذي جهلهم. وفيه تسلية للعالم مما يلقي من الجهلة. وإنما صح
إسناد قيل إلى لا تفسدوا وآمنوا، مع أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يصح؛ لأنه
إسناد إلى لفظ الفعل، والممتنع إسناد الفعل إلى معنى الفعل، فكأنه قيل: وإذا
قيل لهم هذا القول. ومنه: زعموا مطية الكذب. وما في كما: كافة كما في
ربما، أو مصدرية كما في ﴿يَمَارُجِبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. واللام في الناس
للعهد، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه، وهم ناس معهودون، أو عبد الله
بن سلام وأشياعه، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم. أو للجنس، أي: كما
آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن
عداهم كالبهائم. والكاف في ﴿كما آمن﴾ في موضع النصب؛ لأنه صفة مصدر
محذوف، أي: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله ﴿كما آمن السفهاء﴾.
والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ للإنكار. واللام في السفهاء مشار بها إلى الناس. وإنما
سفهوهم - وهم العقلاء المراجع^(١) - لأنهم لجهلهم اعتقدوا أن ما هم فيه هو
الحق، وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً. والسفه: سخافة
العقل، وخفة الحلم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السفهاء.
وإنما ذكر - هنا - لا يعلمون، وفيما تقدم: لا يشعرون؛ لأنه قد ذكر السفه،
وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الإيمان يحتاج فيه إلى
نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. أما الفساد في الأرض فامرٌ مبنيٌّ

(١) «المراجع»: جمع مِرْجَاح، وهو الخليم.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

على العادات، فهو كالمحسوس. والسفهاء: خبر إن. وهم: فصل، أو مبتدأ، والسفهاء: خبر هم. والجملة: خبر إن.

١٤ - ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ قرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ يقال: لقيته ولاقيته: إذا استقبلته قريباً منه. الآية الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم، ولقائهم بوجوه المصادقين، وإيهامهم أنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ خلوت بفلان وإليه: إذا انفردت معه. ويلى أبلغ؛ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء، أي: إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود. وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية، بدليل قولهم: تشيطن. وعنه: أنها زائدة. واشتقاقه من: شطن: إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، أو من شاط: إذا بطل، ومن أسمائه: الباطل ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة يان، لأنهم في خطابهم مع المؤمنين في ادعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان، إما لأن أنفسهم لا تساعدكم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة. وكيف يطمعون في رواجه وهم بين ظهراي المهاجرين والأنصار. وأما خطابهم مع إخوانهم فقد كان^(١) عن رغبة، وقد كان متقبلاً منهم، رائجاً عنهم، فكان مظنة للتحقيق، ومثنة^(٢) للتأكيد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لقوله ﴿إنا معكم﴾ لأن معناه الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ردّ للإسلام، ودفع له منهم؛ لأن المستهزىء بالشيء،

(١) في الأصل المخطوط: كانوا، والمثبت من المطبوع؛ لأنه أنسب للسياق.

(٢) «مثنة»: موضع ومثنته.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى

المستخف به: منكر له، ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته. أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم بقولهم، حين قالوا لهم: إنا معكم: إن كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب: الخفة، من الهزء، وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان.

١٥ - ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، فسمي جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فسمي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء سيئة واعتداء. وهذا لأن الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه من باب العبث، وتعالى عنه. قال الزجاج: وهو الوجه المختار. واستئناف قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من غير عطف، في غاية الجزالة والفخامة، وفيه: إن الله تعالى هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، لما ينزل بهم من النكال والدُّل والهوان. ولما كانت نكايات الله وبلاياه تنزل عليهم ساعة فساعة قيل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يقل: الله مستهزئ بهم؛ ليكون طبقاً لقوله: إنما نحن مستهزون ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يمهلهم. عن الزجاج ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في غلوهم في كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي: يتحIRON ويرددون. وهذه الآية حُجَّةٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

١٦ - ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: استبدلوا بها، واختاروها عليه. وإنما قال: ﴿اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ ولم يكونوا على هدى؛ لأنها في قوم آمنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، فلما جاءهم كفروا به، أو جعلوا التمكنهم منه كأن الهدى قائم فيهم، فتركوه بالضلالة. وفيه دليل على جواز البيع تعاطياً؛ لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء، ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيار، وسمى ذلك

فَمَا رِبِحَتْ يُحَرِّثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

شراء، فصار دليلاً لنا على أَنَّ مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنْ غَيْرِهِ، وترك عليه عوضه برضاه، فقد اشتراه وإن لم يتكلم به. والضلالة: الجور عن القصد، وفقد الاهتداء. يقال: ضلَّ منزله، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين ﴿فَمَا رِبِحَتْ يُحَرِّثُهُمْ﴾ الربح: الفضل على رأس المال، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشترى للربح. وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازي، ومعناه: فما ربحوا في تجارتهم، إذ التجارة لا تربح. ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازاً أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحاً له، كقوله:

ولما رأيتُ النَّسْرَ عَزَّ ابن دُأَيَّةٍ وَعَشَّشَ في وَكْرِيهِ جَاشَ له صَدْرِي

ولما شبَّ الشيبَ بالنسر والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التَّعْشِيشِ والوكر ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطريق التجارة، كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر. والمعنى: إن مطلوبَ التجار سلامةُ رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوهما، فرأس مالهم الهدى، ولم يبقَ لهم مع الضلالة، وإذا لم يبقَ لهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بالأغراض الدنيوية، لأنَّ الضَّالَّ خاسر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح. وقيل: الذين: صفة أولئك، و﴿فَمَا رِبِحَتْ تجارتهم...﴾ إلى آخر الآية: في محل الرفع خبر أولئك.

١٧ - ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف، وتتميماً للبيان. ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق تأثيرٌ ظاهر. ولقد كثر ذلك في الكتب السماوية. ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في أصل كلامهم: هو المثل، وهو النظير. يقال: مثل ومثل ومثيل كشيء وشبه وشبيه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلاً إلا قولاً فيه غرابة، ولذا حُوِّفَظَ عليه فلا يغير. وقد استعير المثل للحال، أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن، وفيها غرابة. كأن قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: وفيما قصصنا

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان عجائبها ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. ووضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاصُّوا﴾ [التوبة: ٦٩] فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الفوج الذي استوقد ناراً، على أن ذوات المنافقين لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ومعنى استوقد: أوقد. ووقود النار: سطوعها. والنار: جوهر لطيف مضيء حارٌ مُحْرَق. واشتقاقها من: نار ينور؛ إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركةً واضطراباً ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة، ومصدقه قوله ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] وهي في الآية متعددة. [ويحتمل أن تكون غير متعددة]^(١) مسندة إلى ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. وجواب فلما ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وهو ظرف زمان، والعامل فيه جوابه مثل إذا. وما موصولة، وحوله نصب على الظرف، أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حوله. وجمْعُ الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. والثور: ضوء النار، وضوء كل نير. ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً. ومعنى ذهب به: استصعبه، ومضى به. والمعنى: أخذ الله نورهم، وأمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ الله ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر: ٢] فكان أبلغ من الإذهاب. ولم يقل: ذهب الله بضوئهم لقوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ لأنَّ ذِكْرَ النور أبلغ؛ لأنَّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد: إزالة النور عنهم رأساً، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمَّى نوراً. ألا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ والظلمة: عرض ينافي النور، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدلُّ على أنها ظلمة لا يترأى فيها شبحان، وهو قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾. وترك بمعنى: طرح

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

ثُمَّ بَيَّنَّا لَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

وخلّى إذا علق بواحد، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير، فيجري مجرى أفعال القلوب، ومنه: ﴿وَرَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والمفعول الساقط من ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطروح، لا من قبيل المقدر المنوي، كأنّ الفعل غير متعدّ أصلاً، وإنما شُبِّهَتْ حالهم بحال المستوقد؛ لأنهم غب^(١) الإضاءة وقعوا في ظلمة وحيرة. نعم المناقُ خابطٌ في ظلمات الكفر أبداً، ولكن المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق، المفضية بهم إلى ظلمة العقاب السرم. وللآية تفسير آخر وهو: أنهم لما وُصِفُوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عَقِبَ ذلك بهذا التمثيل ليمثل هُداهم الذي باعوه بالنار المضئمة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم، وتركه إياهم في الظلمات. وتنكير النار للتعظيم.

١٨ - ﴿ثُمَّ بَيَّنَّا لَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: هم صُمُّ. كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سَدُّوا عن الإصاحبة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم^(٢). وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم: هم ليوث للشجعان، وبحورٍ للأسخياء، إلا أنّ هذا في الصفات، وذلك في الأسماء. وما في الآية تشبيهٌ بليغٌ في الأصح لا استعارة؛ لأنّ المستعار له مذكورٌ وهم المنافقون، والاستعارة إنما تُطلق حيث يُطوى ذكرُ المستعار له، ويجعل الكلام خلواً عنه، صالحاً لأن يُراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها؛ لتنوع الرجوع إلى الشيء وعنه. أو أراد أنهم مُتَحَيِّرُونَ، بقوا جامدين في مكاناتهم لا يرجعون ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون.

(١) «الغب»: العاقبة والآخر.

(٢) «إيفت مشاعرهم»: دخلت عليها آفةٌ وعامة.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

١٩ - ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبه المنافقين في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وهنا شبه دين الإسلام بالصَّيْب؛ لأنَّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر؛ وما يتعلَّق به من شبه الكفار بالظلمات؛ وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق؛ وما يصيبهم من الأفراع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، فحذف مثل لدلالة العطف عليه، وذوي لدلالة يجعلون عليه. والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيه أشياء بأشياء، إلا أنه لم يُصرَّح بذكر المشبهات، كما صرح في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ﴾ [غافر: ٥٨]. وقول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَىٰ وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(١)

بل جاء به مطوياً ذكره على سنن الاستعارة. والصَّحِيحُ أَنَّ التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة لأنه يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه به. بيانه أَنَّ العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزَة^(٢) ذاك وتشبيهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا...﴾ الآية [الجمعة: ٥] فالمراد تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة،

(١) «العناب»: ثمر أحمر رطب. «الحشف»: الجاف الرديء من التمر.

(٢) «الحُجْزَة»: موضع شدَّ الإزار من الوسط. يُقال: هذا كلامٌ أخذَ بعضُهُ بِحُجْزِ بعض: أي: متناسق متماسك.

وحل ما سواها من الأوقار^(١)، ولا يشعر من ذلك إلا بما يمرُّ بدقيّه من التعب والكد. وكقوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٥] فالمراد قلة بقاء زهرة الحياة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فهو تشبيه كيفية بكيفية. فأما أن يُراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيصة شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شبتهم حيرتهم وشدة الأمر بما يكابد من أطفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل. وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. والتمثيل الثاني أبلغ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر، ولذا أُخِّر. وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. وعطف أحد التمثيلين على الآخر بأو؛ لأنها في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً [في الشك عند البعض، ثم استعيرت لمجرد التساوي]^(٢) كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيان في استصواب أن يُجالسا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا مِنْهُنَّ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: الآثم والكفور سيان في وجوب العصيان. فكذا هنا معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبة لكيفيتي هاتين القصتين، وأنَّ القصتين، سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. والصيب: المطر الذي يصب، أي: ينزل ويقع. ويقال للسحاب: صيب أيضاً. وتنكير صيب لأنه نوع من المطر شديد هائل، كما نكرت النار في التمثيل الأول. والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف. والفائدة في ذكر السماء - والصيب لا يكون إلا من السماء - أنه جاء بالسماء معرفة فأفاد أنه غمام أخذ بأفاق السماء، ونفى أن يكون من سماء، أي: من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأنَّ كل أفق من آفاقها سماء. ففي التعريف مبالغة كما في تنكير صيب

(١) «الأوقار»: جمع الوقر، وهو الحمل الثقيل.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ

وتركيبه وبنائه. وفيه دليلٌ على أنَّ السحابَ من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه. وقيل: إنه يأخذ من البحر ويرتفع. ظلمات: مرفوع^(١) بالجار والمجرور؛ لأنه قد قوي لكونه صفة لصيب، بخلاف ما لو قلت ابتداء: فيه ظلمات، ففيه خلاف بين الأخفش وسيبويه. والرعد: الصَّوت الذي يُسمع من السحاب لاصطكاك أجرام السحاب، أو ملك يسوق السحاب. والبرق: الذي يلمع من السحاب، من برق الشيء بريقاً: إذا لمع. والضمير في فيه يعودُ إلى الصيب، فقد جعل الصيب مكاناً للظلمات، فإن أريدَ به السحاب فظلماته إذا كان أ سحماً^(٢) مطبقاً، ظلماتا سُحُمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمةُ تكاثفه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. وجعل الصيب مكاناً للرعد والبرق على إرادة السحاب به ظاهر. وكذا إن أريدَ به المطر؛ لأنهما مُلتبسان به في الجملة. ولم يجمع الرعد والبرق لأنهما مصدران في الأصل، يقال: رعدت السماء رعداً، وبرقت برقاً، فروعي حُكْمُ الأصل بأن ترك جمعهما. وتكررت هذه الأشياء لأن المراد أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ﴾ الضمير لأصحاب الصيب وإن كان محذوفاً، كما في قوله: ﴿أَوْهَمَ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] لأن المحذوف باقٍ معناه وإن سقط لفظه. ولا محلّ ليجعلون لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ ف قيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ﴾ ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وإنما ذكر الأصابع، ولم يذكر الأنامل، ورؤوس الأصابع هي التي تُجعل في الآذان، اتساعاً، كقوله: ﴿فَأَقْطَعُوا آيِدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] والمراد إلى الرسغ. ولأنَّ في ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذي تُسدُّ به الأذن؛ لأن السبابة فعالة من السب، فكان

(١) من المطبوع.

(٢) «أسحَم»: أسود.

مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

اجتنابها أولى بآداب القرآن، ولم يذكر المُسَبِّحَة لأنها مُستحدثة غير مشهورة ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. والصاعقة: قصفة رعد تنقضُّ معها شقَّة من نار. قالوا: تنفذُ من السحاب إذا اصطكت أجرامه. وهي نار لطيفة حديدة، لا تمرُّ بشي إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود. يُحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طُفئت. ويقال: صعقت الصاعقة: إذا أهلكته فصعق، أي: مات إما بشدة الصوت، أو بالإحراق ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له. والموت: فساد بنية الحيوان أو عرض لا يصحُّ معه إحساس معاقب للحياة ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: أنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاط به المحيط به، فهو مجاز، وهذه الجملة اعتراض لا محلَّ لها.

٢٠ - ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة، وكاد يُستعمل لتقريب الفعل جداً، وموضع يخطف نصب؛ لأنه خبر كاد ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ كل ظرف، وما نكرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد محذوف، أي: كل وقت أضاء لهم فيه، والعامل فيه جوابها وهو ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ أي: في ضوئه. وهو استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيلٌ لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون. إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطفَ أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وقر لمعانه بقوا واقفين. وأضاء: متعد، أي: كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف؛ أو غير متعد، أي: كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره. والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتدَّ فهو سعي، فإذا ازداد فهو عدوٌ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أظلم غير متعد. وذكر مع أضاء كلما، ومع أظلم إذا؛ لأنهم حراصٌ على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف ﴿قَامُوا﴾ وقفوا، وثبتوا

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا
النَّاسُ

في مكانهم، ومنه: قام الماء: إذا جدد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقصيف الرعد، ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ بوميض البرق. ومفعول شاء محذوف للدلالة الجواب عليه، أي: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء، وأراد: لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب، كنحو قوله:

فلو شئتُ أن أبكي دماً لَبَكَيْتُهُ عليه ولكن ساحة الصبرِ أوسعُ
وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا﴾ [الأنبياء: ١٧] و﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله قادرٌ على كل شيء.

٢١ - لما عدَّد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم، وما اختصَّت به كلُّ فرقة مما يسعدها، ويشقيها، ومحظيها^(١)، ويرديها أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾. قال علقمة: ما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو خطابٌ لأهل مكة، وما فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة. وهذا خطابٌ لشركي مكة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد - وأي والهمزة للقريب - ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بُعد ونأى، فإذا نُودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه مُعْتَنَى به جداً. وقول الداعي: يارب - وهو أقربُ إليه من حبل الوريد - استقصارٌ منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظانِّ الزلفى، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته. وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمال. وهو اسمٌ مبهمٌ يفتقرُ إلى ما يزيلُ إبهامه، فلا بُدَّ أن

(١) أي: عند الله تعالى.

أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً

يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه يتصف به، حتى يتضح المقصود بالنداء. فالذي يعمل فيه يا: أي. والتابع له صفته، نحو: يا زيد الظريف. إلا أن أياً لا يستقل بنفسه استقلال زيد، فلم ينفك عن الصفة. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يستحقه، أي: من الإضافة. وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة؛ لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه، ووعدته ووعيده، أمور عظام، وخطوب جسام، يحب عليهم أن يتقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت^(١) أن ينادوا بالآكد الأبلغ ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحذوه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كلُّ عبادة في القرآن فهي توحيد ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة؛ لأنهم كانوا يسمون الآلهة أرباباً. والخلق: إيجاد المعدم على تقدير واستواء. وعند المعترلة: إيجاد الشيء على تقدير واستواء. وهذا بناء على أنَّ المعدم شيء عندهم؛ لأنَّ الشيء ما صحَّ أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسم للموجود (خلقكم): بالإدغام، أبو عمرو ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم؛ لأنهم كانوا مقرّين بذلك، ف قيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا على رجاء أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب. ولعل للترجي والإطماع، ولكنه إطماع من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وبه قال سيبويه. قال قطرب: هو بمعنى كي، أي: لكي تتقوا.

٢٢ - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: صير. ومحل الذي نصب على المدح، أو رفع بإضمار هو ﴿فِرَاشًا﴾ بساطاً تقعدون عليها، وتنامون، وتقبلون، وهو مفعول ثان لجعل. وليس فيه دليل على أن الأرض مسطحة أو كروية إذ الافتراض ممكن على التقديرين ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

(١) أي: فاقتضت الحال.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

السَّمَاءُ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴿٢٢﴾ [الأنبياء: ٣٢] وهو مصدر سُمِّيَ به المني ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بالماء. نعم خروج الثمرات بقدرته ومشيئته وإيجاده، ولكن جعل الماء سبباً في خروجها، كماء الفحل في خلق الولد، وهو قادرٌ على إنشاء الكل بلا سبب، كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة، حكماً وعبراً للنظار بعيون الاستبصار. ومن في ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبعيض، أو للبيان. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول له إن كانت من للتبعيض، ومفعول به لأخرج إن كانت للبيان. وإنما قيل: الثمرات دون الثمر والثمار - وإن كان الثمر المخرج بماء السماء كثيراً - لأن المراد جماعة الثمرة، ولأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض؛ لالتقائها في الجمعية ﴿لَكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ هو متعلق بالأمر، أي: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أنداداً؛ لأنَّ أصل العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل له ند ولا شريك. ويجوز أن يكون ﴿الذي﴾ رفعا على الابتداء، وخبره ﴿فلا تجعلوا﴾ ودخول الفاء لأن الكلام يتضمن الجزاء، أي: الذي حقكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء. والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المنافي. ومعنى قولهم ليس لله ند ولا ضد: نفي ما يسد مسدّه، ونفي ما ينافيه ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها لا تخلق شيئاً، ولا ترزق، والله الخالق الرازق. أو مفعول تعلمون متروك، أي: وأنتم من أهل العلم، وجعل الأصنام لله أنداداً غاية الجهل. والجملة حال من الضمير في ﴿فلا تجعلوا﴾.

٢٣ - ولما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية، ويبطل الإشراك - لخلقهم أحياء قادرين، وخلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم، وخلق السماء التي هي

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

كالقبة المضروبة، والخيمة المطبّبة^(١) على هذا القرار، وما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلّة والمطلّة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقاً لبني آدم. فهذا كلّ دليل موصول إلى التوحيد، مبطل للإشراك؛ لأنّ شيئاً من المخلوقات لا يقدر على إيجاد شيء منها - عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يقرر إعجاز القرآن، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ الآية. ما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، والعبد: اسم لمملوك من جنس العقلاء. والمملوك: موجودٌ قهراً بالاستيلاء.

وقيل: نزلنا دون أنزلنا؛ لأن المراد النزول على سبيل التدرّج والتنجيم، وهو من محازة لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة، وآيات غبّ آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفزاً حيناً فحيناً شيئاً فشيئاً، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي النائر^(٢) بخطبه ضربة، فلو أنزل الله لأنزله جملة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على تدرّج: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي: فهااتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلاً؛ فإما أن تُسمّى بسور المدينة، وهو حائطها؛ لأنها طائفة من القرآن محدودة محوّرة على حيالها، كالبلد المسوّر، أو لأنها محتوية على فنون من العلم، وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها. وإما أن تسمّى بالسورة التي هي الرتبة؛ لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب، يترقى فيها القارئ، وهي أيضاً في نفسها مُرتّبة:

(١) «طَبَّ الخيمة»: جعل لها حبلاً طويلة وشدها بها.

(٢) في الأصل المخطوط: الناظر، والمثبت من المطبوع؛ لأنّ النائر يقابل الناظم.

مِنْ مَثَلِهِ

طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة بنائها^(١)، وجلالة محلّها في الدين. وإن كانت مُنْقَلَبَةً عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسورة التي هي: البقية من الشيء. وأما الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فهي كثيرة - ولذا أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه عليهم السلام مسورة مترجمة السور، وبوّب المصنّفون في كلّ فنّ كتبهم أبواباً مُوشَّحة الصدور بالتراجم - منها: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن من أن يكون بياناً واحداً. ومنها: أن القارئ إذا ختم سورة، أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس، والتحصيل منه، لو استمر على الكتاب بطوله. ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً. ومنها: أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفةً مستقلة بنفسها، ولها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجلّ في نفسه. ومنه حديث أنس - رضي الله عنه -: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا^(٢). ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل ﴿مِنْ مَثَلِهِ﴾ متعلق بسورة صفة لها. والضمير لما نزلنا، أي: بسورة كائنة من مثله. يعني: فأتوا بسورةٍ ممّا هو على صفته في البيان الغريب، وعلو الطبقة في حُسن النظم؛ أو لعبدنا، أي: فأتوا ممّن هو على حاله من كونه أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك. وردّ الضمير إلى المنزل أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ولأن الكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك: أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه، فإنّ المعنى: وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزل من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله. وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أنّ محمداً منزل عليه،

(١) في المطبوع: شأنها.

(٢) رواه أحمد (١٢٠/٣) وفيه: جدّ فينا، أي: عظم.

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا

فهااتوا قرآنًا من مثله، ولأنَّ هذا التفسير يلائمُ قوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ جمع شهيد؛ بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله، وهو متعلق بـ ﴿شهداءكم﴾ أي: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهةً من دون الله، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو من يشهد لكم بأنه مثل القرآن ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن ذلك مخلوق، وأنه من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا أنتم بمثله، واستعينوا بالهتكم على ذلك.

٢٤ - ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ لَمَّا أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرَّفون صدقَ النبي ﷺ قال لهم: فإذا لم تعارضوه، وبيان عجزكم، ووجِبَ تصديقُه فآمنوا، وخافوا العذاب المعدَّ لمن كذَّب وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدث به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ولما كان العجزُ عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم؛ لا تكالهم على فصاحتهم، واعتمادهم على بلاغتهم، سيق الكلام معهم على حسب حسابانهم، فجيء بـ ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ الذي للشك، دون إذا الذي للوجوب، وعبرَ عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعلٌ من الأفعال، والفائدة فيه: أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً، إذ لو لم يُعَدَلْ عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله. ولا محلَّ لقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لأنها جملةٌ اعتراضية. وحسن هذا الاعتراض أنَّ لفظ الشرط للتردُّد، فقطع التردُّد بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾. ولا ولن أختان في نفي المستقبل، إلا أنَّ في لن تأكيداً، وعن الخليل: أصلها لا أن، وعند الفراء لا، أبدلت ألفها نوناً. وعند سيبويه: حرفٌ موضوعٌ لتأكيد نفي المستقبل. وإنما علم أنه إخبارٌ عن الغيب على ما هو به، حتى صار معجزةً؛ لأنهم لو عارضوه بشيءٍ لاشتهر، فكيف والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه؟! وشرط في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورةٍ من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبيَّن عجزهم عن المعارضة صحَّ عندهم صدقُ الرسول، فإذا صحَّ

فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ

عندهم صدقُهُ، ثم لزموا العنادَ، وأبوا الانقياد استوجبوا النارَ، فقليل لهم: إن استبستم العجزَ فاتركوا العنادَ، فوضع ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتقاءَ النارِ سببُ تركِ العنادِ، وهو من باب الكناية، وهي من شُعَبِ البلاغة، وفائدته: الإيجاز الذي هو من حلية القرآن. والوقود: ما ترفعُ به النارُ، يعني: الخطب. وأما المصدر فمضمومٌ، وقد جاء فيه الفتح. وصلة الذي والتي يجبُ أن تكونَ معلوماً للمخاطب، فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب، أو من رسول الله، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]. وإنما جاءت النارُ مُنْكَرَةً ثُمَّ، ومعرفةً هنا؛ لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً. ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أنها نارٌ ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تَتَّقَدُ بالناس والحجارة. وهي حجارةُ الكبريت، فهي أشدُّ توقُّداً، وأبطأ خموداً، وأنتن رائحةً، وألصق بالبدن؛ أو الأصنام المعبودة، فهي أشدُّ تحسراً. وإنما قرنَ الناسَ بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث عبدوها، وجعلوها لله أنداداً، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبها، فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في إيلاهم ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هُيئت لهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ، خلافاً لما يقوله جهنم^(١).

٢٥ - سُنَّةُ اللَّهِ فِي كِتَابَةِ أَنْ يَذَكَرَ التَّرْغِيبَ مَعَ التَّرْهيبِ تَنْشِيطاً لِكِتَابَةِ مَا يُزَلَّفُ^(٢)، وَتَنْشِيطاً^(٣) عَنْ اقْتِرَافِ مَا يَتَلَفُ. فَلَمَّا ذَكَرَ الْكَفَّارَ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَوَعَدَهُمْ بِالْعِقَابِ قَفَّاهُ^(٤) بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْمَالِهِمْ، وَتَبَشِيرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ

(١) هو جَهَنَّمُ بن صفوان: ضالّ مبتدع، قتله نصر بن سيار سنة (١٢٨هـ).

(٢) «يزلف»: يُقَرَّبُ ويُقَدَّم.

(٣) «تنشيطاً»: تعويقاً وإشغالاً.

(٤) «قفّاه»: أتبعه.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّهُمْ جَنَّتِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. والمأمور بقوله ﴿وبشر﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو كل أحد، وهذا أحسن؛ لأنه يُؤذَنُ بَأَنَّ الأمرَ لعظمه، وفخامة شأنه محقَّقٌ بأن يبشِّر به كلٌّ من قدر على البشارة به. وهو معطوف على ﴿فاتقوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كقولك: زيد يُعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق. والبشارة: الإخبار بما يظهر سرور المخبر به، ومن ثم [قال العلماء]^(١) إذا قال لعبده: أيكم بشّرني بقدوم فلان فهو حرٌّ، فبشروه فرادى عتق أولهم؛ لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقي، ولو قال: أخبرني مكان بشّرني عتقوا؛ لأنهم أخبروه. ومنه البشارة: لظاهر الجلد، وتبشير الضُّبْح: ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فمن العكس في الكلام الذي يقصدُ به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به، كما يقول الرجلُ لعدوّه: أبشر بقتل ذريتكَ ونَهَب مالكَ. والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. والصالحات: كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقل، والكتاب، والسُّنة. واللام للجنس. والآية حُجَّةٌ على مَنْ جَعَلَ الأعمال إيماناً؛ لأنه عطف الأعمال الصَّالحة على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون: يجوزُ أن يدخل المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشّر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً؛ لأن البشارة المطلقة بالجنة شَرْطُها اقترانُ الأعمال الصَّالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة، بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة ﴿أَنَّهُمْ جَنَّتِ﴾ أي: بأنَّ لهم، وموضع أن وما عملت فيه: النصب ببشر عند سيئويه، خلافاً للخليل، وهو كثيرٌ في التزليل. والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف. والتركيب دائر على

(١) ما بين حاصرتين مستدرَك من المطبوع.

تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي

معنى الستر، ومنه: الجن، والجنون، والجنين، والجنة، والجنان، والجنان. وَسُمِّيَتْ دَارُ الثَّوَابِ جَنَّةً لِمَا فِيهَا مِنَ الْجَنَانِ. والجنة مخلوقة كقوله تعالى: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] خلافاً لبعض المعتزلة. ومعنى جمع الجنة وتنكيرها: أَنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ كُلِّهَا، وهي مشتملة على جنان كثيرة، ومرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجملة في موضع النصب صفة لجنات. والمراد: من تحت أشجارها، كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية، وأنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزله البساتين ما كانت أشجارها مظلمة، والأنهار في خلالها مطردة. والجري: الاطراد. والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال للنيل: نهر مصر، واللغة الغالبة: النَّهْرُ، ومدارُ التركيب على السعة. وإسناد الجري إلى الأنهار مجازي. وإنما عرف الأنهار لأنه يحتمل أن يراد بها أنهارها، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْلَ الرُّؤُوسِ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أو يُشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] الآية. والماء الجاري من النعمة العظمى، واللذة الكبرى؛ ولذا قرن الله تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية، وقدمه على سائر نعماتها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ صفة ثانية لجنات، أو جملة مستأنفة، لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخلُ خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس؟ فقبل: إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي: أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله ﴿مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أي: كلما رزقوا من الجنات - من أي ثمرة كانت، من: تفاحها، أو رمانها، أو غير ذلك - رزقاً، قالوا ذلك. ف(من) الأولى والثانية كلتاها لابتداء الغاية؛ لأن الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدأ من ثمرة. ونظيره أن تقول: رزقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من الرمان. وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة،

رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

أو الرمانة الفضة، وإنما المراد نوع من أنواع الثمار ﴿رُزِقْنَا﴾ أي: رزقناه، فحذف العائد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا، فلما قُطِعَ عن الإضافة بُني. والمعنى: هذا مثل الذي رزقنا من قبل، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾. وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد: أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. الضمير في «به» يرجع إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً، لأن قوله: ﴿هذا الذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ انطوى تحته ذِكْرُ ما رزقوه في الدارين. وإنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا، ولم تكن أجناساً أخرى؛ لأنَّ الإنسانَ بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفّر عنه طبعه، وعافته نفسه، لأنه إذا شاهد ما سلف له به عهدٌ، ورأى فيه مزية ظاهرة، وتفاوتاً بيئاً، كان استعجابه به أكثر، واستغرابه أوفر. وتكريرهم هذا القول عند كل ثمرة يرزقونها دليلٌ على تناهي الأمر، وتماذي الحال في ظهور المزية، وعلى أنَّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم في كل أوان. أو إلى الرزق^(١)، كما أنَّ هذا إشارة إليه. والمعنى: أن ما يُرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه، كما يُحكى عن الحسن: يُؤتى أحدهم بالصّحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى، فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل. فيقول الملك: كُلْ فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه عليه السلام: «والذي نفسُ محمد بيده! إنَّ الرجلَ من أهل الجنة ليتناولُ الثمرة ليأكلها فما هي بواصلةٍ إلى فيه حتى يبدلها الله مكانها مثلها^(٢)» فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. وقوله: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ جملة معترضة للتقرير، كقولك: فلان أحسن بفلان - ونعم ما فعل - ورأى من الرأي كذا، وكان صواباً. ومنه: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ أزواج: مبتدأ، ولهم الخبر، وفيها ظرف للاستقرار

(١) أي: الضمير في «به» عائد إلى الرزق.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٤٤٩) والبخاري (٣٥٣٠) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٥) بلفظ: «لا يترع رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا نبت مكانها مثلاًها».

مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من مساوىء الأخلاق، لا طمحات^(١) ولا مرحات^(٢)؛ أو مما يختصُّ بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من البول والغائط، وسائر الأقدار والأدناس. ولم تجمع الصفة كالموصوف لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقل: طاهرة لأن مطهرة أبلغ؛ لأنها تكون للتكثير، وفيها إشعارٌ بأن مُطَهَّرًا طَهْرُهُنَّ، وما ذلك إلا الله عز وجل ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخلد: البقاء الدائم الذي لا ينقطع. وفيه بطلان قول الجهمية، فإنهم يقولون بفناء الجنة وأهلها؛ لأنه تعالى وصف بأنه الأول والآخر، وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع، فيجب تحقيق وصف الآخرة بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقق بعد فناء الكل، فوجب القول به ضرورة، ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافه باقية، فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق، وذا محال. قلنا: الأول في حقِّه هو الذي لا ابتداءً لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاءً له، وفي حقنا الأول هو الفرد السابق، والآخر هو الفرد اللاحق. وأتصافه بهما لبيان صفة الكمال، ونفي النقيصة والزوال، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه. وأنى يقع التشابه في البقاء، وهو تعالى باقٍ لذاته، وبقاؤه واجب الوجود، وبقاء الخلق به، وهو جائز الوجود؟!

٢٦ - لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب به مثلاً، ضحكت اليهودُ، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها. وأصل الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يُعاب به ويُذمُّ. ولا يجوزُ على القديم التغير، والخوف، والذم. ولكن الترك لما كان من لوازمه عبَّر عنه به. ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة

(١) «لا طمحات»: لا يبغيضن أزواجهن، ولا ينظرن إلى غيرهم.

(٢) «لا مرحات»: المَرَح: التبخر والاختيال.

فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

فقالوا: أما يستحيي ربُّ محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت. فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال. وهو فنٌّ من كلامهم بديع. وفيه لغتان: التعدي بنفسه وبالجار، يقال: استحييته، واستحييت منه، وهما محتملتان هنا. وضرب المثل: صنعه، من: ضرب اللبن وضرب الخاتم و﴿ما﴾ هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد: أي كتاب كان. أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] كأنه قال: لا يستحيي أن يضرب مثلاً البتة. وبعوضة: عطف بيان لمثلاً، أو مفعول ليضرب، ومثلاً: حال من النكرة مقدّمة عليه، أو انتصبا مفعولين على أنَّ ضرب بمعنى جعل. واشتقاقها من البعض - وهو القطع - كالبضع والعضب يقال: بَعْضُ البعوض، ومنه: بعض الشيء لأنه قطعة منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقَطُوع فغلبت ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوزها، وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو: القلّة والحقارة. أو فما زاد عليها في الحجم، كأنه أراد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة. ولا يقال: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة، وهي النهاية في الصغر؛ لأنَّ جناح البعوضة أقلُّ منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للدنيا^(١) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للمثل، أو لأن يضرب. والحقُّ: الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يقال: حق الأمر؛ إذا ثبت ووجب ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل معنى الحق، وذو الحال الضمير المستتر فيه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ويوقف عليه؛ إذ لو وصل لصار ما بعده صفة له، وليس كذلك. وفي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ استحقار، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - في عبد الله

(١) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها شربة ماء» رواه الترمذي (٢٣٢٠).

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا

ابن عمرو: يا عجباً لابن عمرو هذا! مُحَقَّرَةٌ له. ومثلاً: نصب على التمييز، أو على الحال، كقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. و﴿أما﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذا يُجاب بالفاء، وفائدته في الكلام: أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيده، وأنه لا محالة ذاهب، قلت: أما زيد فذاهب؛ ولذا قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسير يفيد كونه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط. وفي إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إحداهما عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بليغ بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، وما: استفهاماً، فيكون كلمتين. وأن تكون ذا: مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً للاستفهام، فيكون كلمة واحدة. فما على الأول: رفع بالابتداء، وخبره: ذا مع صلته، أي: أراد، والعائد محذوف. وعلى الثاني منصوب المحل بأراد، والتقدير: أي شيء أراد الله. والإرادة مصدر أردت الشيء؛ إذا طلبته نفسك، ومال إليه قلبك، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص المفعولات بوجهٍ دون وجه. والله تعالى موصوفٌ بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة. وقال معتزلة بغداد: إنه تعالى لا يُوصَفُ بالإرادة على الحقيقة. فإذا قيل: أراد الله كذا، فإن كان فعله فمعناه أنه فعل، وهو غير ساهٍ ولا مكره عليه، وإن كان فعل غير فمعناه أنه أمر به ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما، وأن فريق العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به، كلاهما موصوفٌ بالكثرة، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة، وأهل الهدى كثيرٌ في أنفسهم، وإنما يوصفون بالقلّة بالقياس إلى أهل الضلال، ولأنّ القليل من المهتدين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة.

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا
وَالْإِضْلَالُ: خَلَقُ فِعْلُ الضَّلَالِ فِي الْعَبْدِ، وَالْهَدَايَةُ: خَلَقُ فِعْلُ الْاهْتِدَاءِ.

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

هذا هو الحقيقة عند أهل السُّنة. وسياق الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجُهْلَةُ من الكفار، واستغريه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضرراً بها المثل، ليس بموضع الاستنكار والاستغراب؛ لأنَّ التمثيل إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى، وإدناء المتوهم من المشاهد. فإن كان التمثيل له عظيماً كان التمثيل به كذلك، وإن كان حقيراً كان التمثيل به كذلك. ألا ترى أنَّ الحقَّ لما كان واضحاً جلياً تمثّل له بالضيء والنور، وأنَّ الباطل لما كان بضدَّ صفته تمثّل له بالظلمة. ولما كانت حالُ الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله لا حال أحقر منها، وأقلّ - ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً - لم يستنكر، ولم يستبدع، ولم يقل للتمثيل: استحي من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيبٌ في تمثيله، محقٌّ في قوله، سائقٌ للمثل على قضية مضربه. وبيان أنَّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق، وأنَّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأنَّ ذلك سبَّب هدى المؤمنين، وضلال الفاسقين. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك، وما زال الناسُ يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش^(١) الأرض، فقالوا: أجمع من ذرة، وأجراً من الذباب، وأسمع من قراد، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وأضعف من البعوضة، وأعز من مخ البعوض. ولكن ديدنُ المحجوج والمبهور أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح، وإنكار اللائح ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ هو مفعول يضل، وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأنَّ يضلّ لم يستوفِ مفعوله. والفسق: الخروج عن القصد. وفي الشريعة: الخروج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين، أي: بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة، وسيمرُّ عليك ما يبطله إن شاء الله.

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: وخشاش.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

٢٧ - ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ النقضُ: الفسخُ وفكُّ التركيب. والعهد: الموثق. والمرادُ بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحرارُ اليهود المتعتنون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. وعهد الله: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمرٌ وصَّاهم به، ووثقه عليهم. أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعثَ إليهم رسولٌ يصدِّقه الله بمعجزاته صدقوه، واتبعوه، ولم يكتموا ذكره. أو أخذَ الله العهدَ عليهم ألا يسفكوا دماءهم، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود، العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرؤوا بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، وعهد خصَّ به النبيين أن يبلغوا الرسالة، وقيموا الدين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] وعهد خصَّ به العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أصله من الوثاقة، وهي: إحكامُ الشيء. والضمير للعهد. وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله، وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكونَ بمعنى توثقته، كما أن الميعادَ بمعنى الوعد. أو لله تعالى، أي: من بعد توثقته عليهم. ومن: لابتداء الغاية ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هو قطعهم الأرحام وموالاته المؤمنين، أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض، وكفرهم ببعض. والأمر: طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء. وما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي. وأن يوصل: في موضع جرّ بدل من الهاء، أي: بوصله، أو في موضع رفع، أي: هو أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقطع السبيل، والتعويق عن الإيمان ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمْ﴾ فصل. والخبر ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونون، بحيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصّلاح، والعقاب بالثواب.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

٢٨ - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ معنى الهمزة التي في كيف مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أ تطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟! والواو في: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نطفاً في أصلاب آبائكم للحال و«قد» مضمرة. والأموات: جمع ميت، كالأقوال جمع قِيلَ. ويقال لعادم الحياة أصلاً: ميت أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون إلى الجزاء. أو: ثم يحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنشور. وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقي بضم؛ لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة، والحياة الثانية كذلك بتراخى عن الموت إن أريد النشور، وإن أريد إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً مترخ عن النشور. وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصّة التي ذكرها؛ لأنها مشتملة على آيات بيّنات تصرفهم عن الكفر، ولأنها تشتمل على نعم جسام حقها أن تُشكر ولا تُكفر.

٢٩ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة؛ لأن ملاذها تذكر ثوابها، ومكاريها تذكر عقابها. وقد استدل الكرخي وأبو بكر الرازي والمعتزلة بقوله ﴿خلق لكم﴾ على أن الأشياء التي يصح أن يُنتفع بها خلقت مباحة في الأصل ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ما ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود، أي: قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: أقبل وعمد إلى خلق

فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يَكْلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

السَّمَوَاتِ بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريدَ فيما بين ذلك خَلْقَ شَيْءٍ آخر، والمرادُ بالسماء: جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. الضمير في ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ مُبْهِمٌ يفسره ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كقولهم: رَبُّهُ رَجُلًا. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، ولفظها واحد، ومعناها الجمع؛ لأنها في معنى الجنس. ومعنى تسويتهم: تعديل خلقهن، وتقويمه، وإخلاؤه من العوج والفتور، أو إتمام خلقهن. و﴿ثم﴾ هنا لبيان فَضْلِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ على خَلْقِ الْأَرْضِ. ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] لأنَّ جرم الأرض تقدّم خَلْقُهُ خلق السماء، وأما دحواها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرضَ في موضع بيت المقدس كهَيْئَةِ الْفِهْرِ^(١)، عليها دخان ملترق بها، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿كَانَّا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو الالتراق ﴿وَهُوَ يَكْلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم. (وَهُوَ) وأخواته مدني غير ورش. (وَهُوَ): هو وأبو عمرو وعلي، جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة، فصار بمنزلة عضد، وهم يقولون في عَضُدٍ عَضُدٌ بالسكون.

٣٠ - ولما خلق الله تعالى الأرض أسكنَ فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفةً من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم. فأمر نبيّه عليه السلام أن يذكر قَصَّتَهُمْ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾. إذ نصب بإضمار اذكر. والملائكة: جمع ملائكة، كالشمائل جمع شمائل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أي: مُصَيِّرٌ، من جعل الذي له مفعولان، وهما ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وهو من يخلف غيره. فعيلة بمعنى فاعلة، وزيدت الهاء للمبالغة. والمعنى: خليفة منكم؛

(١) «الفهر»: الحَجَر.

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلقهم فيها آدم وذريته، ولم يقل خلّائف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد: من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم، فوحد لذلك. أو خليفة مني؛ لأن آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي، قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ أَنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم. أو ليعلم عباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يجهل. وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهة اللوح، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي: يصب. والواو في ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ للحال، كما تقول: أحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان؟! ﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك، ومتلبسين بحمديك، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ذَخَرُوا بِالْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي: دخلوا كافرين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونظهر أنفسنا لك. وقيل: التسبيح والتقديس: تبعيد الله من السوء، من سبّح في الأرض، وقدس فيها: إذا ذهب فيها، وأبعد ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من الحكم في ذلك ما هو خفي عليكم. يعني: يكون فيهم الأنبياء، والأولياء، والعلماء. وما: بمعنى الذي، وهو مفعول أعلم، والعائد: محذوف، أي: ما لا تعلمونه. (إني) حجازي وأبو عمرو.

٣١ - ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ هو اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر. واشتقاقهم آدم من أديم الأرض، أو من الأدمة، كاشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلّاس ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، إذ الاسم يدل على المسمى، وعوض منه اللام، كقوله تعالى:

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي آعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ولا يصحُّ أن يقدر: وعلم آدم مسميات الأسماء؛ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لأن التعليم تعلق بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله تعالى ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ و﴿أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم. ومعنى تعليمه أسماء المسميات: أنه تعالى أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات. وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلَّبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين، سفاكين للدماء. وفيه ردُّ عليهم، وبيان أنَّ فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا.

٣٢ - ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك. وأفادتنا الآية أن علم الأسماء فوق التخلي للعبادة، فكيف بعلم الشريعة؟! وانتصابه على المصدر تقديره: سبحت الله تسييحاً ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وليس فيه علم الأسماء. وما: بمعنى الذي. والعلم بمعنى المعلوم، أي: لا معلوم لنا إلا الذي علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ غير المعلم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضيت وقدرت. والكاف اسم إن، وأنت: مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر إن. أو ﴿أَنْتَ﴾ فصل، والخبر ﴿الْعَلِيمُ﴾ والحكيم: خبر ثان.

٣٣ - ﴿قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ سمى كل شيء باسمه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي آعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أعلم ما غاب فيهما عنكم،

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

ما كان، وما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرون.

٣٤ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: اخضعوا له، وأقروا بالفضل له. عن أبي بن كعب، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان ذلك انحناءً، ولم يكن خروراً على الذقن. والجمهور على أنَّ المأمور به وَضْعُ الوجه على الأرض. وكان السجود تحيةً لآدم - عليه السلام - في الصحيح، إذ لو كان الله تعالى لما امتنع عنه إبليس. وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى، ثم نُسِخَ بقوله ﷺ لسلمان حين أراد أن يسجد له: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحدٍ إلا لله تعالى»^(١) ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة، كذا قاله عليّ، وابن عباس، وابن مسعود - رضي الله عنهم - ولأن الأصل أنَّ الاستثناء يكون من جنس المستثنى منه. ولهذا قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] معناه صار من الجن كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِفِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقيل: الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصِّ، وهو قولُ الحسن وقَتادة، ولأنه خُلِقَ من نار، والملائكة خُلِقُوا من النور، ولأنه أبى، وعصى، واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَلَمْ تَحْذَرُوا ذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ولا نَسَلَ للملائكة. وعن الجاحظ: أنَّ الجنَّ والملائكة جنسٌ واحد، فمن طهر منهم فهو ملك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جِنٌّ ﴿أَبَى﴾ امتنع بما أمر به ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بآبائه، واستكباره، وردّه الأمر، لا بترك العمل بالأمر؛ لأنَّ ترك السجود لا يُخرج من إيمان، ولا يكون كفراً عند أهل السنة، خلافاً للمعتزلة والخوارج. أو كان من الكافرين في علم الله، أي: وكان في علم الله أنه يكفر بعد إيمانه، لا لأنه كان

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة. وأحمد (١٥٨/٣) من حديث أنس و(٨٦/٦) من حديث عائشة و(٢٢٧/٥) من حديث معاذ بن جبل.

وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتَيْنَكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

كافراً أبداً في علم الله. وهي مسألة الموافاة.

٣٥ - ﴿وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتَيْنَكَ أَتَيْنَكَ﴾ أمر من سكن الدار يسكنها سكنى: إذا أقام فيها. ويقال: سكن المتحرك سكناً ﴿أَتَيْنَكَ﴾ تأكيد للمستكن في اسكن؛ ليصح عطف ﴿وَزَوَّجُكَ﴾ عليه ﴿الْجَنَّةَ﴾ هي جنّة الخلد التي وعدت للمؤمنين؛ للنقل المشهور، واللام للتعريف. وقالت المعتزلة: كانت بستاناً باليمن؛ لأن الجنة لا تكليف فيها، ولا خروج عنها. قلنا: إنما لا يخرج منها من دخلها جزاء. وقد دخل النبي ﷺ ليلة المعراج، ثم خرج منها. وأهل الجنة يُكَلَّفُونَ المعرفة والتوحيد ﴿وَكَلَّا مِنْهَا﴾ من ثمارها، فحذف المضاف ﴿رَغَدًا﴾ وصف بالمصدر، أي: أكلاً رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ و(شِئْتُمَا) وبابه بغير همز، أبو عمرو. وحيث للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: الحنطة. ولذا قيل: كيف لا يعصي الإنسان، وقوته من شجرة العصيان؟ أو الكرمة؛ لأنها أصل كل فتنه، أو: التينة ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على: تقربا، أو نصب جواب للنهي ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم، أو من الضارين أنفسهم.

٣٦ - ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن الشجرة. أي: فحملهما الشيطان على الزلة بسببها. وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها. أو: فأزلهما عن الجنة بمعنى: أذهبهما عنها، وأبعدهما. (فَأَزَلَّهُمَا): حمزة. وزلة آدم بالخطأ في التأويل إما بحمل النهي على التنزيه دون التحريم، أو بحمل اللام على التعريف العهد، وكان الله تعالى أراد الجنس. وهذا دليل على أنه يجوز إطلاق اسم الزلة على الأنبياء عليهم السلام، كما قال مشايخ بخارى. فإنها اسم الفعل يقع على خلاف الأمر من غير قصد إلى الخلاف، كزلة الماشي في الطين. وقال مشايخ سمرقند: لا يطلق اسم الزلة على أفعالهم كما لا تطلق المعصية، وإنما يقال: فعلوا الفاضل، وتركوا الأفضل، فعوتبوا عليه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في ﴿عنها﴾. وقد توصل إلى إزالتهما بعد ما قيل له: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فإِنَّكَ رَجِيعٌ﴾ [الحجر: ٣٤] لأنه منع عن

وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة، لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وروي أنه أراد الدُّخُول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: قام عند الباب فنَادَى ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا﴾ الهبوط: النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية. والصحيح لآدم وحواء. والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومنتشعهم جعلاً كأنهما الإنس كلهم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المراد به: ما عليه النَّاسُ من التَّبَاغِي، والتعادي، وتضليل بعضهم لبعض. والجملة في موضع الحال من الواو في ﴿أَهْبِطُوا﴾ أي: أَهْبِطُوا متعادين ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرار ﴿وَمَتَعٌ﴾ وتمتَّع بالعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى الموت. قال إبراهيم بن أدهم: أورتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً.

٣٧ - ﴿فَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي: استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وينصب آدم ورفع^(١) كلمات: مكى، على أنها استقبلته بأن بلغته، واتصلت به، وهن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وفيه موعظةٌ لذريتهما حيث عرفوا كيفية السبيل إلى التنصُّل من الذنوب. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن أحبَّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت». وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: يارب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب! ألم تنفخ في روحي من روحك؟ ألم تسبق رحمتك غضبك؟ ألم تسكنني جنتك؟ وهو تعالى يقول: بلى، بلى. قال: فلم أخرجتني من الجنة؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: فلو تبت أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول، واكتفى بذكر توبة آدم؛

(١) أي: (فتلقى آدم من ربه كلمات).

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ

لأن حواء كانت تبعاً له. وقد طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الكثير القبول للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ على عباده.

٣٨ - ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ حال، أي: مجتمعين. وكرّر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأنّ الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض، أو لما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: رسول أبعته إليكم، أو كتاب أنزله عليكم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: بالقبول والإيمان به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا. والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إلي. (فلا خوف) بالفتح في كل القرآن: يعقوب.

٣٩ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها ومستحقوها. والجملة في موضع الرفع خبر المبتدأ، أعني: الذين ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٤٠ - ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو يعقوب - عليه السلام - وهو لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله، أو عبد الله. فإسرا هو العبد، أو الصفوة، وإيل: هو الله بالعبرية. وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذكرهم النعمة ألا يخلوا بشكرها، ويطيعوا مانحها. وأراد بها: ما أنعم به على آبائهم، مما عدّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم؛ وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَأَوْفُوا﴾ أدّوا وافيّاً تاماً. يقال: وفيت له بالعهد، فأنا واف به، وأوفيت له بالعهد، فأنا موفٍ به. والاختيار: أوفيت، وعليه نزل التنزيل ﴿بِعَهْدِي﴾ بما عاهدتوني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، أو من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما

وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. وعن قتادة هما: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمْ﴾ و﴿لَا كُفْرَنَ﴾ [المائدة: ١٢]. وقال أهل الإشارة: أوفوا في دار محنتي، على بساط خدمتي، بحفظ حرمتي، أوف في دار نعمتي، على بساط كرامتي، بسرور رؤيتي ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيدا رهبت. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وإيائي: منصوب بفعل مضمر دل عليه ما بعده، وتقديره: فأرهبوا إيائي فارهبون. وحذف الأول لأن الثاني يدل عليه. وإنما لم ينتصب بقوله ﴿فَأَرْهَبُونِ﴾ لأنه أخذ مفعوله، وهو الياء المحذوفة، وكسرة النون دليل الياء، كما لا يجوز نصب زيد في: زيدا فاضربه باضرب الذي هو ظاهر.

٤١ - ﴿وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة من الهاء المحذوفة، كأنه قيل: أنزلته مصدقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة. يعني: في العبادة، والتوحيد، والنبوة، وأمر محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: أول من كفر به، أو أول حزب، أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفة به وبصفته. والضمير في ﴿به﴾ يعود إلى القرآن ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِإِيتَانِي﴾ بتغيرها، وتحريفها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذاقها. وقيل: هو الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو اتبعوا رسول الله ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (فخافوني، فارهبوني، فاتقوني) بالياء في الحالين، وكذلك كل ياء محذوفة في الخط: يعقوب.

٤٢ - ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لبس الحق بالباطل: خلطه. والباء، إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء: خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم. وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك:

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾
 ﴿٤٥﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

كتب بالقلم كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ هو مجزوم، داخل تحت حكم النهي بمعنى: ولا تكتُموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وهما أمران متميزان؛ لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كَتَبِهِم في التوراة ما ليس منها. وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجد في التوراة صفة محمد، أو حكم كذا ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لا بسون، كاتمون، وهو أقبح لهم؛ لأن الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه.

٤٣ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ منهم؛ لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، أي: أسلموا وأعملوا عمل أهل الإسلام. وجاز أن يُراد بالركوع الصلاة، كما يُعبّر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بالصلاة مع المصلين، يعني: في الجماعة. أي: صلّوها مع المصلين لا منفردين.

٤٤ - ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ الهمزة للتقرير، مع التوبيخ، والتعجب من حالهم ﴿بِالْبِرِّ﴾ أي: سعة الخير والمعروف. ومنه: البرُّ لسعته. ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت، وبررت. وكان الأخبارُ يأمرُون مَنْ نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه الصلاة والسلام ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرُون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتركونها من البر، كالمُنسيات ﴿وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تبكيت، أي: تتلون التوراة وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة، وترك البر، ومخالفة القول بالعمل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

٤٥ - ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: بالجمع

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾
يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوسوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب، والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات والأرض؛ أو استعينوا على البلى والنائب بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع وصلى ركعتين، ثم قال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقيل: الصبر: الصوم، لأنه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر. وقيل: الصلاة: الدعاء، أي: استعينوا على البلى بالصبر، والالتجاء إلى الدعاء، والابتغال إلى الله في دفعه ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة، أو للاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقة ثقيلة، من قولك: كبر عليّ هذا الأمر ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ لأنهم يتوقعون ما أذخر للصابرين على متاعبها، فتهون عليهم، ألا ترى إلى قوله:

٤٦ - ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده، ويطمعون فيه. وفسر يظنون بيقنون لقراءة عبد الله^(٢): يعلمون، أي: يعلمون أنه لا بُدَّ من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. وأما من لم يؤقن بالجزاء، ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة. والخشوع والإخبات: التطامن، وأما الخضوع: فاللين والانقياد. وفسر اللقاء: بالرؤية، وملاقو ربهم: بمعانيه بلا كيف ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لا يملك أمرهم في الآخرة أحد سواه.

٤٧ - ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ نصب عطف على نعمتي، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على الجم الغفير من الناس، يقال: رأيت عالماً من الناس، والمراد: الكثرة.

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ في تفسيره (١/٢٦٠) من حديث حذيفة.

(٢) أي: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَأَنْتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

٤٨ - ﴿وَأَنْتَقُوا يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، وهو مفعول به، لا ظرف ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ أي: لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق التي لزمته. وشيئاً مفعول به، أو مصدر، أي: قليلاً من الجزء. والجملة منصوبة المحل صفة يوماً، والعائد منها إلى الموصوف محذوف تقديره: لا تجزى فيه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ (ولا تُقْبَلُ) بالتاء، مكى وبصري. والضمير في ﴿منها﴾ يرجع إلى النفس المؤمنة، أي: لا تقبل منها شفاعاة للكافرة. وقيل: كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فهو كقوله: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وتثبت المعتزلة بالآية في نفي الشفاعاة للعصاة مردود لأن المنفي شفاعاة الكفار وقد قال عليه الصلاة والسلام: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، من كَذَّبَ بها لم ينلها»^(١) ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية؛ لأنها معادلة للمفدى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُعَاوَنُونَ. وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة. وذكر لمعنى العباد أو الأناسي.

٤٩ - ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل آل: أهل؛ ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخص استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم، فلا يقال: آل الإسكاف والحجّام. وفرعون: عَلِمَ لمن ملك العمالة، كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من آل فرعون، أي: يولونكم، من: سامه خسفاً؛ إذا أولاه ظلماً. وأصله: من سام السلعة: إذا طلبها، كأنها بمعنى: يبيغونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه. ومساومة البيع: مزيدة، أو مطالبة. وسوء: مفعول ثان ليسومونكم، وهو مصدر سيء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل، يُراد: قبهما. ومعنى سوء العذاب - والعذاب

(١) رواه أحمد (٢١٣/٣) وأبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك، دون الجملة الثانية.

يُذِبحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

كله سىء-: أشدّه وأفظعه ﴿يُذِبحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾ ولذا ترك العاطف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة. وإنما فعلوا بهم ذلك؛ لأن الكهنة أئذروا فرعون بأنه يولد مولوداً يزول ملكه بسببه، كما أئذروا نمرود فلم يغن عنهما اجتهدهما في التحفّظ، وكان ما شاء الله ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية.

٥٠ - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: (فَرَقْنَا)، أي: فصلنا، يقال: فَرَّقَ بين الشيئين، وفَرَّقَ بين الأشياء؛ لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط ﴿بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكونه، ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم. أو فرقناه بسبيكم. أو فرقناه ملتبساً بكم، فيكون في موضع الحال. روي: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابنا؟ فنحن لا نرضى حتى نراهم! فأوحى الله إليه أن قل بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كوى، فترأوا^(١)، وتسامعوا كلامهم ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه، ولا تشكّون فيه.

٥١ - وإنما قال: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ لأن الله تعالى وعده بالوحي، ووَعَدُهُ: هو المحيء للميقات إلى الطور ﴿وَعَدْنَا﴾ حيث كان: بصري. لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون، ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتاً: ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وقال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهور غُرُرُهَا^(٢) بالليالي. وأربعين: مفعول ثان لواعدنا

(١) في الكشف (١/١٣٩): تراموا.

(٢) «الغُرَرُ»: جمع الغُرّة، وهي من الشهر: أوله، وليلة استهلال القمر.

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

لا ظرف؛ لأنه ليس معناه: واعدناه في أربعين ليلة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً، فحذف المفعول الثاني لاتخذتم. وبابه بالإظهار^(١)، مكي وحفص ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: بوضعكم العبادة غير موضعها، والجملة حال، أي: عبدتموه ظالمين.

٥٢ - ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ محونا ذنوبكم عنكم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد اتخاذه العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا النعمة في العفو عنكم.

٥٣ - ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاً يفرق بين الحق والباطل، وهو التوراة، ونظيره: رأيت الغيث والليث، تريد: الرجل الجامع بين الجود والجرأة؛ أو: التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات؛ أو: الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان: انفلاق البحر، أو: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا.

٥٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ للذين عبدوا العجل ﴿يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبوداً ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت. وفيه تقرير لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم؛ الذي برأهم أبرياء من التفاوت إلى عبادة البقر؛ الذي هو مثلٌ في الغباوة والبلادة ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهر، وهو البخع^(٢) وقيل: معناه: قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد، فقتل سبعون ألفاً

(١) وأدغم الذال (اتَّخَذْتُمْ) الباقون، وأبوبكر عن عاصم أيضاً. انظر كتاب السبعة (ص ١٥٥).

(٢) «البخع»: بَخَعَ نَفْسَهُ: قَتَلَهَا غِيظاً أَوْ غَمّاً.

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ من الإصرار على المعصية ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة وإن كبرت. والفاء الأولى للتسبيب؛ لأنَّ الظلم سببُ التوبة. والثانية للتعقيب؛ لأنَّ المعنى: فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، إذ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم. والثالثة متعلقة بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

٥٥ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، وانتصابها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال من نَرَى، أي: ذوي جهرة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. قيل: هي نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم. رُوي أنَّ السَّبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء، فأرنا الله جهرة. فقال موسى: سألته ذلك فأباه عليّ. فقالوا: إنك رأيت الله تعالى، فلن نُؤْمِنَ لك حتى نرى الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقةً فأحرقتهم. وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية؛ لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت. قلنا: إنما عُوقبوا بكفرهم؛ لأن قولهم: إنك رأيت الله فلن نُؤْمِنَ لك حتى نرى الله جهرة، كفر منهم. ولأنَّهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجبٌ بعد ظهور معجزتهم^(١)، ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم. ولأنهم لم يسألوا سؤالَ استرشادٍ، بل سؤالَ تعنتٍ وعناد ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾ إليها حين نزلت.

٥٦ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أحييناكم، وأصله: الإثارة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت.

(١) في المطبوع: معجزاتهم.

وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

٥٧ - ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام يظلكم. وذلك في التيه سحر الله لهم السحاب يسيرُ بسيرهم يظلمهم بسيرهم يظلمهم من الشمس، وينزل بالليل عموداً من نار يسرون في ضوءه، وثيابهم لا تتسخ، ولا تبلى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ الترنجيب، وكان ينزلُ عليهم مثل الثلج من طلوع الشمس، لكل إنسان صاع ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعثُ الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى، وهي السَّمَانَى، فيذبح الرجلُ منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذيات أو حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم: مفعول يظلمون، وهو خبر كان.

٥٨ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ قلنا لهم بعد ما خرجوا من التيه ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس، أو أريحاء، والقرية: المجتمع من: قريت، لأنها تجمع الخلق. أمروا بدخلولها بعد التيه ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية، أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها. وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام، وإنما دخلوا الباب في حياته، ودخلوا بيت المقدس بعده ﴿سُجَّدًا﴾ حال، وهو جمع ساجد. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى، وتواضعاً له ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فعله من الخط، كالجلسة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، أو أمرك حطة. والأصل النصب، وقد قرئ به بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات. وقيل: أمرنا حطة، أي: أن نحط في هذه القرية، ونستقر فيها. وعن علي - رضي الله عنه -: هو بسم الله الرحمن الرحيم. وعن عكرمة: هو لا إله إلا الله ﴿نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ جمع خطيئة، وهي الذنب (يُغْفَرُ)، مدني. (تُغْفَرُ)، شامي ﴿وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من كان محسناً منكم

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ

كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

٥٩ - ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه حذف، وتقديره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، فالذي مع الباء متروك، والذي بغير باء موجود. يعني: وضعوا مكان حطة قولاً غيرها. أي: أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة. وقيل: قالوا بالنبطية: حطا سميئاً، أي: حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ عذاباً. وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم، وإيدان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ صفة لرجز ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. روي أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

٦٠ - ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موضع إذ نصب، كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى، أي: استدعى أن يسقى قومه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: اضرب بعصاك الحجر. واللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم. فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعاً، له أربعة أوجه، كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وكانوا ستمئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. أو: الجنس، أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أي: فضرِبَ فانفجرت، أي: سألت بكثرة، أو فإن ضربت فقد انفجرت، وهي على هذا فاء فصيحة، لا تقع إلا في كلام بليغ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط. وقرىء بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. وعيناً: تمييز ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾ عينهم التي

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَنْتُمْ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ

يشربون منها ﴿كُلُوا﴾ وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء العيون ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الكل مما رزقكم الله ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها، والعيث: أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، أي: لا تتماذوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه.

٦١ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هو ما رُزِقوا في التيه من المن والسلوى. وإنما قالوا: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة، يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، ويراد بالوحدة: نفي التبدل والاختلاف. أو أرادوا: أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله، وقل له: أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُظْهِرْ لَنَا، ويوجد ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ هو ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به: أطيب البقول، كالنعناع، والكرفس، والكراث، ونحوهما مما يأكل الناس ﴿وَقِشَائِهَا﴾ يعني: الخيار ﴿وَفُؤْمِهَا﴾ هو الحنطة، أو الثوم، لقراءة ابن مسعود: وثومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ﴾ أقرب منزلة، وأدون مقداراً، والدنو والقرب يُعَبَّرُ بهما عن قلة المقدار ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أرفع، وأجل ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار، أي: انحدروا إليه من التيه. وبلاد التيه: ما بين بيت المقدس إلى قسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ؛ أو: مصر فرعون، وإنما صرفه مع وجود السبيين، وهما: التأنيث والتعريف؛ لإرادة البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط، وفيهما العجمة والتعريف ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيها ﴿مَآسًا أَنْتُمْ﴾ أي: فإن الذي سألتكم يكون في الأمصار، لا في التيه ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ أي: الهوان والفقر، يعني: جعلت الذلة محيطة بهم،

وَبَاءُ وَيَقْضِبُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

مشملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه. فاليهود صاغرون، أذلاء، أهل مسكنة وفقر، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. (عليهم الذلة) حمزة وعلي، وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة. وبكسر الهاء^(١) والميم، أبو عمرو. وبكسر الهاء وضم الميم، غيرهم ﴿وَبَاءُ وَيَقْضِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ من قولك: باء فلان بفلان: إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، أي: صاروا أحقاء بغضبه. وعن الكسائي: رجعوا ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة، والمسكنة، والخلافة بالغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ بالهمزة، نافع، وكذا باب. أي: ذلك بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء. وقد قتلت اليهود شعياً، وزكريا، ويحيى صلوات الله عليهم. والنبي من النبأ؛ لأنه يخبر عن الله تعالى، ففعل، بمعنى مفعول، أو بمعنى مفعول. أو: من نبا، أي: ارتفع. والنبوة: المكان المرتفع ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم أيضاً، فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئاً يستحقون به القتل عندهم، وهو في محل النصب على الحال من الضمير في يقتلون، أي: يقتلونهم مبطلين ﴿ذَلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي، واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتدائهم في السبت. ويجوز أن يُشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء، على أن ذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما، وغلوا حتى قست قلوبهم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء؛ أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

٦٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألستهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا، يقال: هاد يهود وتهود: إذا دخل في اليهودية، وهو

(١) أي: (عليهم).

وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

هائد، والجمع: هود ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران، كندمان وندامي، يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة، والياء في نصراني للمبالغة، كالتي في أحمرى. سُمُوا نصارى لأنهم نصروا المسيح ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من: صبا: إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. وقيل: هم يقرؤون الزبور ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وعمل «من آمن» الرفع إن جعلته مبتدأ خبره: «فلهم أجرهم» والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم، والفاء لتضمن من معنى الشرط.

٦٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بقبول ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: الجبل، حتى قبلتم، وأعطيت الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها. فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقطع^(١) الطور من أصله، ورفع فظله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. وقلنا لهم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب، أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب، وادرسوه، ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين.

٦٤ - ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق، والوفاء به ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد القبول ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب عنكم، أو

(١) في المطبوع: فقلع.

لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٢﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين في العذاب.

٦٥ - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ عرفتم، فيتعدى إلى مفعول واحد ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ هو مصدر، سبت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. وقد اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التجرد للعبادة، وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت، فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدّون مشارعها من البحر، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خبر كان، أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرود.

٦٦ - ﴿فَعَلَّانَهَا﴾ يعني: المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تُنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأن مسختهم ذُكرت في كُتُب الأولين، فاعتبروا بها، واعتبر بها مَنْ بلغتهم من الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل مُتَّقٍ سمعها.

٦٧ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى. وهو معطوف على نعمتي في قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كأنه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذ قال موسى. وكذلك هذا في الظروف التي مضت، أي: اذكروا نعمتي، واذكروا وقت إنجائنا إياكم، واذكروا وقت فرقنا، واذكروا نعمتي، واذكروا وقت استسقاء موسى ربه لقومه، والظروف التي تأتي إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتَنِي إِبراهيمَ ربه﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ﴾ أي: بأن

تَذَبَّحُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا اَلْتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ اَعُوذُ بِاللّٰهِ اَنْ اَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا اَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ اِنَّهُ يَقُوْلُ اِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيِّنَ ذٰلِكَ

﴿ تَذَبَّحُوا بِقَرَّةٍ ﴾ قال المفسرون: أول القصّة مؤخر في التلاوة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٧٢]. وذلك أن رجلاً موسراً اسمه عاميل، قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بديته، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليحيا، فيخبرهم بقاتله ﴿ قَالُوا اَلْتَّخَذْنَا هُزُوءًا ﴾ أجمعنا مكان هزء، أو أهل هزء، أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء. (هُزْءًا) بسكون الزاي والهمزة، حمزة. وبضمّتين والواو، حفص^(١). غيرهما بالثقل والهمزة ﴿ قَالِ اَعُوذُ بِاللّٰهِ ﴾ العياذ واللياذ من وادٍ واحد. ﴿ اَنْ اَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ ﴾ لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسّفه. وفيه تعريضٌ بهم، أي: أنتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء.

٦٨ - ﴿ قَالُوا اَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ سؤالٌ عن حالها وصفتها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهيتها، لأنّ ما وإن كانت سؤالاً عن الجنس، وكيف عن الوصف، ولكن قد تقع ما موقع كيف. وذلك أنهم تعجّبوا من بقرة ميتة، يُضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن. وما هي: خبر ومبتدأ ﴿ قَالَ اِنَّهُ يَقُوْلُ اِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ مُسِنَّة. وسُمّيت فارضاً لأنها فرضت ستها، أي: قطعتها، وبلغت آخرها، وارتفع فارض لأنه صفة لبقرة ﴿ وَلَا يَكْرُ ﴾ فتيّة، عطف عليه ﴿ عَوَانٌ ﴾ نصف ﴿ بَيِّنَ ذٰلِكَ ﴾ بين الفارض والبكر. ولم يقل: بين ذينك، مع أن بين يقتضي شيئين فصاعداً؛ لأنه أراد بين هذا المذكور. وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة: قلت لرؤية في قوله:

فيها خُطوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ كأنه في الجِلْدِ تَوَلَّعُ الْبَهَقِ^(٢)

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما.

(١) أي: (هُزْءًا). وانظر كتاب السبعة (١٥٩).

(٢) «بلق»: بياض. «تولّع»: تخطيط. «البهق»: بياض مشوب بكدره. وهو داء يتغيّر منه لون الجلد.

فَفَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْتُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا
هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

فقال: أردتُ كأن ذاك ﴿فَفَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به، أو أمركم بمعنى مأمورك، تسمية للمفعول بالمصدر، كضرب الأمير.

٦٩ - ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾ موضع ما: رفع؛ لأن معناه الاستفهام، تقديره: ادع لنا ربك يبين لنا أي شيء لونها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْتُهَا﴾ الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع. وهو توكيد لصفراء، وليس خبراً عن اللون، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل. ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها. وفي ذكر اللون فائدة التوكيد؛ لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد الصفرة صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ لحسنها. والشُرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقّعه. عن علي - رضي الله عنه -: من لبس نعلًا صفراء قلّ همّه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾.

٧٠ - ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها، وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. عن النبي ﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم»^(١) والاستقصاء شؤم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل. «وإن شاء الله» اعتراض بين اسم إن وخبرها. وفي الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»^(٢) أي: لو لم يقولوا إن شاء الله.

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٨٨) وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (١٨٩/١).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣٤٥/١).

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا
قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ
فِيهَا

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ صفة لبقرة بمعنى: بقرة غير ذلول. يعني: لم تذلل للكراب، وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولا هي من النواضح التي يُسنى^(١) عليها لسقي الحروث. ولا الأولى نافية، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى لا ذلول تثير الأرض، أي: تقلبها للزراعة، وتسقي الحرث، على أن الفعلين صفتان للذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب، وآثار العمل ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لُمعة في نُقبتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرننها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشياً وشية: إذا خلط بلونه لوناً آخر ﴿قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالاً في أمرها. (جِئْتَ) وبابه بغير همز، أبو عمرو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها، فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة في ظهور القاتل. روي أنه كان في بني إسرائيل شيخٌ صالح له عجلة، فأتى بها الغِضَّة^(٢)، وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبت البقرة، وكانت من أحسن البقر وأسمه. فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها^(٣) ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. وهذا البيان من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً. والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا، خلافاً للمعتزلة.

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير: واذكروا. خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا﴾ فاختلستم، واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ

(١) «يسنى»: يُسقى.

(٢) «الغِضَّة»: الشجر الكثير المُلتَفِّ.

(٣) «المسك»: الجِلْد.

وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْنُبُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ
وَرِيكُمۡ ءَايَتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

بعضُهم بعضاً، أي: يدفعه. أو تدافعتم بمعنى طَرَحَ قتلها بعضكم على بعض، فيدفع المطروح عليه الطارح. أو لأن الطرح في نفسه دفع. وأصله: تدارأتم، ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالاً لتصير من جنس الدال؛ التي هي فاء الكلمة، ليتمكن الإدغام، ثم سَكَنُوا الدال، إذ شرط الإدغام أن يكونَ الأول ساكناً، وزيدت همزة الوصل؛ لأنه لا يمكن الابتداء بالساكن (فاداراتم) بغير همز، أبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْنُبُونَ﴾ مُظْهَرٌ لا محالة ما كتتمت من أمر القتل، لا يتركه مكتوماً. وأعمل ﴿يُخْرِجُ﴾ على حكاية ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ. وهذه الجملة اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وهما (اداراتم) و:

٧٣ - ﴿فَقُلْنَا﴾ والضمير في ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ يرجعُ إلى النفس. والتذكير بتأويل الشخص والإنسان. أو: إلى القتل لما دلَّ عليه ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْنُبُونَ﴾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ببعض البقرة، وهو لسانها، أو فخذها اليمنى، أو عَجَبُهَا^(١). والمعنى: فضربه فحيي. فحذف ذلك لدلالة: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ عليه. رُوي أَنَّهُمْ لما ضربه قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان وفلان، لابني عمه، ثم سقط ميتاً، فأخذوا، وقتلوا. ولم يورث قاتل بعد ذلك. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ إما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن النبي ﷺ، وإما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتل بمعنى: وقلنا لهم: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ يوم القيامة ﴿وَرِيكُمۡ ءَايَتِهِۦ﴾ دلائله على أنه قادر على كل شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعملون على قضية عقولكم، وهي أن: من قدر على إحياء نفس واحدة، قدر على إحياء جميعها؛ لعدم الاختصاص.

والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها - وإن قدر على إحيائه بلا واسطة

(١) «عَجَبُهَا»: العَجَب من كل شيء: مؤخره.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً

التقرب به:- الإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور، والمسارة إلى امثال أوامر الله من غير تفتيش، وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرايئهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم. وكان ينبغي أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها. ولكنه تعالى إنما قصَّ قصصَ بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها. وهاتان القصتان - وإن كانتا متصلتين - فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما تبعه من الآلة العظيمة. وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب المراد في ثنية التقريع. ولقد رُوِعت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصّة برأسها، أن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة. وقيل: هذه القصة تشير إلى أن من أراد إحياء قلبه بالمجاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات.

٧٤ - ومعنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: استبعاد القسوة ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها. وصفة القلوب بالقسوة مثل لبونها عن الاعتبار والاتعاظ. من بعد ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتل، أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ منها. وأشد: معطوف على الكاف، تقديره: أو مثل أشد قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو هي في أنفسها أشد قسوة. يعني: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها، وهو الحديد مثلاً. أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

وَلِإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وإنما لم يقل أفسى لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس، كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم ﴿وَلِإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ﴾ بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ «ما» بمعنى الذي، في موضع النصب، وهو اسمُ إن، واللام للتوكيد، والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَلِإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَى﴾ أصله يشقق، وبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيئا، وأدغمت ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ يعني: أنَّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير، ومنها: ما ينشق انشقاقاً بالطول، أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً، وقلوبهم لا تندى ﴿وَلِإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ﴾ يتردى من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قيل: هو مجاز عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى: أنه يخلق فيها الحياة والتمييز. وليس شرط خلق الحياة، والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السُنَّة، وعلى هذا قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١]. يعني: وقلوبهم لا تخشى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالباء، مكى. وهو وعيد.

٧٥ - ﴿أَفَنُظْمِعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم، ويستجيبوا لكم، كقوله تعالى: ﴿فَقَامَ لَمْ يُؤْطَ﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني: اليهود ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة ﴿ثُمَّ يَحْرِفُونَ﴾ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ، وآية الرجم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه، وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا، فلهم سابقة في ذلك.

٧٦ - ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي: المنافقون، أو اليهود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي:

قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ إِلَهًا عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرَهُمْ لِيُحَاجُّوهُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكَمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيً

المخلصين من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوا﴾ عاتبين عليهم. ﴿اتَّخَذُوا لَهُمْ﴾ أتخبرون أصحاب محمد ﷺ ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوهُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكَمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. جعلوا محتاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله تعالى هكذا، وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وقيل: هذا على إضمار المضاف، أي: عند كتاب ربكم. وقيل: ليجادلوكم، ويخاصموكم به، بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة يقولون: كفرتم بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه حُجّة عليكم حيث تعترفون به، ثم لا تتابعونه.

٧٧ - ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

٧٨ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُونَ﴾ لا يحسنون الكتب، فيطالعوا التوراة، ويتحقّقوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِيً﴾ إلا ما هم عليه من أمانيتهم، وأنّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم، ولا تمسّهم النار إلا أياماً معدودة؛ أو: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد، ومنه قول عثمان - رضي الله عنه -: ما تمنيت منذ أسلمت. أو: إلا ما يقرؤون، من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَا قَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ^(١)

(١) «تمنى كتاب الله»: تلاه. «الحمام»: الموت.

وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ أَيْدِيهِمْ بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتَا مَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

أي: لا يعلمون هؤلاء حقيقة المنزل، وإنما يقرؤون أشياء أخذوها من أحبارهم. والاستثناء منقطع ﴿وَأِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوتك بالظن. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم، ثم العوام الذين قلدوهم.

٧٩ - ﴿قَوْلٌ﴾ في الحديث: «ويلٌ وادٍ في جهنم»^(١) ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلاً. وذكر الأيدي للتأكيد، وهو من مجاز التأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ أَيْدِيهِمْ بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا﴾ عوضاً يسيراً ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا.

٨٠ - ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتَا مَا مَعْدُودَةٌ﴾ أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد - رضي الله عنه -: كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴿أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم: إما أن تكون معادلة، أي: أتقولون على الله ما تعلمون، أم تقولون عليه ما لا تعلمون، أو منقطعة، أي: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون؟!.

٨١ - ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد النفي، وهو: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ﴾ أي: بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركاً، عن

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد رقم «٣٤٤» من حديث أبي سعيد الخدري.

وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

ابن عباس ومجاهد وغيرهما - رضي الله عنهم - ﴿وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ وسدّت عليه مسالك النجاة، بأن مات على شركه. فأما إذا مات مؤمناً فأعظم الطاعات، وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنب محيطاً به، فلا يتناول النص. وبهذا التأويل يبطل تشبث المعتزلة والخوارج. وقيل: استولت عليه كما يحيط العدو، ولم يتفصّ عنها بالتوبة^(١). (خطيأته) مدني ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٨٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٨٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الميثاق: العهد المؤكّد غاية التأكيد.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر. وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سُورِع إلى الامتثال والانتهاء، وهو يخبر عنه. وتنصّره قراءة أبي ﴿لا تعبدوا﴾، وقوله: ﴿وقولوا﴾ والقول مضمّر. (لا يعبدون) مكّي وحزمة وعليّ؛ لأن بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة كلّها غيب. ومعناه: ألا يعبدوا، فلما حذفت «أن» رفع. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا، ليلتم عطف الأمر، وهو قوله: ﴿وقولوا﴾ عليه. ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الذي: فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَا يَتِمُّ بَعْدَ الْبُلُوغِ»^(٢). ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي: أسكنته الحاجة. ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه.

(١) «يتفص عنها»: يتخلص.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث عليّ.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْثَمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ ﴿٨٥﴾

(حَسَنًا) حمزة وعلي. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض، والتولية عن الموائق.

٨٤ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً، أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه؛ لأنه يقتضيه منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ﴾ بالميثاق، واعترفتهم على أنفسهم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها، كما تقول: فلان مقر على نفسه بكذا، شاهد عليها. أو: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم يامعشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

٨٥ - ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم، وشهادتهم. أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: بمعنى الذين. ﴿تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ صلة هؤلاء، وهؤلاء مع صلته: خبر أنتم. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ﴾ غير مراقبين ميثاق الله. ﴿تَبْظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتخفيف، كوفي. أي: تتعاونون. وبالتشديد، غيرهم. فمن خفف فقد حذف إحدى التاءين. ثم قيل: هي الثانية؛ لأن الثقل بها، وقيل: الأولى. ومن شدد قلب التاء الثانية ظاء، وأدغم. ﴿بِالْإِلْثَمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم. ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أسارى تَقْدُوهم: أبو عمرو. أسرى تُفَادُهم: مكي وشامي. أسرى تَقْدُوهم: حمزة، أسارى تفادوهم علي. فدى وفادى بمعنى. وأسارى: حال، وهو جمع أسير، وكذلك أسرى. ﴿وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الضمير للشأن، أو هو ضمير مبهم تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾

أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴿﴾ بفداء الأسرى ﴿﴾ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴿﴾ بالقتال والإجلاء. قال السدي: أخذ الله عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ﴾ هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وهو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرح، أو إلى أشد من عذاب الدنيا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالباء، مكى، ونافع، وأبو بكر.

٨٦ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ اختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم.

٨٧ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، أتاه جملة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال: قفاه: إذا اتبعه من القفا، نحو: ذنبه من الذنب. وقفاه به: إذا أتبعه إياه: يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل. وهم يوشع، وأشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقيال، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ هي بمعنى: الخادم. ووزن مريم عند النحويين مفعول؛ لأن فعلاً لم يثبت في الأبنية. البيّنات: المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: الطهارة. وبالسكون^(١) حيث كان: مكى. أي: بالروح المقدسة، كما

(١) سكون الدال (القدس).

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يقال: حاتم الجود. ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب. أو بجبريل عليه السلام. لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب. وذلك لأنه رفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. أو بالإنجيل كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. أو باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظمتن عن قبوله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ولم يقل: قتلتم لوفاق الفواصل، أو لأنَّ المراد: وفريقاً تقتلونه بعد؛ لأنكم تحومون^(١) حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه، وسَمِمت له الشاة. والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم، فكلما جاءكم رسولٌ منهم بالحق استكبرتم عن الإيمان به. فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجب من شأنهم.

٨٨ - ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: هي خلقة مغطاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه. مستعار من الأغلف الذي لم يُختن. ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فردَّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة والتمكّن من قبول الحق. وإنما طردهم بكفرهم وزينهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «فقليلًا» صفة مصدر محذوف، أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون و«ما» مزيدة. وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: القلة بمعنى العدم. وقيل: غُلْفٌ تخفيف غُلْف، وقرئ به، جمع: غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. أو أوعية للعلوم، فلو كان ما جئت به حقاً لقبلنا.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾
يَتَسَكَّمُ أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

٨٩ - ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: اليهود. ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه. ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم، قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان؛ الذي نجد نعته في التوراة، ويقولون لأعدائهم المشركين: قد أظلل زمانٌ نبيٌّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ ما موصولة، أي: ما عرفوه، وهو: فاعل جاء ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرئاسة ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: عليهم، وضماً للظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أنَّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد؛ أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أولياً. وجواب لما الأولى مضمرة، وهو نحو: كذبوا به، أو أنكروه. أو «كفروا» جواب الأولى والثانية؛ لأن مقتضاهما واحد.

٩٠ - و«ما» في ﴿يَتَسَكَّمُ﴾ ما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بش، أي: بش شيئاً. ﴿أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوه. والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له، أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة ﴿اشترؤا﴾ ﴿أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل، أي: حسدوه على أن ينزل الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف؛ لأنهم كفروا بنبي الحق؛ وبغوا عليه. أو كفروا بمحمد بعد عيسى عليهما الصلاة والسلام. أو بعد قولهم ﴿عُزِّرُوا بَيْنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وغير ذلك. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلٌّ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا
 وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
 وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
 ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

(يُسْمَا) وبابه غير مهموز: أبو عمرو، و(يُنزِل) بالتخفيف: مكي وبصري.

٩١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء اليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: القرآن،
 أو هو مطلق يتناول كل كتاب. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: التوراة
 ﴿وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم يكفرون بما وراء
 التوراة. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ غير مخالف له. وفيه ردٌ لمقالتهم؛ لأنهم
 إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ومصدقاً: حال مؤكدة ﴿قُلْ فَلِمَ
 تَقُولُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ﴾ أي: فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي، ويدل عليه
 قوله ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: من قبل محمد ﷺ. اعتراض عليهم
 بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة. والتوراة لاتسوغ قتل الأنبياء.
 قيل: قتلوا في يوم واحد ثلاثمائة نبي في بيت المقدس.

٩٢ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات التسع. وأدغم الدال في
 الجيم حيث كان، أبو عمرو وحمزة وعلي. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنُ
 بَعْدِهِ﴾ من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هو
 حال، أي: عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. أو: اعتراض،
 أي: وأنتم قوم عادتكم الظلم.

٩٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾
 كرّر ذكر رفع الطور؛ لما ينط به من زيادة ليست مع الأولى ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما
 أمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. وطابق قوله
 جوابهم من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة،

وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرْكُم بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ
خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

فقالوا: سمعنا، ولكن لاسماع طاعة ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الثوب الصبغ. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيان لمكان الإشراب. والمضاف - وهو الحب - محذوف ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، واعتقادهم التشبيه ﴿قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرْكُم بِهِ﴾ إيمانكم ﴿بِالتَّوْرَةِ﴾؛ لأنه ليس في التوراة عبادة العجل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم. وكذا إضافة الإيمان إليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم، وقدح في صحة دعواهم له.

٩٤ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ظرف. ولكم: خبر كان. ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار الآخرة، أي: سالمة لكم، ليس لأحد سواكم فيها حق. يعني: إن صح قولكم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ هو للجنس ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون؛ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها؛ تخلصاً من الدار ذات الشوائب، كما نقل عن العشرة المبشرين بالجنة أن كل واحد منهم كان يحب الموت، ويحضر إليه.

٩٥ - ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ هو نصب على الظرف، أي: لن يتمنوه ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما أسلفوا من الكفر بمحمد ﷺ، وتحريف كتاب الله، وغير ذلك. وهو من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب. وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]. ولو تمنوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوْذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزَقٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّ يُعْمَرُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

٩٦ - ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ مفعولا وجد: ﴿هم﴾ و﴿أحرص﴾

﴿عَلَى حَيَوتِهِ﴾ التنكير يدلُّ على أن المراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: (على الحياة) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس. نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس، ولكنهم أفردوا بالذكر، لأنَّ حرصهم شديدٌ، كما أن جبريل وميكائيل خصّا بالذكر وإن دخلتا تحت الملائكة. أو أريد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف للدلالة «أحرص الناس» عليه. وفيه توبيخٌ عظيم؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم. فإذا زاد في الحرص من له كتاب، وهو مقرٌّ بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صاترون إلى النار، لعلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقوله: ﴿يُوْذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. وقيل: أراد بالذين أشركوا: المجوس؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ كلام مبتدأ، أي: ومنهم ناس يوذُّ أحدهم، على حذف الموصوف. والذين أشركوا على هذا مشارٌ به إلى اليهود؛ لأنهم قالوا: عزيز ابن الله ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْزَقٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الضمير لأحدهم، وقوله: ﴿أَن يُعْمَرَ﴾ فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ مبهماً و﴿أن يعمر﴾ موضحة. والزحزحة: التبعيد، والإنحاء. قال في «جامع العلوم» وغيره: ﴿لو يعمر﴾ بمعنى: أن يعمر. فلو هنا نائبة عن أن، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، وهو مفعول يوذُّ، أي: يوذُّ أحدهم تعمير ألف سنة ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعمل هؤلاء الكفار، فيجازيهم عليه. وبالتالي، يعقوب.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

٩٧ - ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز^(١)، مكى، وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعا، كوفي غير حفص، وبكسر الراء والجيم بلا همز، غيرهم. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. ومعناه: عبدالله؛ لأن جبر هو العبد بالسريانية، وإيل اسم الله. روي أن ابن سوريا - من أحابار اليهود - حاج النبي ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي. فقال: «جبريل». فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مرارا، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله فلقية ببايل غلاما مسكينا، فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم، فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي ذنب تقتلون^(٢)؟! ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فإن جبريل نزل القرآن. ونحو هذا الإضمار، أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره، فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته، كأنه يدلّ على نفسه، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: حفظه إياك. وخصّ القلب لأنه محلّ الحفظ، كقوله: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]. وكان حق الكلام أن يقال: على قلبي، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به، وإنما استقام أن يقع (فإنه نزل) جزاء للشرط؛ لأنّ تقديره: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتاباً مُصَدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويصحّ المنزل عليهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: مَنْ كان عدوًّا لجبريل فليمت غيظاً، فإنه نزل الوحي على قلبك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ردّ على اليهود حين قالوا: إنّ جبريل ينزل بالحرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل

(١) أي (لجبريل) و(لجبرئيل).

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨ و ١٩).

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
 لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
 أَوْ كَلِمَاتٍ عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

بالهدى والبشرى أيضاً. (بإذن الله) حال من ضمير الفاعل في نزل، أي: مأذوناً له، ومصدقاً: حال من الهاء في نزله، وكذا هدى وبشرى؛ أي: هادياً ومبشراً. وقالت الباطنية: القرآن لم ينزل على رسول الله بالأحرف التي نقرأها، ولكنه إلهام أنزل على قلبه؛ إلا أن محمداً ﷺ عبّره بالعربية، وبهذه الحروف التي نقرأها، فالقرآن ذلك الباطن لا هذه الألفاظ لقوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ ولكننا نقول: هذا فاسد؛ لأن الله تعالى جعله معجزاً بنظمه العجيب حيث قال: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وهذا يتعلق بالنظر.

٩٨ - ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بصري وحفص، و(ميكائيل) باختلاس الهمزة كميكايل، مدني، و(ميكائيل) بالمد وكسر الهمزة مشبعة، غيرهم. وخصّ الملكان بالذكر لفضلهما، كأنهما من جنس آخر، إذ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات ﴿فَأَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم. فجاء بالظاهر ليدلّ على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله.

٩٩ - ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة. واللام للجنس. والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال ابن سوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتبعك بها، فنزلت^(١).

١٠٠ - الواو في ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ﴾ للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات البينات وكلما ﴿عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ﴾ نقضه، ورفضه. وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنّ منهم من لم ينقض. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا
الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ

شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً، ولا يبالون به.

١٠١ - ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ
فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة. والذين أوتوا الكتاب: اليهود.
﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: التوراة؛ لأنهم بكفروهم برسول الله ﷺ المصدق لما
معهم كفروا بها، نابذون لها. أو: كتاب الله: القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم
تلقيه بالقبول ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثلٌ لتركهم، وإعراضهم عنه. مثلٌ بما يُرمى به
وراء الظهر استغناء عنه، وقلة التفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب
الله.

١٠٢ - ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ أي: نبذ اليهود كتاب الله، واتبعوا كتب
السحر والشعوذة؛ التي كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ﴾ أي: على عهد ملكه،
وفي زمانه. وذلك أَنَّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمُّون إلى ما
سمعوا أكاذيب يلقونها، ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوَّنوها في كتب يقرؤونها
ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن
الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تمَّ لسليمان ملكه إلا
بهذا العلم، وبه سحر الجن، والإنس، والريح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ تكذيب
للشياطين، ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر، والعمل به. ﴿وَلَكِنَّ
الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر، وتدوينه. (ولكن)،
بالتخفيف (الشياطين) بالرفع: شامي وحمزة وعلي ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ في
موضع الحال، أي: كفروا معلِّمين الناس السحر، قاصدين به إغواءهم،
وإضلالهم ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ الجمهور على أن «ما» بمعنى: الذي.
وهو نصب عطف على السحر. أي: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. أو
على ﴿ما تتلوا﴾ أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ

علمان لهما، وهما عطف بيان للملكين. والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، إن كان فيه ردّ ما لزم في شرط الإيمان. ومن تجنّبه، أو تعلمه لا يعمل به، ولكن ليتوقّاه، ولئلا يغتر به كان مؤمناً. قال الشيخ أبو منصور الماتريدي - رحمه الله ^(١):- القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك ردّ ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا. ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث. وما ليس بكفر، وفيه إهلاك النفس، ففيه حكم قطاع الطريق، ويستوي فيه الذكور والإناث، وتقبل توبته إذا تاب. ومن قال: لا تقبل فقد غلط، فإن سحرة فرعون قُبلت توبتهم. وقيل: ﴿أُنْزِلَ﴾ أي: قذف في قلوبهما مع التّهي عن العمل. قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عَيَّرَتْ بني آدم، فكانا يحكما في الأرض، ويصعدان بالليل فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر، فزنيا، فراهما إنسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذبان منكوسين في جبّ بابل. وسُمِّيَتْ بابل لتبلبل الألسن بها ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿حَتَّى يَقُولَا﴾ حتى ينبهاه، وينصّحاه، ويقولوا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء، واختبار من الله. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلمه، والعمل به على وجه يكون كفراً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الفاء عطف على قوله ﴿يَعْلَمُونَ الناس السحر﴾، أي: يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دلّ عليهما قوله ﴿كفروا﴾ و﴿يَعْلَمُونَ الناس السحر﴾؛ أو على مضمر، والتقدير: فيأتون فيتعلّمون. والضمير لما دلّ عليه (من أحد) أي: فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: علم السحر الذي يكون سبباً في

(١) هو محمد بن محمد: من أئمة علماء الكلام. له «التوحيد» و«تأويلات أهل السنة» وغير ذلك، توفي سنة (٣٣٣ هـ).

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنْظَرْنَا

التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه. وللسر حقيقة عند أهل السنة - كثرتهم الله - وعند المعتزلة هو تخييل، وتمويه ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه، ومشيتته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآخرة. وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب، كتعلم الفلسفة التي تجرُّ إلى الغواية ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ من نصيب. ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ باعوها. وإنما نفى العلم عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مع إثباته لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ على سبيل التوكيد القسمي؛ لأن معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم لا يعلمون.

١٠٣ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله، فتركوا ما هم عليه من نبد كتاب الله. واتباع كتب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه - وقد علموا - لكنه جهلهم لما تركوا العمل بالعلم، والمعنى: لأثبوا من عند الله ما هو خير. وأوثر الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة، واستقرارها. ولم يقل لمثوبة الله خير؛ لأنَّ المعنى: لشيء من الثواب خير لهم. وقيل ﴿لو﴾ بمعنى التمني، كأنه قيل: وليتهم آمنوا. ثم ابتداء ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

١٠٤ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها

وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا

عبرانية أو سريانية، وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا
افترضوه^(١)، وخاطبوا به الرسول، وهم يعنون به تلك المسبة. ففي المؤمنين
عنها، وأمرها بما هو في معناها، وهو ﴿انظرونا﴾ من نظره: إذا انتظره.
﴿وَأَسْمِعُوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ويلقي عليكم من
المسائل، بأذان واعية، وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وطلب
المراعاة. أو: واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم كسماع اليهود
حيث قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَاللْكَافِرِينَ﴾ وللإهود الذين سبوا رسول الله
ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

١٠٥ - ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾
وبالتخفيف^(٢)، مكي وأبو عمرو ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الأولى للبيان؛ لأنَّ
الذين كفروا جنس، تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون. والثانية: مزيدة
لاستغراق الخير. والثالثة: لابتداء الغاية. والخير: الوحي، وكذلك: الرحمة
﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يُوحى
إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، والله يختصُّ
بالنبوة من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فيه إشعارٌ بأن إيتاء النبوة من
الفضل العظيم.

١٠٦ - ولما طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر،
ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، نزل:
﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾. تفسير النسخ لغة: التبديل. وشرعة: بيان انتهاء
الحكم الشرعي المطلق؛ الذي تقرّر في أوهامنا استمراره، بطريق التراخي. فكان

(١) «افترضوه»: اغتتموه وانتزهوه.

(٢) أي: (أَنْ يُنَزَّلَ).

نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
 تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

تبديلاً في حقنا، بياناً محضاً في حق صاحب الشرع. وفيه جواب عن البداء الذي يدعيه منكروه، أعني: اليهود. ومحلّه: حكم يحتمل الوجود والعدم في نفسه لم يلحق به ما ينافي النسخ من توقيت أو تأييد ثبت نصّاً أو دلالة. وشرطه: التمكن من عقد القلب عندنا دون التمكن من الفعل، خلافاً للمعتزلة. وإنما يجوزُ النسخُ بالكتاب والسنة متفقاً ومختلفاً. ويجوزُ نسخ التلاوة والحكم، والحكم دون التلاوة، والتلاوة دون الحكم، ونسخ وصف بالحكم؛ مثل الزيادة على النص. فإنه نسخ عندنا خلافاً للشافعي - رحمه الله - والإنساء: أن يذهب بحفظها عن القلوب. أو (نَسَاهَا) مكي وأبو عمرو، أي: نَوَخَرَهَا، من نَسَات، أي: أخرت ﴿نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: نَأْتٍ بآية خير منها للعباد، أي: بآية العمل بها أكثر للشواب ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ في ذلك، إذ لا فضيلة لبعض الآيات على البعض ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر، فهو يقدرُ على الخير، وعلى مثله.

١٠٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها، وهو أعلم بما يتبعّدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

١٠٨ - ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ أم منقطعة، وتقديره: أتريدون ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد! اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسع لنا أرض مكة. فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلّة، وشكّ فيها، واقترح غيرها. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قصده، ووسطه.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ

١٠٩ - ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أن يردوكم ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا﴾ حال من «كُم» أي: يردونكم عن دينكم كافرين. نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق لما هُزِمتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعول له، أي: لأجل الحسد، وهو: الأسف على الخير عند الغير ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ يتعلق بوَدَّ، أي: ودوا من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: من بعد علمهم بأنكم على الحق، أو بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بالقتال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ على الانتقام منهم.

١١٠ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من حسنة صلاة، أو صدقة، أو غيرها ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تجدوا ثوابه عنده ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل.

١١١ - والضمير في ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلفَّ بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمناً من الإلباس لما عُلِمَ من التعادي بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما صاحبه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

وهود: جمع هائد، كعائد وعوذ. ووَحَدَ اسم كان للفظ مَنْ، وجمع الخبر لمعناه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أشير بها إلى الأمانى المذكورة، وهي أمانيتهم ألا ينزل على المؤمنين خيرٌ من ربهم، وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمانيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم. والأمنية: أفعولة من التمني، مثل: الأضحوكة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هلموا حُجَّتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. وهات بمنزلة هاء، بمعنى: أحضر. وهو متصل بقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، و﴿تِلْكَ أَمَانِيهِمْ﴾ اعتراض ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١١٢ - ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ مَنْ أخلص نفسه له، لا يشرك به غيره. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُصَدِّقٌ بالقرآن ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ جواب ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾. وهو كلامٌ مبتدأ مُضْمَنٌ لمعنى الشرط. و﴿بَلَىٰ﴾ ردٌ لقولهم: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١١٣ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: على شيء يصح، ويُعتدُّ به. والواو في: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ للحال. والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحقٌّ مَنْ حمل التوراة والإنجيل، وآمن به، ألا يكفر بالباقي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الكتابين مُصَدِّقٌ للآخر ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك القول الذي سمعت به ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام، والمعطلة، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخٌ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَنْ لا يعلم

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: بين اليهود والنصارى بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب اللائق به.

١١٤ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ موضع ﴿مَنْ﴾ رفع على الابتداء، وهو استفهام، و﴿أظلم﴾ خبره. والمعنى: أي أحد أظلم. و﴿أَنْ يُذَكَرَ﴾ ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعه كذا، ومثله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن، أي: من أن يذكر، وأن تنصبه مفعولاً له، بمعنى منعها كراهة أن يذكر. وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم. والسبب فيه طرح النصارى في بيت المقدس الأذى، ومنعهم الناس أن يصلوا فيه، أو: منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. وإنما قيل: ﴿مساجد الله﴾ وكان المنع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس، أو المسجد الحرام؛ لأن الحكم ورَدَ عامّاً، وإن كان السبب خاصاً، كقوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بانقطاع الذكر. والمراد ب﴿مَنْ﴾: العموم، كما أريد العموم بمساجد الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إِلَّا خَافِفِينَ﴾ حال من الضمير في يدخلوها، أي: على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها، ويلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وقيل: ﴿ما كان لهم﴾ في حكم الله يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. رُوي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا مُتَنَكِّراً خيفة أن يُقتل. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا بولغ ضرباً. ونادى رسول الله ﷺ: «ألا لا يحجَّن بعد هذا العام

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٨﴾

مشارك^(١). وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي للحربي، وذلة بضرب الجزية للذمي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: النار.

١١٥ - ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب كلها له، وهو مالِكها، ومتولّيها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ شرط. ﴿تُولُوا﴾ مجزوم به. أي: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني: تولية وجوهكم شطر القبلة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَوْلِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] والجواب: ﴿فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم إذا مُنِعْتُمْ أَنْ تَصَلُّوا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَوْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَدْ جُعِلَتْ لَكُمْ الْأَرْضُ مَسْجِدًا، فَصَلُّوا فِي آيَةِ بَقْعَةٍ شَتَمْتُمْ مِنْ بَقَاعِهَا، وَافْعَلُوا التَّوْلِيَةَ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوْلِيَةَ مِمَّا فِي كُلِّ مَكَانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الرحمة، يريد التوسعة على عباده، وهو عليم بمصالحهم. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فعُدّروا. وهو حُجَّةٌ على الشافعي - رحمه الله - فيما إذا استدبر. وقيل: فأينما تولوا للذكر والدعاء.

١١٦ - ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. (قالوا) شامي. فإثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ما قبلها، وحذفه باعتبار أنه استئناف قصّة أخرى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، وتبديد ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقه ومالِكه، ومن جملته المسيح، وعزير. والولادة تنافي الملك ﴿كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره. والتثوين في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: كل ما في

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ

السموات والأرض، أو كل من جعلوه لله ولداً ﴿له قانتون﴾ مطيعون، عابدون، مقرّون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم. وجاء بما الذي لغير أولي العلم، مع قوله: قانتون، كقوله: سبحانه ما سخر^(١) لنا.

١١٧ - ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق. وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له: أبدعت. ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة: مبتدع؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون - رضي الله عنهم - ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: حكم، أو: قدر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هو من كان التامة، أي: أخذت فيحدث. وهذا مجاز عن سرعة التكوين، وتمثيل، ولا قول ثم. وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور، وأراد كونه، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما [أن] المأمور المطيع الذي يؤمر فيمثل [لا يتوقف، ولا يمتنع]^(٢) ولا يكون منه إباء. وأكد بهذا استبعاد الولادة؛ لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام، فأنتى يتصور التوالد ثم؟! والوجهُ الرفع في ﴿فَيَكُونُ﴾ وهو قراءة العامة على الاستئناف، أي: فهو يكون. أو على العطف على يقول. ونصبه ابن عامر على لفظ ﴿كن﴾ لأنه أمر، وجواب الأمر بالفاء نصب. وقلنا: إن ﴿كن﴾ ليس بأمر حقيقة، إذ لا فرق بين أن يقال: وإذا قضى أمراً فإنما يكونه فيكون، وبين أن يقال: فإنما يقول له كن فيكون. وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب. وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطب به الموجود، والموجود لا يخاطب بكن، أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب.

١١٨ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب. ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم

(١) في المطبوع: سخركن.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

الملائكة، وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوًّا ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها.

١١٩ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت، وبلغت جهدك في دعوتهم؟ وهو حال كندرياً، وبشيراً، وبالحق، أي: وغير مسؤول، أو: مستأنف. قراءة نافع: (ولا تسأل)، على النهي. ومعناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية. فيقال لك: لا تسأل عنه. وقيل: نهى الله نبيه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟»^(١).

١٢٠ - ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك - وإن أبلغت في طلب رضانا - حتى تتبع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فذكر الله عز وجل كلامهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي رضي لعباده ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ أي: الإسلام. وهو الهدى كله، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى أتباعه ما هو هدى، إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أقوالهم التي هي أهواء ويدع ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو: من الدين المعلوم

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/٢٣٤).

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

صحته بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر.

١٢١ - ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ صلته. وهم مؤمنو أهل الكتاب، وهو: التوراة والإنجيل؛ أو أصحاب النبي ﷺ، والكتاب: القرآن ﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال مقدرة من هم؛ لأنهم لم يكونوا تالين له وقت إتيائه، ونصب على المصدر ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته في الترتيل، وأداء الحروف، والتدبر، والتفكير. أو: يعملون به ويؤمنون بما في مضمونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ والجملة خبر: الذين. ويجوز أن يكون يتلونه: خبراً، والجملة خبر آخر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

١٢٢ - ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنعمتها عليكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم.

١٢٣ - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هم: رفع بالابتداء، والخبر: ينصرون، والجمل الأربع وصف ليوماً. أي: واتقوا يوماً لا تجزى فيه، ولا يقبل فيه، ولا تنفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه. وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

١٢٤ - ﴿وَإِذْ﴾ أي: واذكر إذ ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ اختبره بأوامر ونواه. والاختبار منا: لظهور ما لم نعلم. ومن الله: لإظهار ما قد علم. وعاقبة الابتلاء: ظهور الأمر الخفي في الشاهد والغائب جميعاً؛ فلذا تجوز إضافته إلى الله

فَاتَّمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

تعالى. وقيل: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين^(١)، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله -: (إبراهيمُ ربِّه) برفع إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -. أي: دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر، هل يجيبه إليهن أم لا^(٢) ﴿فَاتَّمَهُنَّ﴾ أي: قام بهن حق القيام، وأذاهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان. ونحوه ﴿وَاتَّبَعَهُمُ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. ومعناه في قراءة أبي حنيفة - رحمه الله - فأعطاه ما طلبه، لم ينقص منه شيئاً. والكلمات على هذا: ما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا ثَبِّثْ لَنَا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]. والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس: الفرق، وقصّ الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في الجسد: الحتان، وتقليم الأظفار، ونف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي ثلاثون سهماً من الشرائع، عشر في براءة ﴿التَّكْوِينِ﴾ الآية [التوبة: ١١٢]. وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنين والمعارج إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ والمعارج: ٣٤]. وقيل: هي مناسك الحج^(٣) ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو اسم

(١) أي: ما يريد الله تعالى، وما يشتهي العبد.

(٢) «الابتلاء»: الاختبار والامتحان، وابتلاء الله تعالى يرجع إلى إعلامه عباده؛ لا إلى استعلامه؛ لأنه يعلم ما يكون، فلا يحتاج إلى الابتلاء ليعلم. والمعنى: أنه عامله معاملة المختبر، وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: أنها عشر خصال من السنة؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد. (من تفسير الوسيط).

(٣) قال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام: يا خليلي أن تطهر، فتمضمض، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فاستاك، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأخذ شارب، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ ففرق شعره، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر فاستنجد، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر فحلق عانته، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فتنف إبطه، فأوحى الله تعالى إليه أن =

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِیَّتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً
وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّیً

من يؤتم به، أي: يأتون بك في دينهم ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به. ذرية الرجل: أولاده ذكورهم وإنائهم فيه سواء. فعليّة من الذرء، أي: الخلق، فأبدلت الهمزة ياء ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بسكون الياء، حمزة وحفص. أي: لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك، أي: أهل الكفر. أخبر أن إمامة المسلمين لا تثبت لأهل الكفر. وأن من أولاده المسلمين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]. والمحسن: المؤمن، والظالم: الكافر. قالت المعتزلة: هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. قالوا: وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المثل السائر: «من استرعى الذئب ظلم»^(١). ولكننا نقول: المراد بالظالم الكافر هنا، إذ هو الظالم المطلق. وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبياً كما كان هو، فأخبر أن الظالم لا يكون نبياً.

١٢٥ - ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِیَّتَ﴾ أي: الكعبة، وهو اسم غالب لها، كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمْنَاً﴾ وموضع أمن، فإن الجاني يأوي إليه، فلا يُعَرَّضُ له حتى يخرج. وهو دليل لنا في الملتجىء إلى الحرم ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّیً﴾ وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه أخذ بيد عمر فقال: «هذا مقام إبراهيم» فقال عمر: أفلا تتخذة مصلى؟ فقال ﷺ: «لم أؤمر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت^(٢). وقيل: مصلى: مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه

= تطهر؛ فقلتم أطفاله، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأقبل بوجهه على جسده ماذا يصنع؟ فاختنن بعد عشرين ومئة سنة. (من تفسير الوسيط).

(١) انظره في مجمع الأمثال للميداني (١/٢٦٠، ٢٢٦ و ٢/٣٠٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: رواه أبو نعيم. (الكشاف ١/١٨٥). ورواه ابن أبي داود في المصاحف (كثر العمال ٣٨١٠٧).

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ
مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ
الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

أثر قدميه. وقيل: الحرم كله مقام إبراهيم. (وَاتَّخَذُوا) شامي ونافع بلفظ الماضي، عطفاً على جعلنا، أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به؛ لاهتمامه به، وإسكان ذريته عنده، قبله يصلون إليها. ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي﴾ بفتح الباء، مدني وحفص. أي: بأن طهراً، أو: أي: طهراً. والمعنى: طهراه من الأوثان، والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ للدائرين حوله ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي: أقاموا لا يرحون، أو المعتكفين. وقيل: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ للزراع إليه من البلاد ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: والمقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والمصلين، جمعا راع وساجد.

١٢٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: اجعل هذا البلد، أو هذا المكان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن، كعيشة راضية، أو: آمناً من فيه، كقولك: ليل نائم. فهذا مفعول أول، وبلداً مفعول ثان، وآمناً صفة له ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ لأنه لم يكن له ثمرة. ثم أبدل ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من أهله، بدل البعض من الكل، أي: وارزق المؤمنين من أهله خاصة. قاس الرزق على الإمامة فخص المؤمنين به ﴿قَالَ﴾ الله تعالى جواباً له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: وأرزق من كفر ﴿فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا﴾ تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً إلى حين أجله. فأمتعته، شامي ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أجهه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع الذي يصير إليه، النار. فالخصوص بالذم محذوف.

١٢٧ - ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ حكاية حال ماضية ﴿الْقَوَاعِدَ﴾ هي جمع قاعدة، وهي: الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها: الثابتة. ورفع الأساس: البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتناولت بعد التقاصر ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ بيت الله، وهو: الكعبة

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ هو عطف على إبراهيم، وكان إبراهيم يبي، وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولان ربنا. وهذا الفعل في محلّ النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ تَقَرَّبْنَا إِلَيْكَ ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرننا، ونياتنا. وفي إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام تفخيمٌ لشأن المبين.

١٢٨ - ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أو مستسلمين، يقال: أسلم له، واستسلم: إذا خضع، وأذعن. والمعنى: زدنا إخلاصاً، وإذعاناً لك ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ﴾. ومن للتبعيض، أو للتبيين. وقيل: أراد بالأمّة أمة محمد ﷺ. وإنما خصّاً بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة، كقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ منقول من رأى؛ بمعنى: أبصر، أو عرف؛ ولذا لم يتجاوز إلى مفعولين، أي: وبصّرنا متعبداتنا في الحج، أو عرفناها. وواحد المناسك: منسك، بفتح السين وكسرها، وهو: المتعبد، ولهذا قيل للعباد: ناسك. (وأرنا) مكى، قاسه على فخذ في فخذ. وأبو عمرو: يشمُّ الكسرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ ما فرط منا من التقصير، أو استتابا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢٩ - ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمّة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». أي: إن أمانة رأت أنه خرج منها نور ملاءمكة^(١) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم، ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل وحدانيتك،

(١) رواه أحمد (١٢٧/٤) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٦٠٠/٢) والبزار كما في كشف الأستار (٢٣٦٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ
عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئَ

وَصِدْقُ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة،
وفهم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُغْلَبُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت.

١٣٠ - ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استفهام بمعنى: الجحد، وإنكار أن
يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح؛ الذي هو ملة إبراهيم. والملة:
السنة والطريقة، كذا عن الزجاج ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محل الرفع على البدل من الضمير
في: يرغب. وصح البدل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد
إلا زيد؟! والمعنى: وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: جهل
نفسه، أي: لم يفكر في نفسه، فوضع «سفه» موضع «جهل»، وعدي كما
عدي. أو معناه: سفه في نفسه، فحذف في، كما حذف من في قوله: ﴿وَأَخْتَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه، و«على» في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَءُوا
عُقْدَةَ النَّكاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: على عقدة النكاح. والوجهان عن
الزجاج. وقال الفراء: هو منصوب على التمييز، وهو ضعيف لكونه معرفة
﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيان لخطأ رأي من يرغب
عن ملته، لأن من جمع كرامة الدارين لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه.

١٣١ - ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه، أو انتصب بإضمار اذكر؛ كأنه قيل:
اذكر ذلك الوقت؛ لتعلم أنه المصطفى الصالح؛ الذي لا يرغب عن ملة مثله
﴿لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ أذعن، أو: أطع، أو: أخلص دينك لله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ أي: أخلصت، أو انقدت.

١٣٢ - ﴿وَوَصَّى﴾ (وأوصى)، مدني وشامي ﴿بِهَا﴾ بالملة، أو بالكلمة،
وهي ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو معطوف على
إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً ﴿يَبْنَئَ﴾

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ وَإِزْهَعَمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

على إضمار القول ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي: أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، ووفقكم للأخذ به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهأ عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في صلاته.

١٣٣ - ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء: جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب - عليه السلام -؛ إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب للمؤمنين، بمعنى: ما شهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. أو متصلة، ويقدر قبلها محذوف. والخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية. كأنه قيل: أتمدعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟! ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ الأولى، والعامل فيهما شهداء، أو ظرف لحضر ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾: ما: استفهام في محل نصب بتعبدون، أي: أي شيء تعبدون. وما: عام في كل شيء. أو هو سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد تريد أفقيه أم طيب؟ ﴿مِن بَعْدِي﴾ من بعد موتي ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ﴾ أعيد ذكر الإله؛ لثلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِزْهَعَمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل من جملة آبائه، وهو عمه؛ لأنَّ العم أب. قال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»^(١) ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك، كقوله: ﴿يَا نَاصِيَّةَ﴾ نَاصِيَّةٌ كَذِبٌ ﴿[العلق: ١٥ - ١٦] أو نصب على الاختصاص، أي: نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٩/١٢).

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَأُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
 وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

حال من فاعل نعبد، أو: جملة معطوفة على نعبد، أو: جملة اعتراضية مؤكدة.

١٣٤ - ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة؛ التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره، متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك لا فتخارهم بأبائهم ﴿وَلَا تُنْشَأُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم.

١٣٥ - ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جزم لأنه جواب الأمر ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل تتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه، نحو: رأيت وجه هند قائمة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، لأن كلاً منهم يدعي اتباع ملة إبراهيم، وهو على الشرك.

١٣٦ - ﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين، أو للكافرين، أي: قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ السبط: الحافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ. والأسباط: حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ويُعدى أنزل بإلى وعلى، فلذا ورد هنا بإلى، وفي آل عمران بعلى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى. و«أحد» في معنى الجماعة؛ ولذا صح دخول بين عليه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لله مخلصون.

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ

١٣٧ - ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا﴾ ظاهر الآية مشكل، لأنه يوجب أن يكون لله تعالى مثل، وتعالى عن ذلك. فقيل: الباء زائدة، ومثل صفة مصدر محذوف، تقديره: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، والهاء يعود إلى الله عز وجل. وزيادة الباء غير عزيز، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧] والتقدير: جزاء سيئة مثلها، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقيل: المثل: زيادة، أي: فإن آمنوا ما آمنتم به، يؤيده قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: ﴿بما آمنتم به﴾ وما: بمعنى الذي؛ بدليل قراءة أبي ﴿بالذي آمنتم به﴾. وقيل: الباء للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتك التي آمنتم بها ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما تقولون لهم، ولم ينصفوا، أو إن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: فما هم إلا في خلاف وعداوة، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم. وقد أنجز وعده بقتل بعضهم، وإجلاء بعض، ومعنى السين: أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون من الحسد والغِل، وهو معاقبهم عليه، فهو وعيد لهم، أو: وعد لرسول الله ﷺ، أي: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك، وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك، وموصلك إلى مرادك.

١٣٨ - ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ دين الله. وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وهي فعلة من: صبغ، كاجلسة من: جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ. والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله، وصبغنا الله

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ

بالإيمان صبغته، ولم نصبغ صبغتك. وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان. تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييز، أي: لا صبغة أحسن من صبغته، يريد: الدين، أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على ﴿آمنا بالله﴾ وهذا العطف يدل على أن قوله ﴿صبغة الله﴾ داخل في مفعول ﴿قولوا آمنا﴾ أي: قولوا هذا وهذا، ونحن له عابدون، ويرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من: ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن الثمامة. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيويه، والقول ما قالت حذام.

١٣٩ - ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في شأن الله، واصطفائه النبي من العرب دونكم؟ وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا؟ وترونيكم أحق بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ يعني: أن العمل هو أساس الأمر، وكما أن لكم أعمالاً فلنا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن له موحدون، نُخْلِصُهُ^(١) بالإيمان وأنتم به مشركون. والمخلص أخرى بالكرامة، وأولى بالنبوة من غيره.

١٤٠ - ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء: شامي وكوفي، غير أبي بكر. وأم على هذا معادلة للهمزة في: أتجاجوننا، يعني: أي الأمرين تأتون: الحاجة في حكم الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ أو منقطعة، أي: بل أتقولون؟ يقولون، غيرهم بالياء. وعلى هذا لا تكون الهمزة إلا منقطعة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن

قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِنَا آلَتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾

يقول مستفهماً، راداً عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾. يعني: أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها، وهي: شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها. أو: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحدٌ أظلم منا فلا نكتمها. وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. و«من» في قوله ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان؛ إذا شهدت له، في أنها صفة لها ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

١٤١ - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررت للتأكيد، أو لأنَّ المراد بالأول الأنبياء عليهم السلام، وبالثاني: أسلاف اليهود والنصارى.

١٤٢ - ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الخفاف الأحلام، فأصل السفه: الخفة. وهم اليهود لكرهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ؛ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء؛ أو: المشركون لقولهم: رغب عن قبله آياته، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم. وفائدة الإخبار بقولهم قبل وقوعه توطين النفس، إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يُراش السهم ﴿مَا وَلَدَهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَنْ قِبَلِنَا آلَتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس. والقبلة: الجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة؛ لأنَّ المصلِّي يقابلها ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها له ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق مستو. أي: يرشد من يشاء إلى قبلة الحق، وهي الكعبة التي أمرنا بالتَّوَجُّه

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

إليها. أو الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، فتارة إلى الكعبة، وطوراً إلى بيت المقدس، لا اعتراض عليه؛ لأنه المالك وحده.

١٤٣ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ ومثل ذلك جعل العجيب جعلناكم. فالكاف: للتشبيه، وذا: جر بالكاف، واللام: للفرق بين الإشارة إلى القريب والإشارة إلى البعيد، والكاف: للخطاب لا محل لها من الإعراب ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً. وقيل للخيار: وسط؛ لأنَّ الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأوساط محمية. أي: كما جعلت قبلكم خير القبل جعلتكم خير الأمم. وعلة جعل أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل، وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدهم. أو: عدولاً، لأن الوسط عدلٌ بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض. أي: كما جعلنا قبلكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم أمة وسطاً بين الغلو والتقصير؛ فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزنى، وعيسى بأنه ولد الزنى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ غير منصرف لمكان ألف التانيث ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ صلة شهداء ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ عطف على ﴿لتكونوا﴾ روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينه على أنهم قد بلغوا - وهو أعلم - فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم، ويشهد بعدالتهم. والشهادة قد تكون بلا مشاهدة، كالشهادة بالتسامع في الأشياء المعروفة. ولما كان الشهيد كالقريب جيء بكلمة الاستعلاء، كقوله تعالى: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقيل: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ في الدنيا فما لا يصح إلا بشهادة العدول

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ

الأخبار ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ يزكّكم، ويعلم بعد التكم. واستدل الشيخ أبو منصور - رحمه الله - بالآية على أن الإجماع حجة؛ لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة. والعدل: هو المستحق للشهادة وقبولها. فإذا اجتمعوا على شيء، وشهدوا به، لزم قبوله. وأخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؛ لأنّ المراد في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ وهي الكعبة. فالتى كنت عليها ليست بصفة للقبلة، بل هي ثاني مفعولي جعل. روي أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة، تأليفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة. [وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بخلاف ما يقوله الشافعي لأن التوجه إلى بيت المقدس ثبت بوحى غير متلوّ وقد نسخ بالكتاب] ^(١) ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ التى تحب أن تستقبلها، الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ أولاً بمكة، إلا امتحاناً للناس وابتلاء؛ لنعلم الثابت على الإسلام الصادق فيه ممن هو على حرف ينكص ﴿على عقبيه﴾ لقلقه يرجع فيرتدّ عن الإسلام عند تحويل القبلة. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى قوله ﴿لنعلم﴾ أي: لنعلم كائناً أو موجوداً ما قد علمناه أنه يكون ويوجد. فالله تعالى عالمٌ في الأزل بكل ما أراد وجوده، أنه يوجد في الوقت الذي شاء وجوده فيه. ولا يوصف بأنه عالمٌ في الأزل بأنه موجودٌ كائن؛ لأنه ليس بموجود في الأزل فكيف يعلمه موجوداً؟ فإذا صار موجوداً يدخل تحت علمه الأزلي فيصير معلوماً له موجوداً كائناً. والتغير على المعلوم لا على العلم. أو: لتمييز التابع من الناكص، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز؛ لأنّ العلم به يقع التمييز. أو: ليعلم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم

(١) كذا في الأصل المخطوط، وهو ساقط من المطبوع.

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلُوبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قَبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

خواصه. أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم، كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقه في النار لنعلم أيدوب؟ ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: التحويلة، أو: الجعلة، أو القبلة. وإن هي المخففة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: ثقيلة شاقة، وهي خبر كان. واللام: فارقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: هداهم الله، فحذف العائد. أي: إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. سَمَّى الصَّلَاةَ إِيْمَانًا؛ لأن وجوبها على أهل الأيمان، وقبولها من أهل الإيمان، وأداؤها في الجماعة دليل الإيمان. لما توجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا؟ فترلت، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ﴾ ^(١) مهموز مشبع، حجازي، وشامي، وحفص. (رؤف) غيرهم بوزن فعل، وهما للمبالغة ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يضيع أجورهم. والرأفة أشد من الرحمة. وجمع بينهما كما في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

١٤٤ - ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُوبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردّد وجهك، وتصرّف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله ﷺ يتوقّع من ربّه أن يحوِّله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم، ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم، ومزارهم، ومطافهم ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ فلنعطينك، ولنمكّنك من استقبالها، من قولك: وليته كذا: إذا جعلته والياً له؛ أو: فلنجعلك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿قَبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تحبها، وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها، ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: نحوه. وشطر: نصب على الظرف. أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد، أي: في جهته وسمته؛ لأن استقبال عين القبلة متعسّر على النائي. وذكر المسجد

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٧٨/١).

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين. روي أنه ﷺ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة^(١) ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ من الأرض، وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في إشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يصلي إلى القبلتين ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكى، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم؛ وبالتاء غيرهم. فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني وعد للمؤمنين بالشواب على القبول والأداء.

١٤٥ - ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أراد ذوي العناد منهم ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿مَاتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد. مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق، وجواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حسم لأطماعهم، إذ كانوا اضطربوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. ووحدت القبلة وإن كان لهم قبلتان، فاليهود قبلة، وللنصارى قبلة؛ لاتحادهم في البطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك، يختلفون في شأن القبلة، لا يرجى اتفاقهم، كما لا ترجى موافقتهم لك، فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من بعد وضوح البرهان، والإحاطة بأن القبلة هي الكعبة، وأن دين الله هو

إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومُولٌهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ

الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لمن المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطفٌ للسامعين، وتهيبج للشباب على الحق، وتحذير لمن يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى. وقيل: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد أمته. ولزم الوقف على ﴿الظالمين﴾ إذ لو وصل لصار:

١٤٦ - ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ صفة للظالمين، وهو مبتدأ والخبر: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: محمداً ﷺ، أو القرآن، أو تحويل القبله، والأول أظهر؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني. فقال له عمر: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبل عمر رأسه ﴿وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين لم يسلموا. ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ حسداً وعناداً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى بيّنه في كتابهم.

١٤٧ - ﴿الْحَقُّ﴾ مبتدأ خبره: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾. واللام: للجنس، أي: الحق من الله لا من غيره. يعني: أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه. وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل. أو: للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق و﴿من ربك﴾ خبر بعد خبر، أو: حال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك.

١٤٨ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وُجْهَةً﴾ قبله. وقُرئ^(١) بها ﴿هُوَ﴾ الضمير لكل ﴿مُولِيًا﴾ الضمير للوجهة. أي: هو مولئها وجهه، فحذف أحد المفعولين. أو ﴿هو﴾ لله تعالى، أي: الله مولئها إياه. هو (مُولَاهَا)، شامي، أي: هو مولئ تلك الجهة قد وليها. والمعنى: ولكل أمة قبله يتوجه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أنتم ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ فاستبقوا إليها غيركم من

(١) قرأ بها أبي: (ولكل قبله).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

أمر القبلة وغيره ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيفصل بين الحق والمبطل. أو: ﴿ولكل منكم﴾ يا أمة محمد ﴿وجهة﴾ جهة يصلي إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي: الجهات المسامطة للكعبة وإن اختلفت ﴿أينما تكونوا﴾ من الجهات المختلفة ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ ويجمعكم، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤٩ - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالباء، أبو عمرو.

١٥٠ - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، فكرر عليهم ليشبوا. على أنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: قد عرفكم الله جل ذكره أمر الاحتجاج في القبلة بما قد بين في قوله: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾، ﴿لئلا يكون للناس﴾ لليهود ﴿عليكم حجة﴾ في خلاف ما في التوراة من تحويل القبلة. وأطلق اسم الحجة على قول المعاندين؛ لأنهم يسوقونه سياق الحجة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا المعاندين منهم، القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام. أو: معناه: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة؛ التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْنُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٣﴾ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾

دينهم. ثم استأنف منهاً بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم؛ فإنهم لا يضرورنكم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمري ﴿وَلَا تَمْنَعِي عَيْنُكُمْ﴾ أي: عرفتكم لئلا يكون عليكم حجة، ولأنتم نعمتي عليكم بهدائي إياكم إلى الكعبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

١٥١ - والكاف في: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأنتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول؛ أو بما بعده، أي: كما ذكرتم بإرسال الرسول، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب. فعلى هذا يوقف على ﴿تهتدون﴾ وعلى الأول لا. ﴿رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ من العرب ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم ﴿آيَاتِنَا﴾ القرآن. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة والفقه. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

١٥٢ - ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ بالمقدرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة. أو: بالشاء والعتاء، أو: بالسؤال والنوال، أو: بالتوبة وعفو الحوبة، أو: بالإخلاص والخلاص، أو: بالمناجاة والنجاة ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا نعمائي.

١٥٣ - ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ فيه ثنال كل فضيلة ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ فإنها تنهى عن كل رذيلة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

١٥٤ - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً ﴿أَمُوتَ﴾ أي: هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي: هم أحياء ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون ذلك؛ لأن حياة الشهيد لا تعلم حساً. عن الحسن

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْئًا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الْصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ

- رضي الله عنه -: إِنَّ الشهداءَ أحياء عند الله، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرُّوحُ والفرحُ، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يُرزقون ثمر الجنة، ويجدون ريحها، وليسوا فيها.

١٥٥ - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بَشِّرِ﴾ بقليل من كل واحدة من هذه البلايا وطرف منه. وقُلْ ليؤذن أن كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسان - وإن جلَّ - ففوقه ما يقلُّ إليه^(١)، ويريم أن رحمته معهم في كلِّ حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها؛ ليوطنوا نفوسهم عليها ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ خوف العدو أو الله ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: القحط، أو صوم شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بموت المواشي، أو الزكاة. وهو عطف على شيء، أو على الخوف، أي: وشيء من نقص الأموال ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بالقتل، والموت، أو بالمرض، والشيب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات الحرث، أو موت الأولاد؛ لأنَّ الولد ثمرَةُ الفؤاد ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا؛ لأنَّ الاسترجاع تسليم وإذعان. وفي الحديث: «مَن استرجعَ عند المصيبة جَبَرَ الله مصيبتَه، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»^(٢). وطُفِيَ سراجُ رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كلُّ شيء يُؤْذِي المؤمنَ فهو مصيبة»^(٣). والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه البشارة.

١٥٦ - ﴿الَّذِينَ﴾ نصب صفة للصابرين. ولا وقف عليها، بل يُوقف على

(١) في المطبوع: إليهم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد (٢/٣٣١). والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل (٤١٢).

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا

﴿راجعون﴾. ومن ابتدأ بالدين، وجعل الخبر ﴿أولئك﴾ يقف على الصابرين، لا على راجعون. والأول الوجه؛ لأنَّ الذين وما بعده بيانٌ للصبر ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ مكروه. اسم فاعل من أصابته شدة، أي: لحقته. ولا وقف على مصيبة؛ لأنَّ ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا، وإذا وجوابها: صلة الذين ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار له بالملك ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرارٌ على نفوسنا بالهَلْكَ.

١٥٧ - ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة، وجمع بينها وبين الرحمة؛ كقوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] ﴿رَوْوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ لطريق الصواب، حيث استرجعوا، وأذعنوا لأمر الله. قال عمر - رضي الله عنه -: نِعَمَ العَدْلَانِ، ونِعَمَ العَلَاوَةِ، أي: الصلاة، والرحمة، والاهتداء.

١٥٨ - ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ﴾ هما علمان للجبلين ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه وتمعباته، جمع: شعيرة، وهي: العلامة ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قَصَدَ الكعبة. ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ زار الكعبة. فالحج: القصد، والاعتمار: الزيارة. ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين. وهما في المعاني كالتنجم والبيت في الأعيان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يتطوف، فأدغم التاء في الطاء. وأصل الطوف: المشي حول الشيء. والمراد - هنا -: السعي بينهما. قيل: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامراًة زنيا في الكعبة، فمُسِّخا حجرتين، فَوَضِعَا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عُبدَا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلام، وكُسِرَت الأوثان، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فِعْلِ الجاهلية، فرفع عنهم الجناح بقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾. وهو دليلٌ على أنه

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

ليس بركن كما قال مالك والشافعي - رحمهما الله تعالى - ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي :
بالطواف بهما . وهو كذلك مُشْعِرٌ بأنه ليس بركن . (وَمَنْ يَطَّوَّعُ) ، حمزة وعلي ،
أي : يتطوع ، فأدغم التاء في الطاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مجاز على القليل كثيراً
﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء صغيراً وكبيراً .

١٥٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿وَمِنْ
الْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ الهداية إلى الإسلام
بوصفه ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة . لم ندع
فيه موضع إشكال ، فعمدوا إلى ذلك المبين فكتموه ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعِينُونَ﴾ الذين يتأتى منهم اللعن ، وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين .

١٦٠ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان ، وترك الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا﴾
ما أفسدوا من أحوالهم ، وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنَّاهُ﴾ وأظهروا ما كتموا
﴿فَأُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

١٦١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني : الذين ماتوا من هؤلاء
الكاظمين ، ولم يتوبوا ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر لعنتهم
أحياء ، ثم لعنتهم أمواتاً . والمراد بالناس : المؤمنون . أو المؤمنون والكافرون ؛ إذ
بعضهم يلعن بعضاً يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾
[الأعراف : ٣٨] .

١٦٢ - ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من «هم» في «عليهم» ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ، أو في
النار ؛ إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار ، أي : لا يمهلون ، أو : لا ينتظرون ليعتذروا ؛ أو لا ينظر

وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ
الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

إليهم نظر رحمة.

١٦٣ - ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في ألوهيته لا شريك له فيها، ولا يصح أن يُسمى غيره إلهاً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته. وموضع ﴿هو﴾ رفع؛ لأنه بدلٌ من موضع ﴿لا إله﴾ ولا يجوز النصب هنا؛ لأنَّ البدل يدلُّ على أن الاعتمادَ على الثاني، والمعنى في الآية على ذلك، والنصب يدلُّ على أنَّ الاعتمادَ على الأول. ورفع ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُولي لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فما سواه إما نعمة، وإما منعم عليه. على أنه خبر مبتدأ، أو على البدل من «هو»، لا على الوصف؛ لأنَّ المضمراً لا يُوصف.

١٦٤ - ولما عجب المشركون من إله واحد، وطلبوا آيةً على ذلك نزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في اللون، والطول، والقصر، وتعاقبهما في الذهاب والمجيء ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها؛ أو بنفع الناس. ومن في: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية ﴿مِن مَّاءٍ﴾ مطر. لبيان الجنس؛ لأن ما ينزل من السماء مطر وغيره. ثم عطف على أنزل ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يسها. ثم عطف على ﴿فَأَحْيَا﴾، ﴿وَبَثَّ﴾ وفرق. ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ هي كل ما يدب ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ الريح، حمزة وعلي. أي: وتقليبها في مهاها قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقح. وقيل: تارة بالرحمة، وطوراً بالعذاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلل المنقاد لمشيئة الله تعالى، فيمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في الهواء ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم،

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ

ويعتبرون، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدتها، وحكمة مبدعها، ووحدانية منشئها. وفي الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها»^(١) أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبر بها.

١٦٥ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ومع هذا البرهان النير من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ أمثالاً من الأصنام ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُعَظِّمُونَهُمْ، ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيم الله، والخضوع له. أي: يحبُّون الأصنام كما يحبون الله، يعني: يسوون بينهم وبينه في محبتهم؛ لأنهم كانوا يقرؤون بالله، ويتقرَّبون إليه. وقيل: يحبونهم كحبِّ المؤمنين الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد، فيفزعون إليه، ويخضعون له ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ترى ﴿شَامِي﴾ نافع وشامي، على خطاب الرسول، أو كلِّ مخاطب. أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى متَّخِذِي الْأَنْدَادِ ﴿إِذْ يَرْوْنَ﴾ يَرَوْنَ ﴿شَامِي﴾ الْعَذَابِ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿حَال﴾ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿شَدِيدُ عَذَابِهِ﴾ أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرتهم أَنَّ الْقُدْرَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شِدَّةَ عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخلُ تحت الوصف من الندم والحسرة. فحذف الجواب؛ لأنَّ لو إذا جاء فيما يشوقُ إليه، أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهب القلب فيه كلَّ مذهب. ولو يليها الماضي، وكذا إذ وضعها لتدلَّ على الماضي. وإنما دخلنا على المستقبل - هنا - لأنَّ إخبار الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي.

١٦٦ - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ مدغمة الذال في التاء حيث وقعت، عراقي غير عاصم.

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧١٥٨).

الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ
حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ
حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾

وهو بدل من ﴿إذ يرون العذاب﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: المتَّبعون، وهم الرؤساء.
﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من الأتباع ﴿وَرَأُوا الْعَذَابَ﴾ الواو فيه للحال، أي: تبرؤوا
في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ ﴿بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ الوصل
التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب.

١٦٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: الأتباع ﴿لَوْ أَتَيْنَا لَنَا كَرَّةٌ﴾ رجعة إلى الدنيا
﴿فَنَتَّبَرَأُ﴾ نصب على جواب التمني، لأن لو في معنى التمني، والمعنى: ليت
لنا كرة فتبرأ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ الآن ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفطيع
﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: عبادتهم الأوثان ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات،
وهي مفعول ثالث ليريم. ومعناه: أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا
يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ بل هم فيها
دائمون.

١٦٨ - ونزل فيمن حرّموا على أنفسهم البحائر ونحوها: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ
كُلُوا﴾ نزل فيمن حرّموا على أنفسهم البحائر ونحوها. أمر بإباحة ﴿وَمِمَّا فِي
الْأَرْضِ﴾ من للتبعض؛ لأن كلّ ما في الأرض ليس بمأكول ﴿حَلَالًا﴾ مفعول
كلوا، أو: حال مما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً من كلّ شُبْهة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ﴾ طرقة التي يدعوكم إليها. ويسكون الطاء: أبو عمرو^(١) غير عيَّاش
ونافع وحزة وأبو بكر. والخطوة في الأصل: ما بين قدمي الخاطي. يقال: اتبع
خطواته: إذا اقتدى به، واستنَّ بِسُنَّتِهِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة
لا خفاء به. وأبان: متعد ولازم. ولا يناقض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: الشيطان؛ لأنه عدوٌّ للناس

(١) أي: هو أبو عمرو بن العلاء، لا عيَّاش بن محمد العبدي القرني.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَئِكَ كَانُوا عَابِكَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا
يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

حقيقة، ووليئهم ظاهراً؛ فإنه يريهم في الظاهر الموالة، ويُرَيْن لهم أعمالهم، ويريد بذلك هلاكهم في الباطن.

١٦٩ - ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه، وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط، إنما يأمركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالقبیح، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وما يتجاوز الحد في القبح من العظائم. وقيل: السوء: ما لا حد فيه. والفحشاء: ما فيه حدٌ ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع الجر بالعطف على ﴿بالسوء﴾ أي: وبأن تقولوا. ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قولكم: هذا حلال، وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه: كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

١٧٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفات. قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود. لما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان، واتباع القرآن ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا﴾ فإنهم كانوا خيراً منا، وأعلم. فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا عَابِكَاؤُهُمْ﴾ الواو للحال. والهمزة بمعنى الرد والتعجب. معناه: أيتبعونهم: ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من الدين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب.

١٧١ - ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المضاف محذوف، أي: ﴿ومثل﴾ داعي ﴿الذين كفروا﴾ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يصيح. والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ البهائم. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة، ودوي الصوت، من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار، كمثل الناقق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناقق ونداءه؛ الذي هو تصويت بها، وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء. والنعيق: التصويت. يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن.

صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ
وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنَ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

والنداء: ما يُسْمَع. والدعاء قد يُسْمَع وقد لا يُسْمَع ﴿صُمُّكُمْ﴾ خبر مبتدأ مضمّر،
أي: هم صم ﴿بُكُمْ﴾ خبر ثان ﴿عُمَى﴾ عن الحق. خبر ثالث. ﴿فَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ الموعظة.

١٧٢ - ثم بيّن أن ما حرّمه المشركون حلال، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مُسْتَلَذَّاتِهِ، أو من حلالاته ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ الذي
رزقكموها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صحَّ أنكم تختصونه بالعبادة،
وتقرؤون أنه مُعْطِي النعم.

١٧٣ - ثم بيّن المحرم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: كل
ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح. و﴿إِنَّمَا﴾ لإثبات المذكور، ونفي
ما عداه، أي: ما حرّم عليكم إلا الميتة ﴿وَالْدَّمَ﴾ يعني: السائل، لقوله في موضع
آخر ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقد حلّت الميتتان والدمان بالحديث:
«أحلّت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»^(١) ﴿وَلَحْمَ
الْخِنْزِيرِ﴾ يعني: الخنزير بجميع أجزائه. وخصّ اللحم لأنه المقصود بالأكل
﴿وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ذبح للأصنام، فذكر عليه غير اسم الله. وأصل
الإهلال: رفع الصوت. أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل
الجاهلية: باسم اللات والعزى ﴿فَمَنَ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجىء. بكسر النون،
بصري وحزة وعاصم، لالتقاء الساكنين، أعني: النون والضاد. وبضمها
غيرهم، لضمّة الطاء ﴿غَيْرَ﴾ حال. أي: فأكل ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ ﴿بَاغٍ﴾ للذة
وشهوة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعدّ مقدار الحاجة. وقول من قال غير باغ على الإمام ولا
عاد في سفر حرام، ضعيف، لأن سفر الطاعة لا يبيح بلا ضرورة. والحبس
بالحضر يبيح بلا سفر. ولأن بغية لا يخرج عن الإيمان، فلا يستحق الحرمان.

(١) رواه أحمد (٩٧/٢) وابن ماجه (٣٢١٨).

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام، وتبقى معه الحياة دون مافيه حصول
الشبع، لأن الإباحة للاضطرار فتقدر بقدر ماتندفع الضرورة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في
الأكل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للذنوب الكبائر، فأنتى يؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار
﴿رَحِيمٌ﴾ حيث رخص.

١٧٤ - ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي ﷺ، وأخذهم على ذلك
الرشا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ في صفة محمد ﷺ
﴿وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضاً، أو: ذا ثمن ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. تقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه ﴿إِلَّا
النَّارَ﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار. ومنه
قولهم: «أكل فلان الدم» إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكْفًا.....

أي: ثمن إكاف، فسماه إكافاً لتلبسه به بكونه ثمناً له ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كلاماً يسرهم، ولكن بنحو قوله: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾
[المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، أو: لا يشي
عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. والجمل الثلاث معطوفة على خبر «إِنَّ»، فقد
صار لـ«إِنَّ» أربعة أخبار من الجمل.

١٧٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ بكتمان
نعت محمد ﷺ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فأي شيء أصبرهم على عمل يؤدّي إلى
النار. وهذا استفهامٌ معناه التوبيخ.

(١) عجز بيت، وصدرة؛ إن لنا أحمره عجافاً.

«أحمره»: حير. «عجاف»: مهازيل. «إكاف»: برذعة.

ذَٰلِكَ يَأْنِ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ

١٧٦ - ﴿ذَٰلِكَ يَأْنِ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتب بالحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ أي: أهل الكتاب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ هو للجنس، أي: في كتب الله، فقالوا في بعضها حق، وفي بعضها باطل ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق. أو: كفرهم ذلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد عن الهدى.

١٧٧ - ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا﴾ أي: ليس البر توليتكم ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب، لأن قبلة النصارى مشرق بيت المقدس، وقبلة اليهود مغربه، وكل واحد من الفريقين يزعم أن البر التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم بأن البر ليس فيما أنتم عليه، فإنه منسوخ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أو: ذا البر من آمن، والقولان على حذف المضاف، والأول أجود. والبر: اسم للخير، ولكل فعل مرضي. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به بر من آمن وقام بهذه الأعمال. (ليس البر) بالنصب على أنه خبر ليس، واسمه (أن تولوا)، حمزة وحفص. ولكن: ﴿الْبِرُّ﴾: نافع، وشامي. وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكن البر. وقرئ: (ولكن البر) ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: يوم البعث ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي: جنس كتب الله، أو القرآن ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: على حب الله، أو: حب المال، أو: حب الإيتاء، يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة. وقدمهم لأنهم أحق. قال ﷺ: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقة

وَالْيَتَمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ

وصلة^(١) و﴿وَالْيَتَمَى﴾ المراد: الفقراء من ذوي القربى واليتامى، وإنما أطلق لعدم الإلباس ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ المسكين: الدائم السكون إلى الناس؛ لأنه لا شيء له، كالسكّر للدائم السكر. ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وهو جنس وإن كان مفرداً لفظاً، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له. أو الضيف ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ المستطعمين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. أو في فك الأسارى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، قيل: هو تأكيد للأول، وقيل: المراد بالأول: نوافل الصدقات والمباركة ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ عطف على «من آمن» ﴿بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله أو الناس ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ نصب على المدح والاختصاص إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال، على سائر الأعمال ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الفقر والشدّة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض والزّمانة ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت القتال. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: أهل هذه الصفة هم الذين صدقوا في الدين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

١٧٨ - رُوي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول^(٢) على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، والاثنتين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزل^(٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ﴾ أي: فُرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المساواة، وأصله: من قص أثره، واقتصه: إذا تبعه، ومنه القاص لأنه يتبع

(١) رواه أحمد (١٧/٤) والترمذي (٦٥٨) والنسائي (٩٢/٥) وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر.

(٢) «الطول»: الفضل والقدرة.

(٣) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/٢٢١).

فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ

الآثار والأخبار ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ جمع قتل. والمعنى: فرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتل. ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ﴾ مبتدأ وخبر، أي: الحر مأخوذ أو مقتول بالحر ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ وقال الشافعي - رحمه الله -: لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص. وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] كما بين الذكر والأنثى. وبقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(١). وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس؛ بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وبأن تخصيص الحكم بنوع لا ينفيه عن نوع آخر، بل يبقِي الحكم فيه موقوفاً على ورود دليل آخر، وقد ورد كما بيَّنا ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ قالوا: العفو ضد العقوبة، يقال: عفوت عن فلان: إذا صفحت عنه، وأعرضت عن أن تعاقبه. وهو يعدى بعن إلى الجاني وإلى الجناية ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وإذا اجتمعَا عدي إلى الأول باللام، فتقول: عفوت له عن ذنبه، ومنه الحديث: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق»^(٢). وقال الزجاج: ﴿من عفى له﴾ أي: من ترك له القتل بالدية. وقال الأزهري: العفو في اللغة: الفضل، ومنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويقال: عفوت لفلان بمال: إذا أفضلت له، وأعطيته. وعفوت له عما لي عليه: إذا تركته. ومعنى الآية عند الجمهور: فمن عفى له من جهة أخيه شيء من العفو، على أن الفعل مسندٌ إلى المصدر كما في: سير يزيد بعض السير. والأخ: وليّ المقتول. وذكر بلفظ الأخوة بعثاً له على العطف؛ لما بينهما من الجنسية والإسلام. و﴿من﴾ هو القاتل المعفو له عما جنى. وترك المفعول الآخر استغناء عنه، وقيل: أقيم له مقام عنه. والضمير في: له وأخيه: لمن، وفي: إليه: للأخ، أو للمتبع الدال عليه: ﴿فَاتَّبَاعُ﴾ لأن المعنى: فليتبع الطالب القاتل

(١) رواه أبو داود (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٦٨٥).

(٢) رواه أحمد (١٨/١) وأبو داود (١٥٩٤) وابن ماجه (١٨١٢) و(١٨١٣).

ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّمَّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَّتَأُولَىٰ الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

بالمعروف بأن يطالبه مطالبه جميلة. وليؤدَّ إليه المطلوب، أي: القاتل بدلَ الدم، أداءً بإحسان، بالألا يمثله ولا يبخسه. وإنما قيل: شيء من العفو ليعلم أنه إذا عفا عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تمَّ العفو، وسقط القصاص. ومن فسر ﴿عفي﴾ بترك جعل «شيء» مفعولاً به. وكذا من فسر به بأعطى، يعني: أن الولي إذا أعطي له شيء من مال أخيه، يعني: القاتل، بطريق الصلح فليأخذه بمعروف من غير تعنيف، وليؤدَّه القاتلُ إليه بلا تسويف. وارتفاع ﴿اتباع﴾ بأنه خبر مبتدأ مضمّر، أي: فالواجبُ اتباع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو، وأخذ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فإنه كان في التوراة القتل لا غير، وفي الإنجيل العفو بغير بدل لا غير، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيراً. والآية تدلُّ على أن صاحبَ الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل، ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان، ولاستحقاق التَّخْفِيف والرحمة ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التَّخْفِيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧٩ - ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ كلام فصيح، لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بيّنة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان في القصاص حياة وأي حياة! أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرعُ القصاص سببَ حياة نفسين ﴿يَّتَأُولَىٰ الْأَلْبَابَ﴾ يا ذوي العقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل حذراً من القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

١٨٠ - ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا كثيرا. لما روي عن علي - رضي الله عنه -: أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعة فمنعه، قال: قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير: هو المال الكثير، وليس لك مال^(١). وفاعل ﴿كُتِبَ﴾: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكانت الوصية للوارث في بدء الإسلام، فنسخت بآية الموارث كما بيناه في «شرح المنار». وقيل: هي غير منسوخة؛ لأنها نزلت في حق من ليس بوارث بسبب الكفر؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام؛ يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرباته، والإسلام قطع الإرث، فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندباً. وعلى هذا لا يراد بـ«كُتِبَ»: فرض ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل، وهو: ألا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، أي: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ على الذين يتقون الشرك.

١٨١ - ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي: الإيصاء ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريئان من الحيف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بجور المبدل.

١٨٢ - ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم. وهذا شائع في كلامهم، يقولون: أخاف أن ترسل السماء، ويريدون: الظن الغالب الجاري مجرى العلم ﴿مِنْ مُوصٍ﴾ (موص)، كوفي غير حفص ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم، وهم: الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذ؛ لأن تبديله تبديل باطل إلى حق. ذكر من يبدل بالباطل، ثم من يبدل بالحق؛ ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة (حاشية الكشاف ٢٢٣/١).

إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ

وقيل: هذا في حال حياة الموصي. أي: فمن حضر وصيته فراه على خلاف الشرع فنهاء عن ذلك، وحمله على الصلاح، فلا إثم على هذا الموصي بما قال أولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٨٣ - ﴿يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ﴾ أي: فرض ﴿عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ هو مصدر صام، والمراد: صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة. والتشبيه باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ له صوم أيام، أي: أنتم متعبدون بالصيام في أيام، كما تعبّد من كان قبلكم ﴿لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ المعاصي بالصيام؛ لأن الصيام أظلف لنفسه^(١)، وأردع لها من مواقعه السوء. أو: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين؛ إذ الصوم شعارهم.

١٨٤ - وانتصاب ﴿أَيَّامًا﴾ بالصيام، أي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تصوموا ﴿أَيَّامًا﴾ ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ مؤقّات بعدد معلوم، أي: قلائل، وأصله: أن المال القليل يقدر بالعدد لا الكثير ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ يخاف من الصوم زيادة المرض ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فعليه عدة، أي: فأفطر، فعليه صيام عدد أيام فطره. والعدة بمعنى المعدود، أي: أمر أن يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيام مرضه وسفره. و«أخر» لا ينصرف للوصف والعدل عن الألف واللام؛ لأن الأصل في فعلی صفة أن تستعمل في الجمع بالألف واللام، كالكبرى والكبر، والصغرى والصغر ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. فطعام بدل من فدية ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ مدني وابن ذكوان. وكان ذلك في بدء الإسلام، فرض عليهم الصوم

(١) «أظلف لنفسه»: أمتع لها.

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ

ولم يتعوّدوه، فاشتدّ عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نسخ التخيير بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ولهذا كرّر قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ؛ ليدل على بقاء هذا الحكم. وقيل: معناه: لا يطيقونه، فأضمر لا لقراءة حفصة كذلك. وعلى هذا لا يكون منسوخاً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتطوع أو الخير خير له ﴿يَطَوَّعُ﴾ بمعنى يتطوع، حمزة وعلي ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية وتطوع الخير. وهذا في الابتداء. وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم؛ لأنه أشقّ عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط محذوف الجواب.

١٨٥ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، أو أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. وهو بدل من الصيام، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو شهر. والرمضان مصدر رمض: إذا احترق من الرمضاء. فأضيف إليه الشهر، وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون. وسمّوه بذلك لا رتماضهم فيه من حرّ الجوع، ومقاساة شدّته، ولأنهم سموا الشهور بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر. فإن قلت: ما وجه ما جاء في الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»^(١)، مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً؟ قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس. القرآن حيث كان غير مهموز، مكّي. وانتصب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ على الحال، أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحة مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحق

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٥٩). «احتساباً»: طلباً لوجه الله وثوابه.

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

والباطل . ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن كان شاهداً، أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر . والشهر منصوب على الظرف، وكذا الهاء في «ليصمه» ولا يكون مفعولاً به؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ «فعدة»: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه عدة، أي: صوم عدة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وَمَنْ فَرَضَ الْفِطْرَ عَلَى الْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ حَتَّىٰ لَوْ صَامَا تَجِبَ عَلَيْهِمَا الْإِعَادَةُ، فَقَدْ عُدِلَ عَنْ مُوجِبِ هَذَا ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ عدة ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرض والسفر . فالفعل المعلن محذوف، مدلول عليه بما سبق تقديره: لتعلموا ولتكمّلوا العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك . يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر . فقله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك . وعدى التكبير بعلى؛ لتضمنه معنى الحمد؛ كأنه قيل: لتكبروا الله، أي: لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه . (ولِتُكْمِلُوا) بالتشديد: أبو بكر .

١٨٦ - ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقرّيب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾^(١) علماً وإجابة لتعالیه عن القرب

أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَيَّ وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٧﴾
أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ

مكاناً ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ (الدَّاعِي، دَعَانِي) في الحالين، سهل ويعقوب. ووافقهما أبو عمرو ونافع غير قالون في الوصل. غيرهم بغير ياء في الحالين. ثم إجابة الدعاء وعدّ صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة. فإجابة الدعوة أن يقول العبد: يا رب! فيقول الله: لبيك عبدي. وهذا أمرٌ موعود موجودٌ لكل مؤمن. وقضاء الحاجة: إعطاء المراد، وذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخيرة له في غيره ﴿فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَيَّ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ واللام فيهما للأمر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد، وهو: ضد الغي.

١٨٧ - كان الرجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد، ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر - رضي الله عنه - واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي، ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وأخبره بما فعل فقال ﷺ: «ما كنتَ جديراً بذلك» فنزل ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾^(١) أي: الجماع ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ عدي بآلى لتضمنته معنى الإفضاء، وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، ولم يقل الإفضاء إلى نسائككم؛ استقباحاً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم. ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾. وقيل: لباس، أي: ستر عن الحرام. و﴿هن لباس لكم﴾ استئناف كالبيان لسبب الإحلال. وهو: أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن؛ فلذا رخص لكم في مباشرتهن ﴿عَلِمَ

اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ

اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴿١﴾ تظلمونها بالجماع، وتنقصونها حظها من
الخير. والاختيان: من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة
﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبتم بما ارتكبتم من المحظور ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ما فعلتم قبل
الرخصة ﴿فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ﴾ جامعوهن في ليالي الصوم. وهو أمر إباحة. وسُميت
الجماعة مباشرة لالتصاق بشريتهما ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قسم
الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة. أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة
وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التنازل. أو: ﴿وابتغوا﴾
المحل الذي كتبه الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم ﴿وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق
كالخيطة الممدودة ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتد من سواد الليل. شبهها بخيطين
أبيض وأسود لامتدادهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان أن الخيط الأبيض من الفجر لا من
غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأنَّ بيان أحدهما بيان للآخر. أو من
للتبعض لأنه بعض الفجر وأوله. وقوله «من الفجر» أخرجه من باب
الاستعارة، وصيرَه تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: «رأيت أسداً» مجاز، فإذا
زدت: من فلان، رجع تشبيهاً. وعن عدي بن حاتم قال: عمدتُ إلى عقالين
أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي، فنظرت إليهما، فلم يتبين لي الأبيض من
الأسود، فأخبرتُ النبي ﷺ بذلك فقال: «إنك لعريضُ القفا» - أي: سليم
القلب؛ لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته - «إنما ذلك بياض
النهار وسواد الليل»^(١). وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ أي: الكف عن
هذه الأشياء. وفيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز
تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي الوصال، وعلى وجوب الكفارة في الأكل

(١) رواه البخاري (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠).

وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والشرب، وعلى أَنَّ الجنازة لا تنافي الصوم ﴿وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ معتكفون فيها. بَيَّنَّ أَنَّ الجماعَ يحلُّ في ليالي رمضان لكن لغير المعتكف. والجملة في موضع الحال، وفيه دليلٌ على أَنَّ الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختصُّ به مسجد دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ بالمخالفة، والتغير. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

١٨٨ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا يأكل بعضكم مالَ بعض ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبيحه الله، ولم يشرعه ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ ولا تدلُّوا بها، فهو مجزوم داخلٌ في حُكْمِ النهي، يعني: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم بأن المقضى له ظالم. وقال ﷺ للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضكم ألحنُ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيتُ له شيء من حقِّ أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنَّ ما أقضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كلُّ واحد منهما: حقي لصاحبي^(١). وقيل: ﴿وتدلُّوا بها﴾ وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. يقال: أدل دلو، أي: ألقاه في البئر للاستسقاء ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل. وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق.

١٨٩ - قال معاذُ بن جبل: يا رسول الله! ما بالُ الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيدُ حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا

(١) أحمد (٣٠٨/٦) والبخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) (٤).

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾

لا يكونُ على حالة واحدة كالشمس، فنزل: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾^(١) جمع هلال، سُمِّيَ به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي: معالم يوقت بها الناس مزارعهم، ومتاجرهم، ومحال ديونهم، وصومهم، وفطرمهم، وعدد نسائهم، وأيام حيضهن، ومدة حملهن، وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته. كان ناسٌ من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحدٌ منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فنزل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ أي: ليس البر بتحرّجكم من دخول الباب. ولا خلاف في رفع البر هنا؛ لأن الآية ثمّ تحتل الوجهين كما بيّنّا، فجاز الرفع والنصب ثمّ، وهذه لا تحتل إلا وجهاً واحداً، وهو الرفع؛ إذ الباء لا تدخل إلا على خبر ليس ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ برّ ﴿مَنِ اتَّقَى﴾ ما حرّم الله. (البيوت) وبابه، مدني وبصري وحفص، وهو الأصل، مثل: كعب وكعوب، ومن كسر الباء فلمكان الباء بعدها، ولكن هي توجب الخروج من كسر إلى ضمّ. وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها، وتامها^(٢): معلوم أن كلّ ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة. فدعوا السؤال عنه، وانظروا في خصلة^(٣) واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً. فهذا وجه اتصاله بما قبله. ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج؛ لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثّل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك، وتجنّبه، ولم يجسر على مثله

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٢).

(٢) من المطبوع.

(٣) من المطبوع.

وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وباشروا الأمور من وجوها؛ التي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو: المراد: وجوب الاعتقاد بأن جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا بالنعيم السرمدي.

١٩٠ - ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقاتلة في سبيل الله: الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين ﴿الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقيل: هي أول آية نزلت في القتال، فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكف عمن كف. أو: الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ، والصبيان، والرهبان، والنساء. أو: الكفرة كلهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حكم المقاتلة ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ في ابتداء القتال، أو بقتال من نهيت عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمثلثة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩١ - ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ وجدتموهم. والثقف: الوجود على وجه الأخذ والغلبة ﴿وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وعدهم الله تعالى فتح مكة بهذه الآية، وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: شرهم بالله أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم. وقيل: الفتنة عذاب الآخرة. وقيل: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان، فيعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لحكيم: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. فقد جعل الإخراج من الوطن من الفتن التي يتمنى عندها الموت ﴿وَلَا

تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ ﴿١٩١﴾ أي: ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا. فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كله ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾: في الحرم، فعندنا يقتلون بالأشهر الحرم إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحينئذ نقتلهم، وإن كان ظاهر قوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ يبيح القتل في الأمكنة كلها. لكن لقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ خص الحرم إلا عند البداءة منهم، كذا في «شرح التأويلات» ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر. ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن (قتلوكم): حمزة وعلي. ١٩٢- ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الشرك، والقتال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لما سلف من طغيانهم. ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبتهم، وإيمانهم.

١٩٣- ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك. وكان تامة، وحتى بمعنى: كي، أو: إلى أن ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ خالصاً ليس للشیطان فيه نصيب، أي: لا يعبد دونه شيء ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم، فإنه لا عدوان إلا على الظالمين، ولم يبقوا ظالمين. أو: فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمى جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

١٩٤- قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقبل لهم عند خروجهم لعمره القضاء، وكرهتهم القتال، وذلك في ذي القعدة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ مبتدأ خبره: ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكه، يعني: تهتكون حرمة عليهم، كما هتكوا حرمة عليكم ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص. من هتك حرمة، أي حرمة كانت اقتض منه بأن تهتك له حرمة. فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ

مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴿١٩٥﴾ من: شرطية. والباء غير زائدة، والتقرير: بعقوبة مماثلة وَاتَّقُوا لعدوانهم؛ أو: زائدة، وتقديره: عدواناً مثل عدوانهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

١٩٥ - ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تصدَّقوا في رضا الله، وهو عام في الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: أنفسكم. والباء زائدة. أو: ولا تقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده؛ إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك، أو: عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه، ويضيع عياله، أو: عن الإضرار بالنفس، أو: عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. والتهلكة والهلاك والهلك واحد ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الظَّن بالله في الإخلاف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين.

١٩٦ - ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدِّوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى، بلا توان ولا نقصان. وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع. فهو دليل على أنَّ من شرع فيهما لزمه إتمامهما. وبه نقول: إنَّ العمرة تلزم بالشروع. ولا تمسك للشافعي - رحمه الله - بالآية على لزوم العمرة؛ لأنه أمر بإتمامها. وقد يُؤمر بإتمام الواجب والتطوع. أو: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك. أو: أن تفرد لكل واحد منهما سفرًا. أو: أن تنفق فيهما حلالاً. أو: ألا تتجرع معهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال: أحصر فلان: إذا منعه أمر من خوف، أو مرض، أو عجز، وحصر: إذا حبسه عدو عن المضي. وعندنا: الإحصار يثبت بكل منع من عدو، أو مرض، أو غيرهما لظاهر النص. وقد جاء في الحديث: «من كسر أو عرج فقد حل» أي: جاز له أن يحل «وعليه الحج من قابل»^(١). وعند الشافعي - رحمه الله -: الإحصار بالعدو وحده. وظاهر النص يدلُّ على أن

(١) رواه أبو داود (١٨٦٢) والترمذي (٩٤٠) والنسائي (١٩٩/٥) وابن ماجه (٣٠٧٧).

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ
أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّن تَمَنُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ۚ فَمَا
اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فَيُكْفَىٰ تِلْكَ عَشْرَةَ كَأَمَلٍ ۚ ذَٰلِكَ

الإحصار يتحقق في العمرة أيضاً؛ لأنه ذُكر عقبهما ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب. والهدي: جمع هدية. يعني: فإن منعتكم من المضي إلى البيت، وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة، فما: رفع بالابتداء، أي: فعليكم ما استيسر، أو نصب، أي: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ الخطاب للمحصرين.، أي: لا تحلقوا بحلق الرأس حتى تعلموا أنَّ الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجب نحره فيه، وهو الحرم. وهو حجة لنا - في أن دم الإحصار لا يذبح إلا في الحرم - على الشافعي - رحمه الله - إذ عنده يجوز في غير الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يجوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وهو القمل، أو الجراحة ﴿فِدْيَةٌ﴾ فعليه إذا حلق فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من بر ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ شاة. وهو مصدر، أو جمع نسيكة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الإحصار، أي: فإذا لم تحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَنَّعَ﴾ استمتع ﴿بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ واستمتع بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج. وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ هو هدي المتعة، وهو نسك يؤكل منه، ويذبح يوم النحر ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدى. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحج - وهو أشهره - ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرام الحج ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَأَمَلٍ﴾ في وقوعها بدلاً عن الهدى، أو في الثواب، أو المراد: رفع الإبهام فلا يتوهم في الواو أنها بمعنى الإباحة، كما في: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما، أو واحداً منهما، كان ممثلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التسع. إذ لا تمتع

لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
 الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي
 الْحَجِّ ۚ

ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندنا. وعند الشافعي - رحمه الله - إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى، أو الصيام، ولم يوجب عليهم شيئاً ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت، فمن دونها إلى مكة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه في الحج وغيره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقّه.

١٩٧ - ﴿الْحَجُّ﴾ أي: وقت الحج، كقولك: البرد شهران ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ معروفات عند الناس، لا يشكلن عليهم، وهي: سؤال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أنَّ شيئاً من أفعال الحج لا يصحّ إلا فيها، وكذا الإحرام عند الشافعي - رحمه الله - وعندنا وإن انعقد لكنه مكروه. وجمعت - أي الأشهر - لبعض الثالث، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ ألزمه نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع، أو ذكره عند النساء، أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب؛ لقوله ﷺ: «سباب المؤمن فسوق»^(١). أو التنازع بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمُ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ولا وراء مع الرفقاء، والخدم، والمكاريين^(٢). وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجب الاجتناب في كلّ حال؛ لأنه مع الحج أسمع، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوب انتفائها، وأنها حقيقة بالأ تكون. وقرأ أبو عمرو ومكي الأولين بالرفع، فحملهما على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفث ولا فسوق، والثالث: بالنصب، على معنى الإخبار بانتفاء الجدال، كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج. ثم حثّ على الخير

(١) رواه أحمد (٣٨٥/١) والبخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) (١١٦).

(٢) «المكاريين»: جمع المكاري، وهو مكري الدواب.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَعْتَاوِي الْأَلْبَابَ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ
فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ

عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان
الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة؛ بقوله تعالى:
﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ واعلم بأنه عالم به يجازيكم عليه. ورد قول من
نفى علمه بالجزئيات. كان أهل اليمن لا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون،
فيكونون كلاً على الناس، فزل فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي: تزودوا، واتقوا
الاستطعام وإبرام الناس^(١) والتثقل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ أي:
الانتقاء عن الإبرام والتثقل عليهم؛ أو تزودوا للمعاد باتقاء المحظورات؛ فإن
خير الزاد اتقاؤها ﴿وَاتَّقُونِ﴾ وخافوا عقابي، وهو مثل: دعان ﴿يَعْتَاوِي
الْأَلْبَابَ﴾ يا ذوي العقول، يعني: أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من
الألباء فكانه لا لب له.

١٩٨ - ونزل في قوم زعموا: أن لا حجَّ لجمال وتاجر، وقالوا: هؤلاء
الداج^(٢) وليسوا بالحاج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ في أن تبْتَغُوا في
مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء وتفضلاً، وهو النفع والربح
بالتجارة والكراء ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم بكثرة، من إفاضة الماء، وهو: صبه
بكثرة. وأصله: أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ هي علم
للموقف سُمِّيَ بجمع كأذرعات. وإنما صرفت لأنَّ التاء فيها ليست للتأنيث،
بل هي مع الألف قبلها علامة جمع المؤنث. وسُمِّيَتْ بذلك لأنها وصفت
لإبراهيم عليه السلام، فلما رآها عرفها. وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا.
وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده
﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية، والتهليل، والتكبير، والثناء، والدعوات، أو

(١) إبرام الناس: أبرمه: أضجره.

(٢) الداج: الأعوان والمكارون.

عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَّاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ

بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هو قَرَح، وهو: الجبل الذي يقفُ عليه الإمام وعليه الميمنة. والمشعر: المعلم؛ لأنه معلم العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. وقيل: المشعر الحرام: المزدلفة. وسميت: المزدلفة، وجَمْعاً؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو: لأنه يجتمع فيها بين الصَّلَاتَيْنِ، أو: لأنَّ الناس يزدلفون إلى الله تعالى، أي: يتقربون بالوقوف فيها ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَّاكُمْ﴾ ما: مصدرية، أو كافة، أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، أو: اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه ﴿وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبودونه. وإن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة.

١٩٩ - ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة. قالوا: هذا أمرٌ لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جَمْع، وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات، ويقولون: نحن قُطَّان حرمه فلا نخرج منه. وقيل: الإفاضة من عرفات مذكورة، فهي الإفاضة من جمع إلى مِنَى. والمراد بالناس على هذا: الحُمْسُ^(١)، ويكون الخطاب للمؤمنين ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف، ونحو ذلك من جاهليتكم، أو من تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بكم.

٢٠٠ - ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من عبادتكم التي أُمِرتم

(١) سميت قريش حنساً لشدهم في دينهم، والأحمس: الشديد الصلب بالدين. والتحمس: التشدد. (من حاشية المخطوط).

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

بها في الحج، ونفرتهم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فاذكروا الله ذكراً مثل ذكركم آباءكم. والمعنى: فأكثرُوا من ذِكْرِ الله، وبالغوا فيه، كما تفعلون في ذكر آبائكم، ومفاخرهم، وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدّدون فضائل آبائهم، ويذكرون محاسن أيامهم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثر. وهو في موضع جر عطف على [ما أضيف إليه] ^(١) الذكر في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كما تقول: كذكر قریش آبائهم، أو قوم أشدّ منهم ذكراً. وذكراً: تمييز ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا، أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة، يعني: الجاه والغنى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ نصيب؛ لأنّ همّه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة. والمعنى: أكثرُوا ذكر الله ودعاءه؛ لأنّ الناس من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين، أي: من الذين قيل فيهم:

٢٠١ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن الذين يشهدون الحج ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي

الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية، أو علماً وعبادة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ عفواً ومغفرة. أو: المال والجنة، أو: ثناء الخلق ورضا الحق، أو: الإيمان والأمان، أو: الإخلاص والخلاص، أو: السنة والجنة، أو: القناعة والشفاعة، أو: المرأة الصالحة والحدود العيون، أو: العيش على سعادة والبعث من القبر على بشارة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ احفظنا من عذاب جهنم، أو: عذاب النار: امرأة السوء.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

٢٠٢ - ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو: من أجل ما كسبوا. أو: سُمِّي الدعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب. ويجوز أن يكون ﴿أُولَئِكَ﴾ للفريقين، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر، وطلب الآخرة. أو: وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم، ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر من نفسه. وروي: أنه يحاسبُ الخلق في قدر حلب شاة، وروي: في مقدار لمحة.

٢٠٣ - ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق. وذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل، ومتعدين، يقال: تعجل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله: «ومن تأخر» ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث، واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأثم بهذا التعجل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ الصيد، أو الرفث والفسوق. أي: هو مخير في التعجل والتأخر، وإن كان التأخر أفضل. فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل. وقيل: كان أهل الجاهلية فريقين، منهم من جعل المتعجل أثماً، ومنهم من جعل المتأخر أثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حين يبعثكم من القبور.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

٢٠٤ - كان الأخنس بن شريق حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول، وادّعى أنه يحبّه، وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أنني صادق، فنزل فيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك، ويعظم في قلبك. ومنه الشيء العجيب؛ الذي يعظم في النفس ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿فِي﴾ يتعلق بالقول، أي: يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا، ولا يريد به الآخرة. أو يبعجبك، أي: يعجبك حلو كلامه في الدنيا لا في الآخرة؛ لما يرهقه في الموقف من الحُبسة واللُّكنة ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الجدل والعداوة للمسلمين. والخصام: المخاصمة. والإضافة بمعنى في؛ لأن أفعل يضاف إلى ما هو بعضه، تقول: زيد أفضل القوم، ولا يكون الشخص بعض الحدث، فتقديره: ألد في الخصومة. أو: الخصام: جمع خصم، كصعب وصعب، والتقدير: وهو أشدّ الخصوم خصومة.

٢٠٥ - ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول، وإحلاء المنطق ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ﴾ كما فعل بثقيف، فإنه كان بينه وبينهم خصومة، فبيّتهم ليلاً، وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي: الزرع، والحيوان. أو إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض؛ يهلك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر، فيهلك الحرث، والنسل ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

٢٠٦ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ للأخنس ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ في الإفساد، والإهلاك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم؛ الذي ينهى عنه، وألزمته ارتكابه. أو: الباء للسبب، أي: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في

فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي
السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِن زَلَلْتُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ ابْلَغْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

قلبه، وهو: الكفر ﴿فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه ﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: الفراش جهنم.

٢٠٧ - ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفراً كانوا معه، فاشتري نفسه بماله منهم، وأتى المدينة، أو: فيمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر حتى يقتل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها ﴿ابْتِغَاءَ﴾ لا ابتغاء ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

٢٠٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ﴾ وبفتح السين^(١)، حجازي وعليّ. وهو: الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله، وأطيعوه. أو: الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبينهم وكتابهم. أو: للمنافقين؛ لأنهم آمنوا بالسنتهم ﴿كَافَّةً﴾ لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته. حال من الضمير في ادخلوا، أي: جميعاً، أو: من السلم لأنها تؤنث، كأنهم أمروا أن يدخلوا في الطاعات كلها، أو: في شعب الإسلام وشرائعه كلها. وكافة: من الكف؛ كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وسأوسه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

٢٠٩ - ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ﴾ ملتم عن الدخول في السلم ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ ابْلَغْتُمْ﴾ أي: الحجج الواضحة، والشواهد اللائحة على أن ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يمنعه شيء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يعذب إلا بحق. وروي أن قارئاً قرأ «غفور رحيم» فسمعه

(١) أي: (السلم).

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

أعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره، وقال: ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر
الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

٢١٠ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أمر الله
وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَاءَهَا بِأَسَنَاءَ﴾ [الأعراف:
٤] أو المأتي به محذوف، بمعنى: أن يأتيهم الله بآسئه للدلالة عليه بقوله:
﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ [في ظُلَلٍ] جمع ظلة، وهي: ما أظلك ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾
السحاب. وهو للتهويل؛ إذ الغمام مَظِنَّةُ الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان
الأمر أفظع وأهول ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم،
أو المراد: حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وتمَّ أمرُ إهلاكهم،
وفُرج منه ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي: بأنه ملك العباد بعض الأمور فترجع إليه
الأمر يوم النشور. (ترجعُ الأمور) حيث كان، شامي، وحمزة، وعلي.

٢١١ - ﴿سَلَّ﴾ أصله: أسأل، فنقلت فتحة الهمزة إلى السين بعد حذفها،
واستغني عن همزة الوصل، فصار: سل. وهو أمرٌ للرسول، أو لكل أحد.
وهو سؤال تقرير، كما يسأل الكفرة يوم القيامة ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا
بَبَيِّنَاتٍ﴾ على أيدي أنبيائهم، وهي معجزاتهم، أو: من آية في الكتب شاهدة
على صحة دين الإسلام. وكم استفهامية، أو خبرية ﴿وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ هي
آياته، وهي أجل نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة.
وتبديلهم إياها: أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب
ضلالهم، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أو: حرفوا
آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها،
وصحَّت عنده؛ لأنه إذا لم يعرفها فكانها غائبة عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن
استحقه.

٢١٢ - ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ المزين هو الشيطان، زين لهم الدنيا،

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٢١٧﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ

وحسنها في أعينهم بوساوسه، وحببها إليهم، فلا يريدون غيرها. أو: الله تعالى بخلق الشهوات فيهم، ولأنَّ جميع الكائنات منه، ويدلُّ عليه قراءة من قرأ: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١) ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود، وعمار، وصهيب، ونحوهم. أي: لا يريدون غير الدنيا، وهم يسخرون ممن لاحظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وهم: هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم في جنة عالية، وهم في نار هاوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير. يعني: أنه يوسع على مَنْ أراد التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره. وهذه التوسعة عليكم من الله لحكمة وهي: استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحقَّ بها منكم.

٢١٣ - ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام. أو: هم نوح ومن كان معه في السفينة. فاختلَفُوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾، ويدلُّ على حذفه قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقراءة عبد الله^(٢) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]. أو: كان الناس أُمَّةً واحدةً كفاراً، فبعث الله النبيين فاختلَفُوا عليهم. والأول الأوجه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين، وهما حالان ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: مع كل واحد منهم كتابه ﴿بِالْحَقِّ﴾ ببيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في دين الإسلام؛ الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف. أي: ازدادوا في الاختلاف لما أنزل

(١) هي قراءة مجاهد وابن محيصن وحيد بن قيس وأبي حيو.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ

عليهم الكتاب ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ على صدقه ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ مفعول له، أي: حسداً بينهم، وظلماً لحرصهم على الدنيا، وقلة إنصاف منهم ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق؛ الذي اختلف فيه من اختلف ﴿ مِنْ الْحَقِّ ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بعلمه ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

٢١٤ - ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أم منقطعة لا متصلة؛ لأن شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام، كقولك: أعندك زيد أم عمرو؟ أي: أيهما عندك؟ وجوابه: زيد إن كان عنده زيد، أو: عمرو إن كان عنده عمرو. وأما «أم» المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر، وتكون بمعنى بل والهمزة، والتقدير: بل أحسبتم. ومعنى الهمزة فيها للتقرير، وإنكار الحساب واستبعاده. لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات، والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات - التي هي أبلغ - : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ ﴿ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ ﴾ أي: ولم يأتكم. وفي لما معنى التوقع، يعني: أن إتيان ذلك مُتَوَقَّعٌ منتظر ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ مضوا. أي: حالهم التي هي مثل في الشدة ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من التبیین والمؤمنين ﴿ مَسْتَهْمُ ﴾ بيان للمثل، وهو استئناف، كأن قائلًا قال: كيف كان ذلك المثل؟ ف قيل: ﴿ مَسْتَهْمُ ﴾ ﴿ الْبَاسَاءِ ﴾ أي: البؤس ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ المرض، والجوع ﴿ وَزُلْزَلُوا ﴾ وحركوا بأنواع البلايا، وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها: ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ أي: بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر، حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب النصر، وتمنيهِ، واستطالة زمن

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

الشدة ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قيل لهم إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر
(يقول) بالرفع، نافع، على حكاية حال ماضية، نحو: شربت الإبل حتى
يجيء البعير يجر بطنه. وغيره بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛
لأن أن علم له.

٢١٥ - ولما قال عمرو بن الجموح، وهو شيخ كبير، وله مال عظيم: ماذا
ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ
فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقد تضمن قوله: ﴿ما أنفقتم من
خير﴾ بيان ما ينفقونه، وهو: كل خير. وبنى الكلام على ما هو أهم، وهو
بيان المصروف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. عن الحسن: هي في
التطوع ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجزي عليه.

٢١٦ - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ فُرض عليكم جهاد الكفار ﴿وَهُوَ كُرْهُ
لَكُمْ﴾ من الكراهة، فوضع المصدر الوصف مبالغة كقولها:
..... فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ^(١)

كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له. أو هو: فعل بمعنى مفعول،
كالخيز بمعنى المخبوز، أي: وهو مكروه لكم ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ﴾ فأنتم تكرهون الغزو، وفيه إحدى الحسنين، إما: الظفر والغنيمة،
وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وهو القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ﴾ لما فيه من الذل، والفقر، وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو
خير لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ
عليكم.

(١) عجز بيت للخنساء، وصدره: لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت.

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ

٢١٧ - ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ، فقاتلوا المشركين، وقد أهل
هلال رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر
الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: يسألك الكفار
أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من
الشهر. وقرئ ﴿عن قتال فيه﴾ على تكرير العامل بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا
لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: إثم كبير. ﴿قتال﴾
مبتدأ و﴿كبير﴾ خبره. وجاز الابتداء بالنكرة لأنها قد وصفت بـ: فيه. وأكثر
الأقويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾
[التوبة: ٥] ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منع المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه
عن البيت عام الحديبية. وهو مبتدأ ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله. عطف عليه
﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله. أي: وصد^(١) عن سبيل الله وعن
المسجد الحرام. وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في به، أي: كفر به
وبالمسجد الحرام. ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور
إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وزيد. ولو كان
معطوفاً على الهاء هنا لقليل: وكفر به وبالمسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي:
أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وهو عطف على «صد»
أيضاً ﴿مِنْهُ﴾ من المسجد الحرام. وخبر الأسماء الثلاثة ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي:
مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على
الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الإخراج، أو الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام.
أو: تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين في الشهر
الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر، وهو إخبار

إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم لا ينفكّون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها التعليل، نحو: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي: يقاتلونكم كي يردوكم. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم، كقولك لعدوك: إن ظفرت بي فلا تبق عليّ، وأنت واثق بأنه لا يظفر بك ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يموت على الردة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب، وحسن المآب ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وبها احتج الشافعي - رحمه الله - على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها. وقلنا: قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] والأصل عندنا: أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده يحمل عليه، فهو بناء على هذا.

٢١٨ - ولما قالت السرية: أ يكون لنا أجر المجاهدين في سبيل الله؟ نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تركوا مكة وعشائرهم ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المشركين. ولا وقف عليه؛ لأن ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ خبر إن. قيل: من رجا طلب، ومن خاف هرب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢١٩ - نزل في الخمر أربع آيات. نزل بمكة: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمرو ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أقتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال فتزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فشربها قوم، وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعة فشربوا وسكروا، فأمر بعضهم فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فتزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا

الضَّلَوةَ وَأَنْتَ سَكْرَى ﴿[النساء: ٤٣]﴾ قُلْ مَنْ يَشْرِبْهَا. ثم دعا عتبان بن مالك جماعة فلما سكرُوا منها تخاصمُوا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] فقال عمر: انتهينا يا رب! وعن عليّ - رضي الله عنه -: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه. والخمر: ما غلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب. وسميت بمصدر خمره خمرأ: إذا ستره؛ لتغطيتها العقل. والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد من فعله، يقال: يسرته: إذا قمرته. واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كد وتعَب. أو من اليسار كأنه سلب يساره. وصفة الميسر: أنه كانت لهم عشرة أقداح، سبعة منها عليها خطوط وهي: الفذ وله سهم، والتوأم وله سهمان، والرقب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلّى وله سبعة، وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهي: المنيح، والسفيح، والوغد، فيجعلون الأقداح في خريطة، ويضعونها على يد عدل، ثم يجليجلها، ويدخل يده فيخرج باسم رجل قذحاً قذحاً منها، فمن خرج له قذح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القذح، ومن خرج له قذح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمّون من لم يدخل فيه. وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما. والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما بدليل: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصم، والنشاتم، وقول الفحش والزور. كثير: حمزة وعليّ ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر، والتلذذ بشربها، وفي الميسر بارتفاق الفقراء، أو نيل المال بلا كد ﴿وَأِثْمُهُمَا﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لأن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا

يُنْفِقُونَ قُلُوبُ الْعَفْوِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

يُنْفِقُونَ قُلُوبُ الْعَفْوِ ﴿٢١٩﴾ أي: الفضل، أي: أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة. وكان
التصدق بالفضل في أول الإسلام فرضاً^(١)، فإذا كان الرجل صاحب زرع
أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل، وإذا كان صانعاً أمسك قوت يومه وتصدق
بالفضل، فنسخت بآية الزكاة. (العفو) أبو عمرو. فمن نصبه جعل «ماذا» اسماً
واحداً في موضع النصب بينفقون، والتقدير: قل: ينفقون العفو، ومن رفعه
جعل ﴿ما﴾ مبتداً، وخبره ﴿ذا﴾ مع صلته، فذا بمعنى الذي، وينفقون:
صلته، أي: ما الذي ينفقون؟ فجاء جواب العفو، أي: هو العفو، فأعراب
الجواب كأعراب السؤال؛ ليطابق الجواب السؤال ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف في
موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي: تبيناً مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٢٠ - ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في أمر الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ وفي: يتعلق
بتفكرون، أي: تفكرون فيما يتعلق بالدارين، فتأخذون بما هو أصلح لكم.
أو: تفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما، وأكثرهما منافع. ويجوز أن يتعلق
بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، أي: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما ﴿لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ﴾. ولما نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]
اعتزلوا اليتامى، وتركوا مخالطتهم، والقيام بأموالهم، وذكروا ذلك لرسول
الله ﷺ فنزل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مداخلتهم على وجه
الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم، ولم
تجانبوهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط
أخاه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لها، فيجازيه على
حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إعناتكم

لَا تَغْنَتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُوهَآ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ

﴿لَا تَغْنَتُكُمْ﴾ لحملكم على العنت، وهو: المشقة، وأحرجكم، فلم يطلق لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يقدر على أن يعنت عباده، ويحرجهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلف إلا وسعهم، وطاقتهم.

٢٢١ - لما سأل مرثد النبي ﷺ عن أن يتزوج عناق - وكانت مشركة - نزل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ ^(١) أي: لا تتزوجوهن. يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح: غيره: زوجه ﴿وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تتزوجوهم بمسلمة، كذا قاله الزجاج. وقال جامع العلوم: حذف أحد المفعولين، والتقدير: ولا تنكحوهن المشركين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم بين علة ذلك فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ وهو إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر الذي هو عمل أهل النار فحقهم ألا يوالوا، ولا يصاهروا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأولياء الله - وهم المؤمنون - يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يوصل إليهما، فهم الذين تجب موالاتهم، ومصاهرتهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه، أو بأمره ﴿وَبَيِّنُوهَآ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٢٢٢ - كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدحداح رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: يا رسول الله! كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فنزل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ ^(٢)

(١) رواه أبو داود (٢٠٥١) والترمذي (٢١٧٦) والنسائي (٦٦/٦).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٨١).

قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

هو مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي: المحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه ﴿فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوهن، أي: فاجتنبوا مجامعتهن. وقيل: إِنَّ النَّصَارَى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاعتقاد بين الأمرين. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإضرار. ومحمد - رحمه الله -: لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ بالتشديد، كوفي غير حفص، أي: يغتسلن، وأصله: (يَتَطَهَّرْنَ)، فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم (يَطْهَرْنَ)، أي: ينقطع دمهن. والقراءتان كآيتين فعملنا بهما، وقلنا له: أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وإن لم تغتسل؛ عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت الصلاة عملاً بقراءة التشديد. والحمل على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف. وعند الشافعي - رحمه الله -: لا يقربها حتى تطهر وتطهر. دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأثي الذي أمركم الله به، وحلله لكم، وهو القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من ارتكاب ما نهوا عنه، أو العوادين إلى الله تعالى، وإن زلوا فزلوا. والمحبة لمعرفته بعظم عفو الله حيث لا ييأس ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء، أو المتزهين من أدبار النساء، أو من الجماع في الحيض، أو من الفواحش.

٢٢٣ - كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجل أهله بركة أتى الولد أحول، فنزل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يُلْقَى في أرحامهن من النطف؛ التي منها النسل بالبذور، والولد

فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ

بالنبات. ووقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ بياناً وتوضيحاً لقوله ﴿فأتوهن﴾ من حيث أمركم الله ﴿أي: إن المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث لا مكان الفرث، تنبيهاً على أنَّ المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلبُ النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتونهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب﴾ ﴿فأتوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ﴾ جامعوهن متى شتتم، أو كيف شتتم، بركة أو مستلقية، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحداً، وهو موضع الحرث. وهو تمثيل، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شتتم، لا يحظر عليكم جهة دون جهة. وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة. فعلى كل مسلم أن يتأدب بها، ويتكلف مثلها في المحاورات والمكاتبات ﴿وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتهم عنه. أو هو طلب الولد، أو التسمية على الوطء ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ صائرون إليه فاستعدوا للقاءه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالشواب يا محمد.

وإنما جاء يسألونك ثلاث مرات بلا واو، ثم مع الواو ثلاثاً؛ لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الآخر في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع لذلك.

٢٢٤ - ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ العُرْضَةُ فُعلة بمعنى مفعول، كالقبضة، وهي: اسم ما تعرضه دون الشيء: من: عرض العود على الإناء، فيتعرض دونه، ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه، فقول لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾

أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

أي: حاجزاً لما حلفتُم عليه. وسُمِّيَ المحلوف عليه يميناً بتلبسه باليمين، كقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها [فليكفر عن يمينه]»^(١). وقوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: للأُمور المحلوف عليها التي هي: البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس. واللام تتعلق بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لإيمانكم برزخاً. ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تَبْرُوا بالفعل، أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تَبْرُوا ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

٢٢٥- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولغو اليمين: الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان، وهو أن يحلفَ على شيء يظنه على ما حلف عليه والأمر بخلافه. والمعنى: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم. وعند الشافعي - رحمه الله -: هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف، نحو: لا والله. وبلى والله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بما اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو: أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس. وتعلق الشافعي بهذا النص على وجوب الكفارة في الغموس؛ لأن كسب القلب: العزم، والقصد. والمؤاخذه غير مبينة هنا، وبينت في المائدة، فكان البيان ثمة بياناً هنا. وقلنا: المؤاخذه هنا مطلقة، وهي في دار الجزاء، والمؤاخذه ثم مقيدة بدار الابتلاء، فلا يصح حمل البعض على البعض ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

(١) رواه أحمد (١٨٥/٢) والنسائي (١٠/٧) وابن ماجه (٢١١١). وما بين حاصرتين مستدرك من مصادر التخريج.

لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ

٢٢٦ - ﴿لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ﴾ يقسمون. وهي قراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -
 ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يتعلق بالجار والمجرور، أي: للذين، كما تقول: لك مني
 نصرة، ولك مني معونة، أي: للمؤلين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَرْبَعَةَ
 أَشْهُرٍ﴾ أي: استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر، لا يبؤلون؛ لأن آلى يعدى
 بعلى، يقال: آلى فلان على امرأته. وقول القائل: آلى فلان من امرأته، وهم
 توهمه من هذه الآية. ولك أن تقول: عدى بمن لما في هذا القسم من معنى
 البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ في الأشهر، لقراءة
 عبد الله: (فإن فاءوا فيهن) أي: رجعوا إلى الوطاء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث شرع الكفارة.

٢٢٧ - ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بترك الفيء، فتربصوا إلى مضي المدة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته. وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفية.

وعند الشافعي - رحمه الله - معناه: ﴿فَإِنْ فاءُوا﴾ ﴿وَإِنْ عزمُوا﴾ بعد مضي
 المدة؛ لأنَّ الفاء للتعقيب. وقلنا: قوله ﴿فَإِنْ فاءُوا﴾ ﴿وَإِنْ عزمُوا﴾ تفصيل
 لقوله ﴿لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ والتفصيل يعقب الفصل، كما تقول: أنا
 نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما
 أتحوّل.

٢٢٨ - ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصُ

بأنفُسِهِنَّ﴾ خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: ولتربص المطلقات. وإخراج
 الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى
 امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه: قولهم
 في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت
 الرحمة، فهو يخبر عنها. وبناءه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد؛ لأن الجملة
 الاسمية تدلُّ على الدوام والثبات بخلاف الفعلية. وفي ذكر الأنفس تهييج لهن

ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَعُولُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ

على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن
يقمن أنفسهن، ويغلبنهن على الطموح، ويجبرنها على التربص ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جمع
قرء أو قرء. وهو الحيض لقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(١). وقوله:
«طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»^(٢) ولم يقل: طهران، وقوله تعالى:
﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ آتَيْتُمْ فَعِدَّتَهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤].
فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار، ولأن المطلوب من العدة استبراء
الرحم، والحيض هو الذي يستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء
من الأمة بالحيضة، ولأنه لو كان طهراً كما قال الشافعي، لانقضت العدة
بقرأين وبعض الثالث، فانتقص العدد عن الثلاثة؛ لأنه إذا طلقها في آخر
الطهر، فذا محسوب من العدة عنده، وإذا طلقها في آخر الحيض، فذا غير
محسوب من العدة عندنا، والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لا يقع على
ما دونه. ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرىء. وانتصاب ثلاثة على
أنه مفعول به، أي: يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على الظرف، أي: يتربصن
مدة ثلاثة قروء. وجاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء
لاشتراكهما في الجمعية اتساعاً. ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء
من الأقراء فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المhemل ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ
يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو من دم الحيض، أو منهما. وذلك
إذا أرادت المرأة فراق زوجها، فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا
يشفق على الولد فيترك تسريحها؛ أو كتمت حيضها وقالت - وهي حائض - :
قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عظم فعلهن؛ لأن
من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على مثله من العظامم ﴿وَيَعُولُنَّ﴾ البعول: جمع
بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: أزواجهن أولى برجعتهن.

(١) رواه الدارقطني (١/ ٢١٢).

(٢) رواه أبو داود (٢١٨٩) والترمذي (١١٨٢) وابن ماجه (٢٠٨٠).

فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ

وفيه دليلٌ على أن الطلاقَ الرجعي لا يجرُمُ الوطء حيث سمَّاه زوجاً بعد الطلاق ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في مدة ذلك الترتُّبُص. والمعنى: أن الرجلَ إن أراد الرجعة، وأبتها المرأة، وجب إثارة قوله على قولها، وكان هو أحقَّ منها، لا أنَّ لها حقاً في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَاحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدوا مضارَّتهن. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر، والنفقة، وحسن العشرة، وترك المضارة، مثل الذي يجب لهن عليهن من الأمر والتهبي ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، فلا يكلف أحد الزوجين صاحبه ما ليس له. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق، وفضيلة بالقيام بأمرها، إن اشتركا في اللذة والاستمتاع، وبالإلفاق، وملك النكاح ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن.

٢٢٩ - ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الطلاق بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم.

أي: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة. ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِيعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [المالك: ٤] أي: كرة بعد كرة، لا كرتين اثنتين. وهو دليلٌ لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة في طهر واحد؛ لأنَّ الله تعالى أمرنا بالتفريق؛ لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر، وإلا يؤدي إلى الخلف في خبر الله تعالى؛ لأن الطلاقَ على وَجْه الجمع قد يوجد. وقيل: قالت أنصارية: إن زوجي قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك، فنزلت: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾^(١) أي: الطلاق الرجعي مرتان؛ لأنه لا رجعة بعد الثالث ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ برجعة.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٥٦/٢).

أَوْ تَسْرِبْ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

والمعنى: فالواجب عليكم إمساك بمعروف ﴿أَوْ تَسْرِبْ بِإِحْسَنٍ﴾ ألا يراجعها حتى تبين بالعدة. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. نزل في جميلة وزوجها ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه، وهو يحبها، وقد أعطاها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام ^(١) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ مما أعطيتموهن من المهور ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا أن يعلم الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية؛ لما يحدث من نشوز المرأة، وسوء خلقها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة. وجاز أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما افتدت به نفسها، واختلعت به من بدل ما أوتيت من المهر. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ حزة على البناء للمفعول، وإبدال ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ من ألف الضمير. وهو من بدل الاشتمال، نحو: خيف زيد تركه إقامة حدود الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: ما حد من النكاح، واليمين، والإيلاء، والطلاق، والخلع، وغير ذلك ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون أنفسهم.

٢٣٠ - ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ مرة ثالثة بعد المَرَّتَيْنِ. فإن قلت: الخلع طلاق عندنا، وكذا عند الشافعي - رحمه الله - في قول. فكأن هذه تطليقة رابعة، قلت: الخلع طلاق ببطلان طلاقه، وهذه بيان لتلك، أي: فإن طلقها الثالثة ببطلان فحكم التحليل كذا ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التطليقة الثالثة ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

غَيْرُهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

غَيْرُهُ ﴿ حتى تتزوج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كالتزوج. وفيه دليل على أن النكاح ينعقد بعبارتها. والإصابة شرطت بحديث العسيلة، كما عرف في أصول الفقه. والفقه فيه: أنه لما أقدم على فراق لم يبق للندم مخلصاً، لم تحل له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه ﴿ فَإِنْ طَلَقَهَا ﴾ الزوج الثاني بعد الوطء ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ على الزوج الأول وعليها ﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيبٌ عنهما لا يعلمه إلا الله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا ﴾ وبالنون^(١)، المفضل ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يفهمون ما بين لهم.

٢٣١ - ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: آخر عدتهن، وشارفن منتهاهما. والأجل: يقع على المدة كلها وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: فإذا أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها، وتبين من غير ضرار ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ مفعول له، أو حال، أي: مضارين. وكان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً ﴿ لِيَعْتَدُوا ﴾ لتظلموهن، أو لتلجنوهن إلى الافتداء ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ يعني: الإمساك للضرار ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي: جدوا بالأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً. يقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازيء ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) أي: (نبيها).

وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا فَلَعَنْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بالإسلام، وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من القرآن والسنة. وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم، وهو حال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الذكر، والاتقاء، والاعتاظ، وغير ذلك، وهو أبلغ وعد ووعد.

٢٣٢ - ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا فَلَعَنْ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن. فدلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، لأنّ النكاح يعقبه هنا، وإذا يكون بعد العدة؛ وفي الأولى الرجعة، وإذا يكون في العدة ﴿فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعهن. العضل: المنع والتضييق ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ من أن ينكحن ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الذين يرغبن فيهم، ويصلحون لهن. وفيه إشارة إلى انعقاد النكاح بعبارة النساء. والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، ولا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج. سموا أزواجاً باسم ما يؤول إليه. أو: للأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن؛ الذين كانوا أزواجاً لهن. سموا أزواجاً باعتبار ما كان. نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول. أو: للناس، أي لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم، وهم راضون، كانوا في حكم العاضلين ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ﴾ إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يحسن في الدين والمروءة من الشرائط. أو: بمهر المثل والكف؛ لأن عند عدم أحدهما للأولياء أن يتعرّضوا. والخطاب في: ﴿ذَلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل واحد ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالموعظة إنما تنجح فيهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ترك العضل والضرار ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لكم، من أدناس الآثام. أو: ﴿أزكى وأطهر﴾ أفضل وأطيب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاء، والطهر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ﴾

٢٣٣ - ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ خبر في معنى الأمر المؤكد، كـ«يتربصن» وهذا الأمر على وجه الندب، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، أو أراد الوالدات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ظرف ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تامين، وهو تأكيد، لأنه مما يتسامح فيه، فإنك تقول: إنك أقممت عند فلان حولين ولم تستكملهما ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة. والحاصل: أنَّ الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك، ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ الهاء يعود إلى اللام الذي بمعنى الذي، والتقدير: وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و«له» في محل الرفع على الفاعلية كـ«عليهم» في ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وإنما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأطوار. ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد، حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير، و تفسيره ما يعقبه، وهو: ألا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه، ولا يتضاراً ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وجدها، أو قدر إمكانها. والتكليف: إلزام ما يؤثر في الكلفة. وانتصاب «وسعها» على أنه مفعول ثان لتكلف لا على الاستثناء، ودخلت «إلا» بين المفعولين ﴿لَا تُضَارَّ﴾ مكى وبصري بالرفع على الإخبار^(١). ومعناه النهي. وهو يحتمل البناء للمفعول، وأن يكون الأصل تضارر بكسر الراء، أو

(١) أي: (لا تضار والدته).

وَالِدَةٌ يُؤَلِّفُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُؤَلِّفُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ
مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

تضارّر بفتحها. الباقون (لاتضارّ) على النهي. والأصل: تضارر، أسكنت الراء الأولى، وأدغمت في الثانية بعد أن سكنت، فالتقى الساكنان، ففتحت الثانية لالتقاء الساكنين ﴿وَالِدَةٌ يُؤَلِّفُهَا﴾ أي: لاتضارّ والدّة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنّف به، وتطلب منه ما ليس بعدلٍ من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً، وما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُؤَلِّفُهَا﴾ أي: ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذها منها وهي تريد إرضاعه.

وإذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد.

أو: تضار بمعنى تضر، والباء من صلته، أي: لاتضر والدّة ولدها فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضرّ الوالد به بأن ينتزع من يدها، أو يقصر في حقّها، فتقصر هي في حقّ الولد. وإنما قيل بولدها وبولده، لأنه لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وعلى وارث الصبي عند عدم الأب ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: مثل الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة. واختلف فيه، فعند ابن أبي ليلى: كلّ من ورثه. وعندنا من كان ذا رحم محرم منه؛ لقراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - : (وعلى الوارث ذي الرحم المحرم مثل ذلك) وعند الشافعي - رحمه الله - لا نفقة فيما عدا الولاد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطاماً صادراً ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين، أو نقصا. وهذه توسعة بعد التحديد. والتشاور: استخراج الرأي. من شُرْتُ العسل: إذا استخراجته. وذكره ليكون التراضي عن تفكّر، فلا يضرّ الرضيع. فسبحان الذي

وَلِإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَسْتَرْضِعَ أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي
أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

آدب الكبير، ولم يهمل الصغير. واعتبر اتفاقهما لأنَّ للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية ﴿وَلِإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَسْتَرْضِعَ أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: لأولادكم، عن الزجاج. وقيل: استرضع منقول من أَرْضِع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعها الصبي معدي إلى مفعولين أي: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين. يعني: غير الأم عند إياها، أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المراضع ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ ما أردتم إيتاءه من الأجرة. (أَتَيْتُمْ): مكى، من: أتى إليه إحساناً: إذا فعله، ومنه قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً. والتسليم ندب لا شرط للجواز ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسَلَّمْتُمْ، أي: سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، فهو يجازيكم عليها.

٢٣٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ تقول: توفيت الشيء، واستوفيته: إذا أخذته وافياً تاماً، أي: تُستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن، أي: يعتددن، أو: معناه: يتربصن بعدهم بأنفسهن. فحذف بعدهم للعلم به. وإنما احتيج إلى تقديره، لأنه لا بد من عائد يرجع إلى المبتدأ في الجملة التي وقعت خبراً. (يَتَوَفَّوْنَ)؛ المفضل، أي: يستوفون آجالهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال، والأيام داخلة معها. ولا يستعمل التذكير فيه ذهاباً إلى الأيام، تقول: صمت عشراً. ولو ذكرت لخرجت من كلامهم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإن انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ

٢٣٥ - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الخطبة: الاستنكاح. والتعريض: أن تقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغب في. ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أتزوجك. والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

فكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بالستكم لا معرضين ولا مصرحين ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن، فاذكروهن ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جماعاً، لأنه مما يسر، أي: لا تقولوا في العدة: إني قادرٌ على هذا العمل ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرّحوا. وإلا متعلق بلا تواعدوهن، أي: لا تواعدوهن مواعدة قط، إلا مواعدة معروفة غير منكورة ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من عزم الأمر، وعزم عليه. وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح؛ لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى. ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، أو: ولا تقطعوا عقدة النكاح، لأن حقيقة العزم القطع، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروي: «لمن لم يبيت الصيام»^(١). أي: ولا تعزموا على عقدة النكاح ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾

تنقضي عدتها. وسميت العدة كتاباً لأنها فرضت بالكتاب، يعني: حتى يبلغ الترتيب المكتوب عليها أجله، أي: غايته ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

٢٣٦ - ونزل فيمن طلق امرأته ولم يكن سمى لها مهراً، ولا جامعها ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تبعه عليكم من إيجاب مهر ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ شرط. ويدل على جوابه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ والتقدير: إن طلقتم النساء فلا جناح عليكم ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ما لم تجمعهن. وما شرطية، أي: إن لم تمسوهن. (تَمَسَّوهُنَّ): حمزة، وعلي، حيث وقع؛ لأنَّ الفعل واقع بين اثنين ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو: حتى تفرضوا. وفرض الفريضة: تسمية المهر. وذلك أن المطلقة غير الموطوءة لها نصف المسمى إن سمي لها مهر. وإن لم يسم لها مهر فليس لها نصف مهر المثل، بل تجب المتعة ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ معطوف على فعل محذوف، تقديره: فطلقوهن ومتعهن. والمتعة: درع وملحفة وخمار ﴿عَلَى الْأَوْسَعِ﴾ الذي له سعة ﴿قَدَرُهُ﴾ مقداره الذي يطيقه. (قَدَرُهُ) فيهما: كوفي غير أبي بكر، وهما لغتان ﴿وَعَلَى الْمُقْتَرِ﴾ الضيق الحال. والدليل على أن الجناح تبعه المهر قوله: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ فقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ إثبات للجناح المنفي ثمة ﴿قَدَرُهُ﴾ ولا تجب المتعة عندنا إلا لهذه، وتستحب لسائر المطلقات ﴿مَتَّعًا﴾ تأكيد لمتعهن، أي: تمتعاً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على المسلمين، أو على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتع. وسمّاهم قبل الفعل محسنين، كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(١). وليس هذا

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ
إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ
وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى

الإحسان هو التبرع بما ليس عليه، إذ هذه المتعة واجبة.

٢٣٧ - ثم بين حُكْمَ التي سَمَى لها مهراً في الطلاق قبل المس، فقال:
﴿وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر.
أي: من قبل مسكن إياهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ في موضع الحال ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾
مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ يريد المطلقات. وأن مع الفعل في
موضع النصب على الاستثناء؛ كأنه قيل: فعليكم نصف ما فرضتم في جميع
الأوقات إلا وقت عفوهم عنكم من المهر. والفرق بين الرجال يعفون والنساء
يعفون؛ أن الواو في الأول ضميرهم والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام
الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل ﴿أَوْ يَعْفُوا﴾ عطف
على محله ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو الزوج، كذا فسره علي - رضي الله
عنه -: وهو قول سعيد بن جبير، وشريح، ومجاهد، وأبي حنيفة، والشافعي على
الجديد - رضي الله عنهم -. وهذا لأن الطلاق بيده، فكان بقاء العقد بيده.
والمعنى: أن الواجب شرعاً هو النصف إلا أن تسقط هي الكل، أو يعطي هو
الكل تفضلاً. وعند مالك والشافعي في القديم: هو الولي. قلنا: هو لا يملك
التبرع بحق الصغيرة، فكيف يجوز حمله عليه؟! ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ مبتدأ خبره
﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. والخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب، ذكره
الزجاج. أي: عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير له، وعفو المرأة بإسقاط كله
خير لها. أو: للأزواج ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ﴾ التفضل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا
أن يتفضل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على تفضلكم.

٢٣٨ - ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها،
وشرائطها ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، من قولهم

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ زُرُبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُم مِّنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَلَعًا

للأفضل: الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لا نفرادها بالفضل. وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة - رحمه الله - وعليه الجمهور، لقوله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملاء الله بيوتهم ناراً»^(١). وقال ﷺ: «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب»^(٢). وفي مصحف حفصة (والصلاة الوسطى صلاة العصر) ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار. وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم، ومعايشهم. وقيل: صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار. أو صلاة الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. أو صلاة المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى، ولأنها بين صلاتي مخافتة وصلاتي جهر. أو صلاة العشاء، لأنها بين وترين. أو هي غير معينة، كليلة القدر؛ ليحفظوا الكل ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَانِتِينَ﴾ حال، أي: مطيعين خاشعين، أو ذاكرين الله في قيامكم. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. أو مطيلين القيام.

٢٣٩ - ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بكم خوف من عدو، أو غيره ﴿فَرَجَالًا﴾ حال، أي: فصلوا راجلين، وهو جمع راجل، كقائم وقيام ﴿أَوْ زُرُبَانًا﴾ وُحْدَانًا بإيماء. ويسقط عنه التوجه إلى القبلة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فصلوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: ذكرنا مثلما علمكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن.

٢٤٠ - ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُم مِّنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ بالنصب، شامي، وأبو عمرو، وحمة، وحفص، أي: فليوصوا وصية، عن الزجاج. غيرهم بالرفع، أي: فعلیهم وَصِيَّةً ﴿مَّتَلَعًا﴾ نصب بالوصية، لأنها مصدر. أو

(١) رواه أحمد (١/١٥٠) والبخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/٥٠٥).

إِلَى الْهَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَا فِي
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ
 حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾
 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

تقديره: متعوهن متاعاً ﴿إِلَى الْهَوْلِ﴾ صفة لمتاعاً ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد،
 كقولك: هذا القول غير ما تقول. أو: بدل من متاعاً. والمعنى: أن حق الذين
 يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع أزواجهم بعدهم
 حولاً كاملاً، أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن. وكان
 ذلك مشروعاً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتوفون منكم
 ويذرون أزواجاً﴾ إلى قوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ والناسخ متقدم عليه تلاوة،
 ومتأخر نزولاً، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع
 قوله تعالى: ﴿قَدْ زُرِيَ ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَا﴾ بعد
 الحول ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من التزوي، والتعرض
 للخطاب ﴿مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً ﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ فيما
 حكم.

٢٤١ - ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ﴾ أي: نفقة العدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ نصب على
 المصدر ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

٢٤٢ - ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو في موضع
 الرفع؛ لأنه خبر لعل. وإن أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة، وهي:
 على سبيل النذب.

٢٤٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار
 الأولين، وتعجب من شأنهم. ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع؛ لأن
 هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾
 من قرية، قيل: واسط، وقع فيهم الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماهم الله، ثم
 أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم
 ملكهم إلى الجهاد، فهربوا حذراً من الموت، فأماهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم

وَهُمُ الْأَوْفُ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهُمْ إِبْرَاهِيمُ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿وَهُمُ الْأَوْفُ﴾ في موضع النصب على الحال، وفيه دليل على الألف الكثيرة؛ لأنها جمع كثرة. وهي جمع: ألف، لا آلف ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي: فأماهم الله. وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، وتلك ميتة خارجة عن العادة. وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ثُمَّ أَخَذَهُمْ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه. وهو معطوف على فعل محذوف تقديره: فماتوا ثم أحياهم، أو لما كان معنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فأماهم، كان عطفاً عليه معنى ﴿إِبْرَاهِيمُ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به، كما بصر أولئك، وكما بصرهم باقتصاص خبرهم. أو: لذو فضل على الناس حيث أحيأ أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم النشور ﴿وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

٢٤٤ - والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يعني. هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ، أو لمن أحياهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٢٤٥ - ﴿مَنْ﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء ﴿ذَا﴾ خبره ﴿الَّذِي﴾ نعت لذا، أو بدل منه ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ صلة الذي. سَمَى ما ينفق في سبيل الله قرضاً؛ لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعد. سَمَى به لأن المقرض يقطعه من ماله فيدفعه إليه. والقرض: القطع، ومنه: المقرض، وقرض الفأر، والانقراض. فنبههم بذلك على أنه لا يضيع عنده، وأنه يجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبة النفس من المال الطيب. والمراد: النفقة في الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال في

فِيضْلِعِفُهُ لَهُمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَ إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفِتْنَى أَلَّا تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا

سبيل الله، ويحتاج فيه إلى المال، حث على الصدقة ليتها أسباب الجهاد ﴿فِيضْلِعِفُهُ لَهُمْ﴾ بالنصب، عاصم، على جواب الاستفهام، وبالرفع؛ أبو عمرو، ونافع، وحمة، وعلي، عطفاً على (يقرض). أو هو مستأنف، أي: فهو يضاعفه. (فيضعه)، شامي. فيضعفه: مكي ﴿أَضْعَافًا﴾ في موضع المصدر ﴿كَثِيرَةً﴾ لا يعلم كنهها إلا الله، وقيل: الواحد بسبعمئة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ﴾ يقتر الرزق على عباده، ويوسعه عليهم، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لا يبدلكم الضيق بالسعة. ويبسط: حجازي، وعاصم، وعلي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

٢٤٦ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الأشراف، لأنهم يملؤون القلوب دلالة، والعيون مهابة ﴿مِثْقَ إِسْرَءِيلَ﴾ من للتبعيض ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ من بعد موته. ومن: لابتداء الغاية ﴿إِذْ قَالُوا﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو شمعون، أو يوشع، أو أشمويل ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ انفض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره ﴿نُقَاتِلَ﴾ بالنون والجزم على الجواب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صلة نقاتل ﴿قَالَ﴾ النبي: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ (عَسَيْتُمْ) حيث كان، نافع ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفِتْنَى﴾ شرط فاصل بين اسم عسى وخبره، وهو ﴿أَلَّا تَقْتُلُوا﴾. والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعني: هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون وتجنون، فأدخل «هل» مستفهماً عما هو متوقع عنده. وأراد بالاستفهام: التقرير، وثبتت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه ﴿وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ الواو في ﴿وقد﴾ للحال. وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة

فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
 وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ
 الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ
 مَن

وأربعين. يعنون إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: أُجيبوا إلى ملتتمسهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر، على عدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

٢٤٧ - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو اسم أعجمي كجالتوت، ودادود. ومُنْع من الصرف للتعريف، والعجمة ﴿مَلِكًا﴾ حال ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف؟ ومن أين؟ وهو إنكارٌ لتملكه عليهم، واستبعاد له ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواو للحال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أي: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحقُّ التملك؛ لوجود من هو أحقُّ بالملك، وأنه فقير، ولا بُدَّ للملك من مال يعتضدُّ به. وإنما قالوا ذلك لأن النبوة كانت في سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، والملك في سبط يهوذا، وهو كان من سبط بنيامين، وكان رجلاً سقاء، أو دباغاً فقيراً. وروي أن نبيهم دعا الله حين طلبوا منه مَلِكًا فأتى بعضاً يُقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاء في اصطفاه بدل من التاء لكان الصاد الساكنة، أي: اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراض على حكمه. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط، والجسامة، فقال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ مفعول ثان ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلم بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطول من كلِّ إنسان برأسه ومنكبه. والبسطة: السعة والامتداد. والملك لا بُدَّ أن يكون من أهل العلم، فإنَّ الجاهل ذليلٌ مُزْدَرَى، غير منتفع به، وأن يكون جسيماً؛ لأنه أعظم في النفوس، وأهيب في القلوب ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

يَشَاءُ ﴿٢٤٧﴾ أي: الملك له غير منازع فيه، وهو يؤتاه من يشاء إيتاءه، وليس ذلك بالوراثه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك. فثمة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت.

٢٤٨ - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي: صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل، ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكون، وطمأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رُضاض^(١) الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وشيء من التوراة، ونعلا موسى، وعمامة هارون عليهما السلام ﴿وَمِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أي: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: التابوت. وكان رفعه الله بعد موسى، فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه. والجملة في موضع الحال. وكذا ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾. و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ نعت لسكينة و﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ نعت لبقية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ في رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملك طالوت عليكم إن كنتم مُّصَدِّقِينَ.

٢٤٩ - ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج ﴿بِالْجُنُودِ﴾ عن بلده إلى جهاد العدو. و«بالجنود» في موضع الحال، أي: مختلطاً بالجنود، وهم ثمانون ألفاً. وكان الوقت قيظاً، وسألوا أن يجري الله لهم نهراً ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مختبركم، أي: يعاملكم معاملة المختبر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطين، ليميز المحق في الجهاد من المعذر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أتباعي

(١) الرُّضاض: الفتات والدُّفاق.

وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ ۚ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ ۖ يٰٓأَيُّهَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يٰٓأَيُّهَا

وأشياعي ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه، من: طعم الشيء: إذ ذاقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وبفتح الياء، مدني وأبو عمرو. واستثنى ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ﴾ من قوله ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾. والجملة الثانية في حكم المتأخرة عن الاستثناء، إلا أنها قدّمت للعناية ﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ غرفة، حجازي وأبو عمرو: بمعنى المصدر. وبالضم بمعنى المغروف. ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكرع. والدليل عليه: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: فكرعوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي: القليل ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا قوة لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو جبار من العمالقة. من أولاد عمليق بن عاد، وكان في بيضته ثلاثمائة رطل من الحديد! ﴿وَجُنُودِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ يوقنون بالشهادة. قيل: الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكثير الذين انخذلوا. والذين يظنون ﴿هم القليل الذين ثبتوا معه. ورؤي: أنَّ الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته. والذين شربوا منه اسودّت شفاههم، وغلبهم العطش ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم خبرية، وموضعها رفع بالابتداء ﴿غَلَبَتْ﴾ خبرها ﴿فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ ۖ يٰٓأَيُّهَا اللَّهُ﴾ بنصره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر.

٢٥٠ - ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ اصعب. ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا، وإلقاء الرعب في صدور عدونا ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أعنا عليهم.

٢٥١ - ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ أي: طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده ﴿يٰٓأَيُّهَا

اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

اللَّهُ ﴿بِقضائه﴾ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيهِ، وكان داود سابعهم، وهو صغير، يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيه: أن داود هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار، دعاه كلّ واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته، ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، ثم حسده، وأراد قتله، ثم مات تائباً ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدروع، وكلام الطيور، وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ هو مفعول به ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدل من الناس. (دِفَاعُ): مدني، مصدر: دفع، أو دافع ﴿بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل. أو: ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد ﴿وَلَئِنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بإزالة الفساد عنهم، وهو دليل على المعتزلة في مسألة الأصلح.

٢٥٢ - ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: القصص التي اقتضتها من حديث الألوف، وإماتتهم، وإحيائهم، وتمليك طالوت، وإظهاره على الجبارة على يد صبي ﴿تَتْلُوهَا﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ والعامل فيه معنى الإشارة، أو ﴿آيات الله﴾ بدل من ﴿تلك﴾ و﴿تتلوها﴾ الخبر ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب؛ لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أهله.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾

٢٥٣ - ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة من آدم إلى داود، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين، يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلمه الله، حذف العائد من الصلة، يعني: منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ﴾ مفعول أول. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أي: بدرجات، أو: إلى درجات. يعني: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة. وهو محمد ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم بإرساله إلى الكافة، ويأنه أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف أو أكثر، وأكبرها القرآن؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر. وفي هذا الإبهام تفخيمٌ وبيانٌ أنه العلم الذي لا يشبهه على أحد، والمتميز الذي لا يلتبس. وقيل: أريد به محمد وإبراهيم وغيرهما من أولي العزم من الرسل. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل، أو بالإنجيل. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا﴾ أي: ما اختلف لأنه سببه. ﴿الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات الظاهرات. ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ بمشيتي. ثم بيّن الاختلاف فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بمشيتي. يقول الله: أجريت أمور رسلي على هذا، أي: لم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته في حياته، ولا بعد وفاته، بل اختلفوا عليه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾ كرّره للتأكيد. أي: لو شئت ألا يقتلوا لم يقتلوا، إذ لا يجري في ملكي إلا ما يوافق مشيتي. وهذا يبطل قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ألا يقتلوا لم يقتلوا،

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وهم يقولون: شاء ألا يقتلوا فاقتلوا. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أثبت الإرادة لنفسه، كما هو مذهب أهل السنة.

٢٥٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عام في كل صدقة واجبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: من قبل أن يأتي يوم لا تقدرُونَ فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيع فيه حتى يتباعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاقكم به ﴿وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ أي: للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة. أو: إلا بإذنه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بترك التقديم ليوم حاجتهم. أو: الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون. ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾: مكى، وبصري.

٢٥٥ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مع اسمه، وخبره، وما أبدل من موضعه: في موضع الرفع خبر المبتدأ، وهو الله ﴿الْحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء ﴿الْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق، وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ نعاس، وهو: ما يتقدم النوم من الفتور ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ عن المفضل: السَّنة: ثقل في الرأس، والنعاس: في العين، والنوم: في القلب. وهو تأكيد للقيوم؛ لأنَّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قَيُّومًا. وقد أوحى إلى موسى عليه السلام: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا^(١) ﴿لَهُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وملكاً ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه. وهو بيان للمكوتة وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. وفيه ردُّ لزعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٦٩)، وانظر: مجمع الزوائد (٨٣/١).

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ من معلومه، يقال في الدعاء: اللهم اغفر علمك فينا، أي: معلومك ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إلا بما علم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: علمه. ومنه: الكراسية لتضمنها العلم. والكراسي: العلماء. وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. أو ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. أو عرشه، كذا عن الحسن. أو هو سرير دون العرش. في الحديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بفلاة. وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»^(١)، أو قدرته، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ولا يثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿الْعَظِيمُ﴾ في عزه وجلاله. أو ﴿الْعَلِيُّ﴾: المتعالي عن الصفات التي لا تليق به، ﴿الْعَظِيمُ﴾: المتصف بالصفات التي تليق به، فهما جامعان لكمال التوحيد. وإنما ترتبت الجملة في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان. فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية: لكونه مالكا لما يدبره. والثالثة: لكبرياء شأنه. والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق. والخامسة: لسعة علمه، وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره. وإنما فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد، منه ما روي عن علي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله»^(٢). وقال ﷺ: «سيد البشر آدم وسيد

(١) رواه ابن مردويه، كما في تفسير ابن كثير (٤٥٨/١).

(٢) رواه البيهقي كما في حاشية الكشاف (٣٠٣/١).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي^(١). وقال: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة»^(٢). وقال: «من قرأ آية الكرسي عند منامه بعث إليه ملك يحرسه حتى يصبح»^(٣). وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حتى يمسي حفظ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي: آية الكرسي وأول حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾»^(٤) لاشتغالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبه يعلم أن أشرف العلوم علم التوحيد.

٢٥٦- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا إجبار على الدين الحق، وهو دين الإسلام. وقيل: هو إخبار في معنى النهي. وروي أنه كان لأنصاري ابنان فتنصرا، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري: يا رسول الله! أيدخل بعضي في النار وأنا أنظر؟! فنزلت. فخلأهما^(٥). قال ابن مسعود وجماعة: كان هذا في الابتداء، ثم نسخ بالأمر بالقتال ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشیطان، أو الأصنام ﴿وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧١).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (الكشاف ٣٠٢/١).

(٣) رواه ابن الضريس عن قتادة، كما في الدر المنثور (١٥/٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٨٧٩).

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٥٢).

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ

أَسْتَمْسَكَ ﴿ تمسك ﴾ بِالْعُرْوَةِ ﴿ أي: المعتمد، والمتعلق ﴾ الْوُثْقَى ﴿ تأنيث الأوثق، أي: الأشد من الحبل الوثيق، المحكم، المأمون ﴾ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴿ لا انقطاع للعروة. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال، بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده. والمعنى: فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تحله شبهة ﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴿ لإقراره ﴾ عَلِيمٌ ﴿ باعتقاده.

٢٥٧ - ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أرادوا أن يؤمنوا، أي: ناصرهم، ومتولّي أمورهم ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة. وجمعت لاختلافها ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ إلى الإيمان والهداية. ووحد لاتحاد الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مبتدأ. والجملة، وهي ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ ﴾ خبره ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وجمع؛ لأن الطاغوت في معنى الجمع، يعني: والذين صمّموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو: الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم، ويوفقهم له من حلّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين. والذين كفروا أولياؤهم الشياطين، يخرجونهم من نور البينات؛ الذي يظهر لهم، إلى ظلمات الشكّ والشبهة ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

٢٥٨ - ثُمَّ عَجَّبَ نَبِيَهُ ﷺ، وَسَلَّاهُ بِمَجَادَلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَمْرُودَ الَّذِي كَانَ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ في معارضته ربوبية ربه. والهاء في «ربه» يرجع إلى إبراهيم، أو إلى الذي حاجّ، فهو ربهما ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ لأن آتاه الله: يعني: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر، فحاجّ لذلك. وهو دليل على المعتزلة في الأصلح، أو: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ نصب بجاجّ، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى: الوقت ﴿ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ ﴾ رَبِّي، حمزة ﴿ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ ﴾ كأنه قال له: من ربك؟ قال:

قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

ربي الذي يحيي ويميت ﴿قَالَ﴾ نمرود: ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾ يريد: أعفو عن القتل، وأقتل. فانقطع اللعين بهذا عند المخاصمة، فزاد إبراهيم عليه السلام ما لا يتأتى فيه التلبس على الضعفة، حيث ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴿وهذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة كما زعم البعض لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر، كلمه من وجه لا يعاند. وكانوا أهل تنجيم. وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم. والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحرريك الماء النمل على الرحي إلى غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنت رباً فحركها بحركتها، فهو أهون ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تحيّر، ودهش ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم. وقالوا: وإنما لم يقل نمرود: فليأت ربك بالشمس من المغرب لأن الله تعالى صرفه عنه. وقيل: إنه كان يدعي الربوبية لنفسه، وما كان يعترف بالربوبية لغيره. ومعنى قوله: ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾ أن الذي ينسب إليه الإحياء والإماتة أنا لا غيري. والآية تدلُّ على إباحة التكلم في علم الكلام والمناظرة فيه؛ لأنه قال: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ والمحاجة تكون بين اثنين، فدلَّ على أن إبراهيم حاجه أيضاً. ولو لم يكن مباحاً لما باشرها إبراهيم عليه السلام؛ لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام. ولأننا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بُدَّ أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، وهذا لا يكون إلا بعد المناظرة، كذا في «شرح التأويلات».

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ﴾ معناه: أو رأيت مثل الذي، فحذف لدلالة «ألم تر» عليه؛ لأن كليهما كلمة تعجيب. أو: هو محمول على المعنى دون اللفظ، تقديره: رأيت كالذي حاج إبراهيم، أو: كالذي مرَّ. وقال صاحب

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ
فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ

«الكشاف»^(١): فيه الكاف زائدة، والذي عطف على قوله: ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾
عن الحسن: إن المارَّ كان كافراً بالبعث لا انتظامه مع نمرد في سلك، ولكلمة
الاستبعاد التي هي: ﴿أَنَّى يُحْيِي﴾. والأكثر أنه عزيز، أراد أن يعاين إحياء
الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. و﴿أَنَّى يُحْيِي﴾ اعتراف
بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي ﴿عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هي بيت
المقدس حين خَرَّبَهُ بختنصر. أو: هي التي خرج منها الألوف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى
عُرُوشِهَا﴾ ساقطة مع سقوفها، أو: سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان،
وكل مرتفع عرش ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي﴾ أي: كيف ﴿هَذِهِ﴾ أي: أهل هذه ﴿اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي: أحياء ﴿قَالَ﴾ له مَلَكٌ ﴿كَمْ لَبِثْتُ قَالَ
لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن. وفيه دليلٌ جواز الاجتهاد. روي أنه
مات ضحى، وبعث بعد مئة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى
الشمس: ﴿يَوْمًا﴾ ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾
﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روي: أن طعامه كان تيناً
وعنباً، وشرابه عصيراً ولبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله
﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على
الوجهين؛ لأن لامها هاء؛ لأن الأصل سنة، والفعل سانهت فلاناً، أي:
عاملته سنة. أو: واو، لأن الأصل سنة، والفعل سانيت. ومعناه: لم تغيره
السنون. لم يتسن بحذف الهاء في الوصل، وبإثباتها في الوقف، حمزة وعلي
﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ونخرت. وكان له حمار قد ربطه
فمات، وبقيت عظامه. أو: ﴿وانظر﴾ إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك
من أعظم الآيات أن يُعَيِّشَهُ مئة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه

(١) انظر الكشاف؛ للزمخشري (٣٨٩/١) طبعة دار المعرفة - بيروت.

وَلَنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ
نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ
قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ

وشرا به من التغير ﴿وَلَنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك. يريد إحياءه بعد الموت، وحفظ ما معه. وقيل: الواو عطف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك. قيل: أتى قومه راكباً حماراً، وقال: أنا عزيز، فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤها عن ظهر قلبه، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية. وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ نحركها، ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. نَشْرُهَا بالراء، حجازي وبصري، نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوها﴾ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾ جعل اللحم كاللباس مجازاً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعله مضمَر تقديره: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كقولهم: ضربني، وضربت زيدا. ويجوز ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى. قال: (اعْلَمُ) على لفظ الأمر، حمزة وعلي، أي: ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿اعْلَمُ﴾ أو: هو خاطب نفسه.

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي بِصَّرْنِي﴾ ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ موضع ﴿كيف﴾ نصب بتحيي ﴿قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإنما قال له: ﴿أُولِمُ تَأْمِنُ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؛ ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفي. معناه ﴿بَلَىٰ﴾ آمنت، ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة. فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضروري. واللام تتعلق بمحذوف، تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامة

فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ

﴿فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصاد^(١)، حمزة، أي: أملهن، واضمهن إليك ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جزئهن، وفرق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وكانت أربعة أجبل، أو سبعة. (جُزْءًا) بضمين وهمز، أبو بكر ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قال لهن: تعالين يا ذن الله ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: ساعيات مسرعات في طيرانهن، أو: في مشيهن على أرجلهن. وإنما أمره بضمها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها، ويعرف أشكالها وهيئاتها، وحلأها؛ لثلاث تلبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك. ورؤي: أنه أمر بأن يذبحها، ويتنف ريشها، ويقطعها، ويفرق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين يا ذن الله تعالى. فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن، كل جثة إلى رأسها ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريدہ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبر لا يفعل إلا مافيه الحكمة.

٢٦١ - ولما برهن على قدرته على الإحياء، حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأعلم أن من أنفق في سبيله فله في نفقته أجر عظيم، وهو قادر عليه، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لابد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ المنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعب منه سبع شعب، لكل واحد سنبله. وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر. والمثل به موجود في الدخن والذرة، وربما

(١) أي: (فَصْرَهُنَّ).

وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فرخت ساق البرّة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ. على أنّ التمثيل يصح وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير. ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقرأء ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين. أو يزيد على سبعمئة لمن يشاء. يُضَاعَفُ، شامي. و(يضعفُ)، مكّي ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع الفضل والجلود ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيات المنفقين.

٢٦٢- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا﴾ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقاً له. وكانوا يقولون: إذا صنعتُم صنيعة فانسوها ﴿وَلَا أَذًى﴾ هو أن يتناول عليه بسبب ما أعطاه. ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثواب إنفاقهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من بخس الأجر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوته. أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب. وإنما قال هنا ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وفيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط، وضمنه ثمة.

٢٦٣- ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ رد جميل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول. أو: ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ لاجابة له إلى منفق يمن ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة. وهذا وعيد له. ثم أكد ذلك بقوله:

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أُكُلُهَا

٢٦٤- ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي﴾ الكاف نصب صفة مصدر محذوف، والتقدير: إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رياء الناس، ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ورياء: مفعول له ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ لا يجيدون ثواب شيء مما أنفقوا. أو الكاف في محل نصب على الحال؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بمائلين الذي ينفق. وإنما قال ﴿لا يقدرُونَ﴾ بعد قوله ﴿كالذي ينفق﴾ لأنه أراد بالذي ينفق الجنس، أو: الفريق الذي ينفق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر.

٢٦٥- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، عُلِمَ أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبه. ومن: لابتداء الغاية. وهو معطوف على المفعول له، أي: للابتغاء والتثبيت. والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع. وخصها لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمرأ. (بِرَبْوَةٍ)^(١): عاصم، وشامي ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أُكُلُهَا﴾

(١) أي: بفتح الراء، وقرأ الباقون (بِرَبْوَةٍ) بضم الراء.

ضَعَفَتِ فَإِنْ لَمْ يُصَيِّبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثمرتها. (أكلها): نافع، ومكي، وأبو عمرو ﴿ضَعَفَتِ﴾ مثلي ما كانت ثمر قبل بسبب الوابل ﴿فَإِنْ لَمْ يُصَيِّبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو: مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل. وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة في زلفاهم، وحسن حالهم عنده ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال، ويعلم نيאתكم فيهما من رياء وإخلاص.

٢٦٦- الهمزة في: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ للإنكار ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لصاحب البستان ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يريد بالثمرات: المنافع التي كانت تحصل له فيها. أو: أن النخيل والأعنب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار - تغليبا لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ للحال، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. والواو في: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أولاد صغار للحال أيضاً، والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ ريح تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود ﴿فِيهِ﴾ في الإعصار. وارتفع ﴿نَارٌ﴾ بالظرف، إذ جرى الظرف وصفاً لإعصار ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ الجنة. وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياء، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم، فهلك بالصاعقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا البيان الذي بين فيما تقدم ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ في التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتتبهوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ
مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

٢٦٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من جياذ
مكسوباتكم. وفيه دليلٌ وجوب الزكاة في أموال التجارة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ﴾ من الحب، والتمر، والمعادن، وغيرها. والتقدير: ومن طيبات
ما أخرجنا لكم، إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا
المال الرديء ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ تحصونه بالإنفاق. وهو في محل الحال، أي:
ولا تيمموا الخبيث منفقين، أي: مقدرين النفقة ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم
لا تأخذونه في حقوقكم ﴿إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾ إلا بأن تتساحوا في أخذه،
وتترخصوا فيه. من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه: إذا غَضَّ بصره.
ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وعن ابن عباس
- رضي الله عنهما -: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره، فَنَهَوْا عَنْهُ
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَكِيمٌ﴾ مستحق للحمد، أو: محمود.

٢٦٨- ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿الْفَقْرَ﴾ ويقول لكم: إن عاقبة
إنفاقكم أن تفتقروا. والوعد يُستعمل في الخير والشر ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾
ويعفركم على البخل، ومنع الصدقات، إغراء الأمر للمأثور. والفاحش عند
العرب: البخل ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ في الإنفاق ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لذنوبكم، وكفارة لها
﴿وَفَضْلًا﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم. أو: وثواباً عليه في الآخرة
﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يوسع على من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، ونياتكم.

٢٦٩- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ علم القرآن والسنة. أو: العلم النافع
الموصل إلى رضا الله، والعمل به. والحكيم عند الله هو: العالم العامل ﴿وَمَنْ
يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ﴾ يعقوب. أي: ومن يؤته الله الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ
خَيْرًا﴾ تنكير تعظيم، أي: أوتي خيراً، أي: خير كثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

الْأَلْبَبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

الْأَلْبَبِ ﴿٢٦٩﴾ وما يتَّعَظ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمة، أو العلماء: العمال. والمراد به: الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

٢٧٠- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ في طاعة الله، أو: في معصيته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ لا يخفى عليه، وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو يندرون في المعاصي، أو لا يفون بالنذور ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

٢٧١- ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ﴾ فنعم شيئاً إبداءها. وما نكرة غير موصولة ولا موصوفة، والمخصوص بالمدح هي. ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ بكسر النون وإسكان العين، أبو عمرو، ومدني غير ورش. ويفتح النون وكسر العين، شامي، وحمة، وعلي. وبكسر النون والعين، غيرهم ﴿وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم. قالوا: المراد: صدقات التطوع. والجهر في الفرائض أفضل لنفي التهمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل. والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنون وجزم الراء^(١)، مدني، وحمة، وعلي. وبالياء ورفع الراء، شامي، وحفص. وبالنون والرفع، غيرهم. فَمَنْ جَزَم فقد عطف على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط. ومن رفع فعلى الاستئناف. والياء على معنى: يكفر الله ﴿عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والنون على معنى: نحن نكفر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم.

(١) أي: (وَيُكَفِّرُ).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ٢٧٢ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ

٢٧٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن، والأذى، والإنفاق من الخبيث، وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أو: ليس عليك التوفيق على الهدى، أو خلق الهدى، وإنما ذلك إلى الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وليست نفقتكم إلا ابتغاء وجه الله، أي: رضا الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها، وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟ أو: هذا نفي معناه النهي، أي: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه، وأجلها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ولا تنقصون، كقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْنَاهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

٢٧٣- الجار في: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف، أي: اعمدوا للفقراء. أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الصدقات للفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد، فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ للكسب. وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجري قريش، لم تكن لهم مساكن في المدينة، ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد، وهي سقيفته^(١)، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى^(٢) بالنهار، وكانوا يخرجون في كل

(١) «الصفة»: الطَّلَّة؛ أي: الموضع المظلل، والسقيفة: العريش يُسْتَقَلُّ به.

(٢) «يرضخون النوى»: يكسرونه ويدقونه.

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

سريّة بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل أتاها به إذا أمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ﴾ بحالهم. يحسبهم وبابه: شامي، ويزيد، وحمة، وعاصم،
غير الأعشى، وهبيرة. والباقون بكسر السين ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ مستغنين
من أجل تعفّفهم عن المسألة ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ من صفرة الوجوه، وورثاة
الحال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ إلحاحاً. قيل: هو نفي السؤال والإلحاح
جميعاً، كقوله:

على لاجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ (١)

يريد: نفي المنار والاهتداء به. والإلحاح: هو اللزوم، وألا يفارق إلا بشيء
يُعْطَاهُ. وفي الحديث: «إن الله يحبُّ الحيي الحليم المتعفف، ويبغض البذي السَّالِ
الملحف» (٢). وقيل: معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده.

٢٧٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً﴾ هما حالان، أي: سرّين ومعلنين، يعني: يُعَمِّمُونَ الأوقات
والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجةٌ محتاج عجلوا
قضاءها، ولم يؤخروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر
الصدّيق - رضي الله عنه - حين تصدّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل،
وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. أو: في عليّ - رضي الله
عنه - لم يملك إلا أربعة دراهم، تصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: إذا سافهُ العودُ النَّبَاطِيُّ جَزَجَرَا.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٥/٨).

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى

سراً، وبدرهم علانية ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

٢٧٥- ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ هو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال. وكتب «الربوا» بالواو على لغة من يفخم، كما كتبت: الصلوة، والزكوة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ إذا بُعِثُوا من قبورهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي: المصروع، لأنه تحبط في المعاملة، فجوزي على المقابلة. والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء^(١) ﴿ مِنْ الْمَسِّ ﴾ من الجنون. وهو يتعلق بـ: «لا يقومون» أي: لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. أو بـ: «يقوم» أي: كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين. تلك سيماهم يُعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأحداث يُوفَضُونَ إلا أكلة الربا، فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا، فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرّون على الإيفاض ﴿ ذَلِكَ ﴾ العقاب ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ ولم يقل إنما الربا مثل البيع، مع أن الكلام في الربا لا في البيع، لأنه جيء به على طريقة المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل، حتى شبهوا به البيع ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحل مع الحرمة ضدان، فأنتي يتماثلان؟! ودلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ﴿ فَانْتَهَى ﴾ فتنع

(١) «العشواء»: الناقة التي لا تبصر ما أمامها، فهي تحبط بيديها كل شيء.

فَلَهُمْ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

النهي، وامتنع ﴿فَلَهُمْ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤخذ بما مضى منه؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا، عن الزجاج. أو: إلى الربا مستحلاً ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله - عز وجل - فهو كافر؛ فلذا استحق الخلود. وبهذا تبين أنه لا تعلّق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفساق.

٢٧٦ - ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ ينميتها، ويزيدها، أي: يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويبارك فيه. وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط»^(١) ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متماد في الإثم بأكله.

٢٧٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قيل: المراد به: الذين آمنوا بتحريم الربا.

٢٧٨ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا، وبقيت لهم بقايا، فأمرُوا أن يتركوها، ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال، فطالبوهم عند المَحَلِّ^(٢) بالمال والربا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان، فإنَّ دليل كماله امتثالُ المأمور به.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) أي: حلّ الأجل، كما في أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٥).

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا

٢٧٩ - ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فاعلموا بها. من: أذن بالشيء: إذا علم. يؤيده قراءة الحسن: (فأيقنوا) فأذنوا، حمزة، وأبو بكر، غير ابن غالب، فاعلموا بها غيركم. ولم يقل: بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبلغ؛ لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. وروي: أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

٢٨٠ - ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ ذو إعسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم، أو: فالأمر نظرة، أي: إنظار ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ يسار. ميسرة، نافع، وهما لغتان ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بالتخفيف، عاصم، أي: تتصدقوا برؤوس أموالكم، أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم. وبالتشديد غيره. فالتخفيف على حذف إحدى التاءين، والتشديد على الإدغام ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في القيامة. وقيل: أريد بالتصدق: الإنظار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به - وإن علمه - كأنه لا يعلمه.

٢٨١ - ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ترجعون أبو عمرو. فرجع لازم ومتعد. قيل: هي آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: وضعها في رأس المتين والثمانين من البقرة، وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يوماً، أو أحدًا وثمانين، أو سبعة أيام، أو ثلاث ساعات ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَكْدَلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

كَسَبَتْ ﴿ أي: جزاء ما كسبت ﴾ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ بنقصان الحسنات وزيادة السيئات.

٢٨٢- ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ ﴾ أي^(١): إذا دأب بعضكم بعضاً. يقال: دأبت الرجل: إذا عاملته بدين معطياً أو آخذاً ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ مدة معلومة كالخصاد، أو: الدَّيَّاس^(٢)، أو: رجوع الحاج. وإنما احتيج إلى ذكر الدين، ولم يقل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى؛ ليرجع الضمير إليه في قوله ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق، وأمن من النسيان، وأبعد من الجحود. والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. والأمر للندب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن المراد به السلم. وقال: لما حرم الله الربا أباح السلم. المضمون إلى أجل معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية. وفيه دليل على اشتراط الأجل في السلم ﴿ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ ﴾ بين المتداينين ﴿ كَاتِبٌ بِالْمَكْدَلِ ﴾ هو متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالاحتياط، لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع. وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً حتى يكتب ما هو مُتَّفَقٌ عليه ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ ﴾ ولا يمتنع واحد من الكتاب ﴿ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق، لا بيدل، ولا يُغَيَّرُ. و﴿ كَمَا ﴾ متعلق بأن يكتب ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ تلك الكتابة لا يعدل عنها ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ ولا يكن المملّي إلا من وجب عليه

(١) من المطبوع.

(٢) يقال: داس الحب، دياساً ودِياسَةً، درسه.

وَلَيَقِّنَ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا

الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته، وإقراره به، فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملاء والإملاء لغتان ﴿وَلَيَقِّنَ اللَّهُ رَبَّهُ﴾ وليتق الله الذي عليه الدين ربّه فلا يمتنع عن الإملاء، فيكون جحوداً لكلّ حقه ﴿وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء، فيكون جحوداً لبعض حقه ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: مجنوناً؛ لأن السفه خفة في العقل. أو محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صيباً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ لعي به، أو خرس، أو جهل باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ الذي يلي أمره، ويقوم به ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بالصدق، والحق ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدين على الدين ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام. وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان. وشهادة الرجال مع النساء تُقبل فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. وفيه دليل على أنّ غير المرضي شاهد ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ لأجل أن تنسى إحداها الشهادة فتذكرها الأخرى. (إن تضل إحداها) على الشرط (فتذكر) بالرفع والتشديد، حمزة. كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] (فتذكر) بالنصب، مكّي وبصري، من الذكر لا من الذكر ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل؛ لثلاث تنويعات^(١) حقوقهم. وسماهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن. فالأول للفرض، والثاني للندب ﴿وَلَا تَسْمَعُوا﴾ ولا تملوا. قال الشاعر^(٢):

(١) تنويع: تذهب.

(٢) هو زهير بن أبي سلمى.

أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
والضمير في: ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ للدين، أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أي حال كان الحق من صغر أو كبر. وفيه دلالة جواز السَّلَم في الثياب؛ لأن ما يكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير، وإنما يقال في الدرعي. ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصرًا، أو مشبعًا ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ لأنه في معنى المصدر، أي: ذلك الكتاب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط، وهو: العدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ظرف لأقسط. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة. وبني أفعال التفضيل - أي: أقسط وأقوم - من أقسط وأقام على مذهب سيبويه ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات، وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك. وألف أدنى منقلبة من واو؛ لأنه من الدنو ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ عاصم. أي: إلا أن تكون التجارة تجارة. أو: إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة. غيره: (تجارة) حاضرة على كان التامة. أي: إلا أن تقع تجارة حاضرة. أو: هي ناقصة، والاسم ﴿تجارة حاضرة﴾ والخبر ﴿تُدِيرُونَهَا﴾. ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف لتدِيرُونَهَا، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيها يدًا بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يدًا بيد، فلا بأس ألا تكتبوها؛ لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً، أو كالتأ؛ لأنه أحوط، وأبعد من وقوع الاختلاف. أو أريد به ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. والأمر للندب ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر - رضي الله عنه - ولا يُضَارُّ، وللمفعول

وَأَنِ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ

لقراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -: ولا يضارر. والمعنى: نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف، والزيادة، والنقصان. أو النهي عن الضرر بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزأ^(١)، أو: لا يعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلده ﴿وَأَنِ تَفْعَلُوا﴾ وإن تضاروا ﴿فَإِنَّهُ﴾ فإن الضرار ﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ مائم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ شرائع دينه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يلحقه سهو، ولا قصور.

٢٨٣ - ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المتدانيون ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ﴾ (فرهن): مكى، وأبو عمرو. أي: فالذي يستوثق به رهن. وكلاهما جمع رهن، كسقف وسقف، وبغل وبغال. ورهن في الأصل مصدر سمي به، ثم كثر تكسير الأسماء. ولما كان السفر مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد، لا أن السفر شرط تجويز الارتهان. وقوله: ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض، لا كما زعم مالك: أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به، فلم يتوثق بالكتابة، والشهود، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ دينه. واثمن: افتعل، من الأمن. وهو حث للمديون على أن يكون عند ظن الدائن، وأمنه منه، واثمناه له، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه. وسمي الدين أمانة، وهو مضمون، لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في إنكار حقه

(١) «اللزأ»: يقال: هو لزاز خصومة، أي: ملازم لها، قادر عليها.

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ هذا خطاب للشهود ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ ارتفع قلبه بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يآثم قلبه، أو: بالابتداء. وآثم: خبره مقدم، والجملة: خبر إن. وإنما أسند إلى القلب، والجملة هي الآثمة، لا القلب وحده؛ لأنَّ كتمان الشهادة أن يضمرها في القلب، ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً مكتسباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما تقول: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي. ولأنَّ القلب رئيسُ الأعضاء، والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه. ولأنَّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب! وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معازم الذنوب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من كتمان الشهادة وإظهارها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه.

٢٨٤ - ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ يعني: من سوء ﴿ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ يكافئكم، ويجازيكم. ولا تدخل الوسواس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، والحاصل: أن عزم الكفر كفر، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوة، وعزم الذنوب إذا ندم عليه، ورجع عنه، واستغفر منه مغفور. فأما إذا هم بسيئة، وهو ثابت على ذلك، إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره، فإنه لا يعاقب على ذلك عقوبة فعله. أي: بالعزم على الزنى لا يعاقب عقوبة الزنى. وهل يعاقب عقوبة عزم الزنى؟ قيل: لا، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها

فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

ما لم تعمل، أو تتكلم به»^(١). والجمهور على أَنَّ الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذه في العزم ثابتة، وإليه مال الشيخ أبو منصور، وشمس الأئمة الحلواني - رحمهما الله -. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ الآية [النور: ١٩]. وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما همّ العبد بالمعصية من غير عمل؛ يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن في الدنيا. وفي أكثر التفاسير: أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة - رضي الله عنهم - وقالوا: أنؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا؟! فنزل قوله: ﴿آمن الرسول﴾ إلى قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ فتعلق ذلك بالكسب دون العزم. وفي بعضها: أنها نسخت بهذه الآية. والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ برفعهما: شامي، وعاصم، أي: فهو يغفر ويعذب. وبجزمهما: غيرهم عطفاً على جواب الشرط. وبالإدغام: أبو عمرو، وكذا في الإشارة والبشارة. وقال صاحب «الكشاف»: مُدْغِمُ الرَّاءِ فِي اللَّامِ لَاحِنٌ مَخْطِئٌ. لَأَنَّ الرَّاءَ حَرْفٌ مَكْرَرٌ، فَيَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ الْمُضَاعَفِ، وَلَا يَجُوزُ إِدْغَامُ الْمُضَاعَفِ. وراويه عن أبي عمرو مخطِئٌ مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية^(٢) ما يؤذن بجهل عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢٨٥ - ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف المؤمنين على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في ﴿كُلُّ﴾ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم ﴿ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان عليه ﴿كل﴾ مبتدأ ثانياً، والتقدير: كل منهم، وآمن: خبر المبتدأ

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٥) والبخاري (٢٥٢٨) وأبو داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٦/١٥٦ - ١٥٧) وابن ماجه (٢٠٤٤).

(٢) في الكشاف: بالعربية.

لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِۦٓ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا

الثاني، والجملة: خبر الأول، وكان الضمير للمؤمنين. ووحد ضمير كل في آمن على معنى: كل واحد منهم آمن. (وكتابه): حمزة، وعلي، يعني: القرآن، أو الجنس ﴿لَا تُفَرِّقْ﴾ أي: يقولون ﴿لَا تفرق﴾ بل تؤمن بالكل ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِۦ﴾ أحد في معنى الجمع؛ ولذا دخل عليه بين، وهو لا يدخل إلا على اسم يدل على أكثر من واحد، تقول: المال بين القوم، ولا تقول: المال بين زيد ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أجابنا قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: اغفر لنا غفرانك، فهو منصوب بفعل مضمر ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع، وفيه إقرار بالبعث والجزاء. والآية تدل على بطلان الاستثناء في الإيمان، وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

٢٨٦ - ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ محكي عنهم، أو مستأنف ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يرد إلا بفعل يقدر عليه المكلف، كذا في «شرح التأويلات». وقال صاحب «الكشاف»: الوسع: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يخرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود... فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير، ويضرها ما اكتسبت من شر. وخص الخير بالكسب والشر بالاكْتِسَاب؛ لأن الافتعال للانكماش، والنفس تنكمش في الشر، وتتكلف للخير ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ تركنا أمراً من أوامرك سهواً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودل هذا على جواز المؤاخظة في النسيان والخطأ - خلافاً للمعتزلة - لإمكان التحرز عنهما في الجملة. ولولا جواز المؤاخظة بهما لم يكن للسؤال معنى ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ عبئاً يَأْصِرُ حامله، أي: يحبس مكانه لثقله. استعير للتكليف الشاق، من نحو: قتل الأنفس، وقطع

كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

موضع النجاسة من الجلد^(١) والثوب، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح سيئاتنا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا. وليس بتكرار، فالأول للكبائر، والثاني للصغائر ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا. أو: الأول من المسخ، والثاني من الخسف، والثالث من الغرق ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو: ناصرنا، أو: متولي أمورنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبيده.

في الحديث: «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة كفتاه»^(٢). وفيه: «من قرأها بعد العشاء الآخرة أجزأتها عن قيام الليل»^(٣). ويجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة، لما روي عن علي - رضي الله عنه - : خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. وقال بعضهم: يُكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تُذكر فيها البقرة، والله أعلم.

* * *

(١) في هامش المخطوط: المراد: جلد الخف والفرو، لا جلد البدن.

(٢) رواه أحمد (١٢٢/٤) والبخاري (٥٠٠٩) ومسلم (٨٠٧) (٢٥٥).

(٣) رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود. وفي إسناده: الوليد بن عباد، وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك. (الكشاف ١/٣٣٣).

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾

٢٠١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حُرِّكَتِ الميم لالتقاء الساكنين، أعني سكونها وسكون لام الله، وفتحت لخمزة الفتحة، ولم تكسر للياء وكسر الميم قبلها، تحامياً عن توالي الكسرات. وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها، إذ لو كان كذلك لوجب فتحها في «حم» ولا يصح أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت إلى الميم؛ لأن تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج، وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها، وإثباتها غير جائز. وأسكن يزيد والأعشى الميم وقطعاً الألف. والباقون بوصل الألف وفتح الميم. والله مبتدأ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره. وخبر: (لا) مضمرة، والتقدير: لا إله في الوجود إلا ﴿هو﴾. و﴿هو﴾ في موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحي، أو بدل من هو. والقيوم: فيعول، من قام، وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

٣ - ﴿نَزَلَ﴾ أي: هو نزل. ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزله حقاً ثابتاً ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هما اسمان

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

أعجبيان. وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعليل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وإنما قيل: ﴿نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة.

٤ - ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى، أو لجميع الناس ﴿وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ﴾ أي: جنس الكتب؛ لأن الكل يفرق بين الحق والباطل. أو: الزبور. أو: كَرَّرَ ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيماً لشأنه ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة، وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذو عقوبة شديدة، لا يقدر على مثلها منتقم.

٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في العالم. فعبّر عنه بالسماء والأرض. أي: هو مطلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه.

٦ - ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الصور المختلفة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره. روي أنه لما قدم وفد بني نجران - وهم ستون راكباً، أميرهم العاقب، وعمدتهم السيد، وأسقفهم وحرهم أبو حارثة - خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حي لا يموت وعيسى يموت، وأن ربنا قيم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما علم، وأنه صور عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعت، وأرضعته، وكان يأكل، ويحدث، وربنا مثزه عن ذلك كله؟» فانقطعوا، فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية^(١).

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (الدر المنثور ١٤٢/٢).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ

٧ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿مِنْهُ﴾ من الكتاب ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها، بأن حُفِظَتْ من الاحتمال والاشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب تحمل التشابهات عليها، وترد إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مشتبهات محتملات. مثال ذلك: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فلاستواء يكون بمعنى الجلوس، وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أو المحكم: ما أمر الله به في كل كتاب أنزله، نحو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآيات. والمتشابه ما وراءه. أو: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. وما احتمل أوجهاً. أو ما يعلم تأويله، وما لا يعلم تأويله. أو: الناسخ: الذي يعمل به، والمنسوخ: الذي لا يعمل به. وإنما لم يكن كل القرآن محكماً لما في التشابه من الابتلاء، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه، ورده إلى المحكم، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق، وهم أهل البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤوّلوه التأويل الذي يشتهونه. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يهندي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ والذين رسخوا، أي: ثبتوا فيه، وتمكنوا، وعضّوا فيه بضرر قاطع. مستأنف عند الجمهور. والوقف عندهم على قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وفسروا التشابه بما استأثر الله بعلمه. وهو مبتدأ عندهم، والخبر: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾. وهو ثناء منه تعالى عليهم بالإيمان على

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾

التسليم، واعتقاد الحقية بلا تكييف. وفائدة إنزال المتشابه: الإيمان به، واعتقاد حقيّة ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلاً. ويعضده قراءة أبي: (ويقول الراسخون)، وعبد الله (إن تأويله إلا عند الله). ومنهم من لا يقف عليه ويقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ﴿ويقولون﴾ كلام مستأنف موضح لحال الراسخين. بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به، أي: بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم؛ الذي لا يتناقض كلامه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ، وأصله: يتذكر ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول، وهو مدح للراسخين بإلقاء الذهن، وحسن التأمل وقيل: يقولون حال من الراسخين.

٨ - ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بخلق الميل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك، نعمة بالتوفيق والتثبيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ كثير الهبة. والآية من مقول الراسخين. ويحتمل الاستئناف، أي: قولوها. وكذلك التي بعدها وهي:

٩ - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم، أو لجزاء يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في وقوعه ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ الموعد. والمعنى: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله. أي: لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِي﴾ تنفع، أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ حطبها.

كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي تَقْتُلُ فِئَةً تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ

١١ - ﴿كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل: إذا كدح فيه. فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله. والكاف مرفوع المحل، تقديره: دأب هؤلاء الكفرة في تكذيب الحق كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. أو منصوب المحل بلن تغني، أي: لن تغني عنهم، مثل: ما لم تغن عن أولئك. (كداب) بلا همز حيث كان، أبو عمرو ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم، على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم. ويجوز أن يكون حالاً، أي: قد كذبوا ﴿فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، يقال: أخذته بكذا، أي: جازيته عليه ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ شديد عقابه، فالإضافة غير محضة.

١٢ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم مشركو مكة ﴿سَعْلَبُونَ﴾ يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ من الجِهَنَّمَ^(١)، وهي: بئر عميقة. وبالياء فيهما، حمزة وعلي ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقر، جهنم.

١٣ - ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي تَقْتُلُ فِئَةً تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ فئة أخرى ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ألفين، أو مثلي عدد المسلمين ستمئة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم، ويجنبوا عن قتالهم. تَرَوْنَهُمْ، نافع، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال: ﴿وَيُقِلُّ لَكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأنهم قللوا أولاً في

(١) في اللسان: الجِهَنَّمَ: القعر البعيد.

رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان
التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال
﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَلُ عَن ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ﴿وَقَفَّوهُمْ لِيَتَمَّ مَسْئَلُونَ﴾
[الصفات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة،
وإظهار الآية. ومثلهم نصب على الحال؛ لأنه من رؤية العين بدليل قوله:
﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن
يَشَاءُ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في تكثير
القليل ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوي البصائر.

١٤ - ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: ٧] دليله قراءة مجاهد ﴿زَيْنَ
لِلنَّاسِ﴾ على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة:
توقان النفس إلى الشيء. جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها
مشتهاة. أو: كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مسترذلة عند
الحكماء، مذموم من اتبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾
والإماء داخلة فيها. ﴿وَالْبَنِينَ﴾ جمع ابن. وقد يقع في غير هذا الموضع على
الذكور والإناث. وهنا أريد به الذكور، فهم المشتَهون في الطباع، والمعدون
للدفاع. ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو: المال الكثير. قيل: ملء منك^(١) ثور
أو مئة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام وبمكة مئة رجل قد قنطروا.
﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المنضدة، أو المدفونة. ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ سُمِّيَ ذهباً
لسرعة ذهابه بالإنفاق، وفضة لأنها تتفرق بالإنفاق. والفضُّ: التفريق.
﴿وَالْخَيْلِ﴾ سُمِّيَتْ به لاختيالها في مشيها. ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة، من: السَّومة،

(١) «منك»: جلد.

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾
 ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا بِمَا قُلْتُمْ وَلَٰكِنَّا ذُوقْنَا عَذَابَ
 النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّٰدِقِيْنَ وَالْمُتَّقِيْنَ وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ
 بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وهي: العلامة، أو المرعية، من: أسام الدابة، وسومها. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي
 الأرواح الثمانية. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا﴾ يتمتع بها في الدنيا. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ المرجع.

١٥ - ثم زهدهم في الدنيا فقال: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ من الذي
 تقدم ﴿لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف، فيه دلالة على بيان ما هو
 خير من ذلكم. فجنات مبتدأ و﴿لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا﴾ خبره. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
 صفة لجنات. ويجوز أن يتعلق اللام بخير. واختص المتقين؛ لأنهم هم المتفعون
 به. ويرتفع جنات على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ جنات بالجر، على
 البذل من خير. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رضا
 الله. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بأعمالهم فيجازيهم عليها، أو بصير بالذين
 اتقوا وبأحوالهم؛ فلذا أعد لهم الجنات.

١٦ - ﴿الَّذِيْنَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع، أو جر صفة للمتقين، أو
 للعباد. ﴿رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا بِمَا قُلْتُمْ وَلَٰكِنَّا ذُوقْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إنجازاً
 لوعده. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بفضلك.

١٧ - ﴿الصَّٰدِقِيْنَ﴾ على الطاعات والمصائب. وهو نصب على المدح.
 ﴿وَالْمُتَّقِيْنَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وفعللاً بإحكام العمل، ونية بإمضاء
 العزم. ﴿وَالْمُؤْمِنِيْنَ﴾ الداعين، أو المطيعين. ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ﴾ المتصدقين.
 ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْأَسْحَارِ﴾ المصلين، أو طالبي الغفرة. وخص الأسحار؛ لأنه

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

وقتُ إجابة الدعاء، ولأنه وقتُ الخلوة. قال لقمان لابنه: يا بني! لا يكن
الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم. والواو المتوسطة بين الصفات
للدلالة على كمالهم في كلِّ واحدةٍ منها. وللإشعار بأن كلَّ صفةٍ مستقلة بالمدح.
١٨ - ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: حكم أو قال. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرته. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء.
﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويشيب،
ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض، والعمل على السوية
فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى، أو من (هو).
وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت: جاء زيد
وعمره راكباً لم يجز؛ لعدم الإلباس، فإنك لو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز
لتميظه بالذكورة. أو: على المدح. وكرر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتأكيد. ﴿الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ رفع على الاستئناف، أي: هو العزيز، وليس بوصف لـ«هو» لأنَّ
الضمير لا يُوصف. يعني: أنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي لا يعدلُ
عن الحق.

١٩ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة. وقرئ^(١) ﴿أَنَّ الدِّينَ﴾
على البدل من قوله ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: شهد الله أن الدين عند الله
الإسلام.

قال ﷺ: «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق
يستغفرون له إلى يوم القيامة. ومن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به،
وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي [عند الله] وديعة، يقول الله تعالى يوم
القيامة: إن لعبدي عندي عهداً، وأنا أحق من وفي بالعهد، أدخلوا عبدي
الجنة»^(٢).

(١) من المطبوع.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٢٥ - ٣٢٦) وقال: رواه الطبراني، وفيه عمر =

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد، فثلث النصارى، وقالت اليهود: عزيز ابن الله. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ﴾ أنه الحق الذي لا محيد عنه. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً، لا شبهة في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعدما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بحججه، ودلائله. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع المجازاة.

٢٠- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في أن دين الله الإسلام. والمراد بهم: وفد بني نجران عند الجمهور. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾^(١) أي: أخلصت نفسي وجملي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبد، وأدعو إلهاً معه. يعني: أن ديني دين التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته، كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهو دفعٌ للمحاجة بأن ما هو عليه، ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لا شك فيه، فما معنى المحاجة فيه؟! ﴿وَجْهِيَ﴾: مدني، وشامي، وحفص، والأعشى، والبرجمي. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على التاء في أسلمت،

= ابن المختار، وهو ضعيف. وانظر الدر المنثور (١٦٦/٢). وما بين حاصرتين ساقط من المخطوط.

(١) في الأصل المخطوط: ثبتت قراءة: ﴿وَجْهِيَ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، والحضرمي، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٦/٢).

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ ءَاسْلَمْتُمْ ؕ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ۖ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

أي: أسلمت أنا ومن اتبعني. وحسن للفاصل. ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، فيكون مفعولاً معه. ومن اتبعني: في الحالين: سهل، ويعقوب. وافق أبو عمرو في الوصل. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى. ﴿وَالْأُمِّيَّةِ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿ءَاسْلَمْتُمْ﴾ بهمزيين، كوفي. يعني: أنه قد أتاكم من البينات حصول الإسلام، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، أي: أسلموا، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: لم يضروك، فإنك رسول منبه، ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وتنبه على طريق الهدى. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

٢١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ﴾ هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الأنبياء. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال مؤكد؛ لأن قتل النبي لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ ويقاثلون: حمزة. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي: سوى الأنبياء، قال ﷺ: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة. فقام مئة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف، ونهوا عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم»^(١). ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء في خبر إن لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشّرهم؛ بمعنى: من يكفر

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَصِيرَةٍ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنْ آلِ كُتَيْبٍ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ
 بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُ إِلَّا
 أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ

فبشرهم. وهذا لأنَّ (إِنَّ) لا تغير معنى الابتداء فهي للتحقيق، فكأن دخولها
 ك: لا دخول. ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع دخول الفاء.

٢٢ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: ضاعت. ﴿فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والحزى في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَصِيرَةٍ﴾ جمع لوقف رؤوس الآي، وإلا فالواحد النكرة في النفي يعم.

٢٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنْ آلِ كُتَيْبٍ﴾ يريد أخبار اليهود، وأنهم
 حصلوا نصيباً وافراً من التوراة. و«من» للتبويض، أو للبيان. ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حال
 من الذين. ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: التوراة أو القرآن. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جعل
 حاكماً حيث كان سبباً للحكم. أو: ليحكم النبي. روي أنه ﷺ دخل مدراسهم
 فدعاهم. فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال
 النبي ﷺ: «على ملة إبراهيم». قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: «إن
 بيننا وبينكم التوراة فهلوموا إليها». فأبى^(١). ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ استبعاد
 لا يزال الإعراضُ ديدنهم.

٢٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: ذلك التولي
 والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب، وطمعهم في الخروج من
 النار بعد أيام قلائل، وهي أربعون يوماً، أو سبعة أيام. وذلك: مبتدأ، وبأنهم
 خبره ﴿وَعَرَّهمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غرهم افتراؤهم على الله، وهو
 قولهم: نحن أبناء الله وأحبَّاءه فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة.

٢٥ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ﴾ فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت ﴿لَا

لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ
الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

رَيْبَ فِيهِ ﴿ لا شك فيه ﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴿ جزاء ما كسبت ﴾ وَهُمْ ﴿ ورجع إلى كل نفس على المعنى ؛ لأنه في معنى كل الناس ﴾ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ بزيادة في سيئاتهم، ونقصان في حسناتهم.

٢٦ - ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ الميم عوض من يا، ولذا لا يجتمعان. وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في: يا الله، وبالتفخيم ﴿ مَلِكُ الْمَلِكِ ﴾ تملك جنس الملك، فتصرف فيه تصرف الملأ كما يملكون. وهو نداء ثان، أي: يا مالك الملك ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له من الملك ﴿ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ أي: تنزعه. فالملك الأول عام، والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أنه ﷺ حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات! هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك. فنزلت ^(١) ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بالملك ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بنزعه منه ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أي: الخير والشر، فاكتمى بذكر أحد الضدين عن الآخر. أو: لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ تؤتبه أولياءك على رغم من أعدائك ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

وقيل: المراد بـ﴿الملك﴾ ملك العافية، أو ملك القناعة. قال ﷺ: «ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يوماً فيوماً» ^(٢). أو: ملك قيام الليل. وعن

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٦٣).
(٢) لم نجده في المصادر الحديثية المتوافرة لدينا.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

الشبلي: الاستغناء بالكون عن الكونين^(١). ﴿تعز﴾ بالمعرفة أو بالاستغناء بالكون أو بالقناعة ﴿وتذل﴾ بأضدادها. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

٢٧ - ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فالإيلاج: إدخال الشيء في الشيء، وهو مجاز هنا، أي: تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار وتزيد في الليل ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو الفرخ من البيضة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج، أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يعرف الخلق عدده ومقداره، وإن كان معلوماً عند الله ليدل على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادرٌ على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم، ويؤتية العرب ويعزهم. وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي. فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم. وهو معنى قوله ﷺ: «كما تكونوا يولّى عليكم»^(٢). «الحي من الميت» و«الميت من الحي» بالتشديد حيث كان: مدني وكوفي، غير أبي بكر.

٢٨ - ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نها أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم،

(١) «الكونان»: الدنيا والآخرة.

(٢) رواه القضايمي في مسند الشهاب (٣٧٢).

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقْنَةً^{٢٨} وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ^{٢٩} وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ^{٣٠} قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا يَوْمَ تَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٣١} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَبِينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا

أو لصداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك. وقد كرّر ذلك في القرآن. والمحبة في الله والبغض في الله بابٌ عظيمٌ في الإيمان ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثرهم عليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقْنَةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعادة ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ أي: ذاته، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه. وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معدّ لديه، وهو وعيد آخر.

٢٩ - ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا﴾ من ولاية الكفار، أو غيرها، مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ استئناف، وليس بمعطوف على جواب الشرط، أي: هو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يخفى عليه سرّكم وعلنكم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على عقوبتكم.

٣٠ - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَبِينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يوم: منصوب بتود. والضمير في «بينه» لليوم. أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خیرها وشرّها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمدًا بعيداً، أي: مسافة بعيدة. أو: باذکر. ويقع على «ما عملت» وحده. ويرتفع «وما عملت» على الابتداء و«تود» خبره. أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصحّ أن تكون «ما» شرطية لارتفاع تودّ. نعم: الرفع جائز إذا كان الشرط ماضياً، لكن الجزم هو

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

الكثير، وعن المبرد: أن الرفع شاذ. وكرر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم، لا يغفلون عنه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومن رآفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه. ويجوز أن يريد أنه، مع كونه محذوراً لكمال قدرته، مرجو لسعة رحمته؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

٣١ - ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ محبة العبد لله: إيثار طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد: أن يرضى عنه، ويحمد فعله. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل. فمن ادّعى محبته، وخالف سنة رسوله، فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه. وقيل: محبة الله: معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب به وبذكره، ودوام الأنس به. وقيل: هي اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يجزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحداً ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٣٢ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامة المحبة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن قبول الطاعة، ويحتمل أن يكون مضارعاً، أي: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يحبهم.

٣٣ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ اختار ﴿آدَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَعَالِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما ﴿وَعَالِ عِمْرَانَ﴾ موسى وهارون هما ابنا عمران بن يصر. وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان. وبين العمرانين ألف وثمانمئة سنة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ

٣٤ - ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل ابراهيم وآل عمران ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ مبتدأ، وخبره في موضع النصب صفة لذرية. يعني: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة، بعضها متشعب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان، وهو يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل ابراهيم رسول الله ﷺ. وقيل: بعضها من بعض في الدين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

٣٥ - ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وإذ: منصوب به، أو بإضمار اذكر ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم، جدة عيسى، وهي: حنة بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أوجبت ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ هو حال من ما، وهي بمعنى الذي، أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس، لا يد لي عليه، ولا أستخدمه. وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. أو مخلصاً للعبادة، يقال: طين حرّ، أي: خالص ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ (مَنِّي): مدني، وأبو عمرو. والتقبل: أخذ الشيء على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٣٦ - ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لـ «ما في بطني» وإنما أنث على تأويل الحبل، أو النفس، أو النسمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ حال من الضمير في وضعتها، أي: وضعت الحبل، أو النفس، أو النسمة أنثى. وإنما قالت هذا القول لأنّ التحرير لم يكن إلا للغلman، فاعتذرت عما نذرت، وتحزنت إلى ربها. ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر، قال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ تعظيماً لموضوعها. أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما علق به من عظام الأمور. ﴿وَضَعْتُ﴾ شامي، وأبو بكر، بمعنى: ولعل الله فيه سرّاً

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

وحكمة. وعلى هذا يكون داخلاً في القول، وعلى الأول يوقف عند قوله ﴿أُنثَى﴾ وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَالْأُنثَى﴾ التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿إِنِّي وضعتها أنثى﴾ وما بينهما جملتان معترضتان. وإنما ذكرت حنة تسميتها مريم لربها؛ لأن مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بذلك التقرب، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعانة لها ولولدها من الشيطان بقوله: ﴿وَإِنِّي﴾ ﴿وَإِنِّي﴾ مدني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها ﴿وَذَرَيْتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الملعون. في الحديث: «ما من مولود يُولدُ إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها»^(١).

٣٧ - ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الذكر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيل: القَبُولُ: اسم ما يقبل به الشيء، كالسقوط: لما يسقط به. وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم تُقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ، وتصلح للسدانة. رُوي أنَّ حنة لما ولدت مريم لَفَّتْهَا في خرقة، وحملتْها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحرار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم. وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم. فقال لهم زكريا: أنا أحقُّ بها، عندي أختها. فقالوا: لا، حتى نقرعَ عليها. فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فتكفلها. وقيل: هو مصدر، على تقدير حذف المضاف، أي: فتقبلها

(١) رواه أحمد (٢/٢٣٣) والبخاري (٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦).

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
يَمْرُؤُماً إِنَّ لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
هُنَالِكَ

بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة. قال ابن عطاء: ما كانت ثمرته مثل عيسى، فذاك أحسن النبات. ونباتاً: مصدر على خلاف الصدر، أو التقدير: فنبت نباتاً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾^(١) قبلها، أو ضمن القيام بأمرها. ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ كوفي، أي: كفَّلها الله زكريا، يعني: جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها ﴿زَكْرِيَّا﴾ بالقصر كوفي، غير أبي بكر، في كل القرآن. وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا. غيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة. ومعناه في العبري: دائم الذكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة تصعد إليها بسلم. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب. وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَمْرُؤُماً إِنَّ لِلَّهِ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستبعد. قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من جملة كلام مريم، أو: من كلام رب العالمين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرة، أو تفضلاً بغير محاسبة، ومجازاة على عمل.

٣٨ - ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب. أو: في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا، وحيث، وثم: للزمان. لما رأى حال

(١) في الأصل المخطوط ثبت قراءة: ﴿كَفَّلَهَا﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ٢٤).

دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

مريم في كرامتها على الله ومزلتها، رغب أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أمها حنة في الكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أمها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولداً. والذرية يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة. والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

٣٩ - ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل عليه السلام. وإنما قيل: الملائكة لأنَّ المعنى: أتاه النداء من هذا الجنس، كقولهم: فلان يركب الخيل. ﴿فناديه﴾ بالياء والإمالة: حمزة وعلي ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات. وقال ابن عطاء: ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحارِبِ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ^(١) بكسر الألف: شامي، وحمزة، على إضمار القول، أو: لأنَّ النداء قول. الباقون بالفتح، أي: بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ يُبَشِّرُكَ وما بعده: حمزة، وعلي، من بَشَرَةٍ. والتخفيف والتشديد لغتان ﴿يَحْيَى﴾ هو غير منصرف. إن كان عجمياً، وهو الظاهر فللتعريف والعجمة، كموسى وعيسى. وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل، كيُعمَر ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال منه ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى، مؤمناً به، فهو أول من آمن به. وسُمِّي عيسى كلمة الله لأنَّ تكوُّنه بكن بلا أب. أو مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف. وكان يحيى فائقاً على قومه؛ لأنه لم يركب سيئة قط، وبإيادها من سيادة! وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضاً عن المكون ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصراً لنفسه، أي: منعاً لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الهمزة.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَماً وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

الأنبياء، أو كائناً من جُملة الصالحين.

٤٠ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ﴾ استبعاد من حيث العادة، واستعظام للقدرة، لا تشكك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السن العالية، أي: أتر في الكبر، وأضعفني، وكان له تسع وتسعون سنة، وامرأته ثمان وتسعون ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

٤١ - ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي﴾ مدني، وأبو عمرو ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الجبل لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَماً﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو عين، أو حاجب. وأصله: التحرك يقال: ارتمز: إذا تحرك. واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام؛ لأنه لما أدى مؤدى الكلام، وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً. أو هو استثناء منقطع. وإنما خصّ تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذا قال: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة، والأدلة الظاهرة. وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله، لا يشغل لسانه بغيره. كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان منتزعا من السؤال. والعشي: من حين الزوال إلى الغروب. والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

٤٢ - ﴿وَإِذْ﴾ عطف على إذ قالت امرأة عمران، أو التقدير: واذكر إذ ﴿قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ﴾ روي أنهم كلموها شفاهاً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أولاً حين تقبلت من أم، ورباك، واختصك بالكرامة السنية ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من

وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

الأفعال ﴿وَأَصْطَفَاكِ﴾ آخرًا ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

٤٣ - ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ أديمي الطاعة، أو: أطيلي قيام الصلاة ﴿وَأَسْجُدِي﴾. وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيئات الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة. أو: وانظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني في عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم.

٤٤ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة، وزكريا، ويحيى، ومريم ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني: أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ أزلامهم، وهي: قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. أو: هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها، اختاروها للقرعة تبركاً بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دلّ عليه يلقون، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم، أو ليعلموا، أو يقولون ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها.

٤٥ - ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: اذكر ﴿يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي: بعيسى ﴿مِنْهُ﴾ في موضع جر صفة لكلمة ﴿اسْمُهُ﴾ مبتدأ. وذكر ضمير الكلمة لأنَّ المسمّى بها مذكر ﴿الْمَسِيحُ﴾ خبره، والجملة في موضع جر صفة لكلمة. والمسيح لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق، والفاروق. وأصله: مشيحاً بالعبرانية، ومعناه: المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا آمِنًا مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] وقيل: سُمّي مسيحاً لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، أو: لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة، لا يستوطن مكاناً ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ابْنُ

مَرِيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن

مَرِيَمَ ﴿٤٦﴾ خبراً مبتدأ محذوف، أي: هو ابن مريم. ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى؛ لأن اسمه عيسى فحسب وليس اسمه عيسى ابن مريم، وإنما قال ﴿ابن مريم﴾ إعلماً لها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والطاعة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بعلو الدرجة، والشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السَّماء. وقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ حال من «كلمة» لكونها موصوفة، وكذا ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وثابتاً من المقربين وكذا:

٤٦ - ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ أي: ومُكَلِّمًا الناس ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في يكلم، أي: ثابتاً في المهد، وهو: ما يُمهد للصبى من مضجعه، سُمِّيَ بالمصدر ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه، أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، أي: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة؛ التي يستحكم فيها العقل، ويستتبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال أيضاً، والتقدير: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات.

٤٧ - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ أي: إذا قدر تكون شيء كونه من غير تأخير. لكنه عبر بقوله: ﴿كُنْ﴾ إخباراً عن سرعة تكون الأشياء بتكوينه.

٤٨ - ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدني، وعاصم، وموضعه حال معطوفة على: وجيهاً. الباقر بالنون على أنه كلام مبتدأ ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة، وكان أحسن الناس خطأً في زمانه. وقيل: كُتِبَ الله ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ بيان الحلال والحرام. أو: الكتاب: الخط باليد، والحكمة: البيان باللسان ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

٤٩ - ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعله رسولاً. أو: يكون في موضع الحال، أي: وجيهاً في الدنيا والآخرة ورسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي﴾ بآني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنِّتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

رَبِّكُمْ ﴿١٩﴾ بدلالة تدلُّ على صدقي فيما أدعيه من النبوة ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ نصب بدل من ﴿أني قد جئتكم﴾. أو: جر بدل من «آية». أو: رفع على هي ﴿أني أخلق لكم﴾ ﴿إني﴾ نافع على الاستئناف ﴿مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور. طائراً: مدني ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره. قيل: لم يخلق شيئاً غير الخُفَّاش ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الذي وُلد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿كُرِّرَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ دفعاً لوهم من يتوهم فيه اللاهوتية. رُوي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام وهم ينظرون إليه. فقالوا: هذا سحر مبین، فأرنا آية. فقال: يا فلان! أكلت كذا، ويا فلان خُبِّي لك كذا، وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ و«ما» فيهما بمعنى الذي، أو: مصدرية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما سبق. ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٥٠ - ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: قد جئتكم بآية، وجئتكم مُصَدِّقًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ردَّ على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى عليه السلام: الشحوم، ولحوم الإبل، والسّمك، وكلّ ذي ظفر. فأحلّ لهم عيسى بعض ذلك ﴿وَجَنِّتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرّر للتأكيد ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أمري.

٥١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية، ونفي للربوبية عن نفسه،

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دوني ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يؤدِّي صاحبه إلى النعيم المقيم.

٥٢ - ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفراً، علماً لا شبهة فيه، كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي﴾ مدني. وهو جمع ناصر كأصحاب، أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يتعلّق بمحذوف حال من الياء، أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله، ملتجئاً إليه ﴿قَالَكَ الْخَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل: صفوته، وخاصته ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أعوان دينه ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ﴾ ياعيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرُّسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم. وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد

٥٣ - ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: رسولك عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو: مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس.

٥٤ - ﴿وَمَكْرُوهًا﴾ أي: كفار بنى إسرائيل الذين أحسن^(١) منهم الكفر حين أرادوا قتله، وصلّبه ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قُتل. ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق. وعلى هذا: الخداع والاستهزاء، كذا في «شرح التاويلات» ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أقوى المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

(١) أي: أحسن عيسى عليه السلام.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

٥٥ - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوف
أجلك. ومعناه: أني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومميتك حتف أنفك،
لا قتلاً بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمانى ومقر ملائكتى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾: من سوء جوارهم، وخبث صحبتهم. وقيل: متوفيك: قابضك من
الأرض، من: توفيت مالى على فلان: إذا استوفيته. أو: مميتك في وقتك
بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا توجب الترتيب. قال
النبي ﷺ: «ينزل عيسى خليفة على أمتي، يدق الصليب، ويقتل الخنازير،
ويلبث أربعين سنة، ويتزوج، ويولد له، ثم يتوفى. وكيف تهلك أمة أنا في
أولها وعيسى في آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها؟»^(١) أو متوفي
نفسك بالنوم، ورافعك وأنت نائم؛ حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في
السماء آمن، مقرب. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي: المسلمين - لأنهم متبعوه في
أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع - دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود
والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعلنونهم بالحجة، وفي
أكثر الأحوال بها وبالسيف ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٥٦ - ٥٧ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾ وتفسير الحكم هاتان الآيتان. (فيؤفّيهم): حفص.

(١) رواه ابن جرير (٢٩١/٣)، وانظر: الدر المنثور (٢٢٥/٢).

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
 ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا

٥٨ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره. وهو مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ خبره ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ القرآن. يعني: المحكم، أو: كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

٥٩ - نزل لما قال وفد بني نجران: هل رأيت ولداً بلا أب؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ قدره جسداً من طين. وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها. أي: خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم. فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب، وأخرق للعادة من الوجود من غير أب. فشبّه الغريب بالأغراب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وعن بعض العلماء: أنه أُسر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له. قال: فأدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيى الموتى. قال: فحزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنه طُبِّخَ وأُخْرِقَ ثم قام سالماً ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي: أنشأه بشراً ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فكان. وهو حكاية حال ماضية. و«ثم» لترتيب الخبر على الخبر، لا لترتيب المخبر عنه.

٦٠ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أيها السامع ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ. ويكون من باب التهيج لزيادة الثبات؛ لأنه ﷺ معصوم من الامتراء.

٦١ - ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من البيانات الموجبة للعلم. و«ما» بمعنى الذي ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا. والمراد: المجيء بالعزم والرأي، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة

نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: يدع كل منا ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة - بالفتح والضم -: اللعنة، وبهله الله: لعنه الله وأبعده من رحمته. وأصل الابتهاال هذا، ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. روي أنه ﷺ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فقال العاقب - وكان ذا رأيهم -: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى! أن محمداً نبي مرسل، وما باهل قومٌ نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكنَّ. فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله ﷺ وقد غداً محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني. فقالوا: يا أبا القاسم! رأينا ألا نباهلك. فصالحهم النبي على ألفي حلة كل سنة. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلَّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسحوا قردة وخنازير»^(١). وإنما ضمَّ الأبناء والنساء، وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه؛ لأنَّ ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تمَّت المباهلة. وخصَّ الأبناء والنساء لأنهم أعزَّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليلٌ واضحٌ على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وابن مروان: متروك، متهم بالكذب (حاشية الكشف ٣٦٩/١).

فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

يرور أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسى. ونبتهل، ونجعل: معطوفان على ندع.

٦٢ - ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فصل بين اسم إن وخبرها، أو مبتدأ. و﴿القصص الحق﴾ خبره. والجملة: خبر إن. وجاز دخول اللام على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولها على الخبر، كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و﴿مِنْ﴾ في: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق. والمراد: الردّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير الأحكام.

٦٣ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا، ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٦٤ - ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ﴾ هم أهل الكتابين، أو وفد نجران، أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أي: مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله. وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله! قال: «أليس كانوا

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا إِنَّا تَسْلِمُونَ ﴿١٥﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ هَٰئِذَا نَحْنُ
 هَٰؤُلَاءِ حَاجِّجَتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا
 كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

يحلّون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: «هو ذاك»^(١)
 ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزمتمكم الحجة
 فوجب عليكم أن تعترفوا، وتسلموا بأننا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب
 للمغلوب في جدال أو صراع: أعترف بأنني أنا الغالب، وسلّم إليّ الغلبة.

٦٥ - ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِهِ﴾ زعم كلّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا
 رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه. فقيل: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة،
 والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين
 عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة
 متطاولة؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

٦٦ - ﴿هَٰئِذَا نَحْنُ هَٰؤُلَاءِ﴾ ها: للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبره
 ﴿حَاجِّجَتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص
 الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مما
 نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له في
 كتابيكم من دين إبراهيم. وقيل: هؤلاء: بمعنى الذين، وحاججتم: صلته.
 ﴿ها أنتم﴾ بالمد وغير الهمز حيث كان، مدني، وأبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ علم
 ما حاججتم فيه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من
 دينهم فقال:

٦٧ - ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِزْهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ

كأنه أراد بالمشركين: اليهود والنصارى؛ لإشراكهم به عزيزاً والمسيح. أو: وما كان من المشركين كما لم يكن منهم.

٦٨ - ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِزْهِيمَ﴾ إن أخصهم به، وأقربهم منه، من: الولي، وهو: القرب ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ خصوصاً. خصّ بالذكر لخصوصيته بالفضل، والمراد: محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من أمته ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

٦٩ - ﴿وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

٧٠ - ﴿يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله. أو: تكفرون بالقرآن، ودلائل نبوة الرسول، وأنتم تشهدون نعته في الكتابين. أو: تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق.

٧١ - ﴿يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ نعت محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

٧٢ - ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: القرآن ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ ظرف، أي: أوله. يعني: أظهروا الإيمان

وَكَفَرُوا بآخِرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ آلِهْدِي هُدَىٰ
 اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ يَبْدِ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ
 يَشَاءُ

بما أنزل على المسلمين في أول النهار. ﴿وَكَفَرُوا بآخِرِهِمْ﴾ واكفروا به في آخره
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا
 لأمر قد تبين لهم، فيرجعون برجعكم.

٧٣ - ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ آلِهْدِي هُدَىٰ اللَّهُ﴾ «ولا تؤمنوا» متعلق
 بقوله: ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا
 إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا:
 أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من الكتب مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه
 إلا إلى أشياعكم وحدهم، دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون
 المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن
 «يؤتى». والضمير في «يحاجوكم» لأحد؛ لأنه في معنى الجمع. بمعنى:
 ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق،
 ويغالبونكم عند الله بالحجة. ومعنى الاعتراض أن الهدى هدى الله، من شاء
 هداه حتى أسلم أو ثبت على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم،
 وحيلكم، وذبتكم^(١) تصديقكم عن المسلمين والمشركين. وكذلك قوله: ﴿قُلْ
 إِنْ الْفَضْلَ يَبْدِ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو: يتم الكلام عند قوله
 ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا﴾ هذا الإيمان الظاهر، وهو إيمانهم
 وجه النهار ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا
 منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم. ومعنى قوله:
 ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ قلتم ذلك، ودبرتموه لا شيء
 آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد والبغي ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من
 العلم والكتاب، دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. ويدل عليه قراءة ابن كثير (أَنْ)

(١) «ذبتكم»: أي: منعمكم.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿٧٣﴾ يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
 * وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ
 لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ

بالمدة والاستفهام يعني: الآن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم؟
 وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذا معناه: دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحدٌ مثل
 ما أوتيتم، أو لما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم ﴿وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿عَلَيْهِ﴾ بالمصلحة.

٧٤ - ﴿يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ﴾ بالنبوة، أو بالإسلام ﴿مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ﴾.

٧٥ - ﴿* وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ هو عبد الله بن
 سلام. استودعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنَ
 إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ هو فتاح بن عازوراء استودعه رجلٌ من قريش
 ديناراً، فجحده، وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة
 عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ
 قَائِمًا﴾ إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له.
 (يؤده) و(لا يؤده) بكسر الهاء مشبعة: مكى، وشامي، ونافع، وعلي،
 وحفص. واختلس أبو عمرو في رواية. غيرهم بسكون الهاء ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة
 إلى ترك الأداء الذي دلَّ عليه: لا يؤده ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾
 أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي:
 لا يتطرق علينا إثم وذم في شأن الأميين، يعنون: الذين ليسوا من أهل
 الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم، والإضرار بهم لأنهم ليسوا على
 ديننا. وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، وكانوا يقولون: لم يجعل لهم في
 كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم،
 فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ

كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم أَنَّ ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٦ - ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ جملة مستأنفة، مقررّة للجملة التي سدت بلى مسدّها. والضمير في ﴿بعهده﴾ يرجع إلى الله تعالى، أي: كل من أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحبهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى مَنْ. ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر، وأعمال السوء. قيل: نزلت في عبد الله ابن سلام ونحوه من مسلمي أهل الكتاب. ويجوز أن يرجع الضمير إلى من أوفى، أي: كل من وفى بما عاهد عليه، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

٧٧ - ونزل فيمن حرّف التوراة، وبَدَل نعته ﷺ من اليهود، وأخذ الرشوة على ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به، ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من التروس، والارتشاء، ونحو ذلك. وقوله: ﴿بعهد الله﴾ يُقَوِّي رجوع الضمير في ﴿بعهده﴾ إلى الله ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ نظر رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يشي عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٧٨ - ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحَيِّ بن أخطب، وغيرهم ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يفتلون بها بقراءته عن الصحيح إلى المحرّف. واللي: القتل، وهو: الصرف.

لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

والمراد: تحريفهم؛ كآية الرجم، ونعت محمد ﷺ، ونحو ذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ يرجع الضمير إلى ما دلَّ عليه ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ وهو المحرّف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب، لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٩ - ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام. وقيل: قال رجل: يا رسول الله! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجدَ لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله»^(١) ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة، وهي: السنة، أو فصل القضاء ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ﴾ عطف على «يؤتيه» ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ يَقُولُ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، وهو: شديد التمسك بدين الله وطاعته. وحين مات ابنُ عباس قال ابنُ الحنفية: مات ربانيُّ هذه الأمة. وعن الحسن ﴿ربانيين﴾ علماء فقهاء. وقيل: علماء معلّمين. وقالوا: الرباني: العالم العامل ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ كوفي وشامي، أي: غيركم. غيرهم بالتخفيف ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون. والمعنى: بسبب كونكم عالمين، وبسبب كونكم دارسين للعلم، كانت الربانية - التي هي قوة التمسك بطاعة الله - مسببة عن العلم والدراسة. وكفى به دليلاً على خيبة سعي من

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٧٤) من حديث الحسن البصري. قال ابن حجر: لم أجده إسناداً. (حاشية الكشف ٣٧٨/١).

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

جهد نفسه، وكذا روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسنة تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها. وقيل: معنى ﴿تدرسون﴾ تدرسونه على الناس، كقوله: ﴿لِقَرَأَةِ آلِ النَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون، من التدريس، كقراءة ابن جبير.

٨٠ - ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ثم يقول﴾. ووجهه أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبه الله، وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له، ويأمركم ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني، ولا يستخف بي. وبالرفع: حجازي، وأبو عمرو، وعلي، على ابتداء الكلام. والهمزة في: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ للإنكار، والضمير في ﴿لا يأمركم﴾ و﴿أَيَأمركم﴾ للبشر، أو لله. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

٨١ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. أو المراد: ميثاق أولاد النبيين، وهم بنو إسرائيل، على حذف المضاف. واللام في: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ لام جواب القسم، و﴿ما﴾ يجوز أن تكون متضمنة لمعنى الشرط، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به. ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى (ما) محذوف، والتقدير: ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذي معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ حمزة بالرسول ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي: الرسول، وهو محمد ﷺ ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ حمزة و«ما» بمعنى الذي، أو مصدرية. أي: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب

قَالَ أَقَرَّرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقَرَّرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم. واللام للتعليل. أي: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه لأجل أنني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. (آتيناكم) مدني ﴿قَالَ﴾ أي: الله ﴿أَقَرَّرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم عهدي. وسُمِّي إصرأ لأنه مما يؤصر، أي: يشد، ويعقد ﴿قَالُوا أَقَرَّرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلكم من إقراركم وتشاهدكم. وهذا تأكيد عليهم، وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

٨٢ - ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الميثاق، والتوكيد، ونقض العهد بعد قبوله، وأعرض عن الإيمان بالنبي الجائي ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار.

٨٣ - ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون. فغير دين الله ييغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون، فغير دين الله ييغون. وقدم المفعول وهو ﴿غير دين الله﴾ على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار - الذي هو معنى الهمزة - متوجه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدلة، والإنصاف من نفسه ﴿وَكْرْهًا﴾ بالسيف، أو بمعاناة العذاب، كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، أي: طائعين ومكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازون على الأعمال. (ييغون) و(يرجعون) بالياء فيهما، حفص. وبالتاء في الثاني وفتح الجيم، أبو عمرو؛ لأن

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ

الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وبالناء فيهما وفتح الجيم، غيرهما.
 ٨٤ - ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن معه بالإيمان. فلذا وحّد الضمير في ﴿قل﴾ وجمع في ﴿آمنّا﴾. أو: أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. وعدى ﴿أنزل﴾ هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. وقال صاحب «اللباب»: الخطاب في البقرة للأمة لقوله ﴿قولوا﴾ فلم يصح إلا «إلى»؛ لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً وهنا قال ﴿قل﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه. وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب، وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ﴾ كرّر في البقرة ﴿وما أوتي﴾ ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الإيتاء، حيث قال: ﴿لما آتيتكم﴾ ﴿من ربهم﴾ من عند ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ - ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني: التوحيد، وإسلام الوجه لله. أو: غير دين محمد ﷺ ﴿دِينًا﴾ تمييز ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا في الخسران.

٨٦ - ونزل في رهط أسلموا، ثم رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ والواو في: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾

للحال، وقد مضى، أي: كفروا وقد شهدوا أن الرسول، أي: محمداً حق. أو للعطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل؛ لأن معناه: بعد أن آمنوا ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ما داموا مختارين الكفر، أو: لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفراً.

٨٧ - ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ وهما خبر أولئك. أو: جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٨٨ - ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿عليهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٨٩ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر العظيم، والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، أو: دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

٩٠ - ونزل في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعبسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. أو ﴿كَفَرُوا﴾ برسول الله ﷺ بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فيه في كل وقت. أو: نزل في الذين ارتدوا، ولحقوا بمكة وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نترصد بمحمد ريب المنون ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: إيمانهم عند البأس؛ لأنهم لا يتوبوا إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٥] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
 افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا
 مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

٩١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ الفاء في ﴿فلن يقبل﴾ يؤذن بأن الكلام بُني على الشرط والجزاء، وأنَّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وترك الفاء فيما تقدّم يُشعر بأن الكلام مبتدأ وخبر، ولا دليل فيه على التسيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أي: ﴿فلن يقبل من أحدهم﴾ فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. قال ﷺ: «يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم فيقال له: لقد سُئلت أيسر من ذلك»^(١). قيل: الواو لتأكيد النفي ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ معينين، دافعين للعذاب.

٩٢ - ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر، أو: أن تكونوا أبراراً، أو: لن تنالوا بر الله، وهو ثوابه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها. وعن الحسن: كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمره فهو داخل في هذه الآية، قال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب، وإلى الرب بالتخلي عن الكونين. وقال أبو بكر الوراق: لن تنالوا برّي بكم إلا ببركم بإخوانكم. والحاصل: أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه كان يشتري أعدل^(٢) الشكر ويتصدق بها، فقيل له: لم لا تتصدق بثمرتها؟ قال: لأن السكر أحب إليّ، فأردت أن أنفق مما أحب ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عليم بكل شيء تنفقونه، فيجازيكم بحسبه. و«من» الأولى للتبويض لقراءة عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) والثانية للتبيين. أي: من أي شيء كان الإنفاق طيب تحبونه، أو خبيث تكرهونه.

(١) رواه أحمد (٢/٢١٨) والبخاري (٦٥٣٨) ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢).

(٢) «أعدل»: جمع عدل وهو الكيس يُعبأ فيه المتاع والحاجات.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) ﴿ فَمَنْ أَفْزَرَنِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩٤)

٩٣ - ولما قالت اليهود للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها! فقال ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله»^(١) فقالت اليهود: إنها لم تنزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، نزل تكذيباً لهم: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ أي: المطعومات التي فيها النزاع؛ فإن منها ما هو حرام قبل ذلك، كالهيئة، والدم ﴿ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي: حلالاً، وهو مصدر، يقال: حلَّ الشيء حلاً، ولذا استوى في صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿ لَاهُنَّ جِلَّ لَهُمْ ﴾ [المتحنة: ١٠] ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ ﴾ أي: يعقوب. ﴿ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ وبالتخفيف، مكي وبصري. وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحب الطعام إليه. والمعنى: أن المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه. فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها، لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبيحتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حُرِّمَ عليهم تحريمٌ حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه. فلم يجروا على إخراج التوراة وبُهِتُوا. وفيه دليلٌ بين على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

٩٤ - ﴿ فَمَنْ أَفْزَرَنِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم، ولا يلتفون إلى البينات.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٥ - ٧٦).

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

٩٥ - ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يحرم. وفيه تعريضٌ بكذبهم، أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل، وأنتم الكاذبون ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ﷺ ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٩٦ - لما قالت اليهود للمسلمين: قبلتنا قبل قبلكم نزل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الواضع هو الله عز وجل. ومعنى وضع الله بيتاً للناس: أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وفي الحديث: «إن المسجد الحرام وُضِعَ قبل بيت المقدس بأربعين سنة»^(١). قيل: أول من بناه إبراهيم، وقيل: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وقيل: هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الأرض. وقوله: ﴿وَضَعَ لِلنَّاسِ﴾ في موضع جر صفة لبيت، والخبر: ﴿لِلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: للبيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكَّه: إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها، أو لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي: تدقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب، وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم و﴿مباركاً﴾ و﴿هدى﴾ حالان من الضمير في ﴿وضع﴾.

٩٧ - ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ علامات واضحات، لا تلتبس على أحد ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ وصحَّ بيان الجماعة بالواحد لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه، وقوة دلالاته على قدرة الله تعالى، ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد، أو لا شتماله على آيات؛ لأن

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠ و ١٦٦) والبخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبيين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة. على أن: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ عطف ببيان لآيات - وإن كان جملة ابتدائية، أو شرطية - من حيث المعنى؛ لأنه يدلّ على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله، والاثنان في معنى الجمع، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، وكثير سواهما، نحو: انمحاق الأحجار مع كثرة الرماة، وامتناع الطير من العلو عليه، وغير ذلك. ونحوه في طي الذكر قوله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيْبُ، وَالنِّسَاءُ، وَقِرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). فقرة عيني ليس من الثلاث، بل هو ابتداء كلام؛ لأنها ليست من الدنيا، والثالث مطوي. وكأنه ﷺ ترك ذكر الثالث تنبيهاً على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدنيا، فذكر شيئاً هو من الدين. وقيل في سبب هذا الأثر: أنه لما ارتفع ببيان الكعبة، وضعف إبراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر، فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام: انزل حتى تغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعت على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شقّ رأسه، ثم حوّلتها إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وأمان من دخله بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جنى كلّ جناية، ثم التجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر - رضي الله عنه - : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ومن لزمه القتل في الحلّ بقود، أو ردة، أو زنى، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار؛ لقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ بُعِثَ يَوْمَ

(١) رواه أحمد (١٠٨/٣) والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٨٨) والحاكم (١٦٠/٢).

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

القيامة آمناً من النار»^(١). وعنه عليه السلام: «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة، وهما مقبرتا مكة والمدينة»^(٢). وعنه عليه السلام: «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مئتي عام»^(٣). ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ أي: استقر له عليهم فرض الحج. (حج البيت): كوفي غير أبي بكر، وهو اسم، وبالفتح مصدر، وقيل: هما لغتان في مصدر حج ﴿مَنْ﴾ في موضع جر، على أنه بدل البعض من الكل ﴿اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فسرها النبي صلى الله عليه وآله بالزاد والراحلة^(٤). والضمير في «إليه» للبيت، أو للحج، وكل مأتى إلى الشيء فهو سبيلٌ إليه. لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وآله أهل الأديان كلهم فخطبهم، فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجّوا»^(٥) فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فنزل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: جحد فرضية الحج، وهو قول ابن عباس، والحسن، وعطاء. ويجوز أن يكون من الكفران، أي: من لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم، وسعة الرزق، ولم يحج ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ مستغن عنهم، وعن طاعتهم. وفي هذه الآية أنواع من التأكيد، والتشديد، منها: اللام، وعلى، أي: أنه حق واجب لله في رقاب الناس. ومنها: الإبدال، ففيه تشنية للمراد، وتكرير له، ولأن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنها: قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ مكان «ومن لم يحج» تغليظاً على تاركي الحج. ومنها: ذكر

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤١٨٠).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/٣٨٩).

(٣) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/٢٢٦) وقال: حديث باطل، لا أصل له.

(٤) رواه الترمذي (٢٩٩٨).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤/٢٠).

قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

الاستغناء، وذلك دليلٌ على المقت، والسخط، ومنها: قوله: ﴿عن العالمين﴾ وأن لم يقل: «عنه» وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه.

٩٨ - ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو للحال. والمعنى: ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها.

٩٩ - ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصد: المنع ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها، وهو الإسلام، وكانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وحل ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبون لها: نصب على الحال ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة؛ بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصد عن سبيله، وهو وعيد شديد.

١٠٠ - ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصّادّين عن سبيله بقوله: ﴿يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قيل: مرّ شاس بن قيس اليهودي على نفرٍ من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدّثهم وتألّفهم، فأمر شاباً من اليهود أن يذكرهم يوم بُعث لعلهم يغضبون. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح! السلاح! فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أندعون

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وألف بينكم؟! «فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً باكين، فنزلت الآية (١)».

١٠١ - ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار والتعجب، أي: من أين يتطرق إليكم الكفر؟! ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ والحال أن آيات الله - وهي القرآن المعجز - تتلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وبين أظهركم رسول الله ﷺ يُنَبِّهَكُمْ ويعظكم، ويزيح عنكم شبهكم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه، أو بكتابه، أو: هو حث لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أرشد إلى الدين الحق، أو: من يجعل ربه ملجأ ومفرجاً عند الشبه يحفظه عن الشبه.

١٠٢ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى. أو: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه، أو بنيه، أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبدٌ حق تقاته حتى يخزن لسانه. والتقاء من اتقى، كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

١٠٣ - ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ تمسكوا بالقرآن؛ لقوله ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد. من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم» (٢) ﴿جَمِيعًا﴾ حال

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) مطوّلًا، وقال: هذا حديث إسناده مجهول، وفي الحارث الأعور مقال.

وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

من ضمير المخاطبين. وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي: ولا تتفرقوا، يعني: ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع. أو: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم، كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوة والحروب، فألف بين قلوبهم بالإسلام، وقذف في قلوبهم المحبة، وصاروا إخواناً ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم؛ لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بالإسلام. وهو رد على المعتزلة، فعندهم هم الذين ينقدون أنفسهم لا الله تعالى. والضمير للحفرة، أو: للنار أو للشفا، وأنث لإضافته إلى الحفرة. وشفا الحفرة: حرفها. ولامها واو؛ فلهذا يشى: شفوان ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: القرآن الذي فيه أمر ونهي، ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب، وما ينال به الثواب.

١٠٤ - ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنة الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عما استقبحة الشرع والعقل. أو: المعروف: ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر: ما خالفهما. أو: المعروف: الطاعة. والمنكر: المعاصي. والدعاء إلى الخير عام في التكليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص. ومن: للتبعض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته؛ فإنه يبدأ بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ [الحجرات: ٩]. أو للتبيين، أي: وكونوا أمة تأمرون؛ كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴿آل عمران: ١١٠﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم
الأخصاء بالصلاح الكامل. قال ﷺ: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر فهو
خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»^(١). وعن علي رضي الله
عنه - أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠٥ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في الديانة. وهم
اليهود والنصارى؛ فإنهم اختلفوا، وكفر بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾
الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي: كلمة الحق ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾.

١٠٦ - ونصب ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بالظرف وهو ﴿لَهُمْ﴾ أو بعظيم، أو
بذكروا. أي: وجوه المؤمنين ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكافرين. والبياض
من النور، والسواد من الظلمة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم:
﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ فحذف الفاء والقول جميعاً للعلم به. والهمزة للتوبيخ والتعجب من
حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يوم الميثاق، فيكون المراد به: جميع الكفار، وهو قول
أبي، وهو الظاهر. أو: هم المرتدون، أو المنافقون، أي: أكفرتم باطناً بعد
إيمانكم ظاهراً. أو: أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان: تكذيبهم برسول الله
ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٠٧ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ففي نعمته، وهي: الثواب
المخلد، ثم استأنف فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يموتون.
١٠٨ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في الوعد، والوعيد، وغير ذلك ﴿نَتْلُوهَا

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤٠٠/٣) في ترجمة كادح بن رحمة. قال الأزدي
وغیره: كذاب.

عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى

عَلَيْكَ ﴿﴾ ملتبسة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ والعدل، من جزاء المحسن والمسيء ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي: لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

١٠٩ - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ تُرْجَعُ ﴾، شامي، وحمزة، وعلي.

١١٠ - كان: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، ولا دليل فيه على عدم سابق، ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، أو: كنتم في علم الله، أو: في اللوح خير أمة، أو: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ أظهرت. ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ اللام تتعلق بأخرجت ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ كلام مستأنف، بين به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم. بينت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالإيمان، وطاعة الرسول ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن الكفر، وكلّ محذور ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وتدومون على الإيمان به. أو: لأن الواو لا تقتضي الترتيب ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم فيه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة، واستتباع العوام. ولو آمنوا لكان لهم من الرئاسة، والاتباع، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إتياء الأجر مرتين ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون في الكفر.

١١١ - ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من

وَأِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا
بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

طعن في الدين، أو: تهديد، أو: نحو ذلك ﴿وَأِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ﴾
منهزمين، ولا يضروكم بقتل، أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر
من أحد، ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم
بتوبيخهم وتهديدهم، وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء،
وليس بمعطوف على «يولوكم» إذ لو كان معطوفاً عليه لقليل: ثم لا ينصروا.
وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا. وتقدير الكلام:
أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم: أنهم لا ينصرون. و«ثم»
للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار
بتوليئهم الأدبار.

١١٢ - ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: على اليهود ﴿أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا﴾
وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ في محل النصب على الحال، والباء متعلق بمحذوف
تقديره: إلا معتصمين، أو متمسكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ والحبل:
العهد، والذمة. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في كل حال، إلا في حال
اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني: ذمة الله وذمة المسلمين، أي: لا عزَّ
لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَاءُ وَ
بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على
قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو خوف الفقر مع قيام
اليسار ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك:
إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة، والمسكنة، والبواء بغضب الله، أي: ذلك
كائن بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: ذلك الكفر، وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله،
واعتدائهم لحدوده.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾

١١٣ - ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب مستوين ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بياناً لقوله: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، أي: استقام، وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن. ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته، واحدها: إني، كمعي، أو: إني، كقنو، أو: إني، كنخي ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلون. قيل: يريد صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وقيل: عبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود.

١١٤ - ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، وسائر أبواب البر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الكفر، ومنهيات الشرع ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت. وقوله: يتلون، ويؤمنون: في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة، تالون، مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيزاً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم كانوا مدهنيين. ومن المسارعة في الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر سارع بالقيام به ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم.

١١٥ - ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء فيهما، كوفي غير أبي بكر. وأبو عمرو وغيره. غيرهم بالتاء. وعُدِّي يكفروه إلى مفعولين - وإن كان «شكر»

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ

و«كفر» لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها - لتضمُّنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، أي: فلن تحرموا جزاءه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

١١٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من عذاب الله ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١١٧ - ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في المفاخر، والمكارم، وكسب الثناء، وحسن الذكر بين الناس. أو: ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثال مهلك ريح، وهو الحرث، أو: مثل إهلاك ما ينفقون كمثال إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو مبتدأ وخبر في موضع. جرُّ صفة لريح، مثل: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. أو: يكون الضمير للمتقين، أي: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لاثقة للقبول.

١١٨ - ونزل نهياً للمؤمنين عن مصافاة المنافقين: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةٍ﴾ بطانة الرجل ووليجه: خصيصه، وصفية. شبه ببطانة الثوب، كما يقال: فلان شعاري. وفي الحديث: «الأنصار شعار، والناس دثار»^(١) ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم، وهم المسلمون، وهو صفة لبطانة. أي:

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ
 أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوْنَهُمْ وَلَا يُحِبُّوْنَكُمْ
 وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ
 الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا﴾ في موضع النصب صفة
 لبطانة. يعني: لا يقصرون في فساد دينكم. يقال: ألا في الأمر يألو: إذا قصر
 فيه. والخبال: الفساد. وانتصب خبالاً على التمييز، أو على حذف في، أي: في
 خبالكم ﴿وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم. فما: مصدرية. والعنت: شدة الضرر
 والمشقة، أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه. وهو
 مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتحاذهم بطانة، كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ
 مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون - مع ضبطهم أنفسهم - أن ينفلت من ألسنتهم
 ما يعلم به بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾
 مما بدا. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالة
 أولياء الله، ومعاداة أعدائه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ ما بُيِّنَ لكم.

١١٩ - ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ ها للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وأولاء: خبره، أي: أنتم
 أولاء الخاطئون في موالة منافقي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّوْنَهُمْ وَلَا يُحِبُّوْنَكُمْ﴾ بيان
 لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. أو: أولاء: موصول
 صلته ﴿تُحِبُّوْنَهُمْ﴾. والواو في: ﴿وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ للحال، وانتصابها من
 «لا يحبونكم» أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع
 ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه
 توبيخ شديد؛ لأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. وقيل: الكتاب للجنس
 ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فارقوكم، أو خلا
 بعضهم ببعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يوصف المغناط والنادم بعض
 الأنامل، والبنان، والإبهام ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم
 حتى يهلكوا به. والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام، وعز
 أهله، وما لهم في ذلك من الذل والخزي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم

إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

ما في صدور المنافقين من الخنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض. وهو داخل في جملة المقول، أي: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. أو: خارج عن المقول، أي: قل لهم ذلك يا محمد، ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم بما هو أخفى من ذلك، وهو: ما أضمره في صدورهم.

١٢٠ - ﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رخاء، وخصب، وغنيمة، ونصرة ﴿سَوَّاهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا. والمس مستعار من الإصابة، فكأن المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَاذْكُرْهَا لِلَّهِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهَا فَذِكْرٌ لَكَ وَلِأَنْتَ مُصِيبٌ﴾ [التوبة: ٥٠]. ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مانهتهم عنه من موالاتهم. أو: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على تكاليف الدين ومشاقه ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في اجتنابكم محارمه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم، وكنتم في كنف الله. وهذا تعليم من الله، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ مكى، وبصري، ونافع، من ضاره يضيره بمعنى ضره، وهو واضح. والمشكل قراءة غيرهم لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط مجزوم، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم، إلا أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، نحو: مدّ: يا هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالتاء سهل، أي: من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُحِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وبالياء غيره، أي: أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

١٢١ - ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واذكر يا محمد إذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة. والمراد: غدوه من حجرة عائشة - رضي الله عنها - إلى أحد ﴿تُبَوِّئُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ تنزلهم، وهو حال ﴿مَقْلَعِدَ الْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف من الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين، والساقة. وللقتال: يتعلق بـ«تبوء» ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وضمائركم. روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، ودعا عبد الله بن أبي فاستشاره، فقال: أقم بالمدينة، فما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا، وما دخلوا علينا إلا أصابنا منهم. فقال ﷺ: «إني رأيت في منامي بقرأ مذبحاً حولي، فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلثة فأولتها هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة». فلم يزل به قومٌ ينشطون في الشهادة حتى لبس لأمته، ثم ندموا، فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال^(١).

١٢٢ - ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ بدل من إذ غدوت. أو: عمل فيه معنى ﴿عليم﴾ ﴿طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ حيّان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس. وكان ﷺ خرج إلى أحد في ألف، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخذل عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهم الحيان باتباعه، فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي: بأن تفشلا، أي: بأن تجبنا وتضعفا. والفشل: الجبن، والخور ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾ محبهما، أو ناصرهما، أو متولي أمرهما، فما لهما تفشلان، ولا تتوكلان على الله؟! ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم ألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه. قال جابر: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله بأنه ولينا.

١٢٣ - ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر،

(١) رواه أحمد (٢٧١/١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٥/٣).

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

وهم في حال قلة وذلة فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يُسَمَّى بدرًا، فَسُمِّيَ به. أو ذكر بدرًا بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلّة العدد - فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم زهاء ألف مقاتل - والعدد فإنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد، ومع عدوهم مئة فرس، والشكّة والشوكة. وجاء بجمع القلة، وهو «أذلة»؛ ليدلّ على أنهم على ذلتهم كانوا قليلًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ - ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أي: نصركم الله وقت مقاتلتكم هذه، أو: بدل ثان من «إذ غدوت»، على أن يقول لهم ذلك يوم أحد ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ «منزّلين»: شامي. «منزّلين»: أبو حيوة، أي: النُصرة. ومعنى أَلَنْ يكفيكم: إنكار ألا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وجيء بـلن الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلّتهم، وضعفهم، وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر.

١٢٥ - ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي: يكفيكم الإمداد بهم. فأوجب الكفاية، ثم قال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على القتال ﴿وَتَتَّقُوا﴾ خلاف الرسول ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ يعني: المشركين ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ هو من فارت القدر: إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت بها الحالة التي لا ريث بها، ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقليل: خرج من فوره، كما تقول: من ساعته لم يلبث. ومنه قول الكرخي: الأمر المطلق على الفور لا على التراخي. والمعنى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يعني: أن الله تعالى يعجل نصرتمكم، ويسر فتحكم إن

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾
لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

صبرتم واتقيتم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو، مكى، وأبو عمرو، وعاصم، وسهل،
أي: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرفون بها في الحرب. والسومة:
العلامة. عن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنانها.
غيرهم بفتح الواو، أي: معلمين. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على
أكتافهم. وكانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. قال
قتادة: نزلت ألفاً فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف.

١٢٦ - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذي دلَّ عليه ﴿أَن
يَمْدُكُمْ﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم
بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة
بالنصر، وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة،
ولا من عند الملائكة، ولكن ذلك مما يقوِّي به الله رجاء النصرة، والطمع في
الرحمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب في أحكامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر
لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه.

١٢٧ - واللام في: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل
والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش:
متعلقة بقوله: ﴿ولقد نصركم الله﴾ أو بقوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾
أو: بـ ﴿يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ﴾ ﴿أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ﴾ أو: يخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة. وحقيقة
الكبت: شدة وهن تقع في القلب، فيصرع في الوجه لأجله ﴿فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾
فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم.

١٢٨ - ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اسم ليس ﴿شيء﴾ والخبر ﴿لك﴾ ﴿ومن
الأمر﴾ حال من شيء؛ لأنها صفة مقدّمة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿ليقطع
طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم﴾. و﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض بين
المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: أنَّ الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن

أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصرُّوا على الكفر. وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومجاهدتهم. وعن الفراء ﴿أو﴾ بمعنى: حتى. وعن ابن عيسى بمعنى: إلا أن، كقولك: لألزمك؛ أو تعطيني حقي. أي: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاء الله تعالى؛ لعلمه أن فيهم من يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للتعذيب.

١٢٩ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأمر ضله لا لك؛ لأنَّ ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ الكافرين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ﴿مُضَاعَفَةً﴾: مكى، وشامي. هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه. كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله يقول: إما أن تقضي حقي، أو تربى، وتزيد في الأجل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٣١ - ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوقُّرهم على طاعته وطاعة رسول الله، بقوله:

١٣٢ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفيه ردُّ على المرجئة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلاً، وعندنا: غير الكافرين

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ^(١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

من العصاة قد يدخلها، ولكن عاقبة أمره الجنة. وفي ذكره تعالى: «لعل» «وعسى» في نحو هذه المواضع - وإن قال أهل التفسير: إن لعل وعسى من الله للتحقيق - ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله تعالى، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

١٣٣ - ١٣٤ - ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ سارعوا: مدني، وشامي. فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومن حذفها استأنفها. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يؤصل إليهما. ثم قيل: هي الصلوات الخمس، أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة، والجماعات ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض؛ كقوله ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسط، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض. وما روي: أنَّ الجنة في السماء السابعة، أو في السماء الرابعة، فمعناه أنها في جهتها، لا أنها فيها، أو في بعضها، كما يقال: في الدار بستان، وإن كان يزيد عليها؛ لأنَّ المراد: أنَّ بابه إليها ﴿أُعِدَّتْ﴾ في موضع جر صفة لجنة أيضاً، أي: جنة واسعة معدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ودلَّت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان ثمَّ المتقي: من يتقي الشرك، كما قال ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] أو: من يتقي المعاصي. فإن كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة، وإن كان الأوَّل فهي لهم أيضاً في العاقبة. ويوقف عليه إن جعل ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حال اليسر والعسر، مبتدأ، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾. وجعل الخبر ﴿أولئك﴾. وإن جعل وصفاً للمتقين، وعطف عليه ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي: أعدت للمتقين والتائبين فلا وقف، فإن قلت: الآية تدلُّ على أنَّ الجنة معدة للمتقين والتائبين

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

دون المصرين، قلت: جاز أن تكون معدة لهما، ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما، كما يقال: أعدت هذه المائدة للأمر، ثم قد يأكلها أتباعه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَنْقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق؟! وافتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شيء على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة فقراء المسلمين. وقيل: المراد: الإنفاق في جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ عن الإمضاء. يقال: كظم القربة إذا مלאها، وشد فاهها، ومنه: كظم الغيظ: وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر، ولا يظهر له أثرًا. والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»^(١) ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا»^(٢). وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشد - وقد غضب على رجل - فخلاه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس، فيتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. أو: للعهد، فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن الثوري: الإحسان: أن تحسن إلى المسيء فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

١٣٥ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح. ويجوز أن يكون «والذين» مبتدأ خبره: «أولئك» ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة. أو: الفاحشة: الزنى، وظلم النفس: القبلية، واللمسة، ونحوهما ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ بلسانهم، أو قلوبهم ليعبثهم على التوبة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين. قيل: بكى إبليس حين نزلت

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٦) والترمذي (٢٠٢٢) وابن ماجه (٤١٨٦).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧٤٥١).

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
 أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

هذه الآية ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿من﴾ مبتدأ، و﴿يغفر﴾ خبره، وفيه ضمير يعود إلى من. و﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير في ﴿يغفر﴾ والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. وفيه تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب - وإن جلّت - فإنَّ عفوه أجلّ، وكرمه أعظم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم. والإصرار: الإقامة. قال ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(١). وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»^(٢) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الضمير في «ولم يصروا» أي: ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم أسأؤوا، أو: ﴿وهم يعلمون﴾ أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

١٣٦ - ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون. ﴿جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّتْ﴾ برحمته ﴿تَجَرَّى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات. نزلت في تمار قال لا امرأة تريد التمر: في بيتي تمر أجود، فأدخلها بيته وضمها إلى نفسه، وقبّلها، فندم. أو: في أنصاري استخلفه ثقيفي - وقد أخى بينهما النبي ﷺ - في غيبة غزوة، فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبّلها، فندم، فساح في الأرض صارخاً، فاستعبه الله تعالى.

١٣٧ - ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنّه الله تعالى في

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٤).

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧٩٤٤).

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ

الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فتعبروا بها.

١٣٨ - ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن، أو: ما تقدم ذكره ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي: إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

١٣٩ - ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنيمة. أو: على من قتل منكم، أو جرح. وهو تسليّة من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد، وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ بالنصر والظفر في العاقبة. وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة ﴿وَلَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]. أو: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ شأنًا؛ لأن قتالكم لله، وإعلاء كلمته، وقاتلهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر. أو: لأن قتالكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهاي، أي: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ إن صحَّ إيمانكم، يعني: أن صحة الإيمان توجب قوة القلب، والثقة بوعده الله، وقلة المبالاة بأعدائه. أو: بالأعلو، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به، ويُبشِّركم به من الغلبة.

١٤٠ - ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ﴾^(١) بضم القاف حيث كان كوفي، غير حفص. وبفتح القاف غيرهم. وهما لغتان كالضَّعْف والضُّعْف. وقيل: بالفتح: الجراحة، وبالضم: ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أي: إن نالوا منك يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر؛ ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، لم يمنعهم عن

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿قَرْحٌ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٦٦/٢).

وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوُّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾

معاودتكم إلى القتال، فأنتم أولى ألا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿الْآيَاتُ﴾ صفة،
والخبر ﴿نداولها﴾ ﴿نُذَوُّلُهَا﴾ نُصَرَّفُهَا. ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نصرف ما فيها من
النعم والنقم، نعطي لهؤلاء تارة، وطوراً لهؤلاء، كيبت الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا فيوماً نساءً ويوماً نُسَرَّ (١)
﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: نداولها لضروب من التدبير، وليعلم الله
المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم، كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرم ناساً منك بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو:
ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِنَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض
التعليل وبعض. ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان
المجاهدين في سبيله، وهم: المنافقون، والكافرون.

١٤١ - ﴿وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ التمهيص: التطهير، والتصفية ﴿وَيَمَحَقَ
الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتتميز،
والاستشهاد، والتمهيص. وإن كانت على الكافرين فلمحقهم، ومحو آثارهم.

١٤٢ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها
الإنكار، أي: لا تحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: ولما تجاهدوا؛
لأن العلم متعلق بالمعلوم.. فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقة؛ لأنه منتف
بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيراً، أي: ما فيه خير حتى يعلمه. ولما
بمعنى لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقع، فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى، وعلى
توقّعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن. والواو بمعنى الجمع،
نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. أو: جزم للعطف على يعلم الله. وإنما

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

حركت الميم لالتقاء الساكنين. واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها.

١٤٣ - ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ خطب به الذين لم يشهدوا بداراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه، وتعرفوا شدته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه معانين، مشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنّيهم الموت، وعلى ما تسبّبوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه. وإنما تمنّوا الشهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفار، كمن شرب الدواء من طبيب نصراني، فإن قصده حصول الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرّاً منفعه إلى عدو الله، وتنفيقاً لصناعته.

١٤٤ - لما رمى ابنُ قميّة رسول الله ﷺ بحجرٍ فكسر رباعيته، أقبل يريد قتله، فذبّ عنه مصعب بن عمير، وهو صاحب الراية، حتى قتله ابن قميّة، وهو يرى أنه رسول الله ﷺ. فقال: قتلْتُ محمداً. وصرخ صارخ - قيل: هو الشيطان -: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، ففشا في الناس خبر قتله، فانكفؤوا. وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله! فدينك بآبائنا وأمهاتنا، أتنا خبرُ قتلِكَ فولّينا مدبرين، فنزل^(١): ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا. وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن متمسكوا بدينه بعد خلوه؛ لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى

(١) قال ابن حجر: هذا متزع من عدة أخبار في وقعة أحد (حاشية الكشاف ١/٤٢١).

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

التسبب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوة الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت، أو قتل، مع علمهم أن خلوة الرسل قبله، وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه. والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد، أو عن الانزمام ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وإنما ضرر نفسه ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا. وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

١٤٥ - ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعلمه، أو بأن يأذن للملك الموت في قبض روحه. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله. وفيه تحريض على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك، واقتحم المعارك ﴿كَتَبْنَا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿مُوجَلًّا﴾ مؤقلاً له أجل معلوم لا يتقدم، ولا يتأخر ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة. وهو تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد. ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: إعلاء كلمة الله، والدرجة في الآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وسنجزى الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

١٤٦ - ﴿وَكَانَ﴾ أصله أي، دخل عليه كاف التشبيه، وصارا في معنى كم التي للتكثير. وكان بوزن كاع حيث كان، مكى ﴿مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ﴾ قتل كائناً معه مكى، وبصري، ونافع ﴿مَعَهُ﴾ حال من الضمير في قتل، أي: قتل كائناً معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون: الربانيون. وعن الحسن بضم الراء، وعن البعض بفتحها، فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب، والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فما فتروا عند قتل نبيهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا

وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
 ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَتْ لَهُمْ
 اللَّهُ تَوَابٌ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوا كُفْرَكُمْ وَعَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
 بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

ضَعُفُوا ﴿﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ وما خضعوا لعدوهم. وهذا تعريضٌ
 بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، واستكانتهم لهم
 حيث أرادوا أن يعتصدوا بابن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الصَّابِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

١٤٧ - ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: وما كان قولهم إلا
 هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لها
 ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حدَّ العبودية ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في القتال. ﴿وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بالغبلة. وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب
 تثبيت الأقدام في موطن الحرب والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة؛
 لما فيه من الخضوع والاستكانة.

١٤٨ - ﴿فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ تَوَابٌ الدُّنْيَا﴾ أي: النصرة، والظفر، والغنيمة ﴿وَحُسْنُ
 ثَوَابٍ الْآخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة. وخُصَّ بالحسن دلالة على فضله، وتقدمه، وأنه
 هو المعتد به عنده ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هم محسنون، والله يحبهم.

١٤٩ - ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوا كُفْرَكُمْ وَعَلَىٰ
 أَعْقَبِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قيل: هو عام في جميع
 الكفار. وعلى المؤمنين أن يجانبوهم، ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يستجروهم
 إلى موافقتهم. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه، وتستأمنوهم،
 يردوكم إلى دينهم. وقال عليّ - رضي الله عنه -: نزلت في قول المنافقين
 للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم.

١٥٠ - ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم، فاستغنوا عن نصرة غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ
 النَّاصِرِينَ﴾.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
 صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
 وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَّا تُحِبُّونَ

١٥١ - ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الرُّعْبُ: شامي، وعلي. وهما لغتان. قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد، فانهزموا إلى مكة من غير سبب، ولهم القوة والغلبة ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. ولم يرد أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة. وإنما المراد: نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله:

..... ولا تَرَى الضَّبَّ بها يُنَجِّحِر (١)

أي: ليس بها ضب فينجحِر، ولم يعن: أن بها ضباً ولا ينجحِر ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ ورجعهم ﴿النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذم محذوف.

١٥٢ - ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فنزل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قتلاً ذريعاً. وعن ابن عيسى: حسه: أبطل حسه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره، وعلمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبستم. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر نبيكم بترككم المركز، واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، وقهر الكفار. ومتعلق إذا محذوف تقديره: ﴿حتى إذا فشلت منكم نصره. وجاز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدرة: لا تفزع الأرنب أهوالها.

مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة.

رُوي أن رسول الله ﷺ جعل أحدًا خلف ظهره، واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم، ولا يبرحوا؛ كانت الدولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقيون يضربونهم بالسيوف، حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، حتى إذا فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا؟ فادخلوا عسكر المسلمين، وخذوا الغنيمة مع إخوانكم. وقال بعضهم: لا تخالفوا أمر رسول الله ﷺ. فممن ثبت مكانه: عبد الله بن جبير - أمير الرماة - في نفر دون العشرة، وهم المعنيون بقوله ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كف معونته عنكم، فغلبوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم عندها. وحقيقته: ليعاملكم معاملة المختبر؛ لأنه يجازي على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم، وقبول توبتهم. أو: هو متفضل عليهم في جميع الأحوال، سواء أدبيل لهم، أو أدبيل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة، كما أن النصرة رحمة.

١٥٣ - وانتصب ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض. والإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد فيه. بصرفكم، أو بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أو بإضمار: اذكروا ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ ولا تلتفتون. وهو عبارة عن غاية انهزامهم، وخوف عدوهم ﴿وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول: ﴿إِلَيَّ عباد الله! أنا رسول الله! من يكرّ فله الجنة».

فِي أُخْرَيْنَكُم مَّا قَاتَبْتُم بِمَا كَفَرْتُمْ عَلَيْهِ أَنزَلْنَا عَلَى مَنَّا أَصْحَابَكُم مَّا أَصْحَابَكُم وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ

والجملة في موضع الحال ﴿فِي أُخْرَيْنَكُم﴾ في ساقتمكم، وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم، وأولاهم؛ بتأويل مقدمتهم، وجماعتهم الأولى ﴿قَاتَبْتُم﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿عَمَّا﴾ حين صرفكم عنهم، وابتلاككم. ﴿يَغْمِرُ﴾ بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم أمره، أو: غمًا مضاعفًا، غمًا بعد غم، وغمًا متصلًا بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِيَكِيلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا قَاتَبْتُم﴾ لتتمرنوا على تفرج الغموم، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ﴿وَلَا مَا أَصْحَابَكُم﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عالم بعملكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب في الطاعة، وترهيب عن المعصية.

١٥٤ - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا﴾ ثم أنزل الله الأمن على

المؤمنين، وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم، حتى نَعَسُوا، وغلبهم النوم. عن أبي طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدهنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه^(١). والأمنة: الأمن. و﴿نُعَاسًا﴾ بدل من أمنة. أو هو مفعول، و﴿أمنة﴾ حال منه مقدمة عليه، نحو: رأيت راكباً رجلاً. والأصل: أنزل عليكم نعاساً ذا أمنة، إذ النعاس ليس هو الأمن. ويجوز أن يكون «أمنة» مفعولاً له، أو حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبار وبررة ﴿يَغْشَى﴾ يعني: النعاس. «تغشى» بالتاء والإمالة: حمزة، وعلي، أي: الأمنة ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ هم أهل الصدق، واليقين ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ هم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ما يهتمهم إلا هم أنفسهم وخلصها، لا هم

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ
 الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
 شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
 مَضَاجِعِهِمْ

الدين، ولا هم رسول الله ﷺ والمسلمين - رضوان الله عليهم - ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به. وهو ألا ينصر محمداً ﷺ ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه. والمراد: الظن المختص بالملة الجاهلية. أو: ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون: النصر، والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ﴾ أي: النصر، والغلبة ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين ﴿وَيَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْقَاتِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كُلَّهُ﴾ تأكيد للأمر و﴿لِلَّهِ﴾ خبر إن ﴿كُلَّهُ﴾ بصري. وهو مبتدأ، و﴿لِلَّهِ﴾ خبره، والجملة خبر إن. ﴿يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفاً من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو بعضهم لبعض، منكرين لقولك لهم: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ﴿لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه، وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قُتِل من المسلمين من قُتِل في هذه المعركة. ﴿قد أهتمهم﴾ صفة لطائفة. و﴿يظنون﴾ خبر لطائفة، أو صفة أخرى، أو حال، أي: قد أهتمهم أنفسهم ظانين. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يظنون﴾. و﴿يخفون﴾ حال من ﴿يقولون﴾. و﴿قل إن الأمر كله لله﴾ اعتراض بين الحال وذو الحال. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يخفون﴾ أو استئناف ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: من علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة، وكتب ذلك في اللوح، لم يكن بُدَّ من وجوده. فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم بأحد، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ

ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح جمة، وللابتلاء، والتمحيص ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

١٥٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ انهموا ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد ﷺ وجمع أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ دعاهم إلى الزلة، وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب، والتعليل بكسبهم وعظ وتأديب. وكان أصحاب محمد ﷺ تولوا عنه يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلاً، منهم: أبو بكر، وعلي، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

١٥٦ - ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كابن أبي وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم في النسب، أو: في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة، أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ جمع غاز، كعاف وعُمى، وأصابعهم موت، أو قتل ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام تتعلق بـ«لا تكونوا»، أي: لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول، واعتقاده؛ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة، ويصون منها قلوبكم. أو: بـ«قالوا»، أي: قالوا ذلك، واعتقدوه؛ ليكون ذلك حسرة في قلوبهم. والحسرة: الندامة على فوت المحبوب ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رد لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والمقاتل، ويميت

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ

المقيم والقاعد ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم. يعملون: مكّي، وحمة، وعلي، أي: الذين كفروا.

١٥٧ - ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ «متم» وبابه بالكسر، نافع، وكوفي، غير عاصم. تابعهم حفص إلا في هذه السورة، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم بضم الميم في جميع القرآن. فالضم من: مات يموت. والكسر: من مات يمات كخاف يخاف، فكما تقول: خفت، تقول: مت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف. وبالياء: حفص^(١).

١٥٨ - ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة، المشيب، العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غني عن البرهان. «لمغفرة» جواب القسم، وهو ساذ مسدّ جواب الشرط. وكذلك ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾. كذب الكافرين أولاً في زعمهم: أن من سافر من إخوانهم، أو غزا، لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد. ثم قال لهم: ولئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت، أو القتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا؛ لأن الدنيا زاد المعاد، فإذا وصل العبد إلى المرات لم يحتاج إلى الزاد.

١٥٩ - ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ «ما» مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه، وتوفيقه

(١) أشار المصنف - رحمه الله - إلى قراءة حفص المثبتة في النص، وأما قراءة «تجمعون» بالتاء، فهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمة والكسائي.

وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ

للفرق، والتلطف بهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ جافياً ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحدٌ منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يوم أحد مما يختص بك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختص بحق الله، إتماماً للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي تطيباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، ورفعاً لأقذارهم، ولتقتدي بك أمتك فيها. في الحديث: «ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»^(١). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ^(٢). ومعنى: شاورت فلاناً: أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي، وشرت الدابة: استخرجت جريها. وشرت العسل: أخذته من مأخذه. وفيه دلالة جواز الاجتهاد، وبيان أن القياس حُجَّةٌ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد، لا على المشورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، والتوكل: الاعتماد على الله، وتفويض الأمر إليه. وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

١٦٠ - ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. وإنما يدرك نصر الله من تبرا من حوله وقوته، واستعصم بربه وقدرته ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، وهو: ترك المعونة؛ أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من

(١) قال ابن حجر: المحفوظ عن الحسن. ورواه الطبري موقوفاً عليه في التفسير (١٥٢/٤).

(٢) قال ابن حجر: هذا فيه تحريف، والصواب: من رسول الله ﷺ لأصحابه. رواه الترمذي بإثر حديث (١٧١٤) في الجهاد.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ
كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٣﴾

بعد فلان، تريد: إذا جاوزته. وهذا تنبيه على أَنَّ الأمر كله لله، وعلى وجوب
التوكل عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل
والتفويض إليه، لعلمهم: أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

١٦١ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ مكى، وأبو عمرو، وعاصم، أي: يخون.
وبضم الياء وفتح الغين غيرهم. يقال: غلَّ شيئاً من المغنم غلولاً، وأغلَّ
إغلالاً: إذا أخذه في خفية، ويقال: أغله إذا وجده غالاً. والمعنى: ما صح له
ذلك، يعني: أن النبوة تنافي الغلول. وكذا من قرأ على البناء للمفعول، فهو
راجع إلى هذا لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا ان
غالاً. روي أن قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعضُ
المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فنزلت الآية ^(١) ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ﴾ أي: يأت بالشيء الذي غلَّه بعينه، حاملاً له على ظهره، كما جاء في
الحديث ^(٢)؛ أو: يأت بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ﴾ تُعطى جزاءها وافيأ. ولم يقل: ثم يوفى ما كسب - ليتصل بقوله: ومن
يغلل - بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من
حيث المعنى. وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال: أَنَّ كُلَّ كاسب خيراً أو شراً مجزي
فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ﴾ أي: جزاء كل على قدر كسبه.

١٦٢ - ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ أي: رضا الله. قيل: هم المهاجرون
والأنصار ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكفار ﴿وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٩).

(٢) رواه أحمد (٤٢٦/٢) والبخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١).

هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ

١٦٣ - ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات. أو: ذوو درجات. والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها، فيجازيهم على حسابها.

١٦٤ - ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه. وخصّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربياً مثلهم. أو: من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده. والمنّة في ذلك من حيث إنه إذا [كان منهم] ^(١) كان اللسان واحداً، فيسهل أخذ ما يحبّ عليهم أخذه عنه. وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم. وفي قراءة رسول الله من أنفسهم، أي: من أشرفهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم بالإيمان من دنس الكفر والطغيان، أو: يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﷺ. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عَمَى، وجهالة ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر لا شبهة فيه. إن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والتقدير: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مبين.

١٦٥ - ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين. وهو في موضع رفع صفة لمصيبة ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُحِبِّدْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

لاختياركم الخروج من المدينة، أو لترككم المركز ﴿لما﴾ نصب بقلتم، و﴿أصابكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أنى هذا﴾ نصب؛ لأنه مقول. والهمزة: للتقرير والتقرير. وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أو على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا، وقلتم حينئذ كذا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على النصر وعلى منعه.

١٦٦ - ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ «ما» بمعنى الذي، وهو مبتدأ ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأحد. والخبر: ﴿فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله، أي: بعلمه، وقضائه ﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦٧ - ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وهو كائن؛ لتمييز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين، وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوْا فَنُحِبِّدْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوْ أَذْفَعُوا﴾ أي: قاتلوا دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، إن لم تُقاتلوا للآخرة. وقيل: ﴿أو اذفَعُوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما تُروِّع العدو ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو نعلم ما يصح أن يُسمى قتالاً لاتبعناكم. يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم ليس بشيء، ولا يقال لمثله: قتال، إنما هو: إلقاء النفس في التهلكة ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعني: أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، وما ظهرت منهم أمارات تؤذن بكفرهم، فلما انخلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخزال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يضمرون من

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

الإيمان وغيره. والتقيد بالأفواه للتأكيد، ونفي المجاز ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

١٦٨ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: ابن أبي وأصحابه. وهو في موضع رفع على «هم الذين قالوا». أو: على الإبدال من واو «يكتمون». أو نصب بإضمار: أعني. أو على البدل «من الذين نافقوا». أو جرّ على البدل من الضمير في «أفواههم» أو قلوبهم ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود، ووافقونا فيه، لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر، فخذوا حذرکم من الموت. أو: معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً، وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً. ورُوي أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

١٦٩ - ونزل في قتلى أحد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ شامي، وحمزة، وعلي، وعاصم، وبكسر السين غيرهم. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ قتلوا، شامي ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ بل هم أحياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مقربون عنده، ذوو زلفى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيد لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله.

١٧٠ - ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو التوفيق في الشهادة، وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين، معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وقال النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تدور في أنهار

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾
 ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ
 اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»^(١). وقيل: هذا الرزق في الجنة يوم القيامة. وهو ضعيف؛ لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم، وهم قد تقدموهم. أو: ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو: أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك، فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على الجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٧١ - ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يسرون بما أنعم الله عليهم، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. وإن الله علي، بالكسر على الاستئناف، وعلى أن الجملة اعتراض ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُوفَّر عليهم.

١٧٢ - ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجرح. روي أن أباسفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد، فبلغوا الروحاء ندموا، وهتموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريه من نفسه وأصحابه قوة، فندب النبي أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

فذهبوا. فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾ «من» للتبيين، مثلها في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٧٣ - ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بدل من الذين استجابوا ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ رُوي أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد! موعدنا موسم بدر القابل. فقال ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي - وقد قدم معتمراً - فقال: يا نعيم! إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر. وقد بدا لي أن أسلم فالحق بالمدينة، فبسطهم، ولك عندي عشرة من الإبل. فخرج نعيم، فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم؟! فوالله لا يفلت منكم أحد. فقال ﷺ: «والله لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً، وهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى وافوا بدرأ، وأقاموا بها ثمانى ليال. وكانت معهم تجارة فباعوها، وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ولم يكن قتال، ورجع أبو سفيان إلى مكة. فسَمَّى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السويق^(١). فالناس الأول: نعيم، وهو جمع أريد به الواحد. أو كان له أتباع يثبطون مثل تشبیطه. والثاني: أبو سفيان وأصحابه ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: المقول الذي هو: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أو: القول، أو: نعيم ﴿إِيمَانًا﴾ بصيرة، وإيقاناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله، أي: الذي يكفينا الله. يقال: أحسبه الشيء: إذا كفاه، وهو بمعنى المحسب، بدليل أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛

(١) رواه ابن سعد من طريق ابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وغيرهما. (حاشية الكشف

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾ فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾

لأن إضافته غير حقيقية لكونه في معنى اسم الفاعل ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو.

١٧٤ - ﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي السلامة، وحذر العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة، فأصابوا بالدرهم درهمين ﴿لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوؤهم من كيد عدو. وهو حال من الضمير في ﴿انقلبوا﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ والتقدير: فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجراءتهم، وخرجوهم إلى وجه العدو على أثر تشيطه. وهو معطوف على انقلبوا ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا.

١٧٥ - ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ هو خبر ﴿ذلكم﴾ أي: ﴿إنما ذلكم﴾ المبني هو ﴿الشيطان﴾ وهو نعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: المنافقين. وهو جملة مستأنفة بيان لشيئته. أو: ﴿الشيطان﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿يخوف﴾ الخبر ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءه ﴿وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي أن يؤثر العبد خوف الله على خوف غيره. وخافوني في الوصل والوقف، سهل ويعقوب. وافقهما أبو عمرو في الوصل.

١٧٦ - ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ يحزنك في كل القرآن: نافع، إلا في سورة الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: لا يحزنوك لخوف أن يضررك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: أولياء الله، يعني: أنهم لا يضررون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نصيباً من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه. والآية تدل على إرادة الكفر

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

والمعاصي؛ لأن إرادته ألا يكون لهم ثواب في الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم، ومعاصيهم.

١٧٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوه به ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ هو نصب على المصدر، أي: شيئاً من الضرر. الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين، أو ارتد عن الإسلام، والثانية في جميع الكفار. أو على العكس ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٧٨ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء في ﴿يَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بالياء، مكى، وأبو عمرو. وكلها بالتاء حمزة. وكلها بالياء مدني، وشامي إلا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإنها بالتاء. الباقيون: الأوليان بالياء، والأخريان بالتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيمن قرأ بالياء رفع، أي: ولا يحسبن الكافرون. وأن مع اسمه وخبره في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ في موضع المفعولين ليحسبن، والتقدير: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ إملاءنا خيراً لأنفسهم. و«ما» مصدرية، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة، فلا يخالف. وفيمن قرأ بالتاء نصب، أي: ولا تحسبن الكافرين. و﴿أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل من الكافرين، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم. وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين. والإملاء لهم: إمهالهم، وإطالة عمرهم ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة؛ لأنها كافة دون الأولى. وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم؟ فقيل: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾. والآية حجة لنا على المعتزلة في مسألتني الأصلح، وإرادة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٧٩ - اللام في: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط

حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ

المؤمنين الخُلص والمُنافقين؛ لتأكيد النفي ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص ﴿يَمِيزُ﴾: حمزة، وعليّ. والخطاب في ﴿أَنْتُمْ﴾ للمصدقين من أهل الإخلاص والنفاق. كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه، وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول بنفاق الرجل، وإخلاص الآخر، أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله، فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه، ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق، وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حُجّة على الباطنية، فإنهم يدعون ذلك العلم لإمامهم، فإن لم يثبتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص، حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسل. وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر، وهو قوله: ﴿وَحَآتَمَ النَّيْعُ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بصفة الإخلاص. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٨٠ - ونزل في مانعي الزكاة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الباخلين. و﴿هو﴾ فصل. و﴿خيراً لهم﴾ مفعول ثان. وكذا من قرأ بالياء، وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان التقدير: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ وهو: فصل، وخيراً لهم: مفعول ثان ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم وبأل البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ

الْفَيْكَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨١﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٢﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ

الْفَيْكَمَةِ تفسير لقوله ﴿بل هو شر لهم﴾ أي: سيجعل مالهم الذي منعه عن الحق طوقاً في أعناقهم، كما جاء في الحديث: «من منع زكاة ماله يصير حية ذكراً أقرع له نابان فيطوق في عنقه فينشه ويدفعه إلى النار»^(١) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فما لهم يخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه في سبيل الله؟! والأصل في ميراث: موارث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء مكى، وأبو عمرو، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد. والياء على الظاهر.

١٨١ - ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذا أغنياء وهو فقير. ومعنى سماع الله له، أنه لم يخف عليه، وأنه أعد له كفاء من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف. أو: سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه، فسمي به مجازاً. و«ما» مصدرية، أو: بمعنى الذي ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على ما. جعل قتلهم الأنبياء قرينة له، إيذاناً بأنهما في العظم أخوان، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار كما أذقتهم المسلمين الغصص. قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنة جهنم. وإنما أضيف إلى الله تعالى؛ لأنه بأمره كما في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾. ﴿سَيُكْتَبُ﴾، و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾، ويقول: حمزة.

١٨٢ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: ذلك العذاب بما قدمتم من الكفر والمعاصي. والإضافة إلى اليد؛ لأن أكثر

(١) رواه أحمد (٥٢٠/٢) والبخاري (١٤٠٢) والنسائي (٢٣٣-٢٤) وابن ماجه (١٧٨٦).

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

الأعمال يكون بالأيدي، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. ولأنه يقال للأمر بالشيء: فاعله، فذكر الأيدي للتحقيق، يعني: أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده، فلا يعاقبهم بغير جرم.

١٨٣ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ في موضع جر على البدل من ﴿الذين قالوا﴾. أو: نصب بإضمار: أعني. أو: رفع بإضمار: هم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ بألا نؤمن. ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي: يقرب قرباناً فتزل نار من السماء فتأكله، فإن جئتنا به صدقناك. وهذه دعوى باطلة، وافترء على الله؛ لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتي به؛ لكونه معجزة، فهو إذاً وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: بالقربان. يعني: قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم، وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا، فلم لم تؤمنوا بالذين أتوا به؟ ولم قتلتموهم؟! ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إنما نؤخر الإيمان لهذا.

١٨٤ - ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود، فلا يهولنك، فقد فعلت الأمم بأنبيائها كذلك ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب، جمع زبور، من الزبر، وهو: الكتابة. ﴿وَالزُّبُرِ﴾ شامي ﴿وَالْكِتَابِ﴾ جنسه. ﴿الْمُنِيرِ﴾ المضيء. قيل: هما واحد في الأصل. وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين. فالزبور: كتاب فيه حكم زاجرة. والكتاب المنير هو: الكتاب الهادي.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْخِجَ عَنِ
النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾
﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٦﴾

١٨٥ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم. والمعنى: لا يحزنك تكذيبهم إياك، فمرجع الخلق إليّ، فأجازيهم على التكذيب، وأجازيك على الصبر، وذلك قوله: ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة؛ فإن الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَنْ زُحْخِجَ﴾ بعد، والزحزحة: الإبعاد؛ ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير. وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق، وقيل: الفوز: نيل المحبوب، والبعد عن المكروه ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويفرّ، حتى يشتريه، ثم يتبين له فساد وورداءته. والشیطان: هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبیر: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة. فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ. وعن الحسن: كخضرة النبات، ولعب البنات، لا حاصل لها.

١٨٦ - ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ والله لتبلون، أي: لتختبرن ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالإنفاق في سبيل الله، وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وهذه الآية دليل على أن النفس هي الجسم المعاین دون ما فيه من المعنى الباطن، كما قال بعض أهل الكلام والفلاسفة، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ كالطعن في الدين، وصد من أراد الإيمان، وتخطيط من آمن، ونحو ذلك. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور. خوطب المؤمنون بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها - لقوها وهم مستعدون - لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغته، فينكرها، وتشمئز منها نفسه.

١٨٧ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ واذكروا وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عن الناس. بالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: ٤]. وبالياء: مكى، وأبو عمرو، وأبو بكر؛ لأنه غيب. والضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانهم ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنذوا الميثاق، وتأكيده عليهم، أي: لم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه. والنبد وراء الظهر مثل في الطرح، وترك الاعتداد. وهو دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وما علموه، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطبيب لنفوسهم، أو لجز منفعة، أو دفع أذية، أو لبخل بالعلم. وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله ألجمه الله بلجام من نار»^(١) ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا﴾ عرضاً سيراً ﴿فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾.

١٨٨ - والخطاب في: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ﴾ تأكيد. تقديره: لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَا آتَوْا﴾ بما فعلوا، وهي قراءة أبي. وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْدُكُمْ مَأْنِيًا﴾ [مريم: ٦١] ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعَافَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. وقرأ النخعي: بما آتوا، أي: أعطوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

(١) رواه أحمد (٢/٢٦٣) وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١).

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة، فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم فأطلع الله رسوله على ذلك؛ وسلاه بما أنزل من وعيدهم. أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه، ناجين من العذاب. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين، وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة. وفيه وعيد لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويجب أن يحمده الناس بما ليس فيه.

١٨٩ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على عقابهم.

١٩٠ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ واضحة على صانع قديم، عليم، حكيم، قادر ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللب عن القشر. فيرى أن العرض المحدث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر؛ لأن جوهرًا ما لا ينفك عن عرض حادث، وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث. ثم حدوثها يدل على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى ما لا يتناهى. وحسن صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته. قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١). وحكي أنه كان في بني إسرائيل من إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبده فتى فلم تظله، فقالت له أمه: لعل فرطاً فرطت منك في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٠٩/٢).

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

مدتك؟! قال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر؟! قال:
لعل. قالت: فما أوتيت إلا من ذاك.

١٩١ - ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جر نعت لـ: «أولي»، أو نصب بإضمار أعني،
أو رفع بإضمار هم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ يصلون ﴿قِيَمًا﴾ قائمين عند القدرة
﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: مضطجعين عند العجز. وقياماً
وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في ﴿يذكرون﴾. و﴿على جنوبهم﴾ حال أيضاً.
أو: المراد الذكر على كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال. وفي
الحديث: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»^(١) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وما يدلُّ عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع
صنعتها، وما دبرَ فيها مما تكلُّ الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، من عظم شأن
الصانع، وكبرياء سلطانه. وعن النبي ﷺ: «بيننا رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع
رأسه، فنظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم
اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له»^(٢). وقال ﷺ: «لا عبادة كالتفكير»^(٣). وقيل:
الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، وما جلّيت القلوب بمثل
الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: يقولون
ذلك. وهو في محل الحال، أي: يتفكرون قائلين. والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً
بغير حكمة، بل خلقته لحكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة
لهم على معرفتك. وهذا إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى
السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق، كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق
العجيب باطلاً ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الوصف بخلق الباطل. وهو
اعتراض ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك فقنا.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٢/١٠).

(٢) رواه الثعلبي. حاشية الكشف (٤٥٤/١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٤٨).

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاِتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ

١٩٢ - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أهنته، أو أهلكته، أو فضحته. واحتج أهل الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨] في أَنَّ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَيُخْلَدُ. قلنا: قال جابر: إخزاء المؤمن تأديبه، وإن فوق ذلك لخزيًا ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، والمراد: الكفار ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من أعوان وشفعاء يشفعون لهم كالمؤمنين.

١٩٣ - ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف لم يكن منه بُدٌّ، وأن يقال: سمعت كلام فلان، والمنادي هو الرسول ﷺ، أو القرآن ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي، إذ لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ بأن آمنوا، أو: أي: آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: فيه دليل بطلان الاستثناء في الإيمان ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبته، معدودين في جملتهم. والأبرار: المتمسكون بالسنة، جمع بر، أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب.

١٩٤ - ﴿رَبَّنَا وَءَاِتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي: على تصديق رسلك، أو: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو: على السنة رسلك. و﴿على﴾ متعلق بوعدتنا. والموعود هو الثواب، أو النصر على الأعداء. وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله - والله لا يخلف الميعاد - لأن معناه: طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. أو: المراد: اجعلنا ممن لهم الوعد إذ الوعد غير مبيّن لمن هو. أو: المراد ثبتنا على ما يوصلنا إلى عدتك، يؤيده قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٦﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي
وَقُتِلُوا وَقَاتِلُوا لَا يَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلَنَّاهُمْ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾

أو: هو إظهار للخضوع والضعف ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ هو مصدر بمعنى الوعد.
١٩٥ - ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجاب، يقال: استجاب له، واستجابه
﴿أَنِّي﴾ بآني. ﴿لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ صفة لعامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ بيان
لعامل ﴿بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ﴾ الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، كلكم بنو آدم.
أو: بعضكم من بعض في النصرة والدين. وهذه جملة معترضة بُيِّنَتْ بها شركة
النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين. عن جعفر الصادق - رضي
الله عنه -: من حزه أمر فقال خمس مرات: ربنا... أنجاه الله مما يخاف،
وأعطاه ما أراد. وقرأ الآيات ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مبتدأ، وهو تفصيل لعمل
العامل منهم، على سبيل التعظيم له، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال
السنية الفاتحة، وهي الهجرة عن أوطانهم، فارين إلى الله بدينهم إلى حيث
يؤمنون عليه. فالهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿وَأُخْرِجُوا
مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي وُلِدُوا فيها ونشؤوا ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم، والضرب،
ونهب المال. يريد: سبيل الدين ﴿وَقُتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا
﴿وَقَاتِلُوا﴾: مكى، وشامى. (وقتلوا وقاتلوا) على التقديم والتأخير، حمزة،
وعلى. وفيه دليل على أَنَّ الواو لا توجب الترتيب. والخبر ﴿لَا يَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلَنَّاهُمْ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو جواب قسم محذوف
﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد، يعني: إثابة، أو ثواباً ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن
قوله: ﴿لَا يَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلَنَّاهُمْ﴾ في معنى: لاثنينهم ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: يختص به، ولا يقدر عليه غيره.

١٩٦ - ورؤي أَنَّ طائفة من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من
الخير، وقد هلكنا من الجوع، فنزل: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

والخطاب لكل أحد. أو للنبي ﷺ، والمراد به غيره. أو: لأن مدرة^(١) القوم ومقدمهم يخاطب بشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم. أو: لأن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦].

١٩٧ - ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: تقبلهم في البلاد متاع قليل. وأراد: قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو: في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو: أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه، وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

١٩٨ - ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن الشرك ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا﴾ الثُّرُل والثُّرُل: ما يقام للنازل. وهو حال من جنات لتخصيصها بالصفة، والعامل اللام في «لهم»؛ أو: هو مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً، أو: عطاء ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. «لكن» بالتشديد: يزيد. وهو للاستدراك، أي: لا بقاء لتمتعهم، لكن ذلك للذين اتقوا.

١٩٩ - ونزلت في ابن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، أو: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، وكانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن

(١) جاء في حاشية الأصل المخطوط: مدرة القوم: سيدهم.

وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن؛ لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم، وهو حال بعد حال، أي: غير مشترين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر. وهو ما وعده في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُوْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه في كل شيء.

٢٠٠ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ على الدين وتكاليفه. قال الجنيد - رحمه الله -: الصبر: حبس النفس على المكروه بنفي الجزع ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداء الله في الجهاد، أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً ﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين، مستعدين للغزو ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه. ولعل: لتغيب المال لثلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال. وقيل: اصبروا في محبتي، وصابروا في نعمتي، ورابطوا أنفسكم في خدمتي، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تظفرون بقربتي.

قال النبي ﷺ: «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران؛ فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو: غيايتان، أو: فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما»^(١). والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) رواه مسلم (٨٠٤). «كأنهما غمامتان أو غيايتان»: الغمامة والغياية: كل شيء أظّل الإنسان فوق رأسه: سحابة وغبرة وغيرهما. «أو فرقان من طير صواف»: الفرقان: القطعتان أو الجماعتان. و«طير صواف»: هي التي تبسط أجنحتها في الهواء. «تحاجان»: تدافعان، وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فرَّعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة، أنشأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعَّبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [ونشر من آدم وحواء] ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كثيرة، أي: وبثَّ منهما نوعي جنس الإنس، وهما: الذكور والإناث^(١). فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها. أو: على خلقكم، والخطاب في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً غيركم من الأمم الفاتئة للحصر. فإن قلت: الذي تقتضيه جزالة النظم أن يجاء عقب الأمر بالتقوى بما يدعو إليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره داعياً إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدلُّ على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ

الكفار والفجار، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه، ويخشى عقابه؛ ولأنه يدلُّ على النعمة السابغة عليهم، فحقَّهم أن يتقوه في كفرانها. قال ﷺ عند نزول الآية: «خُلقت المرأة من الرجل فهمَّها في الرجل، وخلق الرجل من التراب فهمَّه في التراب»^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾^(٢) والأصل: تتساءلون، فأدغمت التاء في السين بعد إبدالها سيناً لقرب التاء من السين للهمس. «تساءلون به» - بالتخفيف - كوفي، على حذف التاء الثانية استثقلاً لاجتماع التاءين. أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم، فيقول: بالله وبالرحم افعل كذا، على سبيل الاستعطاف ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم الله تعالى، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أو على موضع الجار والمجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً. أو: بالجر، حمزة، على عطف الظاهر على الضمير، وهو ضعيف؛ لأن الضمير المتصل كاسمه متصل، والجار والمجرور كشيء واحد، فأشبهه العطف على بعض الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً أو عالماً.

٢ - ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتم: الانفراد، ومنه: الدرة اليتيمة. وقيل: اليتيم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار؛ لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسمُّوا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لَا يُتَمَّ بعد الحلم»^(٣) تعليم شريعة لالغة. يعني: أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار. والمعنى: وآتوا اليتامى أموالهم بعد

(١) ذكره السيوطي في (الدر المنثور ٤٢٣/٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٠٣/٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٣).

وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

البلوغ. وسماهم يتامى لقرب عهدهم - إذا بلغوا - بالصغر. وفيه إشارة إلى ألا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّبِيبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام - وهو مال اليتامى - بالحلal - وهو مالكم - أو: لا تستبدلوا الأمر الخبيث - وهو اختزال أموال اليتامى - بالأمر الطيب - وهو حفظها، والتورع عنها.. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز، ومنه التعجل بمعنى الاستعجال ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف، وهو في موضع الحال، أي: مضافة إلى أموالكم. والمعنى: ولا تضموها إليها في الإنفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم، وتسوية بينه وبين الحلal ﴿إِنَّهُ﴾ إن أكلها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً.

٣ - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي: لا تعدلوا. أقسط، أي: عدل ﴿فِي الْيَنْبَى﴾ [يقال للإنانث اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة ویتيم، وأما أيتام فجمع یتيم لا غير] ^(١) ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ما حل لكم ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ لأن منهن ما حرم الله كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ﴿مَا﴾ ذهاباً إلى الصفة؛ لأن «ما» يجيء في صفات من يعقل، فكانه قيل: الطيبات من النساء. ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قيل: كانوا لا يتحرّجون من الزنى، ويتحرّجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتهم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات. أو: كانوا يتحرّجون من الولاية في أموال اليتامى، ولا يتحرّجون من الاستكثار من النساء، مع أن الجور يقع بينهما إذا كثرن، فكانه قيل: إذا تحرّجتم من هذا فتحرجوا من ذلك. وقيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي﴾ نكاح «اليتامى فانكحوا» من البالغات. يقال: طابت الثمرة،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾
وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً

أي: أدركت ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ نكرات. وإنما مُنعت الصرف للعدل والوصف، وعليه دلّ كلام سيويه. ومحلّهن النصب على الحال من النساء، أو مما طاب، تقديره: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. فإن قلت: الذي أطلق للنكاح في الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع، فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له. كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال - وهو ألف درهم - درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. وجيء بالواو لتدلّ على تجويز الجمع بين الفرق، ولو جيء بأو مكانها لذهب معنى التجويز ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فالزموا، أو: فاختراروا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى في اليسر بين الحرّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من ألا تملوا ولا تجوروا. يقال: عال الميزان عولاً: إذا مال، وعال الحاكم في حكمه: إذا جار. ويحكى عن الشافعي - رحمه الله - أنه فسّر ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: ألا تكثر عيالك. واعترضوا عليه بأنه يقال فيه أعال يعيل: إذا كثر عياله. وأجيب بأن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولك: مانهم يمونهم: إذا أنفق عليهم؛ لأنّ مَنْ كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال. وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، كأنه سلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

٤ - ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ من: نحله كذا: إذا أعطاه إياه، ووهبه له عن طيبة من نفسه، نحلة ونحلاً. وانتصابها على المصدر؛ لأنّ النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكانه قال: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم. أو: على الحال من المخاطبين، أي:

فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٥﴾ وَلَا تَوْنُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ

آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبين النفوس بالإعطاء. أو: من الصدقات، أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل: نحلة من الله تعالى: عطية من عنده وتفضلاً منه عليهن. وقيل: النحلة: الملة، وفلان ينتحل كذا، أي: يدين به، يعني: وآتوهن مهورهن ديانة، على أنها مفعول لها. والخطاب للأزواج، وقيل:، للأولياء؛ لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواج ﴿عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ أي: من الصداق، إذ هو في معنى الصدقات ﴿نَفْسًا﴾ تمييز. وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس، والواحد يدل عليه. والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق، وتجاغت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم، وسوء معاشرتكم. وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس، فقيل: ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم^(١) إعلاماً بأن المراعى هو تجاغي نفسها عن الموهوب طيبة ﴿فَكُلُوهُ﴾ الهاء تعود على شيء ﴿هَنِيئًا﴾ لا إثم فيه ﴿مَرِيئًا﴾ لا داء فيه. فسرها النبي ﷺ. أو: هنيئاً في الدنيا بلا مطالبة، مريئاً في العقبى بلا تبعة. وهما صفتان من: هنؤ الطعام ومرؤ؛ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه. وهما وصف مصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير، أي: كلوه، وهو هنيء مريء. وهذه عبارة عن المبالغة في الإباحة، وإزالة التبعة. هنيئاً مريئاً بغير همز: يزيد. وكذا حمزة في الوقف. وهمزها الباقون. وعن عليّ - رضي الله عنه -: إذا اشتكى أحدكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، ثم ليشتري بها عسلاً فليشربه بماء السماء، فيجمع الله له هنيئاً ومريئاً وشفاء ومباركاً.

٥ - ﴿وَلَا تَوْنُوا السُّفَهَاءَ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا قدرة لهم على إصلاحها، وتثميرها، والتصرف فيها. والخطاب للأولياء. وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء؛ بقوله: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ لأنهم يلونها،

الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَأَبْلُوا أَلْيَتَيْ حَقٍّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿٦﴾

ويمسكونها. ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي: قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم. ﴿قِيَمًا﴾ بمعنى قياماً، نافع وشامي، كما جاء عوداً بمعنى عياداً. وأصل قيام: قوام: فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان - وكان له بضاعة يقلبها -: لولاها لتمندل بي بنو العباس^(١) ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم، بأن تتجروا فيها، وترتجوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فيأكلها الإنفاق ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن جريج: عدة جميلة: إن صلحتهم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل، فهو معروف. وما أنكرته لقبحه، فهو منكر.

٦ - ﴿وَأَبْلُوا أَلْيَتَيْ﴾ واختبروا عقولهم، وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ. فالابتلاء عندنا: أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى تبين حاله فيما يجيء منه. وفيه دليل على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة ﴿حَقٍّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: الحُلُم؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، ولطلب ما هو مقصود به، وهو: التوالد ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ تبيّنتم هداية في التصرفات، وصلاًحاً في المعاملات ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حدّ البلوغ. ونظم هذا الكلام أن ما بعد حتى إلى ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ جعل غاية للابتلاء. وهي «حتى» التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

..... حتى ماءٌ دجلةٌ أشكل^(٢)
والواقعة بعدها جملة شرطية؛ لأن إذا متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط:

(١) أي: لا تخذوني كالمنديل يتمسحون بي.

(٢) البيت لجريز، وهو بتمامه:

فما زالت القتلى تمجّ دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وَلَا تَأْكُلُوهَُا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأول؛ الذي هو «إذا بلغوا النكاح»، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وتنكير الرشد يفيد أن المراد رشد مخصوص، وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو يفيد: التقليل، أي: طرفاً من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد. وهو دليل لأبي حنيفة - رحمه الله - في دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَُا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾ ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم. فإسرافاً وبداراً مصدران في موضع الحال و﴿أَنْ يَكْبُرُوا﴾ في موضع المصدر منصوب الموضع بداراً. ويجوز أن يكونا مفعولاً لهما. أي: لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تُفَرِّطُونَ في إنفاقها، وتقولون: ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها، أي: يحترز من أكل مال اليتيم. واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. والفقير يأكل قوتاً مقدراً محتطاً في أكله. عن إبراهيم: ما سدّ الجوعة، ووارى العورة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها دفعاً للتجاعد، وتفادياً عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم، والتناكر ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب. أو: هو راجع إلى قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولا يسرف، فإن الله يحاسبه عليه، ويمجازه به. وفاعل كفى: لفظة الله، والباء زائدة. وكفى يتعدى إلى مفعولين، دليله: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٧ - ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

وَالْأَقْرَبُونَ ﴿٧﴾ هم المتوارثون من ذوي القربات دون غيرهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل ﴿مما ترك﴾ بتكرير العامل. والضمير في ﴿منه﴾ يعود إلى ما ترك ﴿نَصِيبًا﴾ نصب على الاختصاص، بمعنى: أعني نصيباً ﴿مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعاً لا بدّ لهم من أن يحوزوه. روي أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن. وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وحاز الغنيمة. فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فشكت. فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت الآية. فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله تعالى قد جعل لهن نصيباً، ولم يبين حتى يبين» فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين، والباقي ابني العم^(١).

٨ - ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة التركة ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ﴾ فأعطوهم ﴿مِنْهُ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون. وهو أمر ندب، وهو باق لم ينسخ. وقيل: كان واجباً في الابتداء، ثم نسخ بآية الميراث ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ عذراً جميلاً، وعدة حسنة. وقيل: القول المعروف: أن يقولوا لهم: خذوا بارك الله عليكم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يمتنوا عليهم.

٩ - ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ المراد بهم الأوصياء. أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حوزهم من اليتامى، فيشفقوا عليهم خوفاً على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً، وأن يقدروا ذلك في أنفسهم، ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف

(١) قال الحافظ: هكذا أورده الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد (حاشية الكشف ١ / ٤٧٧).

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ

الشفقة والرحمة. و«لو» مع ما في حيزه: صلة للذين، أي: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً - وذلك عند احتضارهم - خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم. وجواب ﴿لو﴾ خافوا. والقول السديد من الأوصياء: أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن، والترحيب، ويدعوهم ب: يا بني، ويا ولدي.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا﴾ ظالمين، فهو مصدر في موضع الحال ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم ﴿نَارًا﴾ أي: يأكلون ما يجزئ إلى النار. فكانه نار. روي أنه يُبعث آكل مال اليتامى يوم القيامة والدخان يخرج من قبره، ومن فيه، وأنفه، وأذنيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا^(١) ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿وَيُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ شامي، وأبو بكر. أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً من النيران، مبهمة الوصف.

١١ - ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يعهد إليكم، ويأمركم ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهذا إجمال تفصيله: ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر منهم، أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه؛ لأنه مفهوم، كقولهم: السمن متوان بدرهم. وبدأ بحظ الذكر، ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث، وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. والمراد: حال الاجتماع، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان تأخذان الثلثين. والدليل عليه أنه أتبعه حكم الانفراد بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٦٦) بلفظ: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً...».

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ
وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ

نِسَاءً ﴿١﴾ أي: فإن كانت الأولاد نساء خالصاً، يعني: بنات ليس معهن ابن ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان لكان، أو: صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت؛ لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي: وإن كانت المولودة منفردة ﴿وَاحِدَةً﴾: مدني على كان التامة. والنصب أوفق لقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾. فإن قلت: قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفرد، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفرد فما حكمهما؟ قلت: حكمهما مختلف فيه. فابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلهما منزلة الواحدة، لا منزلة الجماعة. وغيره من الصحابة - رضي الله عنهم - أعطوهما حكم الجماعة بمقتضى قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ وذلك لأن من مات، وخلف بنتاً وابناً، فالثلث للبنت، والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة كان الثلثان للبنتين. ولأنه قال في آخر السورة: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبنتان أمسّ رحماً بالميت من الأختين، فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين، ولم ينقصوا حظهما عن حظٍّ مَن هو أبعد منهما. ولأنَّ البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه، فوجب لهما الثلثان. وفي الآية دلالة على أنَّ المال كله للذكر إذا لم يكن معه أنثى؛ لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد جعل للأنثى النصف إذا كانت منفردة، فعلم أن للذكر في حال الانفرد ضعف النصف، وهو الكل. والضمير في: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ للميت، والمراد: الأب والأم، إلا أنه غلب الذكر ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بدل من «لأبويه» بتكرير العامل. وفائدة هذا البديل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافها. ولو قيل:

مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد، وهو التفصيل بعد الإجمال. والسدس: مبتدأ خبره: لأبويه، والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن: السدس والرُّبُع والثُّمْنُ والثُلُثُ بالتخفيف ﴿مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ هو يقع على الذكر والأنثى ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: مما ترك. والمعنى ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب؛ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما يبقى بعد إخراج نصيب الزوج، لا ثلث ما ترك؛ لأنَّ الأب أقوى من الأم في الإرث، بدليل أن له ضعف حظها إذا خلاصا. فلو ضرب لها الثلث كَمَلًّا لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها. فإن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين، فصار للزوج النصف وللأم الثلث، والباقي للأب، حازت الأم سهمين والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكـرين. فلأُمـه - بكسر الهمزة - حمزة، وعليّ لمجاورة كسر اللام ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ﴾ أي: للميت ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ إذا كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعداً فلأُمـه السدس. والأخ الواحد لا يحجب. والأعيان والعلات والأخـياف في حجب الأم سواء ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها، لا بما يليه وحده. كأنه قيل: قسمة هذه الأنصـباء ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾^(١) هو وما بعده بفتح الصادين: مكّي، وشامي، وحامد. ويحيى وافق الأعشى في الأولى. وحفص في الثانية لمجاورة يورث. وكسر الأولى لمجاورة يوصيكم الله. الباـقون بكسر الصادين. أي: يوصي الميت ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ والإشكال أن الدين مُقَدَّم على الوصية في الشرع، وقدمت الوصية على الدين في التلاوة. والجواب: أن أو لا تدلُّ على الترتيب، ألا ترى أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو كان المعنى: جاءني أحد الرجلين، فكان التقدير في قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ من بعد أحد هذين الشيئين الوصية، أو الدين. ولو قيل بهذا اللفظ لم

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يُوصِي﴾.

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّيكُ بِهَا أَوْ ذِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ

يدر فيه الترتيب، بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا. وإنما قدمنا الدين على الوصية بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الدين قبل الوصية»^(١). ولأنها تشبه الميراث من حيث إنها صلة بلا عوض، فكان إخراجها مما يشق على الورثة، وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين، فقدّمت على الدين ليسارعوا إلى إخراجها مع الدين ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ عطف عليه. والخبر ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾ والجملة في موضع نصب بتدرون ﴿نَفْعًا﴾ تمييز. والمعنى: فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيُّهم أنفع لكم، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع، وأنتم لا تدرون تفاوتها، فتولى الله ذلك فضلاً منه، ولم يكلها إلى اجتهدكم لعجزكم عن معرفة المقادير. وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة، لا موضع لها من الإعراب ﴿فَرِيضَةٌ﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض، وقسم من الموارث، وغيرها.

١٢ - ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: زوجاتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ابن، أو بنت. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم، أو من غيركم ﴿فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّيكُ بِهَا أَوْ ذِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾

(١) رواه أحمد (٧٩/١ و ١٣١ و ١٤٤) والبخاري (٣٧٧/٥) تعليقا، والترمذي (٢٠٩٤) وابن ماجه (٢٧١٥) بلفظ: قضى رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ
 أَمْرًا وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاكَرٍ
 وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿ والواحدة والجماعة سواء في الربع
 والثلث. جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة؛ لدلالة قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ
 حِظِّ الْأُنثَى﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني: الميت، وهو اسم كان ﴿يُورَثُ﴾ من
 ورث، أي: يورث منه، وهو صفة لرجل ﴿كَلَالَةً﴾ خبر كان. أي: وإن
 كان رجل موروث منه كلاله. أو: «يورث» خبر كان، و«كلالة» حال من
 الضمير في يورث. والكلالة: تطلق على من لم يُخلف ولداً ولا والدًا، وعلى من
 ليس بولد ولا والد من المخلفين. وهو في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو:
 ذهاب القوة من الإعياء ﴿أَوْ أَمْرًا﴾ عطف على رجل ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أي:
 لأم. فإن قلت: قد تقدم ذكر الرجل والمرأة، فلم أفرد الضمير وذكره؟ قلت:
 أما إفراده: فلأن «أو» لأحد الشئين. وأما تذكيره: فلأنه يرجع إلى رجل؛ لأنه
 مذكر مبدوء به، أو يرجع إلى أحدهما وهو مُذَكَّر ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ
 كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون
 بقرابة الأم، وهي لا ترث أكثر من الثلث. ولهذا لا يفضل الذكر منهم على
 الأنثى ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إنما كررت الوصية لاختلاف
 الموصين، فالأول: الوالدان والأولاد، والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج،
 والرابع: الكلاله ﴿غَيْرَ مُضَاكَرٍ﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضار لورثته.
 وذلك بأن يوصي بزيادة على الثلث، أو لوارث ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر
 مؤكد، أي: يوصيكم بذلك وصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار، أو عدل في وصيته
 ﴿حَلِيمٌ﴾ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة، وهذا وعيد. فإن قلت: أين ذو الحال
 فيمن قرأ يوصى بها؟ قلت: يضمير يوصي فينتصب عن فاعله؛ لأنه لما قيل
 يُوصَى بها علم أن ثمَّ موصياً. كما كان ﴿رجال﴾ فاعل ما يدل عليه يسبح؛
 لأنه لما قيل ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ [النور: ٣٦] علم أن ثمَّ مسبِّحاً فأضمر يسبح.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

واعلم أن الورثة أصناف: أصحاب الفرائض، وهم الذين لهم سهم مقدرة: كالنبت: ولها النصف، وللأكثر الثلثان. وبنت الابن وإن سفلت: وهي عند عدم الولد كالنبت، ولها مع البنت الصلبية السدس، وتسقط بالابن وينتني الصلب إلا أن يكون معها غلام فيعصبها. والأخوات لأب وأم: وهن عند عدم الولد وولد الابن كالبنات، والأخوات لأب، وهن كالأخوات لأب وأم عند عدمهن. ويصيرُ الفريقان عصبه مع البنت أو بنت الابن. ويسقطن بالابن وابنه وإن سفل والأب والجد عند أبي حنيفة - رحمه الله - . وولد الأم، فللواحد السدس وللأكثر الثلث، وذكرهم كأنثاهم. ويسقطون بالولد وولد الابن وإن سفل والأب والجد. والأب: وله السدس مع الابن أو ابن الابن وإن سفل، ومع البنت أو بنت الابن وإن سفلت السدس والباقي. والجد: وهو أبو الأب، وهو كالأب عند عدمه، إلا في رد الأم إلى ثلث ما يبقى. والأم: ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وإن سفل، أو الاثنين من الإخوة والأخوات فصاعداً من أي جهة كانا. وثلث الكل عند عدمهم. وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين في زوج وأبوين، أو زوجة وأبوين. والجدة: ولها السدس وإن كثرت لأم كانت أو لأب. والبعدي تحجب بالقربى. والكل بالأم، والأبويات بالأب. والزوج: وله الربع مع الولد، أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه النصف. والزوجة: ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه الربع. والعصبات: وهم الذين يرثون ما بقي من الفرض. وأولاهم: الابن، ثم ابنه وإن سفل، ثم الأب، ثم أبوه وإن علا، ثم الأخ لأب وأم، ثم الأخ لأب، ثم ابن الأخ لأب وأم، ثم ابن الأخ لأب، ثم الأعمام، ثم أعمام الأب، ثم أعمام الجد، ثم المعتق، ثم عصبته على الترتيب. واللاتي فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبه بإخوتهن لا غيرهن. وذوو الأرحام: وهم الأقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض، وترتيبهم كترتيب العصبات.

١٣ - ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى، والوصايا، والمواثيث ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ سَمَّاها حدوداً؛ لأن الشرائع كالحدود

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

المضروبة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٤ - ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ انتصب خالد بن خالد على الحال. وجمع مرة، وأفرد أخرى نظراً إلى معنى مَنْ ولفظها ﴿ندخله﴾ فيهما، مدني، وشامي ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهوانه عند الله. ولا تعلق للمعتزلة والخوارج بالآية فإنها في حق الكفار، إذ الكافر هو الذي تعدى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حد التوحيد. ولهذا فسّر الضحاك المعصية هنا بالشرك. وقال الكلبي: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بكفره بقسمة الموارث ﴿ويتعد حدوده﴾ استحلالاً.

١٥ - ثم خاطب الحكام فقال: ﴿وَالَّذِي﴾ هي جمع التي، وموضعها رفع بالابتداء، ﴿يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ﴾ أي: الزنى لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. يقال: أتى الفاحشة، وجاءها، ورهقها، وغشيها بمعنى. ﴿مِنْ نِسَائِكَ﴾ للتبويض. والخبر: ﴿فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَ﴾ فاطلبوا الشهادة. ﴿أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ بالزنى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فاحسوهن ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: ملائكة الموت، كقوله: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨] أو: حتى يأخذهن الموت، ويستوفي أرواحهن. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ﴾ قيل: أو بمعنى: إلا أن ﴿سَبِيلًا﴾ غير هذه. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: السبيل للبكر جلد مئة وتغريب عام، وللثيب الرجم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد

وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ

جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة ورجم بالحجارة^(١).

١٦ - ﴿وَالَّذَانِ﴾ يريد: الزاني والزانية. وبتشديد النون، مكي ﴿يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: الفاحشة ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعيير، وقولوا لهما: أما استحييتما؟ أما خفتما الله؟ ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ وغيرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا التوبيخ والمذمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يقبل توبة التائب ويرحمه. قال الحسن: أول ما نزل من حد الزنى الأذى، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم، فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة. والحاصل: أنهما إذا كانا محصنين فحدهما: الرجم لا غير. وإذا كانا غير محصنين فحدهما: الجلد لا غير. وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن، فعلى المحصن منهما الرجم، وعلى الآخر الجلد. وقال ابن بحر: الآية الأولى في السَّخَّاقَاتِ، والثانية في اللِّوَاطِينَ، والتي في سورة النور في الزاني والزانية. وهو دليل ظاهر لأبي حنيفة - رحمه الله - في أنه يعزّر في اللِّوَاطَةِ ولا يحدّ. وقال مجاهد: آية الأذى في اللِّوَاطَةِ.

١٧ - ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ هي من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، أي: إنما قبولها ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وليس المراد به الوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني: أنه يكون لا محالة، كالواجب الذي لا يترك ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الذنب لسوء عقابه ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. وقيل: جهالته: اختياره اللذة الفانية على الباقية. وقيل: لم يجهل أنه ذنب، ولكنه جهل كنه

(١) رواه أحمد (٣١٣/٥) ومسلم (١٦٩٠) (١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذي (١٤٣٤).

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾
وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ أَلَنْنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾

عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قبل أن ينظر إلى ملك الموت. وعنه عليه السلام «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١). ومن: للتبعض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عدة بأنه يفى بذلك، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمهم على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بكون الندم توبة.

١٨ - ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تَبْتُ أَلَنْنَ﴾ أي: ولا توبة للذين يذنبون، ويسوقون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت، ومعاينة ملك الموت، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار، وقبول التوبة ثواب، ولا وعد به إلا لمختار ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ في موضع جر بالعطف على ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ليست التوبة للذين يعملون السيئات ولا للذين يموتون ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين. وفي بعض المصاحف بلامين، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا من العتيد، وهو الحاضر، أو الأصل أعددنا، فقلبت الدال تاء.

(١) رواه أحمد (١٣٢/٢) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

١٩ - كان الرجل يرث امرأة مورثه بأن يلقي عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز الموارث، وهن كارهات لذلك، أو مكراهات ﴿كرهاً﴾ بالفتح من الكراهة. وبالضم: حمزة، وعلي، من الإكراه. مصدر في موضع الحال من المفعول. والتقييد بالكراه لا يدل على الجواز عند عدمه؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدُكُمْ خَشِيَةً إِمْلَأُوا﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ كان الرجل إذا تزوج امرأة، ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة لتفتدي منه بمالها وتختلع. ف قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾. وهو منصوب عطفاً على «أن ترثوا». و«لا» لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن. أو مجزوم بالنهي على الاستثناء، فيجوز الوقف حينئذ على ﴿كرهاً﴾. والعضل: الحبس، والتضييق ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر. واللام متعلقة بـ «تعضلوا» ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ هي النشوز، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء. أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتن في طلب الخلع. وعن الحسن: الفاحشة: الزنى، فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ويفتح الياء: مكى، وأبو بكر. والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾ في جميع الأوقات إلا وقت ﴿أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ أو ﴿ولا تعضلوهن﴾ لعل من العلل ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾. وكانوا يسيئون معاشرة النساء، ف قيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: النصفة في المبيت، والنفقة، والإجمال في القول ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لقبهجن، أو سوء خلقهن ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ في ذلك الشيء، أو في الكره. ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثواباً جزيلاً، أو ولداً صالحاً. والمعنى: فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها. فربما كرهت النفس ما هو أصلح في

وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

الدين، وأدنى إلى الخير، وأحب ما هو بضد ذلك. ولكن للنظر في أسباب الصلاح. وإنما صحَّ قوله ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا﴾ جزاء للشرط؛ لأن المعنى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

٢٠ - كان الرجل إذا رأى امرأة فأعجبته بهت التي تحته ورمائها بفاحشة^(١)، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها. ف قيل: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ﴾ وأعطيت إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج: الجمع؛ لأن الخطاب لجماعة الرجال ﴿قِنْطَارًا﴾ مالا عظيماً كما مرَّ في آل عمران. وقال عمر - رضي الله عنه - على المنبر: لا تغالوا بصدقات النساء، فقالت امرأة: أنتبع قولك أم قول الله ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾؟ فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، تزوجوا على ما شئتم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ أي: بئناً. والبهتان: أن تستقبل الرجل بأمرٍ قبيح تقذفه به وهو بريء منه؛ لأنه يُبْهَت عند ذلك، أي: يتحير. وانتصب بهتاناً على الحال، أي: باهتين وأثمين.

٢١ - ثم أنكر أخذ المهر بعد الإفضاء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: خلا بلا حائل، ومنه: الفضاء. والآية حجة لنا في الخلوة الصحيحة أنها تؤكد المهر، حيث أنكر الأخذ. وعلل بذلك ﴿وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو قول الله تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُم بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن، فهو كأخذهن. أو قول النبي عليه الصلاة والسلام:

(١) أي: رماها بالباطل.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

«استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١).

٢٢ - ولما نزل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرهًا﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نرثهن كرهاً ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن، ف قيل لهم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وقيل المراد بالنكاح: الوطء، أي: لا تطؤوا ما وطفى آبائكم. وفيه تحريم وطء موطوءة الأب بنكاح، أو بملك يمين، أو بزنى، كما هو مذهبنا، وعليه كثير من المفسرين. ولما قالوا: كنا نفعل ذلك، فكيف حال ما كان منا؟ قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. أي: لكن ما قد سلف، فإنكم لا تؤاخذون به. والاستثناء منقطع، عن سيويه. ثم بين صفة هذا العقد في الحال فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ بالغة في القبح ﴿وَمَقْتًا﴾ وبغضاً عند الله، وعند المؤمنين، وناس منهم يمتقونه من ذوي مروءاتهم، ويسمونه: نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له: المقتي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس الطريق طريقاً ذلك.

٢٣ - ولما ذكر في أول السورة نكاح: ﴿مَا طَابَ﴾ أي: حَلَّ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ وذكر بعض ما حرم قبل هذا، وهو نساء الآباء، ذكر المحرمات الباقيات، وهن: سبع من النسب، وسبع من السبب، وبدأ بالنسب فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾. والمراد: تحريم نكاحهن عند البعض. وقد ذكرنا المختار في «شرح المنار». والجددة من قبل الأم أو الأب ملحقة بهن ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبنت الابن وبنت البنت ملحقات بهن. والأصل: أَنَّ الجمع إذا قُوِيَ بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد، فتحرم على كل واحد أمه وبنته.

(١) هذا مركب من حديثين: الأول بلفظ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنَّ عَوَانٌ عندكم» رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١). والثاني بلفظ: «فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه مسلم (١٢١٨) (١٤٧) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٠٧٤). «العوان»: جمع عانية وهي الأسيرة.

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّنُكُمْ وَحَلَائِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ لأب أو أم، أو لأب أو لأم. ﴿وَعَمَّنُكُمْ﴾ من الأوجه الثلاثة. ﴿وَحَلَائِكُمْ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ كذلك. ثم شرع في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾. الله تعالى نزل الرضاعة منزلة النسب، فسمي المرضعة أمًّا للرضيع، والمراضعة أختًا. وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه. ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(١) ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وهن محرمات بمجرد العقد ﴿وَرَبِّبُكُمْ﴾ سمى ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيبة؛ لأنه يرَبُّهما كما يرَبُّ ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسميًّا بذلك وإن لم يرَبِّهما ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قال داود: إذا لم تكن في حجرة لا تحرم. قلنا: ذكر الحجر على غلبة الحال دون الشرط، وفائدته: التعليل للتحريم، وأنهن لا احتضانكم لهن، أو لكونهن بصدد احتضانكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿وَمِنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ متعلق بربائبكم. أي: الربيبة من المرأة المدخول بها حرام على الرجل، حلال له إذا لم يدخل بها. والدخول بهن كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، أي: أدخلتموهن الستر. والباء للتعدي. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول. وقد جعل بعض العلماء اللاتي دخلتم بهن وصفاً للنساء المتقدمه والمتأخرة. وليس كذلك؛ لأن الوصف الواحد لا يقع على موصوفين مختلفي العامل، وهذا لأن النساء

(١) رواه البخاري (٥٢٣٩) ومسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ

الأولى مجرورة بالإضافة والثانية بمن. ولا يجوز أن تقول: مررت بنسائك،
وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن تكون الظريفات نعتاً لهؤلاء النساء
وهؤلاء النساء. كذا قال الزجاج وغيره، وهذا أولى مما قاله صاحب
«الكشاف» فيه ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حرج
عليكم في أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن، أو متن ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾
جمع حليلة، وهي: الزوجة؛ لأن كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش
الآخر، من الحل، أو من الحلول ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ دون من تبنيتم،
فقد تزوج رسول الله ﷺ زينب حين فارقتها زيد، وقال الله تعالى: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وليس هذا لنفي الحرمة
عن حليلة الابن من الرضاع ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: في النكاح،
وهو في موضع الرفع عطف على المحرمات، أي: وحرّم عليكم الجمع بين
الأختين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفور، بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وعن محمد بن الحسن - رحمه الله -: إن أهل الجاهلية كانوا يعرفون هذه
المحرمات إلا نكاح امرأة الأب، ونكاح الأختين؛ فلذا قال فيهما: ﴿إِلَّا مَا قَدْ
سَلَفَ﴾.

٢٤ - ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ذوات الأزواج لأنهن أحصن
فزوجهن بالتزوج. قرأ الكسائي بفتح الصاد هنا، وفي سائر القرآن بكسرها.
وغيره بفتحها في جميع القرآن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ بالسبي، وزوجها في
دار الحرب. والمعنى: وحرّم عليكم نكاح المنكوحات، أي: اللاتي لهن
أزواج إلا ما ملكتموهن بسبيهن، وإخراجهن بدون أزواجهن، لوقوع الفرقة
بتباين الدارين لا بالسبي، فتحل للغنم بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كَتَبَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۖ فَمَا
 اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا
 تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وفرضه فريضة، وهو
 تحريم ما حرّم. وعطف ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾^(١) على الفعل المضمر الذي نصب كتاب
 الله، أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾ ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ما
 سوى المحرمات المذكورة ﴿وَأَحِلَّ﴾ كوفي غير أبي بكر عطف على ﴿حُرِّمَتْ﴾
 ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مفعول له. أي: بين لكم ما يحلّ مما يحرم لأن تبتغوا. أو بدل
 من ﴿ما وراء ذلك﴾. ومفعول ﴿تبتغوا﴾ مقدر، وهو: النساء. والأجود
 ألا يقدر ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ يعني: المهور. وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلا
 بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسمَّ، وأن غير المال لا يصلح مهراً، وأنَّ القليل
 لا يصلح مهراً، إذا الحبة لا تعدّ مالاً عادة ﴿مُحْصِنِينَ﴾ في حال كونكم
 محصنين ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ لثلاث تضيعوا أموالكم، وتفقدوا أنفسكم فيما
 لا يحلّ لكم فتحسروا دينكم ودنياكم، ولا فساد أعظم من الجمع بين الخسرانين.
 والإحصان: العفة، وتحصين النفس من الوقوع في الحرام. والمسافح:
 الزاني، من: السفح، وهو: صبُّ المني ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ف«ما»
 نكحتموهنَّ ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ لأن المهر ثواب على البُضع.
 ف«ما» في معنى النساء. و﴿من﴾ للتبعيض، أو للبيان. ويرجع الضمير إليه
 على اللفظ في ﴿به﴾ وعلى المعنى في ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من
 الأجور، أي: مفروضة، أو: وضعت موضع إيتاء؛ لأنَّ الإيتاء مفروض. أو
 مصدر مؤكّد، أي: فرض ذلك فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ
 الْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحط عنه من المهر، أو تهب له من كله، أو يزيد لها على
 مقداره. أو فيما تراضيا به من مقام، أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل
 خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما فرض لهم من عقد النكاح؛ الذي به حُفظت الأنساب.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿وَأَحِلَّ﴾.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ
مُسْتَفْحَحاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

وقيل: إن قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ نزلت في المتعة؛ التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله، ثم نسخت.

٢٥ - ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ فضلاً. يقال: لفلان علي طول، أي: فضل وزيادة. وهو مفعول يستطع ﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ مفعول الطول، فإنه مصدر فيعمل عمل فعله، أو بدلاً من ﴿طَوْلاً﴾ ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر المسلمات ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فلينكح مملوكة من الإماء المسلمات. وقوله ﴿مِنْ فَتْيَاتِكُمْ﴾ أي: من فتيات المسلمين. والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة، فلينكح أمة. ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا. والتقيد في النص للاستحباب؛ بدليل أَنَّ الإيمان ليس بشرط في الحرائر اتفاقاً مع التقيد به. وقال ابن عباس: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة، واليهودية، والنصرانية، وإن كان موسراً. وفيه دليل لنا في مسألة الطول ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فيه تنبيه على قبول ظاهر إيمانهم، ودليل على أَنَّ الإيمان هو التصديق دون عمل اللسان؛ لأنَّ العلم بالإيمان المسموع لا يختلف ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: لا تستنكفوا من نكاح الإماء، فكلكم بنو آدم، وهو تحذير عن التعيير بالأنساب، والتفاخر بالأحساب ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سادتهن. وهو حجة لنا في أَنَّ لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنه اعتبر إذن الموالي لا عقدهم، وأنه ليس للعبد أو للآمة أن يتزوج إلا بإذن المولى ﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأدوا إليهن مهورهن بغير مظل وإضرار. وملاك مهورهن مواليهن، فكان أدائها إليهن أداء إلى الموالي؛ لأنهن وما في أيديهن مال الموالي. أو: التقدير: وآتوا مواليهن، فحذف المضاف ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف. حال من المفعول في ﴿وَأَتُوهُنَّ﴾ ﴿غَيْرَ مُسْتَفْحَحاتٍ﴾ زوانٍ علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ زوانٍ سراً.

فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَقَلَّيْنِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

والأخذان: الأخلاء في السر ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ بالتزويج. أَحْصَنَ: كوفي غير حفص ﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ﴾ زنى ﴿فَقَلَّيْنِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من الحد، يعني: خمسين جلدة. وقوله: ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ يدلُّ على أنه الجلد لا الرجم، لأنَّ الرجم لا يتنصف، وأنَّ المحصنات هنا: الحرائر اللاتي لم يزوجن ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ لمن خاف الإثم الذي تؤدِّي إليه غلبة الشهوة. وأصل العنت: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواجهة المأثم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الزنى؛ لأنه سبب الهلاك ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعفين ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ لأن فيه إرقاق الولد، ولأنها خراجة، ولاجة، ممتنة، مبتذلة، وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة. والعزة من صفات المؤمنين. وفي الحديث: «الحرائر صلاح البيت، والإماء هلاك البيت» (١) ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ يستر المحذور ﴿رَحِيمٌ﴾ يكشف المحذور.

٢٦ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزادت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في: لا أبالك؛ لتأكيد إضافة الأب. والمعنى: يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عليكم من مصالحكم، وأفاضل أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢٨٢٠). وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وفي إسناده: أحمد بن محمد، وهو متروك، وكذبه أبو حاتم، ويونس لا أعرفه. (حاشية الكشاف ٥٠١/١).

حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ
يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ

بمصالح عبادہ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لهم.

٢٧ - ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد، والتقرير، والتقابل
﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ وهو الميل
عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه، بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع
الشهوات. وقيل: هم اليهود؛ لاستحلالهم الأخوات لأب، وبنات الأخ،
وبنات الأخت. فلما حرمهن الله قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة،
والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخت والأخ، فزلت. يقول:
يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

٢٨ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص.
﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق الطاعات.

٢٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم
تُبْخه الشريعة من نحو السرقة، والخيانة، والغصب، والقمار، وعقود الربا
﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾^(١) إلا أن تقع تجارة، ﴿تِجَارَةً﴾ كوفي، أي: ﴿إِلَّا أَنْ
تَكُونَ﴾ التجارة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض
بالعقد، أو بالتعاطي. والاستثناء منقطع، معناه: ولكن اقصدوا كون تجارة عن
تراض. أو: ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وخصّ التجارة
بالذكر؛ لأنّ أسباب الرزق أكثرها متعلّق بها. والآية تدلّ على جواز البيع
بالتعاطي، وعلى جواز البيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضا،
وعلى نفي خيار المجلس؛ لأن فيها إباحة الأكل بالتجارة عن تراض من غير

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تِجَارَةً﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر. معجم القراءات القرآنية (١٢٦/٢).

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

تقييد بالتفرق عن مكان العقد. والتقييد به زيادة على النص ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مَنْ كَانَ مِنْ جَنْسِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ: وَلَا يَقْتُلِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ، أَوْ: مَعْنَى الْقَتْلِ: أَكَلَ الْأَمْوَالَ بِالْبَاطِلِ، فَظَالَمَ غَيْرَهُ كَمَهْلِكِ نَفْسِهِ، أَوْ: لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهَا فَتَقْتُلُوهَا، أَوْ: تَرْكَبُوا مَا يُوْجِبُ الْقَتْلَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وَلِرَحْمَتِهِ بِكُمْ نَبْهَكُمْ عَلَى مَا فِيهِ صِيَانَةُ أَمْوَالِكُمْ، وَبِقَاءُ أَبْدَانِكُمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لِيَكُونَ تَوْبَةً لَهُمْ، وَتَمَحِيصًا لَخَطَايَاهُمْ، ﴿وَكَانَ بِكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﴿رَحِيمًا﴾ حَيْثُ لَمْ يَكْلِفْكُمْ تِلْكَ التَّكَالِيفَ الصَّعْبَةَ.

٣٠ - ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: الْقَتْلِ، أَيُّ: وَمَنْ يَقْدُمُ عَلَى قَتْلِ الْأَنْفُسِ ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ لَا خَطَأَ وَلَا قِصَاصًا، وَهِيَ مُصْدَرَانِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَوْ مَفْعُولٌ لِهَمَا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ نَدَخَلُهُ نَارًا مَخْصُوصَةً، شَدِيدَةَ الْعَذَابِ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: إِصْلَاحُهُ النَّارِ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سَهْلًا. وَهَذَا الْوَعْدُ فِي حَقِّ الْمُسْتَحْلِلِ لِلتَّخْلِيدِ، وَفِي حَقِّ غَيْرِهِ لِبَيَانِ اسْتِحْقَاقِهِ دُخُولَ النَّارِ، مَعَ وَعْدِ اللَّهِ بِمَغْفِرَتِهِ.

٣١ - ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: الْكَبَائِرُ: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وَعَنْهُ أَيْضًا: الْكَبَائِرُ ثَلَاثُ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ أَنْوَاعُ الْكُفْرِ بِدَلِيلِ قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ (كَبِيرٌ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ) وَهُوَ الْكُفْرُ ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا﴾ مُدْخَلًا: مَدْنِي. وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى الْمَكَانِ وَالْمَصْدَرِ. ﴿كَرِيمًا﴾ حَسَنًا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ثَمَانُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ هِيَ خَيْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرِبَتْ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُسَبِّحُ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

يُخَوِّفَ عَنْكُمْ ﴿[النساء: ٢٨]﴾ ﴿إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠] ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وتشبث المعتزلة بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر، وعلى أن الكبائر غير مغفورة، باطل، لأن الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء، إن شاء عذب عليهما، وإن شاء عفا عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقد وعد المغفرة لما دون الشرك، وقرنها بمشيئته تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فهذه الآية تدل على أن الصغائر والكبائر يجوز أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظ السيئات ينطلق عليهما.

٣٢ - ولما كان أخذ مال الغير بالباطل، وقتل النفس بغير حق، بتمني مال الغير وجاهه، نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكل من بسط في الرزق، أو قبض. فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم له، ولا يحسد أخاه على حظّه. فالحسد: أن يتمنى أن يكون ذلك الشيء له، ويزول عن صاحبه. والغبطة: أن يتمنى مثل ما لغيره. وهو مرخص فيه، والأول منهى عنه. ولما قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث، وقالت النساء: يكون وزرنا على نصف وزر الرجال كالميراث، نزل: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي: ليس ذلك على حسب الميراث ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن خزائنه لا تنفذ، ولا تتمنوا ما للناس من الفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فالتفضيل منه عن علم بمواضع الاستحقاق. قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ
 أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
 الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

وفي الحديث: «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه»^(١). وفيه: «إن الله تعالى
 يمسك الخير الكثير عن عبده، ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألني». «وسلوا»: مكي، وعلي.

٣٣ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ المضاف إليه محذوف، تقديره: ولكل أحد، أو:
 ولكل مال ﴿جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ ورأى يلونه ويحرزونه ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
 وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هو صفة مال محذوف، أي: لكل مال مما تركه الوالدان. أو:
 هو متعلق بفعل محذوف دلّ عليه الموالي، تقديره: يرثون مما ترك ﴿وَالَّذِينَ
 عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عاقدتهم أيديكم. وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط، فوقع
 خبره، وهو ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾، مع الفاء. عقدت: كوفي. أي: عقدت
 عهودهم أيمانكم. والمراد به عقد الموالاة، وهي مشروعة، والوراثة بها ثابتة
 عند عامة الصحابة - رضي الله عنهم - وهو قولنا. وتفسيره: إذا أسلم رجل أو
 امرأة لا وارث له، وليس بعربي؛ ولا معتق؛ فيقول لآخر: واليتك على أن
 تعقلني إذا جنيت، وترث مني إذا مت، ويقول الآخر: قبلت، انعقد ذلك،
 ويرث الأعلى من الأسفل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: هو عالم
 الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعد.

٣٤ - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن أمرين ناهين، كما يقوم
 الولاة على الرعايا، وسُمُوا قَوَّامًا لذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
 الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ للرجال والنساء، يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن
 لسبب تفضيل الله بعضهم - وهم الرجال - على بعض - وهم النساء - بالعقل،
 والعزم، والحزم، والرّمي، والقوة، والغزو، وكمال الصوم والصلاة، والنبوة،
 والخلافة، والإمامة، والأذان، والخطبة، والجماعة، والجمعة، وتكبير

وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَالَ صَلِّحْتُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ
 اللَّهُ وَاللَّيِّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُّوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ
 فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

التشريق عند أبي حنيفة - رحمه الله - والشهادة في الحدود والقصاص، وتضعيف الميراث، والتعصيب فيه، وملك النكاح، والطلاق، وإليه الانتساب، وهم أصحاب اللحي والعمائم ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وبأن نفقتهن عليهم، وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم. ثم قسمهن على نوعين، النوع الأول: ﴿قَالَ صَلِّحْتُ قَنِينْتُ﴾ مطيعات، قائمات بما عليهن للأزواج ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب، وهو خلاف الشهادة. أي: إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج، والبيوت، والأموال. وقيل: ﴿لِلْغَيْبِ﴾ لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أو: بما حفظهن الله، وعصمهن، ووقفهن لحفظ الغيب. أو: بحفظ الله إياهن حيث صيرهن كذلك. والثاني: ﴿وَاللَّيِّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ عصيانهن، وترفعهن عن طاعة الأزواج. والنشز: المكان المرتفع. عن ابن عباس - رضي الله عنهما: هو أن تستخف بحقوق زوجها، ولا تطيع أمره. ﴿فَعُظُّوهُمْ﴾ خوقوهم عقوبة الله تعالى، والضرب. والعظة: كلام يلين القلوب القاسية، ويرغب الطبائع النافرة ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد، أي: لا تداخلوهم تحت اللحف. وهو كناية عن الجماع. أو: هو أن يوليها ظهره في المضجع؛ لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَأَضْرِبُوهُمْ﴾ ضرباً غير مبرح. أمر بوعظهن أولاً، ثم بهجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينتجع فيهن الوعظ والهجران ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى. و﴿سَبِيلًا﴾ مفعول تبغوا. وهو من: بغيت الأمر، أي: طلبته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ أي: إن علت أيديكم عليهن، فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، فاجتنبوا ظلمهن. أو: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ وإنكم تعصونه على علو شأنه، وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع.

وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا

٣٥ - ثم خاطب الولاية بقوله: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾. أصله: شقاقاً بينهما، فأضيف الشقاق إلى الظرف على سبيل الاتساع، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وأصله: بل مكر في الليل والنهار. والشقاق: العداوة والخلاف؛ لأن كلا منهما يفعل ما يشقُّ على صاحبه، أو: يميل إلى شق، أي: ناحية غير شق صاحبه. والضمير للزوجين، ولم يجر ذكرهما لجري ذكر ما يدلُّ عليهما، وهو الرجال والنساء ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ رجلاً يصلح للحكومة والإصلاح بينهما ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وإنما كان بعث الحكمين من أهلها؛ لأنَّ الأقارب أعرفُ ببواطن الأحوال، وأطلبُ للصالح، ونفوس الزوجين أسكنُ إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب، والبغض، وإرادة الصلحة والفرقة. والضمير في: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ للحكمين. وفي: ﴿يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين، وكانت نيتهم صحيحة، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألفة والوفاق، وألقى في نفوسهما المودة والاتفاق. أو: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين، يوفق الله بينهما، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يتمَّ المراد. أو: الضميران للزوجين، أي: إن يريدَا إصلاح ما بينهما، وطلبا الخير، وأن يزول عنهما الشقاق، يُلقى الله بينهما الألفة، وأبدلهما بالشقاق الوفاق، وبالبغضاء المودة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإدارة الحكمين ﴿حَكِيمًا﴾ بالظالم من الزوجين. وليس لهما ولاية التفريق خلافاً للمالك - رحمه الله -.

٣٦ - ﴿* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً وغيره. ويحتمل المصدر، أي: إشراكاً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ وأحسنوا

وَيَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

بهما إحساناً بالقول، والفعل، والإنفاق عليهما عند الاحتياج ﴿وَيَذَى الْقُرْبَى﴾ وبكل من بينكم وبينه قربي من أخ، أو عم، أو غيرها ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الذي قرب جواره ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الذي جواره بعيد. أو: الجار: القريب النسيب، والجار الجنب: الأجنبي ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ أي: الزوجة، عن علي - رضي الله عنه -: أو الذي صحبتك بأن حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، أو شريكاً في تعلم علم، أو غيره، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الغريب، أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد، والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن قرابته وجيرانه، فلا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يعدد مناقبه كبراً. فإن عدّها اعتزافاً كان شكوراً.

٣٧ - ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ نصب على البدل من ﴿مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. وجمع على معنى من، أو على الذم، أو رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بالبخل: حمزة، وعلى، وهما لغتان كالرشد والرشد. أي: يبخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسخاء. قيل: البخل أن يأكل بنفسه، ولا يؤكل غيره. والشح: ألا يأكل ولا يؤكل. والسخاء: أن يأكل ويؤكل. والجود: أن يؤكل ولا يأكل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويخفون ما أنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال. وفي الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده»^(١). وبني عامل للرشيد قصراً حذاء قصره، فتم به. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين!

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) بلفظ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك. فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: يهانون به في الآخرة.

٣٨ - ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ معطوف على الذين ييخلون، أو: على الكافرين ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ مفعول له، أي: للفخار، وليقال: ما أجودهم! لا لابتغاء وجه الله. وهم المنافقون، أو مشركو مكة ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر. ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يُقرن بهم في النار.

٣٩ - ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان، والإنفاق في سبيل الله. والمراد: الدم والتوبيخ، وإلا فكل منفعة ومصلحة في ذلك. وهذا كما يقال للعاق: ما ضررك لو كنت باراً؟! وقد علم أنه لا مضرّة في البر، ولكنه ذم وتوبيخ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

٤٠ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هي: النملة الصغيرة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه أدخل يده في التراب، فرفعه، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكون ذرة ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ وإن تك مثقال الذرة حسنة. وإنما أنت ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. ﴿حَسَنَةً﴾: حجازي على كان التامة. وحذفت النون من تكن تخفيفاً لكثرة الاستعمال ﴿يُضْعَفْهَا﴾ يضاعف ثوابها. ﴿يُضْعَفْهَا﴾: مكّي، وشامي ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويُعط صاحبها من عنده ثواباً عظيماً. وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع أنه سمى متاع الدنيا

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ
يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾
يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

قليلاً؟! وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة، مع أن له حسنات كثيرة.

٤١ - ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا، وهو نبئهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ حال، أي: شاهداً على مَنْ آمَنَ بالإيمان، وعلى مَنْ كفر بالكفر، وعلى مَنْ نافق بالنفاق. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «حسبنا»^(١).

٤٢ - ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. أو: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء. أو: تصير البهائم تراباً فيودون حالها ﴿تُسَوَّى﴾ بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين من: تتسوى، حمزة وعلي. ﴿تُسَوَّى﴾ بإدغام التاء في السين: مدني، وشامي ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ مستأنف، أي: ولا يقدرُونَ على كتمانهِ؛ لأنَّ جوارحهم تشهدُ عليهم.

٤٣ - لما صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً وشراباً، ودعا نفراً من الصحابة - رضي الله عنهم - حين كانت الخمرُ مباحةً، فأكلوا وشربوا، فقدموا أحدهم ليصلي بهم المغرب، فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد، نزل: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾. أي: لا تقربوها في هذه الحالة ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: تقرؤون. وفيه دليل على أنَّ ردة السكران ليست بردة؛ لأنَّ قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر،

(١) رواه أحمد (٣٨٠/١) والبخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان. وما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالتفريق بينه وبين امرأته، ولا بتجديد الإيمان، ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً لا يحكم بكفره ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، أي: ولا تصلُّوا جنباً. والجنب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجنب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ صفة لقوله: «جنباً»، أي: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير مسافرين، والمراد بالجنب: الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾. أي: إلا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيِّمين. عبّر عن المتيمم بالمسافر؛ لأن غالب حاله عدم الماء. وهذا مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - وهو مروي عن علي - رضي الله عنه - وقال الشافعي - رحمه الله -: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ أي: مواضع الصلاة، وهي: المساجد ﴿ولا جنباً﴾ أي: ولا تقربوا المسجد جنباً ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ إلا مجتازين فيه. فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة، فكفى به عن الحدث ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن. كذا عن علي - رضي الله عنه - وابن عباس ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تقدرُوا على استعماله لعدمه، أو بعده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية، أو سبع، أو عدو ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل في حكم الشرط أربعة، وهم: المرضى، والمسافرون، والمحدثون، وأهل الجنابة. والجزء الذي هو الأمر بالتيمم يتعلّق بهم جميعاً. فالمرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه [لبعض الأسباب]^(١).

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

صَعِيدًا طَيِّبًا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصُّلَّةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَضعِهِمْ لِئَیْذَنُوا بِأَعْدَائِهِمْ وَاللَّهُ يَكْفِي عَنْ قَوْمِهِمْ ذُنُوبَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٦﴾

فلهم أن يتيمموا. ﴿لمستم﴾ حمزة وعلي. ﴿صعيداً﴾ قال الزجاج: هو وجه الأرض، تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيتم يده ومسح، لكان ذلك طهوره. و﴿من﴾ في سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتعويض ﴿طيباً﴾ طاهراً ﴿فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ قيل الباء زائدة ﴿إن﴾ الله كان عفواً بالترخيص، والتيسير ﴿عفوفاً﴾ عن الخطأ والتقصير.

٤٤ - ﴿ألم تر﴾ من رؤية القلب. وعدّي بإلى على معنى: ألم ينته علمك إليهم. أو: بمعنى: ألم تنظر إليهم ﴿إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ خطأ من علم التوراة، وهم: أحبار اليهود ﴿يشترؤون الصلّة﴾ يستبدلون بها الهدى، وهو: البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل ﴿ويريدون أن تضلوا﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿السبيل﴾ أي: سبيل الحق كما ضلوه.

٤٥ - ﴿والله أعلم﴾ منكم ﴿بأعدائكم﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم، ولا تستنصحوهم في أموركم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ في الدفع. فثقوا بولايته، ونصرتة دونهم. أو: لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم، ويكفيكم مكرهم. «ولياً» و«نصيراً» منصوبان على التمييز، أو على الحال.

٤٦ - ﴿من الذين هادوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أو: بيان لأعدائكم. وما بينهما اعتراض. أو: يتعلق بقوله «نصيراً»، أي: ينصركم ﴿من الذين هادوا﴾ كقوله: ﴿ونصرته من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأنبياء: ٧٧]. أو: يتعلق بمحذوف تقديره: ﴿من الذين هادوا﴾ قوم ﴿يحرفون الكلم﴾. فقوم: مبتدأ، ويحرفون: صفة له، والخبر من الذين هادوا مقدم عليه، وحذف الموصوف وهو «قوم»، وأقيم صفته، وهو: ﴿يحرفون الكلم عن

مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي
الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعَ

مَوَاضِعِهِ ﴿ يميلونه عنها، ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كَلِمًا غيره، فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة؛ التي وضعه الله تعالى فيها، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم: «أسمر ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم: «آدم طويل» مكانه. ثم ذكر هنا ﴿عن مواضعه﴾ وفي المائدة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]. فمعنى عن مواضعه على ما بينا من إزالته عن مواضعه؛ التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. ومعنى ﴿من بعد مواضعه﴾ أنه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارته. والمعنيان متقاربان ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. قيل: أسروا به ﴿وَاسْمَعَ﴾ قولنا ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع. وهو قول ذو وجهين يحتمل الذم. أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت؛ لأنه لو أُجيب دعوتهم عليه لم يسمع شيئاً، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذلك اتكالاً على أَنَّ قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة. أو: اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئاً. أو: اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، فسمعك عنه ناب. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً: إذا سبه ﴿وَرَاعِنَا﴾ يحتمل راعنا: نكلمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية، أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي «راعيئا» فكانوا سخرية بالدين، وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة، والإهانة، ويظهرون به التوقير، والإكرام ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلاً بها. وتحريفاً، أي: يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون ﴿راعنا﴾ موضع «انظرنا» و﴿غير مسمع﴾ موضع: «لا أسمع مكروهاً» أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً ﴿وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ هو قولهم: لو كان نبياً حقاً لأخبر بما نعتقد فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ﴿وَاسْمَعَ﴾ ولم يلحقوا به ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾

وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

﴿وَأَنْظُرْنَا﴾ مكان ﴿راعنا﴾ ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذاك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ عند الله ﴿وَأَقْوَمَ﴾ وأعدل، وأسد ﴿وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم، وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه. أو: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره.

٤٧ - ولما لم يؤمنوا نزل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: التوراة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين، وحاجب، وأنف، وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها. والفاء للتسبيب. وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعّدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر، ردّها على أدبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكس الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. وقيل: المراد بالطمس: القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة، وبالوجوه: رؤوسهم ووجهاؤهم. أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم، ووجهاتهم، ونكسوهم صغارهم، وإدبارهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي: نخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت. والضمير يرجع إلى الوجوه إن أريد الوجهاء، أو: إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات. والوعيد كان معلقاً بالأيمان كلهم، وقد آمن بعضهم، فإن ابن سلام قد سمع الآية قافلاً من الشام، فأتى النبي ﷺ مسلماً قبل أن يأتي أهله، وقال: ما كنت أرى أن أصل إلى أهلي قبل أن يطمس الله وجهي. أو: أن الله تعالى أوعدهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه، أو بلعنهم. فإن كان الطمس تبدل أحوال رؤسائهم فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان. وقيل: هو منتظر في اليهود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: المأمور به، وهو العذاب، الذي وعدوا به

مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة، فلا بُدَّ أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

٤٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة. والحاصل: أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأنَّ وعد غفران ما دونه لمن لم يتب، أي: لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب وهو مذب. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ولم تضره خطيئته»^(١). وتقييده بقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لا يخرج عن عموم، كقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]. قال علي - رضي الله عنه -: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية. وحمل المعتزلة على التائب، باطل؛ لأنَّ الكفر مغفور عنه بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فما دونه أولى أن يغفر التوبة. والآية سقت لبيان التفرقة بينهما. وذا فيما ذكرنا ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كذب كذباً عظيماً استحقَّ به عذاباً أليماً.

٤٩ - ونزل فيمن زكى نفسه من اليهود والنصارى، حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ويدخل فيها كلُّ مَنْ زكى نفسه، ووصفها بزكاء العمل، وزيادة الطاعة، والتقوى ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتدُّ بها، لا تزكية غيره؛ لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية. ونحوه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم، ولا ينقص من ثوابهم ﴿فَتِيلًا﴾ قدر فتيل، وهو: ما يحدث بقتل الأصابع من الوسخ.

أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

٥٠ - ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أذكىاء ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ بزعمهم هذا ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ من بين سائر آثامهم.

٥١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي: الأصنام، وكل ما عبده من دون الله ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ وذلك أن حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأنتم إلى محمد أقرب منا، وهو أقرب منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم. ففعلوا. فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس عليه اللعنة فيما فعلوا. فقال أبو سفيان: أنحن أهدي سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: أنتم أهدي سبيلاً.

٥٢ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يعتد بنصره.

٥٣ - ثم وصف اليهود بالبخل والحسد، وهما من شرِّ الخصال، يمنعون مالهم، ويتمنون ما لغيرهم، فقال: ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ ف«أم» منقطعة، ومعنى الهمزة: الإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك - أي: ملك أهل الدنيا، أو ملك الله - فإذا لا يؤتون أحداً مقداراً نقير لفرط بخلهم. والنقير: النقرة في ظهر النواة. وهو مثل في القلّة كالفتيل.

٥٤ - ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بل يحسدون رسول الله

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَفُتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

ﷺ والمؤمنين، على إنكار الحسد واستقبحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصر، والغلبة، وازدياد العز، والتقدم كل يوم ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الموعظة، والفقه ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني: ملك يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام. وهذا إلزام لهم بما عرفوه من إتياء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أوتي أسلافه.

٥٥ - ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته. أو: من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، وأعرض عنه ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ للصَّادِينَ.

٥٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أحرقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصليين عند أهل الحق، خلافاً للكرامية. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع، كقولك للعزیز: أعزك الله، أي: أدامك على عرك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ غالباً بالانتقام، لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بالكافرين.

٥٧ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَفُتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الأنجاس، والحيض، والثفاس. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل،

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

وهو ما كان طويلاً فينأنا: لا جُوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسَجَسَجاً لا حرَّ فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة.

٥٨ - ثمَّ خاطب الولاية بأداء الأمانات، والحكم بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقيل: قد دخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى؛ التي حملها الإنسان، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قضيتهم. ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ بالسوية، والإنصاف. وقيل: إنَّ عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة، وقد أخذ رسولُ الله ﷺ منه مفتاح الكعبة. فلما نزلت الآية أمر علياً - رضي الله عنه - بأن يرده إليه، وقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» وقرأ عليه الآية. فأسلم عثمان. فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله ﷺ أن السّدانة في أولاد عثمان أبداً^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ «ما» نكرة منصوبة موصوفة بـ: يعظكم به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به. أو: موصولة مرفوعة المحل صلتها ما بعدها، أي: نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعماً يعظكم به ذاك. وهو المأمورُ به من أداء الأمانات، والعدل في الحكم. وبكسر النون وسكون العين، مدني، وأبو عمرو. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم.

٥٩ - ولما أمر الولاية بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: الولاية، أو: العلماء؛ لأن أمرهم ينفذ على الأمراء ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي:

(١) قال ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب. انظر: حاشية الكشاف (١/٥٢٣).

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَخَيْرٌ وَآخَسُنْ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن الإيمان يوجب الطاعة دون العصيان. ودلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق، فإذا خالفوه فلا طاعة لهم؛ لقوله ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(١). وحكي أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال لأبي حازم: أستم أمرتم بطاعتنا بقوله ﴿وأولي الأمر منكم﴾؟ فقال أبو حازم: ليس قد نزعت الطاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾؟ أي: القرآن والرسول في حياته، وإلى أحاديثه بعد وفاته ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الرد. أي: الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خَيْرٌ﴾ عاجلاً ﴿وَآخَسُنْ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة.

٦٠ - كان بين بشر المنافق ويهودي خصومة، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ لعلمه أنه لا يرتشي، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ليرشوه. فاحتكما إلى النبي ﷺ، ففضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر. فقال اليهودي لعمر - رضي الله عنه -: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذاك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فأخذ سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق. فقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»^(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿يزعمون﴾ ﴿أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: كعب بن الأشرف. سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله ﷺ. أو: على التشبيه بالشیطان. أو جعل اختيار

(١) رواه أحمد (٤٠٩/١) و (٦٦/٥).

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧ - ١٠٨).

وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

التحاكم إلى غير الله على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ مستمراً إلى الموت.

٦٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين. ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ للتحاكم ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة، فيقضي لهم.

٦٢ - ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم، وكيف يصنعون؟ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ من قتل عمر بشراً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك، واتهامهم لك في الحكم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أي: أصحاب القتل من المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حال ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطاً لحكمك. وهذا وعيد لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه، وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به.

٦٣ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ فاعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتحذير والإنذار. أو: أعرض عن عقابهم، وعظهم في عتابهم، وبلغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بارتكابهم. والبلاغة: أن يبلغ بلسانه كنه ما في جنانه. و﴿في أنفسهم﴾ يتعلق به: قل لهم، أي: ﴿قل لهم في﴾ معنى ﴿أنفسهم﴾ الخبيثة وقلوبهم المطوية على

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

النفاق ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

٦٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ أي: رسولاً قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيقه في طاعته وتيسيره. أو: بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه؛ لأنه مؤدّ عن الله، فطاعته طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من النفاق، معتردين عما ارتكبوا من الشقاق ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من النفاق والشقاق ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم. والعامل في ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾ خبر أن وهو ﴿جاءوك﴾. والمعنى: ولو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول. ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾ لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم. ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفضيلاً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهاً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان. ﴿رَحِيمًا﴾ بهم. قيل: جاء أعرابي بعد دفنه ﷺ فرمى بنفسه على قبره، وحثاً من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله! قلت فسمعنا، وكان فيما أنزل عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...﴾ الآية وقد ظلمت نفسي، وجئتك أستغفر الله من ذنبي، فاستغفر لي من ربي. فنودي من قبره: قد غفر لك!

٦٥ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢] و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم. وجواب القسم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو: التقدير ﴿فلا﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون، ثم قال: ﴿وربك لا يؤمنون﴾ ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه: الشجر؛ لتداخل أغصانه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً ﴿وَمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا تضيق صدورهم من حكمك، أو شكاً؛ لأن الشاك في ضيق من أمره

وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنُهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ وينقادوا لقضائك انقياداً، وحقيقته: سلم نفسه له وأسلمها، أي: جعلها سالمة له، أي: خالصة. و﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك.

٦٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين، أي: ولو وقع كتبنا عليهم ﴿أَنْ اقْتُلُوا﴾ أن هي المفسرة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تعرّضوا للقتل بالجهاد، أو: ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ بالهجرة ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقهم، والهاء: ضمير أحد مصدرى الفعلين، وهو: القتل، أو الخروج، أو: ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (قليلًا): شامي، على الاستثناء، والرفع على البدل من واو «فعلوه» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من اتباع رسول الله ﷺ، والانقياد لحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ لإيمانهم، وأبعد عن الاضطراب فيه.

٦٧ - ﴿وَإِذَا﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وما ذا يكون لهم بعد التثبیت؟ فقيل: ﴿وَإِذَا﴾ لو ثبتوا ﴿لَا تَأْتِنُهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً لا ينقطع.

٦٨ - ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ أي: لثبتناهم على الدين الحق.

٦٩ - ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء. والصدیق: المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة. أو: الذي يصدق قوله بفعله ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ والذين استشهدوا

وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا ﴿٧١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 عَلِيمًا ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٣﴾
 وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَأَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ

في سبيل الله ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ ومن صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم ﴿وَحَسَنَ
 أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسن أولئك رفيقاً! وهو كالصديق، والخليط في
 استواء الواحد، والجمع فيه.

٧٠ - ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أو: الفضل صفته و(من
 الله) خبره. والمعنى: أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم، ومرافقة
 المنعم عليهم، من الله؛ لأنه تفضل به عليهم. أو: أراد أن فضل المنعم عليهم
 ومزيّتهم من الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ بعباده، وبمن هو أهل الفضل. ودلت الآية
 على أنَّ ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه، بخلاف ما يقوله المعتزلة.

٧١ - ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْر والحَذَر بمعنى، وهو:
 التَّحَرُّزُ، وهما كالإثر والأثر. يقال: أخذ حذره؛ إذا تيقظ، واحترز من
 المخوف، كأنه جعل الحذر آتاه التي بقي بها نفسه، ويعصم بها روحه.
 والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو
 جماعات متفرقة سرية بعد سرية. فالثبات: الجماعات، واحدها: ثبة ﴿أَوْ
 انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين، أو مع النبي ﷺ؛ لأن الجمع بدون السمع
 لا يتم، والعقد بدون الوسطة لا ينتظم. أو: ﴿انفروا ثبات﴾ إذا لم يعم النفير
 ﴿أو انفروا جميعاً﴾ إذا عمَّ النفير. و«ثبات» حال، وكذا «جميعاً».

٧٢ - واللام في: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَأَنَّ﴾ للابتداء بمنزلتها في إن الله لغفور، ومن
 موصولة ﴿لَّيْطَأَنَّ﴾ اللام جواب قسم محذوف، تقديره: وإن منكم لمن أقسم
 بالله ليبتئن. والقسم وجوابه صلة من. والضمير الراجع منها إليه ما استكن في
 ﴿ليبتئن﴾ أي: ليتأكلن، وليتخلفن عن الجهاد. وبتؤ بمعنى: أبطأ، أي:
 تأخر. ويقال: ما بتؤ بك، فيتعدى بالباء. والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ.
 وقوله ﴿منكم﴾ أي: الظاهر دون الباطن، يعني: المنافقين، يقولون: لم
 تقتلون أنفسكم، تأنوا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ قتل، أو هزيمة

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ المبطيء ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً، فيصيني مثل ما أصابهم.

٧٣ - ﴿وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فتح، أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطيء متلهفاً على ما فاتته من الغنيمة، لا طلباً للمثوبة ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنه ﴿لَمْ تَكُنْ﴾^(١) وبالياء، مكى، وحفص ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وهي اعتراض بين الفعل، وهو ﴿ليقولن﴾ وبين مفعوله، وهو ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ والمعنى: كأن لم يتقدم له معكم مادة؛ لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين في الظاهر، وإن كانوا يبعون لهم الغوائل^(٢) في الباطن ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالنصيب؛ لأنه جواب التمني ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فأخذ من الغنيمة حظاً وافراً.

٧٤ - ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ والمراد: المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة، ويستبدلون بها. أي: إن صد الذين مرضت قلوبهم، وضعفت نياتهم عن القتال، فليقاتل الثابتون المخلصون. أو: يشترون. والمراد: المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة. وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إتياء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿يَكُنْ﴾. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحمزة، وعاصم، وأبي جعفر المدني، وحفص، ورويس البرجمي. معجم القراءات القرآنية (١٤٥/٢).

(٢) «الغوائل»: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٧٥ - ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر. وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاء، وفي الإثبات للإنكار ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حال، والعامل فيها الاستقرار، كما تقول: مالك قائماً؟! والمعنى: وأي شيء لكم تاركين القتال، وقد ظهرت دواعيه؟! ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في سبيل الله، وفي خلاص المستضعفين. أو: منصوب على الاختصاص منه، أي: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين [من المستضعفين] ^(١)؛ لأن سبيل الله عام في كل خير، وخلاص المستضعفين المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير، وأخصه. والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة، وصدهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين، يَلْقَوْنَ مِنْهُمْ الأذى الشديد ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ذكر الولدان تسجيلاً بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزاً لرحمة الله بدعاء صغارهم؛ الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس عليه السلام. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الظالم: وصف للقرية، إلا أنه مسند إلى أهلها، فأعطي إعراب القرية؛ لأنه صفتها، وذكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم. كانوا يدعون الله بالخلاص، ويستنصرونه، فيسر بعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولي وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي، ونصرهم أقوى

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ
اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

النصر. ولما خرج محمد ﷺ استعمل عتاب بن أسيد، فأروا منه الولاية
والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان ينصر الضعيف
من القوي، حتى كانوا أعزَّ بها من الظلمة.

٧٦ - ثُمَّ رَغِبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ وَلِيَهُمْ
وَنَاصِرُهُمْ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، فَلَا وَلِيَ لَهُمْ إِلَّا الشَّيْطَانُ
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: الشيطان
بقوله: ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسأوسه،
وقيل الكيد: السعي في فساد الحال، على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه
غرور، لا يؤول إلى محصول، أو: كيده في مقابلة نصر الله تعالى ضعيف.

٧٧ - كَانَ الْمُسْلِمُونَ مَكْفُوفِينَ عَنِ الْقِتَالِ مَعَ الْكُفَّارِ مَا دَامُوا بِمَكَّةَ،
وَكَانُوا يَتَمَنُّونَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ فِيهِ، فَتَنَزَّلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي:
عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فَرِضَ بِالْمَدِينَةِ
﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يخافون أن يقاتلهم الكفار، كما يخافون
أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين، ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن
الأخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت. قال الشيخ أبو منصور- رحمه الله -:
هذه خشية طبع، لا أنَّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء
مجبولٌ على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالباً. و«خشية الله» من إضافة المصدر
إلى المفعول، ومحله النصب على الحال من الضمير في «يخشون» أي:
يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً﴾ هو معطوف على الحال، أي: أو أشد خشية من أهل خشية الله.
وأو: للتخيير، أي: أن قلت خشيتهم الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن
قلت: إنها أشد فأنت مصيب؛ لأنه حصل لهم مثلها وزيادة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

عَلَيْنَا الْفِتَالُ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ لَدُنْهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ

عَلَيْنَا الْفِتَالُ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿﴾ هلا أمهلنا إلى الموت، فموت على الفرش. وهو سؤالٌ عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه؛ بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة كثير دائم، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل، فكيف القليل الزائل؟! ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتل، فلا ترغبوا عنه. وبالياء، مكّي، وحمزة، وعليّ.

٧٨ - ثم أخبر أن الحذر لا ينجي من القدر بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ «ما» زائدة لتوكيد معنى الشرط في أين ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ حصون، أو قصور ﴿مُسَيَّدَةٍ﴾ مرفعة ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة من خصب، ورخاء. ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية من قحط، وشدة ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك. وذلك: أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى، وإذا أصابهم مكروه نسبوه إلى محمد ﷺ، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والمضاف إليه محذوف، أي: كل ذلك، فهو ييسط الأرزاق ويقبضها ﴿فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادرٌ عن حكمة.

٧٩ - ثم قال: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يا إنسان! خطاباً عاماً، وقال الزجاج: المخاطب به النبي ﷺ، والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة، وإحسان ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ تفضلاً منه، وامتناناً ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ من بلية، ومصيبة ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ فمن عندك، أي: فيما كسبت يداك ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ فيما كسبت

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أيديكم ﴿٧٩﴾ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴿٧٩﴾ لا مقدرًا حتى نسبوا إليك الشدة. أو: أرسلناك للناس رسولًا، فإليك تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة ﴿٧٩﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ بأنك رسوله. وقيل: هذا متصل بالأول، أي: ﴿لا يكادون يفقهون حديثًا﴾ يقولون: ﴿ما أصابك﴾. وحمل المعتزلة الحسنة والسيئة في هذه الآية على الطاعة والمعصية، تعسف بين. وقد نادى عليه ﴿ما أصابك﴾ إذ يقال في الأفعال: ما أصبت، ولأنهم لا يقولون الحسنات من الله خلقًا وإيجادًا، فأتى يكون لهم حجة في ذلك؟! و﴿شهادًا﴾ تمييز.

٨٠ - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتعاقبهم.

٨١ - ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا وشأننا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ زور، وسوى. فهو من البيوت؛ لأنه قضاء الأمر وتديره بالليل، أو من أبيات الشعر لأن الشاعر يدبرها ويُسويها. وبالإدغام^(١) حمزة، وأبو عمرو ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت، وما أمرت به. أو: خلاف ما قالت، وما ضمنت من الطاعة؛ لأنهم أبطنوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة، وإنما ينافقون بما يقولون، ويظهرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يشته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك مضرتهم، ويتقم لك منهم

(١) أي: بإدغام التاء مع الطاء ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
 اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ
 إِلَى الرَّسُولِ وَالْإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ

إذا قوي أمر الإسلام ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كافياً لمن توكل عليه.

٨٢ - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أفلا يتأملون معانيه ومبانيه. والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كل تأمل. والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل. وهذا يردُّ قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول الله ﷺ، والإمام المعصوم. ويدلُّ على صحة القياس، وعلى بطلان التقليد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضاً من حيث التوحيد، والتشريك، والتحليل، والتحريم. أو: تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضه بالغاً حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته. أو: من حيث المعاني، فكان بعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم. وأما تعلق الملاحظة بآيات يدعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ﴿كَانَهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠] ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَكَ أَجْعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] ﴿فَيَوْمِيزُ لَا يُشْلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْشٌ وَلَا حَكَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩] فقد تفصَّى عنها أهل الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانها إن شاء الله تعالى.

٨٣ - ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم يكن فيهم خبرة بالأحوال. أو: المنافقون؛ كانوا إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله ﷺ من أمن، وسلامة، أو خوف، وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفشوه، وكانت إذاعتهم مفسدة. يقال: أذاع السر، وأذاع به. والضمير يعود إلى الأمر، أو: إلى الأمن، أو: الخوف؛ لأن أو تقتضي أحدهما ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ أي: رسول الله ﷺ ﴿وَالْإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعني: كبراء الصحابة البصراء بالأمر، أو الذين كانوا يؤمرون منهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾

الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِنِئْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

لَعَلَّم تَدْبِيرَ مَا أَخْبَرُوا بِهِ ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يَسْتَخْرِجُونَ تَدْبِيرَهُ بِفُطْنِهِمْ، وَتَجَارِبِهِمْ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِأُمُورِ الْحَرْبِ وَمَكَائِدِهَا. وَقِيلَ: كَانُوا يَقْفُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُولَى الْأَمْرِ عَلَى أَمْنٍ وَوَثُوقٍ بِالظُّهُورِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْدَاءِ، أَوْ عَلَى خَوْفٍ وَاسْتَشْعَارٍ، فَيَذِيعُونَهُ، فَيَنْتَشِرُ، فَيَبْلُغُ الْأَعْدَاءَ، فَيَعُودُ إِذَاعَتَهُمْ مَفْسُدَةً، وَلَوْ رَدَّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ، وَفَوَّضُوهُ إِلَيْهِمْ، وَكَانُوا كَأَن لَّمْ يَسْمَعُوا، لَعَلَّم الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ تَدْبِيرَهُ كَيْفَ يَدْبُرُونَهُ، وَمَا يَأْتُونَ، وَيَذَرُونَ فِيهِ. وَالنَّبْطُ: الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْبُئْرِ أَوَّلَ مَا تُحْفَرُ. وَاسْتَنْبَاطُهُ: اسْتِخْرَاجُهُ، فَاسْتَعِيرَ لَمَّا يَسْتَخْرِجُهُ الرَّجُلُ بِفَضْلِ ذَهْنِهِ مِنَ الْمَعَانِي، وَالتَّدَابِيرِ فِيمَا يَعْضَلُ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ لَبَقِيتُمْ عَلَى الْكُفْرِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَلَكِنْ آمَنُوا بِالْعَقْلِ كَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ، وَقَسِ بْنِ سَاعِدَةَ، وَغَيْرِهِمَا.

٨٤ - لَمَّا ذَكَرَ فِي الْآيِ قَبْلَهَا تَنْبِطَهُمْ عَنِ الْقِتَالِ، وَإِظْهَارَهُمُ الطَّاعَةَ، وَإِضْمَارَهُمْ خِلَافَهَا، قَالَ: ﴿فَقِنِئْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِنْ أَفْرَدُوكَ، وَتَرَكُوكَ وَحْدَكَ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ غَيْرَ نَفْسِكَ وَحْدَهَا أَنْ تُقَدِّمَهَا إِلَى الْجِهَادِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَاصِرُكَ لَا الْجُنُودَ. وَقِيلَ: دَعَا النَّاسَ فِي بَدْرِ الصَّغْرَى إِلَى الْخُرُوجِ، وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ وَاعَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْلِقَاءَ فِيهَا، فَكَرِهَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا فَتَزَلَتْ، فَخَرَجَ وَمَا مَعَهُ إِلَّا سَبْعُونَ، وَلَوْ لَمْ يَتَّبِعْهُ أَحَدٌ لَخَرَجَ وَحْدَهُ ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا عَلَيْكَ فِي شَأْنِهِمْ إِلَّا التَّحْرِيزُ عَلَى الْقِتَالِ فَحَسَبَ، لَا التَّعْنِيفَ بِهِمْ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ: بِطَشِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ، وَهَمَّ قَرِيشٌ. وَقَدْ كَفَّ بِأَسْهِمٍ بِالرَّعْبِ فَلَمْ يَخْرُجُوا. وَ﴿عَسَى﴾ كَلِمَةٌ مَطْمَعَةٌ، غَيْرُ أَنْ إِطْمَاعَ الْكَرِيمِ أَعُودَ مِنْ إِنْجَازِ اللَّثِيمِ ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ مِنْ قَرِيشٍ ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تَعْذِيبًا، وَهُوَ تَمْيِيزُ كَ: بِأَسًا.

مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَمْ نَصِيبْ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ يَكْفُلْ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

٨٥ - ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعاً ﴿يَكُنْ لَمْ نَصِيبْ مِنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: مالها مفسر غيري: معناه: من أمر بالتوحيد، وقاتل أهل الكفر، وضده: السيئة. وقال الحسن: هو المشي بالصلح، وضده: النميمة ﴿يَكُنْ لَمْ يَكْفُلْ مِنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ مقتدرًا. من: أقات على الشيء: اقتدر عليه، أو حفيظًا. من القوت لأنه يمسك النفس، ويحفظها.

٨٦ - ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ﴾ أي: سُلم عليكم، فإنَّ التحية في ديننا بالسلام في الدارين ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وكانت العرب تقول عند اللقاء: حياك الله، أي: أطل حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿بِنَحِيَةٍ﴾ هي تفعلة، من حيا يحتي تحية ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: أجيئوها بمثلها. ورد السلام: جوابه بمثله؛ لأنَّ المجيب يردُّ قولَ المسلم. وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها. والتسليم سُنَّة، والرد فريضة، والأحسنُ فضل. وما من رجل يمرُّ على قوم مسلمين فيسلمُ عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس، وردت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم، والأذان، والإقامة. وعند أبي يوسف - رحمه الله -: لا يسلم على لاعب الشطرنج والنرد، والمُعْتَبِي، والقاعد لحاجته، ومُطَيَّرِ الحَمَام، والعارِي من غير عذر في حمام أو غيره. ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، والماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر،

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ

وإذا التقيا ابتدرا. وقيل: ﴿بأحسن منها﴾ لأهل الملة ﴿أو ردها﴾ لأهل الذمة. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» ^(١) أي: وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وقوله ﷺ: «لا غرار في تسليم» ^(٢) أي: لا يقال عليك، بل عليكم؛ لأن كاتبيه معه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: يُحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

٨٧ - ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر، أو اعتراض، والخبر: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ومعناه: الله، والله ليجمعنكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة: القيام، كالطالبة والطلاب، وهي: قيامهم من القبور، أو: قيامهم للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ هو حال من يوم القيامة، والهاء يعود إلى اليوم. أو: صفة المصدر محذوف، أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء يعود إلى الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ تمييز. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه في إخباره، ووعد، ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه لقبه؛ لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

٨٨ - ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقاً ظاهراً، وتفرقتم فيهم فرقتين، وما لكم لم تقطعوا القول بكفرهم. وذلك أَنَّ قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة. فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون. و﴿فتنتين﴾ حال، كقولك: مالك قائماً؟ قال سيبويه: إذا قلت مالك قائماً؟ فمعناه: لم قمت؟ ونصبه على

(١) رواه البخاري (٦٢٥٨) ومسلم (٢١٦٣).

(٢) رواه أحمد (٤٦١/٢) وأبو داود (٩٢٨ و ٩٢٩). ومعنى «لا غرار»: لا نقصان.

وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ

تأويل: أي شيء يستقرُّ لك في هذه الحال؟! ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ رَدَّهم إلى حُكْم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين. فردوهم أيضاً، ولا تختلفوا في كفرهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ مَنْ جعله الله ضالاً. أو: أتريدون أن تسموهم مهتدين، وقد أظهر الله ضلالهم، فيكون تعبيراً لمن سماهم مهتدين. والآية تدلُّ على مذهبنا في إثبات الكسب للعبد، والخلق للرب جلَّت قدرته ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهداية.

٨٩ - ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ الكاف: نعت لمصدر محذوف، وما: مصدرية، أي: ودوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على تكفرون ﴿سَوَاءً﴾ أي: مستويين أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا؛ لأنَّ الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ كما كان حُكْم سائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

٩٠ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ أي: ينتهون إليهم، ويتصلون بهم. والاستثناء من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ دون الموالاة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ القوم هم المسلمون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، وذلك أنه وادَّعَ قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال، والتجأ إليه، فله من الجوار مثل الذي لهلال. أي: فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ عطف على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم. أو: على صلة الذين، أي: إلا الذين يتصلون

حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾ سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً

بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم ﴿حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد. والحصار: الضيق، والانقباض ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم، أي: عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقوية قلوبهم، وإزالة الحصر عنها ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ عطف على «لسلطهم» ودخول اللام للتأكيد ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ﴾ أي: الانقياد، والاستسلام ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى القتال.

٩١ - ﴿سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق. هم قوم من أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا، وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا، ونكثوا عهودهم ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم على القتال المسلمين ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كلِّ عدو ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ عطف على لم يعتزلوكم، أي: ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف عليه أيضاً، أي: ولم يمسكوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم، وظفرتم بهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنّا لكم في قتلهم.

٩٢ - ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وما صح له، ولا استقام، ولا لاق بحاله ﴿أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا﴾ ابتداء من غير قصاص، أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدم إباحة دمه ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ إلا على وجه الخطأ، وهو استثناء منقطع بمعنى:

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

لكن، أي: لكن إن وقع خطأ. ويحتمل أن يكون صفة للمصدر، أي: إلا قتلاً خطأ. والمعنى: من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد بأن يرمي كافراً، فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر، فإذا هو مسلم ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً﴾ صفة مصدر محذوف، أي: قتلاً خطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم؛ لأن الكرم في الأحرار، كما أن اللؤم في العبيد، ومنه عتاق الطير، وعتاق الخيل لكرامها. والرقبة: النسمة، ويعبر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ قيل: لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولهذا منع من تصرف الأحرار. وهذا مشكل، إذ لو كان كذلك لوجب في العمد أيضاً. لكن يحتمل أن يقال: إنما وجب عليه ذلك لأن الله تعالى أبقى للقاتل نفساً مؤمنة، حيث لم يوجب القصاص، فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها، كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، فيُقضى منها الدين، وتنفذ الوصية، وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال. وقد ورث رسول الله ﷺ امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم. لكن الدية على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، أي: يعفوا عنه، والتقدير: فعليه دية في كل حال، إلا في حال التصديق عليه بها ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأ من قوم أعداء لكم، أي: كفرة، فالعدو يطلق على الجمع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: المقتول مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: إذا أسلم العربي في دار الحرب، ولم يهاجر إلينا، فقتله مسلم خطأ، تجب

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ
اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا
فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الكفارة بقتله للعصمة المؤتممة، وهي الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقومة بالدار، ولم توجد ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ أي: المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين. ﴿وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وإن كان المقتول ذمياً فحكمه حكم المسلم. وفيه دليل على أنَّ دية الذمي كدية المسلم، وهو قولنا ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقة، أي: لم يملكها، ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قبولاً من الله، ورحمة منه، من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو فليتب توبة، فهي نصب على المصدر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قدر.

٩٣ - ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير القاتل، أي: قاصداً قتله لإيمانه، وهو كفر، أو قتله مستحلاً لقتله، وهو كفر أيضاً ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: إن جازاه. قال ﷺ: «هي جزاؤه إن جازاه»^(١). والخلود قد يراد به طول المقام. وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَابُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أي: انتقم منه، وطرده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لارتكابه أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً. في الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»^(٢).

٩٤ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سرتم في طريق الغزو.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٢٧).

(٢) رواه الترمذي (١٣٩٥).

فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتثبتوا، حمزة، وعليّ. وهما من التفعّل بمعنى الاستفعال. أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته، ولا تهوكوا فيه^(١) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ السَّلَام: مدني، وشامي، وحمزة. وهما الاستسلام، وقيل: الإسلام، وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ في موضع النصب بالقول. روي أَنَّ مرداس بن نهيك أسلم، ولم يُسلم من قومه غيره، فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ فهربوا، وبقي مرداس لثقتة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر، ونزل، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه؟!» ثم قرأ الآية على أسامة^(٢) ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك الثبوت، وقلة البحث عن حال مَنْ تقتلون. والعَرَض: المال، سُمّي به لسرعة فناؤه. و﴿تَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿تَقُولُوا﴾ ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكموها، تغنيكم عن قتل رجل يُظهر الإسلام، ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لألسنتكم. والكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر كان، وقد تقدم عليها وعلى اسمها ﴿فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة، والاشتهار بالإيمان، فافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ كرّر الأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تتهافتوا في القتل، وكونوا محترزين، محتاطين في ذلك.

(١) «لا تهوكوا فيه»: أي: لا تتحيروا أو تخطبوا بلا مبالاة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/٥٥٢).

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً

٩٥ - ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالنصب: مدني، وشامي، وعلي؛ لأنه استثناء من القاعدين، أو حال منهم. وبالجر: عن حمزة، صفة للمؤمنين. وبالرفع: غيرهم، صفة للقاعدين. والضرر: المرض، أو العاهة من: عمى، أو عرج، أو زمانة، أو نحوها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿القاعدون﴾. ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، وتوبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ ذكر هذه الجملة بياناً للجملة الأولى، موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل: ما لهم لا يستوون؟! فأجيب بذلك ﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: كأنه فضلهم تفضلة، كقولك: ضربه سوطاً. ونصب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل فريق من القاعدين والمجاهدين، ونصب لأنه مفعول أول؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ والثاني ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المثوبة الحسنی، وهي: الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩٦ - ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: انتصب ﴿أَجْرًا﴾ بـ «فضل» لأنه في معنى أجرهم أجراً. ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من «أجراً». أو انتصب «درجات» نصب «درجة»، كأنه قيل: فضلهم تفضيلات، كقولك: ضربه أسواطاً، أي: ضربات، و﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أنه حال من النكرة؛ التي هي درجات مقدمة عليها. ومغفرة ورحمة بإضمار فعلهما، أي: وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة. وحاصله: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ بِعَذْرٍ دَرَجَةً؛ وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبي ﷺ اكتفاء بغيرهم،

وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

درجات؛ لأنَّ الجهاد فرض كفاية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا﴾ بتكفير العذر ﴿رَحِيمًا﴾ بتوفير الأجر.

٩٧ - ونزل فيمن أسلم ولم يهاجر، حين كانت الهجرة فريضة، وخرج مع المشركين إلى بدر مرتداً فقتل كافراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يجوز أن يكون ماضياً لقراءة من قرأ (توفيتهم) ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين. والتوفي: قبض الروح. والملائكة: ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال من ضمير المفعول في توفاهم، أي: في حال ظلمهم أنفسهم بالكفر، وترك الهجرة ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة للمتوفين ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟ ومعناه: التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين عن الهجرة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة موبخين لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد؛ التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ. ونصب ﴿فَتُهَاجِرُوا﴾ على جواب الاستفهام ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ خبر «إن»: ﴿فَأُولَئِكَ﴾. ودخول الفاء لما في الذين من الإيهام المشابه بالشرط. أو: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ والعائد محذوف، أي: قالوا لهم. والآية تدلُّ على أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره حقَّت عليه المهاجرة. وفي الحديث: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استُوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»^(١).

٩٨ - ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثنى من أهل الوعيد

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي مرسلًا. (حاشية الكشف ٥٥٥/١).

لَا يَسْتَطِيعُونَ جِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ جِيلَةً﴾ في الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ولا معرفة لهم بالمسالك. و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: صفة للمستضعفين، أو: للرجال، والنساء، والولدان. وإنما جاز ذلك والجمل نكرات؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف، فليس بشيء بعينه، كقوله:

ولقد أمر على اللئيم يسيني^(١) ...
 ٩٩ - ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله واجب؛ لأنَّ الكريم إذا أطمع أنجز ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده قبل أن يخلقهم.

١٠٠ - ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغِمًا﴾ مهاجراً وطريقاً، يراغم بسلوكه قومه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل، والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرغام، وهو التراب. يقال: راغمت الرجل؛ إذا فارقتة وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق، أو في إظهار الدين، أو في الصدر؛ لتبدل الخوف بالأمن ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في ﴿يَخْرُجْ﴾ ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مهاجره. وهو عطف على ﴿يَخْرُجْ﴾ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: حصل له الأجر بوعد الله. وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قالوا: كل هجرة لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهداً، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله.

(١) صدر بيت، وعجزه: فمضيت ثمة قلت لا يعنيني.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

١٠١ - ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتُم فيها، فالضرب في الأرض هو السفر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ في أن تقصروا ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة، فتصلوا الرباعية ركعتين. وظاهر الآية يقتضي أنَّ القصر رخصة في السفر، والإكمال عزيمة، كما قال الشافعي - رحمه الله - لأن «لا جناح» يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة. وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولا يجوز الإكمال لقول عمر - رضي الله عنه - : صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر، فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر، ويطمئنوا إليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن خشيتُم أن يقصدكم الكفار بقتل، أو جرح، أو أخذ. والخوف: شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص. وعند الجمهور ليس بشرط؛ لما روي عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ فقال: عجبت مما تعجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(١). وفيه دليل على أنه لا يجوز الإكمال في السفر؛ لأنَّ التصديق بما لا يحتمل التملك إسقاط محض لا يحتمل الرد، وإن كان المتصدق ممن لا تلزم طاعته كولي القصاص إذا عفا، فمن تلزم طاعته أولى. ولأنَّ حالهم حين نزول الآية كذلك، فنزلت على وفق الحال. وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدَنْتُمْ تَخَصُّصًا﴾ [النور: ٣٣] دليله قراءة عبد الله (من الصلاة أن يفتنكم) أي: لثلاث يفتنكم. على أنَّ المراد بالآية قصر الأحوال، وهو أن يومئذ على الدابة عند الخوف، أو يخفف القراءة والركوع والسجود والتسبيح، كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ فتحرزوا عنهم.

(١) رواه أحمد (٢٥/١) ومسلم (٦٨٦) وأبو داود (١١٩٩) والترمذي (٣٠٣٤) وابن ماجه (١٠٦٥).

وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ
يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ
عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ

١٠٢ - ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ في أصحابك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ
الصَّلَاةَ﴾ فأردت أن تقيم الصلاة بهم. وبظاھرہ تعلق أبو يوسف - رحمه الله -
فلا يرى صلاة الخوف بعده عليه الصلاة والسلام. وقالوا: الأئمة نواب عن
رسول الله ﷺ في كل عصر، فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام، كقوله
تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. دليله فعل الصحابة
- رضي الله عنهم - بعده عليه الصلاة والسلام. ﴿فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾
فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك فصلّاً بهم، وتقوم طائفة تُجاه العدو
﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: الذين تجاه العدو. عن ابن عباس - رضي الله
عنهما - وإن كان المراد به المصلين، فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا
يشغلهم عن الصلاة، كالسيف، والخنجر، ونحوهما ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: قيدوا
ركعتهم بسجدة. فالسجود على ظاھرہ عندنا، وعند مالك بمعنى الصلاة
﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي: إذا صلت هذه الطائفة التي معك ركعة،
فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ في موضع رفع
صفة لطائفة ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي: ولتحضر الطائفة الواقعة بإزاء العدو،
فليصلوا معك الركعة الثانية ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ ما يتحرزون به من العدو،
كالدرع، ونحوه ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جمع سلاح، وهو: ما يقاتل به. وأخذ السلاح
شرط عند الشافعي - رحمه الله -، وعندنا مستحب. وكيفية صلاة الخوف
معروفة ﴿وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: تمتوا أن ينالوا
منكم غرة في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا﴾ في أن
تضعوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ رخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

عليهم حملها، بسبب ما ييلهم من مطر، أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا، فيهجم عليهم العدو ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم، وإنما هو تعبد من الله تعالى.

١٠٣ - ﴿إِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ﴾ فرغتم منها ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: دوموا على ذكر الله في جميع الأحوال. أو: فإذا أردتم أداء الصلاة فصلّوا قياماً إن قدرتم عليه، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ سكنتم بزوال الخوف ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فأتّموها بطائفة واحدة. أو: إذا أقمتهم فأتّموا ولا تقصّروا. أو: إذا اطمانتم بالصحة فأتّموا القيام، والركوع، والسجود ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة.

١٠٤ - ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا، ولا تتوانوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ﴾ في طلب الكفار بالقتال، والتعرض به لهم. ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؟! مع أنكم أجدر منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون؛ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير أمورهم.

١٠٥ - رُوي أن طُعْمة بن أبيرق - أحد بني ظَفَر - سرق درعاً من جاري له اسمه قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه،

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

وخبأها عند زيد بن السمين - رجل من اليهود - فالتُمتست الدرع عند طعمة فلم
توجد، وحلف ما أخذها، وماله بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى
انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إلي طعمة، وشهد له ناسٌ
من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يجادل
عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا، وافتضح، وبرىء اليهودي،
فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فتزل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: مُحَقَّقًا
﴿لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ بما عرَّفك، وأوحى به إليك. وقال الشيخ
أبو منصور - رحمه الله -: بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزلة. وفيه دلالة
جواز الاجتهاد في حقه ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا﴾
مخاصمًا، أي: ولا تخاصم اليهود لأجل بني ظفر.

١٠٦ - ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

١٠٧ - ﴿وَلَا تَجِدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية. جعلت
معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن الضرر راجع إليهم. والمراد به:
طعمة، ومن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق. أو: ذكر بلفظ الجمع
ليتناول طعمة، وكل من خان خيافته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا﴾ وإنما
قيل بلفظ المبالغة؛ لأنه تعالى عالم من طعمة أنه مُفْطِر في الخيانة، وركوب
المآثم. وروي أنَّ طعمة هرب إلى مكة، وارتد، ونقب حائطاً بمكة ليسرق
أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم
أنَّ لها أخوات. وعن عمر - رضي الله عنه -: أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت
أمه تبكي، وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعفُ عنه، فقال: كذبت إن الله
لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ

١٠٨ - ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياء منهم، وخوفاً من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه خافٍ من سرهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم أنهم في حضرته لا ستره، ولا غيبة ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون. وأصله: أن يكون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد لِيَسْرِقَ دونه، ويحلف أنه لم يسرقها. وهو دليل على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، حيث سمى التدبير قولاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ عالماً علم إحاطة.

١٠٩ - ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ﴾ ها للتنبيه في «أنتم»، و«أولاء»، وهما مبتدأ وخبر. و﴿جادلتم﴾ خاصمتن وهي جملة مبينة لوقوع «أولاء» خبراً، كقولك لبعض الأسخياء: أنت حاتم تجود بمالك. أو: «أولاء» اسم موصول بمعنى الذين، وجادلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتن ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة، وقومه ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرىء: عنه، أي: عن طعمة ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله، وعذابه.

١١٠ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ذنباً دون الشرك ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالشرك. أو ﴿سوءاً﴾ قبيحاً يتعدى ضرره إلى الغير، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يسأل مغفرته. ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ له. وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة.

١١١ - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأن وبالها عليها ﴿وَكَانَ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ بِهِنَّ
وَأِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ
فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ فلا يعاقب بالذنب غير فاعله.

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. أو: الأول
ذنب بينه وبين ربه، والثاني ذنب في مظالم العباد ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا﴾ كما رمى
طعمة زيدا ﴿فَقَدْ آخَضَ بِهِنَّ﴾ كذبا عظيما ﴿وَأِثْمًا مُبِينًا﴾ ذنبا ظاهرا، وهذا
لأنه بكسب الإثم آثم، ويرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين.
والبهتان: كذب يبهت من قيل عليه مالا علم له به.

١١٣ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: عصمته، ولطفه من الاطلاع
على سرهم ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من بني ظفر. أو: المراد بالطائفة بنو
ظفر، والضمير في ﴿منهم﴾ يعود إلى الناس. ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء
بالحق، وتوخي طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني صاحبهم. ﴿وَمَا
يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لأن وبالهم عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنك إنما
عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك.
﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين، والشرائع، أو من خفيات الأمور، وضمائر
القلوب ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فيما علمك، وأنعم عليك.

١١٤ - ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من تناجي الناس. ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر. وهو مجرور بدل من «كثير» أو من «نجواهم»،
أو منصوب على الانقطاع بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففي نجواه الخير.
﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: قرض، أو إغاثة ملهوف، أو كل جميل. أو: المراد
بالصدقة: الزكاة، وبالمعروف: التطوع. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ
جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا

إصلاح ذات البين. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلب رضا الله. وخرج عنه من فعل ذلك رياء، أو ترؤساً. وهو مفعول له. والإشكال أنه قال: ﴿إلا من أمر﴾ ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ والجواب أنه ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله؛ لأنه إذا دخل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل، وقرن به الوعد بالأجر العظيم. أو: المراد من يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يؤتيه: أبو عمرو، وحمزة.

١١٥ - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل، وظهور الرشد ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي. وهو دليل على أنَّ الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة؛ لأن الله تعالى جمع بين اتباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاققة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كمواالة الرسول ﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، وندعه وما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ في العقبى ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قيل: هي في طعمة، وارتداده.

١١٦ - ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مرّ تفسيره في هذه السورة ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الصواب.

١١٧ - ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّا إِنثًا﴾ جمع أنثى، وهي: اللات، والعزى، ومناة، ولم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه: أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا تَغْوِهِمْ وَلَا تُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

أصنامهم: هنّ بنات الله ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ ما يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام، فأطاعوه، فجعلت طاعتهم له عبادة ﴿مَّرِيدًا﴾ خارجاً عن الطاعة، عارياً عن الخير، ومنه: الأمرد.

١١٨ - ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَخَذَنَّ﴾ صفتان، يعني: شيطاناً مرديداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ مقطوعاً واجباً لي، من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، وواحد لله.

١١٩ - ﴿وَلَا أَضِلَّهُمْ﴾ بالدعاء إلى الضلالة، والتزيين، والوسوسة، ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضلّ الكل ﴿وَلَا تُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ ولألقين في قلوبهم الأمانى الباطلة من: طول الأعمار، وبلوغ الآمال ﴿وَلَا تُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ البتة: القطع، والتبتيك: للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام. كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَا تُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ بفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب، أو: بالخصاء. وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم. أو بالوشم، أو: بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو: بالتحريم والتحليل، أو: بالتخنث، أو: بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ لقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ في الدارين.

١٢٠ - ﴿يَعِدُهُمْ﴾ يوسوسهم إليهم أن لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو أن يرى شيئاً يظهر خلافه.

أُولَئِكَ مَاوْنُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

١٢١ - ﴿أُولَئِكَ مَاوْنُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً، ومفراً.

١٢٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتبعوا الشيطان في الأمر بالكفر ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ النخعي: سيدخلهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ قولاً. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه. وهو تأكيد ثالث. وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

١٢٣ - ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيتكم - أيها المشركون - أن تنفَعكم الأصنام ﴿وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى، حيث قالوا: ﴿فَمَنْ أَتَيْنُوا اللَّهَ وَأَجَبْتُوهُ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْبَاءاً مَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي: من المشركين وأهل الكتاب، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده:

١٢٤ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقوله: ﴿وهو مؤمن﴾ حال. ومن الأولى: للتبعض، والثانية: لبيان الإبهام فيمن يعمل. وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يُدْخِلُونَ: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر النقيير، وهو: النقرة في ظهر النواة. والراجع في ﴿ولا يظلمون﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

عند الآخر. وقوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ بعد ذكر تمني أهل الكتاب، كقوله: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١] وقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ عقيب قوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾.

١٢٥ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، وجعلها سالمة له، لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، وهو حال من المتبع، أو: من إبراهيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هو في الأصل: المخال، وهو: الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو: يداخلك خلال منزلك، أو: يسد خللك كما يسد خلله. فالخلة: صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار. والمحبة أصفى؛ لأنها من حبة القلب. وهي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كقوله:

..... والحوادث جملة^(١)

وفائدتها: تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته. ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى. وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام»^(٢). وقيل: أوحى إليه: إنما اتخذتك خليلاً لأنك تحب أن تُعطي ولا تُعطى. وفي رواية: لأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

(١) البيت بنمائه:

يأليت شعري والحوادث جملة هل أغدون يوماً وأمري مجمع

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٦١٦).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

١٢٦ - وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذ خليلاً لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى إليه؛ لأنه مُتْرَه عن ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ عالماً.

١٢٧ - ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ويسألونك الإفتاء في النساء. والإفتاء: تبين المبهم ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ أي: الله يفتيكم، والمتلو في الكتاب، أي: القرآن في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] وهو من قولك: أعجبني زيد وكرمه. «وما يتلى» في محل الرفع بالعطف على الضمير في «يفتيكم» أو: على لفظ «الله». و﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناه. ويجوز أن يكون «في يتامى النساء» بدلاً من «فيهن». والإضافة بمعنى من ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضمُّ اليتيمة إلى نفسه ومالها، فإن كانت جميلة تزوجها، وأكل المال، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت، فيرثها ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهن لجمالهن، أو: عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ﴾ أي: اليتامى، وهو مجرور معطوف على يتامى النساء. وكانوا في الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمر، دون الأطفال والنساء ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا، أو: منصوب بمعنى: ويأمركم أن تقوموا. وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط وجوابه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: فيجازيكم عليه.

وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

١٢٨ - ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقعت منه ذلك؛ لما لاح لها من مخايله، وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته، وأن يؤذيها بسبب، أو ضرب ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها؛ بأن يقلل محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن، أو دمامة، أو شيء^(١) في خلق أو خلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ كوفي، (يَصْلِحَا) غيرهم. أي: يتصالحا، وهو أصله، فأبدلت التاء صادًا، وأدغمت ﴿صُلْحًا﴾ في معنى مصدر كل واحد من الفعلين. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها، أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، أو من النشوز، أو: من الخصومة في كل شيء. أو: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور. وهذه الجملة اعتراض، كقوله: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ أي: جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والمراد: أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمها، والرجل لا يكاد يسمح بأن يقسم لها إذا رغب عنها، فكل واحد منهما يطلب ما فيه راحته. وأحضرت يتعدى إلى مفعولين، والأول: الأنفس. ثم حث على مخالفة الطبع، ومتابعة الشرع بقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بالإقامة على نسايتكم، وإن كرهتموهن، وأحببتهم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصالحة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى، والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان، والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيثيبكم عليه.

وكان عمران الخارجي من آدم بني آدم، وامراته من أجملهم فنظرت إليه، وقالت: الحمد لله على أني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ فقالت: لأنك

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: سوء.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ
يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

رَزَقْتُ مثلي فشكرت، ورزقتُ مثلك فصبرتُ، والجنة موعودة للساكرين والصابرين.

١٢٩ - ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ ولن تستطيعوا العدل بين

النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة. فتمام العدل أن يسوي بينهن بالقسمة،
والنفقة، والتعهد، والنظر، والإقبال، والممالحة، والمفاكهة، وغيرها.

وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول:
«هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١). يعني:
المحبة؛ لأن عائشة - رضي الله عنها - كانت أحب إليه ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ بالغتم
في تحري ذلك ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل
الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها. يعني: أن اجتناب كل الميل في حد
اليسر، فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله. وفيه ضرب من
التوبيخ. وكلّ نصب على المصدر؛ لأن له حكم ما يضاف إليه ﴿ فَتَذَرُوهُنَّ
كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ وهي: التي ليست بذات بعل، ولا مطلقة ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا ﴾ بينهن.
﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الجور ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يغفر لكم ميل قلوبكم،
ويرحمكم فلا يعاقبكم.

١٣٠ - ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا ﴾ أي: إن لم يصطالح الزوجان على شيء، وتفرقا

بالخلع، أو بتطليقه إياها، وإيفائه مهرها، ونفقة عدتها ﴿ يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا ﴾ كل
واحد منهما ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من غناه، أي: يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً
أهنأ من عيشه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا ﴾ بتحليل النكاح ﴿ حَكِيمًا ﴾ بالإذن في السراح.
فالسعة: الغنى والقدرة. والواسع: الغنيُّ المُقْتَدِر.

(١) رواه أحمد (١٤٤/٦) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٦٤/٧) وابن
ماجه (١٩٧١).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

١٣١ - ثم بيّن غناه وقدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، والمتملكون عبيده رقاً ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السالفة، وهو متعلق بـ «وصينا» أو بـ «أوتوا» ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا، أو: تكون «أن» المفسرة لأن التوصية في معنى القول. والمعنى: أن هذه وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده - ولستم بها مخصوصين - لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ عطف على «اتقوا» لأن المعنى: أمرناهم، وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خلقه، وعن عبادتهم ﴿حَمِيدًا﴾ مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد. وتكرير قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأن الخلق لما كان كله له، وهو خالقهم ومالكهم، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصى. وفيه دليل على أن التقوى أصل الخير كله. وقوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ عقيب التقوى دليل على أن المراد: الاتقاء عن الشرك.

١٣٢ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فاتخذوه وكيلاً، ولا تتكلوا على غيره.

١٣٣ - ثم خوفهم وبيّن قدرته بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو: خلقاً آخرين غير الإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة.

١٣٤ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فماله يطلب أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ
تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَلِإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا

أخسهما ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ للأقوال ﴿بَصِيرًا﴾ بالأفعال. وهو وعد ووعيد.

١٣٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبر بعد خبر ﴿لِلّٰهِ﴾ أي: تقيمون شهادتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم. والشهادة على نفسه هي: الإقرار على نفسه؛ لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق، وهذا لأنَّ الدعوى والشهادة والإقرار يشترك جميعها في الإخبار عن حق لأحد على أحد. غير أنَّ الدعوى: إخبار عن حق لنفسه على الغير، والإقرار: للغير على نفسه، والشهادة للغير على الغير ﴿أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على آبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا يمنع الشهادة: عليه لغناه طلباً لرضاه. ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا يمنعه ترحمًا عليه ﴿فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير، أي: بالنظر لهما والرحمة. وإنما ثنى الضمير في بهما، وكان حقه أن يوحد؛ لأن المعنى: إن يكن أحد هذين، لأنه يرجع إلى ما دل عليه قوله: «غنياً أو فقيراً» وهو جنس الغني والفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ﴾ إرادة ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ عن الحق من: العدول، أو: كراهة أن تعدلوا بين الناس من العدل ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾^(١) بواو واحدة وضم اللام: شامي، وحمزة، من: الولاية ﴿أَوْ نَعَرَضُوا﴾ أي: وإن وليتم إقامة الشهادة، أو أعرضتم عن إقامتها. غيرهما: تلووا بواوين وسكون اللام، من: اللي، أي: وإن تلووا أَلَسْتُمْ عَنْ شَهَادَةِ ٱلْحَقِّ، أَوْ حُكُومَةِ ٱلْعَدْلِ، أَوْ تَعَرَّضُوا عَنْ ٱلشَّهَادَةِ بِمَا عِنْدَكُمْ، وَتَمْنَعُوهَا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

١٣٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامِنُوا﴾ اثبتوا على

(١) في الأصل المخطوط أثبت قراءة: ﴿تَلَوْا﴾.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَخَذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

الإيمان، ودوموا عليه. أو: لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل، وكفروا ببعض. أو: للمنافقين، أي: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، ويدل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾. ﴿نُزِّلَ﴾ و﴿أُنْزِلَ﴾: مكى، وشامي، وأبو عمرو. وعلى البناء للفاعل فيهما: غيرهم. وإنما قيل: نزل على رسوله، وأنزل من قبل؛ لأن القرآن نزل مفزاً منجماً في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بأكمله.

١٣٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى عليه السلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بموسى بعد عوده ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبسى عليه السلام ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة. أو: هم المنافقون آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر مرة بعد أخرى، وازدياد الكفر منهم: ثباتهم عليه إلى الموت. يؤيده قوله:

١٣٨ - ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: أخبرهم. ووضع ﴿بَشْرٌ﴾ مكانه تهكماً بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً.

١٣٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ نصب على الذم، أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو: هم الذين ﴿يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ﴾ كان المنافقون يوالون الكفرة، يطلبون منهم المنعة والثمرة، ويقولون: لا يتم أمر محمد ﷺ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولعن أعزّه كالنبي ﷺ، والمؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ

١٤٠ - ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح النون: عاصم. وبضمها: غيره ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن. والخوض: الشروع. و«أَنْ» مخففة من الثقيلة، أي: إنه إذا سمعتم. أي: نزل عليكم أن الشأن كذا. والشأن: ما أفادته الجملة بشرطها وجزاؤها. وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع بـ«نَزَّلَ»، أو: في موضع النصب بـ«نَزَّلَ». والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ أي: في الوزر إذا مكثتم معهم. ولم يُرَدَّ به التمثيل من كل وجه، فإن خوض المنافقين فيه كفر، ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء.

١٤١ - ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين يتخذون»، أو صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر، أو إخفاق^(١) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ﴾ نصرة، وغنيمة ﴿فَقَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ مظاهرين، فأشركونا في الغنيمة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سمي ظفر المسلمين فتحاً؛ تعظيماً لشأنهم؛ لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء، وظفر

(١) «إخفاق»: أخفق الرجل: إذا غزا ولم يغنم.

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

الكافرين نصيباً تخسباً لحظهم؛ لأنه لُمَظَةٌ^(١) من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوا﴾ للكفار ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلبكم، ونتمكّن من قتلكم، فأبقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، والغلبة. ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبطانهم عنكم، وخيّلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به، ومرضوا عن قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم. فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيدخل المنافقين النار، والمؤمنين الجنة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في القيامة؛ بدليل أول الآية، كذا عن عليّ - رضي الله عنه - . أو: حجة، كذا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - .

١٤٢ - ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر. والمنافق: من أظهر الإيمان، وأبطن الكفر. أو: أولياء الله وهم المؤمنون. فأضاف خداعهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في العقبى. والخادع: اسم فاعل من: خادعته فخدعته: إذا غلبته، وكنت أخدع منه. وقيل: يجزئهم جزاء خداعهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ متثاقلين كراهة. أما الغفلة فقد يُبتلى بها المؤمن. وهو جمع كسلان، كسكارى في سكران ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حال، أي: يقصدون بصلاتهم الرياء، والسمعة. والمرءاة: مفاعلة من الرؤية؛ لأن المرائي يريهم عمله، وهم يُروونه استحساناً ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يصلون إلا قليلاً؛ لأنهم لا يصلون قط غائبين

(١) «لمظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.

مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخَضُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

عن عيون الناس. أو: لا يذكرون الله بالتسبيح، والتهليل إلا ذكراً قليلاً نادراً. قال الحسن: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً.

١٤٣ - ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ نصب على الذم، أي: مرددين، يعني: ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم مترددون بينهما، متحIRON. وحقيقة المذبذب: الذي يُدْبُّ عن كلا الجانبين، أي: يُدْفَع فلا يقرّ في جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء، فيكونوا مؤمنين ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء، فيسمون مشركين ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهدى.

١٤٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخَضُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة بينة في تعذيبكم.

١٤٥ - ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ^(١) الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: في الطبقة الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات. سُمِّيت بذلك لأنها متدركة، متتابعة، بعضها فوق بعض. وإنما كان المنافق أشدَّ عذاباً من الكافر؛ لأنه آمن بالسيف في الدنيا فاستحق الدرك الأسفل في العقبى تعديلاً، ولأنه مثله في الكفر، وضَمَّ إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله. والدرك - بسكون الراء - كوفي، غير الأعشى. وفتح الراء: غيرهم، وهما لغتان، وذكر الزَّجَّاج أن الاختيار فتح الراء. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يمنعهم من العذاب.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿الدَّرَكِ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبي بكر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٧٥/٢).

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

١٤٦ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من النفاق، وهو استثناء من الضمير المجرور في ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم، وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخالص ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين، ورفاقهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيشاركونهم فيه. وحذفت الياء في الخط هنا إتباعاً للفظ.

١٤٧ - ثم استفهم مقررراً أنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ لله ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ به. فـ«ما» منصوبة بـ«يفعل». أي: أي شيء يفعل بعذابكم. فالإيمان: معرفة المنعم. والشكر: الاعتراف بالنعمة. والكفر بالمنعم والنعمة عناد؛ فلذا استحق الكافر العذاب. وقدم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم، أو: يقبل اليسير من العمل، ويعطي الجزيل من الثواب ﴿عَلِيمًا﴾ عالماً بما تصنعون.

١٤٨ - ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ولا غير الجهر، ولكن الجهر أفحش ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم. استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء. وقيل: ﴿الجهر بالسوء من القول﴾ هو الشتم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فإنه إن ردّ عليه مثله فلا حرج عليه ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بظلم الظالم.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

١٤٩ - ثُمَّ حُتَّ عَلَى الْعَفْوِ، وَأَلَا يَجْهَرُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ بِسُوءٍ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ مَا أُطْلِقَ الْجَهْرُ بِهِ، حُتًّا عَلَى الْأَفْضَلِ. وَذَكَرَ إِبْدَاءَ الْخَيْرِ وَإِخْفَاءَهُ تَسْبِيحًا لِلْعَفْوِ، فَقَالَ: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ مَكَانَ جَهْرِ السُّوءِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فَتَعْمَلُوهُ سِرًّا. ثُمَّ عَطَفَ الْعَفْوَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أَي: تَمْحُوهُ عَنْ قُلُوبِكُمْ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَفْوَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِذِكْرِ إِبْدَاءِ الْخَيْرِ وَإِخْفَاءِهِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ أَي: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَفْوَاً عَنِ الْآثَامِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتَدُوا بِسُنَّتِهِ.

١٥٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كَالْيَهُودِ كَفَرُوا بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالْقُرْآنَ. وَكَالنَّصَارَى كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْقُرْآنَ. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أَي: دِينًا وَسَطًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

١٥١ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هُمُ الْكَامِلُونَ فِي الْكَفْرِ؛ لِأَنَّ الْكَفْرَ بِوَاحِدٍ كَفْرٌ بِالْكَلِّ ﴿حَقًّا﴾ تَأْكِيدٌ لِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ، كَقَوْلِكَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ حَقًّا، أَي: حَقٌّ ذَلِكَ حَقًّا، وَهُوَ كَوْنُهُمْ كَامِلِينَ فِي الْكَفْرِ. أَوْ: هُوَ صِفَةُ لِمَصْدَرِ الْكَافِرِينَ، أَي: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَفْرًا حَقًّا، ثَابِتًا، يَقِينًا، لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فِي الْآخِرَةِ.

١٥٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ وَإِنَّمَا جَازَ دُخُولَ «بَيْنَ» عَلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ عَامٌ فِي الْوَاحِدِ، الْمَذْكُورِ، وَالْمُؤَنَّثِ، وَتَشْبِيهِمَا،

أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

وجمعهما ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾^(١) وبالياء، حفص ﴿أَجْرُهُمْ﴾ أي: الثواب الموعود لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يستر السيئات ﴿رَحِيمًا﴾ يقبل الحسنات. والآية تدلُّ على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة؛ لأنه أخبر أنَّ مَنْ آمَنَ بالله ورسوله، ولم يفرِّق بين أحد منهم يؤتبه أجره. ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسوله، ولم يفرِّق بين أحد منهم، فيدخل تحت الوعد. وعلى بطلان قول مَنْ لا يقول بقدَم صفات الفعل من المغفرة والرحمة؛ لأنه قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهم يقولون: ما كان الله غفوراً رحيماً في الأزل، ثم صار غفوراً رحيماً.

١٥٣ - ولما قال فنحاص وأصحابه للنبي ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام، نزل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ﴾ وبالتخفيف: مكي، وأبو عمر ﴿كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جملة كما نزلت التوراة جملة. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. وقال الحسن: ولو سألوهم مسترشدين لأعطاهم؛ لأنَّ إنزال القرآن جملة ممكن ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ هذا جواب شرط مقدّر، معناه: إن استكبرت ما سألوهم منك، فقد سألوهم موسى أكبر من ذلك. وإنما أسند السؤال إليهم؛ وقد وجد من آبائهم في أيام موسى عليه السلام، وهم النقباء السبعون؛ لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، أي: أَرِنَا نره جهرة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه، أو بالتحكم على نبيهم في الآيات، وتعتنهم في سؤال الرؤية، لا بسؤال الرؤية؛ لأنها ممكنة كإنزال القرآن جملة،

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿نُوتِيهِمْ﴾. وهي قراءة: حزة، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٧٦/٢).

ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٧﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق، فإنه قال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ﴾ وما أخذته الصاعقة، بل أطمعه وقيده بالممكن، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت، ثم أحياهم ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ التوراة، والمعجزات التسع ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ تفضلاً، ولم نستأصلهم ﴿وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة ظاهرة على مَنْ خالفه.

١٥٤ - ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا، فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ والطور مطلق عليهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب إيلياء مطأطين عند الدخول رؤوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا الحد ﴿تَعْدُوا﴾: ورش. ﴿تعدوا﴾ بإسكان العين وتشديد الدال: مدني غير ورش. وهما مدغماً (تعدوا). وهي قراءة أبي، إلا أنه أدغم التاء في الدال، وأبقى العين ساكنة في رواية، وفي رواية نقل فتح التاء إلى العين ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بأخذ السمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً مؤكداً.

١٥٥ - ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ أي: فنقضهم. وما: مزيدة للتوكيد. والباء يتعلق بقوله: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ تقديره: حرّمنا عليهم طيبات بنقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بدل من قوله: ﴿فَبِمَا نَقُضُهُمْ﴾. ومعنى التوكيد: تحقيق أنّ تحریم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد، وما عطف عليه من الكفر، وقتل الأنبياء، وغير ذلك ﴿وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: معجزات موسى عليه السلام ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بَغْيًا حَقًّا﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: محجوبة لا يتوصل إليها شيء من الذكر، والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

عَلَيْهَا يَكْفُرُهُمْ ﴿١٥٥﴾ هو ردّ وإنكار لقولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

١٥٦ - ﴿وَيَكْفُرُهُمْ﴾ معطوف على ﴿فبما نقضهم﴾ أو: على ما يليه من قوله: ﴿بكفرهم﴾. ولما تكرر منهم الكفر؛ لأنهم كفروا بموسى، ثم عيسى، ثم بمحمد ﷺ عطف بعض كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ هو النسبة إلى الزنى.

١٥٧ - ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سُمِّيَ مسيحاً لأن جبريل عليه السلام مسح بالبركة، فهو ممسوح، أو: لأنه كان يمسحُ المريض^(١)، والأكمه، والأبرص فيبرأ، فسمي مسيحاً بمعنى الماسح ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسول الله، لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾. ويحتمل: أن الله وصفه به وإن لم يقولوا ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رُوي أَنَّ رهطاً من اليهود سبّوه، وسبّوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي، وبكلمتك خلقتني، اللهم العن من سبني وسب والدتي. فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير. فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء، ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أياكم يرضى أن يُلقى عليه شبهي فيقتل، ويصلب، ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا! فألقى الله عليه شبهه، فقتل، وصلب. وقيل: كان رجل ينافق عيسى، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى، ورفع عيسى، وألقى الله شبهه على المنافق، فدخلوا عليه، فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى، وجاز هذا على قوم متعنتين حكّم الله بأنهم لا يؤمنون. و﴿شُبِّهَ﴾ مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿لَهُمْ﴾ كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع

(١) الأرجح أن لفظة «المسيح» سريانية، وأصلها «مسيحا» فعربتها العرب، ومن الأسلم عدم الخوض في البحث عن معناها في اللغة العربية. انظر تاج العروس (١٢٤/٧).

وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ

لهم التشبيه. أو مسند إلى ضمير المقتول لدلالة: ﴿إنا قتلنا﴾ عليه، كأنه قيل: ﴿ولكن شبه لهم﴾ من قتلوه ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في عيسى، يعني: اليهود قالوا: إن الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، أو: اختلف النصارى قالوا: إله، وابن إله، وثالث ثلاثة ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن. وإنما وصفوا بالشك، وهو: ألا يترجح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن، وهو أن يترجح أحدهما؛ لأن المراد: أنهم شاكون ما لهم به من علم، ولكن إن لاحت لهم أمارة، فظنوا فذاك. وقيل: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في قتله ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: من قتله، لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: قتلاً يقيناً، أو: ما قتلوه متيقنين، أو: ما قتلوه حقاً، فيجعل يقيناً تأكيداً لقوله: ﴿وما قتلوه﴾ أي: حق انتفاء قتله حقاً.

١٥٨ - ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله، أو: إلى السماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من رفعه إليه.

١٥٩ - ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ «ليؤمننَّ به»: جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف، تقديره: ﴿وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به﴾. ونحوه: ﴿وَمَا مِتَّا إِلَّا لِمُقَامٍ مَعْلُومٍ﴾ [الصفات: ١٦٤]. والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهر روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. أو: الضميران لعيسى، يعني: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. رُوي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

الإسلام. أو الضمير في ﴿به﴾ يرجع إلى الله، أو إلى محمد ﷺ، والثاني: إلى الكتابي ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

١٦٠ - ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي ما ذكر في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية. والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه وهو ما عُدَّ قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، أو: صداً كثيراً.

١٦١ - ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ وكان الربا محرماً عليهم، كما حرم علينا، وكانوا يتعاطونه ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة، وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٦٢ - ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون فيه، المتقنون، كابن سلام وأضرابه. وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون منهم، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: سائر الكتب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة. وفي مصحف عبد الله (والمقيمون) وهي قراءة مالك بن دينار، وغيره ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مبتدأ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عطف عليه، والخبر ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبالياء: حمزة.

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٦) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٧﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

١٦٣ - ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجه عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ك: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ﴿ زَبُورًا ﴾ حمزة. مصدر بمعنى مفعول، سُمِّيَ به الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

١٦٤ - ﴿ وَرُسُلًا ﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وهو: أرسلنا، ونبأنا ﴿ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر، أول الرسل آدم، وآخرهم نبيكم محمد ﷺ وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ»^(١). والآية تدلُّ على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطاً لقصر علينا كل ذلك ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ أي: بلا واسطة.

١٦٥ - ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، أي: أعني رسلاً. ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، وأن يكون مفعولاً، أي: وأرسلنا رسلاً. واللام في: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ يتعلق

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦-١٦٨).

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

بمبشرين ومنذرين. والمعنى: أن إرسالهم إزاحة للعلّة، وتتميم لإلزامهم
الحجة؛ لثلاث يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيوقظنا من سنة الغفلة،
وينبها بما وجب الانتباه له، ويعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات،
والشرائع، أعني: في حق مقاديرها، وأوقاتها، وكيفياتها، دون أصولها؛ فإنها
مما يعرف بالعقل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا﴾
في بعث الرسل للإنذار.

١٦٦ - ولما نزل: «إنا أوحينا إليك» قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل:
﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته
بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات؛ إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب
بالمعجزة ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لأنزاله إليك،
وأنت مبلّغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد. وفيه: نفي قول المعتزلة في
إنكار الصفات؛ فإنه أثبت لنفسه العلم ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ لك بالنبوة
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ شاهداً، وإن لم يشهد غيره.

١٦٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيب محمد ﷺ، وهم: اليهود ﴿وَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب: إنا لا نجد في كتابنا
﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الرشد.

١٦٨ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَزَلَمُوا﴾ محمدًا ﷺ بتغيير نعته، وإنكار
نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر.

١٦٩ - ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا﴾ وكان تخليدهم في جهنم سهلاً عليه. والتقدير: يعاقبهم ﴿خالدين﴾

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ

فهو حال مقدرة. والآيتان في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، ويموتون على الكفر.

١٧٠ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بالإسلام.

أو: هو حال، أي: محققاً ﴿فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ وكذلك ﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] انتصابه بمضمر؛ وذلك: أنه لما بعثهم على الإيمان، وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر، فقال: ﴿خيراً لكم﴾ أي: اقصدوا، واتتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو: الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يضره كفركم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمن، وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا﴾ لا يسوي بينهما في الجزاء.

١٧١ - ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد، فغلت

اليهود في حط المسيح عن منزلته، حتى قالوا: إنه ابن الزنى، وغلت النصراني في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك، والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابن الله

﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، وهو المسيح، و«عيسى» عطف بيان، أو: بدل ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على «رسول الله» وقيل له: كلمة؛ لأنه يهتدى به كما

يهتدى بالكلام ﴿أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ حال، و«قد» معه مرادة، أي: أوصلها إليها، وحصلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على الخبر أيضاً، وقيل له: روح؛ لأنه كان

يحيي الموتى، كما سُمي القرآن روحاً بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾

[الشورى: ٥٢] لما أنه يحيي القلوب ﴿وَمِنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه؛ كقوله

تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] وبه أجاب

علي بن الحسين بن واقد غلاماً نصرانياً كان للرشيدي في مجلسه، حيث زعم أن

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ
 سُبْحَنَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ
 وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

في كتابكم حجة على أنَّ عيسى من الله ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ خبر
 مبتدأ محذوف، أي: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة ﴿أَنْتَهُوا﴾ عن الثلاث ﴿خَيْرًا
 لَّكُمْ﴾ والذي يدلُّ عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة
 آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
 اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ
 ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿إِنَّمَا اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿إِلَهُ﴾ خبره ﴿وَحْدٌ﴾ توكيد
 ﴿سُبْحَنَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أسبغه تسييحاً من أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بيان لتزهره مما نُسب إليه بمعنى أن كل ما فيهما خلقه
 وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟! إذ الثبوت والملك لا يجتمعان
 على أنَّ الجزء إنما يصحُّ في الأجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسماً
 ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، ومدبراً لهما، ولما فيهما، ومن عجز عن كفاية
 أمر يحتاج إلى ولدٍ يعينه.

١٧٢ - ولما قال وفد نجران لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا عيسى؟

قال: «وأي شيء أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: «إنه ليس
 بعابر أن يكون عبداً لله». قالوا: بلى، فنزل قوله تعالى^(١): ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ
 الْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ هو ردُّ على النصاري ﴿وَلَا
 الْمَلَائِكَةُ﴾ ردُّ على من يعبدهم من العرب، وهو عطف على المسيح
 ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: الكروبيون الذين حول العرش؛ كجبريل، وميكائيل،
 وإسرافيل، ومن في طبقتهم. والمعنى: ﴿ولا الملائكة الْمُقَرَّبُونَ﴾ أن يكونوا
 عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عبداً لله﴾ عليه إيجازاً. وتشبث المعتزلة
 والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا: الارتقاء إنما يكون

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٢٥).

وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

إلى الأعلى، يقال: فلان لا يستنكف عن خدمتي، ولا أبوه، ولو قال: ولا عبده لم يحسن. وكان معنى قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدرًا، وأعظم منه خطرًا، ويدلُّ عليه: تخصيص المقربين. والجواب: إنا نسلم تفضيل الثاني على الأول، ولكن هذا لا يمسُّ ما تنازعنا فيه؛ لأنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسى، ونحن نسلم بأنَّ جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر. إلى هذا ذهب بعض أهل السنة؛ ولأنَّ المراد أنَّ الملائكة مع مالهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية، وتجردهم عن التولد الازدواجي رأساً لا يستنكفون عن عبادته، فكيف بمن يتولد من آخر، ولا يقدر على ما يقدرون، ولا يعلم ما يعلمون؟! وهذا لأنَّ شدة البطش، وسعة العلوم، وغرابة التكون هي التي تورث الحمقى - أمثال النصارى - وهم الترفع عن العبودية، حيث رأوا المسيح ولد من غير أب، وهو يرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، وينبئ بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم فبرؤوه من العبودية. فقليل لهم: هذه الأوصاف في الملائكة أتمُّ منها في المسيح، ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية، فكيف المسيح؟! والحاصل: أن خواصَّ البشر - وهم الأنبياء عليهم السلام - أفضل من خواصَّ الملائكة - وهم الرسل - منهم - كجبريل، وميكائيل، وعزرائيل، ونحوهم. وخواصَّ الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة. ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء: أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى، مع أنهم جُبلوا عليها، فضاهت الأنبياء عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة، وتفضَّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدواعي الجسدانية، فكانت طاعتهم أشقَّ، لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة؛ لأنهم جُبلوا عليها، فكانت أزيد ثواباً بالحديث ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفع، ويطلب الكبرياء ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم على استنكافهم، واستكبارهم. ثم فصل، فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ

١٧٣ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأن التفصيل اشتمل على الفريقين، والمفصل على فريق واحد، قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به. وصحة ذلك لوجهين: أحدهما: أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ والثاني: أن الإحسان إلى غيرهم مما يغتهم، فكان داخلا في جملة التكنيل بهم، فكانه قيل: ومن يستنكف عن عبادته، ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

١٧٤ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رسول يبهر المنكر بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ قرأنا يُستضاء به ظلمات الحيرة.

١٧٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ بالله، أو بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ﴾ أي: جنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله، أو: إلى الفضل، أو: إلى صراطه ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ف«صراطا»: حال من المضاف المحذوف.

١٧٦ - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ كان جابر بن عبد الله مريضاً، فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلاله، فكيف أصنع في مالي؟

إِنْ أَمْرُهَا هَلَكَ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

فترلت ^(١) ﴿إِنْ أَمْرُهَا هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر. ومحلُّ ﴿لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة، أي: إن هلك امرؤ غير ذي ولد. والمراد بالولد: الابن؛ وهو مشترك يقع على الذكر والأنثى. لأنَّ الابن يسقط الأخت، ولا تسقطها البنت ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: لأب وأم، أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي: الأخ يرث الأخت جميع مالها إن قدر الأمر على العكس من موتها، وبقائه بعدها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لا يسقط الأخ وحده، فالأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: يبين حكم انتفاء الولد، ووكلَ حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى عَصَبَةٍ ذَكَرَ» ^(٢). والأب أولى من الأخ ﴿فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين. دلَّ على ذلك: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ ﴿فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً﴾ أي: وإن كان من يرث بالأخوة. والمراد بالأخوة: الإخوة والأخوات، تغليباً لحكم الذكورة ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الحق، فهو مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾ ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ كراهة أن تضلوا. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده.

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشف ٥٩٨/١).

(٢) رواه أحمد (٢٩٢/١) والبخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ
مُحْلِ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يقال: وفى بالعهد، وأوفى به. والعقد: العهد الموثق. شبه بعقد الحبل ونحوه. وهي: عقود الله التي عقدها على عباده، وألزمها إياهم من مواجب التكليف، أو: ما عقد الله عليكم، أو: ما تعاقدتم بينكم. والظاهر: أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وأنه كلام قدّم مجملًا، ثم عقب بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع قوائم في البر والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهي بمعنى «من»، كخاتم فضة، ومعناه: البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية. وقيل: بهيمة الأنعام: الطباء، وبقر الوحش، ونحوهما ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه، وهو قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة...﴾ الآية ﴿غَيْرَ مُحْلِ الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لكم﴾ أي: أحلت لكم هذه الأشياء، لا محلين الصيد ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال من محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون؛ لثلا يضيق عليكم. والحُرْم: جمع حرام، وهو: المُحَرَّم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، أو: من التحليل والتحريم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا
ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا

٢ - ونزل نهيًا عن تحليل ما حرم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ جمع شعيرة، وهي: اسم ما أشعر، أي: جعل شعاراً وعلماً للنسك به من مواقف الحج، ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: أشهر الحج ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ وهو ما أهدي إلى البيت، وتُقَرَّب به إلى الله تعالى من النسائك، وهو: جمع هدية ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدى من نعل، أو عروة مزادة، أو لحاء شجر، أو غيره ﴿وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ولا تحلوا قوماً قاصدين المسجد الحرام، وهم: الحجاج، والعمَّار. وإحلال هذه الأشياء: أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرضوا للهدى بالغصب، أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد فجاز أن يراد بها ذوات القلائد، وهي: البُدن، وتعطف على الهدى للاختصاص؛ لأنها أشرف الهدى، كقوله: ﴿وَحَبِيرِلْ وَمِيَكْنَلْ﴾ [البقرة: ٩٨] كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً. وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، أي: ولا تحلوا قلائدَها فضلاً أن تحلوها، كما قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] فهي عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿ءَامِينَ﴾ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثواباً ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم. لا تعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ «جرم» مثل «كسب» في تعديته إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنباً، نحو:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ
 وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ

كسبه، وجرمته ذنباً، نحو: كسبته إياه. وأول المفعولين ضمير المخاطبين، والثاني: أن تعتدوا. ﴿وَأَنْ صَدُوكُمْ﴾ متعلق بالشأن بمعنى العلة، وهو: شدة البغض. ويسكون النون: شامي، وأبو بكر. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه. ﴿إِنْ صَدُوكُمْ﴾ على الشرط: مكى، وأبو عمرو. ومعنى: صدّهم إياهم عن المسجد منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بالحق مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشقي. أو: البر: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور: والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحظور. ويجوز أن يُراد العموم لكل برّ وتقوى، ولكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه: العفو، والانتصار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وما اتقاه.

٣ - ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي: البهيمة التي تموت حتف أنفها ﴿وَالْدَّمُ﴾ أي: المسفوح، وهو: السائل ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ وكله نجس. وإنما خصّ اللحم لأنه معظم المقصود ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة، أو غيرها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أئخنوها ضرباً بعضاً، أو: حجر، حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من جبل، أو: في بئر فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المنطوحة، وهي: التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بعضه، ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته، وهو يضطرب اضطراب المذبوح. والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، فإنه إذا أدركها وبها حياة، فذبحها، وسمّى عليها حلت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت

وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

يذبحون عليها يعظمونها بذلك، ويتقربون به إليها تسمى: الأنصاب. واحدها: نُصْب، أو: هو جمع، والواحد: نصاب ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ في موضع الرفع بالعطف على الميتة، أي: حرمت عليكم الميتة، كذا وكذا، والاستقسام بالأزلام: وهي القداح المعلمة واحدها زكَم وزَكَم. كان أحدهم إذا أراد سفراً، أو غزواً، أو تجارة، أو نكاحاً، أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة، على واحد منها مكتوب: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني، والثالث غُفْل، فإن خرج الأمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاده. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. قال الزجاج: لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، وأخرج لطلوع نجم كذا. و«في شرح التأويلات» ردّ هذا، وقال: لا يقول المنجم: إن نجم كذا يأمر بكذا، ونجم كذا ينهى عن كذا، كما كان فعل أولئك. ولكن المنجم جعل دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى، ويجوز أن يجعل الله في النجوم معاني وأعلاماً يدرك بها الأحكام، ويستخرج بها الأشياء، ولا لائمة في ذلك، إنما اللائمة عليه فيما يحكم على الله، ويشهد عليه. وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الأنصاء المعلومة ﴿ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ الاستقسام بالأزلام خروج عن الطاعة. ويحتمل أن يعود إلى كلِّ محرم في الآية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف لـ «يُس» . ولم يرِدْ به يوم بعينه، وإنما معناه: الآن، وهذا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، تريد: الآن. وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ﴿يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يسوا منه أن يبطلوه، أو يسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله تعالى وفّى بوعده من إظهاره على الدين كله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين، وزوال الخوف من الكفار، وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبيين ﴿وَاخْشَوْنَ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، أي: أخلصوا لي الخشية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفيتمكم خوف عدوكم، وأظهرتكم

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

عليهم، كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك، أي: كُفينا من كُثَّا نخافه. أو: أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام، والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة، ودخولها آمين ظاهرين، وهدم الجاهلية، ومناسكهم. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ حال. اخترته لكم من بين الأديان، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات. وقوله: ﴿ذلكم فسق﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم. وكذا ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه: فمن اضطُرَّ إلى الميتة، أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرِ﴾ حال ﴿مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ مائل إلى إثم، أي: غير متجاوز سدّ الرمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذ به بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

٤ - ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في السؤال معنى القول، فلذا وقع بعده: ماذا ﴿مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ كأنه قيل: يقولون لك: ﴿ماذا أحل لهم﴾. وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا؟ حكاية لما قالوا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، كقولك: أقسم زيد ليفعلن، ولو قيل: لأفعلن، وأحل لنا لكان صواباً. و﴿ماذا﴾ مبتدأ و﴿أحل لهم﴾ خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم؟ ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم. كأنه حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المأكَل، سألوا عما أحل لهم منها، فقال: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث منها، أو هو كل مالم يأت تحريمه في كتاب الله، أو سنة، أو إجماع، أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات، وصيد ما علمتم، فحذف المضاف. أو: تجعل ما شرعية وجوابها ﴿فَكُلُوا﴾ ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: الكواشب للصيد من سباع البهائم والطير، كالكلب، والفهد، والعقاب، والصقر، والبازي،

مُكَلِّينَ تَعْلَمُونَهُنَّ يَمَّا عَلِمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا يَمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ أَيُّومَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
 وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ

والشاهين. وقيل: هي من الجراحة، فيشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّينَ﴾ حال من علمتم. وفائدة هذه الحال - مع أنه استغنى عنها بـ «علمتم» - أن يكون من يعلم الجوارح موصوفاً بالتكليب. والمكلب مؤذّب الجوارح ومعلمها، مشتق من الكلب، لأنّ التأديب في الكلاب أكثر، فاشتق من لفظه لكثرة في جنسه، أو: لأنّ السبع يُسمّى كلباً، ومنه الحديث: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك»^(١). فأكله الأسد ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ حال، أو: استئناف، ولا موضع له. وفيه دليل على أن على كلّ أخذ علماً ألا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم دراية، فكم من أخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعضّ عند لقاء النحارير أنامله!! ﴿يَمَّا عَلِمَكُمْ اللَّهُ﴾ من التكليب ﴿فَكُلُوا يَمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساك على صاحبه: ألا يأكل منه. فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صيد كلب ونحوه، فأما صيد البازي ونحوه فأكله لا يحرمه، وقد عرف في موضعه. والضمير في: ﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يرجع إلى ﴿ما أمسكن﴾ على معنى: وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته. أو: إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾ أي: سموا عليه عند إرساله ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مهالفة أمره في هذا كله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم، ولا يلحقه فيه لبث.

٥ - ﴿أَيُّومَ﴾ الآن ﴿أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ﴾ كرّره تأكيداً للمنة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي: ذبائحهم؛ لأنّ سائر الأطعمة لا يختصّ حلّها بالملة ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم؛ لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم ﴿وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ﴾ هي الحرائر، أو العفاف. وليس هذا بشرط لصحة النكاح، بل هو للاستحباب؛ لأنه يصحّ نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفاف. وتخصيصهن بَعَثَ على

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ

تخيّر المؤمنين لنظفهم. وهو معطوف على الطيبات، أو: مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: والمحصنات من المؤمنات حلّ لكم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هن الحرائر الكتابيات، أو: العفاف الكتابيات ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أعطيتموهن مهرهن ﴿مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ﴾ متزوجين غير زانين ﴿وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ صداائق. والخِذْن: يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ بشرائع الإسلام، وما أحلّ الله، وحرّم ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾ بطل ﴿عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

٦ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن، فعبر عن إرادة الفعل بالفعل؛ لأن الفعل مسبب عن الإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب؛ لملازمة بينهما طلباً للإيجاز. ونحوه: كما تدين تدان، عبر عن الفعل الابتدائي، الذي هو سبب الجزاء؛ بلفظ الجزاء؛ الذي هو مسبب عنه. وتقديره: وأنتم محدثون. عن ابن عباس -رضي الله عنهما-. أو: من النوم؛ لأنه دليل الحدث. وكان رسول الله ﷺ والصحابة يتوضؤون لكل صلاة^(١). وقيل: كان الوضوء لكل صلاة واجباً أول ما فرض، ثم نسخ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى: تفيد معنى الغاية مطلقاً. فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل. فما فيه دليل على الخروج: ﴿فَنَظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً في الحاليتين معسراً وموسراً. وكذلك: ﴿أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لو دخل الليل

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١٢/٦).

وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

لوجب الوصال. ومما فيه دليل على الدخول، قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلَمَسَ جِدَ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] لوقوع العلم بأنه ﷺ لا يُسْرَى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَاقِ﴾ لا دليل فيه على أحد الأمرين. فأخذ الجمهور بالاحتياط، فحكموا بدخولها في الغسل. وأخذ زفر ودادو بالمتيقن فلم يدخلوها. وعن النبي ﷺ أنه كان يدير الماء على مرفقيه^(١) ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد: إصااق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه. فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، والشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح. وأخذنا ببيان النبي ﷺ، وهو ماروي: أنه مسح على ناصيته^(٢). وقدرت الناصية بربع الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بالنصب: شامي، ونافع، وعليّ، وحفص. والمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرفاق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم، على التقديم والتأخير. غيرهم: بالجر بالعطف على الرؤوس؛ لأن الأرجل، من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنهي عنه، فعطفت على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: «إلى الكعبين» فجيء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة؛ لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وقال في «جامع العلوم»: إنها مجرورة للجوار. وقد صح أن النبي ﷺ رأى قوماً يمسحون على أرجلهم فقال: «ويل للأعقاب من النار»^(٣). وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين، وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليطهرها من الأوساخ؛ التي تتصل بها؛ لأنها تبدو كثيراً. والصلاة:

(١) رواه الدارقطني (٨٣/١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤) (١٨ و ٨٣).

(٣) رواه أحمد (١٩٣/٢) والبخاري (٦٠) ومسلم (٢٤١).

وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّظَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

خدمة الله تعالى، والقيام بين يديه متطهراً من الأوساخ أقرب إلى التعظيم، فكان أكمل في الخدمة، كما في الشاهد إذا أراد أن يقوم بين يدي الملك. ولهذا قيل: إن الأولى أن يصلي الرجل في أحسن ثيابه، وإن الصلاة متعمماً أفضل من الصلاة مكشوف الرأس؛ لما أن ذلك أبلغ في التعظيم ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغسلوا أبدانكم ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ﴾ قال الرازي: معناه: وجاء؛ حتى لا يلزم المريض والمسافر التيمم بلا حدث. ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾ المكان المظلم، وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتم. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة، حتى لا يرخص لكم في التيمم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بجزائه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيشيبكم.

٧ - ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّظَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو: الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، فقبلوا، وقالوا: سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة، وفي بيعة الرضوان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بسرائر الصدور من الخير والشر، وهو وعد ووعد.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَاَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ

٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا﴾ عدى «يجرمكم» بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ﴿اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى. نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل. ثم استأنف، فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ وإذا كان وجوب العدل مع الكفار بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه؟! ﴿وَاتَّقُوا اللّٰهَ﴾ فيما أمر ونهى ﴿اِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد؛ ولذا ذكر بعدها آية الوعد، وهو قوله تعالى:

٩ - ﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ﴾ يتعدى إلى مفعولين، فالأول الذين آمنوا، والثاني محذوف، استغنى عنه بالجملة التي هي قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والزعيد وهو قوله:

١٠ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: لا يفارقونها.

١١ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ﴾ روي أنّ

رسول الله ﷺ أتى بني قريظة، ومعه الشيخان أبو بكر وعمر، والختان، يستقرضهم دية مسلمين^(١) قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما

(١) قال الحافظ: قوله: «مسلمين»: لم أجد ذلك في شيء من طريق الحديث، بل صرّح =

أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
أَثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ

مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! اجلس حتى نطعمك، ونقرضك، فأجلسوه في صُفَّةٍ، وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحي عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ، ونزلت الآية. إذ: ظرف للنعمة ﴿أَنْ يَبْسُطُوا﴾ بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل، يقال: بسط لسانه إليه؛ إذا شتمه، وبسط إليه يده: إذا بطش به ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: ٢] ومعنى بسط اليد: مدها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ فمنعها أن تمتد إليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي، والدافع، والمانع.

١٢ - ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هو الذي يتقرب عن أحوال القوم، ويفتش عنها. ولما استقر بنو إسرائيل بمصر، بعد هلاك فرعون؛ أمرهم الله بالميسر إلى أريحاء أرض الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجابرة، قال لهم: إني كتبتها لكم داراً، وقراراً، فاخرجوا إليها، واجاهدوا من فيها، وإني ناصرکم. وأمر الله موسى - عليه السلام - أن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقاً عليهم، فاختر النقباء، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل لهم به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون، فرأوا أجراماً عظيمة، وقوة، وشوكة، فهابوا، ورجعوا، فحدثوا قومهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا، ويوشع بن نون، وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرکم، ومعينکم. وتقف هنا

= موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد. وفي «الدلائل» لأبي نعيم من حديث ابن عباس: فلقى عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب معهما أمان، ولم يعلم به، فقتلها. (حاشية الكشف ١/٦١٤). و«الختان»: عثمان وعلي رضي الله عنهما زوجا ابنتي رسول الله ﷺ.

لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَبِثَّتُهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحْمِلُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

لا بتدائك بالشرط الداخل عليه اللام الموطئة للقسم، وهو: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ وكاننا فريضتين عليهم ﴿وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظمتهم، أو نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم. والعز في اللغة: الرد. ويقال: عزرت فلاناً، أي: أدبته، يعني: فعلت به ما يردعه عن القبيح، كذا قاله الزجاج ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا مَنْ، وقيل: هو كل خير ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم، وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الحق، نعم مَنْ كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضاً، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم.

١٣- ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَبِثَّتُهُمْ﴾ «ما» مزيدة لإفادة تفخيم الأمر ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾ طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ يابسة لا رحمة فيها، ولا لين. ﴿قَلْسِيَةً﴾: حمزة، وعلي، أي: رديئة من قولهم: درهم قسي، أي: رديء ﴿يَحْمِلُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يُفسرونه على غير ما أنزل. وهو بيان لقسوة قلوبهم؛ لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً، وقسطاً وافياً ﴿وَمِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة. يعني: أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم. أو: قست قلوبهم، وفسدت، فحرفوا التوراة، وزلت أشياء منها عن حفظهم. عن ابن مسعود - رضي الله

وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا
 حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ

عنه -: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية. أو: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: هذه عاداتهم، وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك، ويهمون بالفتك بك. وقوله: ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ أي: على خيانة، أو: على فعلة ذات خيانة، أو: على نفس، أو: فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر، للمبالغة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم، أو فاعف عن مؤمنهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم ﴿وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤ - و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ وهو الإيمان بالله، والرسل، وأفعال الخير. يتعلق بأخذنا، أي: وأخذنا من الذين قالوا: إِنَّا نَصَارَى ميثاقهم. فقدم الفعل على الجار والمجرور، وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور. وإنما لم يقل من النصارى؛ لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله، وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ثم اختلفوا بعد نسطورية، ويعقوبية، وملكانية أنصاراً للشيطان ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾ فالصقنا، والزمنا، من غرى بالشيء: إذا لزمه، ولصق به: ومنه: الغراء؛ الذي يلصق به ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ بين فرق النصارى المختلفين ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: في القيامة بالجزاء والعقاب.

١٥ - ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود والنصارى، والكتاب للجنس.

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من نحو صفة رسول الله ﷺ، ومن نحوه الرجم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه. أو: يعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانتها ما كان خافياً على الناس من الحق، أو: لأنه ظاهر الإعجاز. أو: النور: محمد ﷺ؛ لأنه يهتدى به، كما سُمِّي: سراجاً.

١٦ - ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ﴾ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو: سبل الله. فالسلام: السلامة، أو الله ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [بإرادته، وتوفيقه] ^(١) ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

١٧ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: بَتَّ القول على أنَّ الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، أو: لأن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا: أنه يخلق، ويحيي، ويميت ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشئته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إن أراد أن

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يهلك من دعوه إلهاً من المسيح وأمه، يعني: إِنَّ المسيح عبدٌ مخلوق من كسائر العباد. وعطف «مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» عَلَى الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ إِبَانَةً أَنَّهُمَا مِنْ جِنْسِهِمْ، لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمْ. والمعنى: أَنَّ مَنْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ رَحِمَ الْأُمُومَةِ مَتَى يَفَارِقُهُ نَقْصُ الْبَشَرِيَّةِ؟ وَمَنْ لَاحِثٌ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الْحَدِيثَةِ أَنِّي يَلِيقُ بِهِ نَعْتُ الرُّبُوبِيَّةِ؟ وَلَوْ قَطَعَ الْبَقَاءُ عَنْ جَمِيعٍ مَا أَوْجَدَ لَمْ يَعِدْ نَقْصَ إِلَى الصَّمَدِيَّةِ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: يَخْلُقُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَخْلُقُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ كَمَا خَلَقَ عِيسَى، [وَيَخْلُقُ مِنْ ذَكَرٍ مِنْ غَيْرِ أُنْثَى كَمَا خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ] ^(١) وَيَخْلُقُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى كَمَا خَلَقَ آدَمَ. أَوْ: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ كَخَلَقِ الطَّيْرِ عَلَى يَدِ عِيسَى مُعْجِزَةً لَهُ، فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٨ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أَي: أَعَزَّةٌ عَلَيْهِ كَالْأَبْنَاءِ عَلَى الْأَبِّ، أَوْ: أَشْيَاعُ ابْنِي اللَّهِ: عَزِيزٍ، وَالْمَسِيحِ، كَمَا قِيلَ لِأَشْيَاعِ أَبِي خَبِيبٍ - وَهُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ -: الْخَبِيبِيُّونَ، وَكَمَا يَقُولُ رَهْطُ مَسِيلْمَةَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ، وَيَقُولُ أَقْرَبَاءُ الْمَلِكِ وَحَشَمُهُ: نَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، أَوْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ رَسْلِ اللَّهِ ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أَي: فَإِنْ صَحَّ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَلِمَ تَعَذِّبُونَ بِذُنُوبِكُمْ بِالْمَسْخِ وَالنَّارِ أَيَّاماً مَعْدُودَةً عَلَى زَعْمِكُمْ؟ وَهَلْ يَمْسُخُ الْأَبُ وَلَدَهُ؟ وَهَلْ يُعَذِّبُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ بِالنَّارِ؟ ثُمَّ قَالَ رَدّاً عَلَيْهِمْ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أَي: أَنْتُمْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، لَا بَنُوهُ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لِمَنْ تَابَ عَنِ الْكُفْرِ، فَضْلاً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مَنْ مَاتَ عَلَيْهِ عَدَلاً ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى عَبْدِيَّةِ الْمَسِيحِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ وَالْبَنُوَّةَ مُتَنَافِيَانِ.

يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ فَدَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرَقٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالًا تَمُوتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ

١٩ - ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ فَدَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي: الشرائع. وحذف لظهوره. أو: ما كنتم تخفون. وحذف لتقدم ذكره، أو: لا يقدر المبين، ويكون المعنى: يبذل لكم البيان. وهو حال، أي: مبيناً لكم ﴿عَلَى فَرَقٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بـ «جاءكم»، أي: جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع من الوحي. وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمئة سنة، أو خمسمئة سنة وستون سنة. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ ما جاءنا من بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ والفاء في: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٌ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٌ﴾ للكافرين. والمعنى: الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي، أحوج ما يكونون إليه، ليهشوا إليه، ويعدوه أعظم نعمة من الله، وتلزمهم الحجة، فلا يَعتَلُوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من يُنبئهم من غفلتهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إرسال محمد ﷺ ضرورة.

٢٠ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجبابرة ملكهم، ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: الملك: من له مسكن واسع فيه ماء جار، وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية. وقيل: من له بيت وخدم. ولأنهم كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، فسمى إنقاذهم ملكاً ﴿وَأَتَاكُمْ مَالًا تَمُوتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، ونحو ذلك من الأمور العظام. أو: أراد عالمي زمانهم.

٢١ - ﴿يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، أو المباركة، وهي:

الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْشُونَ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

أرض بيت المقدس، أو الشام ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم، أو: سمّاها، أو: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين، منهزمين، منخوف الجبارة جبناً. أو؛ لا ترتدوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

٢٢ - ﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبّار فعال: من: جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. وهو: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بلا قتال ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ بلادهم حينئذ.

٢٣ - ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب، ويوشع. ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلان من المتقين. وهو في محل الرفع صفة لرجلان، وكذا: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: انهزموا، وكانت الغلبة لكم، وإنما علما ذلك بإخبار موسى عليه السلام ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكل عليه، وهو: قطع العلائق، وترك التملق للخلائق.

٢٤ - ﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا﴾ هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاوّل ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ من العلماء من حمّله على الظاهر، وقال: إنه كفر منهم. وليس كذلك، إذ لو قالوا ذلك اعتقاداً، وكفروا به لحاربهم موسى، ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء. ولكن الوجه فيه أن يقال: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ يعينك على قتالك. أو: ﴿وربك﴾ أي: وسيدك، وهو

فَقَتَلْنَا إِنْهَا هَهُنَا قَتَلْدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ

أخوك الأكبر هارون أو: لم يرد به حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كَلَّمْتَهُ
فذهب يُجيبني، تريد: معنى الإرادة، كأنهم قالوا: أريدنا قتالهم ﴿فَقَتَلْنَا إِنْهَا
هَهُنَا قَتَلْدُونَ﴾ ماكنون، لا نقاتلهم لنصرة دينكم. فلما عصوه وخالفوه:

٢٥ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ وهو منصوب
بالعطف على «نفسى» أو: على اسم إن. أي: إني لا أملك إلا نفسي، وإن
أخي لا يملك إلا نفسه. أو: مرفوع بالعطف على محل إن واسمها، أو: على
الضمير في ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ وجاز للفصل، أي: ولا يملك أخي إلا نفسه. أو:
هو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: وأخي كذلك. وهذا من البث والشكوى إلى
الله، ورقة القلب التي بمثلها تُستجلب الرحمة، وتُستنزى النصره. وكأنه لم يثق
بالرجلين المذكورين كل الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم. أو: أراد:
وَمَنْ يُوَافِقُنِي عَلَى دِينِي ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فافصل بيننا
وبينهم، بأن تحكم لنا بما هم أهل. وهو في معنى الدعاء عليهم. أو: فباعدنا
بيننا وبينهم، وخلصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
[التحریم: ١١].

٢٦ - ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها،
وهو تحریم منع، لا تحریم تعبد، كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾
[القصص: ١٢]. والمراد بقوله ﴿كتب الله لكم﴾ أي: بشرط أن تجاهدوا
أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾. أو: المراد فإنها محرمة
عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كتب، فقد سار موسى عليه
السلام بمن بقي من بني إسرائيل، وكان يوشع على مقدمته ففتحها، وأقام فيها
ما شاء الله، ثم قُبِضَ. و﴿أربعين﴾ ظرف التحريم. والوقف على ﴿سنة﴾ أو:
ظرف ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً
أربعين سنة. والوقف على ﴿عليهم﴾. وإنما عُوِّقُوا بالحبس لاختيارهم

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

المكث، فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا في سِنَّه فراسخ. ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون. قيل: لم يكن موسى وهارون معهم في التيه؛ لأنه كان عقاباً، وقد سأل موسى ربه أنه يفرق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما، وسلاماً لا عقوبة. ومات هارون في التيه، وموسى فيه بعده بسنة. ومات النقباء في التيه إلا كالب ويوشع.

٢٧ - ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقْصَّ عَلَى حَاسِدِيهِ مَا جَرَى بِسَبَبِ الْحَسَدِ لِيَتْرَكُوهُ وَيُؤْمِنُوا، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ من صلبه هابيل وقابيل، أو: هما رجلان من بني إسرائيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ نَبَأٌ مُلْتَبَسٌ بِالصَّدَقِ، مُوَافِقٌ لِمَا فِي كِتَابِ الْأَوَّلِينَ. أو: تلاوة ملتبسة بالصدق، والصحة. أو: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وأنت محق صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبا، أي: قصتهما وحديثهما في ذلك الوقت، أو: بدل من النبا، أي: اتل عليهم النبا نَبَأٌ ذَلِكَ الْوَقْتِ، على تقدير: حذف المضاف ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إلى الله من نسكة، أو صدقة. يقال: قَرَّبَ صدقة، وتقرب بها؛ لأن تقرب مطاوع قرب. والمعنى: إذ قَرَّبَ كل واحد منهما قربانه، دليله: ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل. روي: أنه أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى آدَمَ أَنْ يَزُوجَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تَوَامَةً الْآخَرِ. وكانت تَوَامَةُ قَابِيلَ أَجْمَلُ، واسمها: إقليما، فحسده عليها أخوه، وسخط. فقال لهما آدَمُ: قَرَّبَا قُرْبَانًا، فمن أيكما قبل يتزوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً، وسخطاً، وتوعد بالقتل ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: قال لهابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره: قال: لم تقتلني؟ قال: لأن الله قبل قربانك، ولم يقبل قرباني! فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنت غير

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِيْمِي وَإِيْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَةَ أَخِيهِ

متق، فإنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي.
 وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك
 وقد كنت وكنت؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٢٨ - ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ بماد ﴿يَدِيَ﴾
 مدني، وأبو عمرو، وحفص ﴿لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان
 أقوى من القتال، وأبطش منه، ولكن تحرّج عن قتل أخيه، واستسلم له خوفاً
 من الله تعالى؛ لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. وقيل: بل كان ذلك
 واجباً، فإن فيه إهلاك نفسه، ومشاركة للقاتل في إثمه. وإنما معناه: ما أنا
 بباسط يدي إليك مبتدئاً، كقصده ذلك مني. وكان هابيل عازماً على مدافعته
 إذا قصد قتله، وإنما قتله فتكاً على غفلة منه. ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ حجازي، وأبو
 عمرو.

٢٩ - ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ ﴿إِنِّي﴾ مدني ﴿أَنْ تَبْشُرَ﴾ أن تحتمل، أو: ترجع
 ﴿بِإِيْمِي﴾ بإثم قتلي إذا قتلتني ﴿وَإِيْمِكَ﴾ الذي لأجله لم يتقبل قربانك. وهو:
 عقوق الأب، والحسد، والحقْد. وإنما أراد ذلك لكفرة برّده قضية الله تعالى،
 أو: كان ظالماً، وجزاء الظالم جائر أن يراد ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ﴾.

٣٠ - ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فوسّعت ويسرته، من: طاع له المرتع:
 إذا اتسع ﴿فَقَتَلَهُ﴾ عند عقبة حراء، أو بالبصرة، والمقتول ابن عشرين سنة
 ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٣١ - ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ﴾ أي: الله، أو: الغراب.
 ﴿كَيْفَ يُورِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده.

قَالَ يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْتُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

روي: أنه أول قتيل قُتِلَ على وجه الأرض من بني آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروّح، وعكفت عليه السباع. فبعث الله غرابين فاقتلا، فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة، فحينئذ ﴿قَالَ يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى﴾ عطف على: أكون ﴿سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما تعب فيه من حمله، وتحيره في أمره، ولم يندم ندم التائبين. أو: كان الندم توبة لنا خاصة. أو: على حمله لا على قتله. ورؤي: أنه لما قتله اسودَّ جسده، وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلًا، فقال: بل قتلته، ولذا اسودَّ جسدك. فالسودان من ولده. وما رُوي أن آدم رثاه بشعر فلا يصح؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

٣٢ - ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ بسبب ذلك، وبعلمته. و«ذلك» إشارة إلى القتل المذكور. قيل هو متصل بالآية الأولى، فيوقف على ذلك، أي: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ لأجل حمله، ولأجل قتله. وقيل: هو مستأنف، والوقف على ﴿النَّادِمِينَ﴾ و«من» يتعلّق بكتبتنا، لا بالنادمين ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ خصّهم بالذكر وإن اشترك الكلُّ في ذلك؛ لأن التوراة أول كتاب فيه الأحكام ﴿أَنْتُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ الضمير للشأن، و«من» شرطية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على نفس، أي: بغير فساد في الأرض. وهو: الشرك، أو قطع الطريق، أو كل فساد يُوجِبُ القتل ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: في الذنب، عن الحسن؛ لأنَّ قاتل النفس جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه، والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة من: قتل، أو غرق، أو حرق، أو هدم، أو غير ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ جعل قتل

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ

الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء ترغيباً وترهيباً؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصوّر أنّ قتلها كقتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها إذا تصور أن حكمه كحكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾: أبو عمرو ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضحات. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم، أو: بعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل، لا يبالون بعظمته.

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: أولياء الله. في الحديث: «يقول الله تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(١) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. وخبر «جزاء» ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ وما عطف عليه. وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد. ومعناه: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل وأخذ المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ إن أخذوا المال ﴿مِّنْ خَلْفٍ﴾ حال من الأيدي والأرجل، أي: مختلفة ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بالحبس إذا لم يزدوا على الإخافة ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذل، وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٤- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتسقط عنهم هذه الحدود،

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) بلفظ: «مَنْ عَادَى اللَّهَ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ».

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ
مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا

لا ما هو حق العباد ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم بالتوبة،
ويرحمهم فلا يعذبهم.

٣٥ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تؤذوا عباد الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ
الْوَسِيلَةَ﴾ هي: كل ما يتوسل به، أي: يتقرب من قرابة، أو صنعة، أو غير
ذلك. فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات، وترك
السيئات ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٣٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف الأموال
﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وأنفقوه ﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. و«لو» مع
ما في حيزه خبر: «إِنَّ». ووحده الراجع في «ليفتدوا به» وقد ذكر شيثان؛ لأنه
أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة؛ كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلا سبيل لهم إلى النجاة بوجه.

٣٧ - ﴿يُرِيدُونَ﴾ يطلبون، أو يتمنون ﴿أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ
مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ دائم.

٣٨ - ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ارتفعوا بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: ﴿و﴾
فيما يتلى عليكم «السارق والسارقة». أو: الخبر ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أي:
يديهما. والمراد: اليمينان، بدليل قراءة عبد الله بن مسعود. ودخول الفاء
لتضمنهما معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق، والتي سرقت ﴿فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا﴾ والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وبدأ بالرجل لأن السرقة من
الجرأة، وهي في الرجال أكثر. وأخر الزاني لأن الزنى ينبعث من الشهوة،
وهي في النساء أوفر. وقطعت اليد لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنى تفادياً

جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ أَنْكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَكَّعُوا

عن قطع النسل ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ﴾ مفعول له ﴿أَنْكَلًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عقوبة منه. وهو بدل من جزاء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يعارض في حكمه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

٣٩ - ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ من السَّرَاق ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ سرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بَرَدَ المسروق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يقبل توبته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنبه، ويرحمه.

٤٠ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو: يا مخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مَنْ مات على الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التعذيب، والمغفرة، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر. وقَدَّمَ التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة.

٤١ - ﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: لا تهتم، ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر، أي: في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام، ومن موالاته المشركين، فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرهم. يقال: أسرع فيه الشيب، أي: وقع فيه سريعاً، فكذلك مسارعته في الكفر وقوعهم فيه أسرع شيء، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ تبيين لقوله: ﴿الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ﴿ءَامَنَّا﴾ مفعول ﴿قَالُوا﴾ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ متعلق بقالوا، أي: قالوا بأفواههم آمنا ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ في محل النصب على الحال ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معطوف على ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: من المنافقين واليهود. ويرتفع ﴿سَكَّعُوا

لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ
مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ
قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا

لِلْكَذِبِ ﴿ على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هم سماعون. والضمير
للفريقين. أو: ﴿سماعون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿من الذين هادوا﴾. وعلى هذا
يوقف على «قلوبهم» وعلى الأول على «هادوا» ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾
يسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة، والنقصان،
والتبديل، والتغيير ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: سماعون منك
لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيوناً؛ ليلغوهم ما سمعوا منك
﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يزيلونه، ويميلونه عن مواضعه التي
وضعه الله فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا موضع. ﴿يحرفون﴾ صفة
لقوم، كقوله: ﴿لم يأتوك﴾. أو: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم يحرفون.
والضمير مردودٌ على لفظ الكلم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ المحرف المزال عن
مواضعه. و﴿يقولون﴾ مثل ﴿يحرفون﴾. وجاز أن يكون حالاً من الضمير في
﴿يحرفون﴾ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاعلموا أنه الحق، واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾
وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاحْذَرُوا﴾ فإياكم وإياه، فهو الباطل. روي: أن شريفاً
زنى بشريفة بخبير، وهما محصنان، وحدهما الرجم في التوراة، فكرها
رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا:
إن أمركم بالجلد والتحميم^(١) فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، فأمرهم
بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ ضلاله. وهو حُجَّةٌ على من
يقول: يريد الله الإيمان، ولا يريد الكفر ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ قطع
رجاء محمد ﷺ عن إيمان هؤلاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾
عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر. وهو حُجَّةٌ لنا عليهم أيضاً ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(١) التحميم: تسويد الوجه.

خَزَىٰ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُوتَ لِكَذِبٍ أَكَّالُونَ لِلْشَّحْتِ
فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ
حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ
الْتَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

خَزَىٰ ﴿﴾ للمنافقين فضيحة، ولليهود خزية ﴿﴾ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿﴾
أي: التَّخْلِيدُ فِي النَّارِ.

٤٢ - ﴿سَمِعُوتَ لِكَذِبٍ﴾ كَرَّرَ للتأكيد، أي: هم سماعون، ومثله:
﴿أَكَّالُونَ لِلْشَّحْتِ﴾ وهو كل ما لا يحلُّ كسبه. وهو من: سحته: إذا استأصله؛
لأنه مسحوتُ البركة. وفي الحديث هو «الرشوة في الحكم»^(١). وكانوا
يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وبالتثقيـل^(٢): مكى، وبصري،
وعلي ﴿﴾ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ ﴿﴾ قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً
إذا تحالكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين ألا يحكم بينهم. وقيل:
نسخ التخيير بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ فلن يقدرُوا على الإضرار بك؛ لأنَّ الله تعالى
يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

٤٣ - ﴿وَكَيفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعجيب من تحكيمهم
لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنَّ الحكمَ منصوصٌ في كتابهم الذي يدعون
الإيمان به. ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ حال من ﴿التَّوْرَةِ﴾. وهي مبتدأ، وخبره
﴿عِنْدَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عطف على ﴿يُحْكِمُوكَ﴾. أي: ثم
يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به
﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أو بكتابهم كما يدعون.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٨١).

(٢) أي قراءة: ﴿لِلْشَّحْتِ﴾.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا
تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ

٤٤ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي للحق ﴿وَنُورٌ﴾ يبين ما استبهم
من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ انقادوا لحكم الله في التوراة.
وهو صفة أجريث للنبيين على سبيل المدح. وأريد بإجرائها التعريض باليهود؛
لأنهم بعداء من ملة الإسلام؛ التي هي دين الأنبياء كلهم ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ تابعوا
من الكفر. واللام يتعلق بيحكم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ معطوفان على
«النبيون»، أي: الزهاد والعلماء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ استودعوا. قيل: ويجوز أن
يكون بدلاً من بها في ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾ ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ من التبيين والضمير في
﴿استحفظوا﴾ للأنبياء، والربانين، والأخبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من
الله، أي: كلفهم الله حفظه. أو: لـ «الربانين والأخبار» ويكون الاستحفاظ
من الأنبياء ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ رقباء لئلا يبدل ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾
نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم، وإمضائها على خلاف ما أمروا
به من العدل خشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد ﴿وَأَخْشَوُا﴾ في مخالفة
أمري، وبالياء فيهما^(١) سهل. وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾
ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو الرشوة، وابتغاء الجاه،
ورضا الناس ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
قال ابن عباس - رضي الله عنه -: من لم يحكم جاحداً فهو كافر، وإن لم يكن
جاحداً فهو فاسق ظالم. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: هو عام في اليهود
وغيرهم.

٤٥ - ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنْ النَّفْسَ﴾

(١) قوله: «فيهما» أي: في حالي الوقف والوصل.

يَا نَفْسِ وَالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَنِ بِمَا
وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَيْنَاهُ بِالْإِنْجِيلِ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

مأخوذة ﴿يَا نَفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلها بغير حق ﴿وَالْعَيْنِ﴾ مفقودة
﴿يَا نَفْسِ وَالْأَنْفِ﴾ مجدوع ﴿يَا نَفْسِ وَالْأُذُنِ﴾ مقطوعة ﴿يَا نَفْسِ وَاللِّسَنِ﴾
مقلوعة ﴿يَا لِّسَنِ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ﴾. أي: ذات قصاص، وهو: المقاصة.
ومعناه: ما يمكن فيه القصاص. وإلا فحكومة عدل. وعن ابن عباس - رضي
الله عنهما -: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فنزلت. وقوله: ﴿أَنْ نَفْسِ
بِالنَّفْسِ﴾ يدلُّ على أن المسلم يُقتل بالذمي، والرجل بالمرأة، والحر بالعبد.
نصب نافع وعاصم وحمزة المعطوفات كلها، للعطف على ما عملت فيه
﴿أَنْ﴾ ورفعها عليّ للعطف على محلّ «أن النفس»؛ لأنَّ المعنى: ﴿وكتبنا
عليهم﴾ النفس بالنفس إجراء لكتبنا مجرى قلنا. ونصب الباقر الكل، ورفعوا
﴿الجروح﴾. و﴿الأذن﴾ بسكون الدال حيث كان نافع والباقر بضمها. وهما
لغتان كالسُّحْتِ، والسُّحْتِ ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِ﴾
بالقصاص، وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق
بإحسانه. قال ﷺ: «من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولدته
أمه»^(١) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالامتناع عن ذلك.

٤٦ - ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قفيت الشيء بالشيء: جعلته في أثره كأنه جعل في
قفاه يقال: قفاه يقفوه: إذا اتبعه ﴿عَلَىٰ آثَرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا
﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ هو حال من عيسى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَيْنَاهُ بِالْإِنْجِيلِ
فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: ﴿وآيئناه الإنجيل﴾ ثابتاً ﴿فيه
هدى ونور ومصدقاً﴾. فنصب مصدقاً بالعطف على ثابت الذي تعلق به ﴿فيه﴾
وقام مقامه فيه. وارتفع ﴿هدى ونور﴾ بـ: ثابتاً؛ الذي قام مقامه ﴿فيه﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٩٢).

وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ

﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: هادياً وواعظاً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينتفعون به.

٤٧ - ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه، فاللام: لام الأمر، وأصله الكسر، وإنما سكن استثقالاً لفتحة وكسرة وفتحة. ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾: بكسر اللام وفتح الميم: حمزة، على أنها لام كي، أي: وقفنا ليؤمنوا، وليحكم ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة.

قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: يجوز أن يحمل على الجحود في الثلاث، فيكون: كافراً، ظالماً، فاسقاً؛ لأن الفاسق المطلق، والظالم المطلق هو الكافر. وقيل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فهو كافر بنعمة الله، ظالم في حكمه، فاسق في فعله.

٤٨ - ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن. فَحَرَفُ التعريف فيه للعهد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بسبب الحق، وإثباته، وتبيين الصواب من الخطأ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه نزولاً. وإنما قيل لما قبل الشيء: هو بين يديه؛ لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه، فما تقدم عليه يكون قدامه، وبين يديه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد به جنس الكتب المنزلة؛ لأنَّ القرآن مصدق لجميع كتب الله، فكان حَرَفُ التعريف فيه للجنس. ومعنى تصديقه الكتب: موافقتها في التوحيد والعبادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ وشاهداً؛ لأنه يشهد له بالصحة، والثبات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بما في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ نهي أن يحكم بما حرّفوه، وبدلوه اعتماداً على قولهم. ضُمِّنْ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ معنى: ولا تنحرف؛ فلذا عدّي بعن، فكأنه قيل:

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرْبُّهُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ

ولا تنحرف ﴿عما جاءك من الحق﴾ متبعاً أهواءهم. أو: التقدير: عادلاً ﴿عما جاءك﴾ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً. واستدل به من قال: إن شريعة من قبلنا لا تلزمنا. ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام، ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ، وبين أنه ليس للسمع فحسب، بل للحكم به. فقال في الأول: ﴿يحكم بها النبيون﴾، وفي الثاني: ﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾، وفي الثالث: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، فتعبّد كل أمة بما اقتضته الحكمة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها، وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة. والمراد بالخيرات: كل ما أمر الله تعالى به ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المجرور. والعامل: المصدر المضاف؛ لأنه في تقدير: إليه ترجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محققكم، ومبطلكم، وعاملكم، ومفترطكم في العمل.

٤٩ - ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ أي: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك، وهو مفعول له، أي: مخافة أن يفتنوك. وإنما حذره - وهو رسول مأمون - لقطع أطماع القوم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرْبُّهُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذنب التولي عن حكم الله، وإرادة خلافه، فوضع ﴿ببعض ذنوبهم﴾ موضع ذلك. وهذا الإبهام لتعظيم التولي، وفيه تعظيم الذنوب، فإن بعضها مهلك،

وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْتَرِغُوثُونَ فِيهِمْ

فكيف بكلها؟! ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لخارجون عن أمر الله.

٥٠ - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون. وبالتالي: شامي. يخاطب بني النضير في تفاضلهم على بني قريظة، وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «القتلى سواء»^(١) فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك، فنزلت. وسئل طاووس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وناصب ﴿أفحكم الجاهلية﴾: ﴿يَبْغُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبره. وهو استفهام في معنى النفي، أي: لا أحد أحسن ﴿مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ هو تمييز. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اللام للبيان، كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: هذا الخطاب. وهذا الاستفهام ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فإنهم هم الذين يتبينون: أن لا أعدل من الله، ولا أحسن حكماً منه. وقال أبو علي: معنى ﴿لِقَوْمٍ﴾: عند قوم؛ لأن اللام و«عند» يتقاربان في المعنى.

٥١ - ونزل نهياً عن موالاته أعداء الدين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وكلهم أعداء المؤمنين. وفيه دليل على أن الكفر كله ملّة واحدة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ من جملتهم، وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبته المخالف في الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاته الكفرة.

٥٢ - ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسْتَرِغُوثُ﴾ حال، أو: مفعول ثان؛ لاحتمال أن يكون ﴿فتري﴾ من رؤية العين، أو القلب ﴿فيهم﴾ في

(١) قال ابن حجر: رواه ابن أبي شيبة من طريق الشعبي (حاشية الكشف ١/٦٤١).

يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيعًا ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ

معاونتهم على المسلمين، وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم، لقوله: ﴿على ما أسروا﴾ ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: حادثة تدور بالحال؛ التي يكونون عليها ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي: يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين، وقتلهم ﴿فَيُضْبِحُوا﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿تَدْمِيعًا﴾ خبر ﴿فَيُضْبِحُوا﴾.

٥٣ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض عند ذلك. ﴿ويقول﴾ بصري عطفاً على ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾. ﴿يقول﴾ بغير واو شامي، وحجازي، على أنه جواب قائل يقول، فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقل: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: أقسموا لكم بأغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم، ومعاضدوكم على الكفار. و﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر في تقدير الحال، أي: مجتهدين في تأكيد أيمانهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة. وهذا من قول الله - عز وجل - شهادة لهم بحبوط الأعمال، وتعجبياً من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة، ودوام العقوبة.

٥٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر. (يرتد): مدني، وشامي ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يرضى عنهم أعمالهم، ويشي عليهم بها، ويطيعونه، ويؤثرون رضاه. وفيه دليل نبوته عليه الصلاة والسلام، حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثبات خلافة الصديق؛ لأنه جاهد المرتدين، وفي صحة خلافته وخلافة عمر - رضي الله عنهما - وسئل النبي ﷺ عنهم، فضرب على عاتق

أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

سلمان وقال: «هذا وذووه. لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجالاً من أبناء فارس»^(١). والراجع من الجزء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف، معناه: «فسوف يأتي الله بقوم» مكانهم ﴿أَذَلَّةٌ﴾ جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه: ذُلٌّ. ومن زعم أنه من الدُّل؛ الذي هو ضد الصعوبة، فَقَدْ سَهَا؛ لِأَنَّ ذُلُولًا لَا يَجْمَعُ عَلَى أَذَلَّةٍ. قال الجوهري: الدُّلُّ ضد العز، ورجل ذليل: بَيِّن الدُّلِّ. وقوم أذلاء، وأذلة. والدُّلُّ - بالكسر -: اللين، وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول، ودواب ذُلُلٌ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: للمؤمنين؛ لتضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم، على وجه التذلل، التواضع ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أشداء عليهم. والعَزَاز: الأرض الصلبة. فهم مع المؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار. وهو صفة لقوم ك: يحبهم، وأعزة، وأذلة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ الواو يحتمل أن تكون للحال، أي: يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لا يخافون لومة لائم. وأن تكون للعطف، أي: من صفتهم المجاهدة في سبيل الله، وهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمرٍ من أمور الدين، لا تَزَعُّهُمْ^(٢) لومة لائم. واللومة: المرة من اللوم. وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم واحدٍ من اللوام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة، والذلة، والعزة، والمجاهدة، وانتفاء خوف اللومة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

(١) قال ابن حجر: هو وهم، فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة، وهو متفق عليه. وفي آية القتال، رواه الترمذي. (حاشية الكشف ٦٤٦/١).

(٢) «لا تزعجهم»: وَزَعَجَ: مَنَعَ وَزَجَرَ.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
لِنَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

٥٥ - عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم، ذكر من تجب موالاتهم بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿إِنَّمَا﴾ يفيد اختصاصهم بالموالاة. ولم يجمع الولي - وإن كان المذكور جماعة - تنبيهاً على أن الولاية لله أصل، ولغيره تبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع. ومحل ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الرفع على البدل من «الذين آمنوا»، أو: على «هم الذين» أو: النصب على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والواو في: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ للحال، أي: يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة. قيل: إنها نزلت في علي - رضي الله عنه - حين سأل سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه، كأنه كان مرجأ^(١) في خنصره، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته. وورد يلفظ الجمع، وإن كان السبب فيه واحداً ترغيباً للناس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه. والآية تدلُّ على جواز الصدقة في الصلاة، وعلى أن الفعل القليل لا يفسد الصلاة.

٥٦ - ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتخذه ولياً، أو يكن ولياً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير، أي: فإنهم هم الغالبون. أو: المراد بحزب الله: الرسول والمؤمنون، أي: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب. وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُم، أي: أصابهم.

٥٧ - رُوي أن رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرهما الإسلام، ثم نافقا، وكان رجالاً من المسلمين يوادونهما، فنزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِنَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾. يعني: اتخاذهم دينكم هُزُؤاً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء، والمنازعة ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) «مرجأ»: قال في اللسان: مَرَجَ الخاتم في إصبعي مَرَجاً، أي: قَلَقَ.

مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أُولِيَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ

الْكِتَابِ ﴿من﴾: للبيان ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ أي: المشركين. وهو عطف على ﴿الذين﴾ المنصوبة. و﴿الكفار﴾: بصري، وعلي، عطف على الذين المجرورة، أي: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار ﴿أُولِيَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

٥٨ - ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاة أو: المنادة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ لَعِبًا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿لَآ لَعِبُهُمْ وَهُزُوُهُمْ مِنْ أَعْمَالِ السَّفَهَاءِ وَالْجَهْلَةِ، فكأنهم لا عقل لهم. وفيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب، لا بالمنام وحده.

٥٩ - ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: هل تعيرون منا، وتنكرون إلا الإيمان بالله، وبالكتب المنزل كلها؟! ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهو معطوف على المجرور، أي: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون. والمعنى: أعاديتمونا لأننا اعتقدنا توحيد الله، وصدق أنبيائه، وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؟! ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، مع أنكم فاسقون.

٦٠ - ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ثواباً، وهو نصب على التمييز. والمثوبة وإن كانت مختصة بالإحسان، ولكنها وضعت موضع العقوبة، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكان اليهود يزعمون أن المسلمين مستوجبون للعقوبة، ف قيل لهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ شر عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى المتقدم، أي:

وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن
 سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٦﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ
 لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

الإيمان، أي: بشرٌ مما نعمتم من إيماننا ثواباً، أي: جزاء. ولا بُدَّ مِنْ حَذَفِ
 مضاف قبله، أو قبل ﴿مَنْ﴾ تقديره: بشر من أهل ذلك، أو دينٌ مَنْ لعنه الله.
 ﴿وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ﴾ يعني: أصحاب السبت ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: كفار
 أهل مائدة عيسى عليه السلام، أو كلا المسخين من أصحاب السبت، فشانهم
 مسخوا قرده، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: العجل، أو
 الشيطان؛ لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان. وهو عطف على صلة مَنْ،
 كأنه قيل: وَمَنْ عبد الطاغوت ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ حمزة، جعله اسماً موضوعاً
 للمبالغة، كقولهم: رجل حذر، وفطن، للبلغ في الحذر، والفطنة. وهو
 معطوف على القرده والخنازير، أي: جَعَلَ اللهُ مِنْهُمْ عبدَ الطاغوت ﴿أُولَئِكَ﴾
 الممسوخون؛ الملعونون ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان، وهي لأهله
 للمبالغة. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قَصْدِ الطريق الموصل إلى الجنة.

٦١ - ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ويظهرون له
 الإيمان نفاقاً: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الباء للحال،
 أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، وتقديره: ملتبسين بالكفر. وكذلك
 ﴿قَدْ دَخَلُوا﴾، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ ولذا دخلت «قد» تقريباً للماضي من
 الحال. وهو متعلق بقالوا آمنا، أي: قالوا ذلك وهذه حالهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا
 يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

٦٢ - ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾
 الظلم. أو: الإثم: ما يختصُّ بهم، والعدوان: ما يتعداهم إلى غيرهم.
 والمسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعة ﴿وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ﴾ الحرام ﴿لَيْتَسَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبس شيئاً عملوه.

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا

٦٣ - ﴿لَوْلَا﴾ هلاً، وهو تحضيض ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هذا ذم للعلماء، والأول للامة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي أشد آية في القرآن، حيث أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد.

٦٤ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رُوي أَنَّ اليهود - لعنهم الله - لما كذبوا محمداً عليه الصلاة والسلام كفَّ الله ما بسط عليهم من السعة، وكانوا من أكثر الناس مالا، فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون، فأشركوا فيه. وغل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولا يقصد المتكلم به إثبات يد، ولا غل، ولا بسط، حتى إنه يستعمله في ملك يعطي ويمنع بالإشارة من غير استعمال اليد، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال! وقد استعمل حيث لا تصح اليد، يقال: بسط البأس كفيه في صدري، فجعل للبأس - الذي هو من المعاني - كفان. ومن لم ينظر في علم البيان يتحير في تأويل أمثال هذه الآية. وقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله. أو: تغل في جهنم، فهي كأنها غلت. وإنما ثبتت اليد في: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهي مفردة في يد الله مغلولة؛ ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ، وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ اليهود ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يزدادون عند نزول القرآن لحسد، كما تمادياً في الجحود، وكفراً بآيات الله. وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما

وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَسِعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ
ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ

قال: ﴿فَرَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فكلهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع بينهم اتفاق،
ولا تعاضد ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا
وقهروا، لم يبق لهم نصر من الله على أحد قط. وقد أتاهم الإسلام وهم في
ملك المجوس. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. عن قتادة:
لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس ﴿وَسِعَونَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا﴾ ويجتهدون في دفع الإسلام، ومحو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام
من كتبهم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٦٥ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به مع ما عددها
من سيئاتهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أي: وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾
ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مع المسلمين.

٦٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقاموا أحكامهما، وحدودهما،
وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله؛
لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكانها أنزل إليهم. وقيل: هو القرآن
﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني: الثمار من فوق رؤوسهم ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾
يعني: الزروع. وهذه عبارة عن التوسعة، كقولهم: فلان في النعمة من
قرنه إلى قدمه. ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة
الرزق وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرْكَاتٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٦٦] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات

مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

[نوح: ١٠ وما بعدها] ﴿وَأَلِّوْا أَسْتَقِمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أَمَمٌ^(١) في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: هي الطائفة المؤمنة، وهم عبد الله بن سلام، وأصحابه، وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وقيل: كعب بن الأشرف، وأصحابه، وغيرهم.

٦٧ - ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (رسالاته): مدني، وشامي، وأبو بكر. أي: فلم تبلغ إذا ما كُلِّفْتَ من أداء الرسالة، ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً. كما أنَّ مَنْ لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بأكملها، لكونها في حكم شيء واحد لدخولها تحت خطاب واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلّغاً غير مبلّغ، مؤمناً به غير مؤمن. قالت الملحدة - لعنهم الله تعالى -: هذا كلام لا يفيد، وهو كقولك لغلامك: كل هذا الطعام، فإن لم تأكله فإنك ما أكلته. قلنا: هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل، فإن لم تفعل، أي: إن لم تبلغ الرسالة في المستقبل، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. أو: بلغ ما أنزل إليك من ربك الآن، ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعُدَّة، فإن لم تبلغ كنت كمن لم يبلغ أصلاً. أو: بلغ ذلك غير خائف أحداً، فإن لم تبلغ على هذا الوصف، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. ثم قال مشجعاً له في التبليغ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يحفظك منهم قتلاً، فلم يقدر عليه، وإن شج في وجهه يوم أحد، وكسرت رباعيته. أو: نزلت بعد ما أصابه ما أصابه.

(١) «أَمَمٌ»: القَصْدُ الذي هو الوسط.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْك
مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

والناس: الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

٦٨ - ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ على دين يعتد به، حتى يسمى شيئاً لبطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿وَلَيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا﴾ إضافة زيادة الكفر والطغيان إلى القرآن بطريق التسبيب ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تتأسف عليهم؛ فَإِنَّ ضَرَرَ ذَلِكَ يعودُ إليهم، لا إليك.

٦٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالسنتهم، وهم المنافقون، ودلّ عليه قوله: ﴿لَا يَحْزَنُونَ﴾ الذين يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴿[المائدة: ٤١]﴾ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ قال سيبويه، وجميع البصريين: ارتفع الصابئون بالابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز «إن» من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصابئون كذلك، أي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا خوف عليهم فقدمه وحذف الخبر، كقوله:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَىٰ بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(١)

أي: فإنني لغريب، وقيار كذلك. ودلّ اللام على أنه خبر إن. ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها؛ لأن ذا لا يصحُّ قبل الفراغ من الخبر،

(١) البيت لضابيء البزجيمي. و«قيار»: اسم جمل ضابيء.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً

لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان، وإنما يجوز: إن زيداً منطلق وعمرو. والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) إلى آخره. ولا محل لها، كما لا محل للتي عطفت عليها. وفائدة التقديم: التنبيه على أن الصابئين - وهم أبين هؤلاء المعدودين ضللاً، وأشدّهم غيًّا - يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، فما الظن بغيرهم؟! ومحل ﴿مَنْ آمَنَ﴾ الرفع على الابتداء، وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. ثم الجملة كما هي خبر «إن» والراجع إلى اسم إن محذوف، تقديره: من آمن منهم.

٧٠ - ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليقفهم على ما يأتون، وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسل، والراجع محذوف، أي: رسول منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم، ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف، والعمل بالشرائع. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه: ﴿فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: فريقاً كذبوا: جواب مستأنف لقائل، كأنه يقول: كيف فعلوا برسلمهم؟ وقال: «يقتلون» بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، استفظاعاً للقتل، وتنبيهاً على أن القتل من شأنهم. وانتصب «فريقاً، وفريقاً» على أنه مفعول كذبوا، ويقتلون. وقيل: التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى، والقتل مختص باليهود، فهم قتلوا زكريا، ويحيى.

٧١ - ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ﴾ ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو، على أن ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا تكون، فخففت أن، وحذف ضمير الشأن. ونزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم؛ فلذا دخل فعل حسبان على أن التي هي للتحقيق ﴿فِتْنَةً﴾ بلاء وعذاب، أي: وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل. وسد

فَعْمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْرُودًا عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

ما يشتمل عليه صلة «أن، وأن»^(١) من المسند والمسند إليه مسدّ مفعولي حسب ﴿فَعْمُوا وَصَمُّوا﴾ فلم يعملوا بما رأوا، ولا بما سمعوا. أو: فعموا عن الرشد، وصموا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ رزقهم التوبة ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ هو بدل من الضمير، أي: الواو، وهو بدل البعض من الكل، أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

٧٢ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْرُودًا عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لم يفرق عيسى - عليه السلام - بينه وبينهم في أنه عبد مربوب؛ ليكون حجة على النصارى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمة دخولها، ومنعه منه ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: مرجعه. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهو من كلام الله، أو: من كلام عيسى عليه السلام.

٧٣ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: ثالث ثلاثة آلهة. والإشكال أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقال في الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والجواب: أن بعض النصارى كانوا يقولون: كان المسيح بعينه هو الله؛ لأن الله ربما يتجلى في بعض الأزمان في شخص، فتجلى في ذلك الوقت في شخص عيسى، ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال

(١) أي: على القراءتين القراءة التي تعتبر «أن» حرف مصدر ونصب، أو القراءة التي تعتبرها مخففة من الثقيلة.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ

لا يقدر عليها إلا الله. وبعضهم ذهبوا إلى آلهة ثلاثة: الله، ومريم، والمسيح، وأنه ولد الله من مريم. و«من» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ للاستغراق، أي: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية، لا ثاني له، وهو الله وحده، لا شريك له. وفي قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتي في ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] ولم يقل: ليمسهم؛ لأن في إقامة الظاهر مقام المضمرة تكريراً للشهادة عليهم بالكفر. أو: للتبعيض، أي: ليمس الذين بقوا على الكفر منهم؛ لأن كثيراً منهم تابوا عن النصرانية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

٧٤ - ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ألا يتوبون - بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد - مما هم عليه. وفيه تعجيب من إصرارهم ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم.

٧٥ - ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفى الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. وإبرأؤه الأكمة والأبرص، وإحياءه الموتى لم يكن منه؛ لأنه ليس إلهاً، بل الله أبرأ الأكمة والأبرص، وأحيا الموتى على يده، كما أحيا العصا، وجعلها حية تسعى على يد موسى. وخلقه من غير ذكر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم. ووقع اسم الصديقة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْبَارَاتِ﴾ [التحریم: ١٢]. ثم أبعدهما عما نسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام،

أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّيُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ

وما يتبعه من الهضم والنفص^(١) لم يكن إلا جسماً مركباً من لحم، وعظم، وعروق، وأعصاب، وغير ذلك مما يدلُّ على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّيُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان. وهذا تعجيبٌ من الله تعالى في ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب.

٧٦ - ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هو عيسى عليه السلام. أي: شيئاً لا يستطيع أن يضرَّكم بمثل ما يضرَّكم به الله من البلاء، والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان، والسعة، والخصب؛ ولأنَّ كلَّ ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكانه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليلٌ قاطع على أنَّ أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ متعلق ب: أتعبدون، أي: أشركون بالله، ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

٧٧ - ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، فغلوا النصارى: رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية. وغلوا اليهود: وضعه عن استحقاق النبوة ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: غلواً غير الحق، يعني: غلواً باطلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أسلافكم

وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم. ﴿وَضَلُّوا﴾ لما بُعث رسول الله ﷺ ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ حين كذبوه، وحسدوه، وبغوا عليه.

٧٨ - ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل: إِنَّ أهل أيلة لما اعتدوا في السبت، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمُسِّخُوا قرده. ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة، قال عيسى: اللهم عَذِّبْ مَنْ كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير. وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم.

٧٩ - ثم فسّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ عن قبيح فعلوه ومعنى وصف المنكر بفعلوه - ولا يكون النهي بعد الفعل - أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو: عن مثل منكر فعلوه، أو: عن منكر أرادوا فعله. أو: المراد: لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه. يقال: تناهى عن الأمر، وانتهى عنه: إذا امتنع منه، وتركه. ثم عجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وفيه دليل على أَنَّ ترك النهي على المنكر من العظائم. فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عنه!

٨٠ - ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين، ويصافونهم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمَا أَخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ يَأَنِّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿٨١﴾ لبس شيئاً قدموه لأنفسهم سخط الله عليهم، أي: موجب سخط الله ﴿٨٢﴾ وفي المذاب هم خلدون ﴿٨٢﴾ أي: في جهنم.

٨١ - ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿وَالْيَوْمِآتِ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَا أَخَذُوا أَوْلِيَاءَ﴾ ما اتخذوا المشركين أولياء، يعني: أن موالاة المشركين تدلُّ على نفاقهم ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ مستمرون في كفرهم ونفاقهم. أو: معناه: ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه، يعني: التوراة، ما اتخذوا المشركين أولياء، كما لم يوالهم المسلمون، ولكن كثيراً منهم فاسقون، خارجون عن دينهم، فلا دين لهم أصلاً.

٨٢ - ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾ هو مفعول ثان لتجدن. و«عداوة» تمييز ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عطف عليهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾ اللام تتعلق بعداوة ومودة. وصف اليهود بشدة الشكيمة، والنصارى بلبين العريكة. وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين. ونبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين ﴿ذَلِكَ يَأَنِّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا﴾ أي: علماء وعباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ علل سهولة مأخذ النصارى، وقرب مودتهم للمؤمنين؛ بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأن فيهم تواضعاً واستكانة، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليلٌ على أن العلم أنفع شيء، وأهداه إلى الخير، وإن كان علم القسيسين. وكذا علم الآخرة وإن كان في راهب. والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ

٨٣ - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفهم بركة القلوب، وأنهم سيكون عند استماع القرآن، كما روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يقرؤونه عليهم -: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تُنسب إلى مريم، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩] فبكى النجاشي. وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلاً، حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا ﴿تفيض من الدمع﴾ تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأنَّ الفيض أن يمتلئ الإناء، أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من أجل البكاء. ومن في ﴿مما عرفوا﴾ لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتداءً، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله. و﴿مِنْ﴾ في: ﴿من الحق﴾ لتبيين الموصول الذي هو «ما عرفوا». أو: للتبويض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله، وقرؤوا القرآن، وأحاطوا بالسنة؟! ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿عرفوا﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد ﷺ، والمراد: إنشاء الإيمان، والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ؛ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

٨٤ - ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان، مع قيام موجب، وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم، فأجابوهم بذلك. و﴿مالنا﴾ مبتدأ وخبر. و﴿لأنؤمن﴾ حال، أي: غير مؤمنين، كقولك: مالك قائماً ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾

وَنَظْمُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ فَأَتْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ

يعني: محمد ﷺ والقرآن ﴿وَنَظْمُ﴾ حال من ضمير الفعل في ﴿نؤمن﴾ والتقدير: ونحن نطمع ﴿أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء والمؤمنين.

٨٥ - ﴿فَأَتْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: بقولهم ﴿ربنا آمنّا﴾ وتصديقهم لذلك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليل على أنّ الإقرار داخل في الإيمان، كما هو مذهب الفقهاء. وتعلّقت الكرامة في أنّ الإيمان مجرد القول بقوله: ﴿بما قالوا﴾ لكن الثناء بفيض الدمع في السياق، وبالإحسان في السياق، يدفع ذلك. وأنّى يكون مجرد القول إيماناً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]؟ نفى الإيمان عنهم مع قولهم ﴿آمنّا بالله﴾ لعدم التصديق بالقلب. قال أهل المعرفة: الموجود منهم ثلاثة أشياء: البكاء على الجفاء، والدعاء على العطاء، والرضا بالقضاء. فمن ادّعى المعرفة، ولم يكن فيه هذه الثلاثة، فليس بصادق في دعواه.

٨٦ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا أثر الرد في حق الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء ونزل في جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - حلفوا أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح، ويقوموا الليل، ويصوموا النهار، ويسبحوا في الأرض، ويجتنبوا مذاكيرهم، ولا يأكلوا اللحم والودك^(١)، ولا يقربوا النساء والطيب.

٨٧ - ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب، ولذ من الحلال. ومعنى لا تحرموا: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو: لا تقولوا: حرمانها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

(١) «الودك»: الدّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

منكم، وتقشفاً. وروي: أَنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ^(١)، وكان يعجبه الحلواء والعسل، وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلوة»^(٢) وعن الحسن: أنه دُعي إلى طعام ومعه فرقد السَّبَخِي وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المُسَمَّن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد! أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه: أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره، فقال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذ ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تجاوزوا الحد الذي حدّ عليكم في تحليل أو تحريم. أو: ولا تتعدوا حدود ما أحلّ لكم إلى ما حرم عليكم. أو: ولا تسرفوا في تناول الطيبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ حدوده.

٨٨ - ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ حال مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ توكيد للتوصية بما أمر به، وزاده توكيداً بقوله: ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أمر به، ونهى.

٨٩ - ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو: أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظنّ أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف بأيماننا؟ فترلت. وعند الشافعي - رحمه الله - ما يجري على اللسان بلا قصد ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بتعقيدكم الأيمان،

(١) «الفالوذ، والفالوذج»: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وهي كلمة معربة.

(٢) قال الحافظ: ذكره الديلمي في الفردوس عن علي. (حاشية الكشف ١/٦٧١).

فَكَفَّرْنَاهُ^١ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ
تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ^٢ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ^٣
وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ

وهو توثيقها. وبالتخفيف: كوفي غير حفص^(١). والعقد: العزم على الوطء. وذا لا يتصور في الماضي، فلا كفارة في الغموس. وعند الشافعي - رحمه الله -: القصد بالقلب، ويمين الغموس مقصودة، فكانت معقودة، فكانت الكفارة فيها مشروعة. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذه؛ لأنه كان معلوماً عندهم. أو: بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ أي: فكفارة نكثه، أو فكفارة معقود الأيمان والكفارة الفعلية التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، أي: تسترها ﴿إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ هو أن يغذيهم ويعشيهم. ويجوز أن يعطيهم بطريق التملك، وهو لكل واحد نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير، أو صاع من تمر. وعند الشافعي - رحمه الله -: مد لكل مسكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: غداء وعشاء من بُرٍّ. إذ الأوسع: ثلاث مرات مع الإدام، والأدنى: مرة من تمر، أو شعير ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على ﴿إِطْعَامِ﴾ أو: على محل ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ ووجهه أن ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ بدل من ﴿إِطْعَامِ﴾ والبدل هو مقصود في الكلام. وهو: ثوب يغطي العورة. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: إزار، أو قميص، أو رداء ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، أو كافرة لإطلاق النص. وشرط الشافعي - رحمه الله - الإيمان حملاً للمطلق على المقيد في كفارة القتل. ومعنى ﴿أَوْ﴾ التخيير، وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة؛ لقراءة أبي وابن مسعود كذلك ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة لا تجب بنفس الحلف؛ ولذا لم يجز التكفير قبل الحنث ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبروا فيها، ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً. أو: ولا تحلفوا أصلاً

(١) أي: قرأ الكوفيون وهم حزة والكسائي وعاصم برواية شعبة عنه بالتخفيف، أما حفص عن عاصم فقرأ بالتشديد.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ
الصَّلَاةِ

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك البيان ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أعلام شريعته، وأحكامه
﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته فيما يعلمكم، ويسهل عليكم المخرج منه.

٩٠ - ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ أي: القمار ﴿ وَالْأَنْصَابُ ﴾ الأصنام؛
لأنها تنصب فتعبد ﴿ وَالْأَزْلَامُ ﴾ وهي القداح التي مرّت ﴿ رَجَسٌ ﴾ نجس، أو
خبث مستقذر ﴿ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ لأنه يحمل عليه، فكأنه عمله. والضمير في:
﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ يرجع إلى الرجس، أو: إلى عمل الشيطان، أو: إلى المذكور، أو:
إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما تعاطى الخمر والميسر، ولذا قال:
﴿ رَجَسٌ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أكد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر
الجملة بإنما، وقرنها بعبادة الأصنام، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابد
الوثن»^(١)، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت،
وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان
الارتكاب خساراً.

٩١ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ ذكر ما يتولد منهما من الوبال، وهو: وقوع التعادي
والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصّد عن ذكر الله،
وعن مراعاة أوقات الصلاة. وخصّ الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها، كأنه
قال: وعن الصلاة خصوصاً. وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام
أولاً، ثم أفردهما آخراً لأنّ الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا
يتعاطونه من شرب الخمر، واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد
تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك. فكأنه

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٢٥).

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ

لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر. ثم أفردهما بالذكر ليعلم أنهما المقصودُ بالذكر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والزواجر، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا، ولم ترجروا؟!.

٩٢ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ وكونوا حذرين خاشعين؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول؛ لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات. وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه.

٩٣ - ونزل فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿وَأَمَنُوا﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ الخمر والميسر بعد التحريم ﴿وَأَمَنُوا﴾ بتحريمهما. ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ سائر المحرمات. أو: الأول عن الشرك، والثاني: عن المحرمات، والثالث: عن الشبهات ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلى الناس ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٩٤ - ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية، وهم محرمون، وكثر عندهم، حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم، نزل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو: يختبر، وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم، لا لعلم ما لم يعلم. و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض، إذ لا يحرم كل صيد، أو: لبيان الجنس ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن

فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ

الاصطياد موجوداً، كما كان يعلم قبل وجوده أنه يوجد ليشيه على عمله، لا على علمه فيه ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قتل في قوله ﴿بشيء من الصيد﴾ ليعلم أنه ليس من الفتن العظام. و﴿تناله﴾ صفة لشيء.

٩٥ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ أي: المصيد، إذ القتل إنما يكون فيه ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: محرمون، جمع حرام، كروح في جمع رداح. في محل النصب على الحال من ضمير الفاعل في ﴿تقتلوا﴾ ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: ذاكراً لإحرامه، أو عالماً: أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه. فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطئ. وإنما شرط التعمد في الآية - مع أن محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ - لأن مورد الآية فيمن تعمد. فقد روي: أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فقتله، ف قيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت. ولأن الأصل فعل المتعمد، والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالخطأ ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ كوفي^(١). أي: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد. وهو قيمة الصيد. يُقَوَّم حيثُ صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدي خَيْر بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاعاً من غيره. وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً. وعند محمد والشافعي - رحمها الله تعالى - مثله: نظيره من النعم. فإن لم يوجد له نظير من النعم فكما مر. (فجزاء مثل) على الإضافة، غيرهم^(٢). وأصله: فجزاء مثل ما قتل، أي: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضرب زيداً، ثم من ضرب زيد ﴿مِنَ النَّعْمِ﴾ حال من

(١) أي: قراءة حمزة والكسائي وعاصم.

(٢) أي: قراءة غير الكوفيين وهم: أبو عمرو وابن عامر وابن كثير ونافع.

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِبَلِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ

الضمير في قتل، إذ المقتول يكون من النعم، أو صفة لجزاء ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ حكمان عادلان من المسلمين. وفيه دليل على أنَّ المثلَّ القيمة؛ لأنَّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة، ولأنَّ المثلَّ المطلق في الكتاب، والسنة، والإجماع مقيد بالصورة والمعنى. أو: بالمعنى لا بالصورة، أو بالصورة بلا معنى. والقيمة أريدت فيما لا مثل له صورة إجماعاً، فلم يبق غيرها مراداً، إذ لا عموم للمشترك. فإن قلت قوله: ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ ينافي تفسير المثل بالقيمة. قلت: من أوجب القيمة خَيْرٌ بين أن يشتري بها هدياً، أو طعاماً، أو يصوم كما خير الله تعالى في الآية، فكان من «النعم» بياناً للهدي المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأنَّ مَنْ قَوِّمَ الصيد واشترى القيمة هدياً فأهداه، فقد جزی بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدي، أو يكفر بالطعام، أو الصوم إنما يستقيم إذا قَوِّمَ ونظر بعد التقويم، أي: الثلاثة يختار. فأما إذا عمد إلى النظر، وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قَوِّمَ حينئذ، ثم يُخَيَّر بين الطعام والصيام، ففيه نبؤٌ عما في الآية. ألا ترى إلى قوله ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ كيف خير بين الأشياء الثلاثة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم ﴿هَذَا﴾ حال من الهاء في به، أي: يحكم به في حال الهدي ﴿بَلِغِ الْكَعْبَةِ﴾ صفة لهدياً؛ لأنَّ إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة: أن يذبح بالحرم، فأما التصديق به فحيث شئت. وعند الشافعي - رحمه الله - : في الحرم ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾ ﴿طَعَامُ﴾ بدل من كفارة، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي طعام. ﴿أَوْ كفارة طعام﴾ على الإضافة: مدني وشامي. وهذه الإضافة لتبيين المضاف، كأنه قيل: أو كفارة من طعام ﴿مَسْكِينٍ﴾. كما تقول: خاتم فضة، أي: خاتم من فضة ﴿أَوْ عَدْلٌ﴾ وقرئ بكسر العين، قال الفراء: العَدْلُ: ما عادل الشيء من غير جنسه كالصوم والإطعام. والعَدْلُ مثله من جنسه، ومنه: عَدْلُ الحمل. يقال: عندي غلام عَدْلُ غلامك - بالكسر - إذا كان من جنسه. فإن أريد أن قيمته كقيمته، ولم يكن من جنسه، قيل: هو عَدْلُ غلامك

ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّذُوقِ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو أَنْقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

- بالفتح - ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً.
والخيار في ذلك إلى القاتل. وعند محمد - رحمه الله - إلى الحكيمين ﴿لِذُوقِ
وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ متعلق بقوله ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه أن يجازي، أو يُكفِّر، ليدوق
سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه، والضرر الذي ينال في
العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾
[المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا
يستمرأ. ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل
الصيد بعد التحريم، أو: في ذلك الإحرام ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاء. وهو
خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو ينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بالزام الأحكام.
﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ لمن جاوز حدود الإسلام.

٩٦ - ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل، ومما لا يؤكل.
﴿وَطَعَامَهُ﴾ وما يُطعم من صيده. والمعنى: أحلَّ لكم الانتفاع بجميع ما يُصَاد
في البحر، وأحلَّ لكم أكل المأكول منه، وهو السمك وحده ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾
مفعول له، أي: أحلَّ لكم تمتيعاً لكم ﴿وَاللَّسَّيَّارَةِ﴾ وللمسافرين. والمعنى:
أحلَّ لكم طعامه تمتيعاً لتثائلكم^(١) يأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً،
كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾
ما صيد فيه. وهو: ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات،
كالبط؛ فإنه بري؛ لأنه يتولد في البر. والبحر له مرعى، كما للناس متجر ﴿مَا
دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحرم، أو: في الإحرام
﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبغنون فيجزيكم على أعمالكم.

(١) «لتثائلكم»: أي: للمتوطنين منكم.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ﴾
 ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

٩٧ - ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ﴾ أي: صَبَرَ ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ بدل، أو: عطف
 بيان ﴿ قِيَمًا ﴾ مفعول ثان. أو: جعل بمعنى خلق، وقياماً: حال. ﴿ لِلنَّاسِ ﴾
 أي: انتعاشاً لهم في أمر دينهم، ونهوضاً إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم؛ لما
 يتم لهم من أمر حجهم، وعمرتهم، وأنواع منافعهم. قيل: لو تركوه عاماً لم
 ينظروا، ولم يؤخروا ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ والشهر الذي يؤدَّى فيه الحج، وهو ذو
 الحجة؛ لأن في اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأنًا قد علمه
 الله. أو: أريد به جنس الأشهر الحرم، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو
 الحجة، والمحرم ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ ما يُهدى إلى مكة ﴿ وَالْقَلْبَدِ ﴾ والمقلد منه خصوصاً،
 وهو البدن، فالثواب فيه أكثر، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى جعل
 الكعبة قياماً، أو: إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد، وغيره
 ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي:
 لتعلموا أَنَّ الله يعلمُ مصالحَ ما في السموات وما في الأرض، وكيف لا يعلم
 وهو بكل شيء عليم؟!

٩٨ - ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن استخفَّ بالحرم والإحرام ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ ﴾ لآثام مَنْ عَظَّمَ المشاعر العظام ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالجاني الملتجئ إلى البلد
 الحرام.

٩٩ - ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ تشديدٌ في إيجاب القيام بما أمر به، وأن
 الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم
 الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فلا يخفى عليه
 نفاقكم، ووفاقكم.

١٠٠ - ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يبذرون

وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ أُولَى الْأَلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ
ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم، بل يميز بينهما فيعاقب
الخبث، أي: الكافر، ويشيب الطيب، أي: المسلم ﴿وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وآثروا الطيب - وإن قل - على الخبيث - وإن كثر - . وقيل: هو عام
في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وجيد الناس ورديتهم ﴿يَأْتِ أُولَى
الْأَلْبَسِ﴾ أي: العقول الخالصة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

١٠١ - كانوا يسألون النبي ﷺ عن أشياء امتحاناً، فنزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين: أصله: «شيء»
بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ «شيء» وهمزتها الثانية للتأنيث؛ ولذا
لم تنصرف كحمراء. وهي مفردة لفظاً، جمع معنى. ولما استثقلت الهمزتان
المجتمعتان قدّمت الأولى التي هي لام الكلمة، فجعلت قبل الشين، فصار وزنها
«لفعاء». والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أي: قوله: ﴿إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِنْ
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾ صفة لأشياء، أي: وإن تسألوا عن هذه
التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو مادام الرسول بين أظهركم تبدد لكم
تلك التكاليف التي تسوؤكم، أي: تعمكم، وتشقّ عليكم، وتؤمرون
بتحملها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا الله عما
سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاقبكم
إلا بعد الإنذار.

١٠٢ - والضمير في: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ لا يرجع إلى أشياء حتى يعدى بعن ،
بل يرجع إلى المسألة التي دلّت عليها «لا تسألوا» أي: قد سأل هذه المسألة
﴿قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾
كما عرف في بني إسرائيل .

١٠٣ - ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية إذا

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

نُتِجَتْ الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا - أي: شقوها - وامتنعوا من ركوبها، وذبحها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، واسمها: البهيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري، أو برأت من مرضي، فناقتي سائبة، وجعلها كالبهيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما، ولا ميراث. وكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أكله الرجال، وإن كان أنثى أرسلت في الغنم وكذا إن كان ذكراً وأنثى، وقالوا: وصلت أخاها. فالوصيلة بمعنى الواصلة. وإذا نُتِجَتْ من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى: ﴿مَا جَعَلَ﴾: ما شرع ذلك، ولا أمر به ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتحريمهم ما حرّموا ﴿يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في نسبتهم هذا التحريم إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ لم يحرم ذلك. وهم عوامهم.

١٠٤ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي: هلموا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرمة ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: كافينا ذلك ﴿حسبنا﴾ مبتدأ. والخبر ﴿ما وجدنا﴾. و«ما» بمعنى: الذي. والواو في: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ للحال، قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره ﴿أ﴾ حسبهم ذلك ﴿ولو كان آبائهم﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: الاقتداء إنما يصحّ بالعالم المهتدي. إنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

١٠٥ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ انتصب ﴿أنفسكم﴾ بـ «عليكم». وهو من أسماء الأفعال، أي: الزموا إصلاح أنفسكم. والكاف والميم في ﴿عليكم﴾ في موضع جر؛ لأنَّ اسمَ الفعل هو الجار والمجرور لا «على» وحدها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ رفع على الاستئناف، أو: جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمّة الضاد ﴿مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كان المؤمنون تذهب أنفسهم

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ
غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مِصْبِيَّةُ الْمَوَتِ تُحْسِنُونَهُمَا

حسرة على أهل العناد من الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقليل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها ﴿لا يضركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين. وليس المراد: ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يجزيكم على أعمالكم.

١٠٦ - رُوي أنه خرج بديل مولى عمرو بن العاص - وكان من المهاجرين - مع عدي وتميم - وكانا نصرانيين - إلى الشام. فمرض بديل، وكتب كتاباً فيه ما معه، وطرحه في متاعه، ولم يخبر به صاحبيه. وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات. ففتشا متاعه، فأخذا إناء من فضة. فأصاب أهل بديل الصحيفة، فطالبوهما بالإناء، فجحدا. فرفعوا إلى رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾. ارتفع اثنان ﴿لأنه خبر المبتدأ، وهو «شهادة» بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين. أو: لأنه فاعل شهادة بينكم. أي: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنين. واتسع في «بين» فأضيف إليه المصدر ﴿وإذا حضر﴾ ظرف للشهادة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية؛ لأنَّ حضور الموت من الأمور الكائنة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. فيدلُّ على وجود الوصية. فلو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء. فنقل إلى الوجوب. وحضور الموت: مشاركته، وظهور أمارات بلوغ الأجل. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنتين ﴿وَمِنْكُمْ﴾ من أقاربكم؛ لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ عطف على «اثنان» ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها. و﴿أنتم﴾ فاعل فعل يفسره الظاهر ﴿فَأَصَبْتَكُمْ مِصْبِيَّةُ الْمَوْتِ﴾ أو: ﴿منكم﴾ من المسلمين، و﴿من غيركم﴾ من أهل الذمة. وقيل: منسوخ؛ إذ لا يجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أول الإسلام لقلَّة المسلمين ﴿تُحْسِنُونَهُمَا﴾ تقفونهما

مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ
شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِضَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ
مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ

للحلف. هو استئناف كلام، أو: صفة لقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: ﴿أو آخران من غيركم﴾ محبوسان. و﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن - رحمه الله -: بعد العصر أو الظهر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدها. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت صَلَّى رسول الله ﷺ صلاة العصر، ودعا بـ: عديّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة. فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعديّ^(١) ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم في أمانتهما. وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه، وهو ﴿لَا نَشْتَرِي﴾. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام. والتقدير: ﴿إن ارتبتم﴾ في شأنهما فحلفوهما ﴿بِهِ﴾ بالله، أو بالقسم ﴿ثَمَنًا﴾ عَرَضًا من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقسم له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال، ولو كان من نقسم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها، وتعظيمها ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن كنما ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾. وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن: أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما.

١٠٧ - ﴿فَإِنْ عُرِضَ﴾ فَإِنْ اطَّلَعَ ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فعلاً ما أوجب إثماً، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين ﴿فَآخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: ﴿من الذين استحق عليهم﴾ الإثم. ومعناه: من الذين جُني عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل: أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما، وأن شهادتهما أحق من شهادتهما ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما، أو

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٩) وقال: حديث غريب.

فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾
 ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَحْفَافُوا أَنْ تَرُدَّ آمِنٌ بَعْدَ آمِنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ * يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجَبْتُمْ

معرفتهما. وارتفاعهما على: هما ﴿الأوليان﴾ كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل:
 ﴿الأوليان﴾. أو: هو بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو من ﴿فَأَخْرَانِ﴾
 ﴿أَسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ﴾ حفص. أي: ﴿مِنَ﴾ الورثة ﴿الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْأَوَّلَيْنِ﴾ من بينهم بالشهادة أن يجردوها للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب
 الكاذبين. ﴿الأولين﴾ حمزة، وأبو بكر، على أنه وصف للذين استحق عليهم
 مجرور، أو منصوب على المدح. وسموا: أولين؛ لأنهم كانوا أولين في الذكر في
 قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ أي: ليميننا
 أحق بالقبول من يمين هذين الوصيَّين الخائنين ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا الحقَّ
 في يميننا ﴿إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن حلفنا كاذبين.

١٠٨ - ﴿ذَلِكَ﴾ الذي مرَّ ذكره من بيان الحكم ﴿أَدَقُّ﴾ أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾
 أي: الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ كما حملوها بلا خيانة
 فيها ﴿أَوْ يَحْفَافُوا أَنْ تَرُدَّ آمِنٌ بَعْدَ آمِنِهِمْ﴾ أي: تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم،
 فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الخيانة، واليمين الكاذبة ﴿وَاسْمَعُوا﴾
 سمع قبول، وإجابة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة. فإن
 قلت: ما معنى ﴿أَوْ﴾ هنا؟ قلت: معناه: ذلك أقرب من أن يؤدوا الشهادة
 بالحق والصدق، إما لله، أو لخوف العار والافتضاح برّد الأيمان. وقد احتج به
 مَنْ يرى ردّ اليمين على المدّعي. والجواب: أن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين
 أنهما قد اختانا، فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادّعيا الشراء فيما كتما، فأنكرت
 الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهما الشراء.

١٠٩ - ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكروا، أو: احذروا ﴿يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ
 مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ ما الذي أجابتكم به أعمكم حين دعوتهم إلى الإيمان. وهذا
 السؤال توبيخ لمن أنكرهم. و﴿ماذا﴾ منصوب بأجبتهم، نصب المصدر على

قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

معنى: أي إجابة أجبتم؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بإخلاص قومنا. دليله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾. أو: بما أحدثوا بعدنا. دليله ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. أو: قالوا ذلك تأذبا، أي: علمنا ساقط مع علمك، ومغمور به، فكانه لا علم لنا.

١١٠ - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدل من: يوم يجمع ﴿يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ﴾ حيث طهرتها، واصطفيتها على نساء العالمين. والعامل في: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ أي: قويتك ﴿نِعْمَتِي﴾ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام. أيد به لتثبت الحجة عليهم، أو: بالكلام الذي يحيا به الدين. وأضافه إلى القدس لأنه سبب الطهر من أضرار الآثام. دليله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ حال، أي: تكلمهم طفلاً، إعجازاً ﴿وَكَهْلًا﴾ تبليغاً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾. ونحوه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ﴾ ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ﴿وَإِذْ أُوحِيتُ﴾ ﴿الْكِتَابَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تقدّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بِإِذْنِي﴾ بتسهيل. ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف؛ لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى، وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه. وكذا الضمير في ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾. وعطف ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ على ﴿تَخْلُقُ﴾. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ قيل: أخرج سام بن نوح، ورجلين، وامرأة، وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ أي: اليهود حين هموا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ ظرف لكففت ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ساحر: حزمة، وعليّ.

وَاِذْ اَوْحَيْتُ اِلَى الْخَوَارِجِ اَنْ اٰمِنُوْا بِى وَرِسُوْا قَالُوْا ءَاٰمَنَّا وَاَشْهَدُ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿١١١﴾ اِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللّٰهَ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١١٢﴾ قَالُوْا نُرِيْدُ اَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْطَمِمْ قُلُوْبَنَا وَنَعْلَمَ اَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُوْنُ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِيْنَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ

١١١ - ﴿وَاِذْ اَوْحَيْتُ﴾ ألهمت ﴿اِلَى الْخَوَارِجِ﴾ الخواص، أو: الأصفياء ﴿اَنْ اٰمِنُوْا﴾ أي: آمنوا ﴿بِى وَرِسُوْا قَالُوْا ءَاٰمَنَّا وَاَشْهَدُ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ أي: اشهد باننا مخلصون. من: أسلم وجهه.

١١٢ - ﴿اِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ﴾ أي: اذكروا إذ قال الخواريون ﴿يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ «عيسى»: نصب على اتباع حركته حركة الابن، نحو: يا زيد بن عمرو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعل؟ أو هل يطيعك ربك إن سألته؟ فاستطاع وأطاع بمعنى، كاستجاب وأجاب. (هل تستطيع ربك): علي. أي: هل تستطيع سؤال ربك، فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله؟ ﴿اَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ «ينزل»: مكى، وبصري ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هي: الخوان^(١) إذا كان عليه الطعام، من: مده: إذا أعطاه، كأنها تميد من تقدم إليها ﴿قَالَ اتَّقُوا اللّٰهَ﴾ في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ إذ الإيمان يوجب التقوى.

١١٣ - ﴿قَالُوْا نُرِيْدُ اَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركاً ﴿وَقَطْمِمْ قُلُوْبَنَا﴾ ونزداد يقيناً، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلٰكِنْ لِّقَطْمِمْ قُلُوْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿وَنَعْلَمَ اَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدقك عياناً، كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُوْنُ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِيْنَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا.

١١٤ - ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ﴾

(١) «الخوان»: - بضم الخاء وكسر ها -: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة.

رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

أصله: يا الله، فحذف يا، وعوض منه الميم ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، أو العيد: السرور العائد. ولذا يقال: يوم عيد، فكان معناه: تكون لنا سروراً وفرحاً ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا. أو: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم. أو: للمتقدمين منا والأتباع ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ على صحة نبوتي. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأعطنا ما سألناك، وأنت خير المعطين.

١١٥ - ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم. وعد الإنزال، وشرط عليهم شرطاً بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ بعد إنزالها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم. والضمير في: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ عن الحسن: أن المائدة لم تنزل، ولو نزلت لكانت عيداً إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾. والصحيح أنها نزلت. فعن وهب: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة، عليها كل طعام إلا اللحم. وقيل: كانوا يجيدون عليها ما شاؤوا. وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشياً.

١١٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤال يكون في يوم القيامة. دليله: سياق الآية وسابقتها^(١) وقيل: خاطبه به حين رفعه إلى السماء. دليله: لفظ ﴿إِذْ﴾ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

(١) وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ...﴾ [المائدة: ١٠٩].

لِي يَحَقَّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
 شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ
 هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

لِي يَحَقَّ ﴿١﴾ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا لَا يَحَقُّ لِي أَنْ أَقُولَهُ ﴿٢﴾ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴿٣﴾ إِنْ صَحَّ
 أَنِّي قُلْتُهُ فِيمَا مَضَى فَقَدْ عَلِمْتَهُ. والمعنى: أَنِّي لَا أَحْتَاجُ إِلَى الْإِعْتِدَارِ؛ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ
 أَنِّي لَمْ أَقُلْهُ، وَلَوْ قُلْتُهُ عَلِمْتَهُ؛ لِأَنَّكَ ﴿٤﴾ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴿٥﴾ ذَاتِي ﴿٦﴾ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
 نَفْسِكَ ﴿٧﴾ ذَاتِكَ. فنفس الشيء: ذاته، وهويته. والمعنى: تَعْلَمُ مَعْلُومِي،
 وَلَا أَعْلَمُ مَعْلُومَكَ ﴿٨﴾ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٩﴾ تَقْرِيرٌ لِلْجَمْلَتَيْنِ مَعًا؛ لِأَنَّ مَا انْطَوَتْ
 عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ جَمَلَةِ الْغُيُوبِ، وَلِأَنَّ مَا يَعْلَمُ عِلَامَ الْغُيُوبِ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ عِلْمُ
 أَحَدٍ.

١١٧ - ﴿١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿٢﴾ أَي: مَا أَمَرْتَهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ. ثُمَّ
 فَسَّرَ مَا أَمَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿٣﴾ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿٤﴾. فـ«أَنْ» مَفْسُورَةٌ بِمَعْنَى: أَي
 ﴿٥﴾ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿٦﴾ رَقِيبًا ﴿٧﴾ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴿٨﴾ مَدَّةٌ كُونِي فِيهِمْ ﴿٩﴾ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
 الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴿١٠﴾ الْحَفِيزَ ﴿١١﴾ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٢﴾ مِنْ قَوْلِي، وَفَعْلِي، وَقَوْلِهِمْ،
 وَفَعْلِهِمْ.

١١٨ - ﴿١﴾ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ قَالَ
 الزَّجَاجُ: عَلِمَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ،
 فَقَالَ فِي جَمْلَتِهِمْ: ﴿١﴾ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ ﴿٢﴾ أَي: إِنْ تَعَذَّبَ مِنْ كُفْرٍ مِنْهُمْ ﴿٣﴾ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴿٤﴾
 الَّذِينَ عَلِمْتَهُمْ جَاحِدِينَ لِآيَاتِكَ، مَكْذِبِينَ لِأَنْبِيَائِكَ، وَأَنْتَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ؛
 فَإِنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بَعْدَ وَجُوبِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿٥﴾ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ﴿٦﴾ أَي: لِمَنْ أَقْلَعَ مِنْهُمْ
 وَآمَنَ، فَذَلِكَ فَضْلُكَ مِنْكَ. وَأَنْتَ عَزِيزٌ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكَ مَا تَرِيدُ، حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ.
 أَوْ: ﴿٧﴾ عَزِيزٌ قَوِيٌّ، قَادِرٌ عَلَى الثَّوَابِ، ﴿٨﴾ حَكِيمٌ لَا يَعْاقِبُ إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ
 وَصَوَابٍ.

١١٩ - ﴿١﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴿٢﴾ بَرَفَ الْيَوْمِ وَالْإِضَافَةُ عَلَى أَنَّهُ

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

خبر هذا، أي: يقول الله تعالى: هذا يومٌ ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر في دنياهم وآخرتهم. والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب على المفعولية، كما تقول: قال زيد: عمرو منطلق. وبالنصب نافع على الظرف، أي: قال الله هذا لعيسى عليه السلام يومٌ ينفع الصادقين صدقهم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه باقٍ بخلاف الفوز في الدنيا، فهو غير باق.

١٢٠ - ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ عظم نفسه عما قالت النصارى: إن معه إلهاً آخر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المنع، والإعطاء، والإيجاد، والإفناء.

نسأله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء، أي: الحمد له وإن لم تحمدوه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ جمع السموات؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور، فليس بعضها فوق بعض، بل بعضها موالٍ لبعض. جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إن كان بمعنى صير، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ﴾ [الزخرف: ١٩]. وفيه ردّ قول الثنوية بقدّم النور والظلمة. وأفرد النور لإرادة الجنس، ولأنّ ظلمة كلّ شيء تختلف باختلاف ذلك الشيء، نظيره: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الموضع المظلم، يخالف كل واحد منها صاحبه. والنور: ضرب واحد، لا يختلف كما تختلف الظلمات. وقدّم الظلمات لقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق الله خلقه في ظلمة، ثم رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»^(١) ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يساوون به الأوثان. تقول: عدلت هذا بذاء، أي: ساويته به. والباء في ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ صلة للعدل، لا للكفر. أو: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

(١) رواه أحمد (١٧٦/٢، ١٩٧) والترمذي (٢٦٤٢) وقال: حديث حسن.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ

يعدلون ﴿٢﴾ عنه، أي: يعرضون عنه، فتكون الباء صلة الكفر، وصلة ﴿يعدلون﴾ أي: عنه: محذوفة. وعطف ﴿ثم الذين كفروا﴾ على ﴿الحمد لله﴾ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته. أو: على ﴿خلق السموات﴾ على معنى: أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ﴿ثم﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ من: لا ابتداء الغاية، أي: ابتداء خلق أصلكم، يعني: آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: حَكَمَ أَجَلَ الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أَجَلَ القيامة. أو: الأول ما بين أن يُخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ. أو: الأول: النوم، والثاني: الموت. أو: الثاني هو الأول، وتقديره ﴿و﴾ هو ﴿أَجَلَ مَسْمًّى﴾ أي: معلوم. و﴿أَجَلَ مَسْمًّى﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عنده﴾. وقدم المبتدأ - وإن كان نكرة والخبر ظرفاً - وحقه التأخير؛ لأنه تخصص بالصفة، فقارب المعرفة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون، من: المرية، أو: تجادلون، من المراء. ومعنى ﴿ثم﴾ استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم، ومميتهم، وباعثهم.

٣ - ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أو هو المعروف بالإلهية فيهما؛ أو: هو الذي يقال له: الله فيهما. والأول تفريع على أنه مشتق، وغيره على أنه غير مشتق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبر بعد خبر. أو: كلام مبتدأ، أي: هو ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه، ويعاقب.

٤ - و﴿من﴾ في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ للاستغراق. وفي: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعية. أي: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر،

إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

والاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر، لا يلتفتون إليه؛ لقلة خوفهم، وتدبرهم في العواقب.

٥ - ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات ﴿فقد كذبوا﴾ ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو القرآن؛ الذي تحدوا به، فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أي: أخباره وأحواله، يعني: سيعلمون بأي شيء استهزؤوا، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام، وعلو كلمته.

٦ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: المكذبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ هو مدة انقضاء أهل كل عصر، وهو ثمانون سنة، أو سبعون ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ في موضع جرّ صفة لـ «قرن». وجمع على المعنى ﴿فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ التمكين في البلاد: إعطاء المكنة. والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ الْمَطَرُ﴾ عليهم مِدْرَارًا كثيراً، وهو حال من السماء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ من تحت أشجارهم. والمعنى: عاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار، وسُقيا الغيث المِدرار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً منهم.

٧ - ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوباً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هو للتأكيد لثلاث يقولوا: ﴿سَكِرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ [الحجر: ١٥]. ومن المحتج عليهم: العمي ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ﴾ تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ هلا . ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلّمنا أنّه نبي . فقال الله : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لقضي أمر هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ؛ لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون . ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين : قضاء الأمر ، وعدم الإنظار . جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر ؛ لأنّ مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

٩ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا ؛ لأنهم كانوا يقولون تارة : لولا أنزل على محمد مَلَكٌ ، وتارة يقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأرسلناه في صورة رجل ، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في أعمّ الأحوال في صورة دحية ؛ لأنهم لا ييقنون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا ، وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان : هذا إنسان ، وليس بملك . يقال : لبست الأمر على القوم ، وألبسته : إذا أشبهته ، وأشكلته عليهم .

١٠ - ثُمَّ سَلَى نَبِيَّهٖ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ اسْتَهْزَاءٍ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به ، وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل استهزائهم به . و﴿منهم﴾ متعلق بسخروا ، كقوله : ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة : ٧٩] . والضمير للرسل . والبدال مكسورة عند أبي عمرو ، وعاصم لالتقاء الساكنين . وضمّتها غيرهما إتباعاً لضمّ التاء .

١١ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ والفرق

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا
سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

بين فانظروا وبين ﴿ثم انظروا﴾ أن النظر جعل مسبباً عن السير في «فانظروا»
فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى «سيروا في
الأرض ثم انظروا»: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في
آثار الهالكين. ونبه على ذلك بـ «ثم» لتباعد ما بين الواجب والمباح.

١٢- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿من﴾ استفهام و﴿ما﴾ بمعنى الذي
في موضع الرفع على الابتداء، و﴿لمن﴾ خبره. ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي: هو
الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدر أن تضيفوا منه شيئاً إلى غيره. ﴿كُنَّ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أصل كتب: أوجب، ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره، إذ
لا يجب على الله شيء للعبد، فالمراد به: أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً، وهو منجزه
لا محالة. وذكر النفس للاختصاص، ورفع الوسائط. ثم أوعدهم على إغفالهم
النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: ﴿لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ﴾ ليجازيكم على إشراككم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم، أو: في الجمع.
﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ نصب على الذم، أي: أريد الذين خسروا أنفسهم
باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال الأخفش: «الذين» بدل من
﴿كم﴾ في «ليجمعنكم» أي: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم.
والوجه هو الأول؛ لأن سيبويه قال: لا يجوز: مرت بي المسكين، ولا بك
المسكين، فتجعل المسكين بدلاً من الياء، أو الكاف؛ لأنها في غاية الوضوح،
فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير.

١٣- ﴿وَلَهُ﴾ عطف على ﴿الله﴾ ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الشكنى،
حتى يتناول الساكن والمتحرك، أو: من السكون، ومعناه: ما سكن وتحرك
فيهما، فاكتمى بأحد الضدين عن الآخر كقوله: ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل:
٨١] أي: الحر والبرد. وذكر السكون لأنه أكثر من الحركة. وهو احتجاج على
المشركين؛ لأنهم لم ينكروا أنه خالق الكل، ومدبره ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ

كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان^(١).

١٤ - ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا﴾ ناصراً ومعبوداً. وهو مفعول ثانٍ لـ: ﴿أَتَّخِذُ﴾. والأوّل ﴿غير﴾. وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول ﴿أَتَّخِذُ﴾ لا عليه؛ لأن الإنكار في اتّخاذ غير الله ولياً، لا في اتّخاذ الولي، فكان أحقّ بالتقديم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالجذر، صفة لله، أي: مخترعهما. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعربيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو يرزق ولا يُرزق. أي: المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبيّ سابق أمته في الإسلام؛ كقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ﴿لا تكونن من المشركين﴾. ولو عطف على ما قبله لفظاً لقليل: وألا أكون، والمعنى: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهِيتُ عن الشرك.

١٥ - ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني أخاف عذاب يوم عظيم، وهو القيامة، إن عصيتُ ربي. فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب.

١٦ - ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾ الله الرحمة العظمى، وهي: النجاة الظاهرة. ﴿مَنْ يُصْرَفُ﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: من يُصْرِفُ الله عنه العذاب ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

١٧ - ﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾ من مرض، أو فقر، أو غير ذلك من بلاياه

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ
إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا
أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ﴾ من غنى، أو صيحة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إدامته، وإزالته.

١٨ - ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مبتدأ وخبر. أي: الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ خبر بعد خبر، أي: غالب عليهم بالقدرة. والقهر: بلوغ المراد بمنع غيره من بلوغه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في تنفيذ مراده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأهل القهر من عباده.

١٩ - ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ﴿أَيْ شَيْءٍ﴾ مبتدأ و﴿أكبر﴾ خبره و﴿شهادة﴾ تمييز. و﴿أَيْ﴾ كلمة يراد بها بعض ما تضاف إليه، فإذا كانت استفهاماً كان جوابها مستمى باسم ما أضيفت إليه. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب، أي: الله أكبر شهادة. فالله: مبتدأ، والخبر: محذوف، فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق اسم الشيء على الله تعالى، وهذا لأنَّ الشيء اسمٌ للموجود؛ ولا يُطلق على المعدم، والله تعالى موجود فيكون شيئاً؛ ولذا نقول: الله تعالى شيء لا كالأشياء. ثم ابتدأ ﴿شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو ﴿شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ويجوز أن يكون الجواب ﴿الله شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، لأنه إذا كان الله شَهِيداً بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شَهِيد له ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة. وفي الحديث: «من بلغه القرآن فكانما رأى محمداً ﷺ»^(١). و﴿مَنْ﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿كُم﴾. والمراد به: أهل مكة، والعائد إليه محذوف، أي: ومن بلغه. وفاعل بلغ ضمير القرآن. ﴿أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ استفهام إنكار، وتبكيك ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. وكرر ﴿قُلْ﴾ تأكيداً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ما: كافة لـ: «أَنَّ» عن العمل. و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. و﴿واحد﴾ صفة. أو: بمعنى «الذي» في محل النصب بـ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (١١/٢) موقوفاً على سعيد بن جبیر.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

«إِنَّ»، و«هو» مبتدأ. و«إله» خبره. والجملة: صلة الذي. و«واحد»: خبر إن. وهذا الوجه أوقع ﴿وَلَا يَرَىٰ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: اليهود والنصارى. والكتاب: التوراة، والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: رسول الله ﷺ بحليته، ونعته الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ بحلاهم، ونعوتهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوته. ثُمَّ قَالَ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢١ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام يتضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم لنفسه. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأشنعه: اتخذ المخلوق معبوداً. ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق. ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفه بما لا يليق به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن، والمعجزات ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الأمر، والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله ما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسموا القرآن والمعجزات: سحراً.

٢٢ - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هو مفعول به، والتقدير: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره، توبيخاً. وبالياء فيهما: يعقوب ﴿إِنِّي سُرَّوْكُمْ﴾ آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان.

٢٣ - ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ وبالياء: حمزة، وعلي. ﴿فَتَنْتَهُمْ﴾ كفرهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه إلا جحوده، والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به. أو: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسُمي فتنة لأنه كذب. ويرفع الفتنة: مكى،

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

وشامي، وحفص. فمن قرأ: ﴿تكن﴾ بالتاء، ورفع الفتنة، فقد جعل الفتنة اسم تكن، و﴿أن قالوا﴾ الخبر، أي: لم يكن فنتهم إلا قولهم. ومن قرأ بالتاء، ونصب الفتنة حمل على المقالة ﴿ربنا﴾ حمزة، وعلي، على النداء، أي: يا ربنا. وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله.

٢٤ - ﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد. ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بقولهم: ما كنا مشركين. قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله، وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: ﴿إِنَّ شُرَاكُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]. قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فيختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ إلهيته، وشفاعته.

٢٥ - ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن. روي أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا. فنزلت ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان، وهو: الغطاء، مثل عنان وأعنة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً يمنع من السمع. ووحد الوقر لأنه مصدر، وهو عطف على أكنة، وهو حجة لنا في الأصلح^(١) على المعتزلة ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿حتى﴾ هي التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله: ﴿إِذَا جَاءُوكَ... يقول الذين كفروا﴾. و﴿يجادلونك﴾ في موضع الحال. ويجوز

(١) وهو قول المعتزلة: إن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، وسموا ذلك عدلاً.

إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نَرُدُّ وَلَا نُنْكَذِبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَاهُم مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ

أن تكون جارة، ويكون ﴿إذا جاؤوك﴾ في موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم. و﴿يجادلونك﴾ حال، و﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له. والمعنى: أنه بلغ تكذيبهم: الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فيجعلون كلام الله أكاذيب. وواحد الأساطير: أسطورة.

٢٦ - ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول، واتباعه، والإيمان به ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ ويبعدون عنه بأنفسهم، فيضلّون ويضلّون ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرّون رسول الله. وقيل: غني به أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرّض لرسول الله ﷺ، وينأى عنه فلا يؤمن به. والأوّل أشبه.

٢٧ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ حذف جوابه، أي: ولو ترى لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أروها حتى يعاينوها، أو حُبسوا على الصراط فوق النار ﴿فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نَرُدُّ﴾ إلى الدنيا. تمنّوا الرّدّ إلى الدنيا ليؤمنوا، وتمّ تمنّهم. ثم ابتدؤوا بقوله: ﴿وَلَا نُنْكَذِبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واعددين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب، ونؤمن. ﴿ولا نكذب، ونكون﴾ حمزة، وحفص، على جواب التمني بالواو، وبإضمار أن، ومعناه: إن رُدُّدنا لم نكذب، ونكنّ من المؤمنين. وافقهما في ﴿ونكون﴾ شامي.

٢٨ - ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنّوا ﴿بَدَاهُمْ﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ﴾ من الناس ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا من قبائحهم، وفضائحهم في صحفهم.

وقيل: هو في المنافقين، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يستره، أو في أهل الكتاب، وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحّة نبوة رسول الله ﷺ ﴿وَلَوْ

رُدُّوْا لِعَادَوْا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا

رُدُّوْا ﴿ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴾ لِعَادَوْا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴿ من الكفر ﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ فيما وعدوا من أنفسهم، لا يوفون به.

٢٩ - ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على ﴿ لعادوا ﴾ أي: ولو رُدُّوا لكفروا، ولقالوا: ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾، كما كانوا يقولون قبل معاناة القيامة [أو على قوله ﴿ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: وإِنَّهُمْ لِقَوْم كَاذِبُونَ في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا] ^(١). و﴿ هي ﴾ كناية عن الحياة، أو: هو ضمير القصة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

٣٠ - ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه، أو: وقفوا على جزاء ربهم ﴿ قَالَ ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال ﴿ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ أي: البعث ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالكائن الموجود. وهذا تعييرٌ لهم على التكذيب للبعث، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث: ما هو بحق ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ أقروا، وأكدوا الإقرار باليمين ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بكفركم.

٣١ - ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو: هو مجرى على ظاهره؛ لأنَّ منكر البعث منكر للرؤية ﴿ حَتَّى ﴾ غاية لـ (كذبوا) لـ (خسر)؛ لأن خسranهم لا غاية له ﴿ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ ﴾ أي: القيامة؛ لأن مدة تأخرها مع تأبّد ما بعدها كساعة واحدة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة. وانتصابها على الحال يعني: باغته، أو: على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة. وهي: ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿ قَالُوا يَحْسِرُنَا ﴾ نداء تفجّع، معناه: يا

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

حسرة احصري، فهذا أوانك ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قَصَرْنَا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أو: في الساعة، أي: قَصَرْنَا في شأنها، وفي الإيمان بها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ خصَّ الظهر؛ لأن المعهود حمل الأثقال على الظهر كما عهد الكسب بالأيدي. وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم. وقيل: إِنَّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة، وأخبثه ريحاً، فيقول: أنا عمك السيء، فطالما ركبتني في الدنيا، وأنا أركبك اليوم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ بنس شيئاً يحملونه. وأفاد ﴿أَلَا﴾ تعظيم ما يذكر بعده.

٣٢ - ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]. واللعب: ترك ما ينفع بما لا ينفع. واللهو: الميل عن الجد إلى الهزل. قيل: ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو؛ لأنها لا تُعَبِّ منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ﴾ مبتدأ ﴿الْآخِرَةُ﴾ صفتها ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بالإضافة: شامي، أي: ولدَار الساعة الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته. وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وفيه دليل على أَنَّ ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء: مدني، وحفص.

٣٣ - ولما قال أبو جهل: وما نكذبك يا محمد! وإنك عندنا لمصدق، وإنما نكذب ما جئتنا به نزل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ والهاء: ضمير الشأن ﴿لَيَحْزَنُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لا ينسبونك إلى الكذب. وبالتخفيف: نافع، وعلي، من: أَكْذَبُهُ: إذا وجده كاذباً ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ من إقامة البظاهر مقام المضمّر. وفيه دلالة على أنهم ظلموا في جحودهم. والباء يتعلق بـ «يجحدون»، أو بـ «الظالمين»، كقوله: ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والمعنى: أن تكذيبك أمرٌ راجعٌ إلى الله؛ لأنك رسوله المصدق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله؛ لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل.

وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

٣٤ - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليية لرسول الله ﷺ. وهو دليل على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ ليس بنفي لتكذيبه. وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس: إنهم لم يهينوك، وإنما أهانوني ﴿فَصَبَرُوا﴾ الصبر: حبس النفس على المكروه ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ على تكذيبهم، وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٢] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ بعض أنبيائهم، وقصصهم، وما كابدوا من مصابرة المشركين. وأجاز الأخفش أن تكون «من» زائدة، و«الفاعل»: نبا المرسلين. وسيبويه لا يميز زيادتها في الواجب.

٣٥ - كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه، وإعراضهم، ويحب مجيء الآيات ليسلموا، فنزل: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ﴾ عظم، وشق ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة لنفقاً ﴿أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ﴾ منها ﴿بِآيَةٍ﴾ فافعل، وهو جواب ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ﴾. وإن استطعت وجوابها جواب ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ﴾. والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك. والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ لجعلهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك، كذا قاله الشيخ أبو منصور - رحمه الله - ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون ذلك.

٣٦ - ثم أخبر أن حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون

وَالْمَوْقَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُذِّ وَبُكِّمْ فِي الظُّلُمَاتِ

دعاءك بقلوبهم ﴿وَالْمَوْقَى﴾ مبتدأ. أي: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا.

٣٧ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ هلا أنزل عليه ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كما نقترح من جعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكة، وتفجير الأنهار خلالها ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، أو: لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزلت.

٣٨ - ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ﴾ هي اسم لما يدب، وتقع على المذكر والمؤنث ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في موضع جر صفة لدابة ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيد الطيران بالجناحين لنفي المجاز؛ لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار: إذا أسرع ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبر يدبر أمر مرادها ﴿مَا فَرَقْنَا﴾ ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبه، ولم نثبت ما وجب أن يثبت. أو: ﴿الكتاب﴾ القرآن. وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من شيء يحتاجون إليه، فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة، وإشارة، ودلالة، واقتضاء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم كلها من الدواب والطيور، فينصف بعضها من بعض، كما روي: أنه يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً. وإنما قال «إلا أمم» مع أفراد الدابة والطيور لمعنى الاستغراق فيهما.

٣٩ - ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته، وينادي على عظمته قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُذِّ وَبُكِّمْ﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿وَبُكِّمْ﴾ لا ينطقون بالحق. خابطون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمة الجهل، والحيرة، والكفر، غافلون عن تأمل ذلك، والتفكر فيه ﴿صَمٌّ وَبُكْمٌ﴾ خبر الذين، ودخول الواو لا يمنع من ذلك. و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر آخر. ثم قال إيذاناً بأنه

مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَعْيَارَكُمْ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا

فعال لما يريد: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أي: من يشأ الله ضلاله يُضِلُّه ﴿وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال، وإرادة المعاصي، ونفي الأصلح.

٤٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وبتلويح الهمزة: مدني. وتركه: علي. ومعناه: هل علمتم أن الأمر كما يقال لكم، فأخبروني بما عندكم. والضمير الثاني لا محل له من الإعراب. والتاء ضمير الفاعل. ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره: أرايتكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ من تدعون؟ ثم بكتهم بقوله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ أي: اتخصّصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر، أم تدعون الله دونها؟! ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الأصنام آلهة، فادعوها لتخلصكم.

٤١ - ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصّصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعون به إلى كشفه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتركون آلهتكم، أو: لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضرر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ كأنه قيل: أرايتكم أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله؟

٤٢ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً، فالمفعول محذوف. فكذبوهم ﴿فَآخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ بالبؤس والضرر. أو: الأول: القحط، والجوع، والثاني: المرض، ونقصان الأنفس، والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذلّلون، ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد.

٤٣ - ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: هلا تضرّعوا بالتوبة. ومعناه:

وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا
 ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
 فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ
 كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ ﴿٤٦﴾

نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا
 ليفيد: أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
 فلم يتزجروا بما ابتلوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وصاروا
 مُعْجِبِينَ بأعمالهم التي زَيَّنَها الشيطان لهم.

٤٤ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء، أي: تركوا الانعاض
 به، ولم يزجرهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الصحة، والسعة،
 وصنوف النعمة. ﴿فَتَحْنَا﴾ شامي ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير والنعمة
 ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون، متحسرون. وأصله: الإطراق حزناً لما
 أصابه، أو ندماً على ما فاته. وإذا: للمفاجأة.

٤٥ - ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أهلكوا عن آخرهم، ولم يترك منهم
 أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنه
 من أجل النعم، وأجزل القسم، أو: احمدا الله على إهلاك من لم يحمد الله.

٤٦ - ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ
 وَأَبْصَرَكُمْ﴾ بأن أصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فسلب العقول، والتميز
 ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ بما أخذ، وختم عليه ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، و﴿إِلَهُ﴾
 خبره، و﴿غَيْرُ﴾ صفة لإله، وكذا ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ والجملة في موضع مفعولي
 ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. وجواب الشرط: محذوف: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الْآيَاتِ﴾
 نكررها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها. والصدوف:
 الإعراض عن الشيء.

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

٤٧ - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً ﴾ بأن لم تظهر أماراته ﴿ أَوْ
جَهْرَةً ﴾ بأن ظهرت أماراته. وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً ﴿ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴾ ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم
بربهم.

٤٨ - ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ بالجنان والنيران للمؤمنين
والكفار، ولم ^(١) نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين
القاطعة، والأدلة الساطعة ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي: داوم على إيمانه ﴿ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فلا خوف ﴿ يعقوب.

٤٩ - ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ جعل العذاب ماساً، كأنه حي
يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن
طاعة الله تعالى بالكفر.

٥٠ - ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي: قِسْمه ^(٢) بين الخلق، وأرزاقه.
ومحل ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ النصب، عطفاً على محل «عندي خزائن الله»؛ لأنه من
جملة المقول، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول، ولا هذا القول ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي: لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن
الله، وعلم الغيب، ودعوى الملكية، وإنما أدعي ما كان لكثير من البشر، وهو
النبوة ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي: ما أخبركم إلا بما أنزل الله علي ﴿ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل للضالّ والمهتدي، أو: لمن اتبع ما يوحي إليه،

(١) في الأصل (ولن) والتصحيح من الكشاف.

(٢) قَسَم: جمع قِسْمَة: وهي النصيب.

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ

ومن لم يتبع، أو لمن يدعي المستقيم، وهو النبوة، والمحال وهو الإلهية ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو: فتعلموا أنني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو: فتعلموا أن اتباع ما يوحي إلي مما لا بد لي منه.

٥١ - ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ بما يوحي ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون في العمل، فينذرهم بما أوحى إليه، أو: أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من ﴿يُحْشَرُوا﴾ أي: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم ﴿لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يدخلون في زمرة أهل التقوى.

٥٢ - لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنذار غير المتقين ليتقوا، أمر بعد ذلك بتقريب المتقين، ونهى عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم، أي: عبادته، ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام؛ أو: معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، أو الصلوات الخمس. (بالغدوة) شامي. ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. فالوجه يعبر به عن ذات الشيء، وحقيقته. نزلت في الفقراء: بلال، وصهيب، وعمار، وأصراهم، حين قال رؤساء المشركين: لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك. فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين». فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا بذلك كتاباً، فدعا علياً - رضي الله عنه - ليكتب، فقام الفقراء، وجلسوا ناحية، فنزلت. فرمى ﷺ بالصحيفة، وأتى الفقراء، فعانقهم^(١) ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم، لا يتعداهم إليك، كما أن

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٦).

فَطَرْدَهُمْ فَمَا تَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

حسابك عليك لا يتعداك إليهم ﴿فَطَرْدَهُمْ﴾ جواب النفي، وهو: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ ﴿فَمَا تَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي: وهو ﴿ولا تطرد﴾. ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿فَطَرْدَهُمْ﴾ على وجه التسييب؛ لأنَّ كونه ظالمًا مسبَّبٌ عن طردهم.

٥٣ - ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن العظيمة ابتلينا الأغنياء بالفقراء ﴿لِيَقُولُوا﴾ أي: الأغنياء ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان. ونحن المقدمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير. ونحوه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يشكر نعمته.

٥٤ - ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم، وتطبيعاً لقلوبهم. وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليشترهم بسعة رحمة الله، وقبوله التوبة منهم. ومعناه: وعدكم بالرحمة وعداً مؤكداً ﴿أَنَّهُم﴾ الضمير للشان ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ ذنباً ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة، أو: جعل جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد السوء، أو العمل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وأخلص توبته ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «أنه» «فإنه» شامي، وعاصم. الأول: بدل الرحمة، والثاني: خبر مبتدأ محذوف، أي: فشأنه أنه غفور رحيم. «أنه»، «فإنه» مدني، الأول: بدل الرحمة، والثاني: مبتدأ.

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ

«إنه» «فأنه» غيرهم على الاستئناف. كأن الرحمة استفسرت فقيل: «إنه من عمل منكم».

٥٥ - ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر. ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالنصب مدنيّ. غيره بالرفع. فرفع السبيل مع التاء والياء لأنها تذكر وتؤنث. ونصب السبيل مع التاء على خطاب الرسول ﷺ. يقال: استبان الأمر، وتبين، واستبنته، وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن، ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه، ومن يرجى إسلامه. ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلّا منهم بما يجب أن يُعامل به، فصللنا ذلك التفصيل.

٥٦ - ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صُرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيانٌ للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضالّ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ في شيء. يعني: أنكم كذلك.

٥٧ - ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: إنني من معرفة ربّي، أنه لا معبود سواه على حجة واضحة. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ حيث أشركتم به غيره. وقيل: ﴿على بينته من ربي﴾ على حجة من جهة ربي، وهو القرآن ﴿وكذبتُم به﴾ بالبينته. وذكر الضمير على تأويل البرهان، أو البيان، أو القرآن. ثم عقبه بما دلّ على أنهم أحقّاء بأن يعاقبوا بالعذاب، فقال: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ حجازي،

وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

وعاصم، أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به، ويقدره، من: قص أثره.
الباقون ﴿يَفْضُحُ الْحَقُّ﴾ في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل. ف ﴿الْحَقُّ﴾ أي
القضاء: فالحق صفة لمصدر ﴿يَقْضِي﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ أي:
القاضين بالقضاء الحق، إذ الفصل هو: القضاء. وسقوط الياء من الخط لاتباع
اللفظ لالتقاء الساكنين.

٥٨ - ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ أي: في قدرتي وإمكاناتي ﴿مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ﴾ من
العذاب ﴿لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي^(١) ﴿وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع.

٥٩ - ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتيح: جمع مِفْتَاح، وهو:
المفتاح، أو: هي خزائن العذاب والرزق، أو: ما غاب عن العباد من الثواب،
والعقاب، والآجال، والأحوال. جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة؛ لأن
المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المستوثق منها بالأغلاق، والأقفال. وَمَنْ
عَلِمَ مَفَاتِحَهَا، وكيفية فتحها توصل إليها. فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات
وحده، لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفتاح أقفال المخازن، ويعلم فتحها،
فهو المتوصل إلى ما في المخازن. قيل: عنده مفاتيح الغيب، وعندك مفاتيح
الغيب، فمن آمن بغيبه، أسبل الله الستر على عيبه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ من
النبات، والدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ من الحيوان، والجواهر، وغيرهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

(١) قال أبو السعود: وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب، مالا يخفى. فما قيل في تفسيره: «لأهلكتكم عاجلاً، غضباً لربي..» بمعزل من توفية المقام حقه. (تفسير أبي السعود:

وَرَقَةً إِلَّا يَٰعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَٰأَيُّسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً

وَرَقَةً إِلَّا يَٰعْلَمُهَا ﴿٥٩﴾ «ما» للنفي، وَمَنْ للاستغراق، أي: يعلم عددها، وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَٰأَيُّسُ﴾ عطف على ورقة، وداخل في حكمها. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كالتكرير؛ لقوله: ﴿إِلَّا يَٰعْلَمُهَا﴾ لأن معنى ﴿إِلَّا يَٰعْلَمُهَا﴾ ومعنى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واحد، وهو عِلْمُ الله، أو اللوح.

٦٠ - ثم خاطب الكفرة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: يقبض أنفُسكم عن التصرف بالتمام في المنام ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم في النهار. أو: التقدير: ثم يبعثكم في النهار، ويعلم ما جرحتم فيه، فقدّم الكسب لأنه أهم. وليس فيه أنه لا يعلم ما جَرَحْنَا بالليل، ولا أنه لا يتوفانا بالنهار. فدل أن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوفى الآجال على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم. قال بعض أهل الكلام: إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تُقْبَضُ عند النوم، ثم تُرَدُّ إليها إذا ذهب النوم فأما الروح التي تحيا بها النفس، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل. والمراد بالأرواح: المعاني والقوى التي تقوم بالحواس، ويكون بها السمع، والبصر، والأخذ، والمشي، والشم. ومعنى ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾: أي: يوقظكم، ويرد إليكم أرواح الحواس. فيستدل به على مُنْكَرِي البعث؛ لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس، ثم يردّها إليها، فكذا يجبي الأنفس بعد موتها.

٦١ - ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم، وهم الكرام الكاتبون؛ ليكون ذلك أزر للعباد عن ارتكاب الفساد

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنَجِّنَا مِنْ هَٰذَا ۖ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ

إذا تفكروا: أن صحائفهم تعرض على رؤوس الأشهاد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ لغاية حفظ الأعمال. أي: وذلك دأب الملائكة مع المكلف مدة الحياة إلى أن يأتيه الممات ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: استوفت روحه، وهم: ملك الموت وأعوانه. توفيه واستوفيه بالإمالة: حمزة ﴿رُسُلُنَا﴾ أبو عمرو ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتوانون، ولا يؤخرون.

٦٢ - ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه، أي: ردّ المتوفون برّد الملائكة ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم ﴿الْحَقُّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وهما صفتان لله ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ، لا حكم فيه لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، يحاسب جميع الخلق في مقدار حلب شاة. وقيل: الردّ إلى من ربّك خير من البقاء مع من آذاك.

٦٣ - ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ﴾ ﴿يُنْجِيكُمْ﴾ ابن عباس ﴿مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، أو: ظلمات البرّ: الصواعق، والبحر: الأمواج، وكلاهما في الغيم والليل ﴿تَدْعُونَهُ﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿يُنْجِيكُمْ﴾ ﴿تَضَرُّعًا﴾ معلنين الضراعة، وهو مصدر في موضع الحال. وكذا ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: مسترين في أنفسكم. ﴿خُفْيَةً﴾ حيث كان: أبو بكر، وهما لغتان ﴿لَّيْنٍ أَنَجِّنَا﴾ عاصم. وبالإمالة: حمزة، وعلي. الباقون: ﴿أُنْجَيْنَا﴾. والمعنى: يقولون لئن خلصتنا ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله تعالى.

٦٤ - ﴿قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ﴾ بالتشديد: كوفي ﴿مِّنْهَا﴾ من الظلمات ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغم، وحزن ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولا تشكرون.

٦٥ - ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ هو الذي عرفتموه قادراً، أو: هو الكامل القدرة. فاللام يحتمل العهد والجنس ﴿عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما أمطر على قوم

أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ بَلَاءٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ

لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما غرق فرعون، وخسف بقارون. أو: من قبل سلاطينكم وسفلكم. أو: هو حبس المطر، والنبات ﴿أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أو: يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم، فيختلطوا، ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقتل بعضكم بعضاً. والبأس: السيف. وعنه عليه السلام: «سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمتي بالسيف»^(١) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾.

٦٦ - ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بالقرآن، أو بالعذاب ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق، أو: لا بد أن ينزل بهم ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكل إلي أمركم، إنما أنا منذر.

٦٧ - ﴿لِكُلِّ بَلَاءٍ﴾ لكل شيء يُبْأ به. يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون، وإيعادهم به ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وحصول لا بد منه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

٦٨ - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: القرآن. يعني: يخوضون في الاستهزاء بها، والظعن فيها. وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم، وقم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ غير القرآن مما يحل، فحينئذ يجوز أن تجالسهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ ما نهيت عنه. ﴿يُنْسِيَنَّكَ﴾

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. (حاشية الكشاف ٣٤/٢).

فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَاحِظٌ مِمَّا آوَتْكُمْ

شامي. نَسَى وَأَنْسَى وَاحِدٌ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ بعد أن تذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٦٩ - ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكديباً، واستهزاء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيءٌ مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذِكْرٌ﴾ إذا سمعوه يخوضون؛ بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم. ومحل ذكرى نصب، أي: ولكن يذكروهم ﴿ذِكْرٌ﴾، أي: تذكيراً. أو: رفع، والتقدير: ولكن عليهم ذكرى. فذكرى: مبتدأ، والخبر: محذوف ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياءً، أو كراهة لمساءتهم.

٧٠ - ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كلّفوه، ودّعوا إليه، وهو: دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ سخروا به، واستهزؤوا. ومعنى ذَرَهُمْ: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم، واستهزائهم. واللهو: ما يشغل الإنسان من هوى، أو طرب ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ﴾ وعظ بالقرآن ﴿أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسُ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب، وترتَهَنَ بسوء كسبها. وأصل الإيسال: المنع ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ ينصرها بالقوة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمسألة. ولا وقفَ على ﴿كَسَبَتْ﴾ في الصحيح؛ لأن قوله ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ صفة لنفس. والمعنى: وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس، عادمة وليّاً، وشفيعاً بكسبها ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَاحِظٌ عَلَى الْمَصْدَرِ﴾ وإن تعد كل فداء. والعدل: الفدية؛ لأنّ الفادي يعدل المَفْدَى بمثله. وفاعل ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ لا ضمير العدل؛ لأن العدل هنا مصدر، فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] فبمعنى المفدى به، فصَحَّ إسنادُه إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتخذين من دينهم لعباً ولهواً. وهو مبتدأ. والخبر:

الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبَكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا

﴿الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء سخين حار. خبر ثان لأولئك، والتقدير: أولئك المُبْسِلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حميم. أو مستأنف ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ - ﴿قُلْ﴾ لأبي بكر، يقل لابنه عبد الرحمن، وكان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿أَدْعُوا﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الضار النافع ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا إن دعونا ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ﴿وَنُرَدُّ﴾ وَأَنُرَدُّ ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ كالذي ذهبت به الغيلان^(١)، ومردة الجن. والكاف في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿نُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين. وهو استفعال من: هوى في الأرض: إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في المهمة^(٢) ﴿حَيْرَانٌ﴾ حال من مفعول استهوته، أي: تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدرى كيف يصنع ﴿لَهُ﴾ لهذا المستهوي ﴿أَصْحَابٌ﴾ رُفَقَةٌ ﴿يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ إلى أن يهدوه الطريق. سمي الطريق المستقيم: بالهدى. يقولون له: ﴿أَتَيْنَا﴾ وقد اغتسَفَ المهمة^(٣) تابعاً للجن لا يجيبهم، ولا يأتيهم. وهذا مبني على ما يقال: إن الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه. فشبه به الضال عن طريق الإسلام، التابع لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونه إليه، فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنَّا هُدَىٰ اللَّهُ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وحده، وما وراءه ضلال ﴿وَأَمْرُنَا﴾ محله

(١) «الغيلان»: جمع غُول، نوعٌ من الشياطين كانت العرب تزعم أنها تظهر للناس في القلاة، فَتَلَوْنَ لهم في صور شتى وَتُضَلِّلُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ.

(٢) «المهمة»: المَقَاَزَةُ البعيدة، جمع: مَهَامَةٌ.

(٣) «اغْتَسَفَ الطريق»: سار فيه على غير هدى.

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَاِتَّخِذْ
أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾

النصب بالعطف على محل ﴿إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ على أنهما مقولان: كأنه
قيل: قل هذا القول، وقل: أمرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧٢ - ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والتقدير: وأمرنا لأن نسلم، ولأن أقيموا،
بلام وإقامة الصلاة ﴿وَأَتَقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴿٧٢﴾ بالحكمة، أو محققاً
مُحْنٌ فَيَكُونُ ﴿٧٢﴾ على الخبر دون الجواب ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَ﴾
مقدماً عليه، كما تقول: يوم الجمعة قولك الصدق، أي: قولك
يوم الجمعة. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنه خلق السموات
، والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء: كن فيكون ذلك
نق والحكمة، أي: لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر
ن حكمة وصواب ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ظرف
الملك ﴿فِي الصُّورِ﴾ هو الْقَرْنُ بلغة اليمن، أو: جمع صورة^(١)
، هو ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: السر والعلانية ﴿وَهُوَ﴾
الإفناء والإحياء ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَاِتَّخِذْ أَصْنَامًا
إِلَهَةً استفهام توبيخ، أي: أتخذها آلهة، وهي لا تستحق الإلهية ﴿إِنِّي أَرَاكَ
وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(١) الصُّور: قَرْنٌ من نور يُنْفَخُ فيه، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء. وليس جمع
صورة كما زعم بعضهم؛ أي يُنْفَخُ في صُورِ الموتى على ما نُبَيِّنُهُ. (القرطبي: ٢٠/٧).

وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّامِينَ ﴿٧٧﴾

٧٥ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أريناه قُبْحَ الشرك ﴿نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نري بصيرته لطائف خلق السموات والأرض. و﴿نري﴾ حكاية حال ماضية. والملكوت أبلغ من المُلْك؛ لأن الواو والتاء ترادان للمبالغة. قال مجاهد: فُرِجَتْ له السموات السبع، فنظر إلى ما فيهن، حتى انتهى نظره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى ما فيهن ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فعلنا ذلك. أو: ليستدل ﴿وليكون من الموقنين﴾ عياناً، كما أيقن بيانا.

٧٦ - ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: أظلم، وهو عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾. وقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ أي: الزهرة، أو المشتري. وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبتهم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم: أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أنّ شيئاً منها ليس بآله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأنّ لها مُخْدِثاً أحدثها، ومدبّراً دبّر طلوعها، وأفولها، وانتقالها، ومسيرها، وسائر أحوالها. فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: قال لهم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في زعمكم، أو: المراد أهذا؟ استهزاء بهم، وإنكاراً عليهم. والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت. والصحيح أنّ هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنّه مُبْطِل، فيحكي قوله كما هو غير متعصّب لمذهبه؛ لأنّه أدعى إلى الحقّ، وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحقّة ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام.

٧٧ - ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ مبتدأ في الطلوع ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيٌّ
 مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا
 أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ
 مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا

يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الصَّالِينَ ﴿٨٠﴾ نَبه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً فهو ضالٌّ. وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج به أظهر، لأنه انتقال مع خفاء، واحتجاب.

٧٨ - ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وإنما ذكره لأنه أراد: الطالع، أو: لأنه جعل المبتدأ مثل الخبر؛ لأنهما شيء واحد معنى، وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث. ولهذا قالوا في صفات الله تعالى: علام، ولم يقولوا: علامة، وإن كان الثاني أبلغ، تفادياً من علامة التأنيث ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال التصفة أيضاً مع خصومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله تعالى، والأول أظهر لقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾.

٧٩ - ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلت هذه المحدثات على أنه منشئها ﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: مائلاً عن الأديان كلها إلى الإسلام ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من خلقه.

٨٠ - ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ في توحيد الله تعالى، ونفي الشركاء عنه ﴿قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ﴾ في توحيده ﴿أَتُحْجِّجُونِي﴾^(١) مدني، وابن ذكوان ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى التوحيد. وبالباء في الوصل: أبو عمرو. لما خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني منها بضر، فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً، وفيما شاء ضراً، لا الأصنام

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعمله ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتميزوا بين القادر والعاجز .

٨١ - ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ معبوداتكم، وهي مأمونة الخوف ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ﴾ بإشراكه ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة، إذ الإشراف لا يصح أن يكون عليه حجة. والمعنى: وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي: فريق الموحدين والمشركين ﴿ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل: فأينا، احترازاً من تركية نفسه. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله:

٨٢ - ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ بشرك، عن الصديق - رضي الله عنه - ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ تم كلام إبراهيم - عليه السلام - .

٨٣ - ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم - عليه السلام - على قومه من قوله: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ إلى ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ هو خبر بعد خبر ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ في العلم والحكمة. وبالتنوين: كوفي^(١). وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ بالرفع. ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالاهل.

٨٤ - ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ لإبراهيم. ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أي:

(١) أي: ﴿درجاتٍ﴾، وبغير التنوين ﴿درجاتٍ﴾.

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

كلهم، وانتصب كلاً بهدينا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ أي: وهدينا نوحاً ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لنوح، أو: لإبراهيم، والأول أظهر، لأن يونس ولوطاً لم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ والتقدير: وهدينا من ذريته هؤلاء ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ونجزي المحسنين جزاءً مثل ذلك. فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف.

٨٥ - ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ أي: كلهم ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ وذكر عيسى معهم دليل على أن النسب يثبت من قبل الأم أيضاً؛ لأنه جعله من ذرية نوح - عليه السلام - وهو لا يتصل به إلا بالأم. وبذا أجيب الحجاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبي - عليه السلام -.

٨٦ - ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ «واللّٰسَع» حيث كان بلامين: حمزة، وعلي ﴿وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة، والرسالة.

٨٧ - ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿كَلاًّ﴾ أي: وفضلنا بعض آبائهم ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٨٨ - ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما دان به هؤلاء المذكورون. ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الله شاء هداية الخلق كلهم، لكنهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ مع فضلهم، وتقدمهم، وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبطلت أعمالهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٨٩ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد الجنس ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة، أو:

وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَدَهُمْ أَقْتَدَ قُلٌ لَّا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ

فهم الكتاب ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب، والحكم، والنبوة، أو: بآيات القرآن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي: أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون، ومن تابعهم، بدليل قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾، أو: أصحاب النبي ﷺ، أو: كل من آمن به، أو العجم. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهده، ويحافظ عليه. والباء في: ﴿لَّيْسُوا بِهَا﴾ صلة كافرين. وفي: ﴿بِكَافِرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

٩٠ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: الأنبياء الذين مر ذكرهم ﴿فَبْهَدَهُمْ أَقْتَدَ﴾ فاختص هداهم بالافتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول. والمراد بهداهم: طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع، فهي مختلفة. والهاء في ﴿اقتده﴾ للوقف، تسقط في الوصل. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف. ويحذفها حمزة، وعلي في الوصل. ويختلسها شامي ﴿قُلْ لَّا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على الوحي، أو: على تبليغ الرسالة، والدعاء إلى التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ جُعلًا. وفيه دليل على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن، ورواية الحديث لا يجوز ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للجن والإنس.

٩١ - ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم. وذلك من أعظم رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. روي أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف، كانوا يجادلون النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له: «أليس في التوراة أن الله يبغض الخبر السمين؟» قال: نعم. قال:

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ

«فأنت الخبر السمين». فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء^(١). و﴿حق قدره﴾ منصوب نصب المصدر ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من ﴿الكتاب﴾ ﴿وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيه نعت رسول الله ﷺ. أي: بغضوه، وجعلوه قراطيس مقطعة، وورقات مفرقة؛ ليستمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وبالياء في الثلاثة: مكى، وأبو عمرو ﴿وَعِلِّمْتُمْ﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم، ودنياكم ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ جواب، أي: أنزله الله فإنهم لا يقدر أن ينكروك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ﴿ذرهم﴾ أو: من ﴿خوضهم﴾.

٩٢ - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ على نبينا ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع، والفوائد ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ وبالياء: أبو بكر، أي: الكتاب. وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب. كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب، ولإنذار ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة. وسميت أم القرى لأنها سرّة الأرض، وقبله أهل القرى، وأعظمها شأنًا، ولأن الناس يؤمنونها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يصدقون بالعاقبة، ويحافظونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بهذا الكتاب. فأصل الدين: خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصت الصلاة بالذكر؛ لأنها علم الإيمان، وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

٩٣ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو مالك بن الصيف ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ

إِلَى وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي
 غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
 آلِهَتِهِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ
 جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ

إِلَى وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴿٩٣﴾ هو مسيلمة الكذاب ﴿وَمَنْ قَالَ﴾ في موضع جرّ عطف على
 ﴿من افترى﴾ أي: وممن قال ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: سأقول وأملي. هو
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب الوحي. وقد أملى النبي ﷺ عليه: ﴿ولقد
 خلقنا الإنسان﴾ إلى ﴿خلقاً آخر﴾، فجرى على لسانه: ﴿فتبارك الله أحسن
 الخالقين﴾ فقال: «اكتبها فكذلك نزلت»، فشكّ وقال: إن كان محمد صادقاً فقد
 أوحى إليّ كما أوحى إليه، وإن كان كاذباً فقد قلتُ كما قال، فارتدّ ولحق
 بمكة^(١). أو: النضر بن الحارث، كان يقول: والطاحنات طحناً، فالعاجنات
 عجنناً، فالخابزات خبزاً، كأنه يعارض ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف، أي: لرأيت
 أمراً عظيماً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمنتبهة، فتكون
 اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله ﴿فِي غَمَرَاتِ
 الْمَوْتِ﴾ شدائده، وسكراته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي:
 يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم.
 وهذه عبارة عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيس، وإمهال ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
 عَذَابَ آلِهَتِهِمْ﴾ أرادوا وقت الإماتة، وما يعذبون به من شدة النزاع. والهون:
 الهوان الشديد. وإضافة العذاب إليه، كقولك: رجل سوء. يريد العراقة في
 الهوان، والتمكّن فيه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من أنّ له شريكاً،
 وصاحبة، وولداً. و﴿غير الحق﴾ مفعول ﴿تقولون﴾ أو: وصف لمصدر
 محذوف، أي: قولاً غير الحق ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

٩٤ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب، والجزاء ﴿فُرْدَى﴾ منفردين بلا مال،
 ولا معين. وهو جمع: فريد، كأسير وأسارى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في محل نصب

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٨).

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ ۖ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۖ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ثَوَافِكُوكُمْ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ

صفة لمصدر جتتمونا، أي: مجيئاً مثلما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التي ولدت عليها في الانفراد ﴿وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ﴾ ملكناكم ﴿وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمْ﴾ ولم تحتملوا منه نقيراً ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ في استعبادكم ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ واصلكم عن الزجاج. والبين: الوصل والهجر، قال:

فوالله لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبين ألف
﴿بَيْنَكُمْ﴾ مدني، وعلي، وحفص، أي: وقع التقطع بينكم ﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ﴾ وضاع، وبطل ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفاعواكم عند الله.

٩٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. أي: فلق الحب عن السنبل، والنواة عن النخلة. والفلق: الشق. وعن مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة، والحنطة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحب اليابس ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي. أو: الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. أو: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتجَّ الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه؛ لأنهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. وإنما قال ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ بلفظ اسم الفاعل؛ لأنه معطوفٌ على فالق الحب، لا على الفعل. و﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ موقعه موقع الجملة المبيّنة لقوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾ لأنَّ فَلَاقَ الحبَّ والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنَّ النامي في حكم الحيوان. دليله قوله: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ﴾ ذلکم المحي والميت هو الله؛ الذي تحق له الربوبية، لا الأصنام ﴿فَالِقُ ثَوَافِكُوكُمْ﴾ فكيف تصرفون عنه، وعن توليه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا.

٩٦ - ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو مصدر سُمي به الصبح، أي: شاق عمود الصبح

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ

عن سواد الليل، أو: خالق نور النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾^(١) كوفي؛ لأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي، فلما كان فالتق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى ﴿سَكَنًا﴾ مسكوناً فيه، من قوله: ﴿لَسْتُ كُنْتُ أَفِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. أي: ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة إلى نوم الغفلة، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدل عليه «جاعل الليل» أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: جعلهما علمي حسابان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحُسابان - بالضم - مصدر حسب، كما أن الحُسابان - بالكسر - مصدر حسب ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حساباً، أي: ذلك التيسير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما، وسخرهما ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما، وتدويرهما.

٩٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما للملاستها لهما. أو: شبه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون.

٩٨ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ - بالكسر - مكّي، وبصري. فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله. ومن كسرهما كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول. يعني: فلكم مستقر في الرحم، ومستودع في الصلب، أو: مستقر فوق الأرض، ومستودع تحتها. أو: فمنكم مستقر، ومنكم مستودع ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ

(١) في المخطوط ﴿وجاعل الليل﴾: وهي قراءة سبعية، وهي المناسبة لقوله: ﴿فالتق الإصباح﴾.

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وإنما قيل: يعلمون ثم، ويفقهون هنا؛ لأن الدلالة ثم أظهر، وهنا أدق؛ لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق، فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق.

٩٩ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نبت كل صنف من أصناف النامي، أي: السبب، وهو الماء واحد، والمسببات صنوف مختلفة ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات. ﴿ خَضِرًا ﴾ أي: شيئاً غضاً أخضر يقال: أخضر وخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ وهو السنبل الذي تراكم حبه ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ هو رفع بالابتداء و﴿ مِنَ النَّخْلِ ﴾ خبره. و﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. وهو جمع قنوة، وهو: العذق، نظيره: صنو، وصنوان ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ من المجتني لانحنائها بثقل حملها، أو: لقصر ساقها. وفيه اكتفاء، أي: وغير دانية لطولها كقوله: ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ بالنصب عطفاً على «نبات كل شيء» أي: وأخرجنا به جنات ﴿ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي: مع النخل وكذا: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ وجنات بالرفع: الأعشى، أي: وثم جنات من أعناب، أي: مع النخل ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ يقال: اشتبه الشيطان وتشابها، نحو استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه، والرمان كذلك، يعني: بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في القدر، واللون، والطعم ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضعیفاً، لا ينتفع به ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ ونضجه. أي: انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره، ومدبره، وناقله من حال إلى حال ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ وكذا ما بعده: حمزة،

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ كُفُّ

وعلي، جمع ثمار، فهو جمع الجمع. يقال: ثمرة، وثمر، وثمرار، وثمر.

١٠٠ - ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ إن جعلت ﴿الله شركاء﴾ مفعولي جعلوا، كان ﴿الجن﴾ بدلاً من شركاء. وإلا كان ﴿شركاء الجن﴾ مفعولين قدم ثانيهما على الأول. وفائدة التقديم: استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً، أو جنياً، أو غير ذلك. والمعنى: أنهم أطاعوا الجن فيما سئلت لهم من شركهم، فجعلوهم شركاء لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟! والجملة حال. أو: وخلق الجاعلين لله شركاء، فكيف يعبدون غيره؟! ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ أي: اختلقوا، يقال: خلق الإفك، وخرقه، واختلقه، واخترقه بمعنى؛ أو: هو من خرق الثوب: إذا شقه، أي: اشتقوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كقول بعض العرب في الملائكة. ﴿وَخَرَقُوا﴾ بالتشديد للتكثير: مدني، لقوله: ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب، ولكن رمية بقول عن جهالة. وهو حال من فاعل «خرقوا» أي: جاهلين بما قالوا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

١٠١ - ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقال: بدع الشيء فهو بديع. وهو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، يعني: بديع سمواته وأرضه. أو: هو بمعنى المبدع، أي: مبدعها. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾. أو: هو فاعل ﴿تعالى﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة ولا صاحبة له؟! أي: إن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ما من شيء إلا وهو خالقه وعالمه، ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج.

١٠٢ - ﴿ذَلِكَ كُفُّ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات. وهو

اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ مسبب عن مضمون الجملة، أي: من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه، ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ﴾ أي: هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق، والآجال، رقيب على الأعمال

١٠٣ - ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لا تحيط به. أو أبصار من سبق ذكرهم. وتشبُّث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب، لأنَّ المنفي هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك: هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده. وما يستحيل عليه الحدود والجهاًت يستحيل إدراكه لا رؤيته، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم، ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به، فهكذا هذا. على أن مورد الآية، وهو التمدح، يوجب ثبوت الرؤية، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه؛ لأنَّ كلَّ ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليل ارتفاع نقیصة التناهي والحدود عن الذات، فكانت الآية حجة لنا عليهم، ولو أنعموا النظر فيها لاغتنموا التفصّي^(١) عن عهدها. ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي أنه معلوم موجود، وإلا فكما يعلم موجوداً بلا كيفية وجهة بخلاف كلَّ موجود، لم يجر أن يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كلَّ مرئي؟. وهذا لأنَّ الرؤية تحقق الشيء بالبصر كما هو، فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها، وإن كان لا في الجهة يرى لا فيها ﴿وَهُوَ﴾ للطف إدراكه ﴿يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بدقائق الأمور، ومشكلاتها ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بظواهر الأشياء، وخفياتها. وهو من قبيل اللَّفِّ والنَّشْرِ.

(١) «التفصّي»: التلخيص منها، والبيان عنها.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْغَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

١٠٤ - ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصيرة: نور القلب الذي به يستبصر القلب، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر. أي: جاءكم من الوحي، والتنبيه ما هو للقلوب كالבصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق، وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر، وإياها نفع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنه وضل ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه عمي، وإياها ضرر بالعمى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها. إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم.

١٠٥ - الكاف في: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ في موضع نصب صفة المصدر المحذوف، أي: نصرف الآيات تصرفاً مثل ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ جوابه محذوف، أي: وليقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ نصرفها معنى ﴿درست﴾ قرأت كتب أهل الكتاب. ﴿دارست﴾ مكّي، وأبو عمرو، أي: دارست أهل الكتاب. ﴿دَرَسْتَ﴾ شامي، أي: قدمت هذه الآية، ومضت كما قالوا أساطير الأولين ﴿وَلِيُثَبِّتَهُ﴾ أي: القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً؛ أو: الآيات لأنها في معنى القرآن. قيل: اللام الثانية حقيقة، والأولى لام العاقبة والصورورة، أي: لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست، وهو كقوله: ﴿فَالنَّفْطَةُ مَالٌ فَرَعُونَ لِيَكُونُوا لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة، فكذاك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصرف الآيات، كما حصل التبيين فشبه به، وقيل: ﴿ليقولوا﴾ كما قيل ﴿لِيُثَبِّتَهُ﴾. وعندنا ليس كذلك لما عرف ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل.

١٠٦ - ﴿أَلَيْغَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولا تتبع أهواءهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي، لا محل له من الإعراب، أو: حال من ربك مؤكدة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾
 تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ
 عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
 أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
 جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

١٠٧ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إيمانهم، فالمفعول محذوف. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله، ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك، فشاء شركهم، فأشركوا بمشيئته ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ مراعيًا لأعمالهم، مأخوذاً بإجرامهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بمسلط.

١٠٨ - وكان المسلمون يستنون آلهتهم، فنهوا عنه، لئلا يكون سبهم سباً لسب الله بقوله: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ﴾ منصوب على جواب النهي ﴿عَدَاً﴾ ظلماً، وعدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله، وبما يجب أن يذكر به ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الكفار ﴿عَمَلُهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]. وهو حجة لنا في الأصلح. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم بما عملوا، ويميزهم عليه.

١٠٩ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد: مصدر وقع موقع الحال، أي: جاهدين في الإتيان بأوكد الأيمان ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وهو قادر عليها لا عندي، فكيف آتيكم بها؟! ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَا﴾ أن الآية المقترحة ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها. يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تعلمون ذلك. وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنون مجيئها، فقال الله تعالى: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنكم لا تدرون ما سبق علمي من أنهم لا يؤمنون. ﴿إِنَّهَا﴾ - بالكسر - مكى، وبصري، وأبو بكر، على أن

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

الكلام تمّ قبله، أي: وما يشعركم ما يكون منهم. ثم أخبرهم بعلمه فيهم، فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون ألبتة. ومنهم من جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح، كقوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. ﴿لا تؤمنون﴾ شامي، وحمزة.

١١٠ - ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحق ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها، فلا يؤمنون بها. قيل: هو عطف على ﴿لا يؤمنون﴾ داخل في حكم: ﴿وما يشعركم﴾ أي: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أننا نقلب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون، ولا يبصرون الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول آياتنا أولاً لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل: وما يشعركم أننا نذرهم في طغيانهم يعمّهون يتحيرون؟!

١١١ - ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ كما قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ﴾ كما قالوا: فأتوا بأبائنا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاء بصحة ما بشرنا به، وأنذرنا. جمع: قبيل، وهو: الكفيل. ﴿قُبُلًا﴾ مدني، وشامي، أي: عياناً. وكلاهما نصب على الحال ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم، فيؤمنوا. وهذا جواب لقول المؤمنين: لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة.

١١٢ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداء من المشركين، جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء أعداء، لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثبات، والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ على البدل من: ﴿عَدُوًّا﴾؛ أو: على أنه المفعول الأول، و﴿عَدُوًّا﴾ مفعول ثان

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٥﴾

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ؛ لأنّي إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الإنس يحينني، فيجرني إلى المعاصي عياناً. وقال ﷺ: «قراءة السوء شرّ من شياطين الجن»^(١) ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ ما زينه من القول، والوسوسة، والإغراء على المعاصي ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذاً على غرة، وهو المفعول له ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: الإيحاء، يعني: ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنّه امتحن بما يعلم أنّه أجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله، فإنّ الله يخزيهم، وينصرك، ويمزيهم.

١١٣ - ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفار. وهي معطوفة على ﴿غُرُورًا﴾ أي: ليغترروا ﴿ولتصغى إليه﴾ ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام.

١١٤ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا﴾ أي: قل يا محمد: أغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل الحقّ منا من المبطل ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من الكتاب، أي: مبيناً فيه الفصل بين الحقّ والباطل والشهادة لي بالصدق، وعليكم بالافتراء. ثمّ عَضِدَ الدلالة على أنّ القرآن حقّ بعلم أهل الكتاب أنّه حقّ؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقه له ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ﴾ شاميّ، وحفص ﴿مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه أيها السامع!

(١) انظر الحديث بنحوه في تفسير ابن كثير (٢/٢١١) عن أبي ذر رضي الله عنه.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

أو: فلا تكونن من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق، ولا يربك جحود أكثرهم، وكفرهم به.

١١٥ - ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ما تكلم به. (كلمات ربك) حجازي، وشامي، وأبو عمرو. أي: تم كل ما أخبر به، وأمر، ونهى، ووعد، وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ في وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه. وانتصبا على التمييز، أو: على الحال ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لإقرار من أقر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإصرار من أصر. أو: السميع لما يقولون، العليم بما يضمرون.

١١٦ - ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الكفار لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دبه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آبائهم كانوا على الحق، فهم يقلدونهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في أن الله حرم عليهم كذا، وأحل لهم كذا.

١١٧ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم الكفار والمؤمنين. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام. والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ وموضع الجملة نصب بيعلم المقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعل لا يعمل في الاسم الظاهر النصب، ويعمل الجز. وقيل: تقديره: أعلم بمن يضل؛ بدليل ظهور الباء بعده في ﴿بالمهتدين﴾.

١١٨ - ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ هو مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويجرمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم ترعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم. ف قيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان، فكلوا مما ذكر اسم

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْآلِئِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

الله عليه خاصة، أي: على ذبحه، دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم، أو: مات حتف أنفه.

١١٩ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ ﴿مَا﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء، و﴿لَكُمْ﴾ الخبر. أي: وأي غرض لكم في ألا تأكلوا؟ ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ﴾ بين لكم. ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ النَّيْتَةَ﴾ [المائدة: ٣] فصل وحُرَّم، كوفي غير حفص. ويفتحهما: مدني، وحفص. وبضمهما غيرهم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم، فإنه حلال لكم في حال الضرورة، أي: شدة المجاعة إلى أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ﴾ يضلون: كوفي ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم، من غير تعلق بشريعة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين من الحق إلى الباطل.

١٢٠ - ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْآلِئِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسره، أو: الزنى في الحوانيت، والصديقة في السر، أو: الشرك الجلي والخفي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون في الدنيا.

١٢١ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وإن أكله ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجِدُوا لَكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قتله الله، وتأكلون مما تذبحون بأيديكم! والآية تحرم متروك التسمية. وخصت حالة النسيان بالحديث، أو بجعل الناسي ذاكراً تقديراً ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به، ومن حق المتدين ألا يأكل مما لم يذكر اسم

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

الله عليه؛ لما في الآية من التشديد العظيم. ومن أول الآية بالميتة، وبما ذكر غير اسم الله عليه، لقوله: ﴿أَوْ فُتِّقَ أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال: إن الواو في ﴿وَإِنَّهُ لَفُتِّقَ﴾ للحال، لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن، فيكون التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه فسقاً، والفسق مجمل، فبين بقوله: ﴿أَوْ فُتِّقَ أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه مهلاً لغير الله به، فيكون ما سواه حلالاً بالعمومات المحلّة، منها قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فقد عدل عن ظاهر اللفظ.

١٢٢ - ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كافراً فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. ﴿مَيِّتًا﴾ مدني ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مستضيئاً به. والمراد به: اليقين ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ أي: صفته ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: خابط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ لا يفارقها، ولا يتخلص منها. وهو حال. قيل: المراد بهما: حمزة وأبو جهل. والأصح: أن الآية عامّة لكل من هداه الله، ولكل من أضله الله. فبين أن مثل المهدي مثل الميت الذي أحيي، وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما زين للمؤمن إيمانه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى كقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤] ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالهم.

١٢٣ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليذكروا فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ ليتجبروا على الناس فيها، ويعملوا بالمعاصي. واللام على ظاهرها عند أهل السنة، وليست بلام العاقبة. وخصّ الأكابر - وهم الرؤساء - لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم. دليله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. ثم سلّى رسوله ﷺ، ووعد له النصره ﴿وَمَا

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿ لأن مكرهم يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه يحيق بهم ﴿أَكْبَرُ﴾ مفعول أول، والثاني: ﴿في كل قرية﴾، و﴿بجرميها﴾ بدل من ﴿أكابر﴾. أ: الأول: ﴿بجرميها﴾ والثاني: ﴿أكابر﴾، والتقدير: بجرميها أكابر.

١٢٤ - ولما قال أبو جهل: زاحنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفريسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه. والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه نزل: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أي: الأكابر ﴿آيَةٌ﴾ معجزة، أ: آية من القرآن تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: نعطي من الآيات مثل ما أُعطي الأنبياء. فأعلم الله تعالى: أنه أعلم بمن يصلح للنبوة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ مكّي، وحفص. ﴿رسالاته﴾ غيرها ﴿حيث﴾ مفعول به، والعامل محذوف، والتقدير: يعلم موضع رسالته ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرها ﴿صَغَارٌ﴾ ذل، وهوان ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدارين من القتل، والأسر، وعذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ في الدنيا.

١٢٥ - ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يوسعه، وينور قلبه. قال ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح». قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١) ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ أي: الله ﴿أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيِّقًا﴾ مكّي ﴿حَرَجًا﴾ ﴿حَرَجًا﴾ صفة لضيقاً: مدني، وأبو بكر. بالغاً في الضيق

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٧/٨). وانظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ٣٧). تحقيق: يوسف بدوي.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

﴿حَرَجًا﴾ غيرهما، وصفاً بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كأنه كلف أن يصعد إلى السماء إذا دُعي إلى الإسلام، من: ضيق صدره عنه؛ أو ضاقت عليه الأرض، فطلب مصعداً في السماء. أو: كعازب^(١) الرأي، طائر القلب في الهواء. ﴿يَصَّعَّدُ﴾ مَكِّي ﴿يَصَّاعِدُ﴾ أبو بكر، وأصله: يتصاعد. الباقون ﴿يَصَّعَّدُ﴾، وأصله: يتصعد ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ العذاب في الآخرة، واللعنة في الدنيا ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة المعاصي.

١٢٦ - ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه الذي اقتضته الحكمة، وسنته في شرح صدر من أراد هدايته، وجعله ضيقاً لمن أراد ضلاله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ عادلاً، مطرداً. وهو حال مؤكدة ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

١٢٧ - ﴿لَهُمْ﴾ أي: لقوم يذكرون ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ دار الله، يعني: الجنة. أضافها إلى نفسه تعظيماً لها. أو: دار السلامة من كل آفة وكدر. أو: السلام: التحية. سميت دار السلام لقوله: ﴿وَنَجِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ محبتهم، أو: ناصرهم على أعدائهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأعمالهم. أو: متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون. أو: هو ولينا في الدنيا بتوفيق الأعمال، وفي العقبى بتحقيق الآمال.

١٢٨ - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وبالياء حفص^(٢). أي: واذكر ﴿يَوْمَ

(١) «عازب الرأي»: الذي لا رأي له.

(٢) في الأصل المخطوط: ويوم نحشرهم، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣١٨/٢).

يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ

نحشرهم. أو: ﴿يوم نحشرهم﴾ قلنا: ﴿يامعشر الجن﴾ ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أضللتهم منهم كثيراً، وجعلتموهم أتباعكم، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم، واستمعوا إلى وسوستهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنسان بالشياطين؛ حيث دلّوهم على الشهوات، وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم، وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ يعنون: يوم البعث. وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، وتحسر على حالهم ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ﴾ منزلكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال. والعامل معنى الإضافة، كقوله تعالى: ﴿أَتَدِيرُ هَٰؤُلَاءَ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. فمصباحين حال من هؤلاء، والعامل في الحال معنى الإضافة، إذ معناه: الممازجة والمضامة. والمثوى ليس بعامل؛ لأن المكان لا يعمل في شيء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: يخلّدون في عذاب النار الأبد كله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴿فِيمَا يَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم فيجزى كلًّا على وفق عمله.

١٢٩ - ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نتبع بعضهم بعضاً في النار، أو: نسلط بعضهم على بعض، أو: نجعل بعضهم أولياء بعض ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

١٣٠ - ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ عن الضحاك: بعث إلى الجن رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ لأنهم بهم آنس. وعليه ظاهر النص. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة. وإنما قيل: ﴿رُسُلٌ﴾

يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا
وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ
يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ

منكم ﴿﴾ لأنه لما جمع الثقلين في الخطاب صحَّ ذلك، وإن كان من أحدهما. كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالزَّيْفُ﴾ [الرحمن: ٢٢]. أو: رسلهم رسل نبينا. كقوله: ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ يقرؤون كتبني ﴿وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ بوجوب الحجة علينا، وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ بالرسل.

١٣١ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم. وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل. أي: الأمر ما قصصنا عليك، لانتهاء كوك ربك مهلك القرى بظلم. على أن «أن» مصدرية. ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة. والمعنى: لأنَّ الشأن والحديث ﴿لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ بسبب ظلم أقدموا عليه، أو: ظالماً، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينيهوا برسول وكتاب، لكان ظالماً، وهو متعال عنه.

١٣٢ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَاتٍ﴾ منازل ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من جزاء أعمالهم. وبه استدل أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله - على أن للجن الثواب بالطاعات؛ لأنه ذكر عقيب ذكر الثقلين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بساه عنه. وبالتاء: شامي^(١).

١٣٣ - ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ عن عباده، وعن عبادتهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليف؛ ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الظلمة

(١) أي: تعملون. انظر الإعراب، للنحاس (٥٨١/١).

وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ
 آخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقَوْمِ
 اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ
 آخَرِينَ﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم. وهم أهل
 سفينة نوح عليه السلام.

١٣٤ - ﴿إِنَّ مَا﴾ ما: بمعنى: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث،
 والحساب، والثواب، والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ خبر إن، أي: لكائن. ﴿وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين. ردّ لقولهم: من مات فقد فات.

١٣٥ - المكاينة تكون مصدراً. يقال: مكُن مكانة: إذا تمكّن أبلغ التمكن،
 وبمعنى: المكان يقال: مكان، ومكانة، ومقام، ومقامة وقوله: ﴿قُلْ يَقَوْمِ
 اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكّنكم من أمركم، وأقصى
 استطاعتكم وإمكانكم، واعمَلُوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال
 للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على
 ما أنت عليه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكائتي التي أنا عليها. أي: اثبتوا على كفركم
 وعداوتكم لي، فإنّي ثابتٌ على الإسلام، وعلى مصابرتكم. وهو أمر تهديد
 ووعد، ودليله قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أي: فسوف
 تعلمون أين تكون له العاقبة المحمودة. وهذا طريقٌ لطيفٌ في الإنذار [﴿إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الكافرون] ^(١). ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾ حيث كان: أبو بكر.
 ﴿يَكُونُ﴾ حمزة، وعلي. وموضع ﴿من﴾ رفع إذا كان بمعنى أي، وعلق عنه
 فعل العلم، أو: نصب إذا كان بمعنى الذي.

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرَك من المطبوع.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ
بِرْعِمِهِ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

١٣٦ - ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي:
وللأصنام نصيباً، فاكفى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْعِمِهِ وَهَذَا
لِشُرَكَائِنَا﴾ ﴿بِرْعِمِهِمْ﴾ علي. وكذا ما بعده. أي: زعموا أنه لله، والله لم
يأمرهم بذلك، ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا
يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى
الضيفان، والتصدق على المساكين ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى
شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها، والإجراء على سدنتها. روي أنهم كانوا
يعينون أشياء من حرث وتناج لله، وأشياء منهما لآلهتهم. فإذا رأوا ما جعلوا
لله زاكياً نامياً، رجعوا ففعلوه للأصنام، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه
لها، وقالوا: إن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها. وفي قوله:
﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ إشارة إلى أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذراه.
ثم ذم صنيعهم بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إيثار آلهتهم على الله،
وعملهم على ما لم يشرع لهم. وموضع ﴿مَا﴾ رفع، أي: ساء الحكم حكمهم.
أو: نصب، أي: ساء حكماً حكمهم.

١٣٧ - ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زين
لهم تجزئة المال؛ زين وأد البنات ﴿قَتَلَ﴾ مفعول زين ﴿أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ﴾ هو فاعل زين. ﴿زَيْنَ﴾ بالضم، ﴿قَتَلَ﴾ بالرفع، ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾
بالنصب، ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالجر، شامي: على إضافة القتل إلى الشركاء، أي:
الشياطين، والفصل بينهما بغير الظرف، وهو المفعول. وتقديره: زين لكثير من
المشركين قتل شركائهم أولادهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم، ويشوبوه. ودينهم: ما كانوا عليه من دين

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً

إسماعيل حتى زلوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فيه دليل على أن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يفترونه من الإلفك، أو: وافتراءهم؛ لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم، لا عليك، ولا علينا.

١٣٨ - ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام. «فعل» بمعنى «المفعول» كالذبح، والطحن. ويستوي في الوصف به المذكر، والمؤنث، والواحد، والجمع، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات. وكانوا إذا عتينا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم، قالوا: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء. الزعم: قول بالظن يشوبه الكذب ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي البحائر، والسوائب، والحوامي^(١) ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالة الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعول له، أو: حال. أي: قسموا أنعامهم: قسم حِجْر، وقسم لا يُركب، وقسم لا يذكر اسم الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وعيد.

١٣٩ - ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور، لا يأكل منه الإناث، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وأنت ﴿خالصة﴾ وهو خبر ﴿ما﴾؛ للحمل على المعنى؛ لأن ﴿ما﴾ في معنى الأجنة. وذكر ﴿ومحرم﴾ حملاً على اللفظ. أو: التاء للمبالغة كنسابة ﴿وإن يكن مَيْتَةً﴾ أي: ﴿وإن يكن﴾ ما في بطونها ﴿مَيْتَةً﴾. ﴿وإن تكن مَيْتَةً﴾. أبو بكر،

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٠٣) من سورة المائدة.

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءٌ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ

أي: إن تكن الأجنة ميتة ﴿وإن تكن ميتة﴾ شامي، على كان التامة. ﴿يكن ميتة﴾ مكّي؛ لتقدم الفعل. وتذكير الضمير في: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ لأنّ الميتة اسم لكل ميت ذكر أو أنثى. فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم والتحریم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ باعقادهم.

١٤٠ - ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ كانوا يندون بناتهم مخافة السبي والفقر. ﴿قتلوا﴾ مكّي، وشامي. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لحقة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر، والسوائب، وغيرها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ مفعول له. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصواب.

١٤١ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ خلق. ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات، مرفوعات ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش. يقال: عرّشت الكرم: إذا جعلت له دعائم وسمكاً، تعطف عليه القضبان ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ في اللون، والطعم، والحجم، والرائحة. وهو حال مقدرة؛ لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿أَكْلُهُ﴾ حجازي. وهو: ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل. والزروع داخل في حكمه؛ لأنه معطوف عليه، أو: لكل واحد ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد. وفائدة: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، ولا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك ﴿وَمَا آتَوْا حَقَّهُ﴾ عشره. وهو حجة أبي حنيفة - رحمه الله - في تعميم

يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَزْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

العشر ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ﴿حَصَادِهِ﴾ بصري، وشامي، وعاصم. وبكسر الحاء: غيرهم، وهما لغتان ﴿وَلَا تُشْرَفُوا﴾ بإعطاء الكل، وتضييع العيال، وقوله ﴿كُلُوا﴾ إلى ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ اعتراض.

١٤٢ - ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾ عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش للذبح. أو: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، والفرش: الصغار كالفصلان، والعجاجيل، والغنم؛ لأنها دانية من الأرض، مثل الفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما أحل الله لكم منها، ولا تحرموها كما في الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرده في التحريم والتحليل، كفعل أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فاتهموه على دينكم.

١٤٣ - ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشاً﴾ ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين، يريد: الذكر والأنثى. والواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه سُمِّيَ كل واحد منهما زوجاً، وهما زوجان؛ بدليل قوله: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥] ويدل عليه قوله: ﴿ثمانية أزواج﴾. ثم فسرها بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿ومِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾. والضأن، والمعز جمع: ضائن وماعز، كتاجر وتجر. وفتح عين المعز: مكّي، وشامي، وأبو عمرو. وهما لغتان. والهمزة في: ﴿قُلْ أَلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَزْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار. والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن، والذكر من المعز، وبالأُنثيين: الأنثى من الضأن، والأنثى من المعز. والمعنى: إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا تما تحمل الإناث. وذلك: أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها طوراً، وأولادها كيفما كانت ذكوراً، أو إناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله. فأنكر

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْإِنْسِيَّيْنَ أَمْ أَسْخَمَلْتُ عَلَيْهِمْ أَرْحَامُ الْإِنْسِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ
النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ
مُحَرَّمًا عَلَى طَائِعٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً

ذلك عليهم. وانتصب ﴿الذكرين﴾ بحرّم، وكذا ﴿أم الأنثيين﴾ أي: أم حرّم
الأنثيين، وكذا ما في ﴿أما اسخملت﴾ ﴿نبيوني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من
جهة الله يدلّ على تحريم ما حرّمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله حرّمه.

١٤٤ - ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ﴾ ﴿الذكرين﴾ ﴿منهما﴾ ﴿حرّم أَمِ
الْإِنْسِيَّيْنَ﴾ ﴿منهما﴾ ﴿أَمْ أَسْخَمَلْتُ عَلَيْهِمْ أَرْحَامُ الْإِنْسِيَّيْنَ﴾ أم ما تحمل إناثها. ﴿أَمْ
كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أم منقطعة، أي: بل أكنتم شهداء ﴿إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ
بِهَذَا﴾ يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم. ولما كانوا
لا يؤمنون برسول الله، وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرّمه، تهكّم بهم في
قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ على معنى: أعرقتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم
لا تؤمنون بالرسول ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم
يحزّم ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين في
علمه أنهم يختمون على الكفر. ووقع الفاصل بين بعض المعداد وبعضه اعتراضاً
غير أجنبي من المعداد. وذلك أن الله تعالى منّ على عباده بإنشاء الأنعام
لمنافعهم، وبإباحتها لهم. فلا اعتراض بالاحتجاج على من حرّمها يكون تأكيداً
للتحليل. والاعتراضات في الكلام لا تُساق إلا للتوكيد.

١٤٥ - ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في ذلك الوقت، أو: في وحي
القرآن؛ لأن وحي السنة قد حرّم غيره، أو: من الأنعام لأن الآية في ردّ البحيرة
وأخواتها. وأما الموقودة، والمتردية، والنطيحة فمن الميتة. وفيه تنبيه على أن
التحريم إنما يثبت بوحي الله وشرعه، لا بهوى النفس ﴿مُحَرَّمًا﴾ حيواناً حرّم
أكله ﴿عَلَى طَائِعٍ يَطْعُمُهُ﴾ على أكل يأكله ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلا أن يكون
الشيء المحرّم ميتة. ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ مكّي، وشامي، وحمزة ﴿مَيْتَةً﴾ شامي ﴿أَوْ دَمًا

أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمِنَ
 أَضْطَرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
 كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ
 ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴿١٤٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ

مَسْفُوحًا ﴿ مصبوحاً سائلاً. فلا يحرم الدم الذي في اللحم، والكبد، والطحال
 ﴿ أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴿ نجس ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴿ عطف على المنصوب قبله.
 وقوله: ﴿ فإنه رجس ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ ﴾ منصوب المحل صفة لـ «فسقاً»، أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير
 الله. وسُمِّيَ بالفسق لتوغّله في باب الفسق ﴿ فَمِنَ أَضْطَرَّ ﴾ فمن دعت الضرورة
 إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿ غَيْرِ بَاغٍ ﴾ على مضطرّ مثله، تارك لمواساته
 ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذ.

١٤٦ - ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ أي: ماله أصبع من
 دابة، أو طائر. ويدخل فيه الإبل، والنعام ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
 شُحُومَهُمَا ﴾ أي: حرّمنا عليهم لحم كلّ ذي ظفر وشحمه، وكلّ شيء منه، ولم
 يحرم من البقر والغنم إلا الشحوم، وهي الثُّرُوب، وشحوم الكلى ﴿ إِلَّا مَا
 حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السَّحْفَةِ^(١) ﴿ أَوْ
 الْحَوَايَا ﴾ أو: ما اشتمل على الأمعاء، واحدها: حاوية، أو: حوية ﴿ أَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وهو الألية، أو: المخ ﴿ ذَلِكَ ﴾ مفعول ثانٍ لقوله: ﴿ جَزَيْنَاهُمْ
 وَالتقدير: جزيناهم ذلك ﴿ بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرنا
 به. وكيف نشكر من سبب معصيتهم لتحريم الحلال، ومعصية سالفنا لتحليل
 الحرام حيث قال: ﴿ وَعَقَانَاكُمْ فَأَلْقَنَ بَشَرُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٤٧ - ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ فيما أوحيت إليك من هذا ﴿ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
 وَاسِعَةٍ ﴾ بها يمهّل المكذّبين، ولا يُعاجلهم بالعقوبة ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ عذابه مع

(١) «السحفة»: سَحَفَ الجِلْدُ: كَشَطَ عنه الشعر.

عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا
 آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا
 قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
 تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ

سعة رحمته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، فلا تغترّ بسعة رحمته عن خوف
 نقمته.

١٤٨ - ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار بما سوف يقولونه ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ألا
 نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ ولكن شاء، فهذا عذرنا،
 يعنون: أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحلّ الله لهم بمشيئته، ولولا
 مشيئته لم يكن شيء من ذلك ﴿كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كتكذيبهم
 إياك كان تكذيب المتقدمين وتشبثوا بمثل هذا، فلم ينفعهم ذلك إذ لم
 يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاء، ولأنهم جعلوا مشيئته حجة لهم على
 أنهم معذورون به. وهذا مردود، لا الإقرار بالمشيئة. أو: معنى المشيئة هنا:
 الرضا، كما قال الحسن، أي: رضي الله منا ومن آبائنا الشرك، والشرك مراد،
 لكنّه غير مرضي. ألا ترى أنّه قال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أخبر أنّه لو شاء
 منهم الهدى لأمن كلّهم، ولكن لم يشأ من الكلّ الإيمان، بل شاء من البعض
 الإيمان ومن البعض الكفر، فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعاً للتناقض
 ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾ حتّى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ من
 أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهروه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون.

١٤٩ - ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه، ولا حجة لكم على
 الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: فلو شاء هدايتكم. وبه تبطل صولة
 المعتزلة.

١٥٠ - ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ﴾ هاتوا شهداءكم وقربوهم. ويستوي في هذه
 الكلمة الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنث

الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰكُمْ أَلا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وتجمع ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: ما زعموه محرماً ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به، ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم،
فكانه شهد معهم مثل شهادتهم، فكان واحداً منهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة، للدلالة على أن من كذب
بآيات الله فهو متبع للهوى، إذ لو تبع الدليل لم يكن إلا مصداقاً بالآيات موحداً
لله ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم المشركون ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون
الأصنام.

١٥١ - ﴿قُلْ﴾ للذين حرّموا الحرث، والأنعام ﴿تَعَالَوْا﴾ هو من الخاص
الذي صار عاماً. وأصله: أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه،
ثم كثر حتى عم ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ الذي حرّمه ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من
صلة ﴿حَرَّمَ﴾ ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أن مفسرة لفعل التلاوة، ولا: للنهي
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً. ولما كان إيجاب الإحسان
تحريماً لترك الإحسان ذكر في المحرمات، وكذا حكم ما بعده من الأوامر ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ﴾ من أجل فقر، ومن خشيته، كقوله: ﴿خَشِيَةَ
إِمْلَاقِي﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما بينك وبين الخلق. بدل من الفواحش
﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما بينك وبين الله ﴿ما ظهر﴾ بدل من ﴿الفواحش﴾ ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص، والقتل على الردة والرجم
﴿ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُكُمْ بِهِ﴾ أي: المذكور مفضلاً أمركم ربكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
لتعقلوا عظمها عند الله.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ
بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

١٥٢ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن، وهي حفظه، وتشميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أشدّه: مبلغ حلمه، فادفعوه إليه. وواحد: شدّ كفلس وأفلس ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ﴾ بالسوية، والعدل ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها، ولا تعجز عنه، وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان مما فيه حرج. فأمر ببلوغ الوسع، وأن ما وراءه معفو عنه ﴿وَلِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ فاصدقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له، أو عليه في شهادة، أو غيرها من أهل قرابة القاتل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يوم الميثاق، أو: في الأمر والنهي [والوعد والوعيد] ^(١) والنذر واليمين ﴿أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرّ ﴿وَصْنُكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حيث كان: حمزة، وعليّ، وحفص، على حذف إحدى التاءين. غيرهم بالتشديد، أصله: تذكرون، فأدغم التاء الثانية في الدال. أي: أمركم به لتعظوا.

١٥٣ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ ولأنّ هذا صراطي، فهو علة للاتباع بتقدير اللام. ﴿وَأَنَّ﴾ بالتخفيف: شامي، وأصله: وأنه، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث ﴿وَأَنَّ﴾ على الابتداء: حمزة، وعليّ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فتفرقكم أيادي سبأ عن صراط الله المستقيم، وهو: دين الإسلام. روي أنّ رسول الله ﷺ خطّ خطاً مستويّاً، ثم قال: «هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه» ثم خطّ على كلّ

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابُنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

جانب ستة خطوط مماله، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه فاجتنبوها» وتلا هذه الآية^(١) «ثم يصير كل واحد من الاثني عشر طريقاً ستة طرق، فتكون اثنان وسبعين». وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب. وعن كعب: إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى. ذكر أولاً تعقلون، ثم تذكرون، ثم تتقون؛ لأنهم إذا عقلوا تفكروا، ثم تذكروا، أي: اتعظوا فاتقوا المحارم.

١٥٤ - ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ أي: ثم أخبركم أنا آتينا. أو: هو عطف على قل، أي: ثم قل آتينا. أو: ثم مع الجملة تأتي بمعنى الواو، كقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦] ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على من كان محسناً صالحاً يريد جنس المحسنين، دليله قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) أو: أراد به موسى عليه السلام، أي: تنمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كل ما أمر به ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون^(٢).

١٥٥ - ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابُنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا.

(١) رواه أحمد (٤٣٥/١ و٤٦٥) والدارمي (٦٧/١ - ٦٨) والحاكم (٣١٨/٢) وابن حبان (٧). بألفاظ متقاربة، ولكن ليس بينها التحديد برقم ستة. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٢٤٢).

(٢) أي: بالبعث والحساب، وبالرؤية.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

١٥٦ - ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: أهل التوراة وأهل الإنجيل. وهذا دليل على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لا علم لنا بشيء من ذلك. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن. والخطاب لأهل مكة. والمراد: إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ كيلا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا، وكنا غافلين عما فيهما.

١٥٧ - ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيام العرب ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع، والبرهان القاطع. فحذف الشرط، وهو من أحسن الحذوف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحتها، وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو: النهاية في النكاية ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم.

١٥٨ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أقمنا حجج الوحداية وثبوت الرسالة، وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدها ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ حمزة، وعلي^(١) ﴿أَوْ

أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

يَأْتِي رَبُّكَ ﴿١﴾ أي: أمر ربك، وهو: العذاب، أو القيامة. وهذا لأن الإتيان متشابه، وإتيان أمره منصوص عليه، محكم، فيرد إليه ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي: أشراف الساعة، كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ لأنه ليس بإيمان اختياري، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ صفة «نفساً» ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إخلاصاً. كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إخلاص المنافق أيضاً، أو توبته. وتقديره: لا ينفع إيمان من لم يؤمن، ولا توبة من لم يتب قبل ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ بكم إحداها.

١٥٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه، وصاروا فرقاً، كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة. وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة، وهي السواد الأعظم» وفي رواية: «وهي ما أنا عليه وأصحابي»^(١). وقيل: فرقوا دينهم، فأمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ﴿فَارْقُوا دِينَهُمْ﴾ حزة، وعلي أي: تركوا ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ فرقاً، كل تشيع إماماً لها ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم، وعن تفرقهم، أو: من عقابهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم على ذلك.

١٦٠ - ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديره: عشر حسنات أمثالها، إلا

(١) رواه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) وابن حبان (٦٢٤٧).

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَىٰ

أنه أقيم صفة الجنس المميزة مقام الموصوف ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب، وزيادة العقاب.

١٦١ - ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ﴾ «رَبِّي»: أبو عمرو، ومدني ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ نصب على البدل من محل ﴿إِلَى صراط مستقيم﴾ لأن معناه: هداي صراطاً، بدليل قوله: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠] ﴿قِيَمًا﴾ فيعلم، من: قام، كسيد من ساد، وهو أبلغ من القائم. ﴿قِيَمًا﴾ كوفي، وشامي، وهو مصدر بمعنى القيام وصف به ﴿مِثْلَ آبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، يا معشر قريش.

١٦٢ - ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي. والناسك: العابد. أو: ذبحي، أو: حجّي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أتيت في حياتي، وأموت عليه من الإيمان، والعمل لصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصة لوجهه ﴿محياي ومماتي﴾ بسكون الياء الأول وفتح الثاني: مدني. وبعكسه غيره.

١٦٣ - ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك ﴿وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

١٦٤ - ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي: منكر أن أطلب رباً غيره. وتقديم المفعول للإشعار بأنه أهم ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكل من دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبية غيره ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطْيَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تؤخذ نفس أئمة

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ
الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

بذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ من الأديان
التي فرقتموها.

١٦٥ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ لأنَّ محمداً ﷺ خاتم النبيين فأتمته
قد خلفت سائر الأمم، أو: لأن بعضهم يخلف بعضاً، أو: هم خلفاء الله في
أرضه يملكونها، ويتصرفون فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشرف، والرزق،
وغير ذلك ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أو: التقدير: إلى درجات، أو: هي واقعة
موقع المصدر، كأنه قيل: رفعة بعد رفعة ﴿لِّيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ آتَاكُمْ﴾ فيما أعطاكم
من نعمة الجاه والمال، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف
بالوضع، والغني بالفقر، والمالك بالملوك؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر
نعمته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة؛ لأنَّ ما هو
آتٍ قريب ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] عن
النبي ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام حين يصبح، وكلَّ الله تعالى به
سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة»^(١).

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٠٠) وانظر الدر المنثور (٢٤٦/٣) وفتح
القدر (١١٩/٢).

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ﴿١﴾ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ. وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

١ - ﴿الْمَصَّ﴾ قال الزجاج: المختار في تفسيره ما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنا الله أعلم، وأفضل.

٢ - ﴿كَتَبَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ صفته. والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك فيه. وسُمِّي الشك: حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر، منفسحه. أي: لا تشك في أنه منزل من الله. أو: ﴿حرج منه﴾ بتبليغه؛ لأنه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى، ولا ينشط له، فأمنه الله، ونهاه عن المبالاة بهم. والنهي متوجه إلى الحرج. وفيه من البلاغة ما فيه. والفاء للعطف، أي: هذا الكتاب أنزلته إليك، فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك. واللام في: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ﴾ متعلق بأنزل. أي: أنزل إليك لإنذارك به. أو: بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم. وكذا إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار به؛ لأن صاحب اليقين جسور، متوكل على ربه ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب بإضمار فعلها، أي: لتنذر به، وتذكر تذكيراً. فالذكرى: اسم بمعنى التذكير، أو: الرفع بالعطف على كتاب، أي: هو كتاب، وذكرى للمؤمنين. أو: بأنه خبر مبتدأ

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

محذوف، أو: الجر بالعطف على محل لتنذر، أي: للإنذار وللذكرى.

٣ - ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن، والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره. و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بتذكرون، أي: تذكرون تذكراً قليلاً. و﴿مَا﴾ مزيدة لتوكيد القلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ شامي.

٤ - ﴿وَكَمْ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تبين. والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: أردنا إهلاكها، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَجَاءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين، يقال: بات بيئاتاً حسناً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على بياناً، كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين، أو: قائلين. وإنما قيل (هم قائلون) بلا واو، ولا يقال: جاءني زيد هو فارس بغير واو؛ لأنه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استحقاقاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. وخصّ هذان الوقتان؛ لأنهما وقتا الغفلة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد، وأفظع. وقوم لوط - عليه السلام - أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب - عليه السلام - وقت القيلولة. وقيل: بيئاتاً: ليلاً، أي: ليلاً وهم نائمون، أو: نهراً وهم قائلون.

٥ - ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ﴾ دعاؤهم، وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ لما جاءهم أوائل العذاب: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك. و﴿دعواهم﴾ اسم كان و﴿أَن قَالُوا﴾ الخبر، ويجوز العكس.

٦ - ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ «أرسل» مسند إلى ﴿إِلَيْهِمْ﴾، أي:

وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ

فلنسألن المرسل إليهم، وهم الأمم، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

٧ - ﴿فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالين بأحوالهم الظاهرة، والباطنة، وأقوالهم، وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعما وجد منهم. ومعنى السؤال: التوبيخ، والتفريع، والتقرير، إذا فاهوا بالسنتهم، وشهد عليهم أنبياءهم.

٨ - ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها وخفيفها. وهو مبتدأ، وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، فحذفت الجملة، وعوض عنها التنوين ﴿الْحَقُّ﴾ أي: العدل. صفته. ثم قيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان؛ إظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة. وقيل: هو عبارة عن القضاء السوي، والحكم العادل، والله أعلم بكيفيته. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان، أو: موزون. أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات. أو: ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٩ - ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ هم الكفار، فإنه لا إيمان لهم ليعتبر معه عمل، فلا يكون في ميزانهم خير، فتخفت موازينهم ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يمحذون. فالآيات: الحجج. والظلم بها: وضعها في غير موضعها، أي: جحودها، وترك الانقياد لها.

١٠ - ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو: مكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. والوجه: تصريح الياء؛ لأنها أصلية، بخلاف صحائف، فالياء فيها زائدة. وعن نافع: أنه همز، تشبيهاً

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾

بصحائف ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

١١ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أبابكم آدم - عليه السلام - طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك. دليله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم - عليه السلام -.

١٢ - ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ﴾ ﴿مَا﴾ رفع، أي: أي شيء منعك من السجود؟! و﴿لَا﴾ زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]. ومثلها ﴿لَيْسَ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليل على أَنَّ الأمر للوجوب. والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم - عليه السلام - ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ﴾ وهي: جوهر نوراني ﴿وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو ظلماني. وقد أخطأ الخبيث. بل الطين أفضل لرزاقته، ووقاره، ومنه: الحلم، والحياء، والصبر، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار. وفي النار: الطيش، والحدة، والترفع، وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدة الممالك، والنار عدة المهالك. والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب مظنة الأمانة والإنماء. والطين يُطْفِئُ النَّارَ ويتلفها، والنار لا تتلفه. وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى زلَّ بفاسدٍ من المقاييس. وقول نافي القياس: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إبليس، قياس، على أَنَّ القياس عند مثبتة مردودٌ عند وجود النص. وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لـ «ما منعك» أن يقول: منعي كذا. وإنما قال: أنا خير منه؛ لأنه قد استأنف قصة، وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم - عليه السلام - وبعلة فضله عليه، فعلم منها الجواب - كأنه قال: منعي من السجود فضلي عليه - وزيادة عليه، وهي إنكار الأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله؛ إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْقِدَنَّ لَهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

١٣ - ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السماء؛ لأنه كان فيها، وهي مكان المطيعين والمتواضعين. والفاء في ﴿فاهبط﴾ جواب لقوله: ﴿أنا خير منه﴾، أي: إن كنت تتكبر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من أهل الصغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه، يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان لتكبرك. وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار.

١٤ - ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم البعث، وهو: وقت النفخة الأخيرة.

١٥ - ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى. وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء. وفيه تقريب لقلوب الأحباب، أي: هذا برّي بمن يسبني، فكيف بمن يحبني؟! وإنما جسّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال، علمه بحلم ذي الجلال.

١٦ - ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ أضللتني، أي: فبسبب إغوائك إيتاي. والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف، تقديره: فبسبب إغوائك أقسم. أو: تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك ﴿لَأَفْقِدَنَّ لَهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعرضن لهم على طريق الإسلام مترصداً للرد، متعرضاً للصد، كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة. وانتصابه على الظرف؛ كقولك: ضرب زيد الظهر، أي: على الظهر. وعن طاووس: أنه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل قدرني، فقال طاووس: تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقل له: أنقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال: رب بما أغويتني، وهو يقول: أنا أغوي نفسي.

١٧ - ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشكّهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في الدنيا. ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات، وهو

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَكَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

جمع: شمال. يعني ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الأغلب. وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد، من بين يدي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢] ومن خلفي، فيخوفني الضيعة على مخلفي، فأقرأ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وعن يميني، فيأتيني من قبل الشئاء فأقرأ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨] وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة. وقال في الأولين: ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية. وفي الآخرين: ﴿عن﴾ لأن عن تدل على الانحراف ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مؤمنين. قاله ظناً فأصاب، لقوله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]؛ أو سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم.

١٨ - ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السماء ﴿مَذْمُومًا﴾ معيباً، من: ذامه إذا ذمه. والذام والذم: العيب ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً، مبعداً من رحمة الله. واللام في: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطنه للقسم. وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وهو ساد مسد جواب الشرط ﴿مِنْكُمْ﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

١٩ - ﴿وَيَتَكَادَمُ﴾ وقلنا: ﴿يَا آدَمُ﴾ بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ اتخذها مسكناً ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٠ - ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وسوس: إذا تكلم كلاماً خفياً، يكرره وهو غير متئد. ورجل موسوس بكسر الواو. ولا يقال: موسوس بالفتح، ولكن موسوس له وموسوس إليه. وهو: الذي يلقي إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله. وسوس إليه: ألحها إليه ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

سَوَّاهُمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ
الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنْ لَكُمْ لِيْنِ النَّصِيحَتِ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا

سَوَّاهُمَا ﴿٢٠﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور، وأنه لم يزل مُستقبِحاً في الطباع والعقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة، كما في: «أويصل» تصغير واصل، وأصله: وويصل، فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟ قلت: لأن الثانية مدة، كالف واري، فكما لم يجب همزها في: واعد، لم يجب في: ووري، وهذا لأن الواوين إذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة، وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا إبدالها في موضع الثقل لا في غيره. وقرأ عبد الله (أوري) بالقلب^(١) ﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر، وتستغنيان عن الغذاء. وقرئ ﴿مَلِكَيْنِ﴾ لقوله: ﴿وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون، ويبقون في الجنة ساكنين.

٢١ - ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وأقسم لهما ﴿إِنْ لَكُمْ لِيْنِ النَّصِيحَتِ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه لما كان منه القسم، ومنهما التصديق، فكأنها من اثنين.

٢٢ - ﴿فَذَلَّلَهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وإنما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: من خدعنا بالله انخدعنا له^(٢) ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها. وهي: السنبلة، أو: الكرم. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عورتها لتهافت اللباس عنهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار، أي: كالظفر بياضاً في غاية اللطف

(١) لم تثبت هذه القراءة عند النحاس.

(٢) حلية الأولياء (١/٢٩٥).

وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

واللين، فبقي عند الأظفار تذكيراً للنعم، وتجديداً للندم ﴿وَطُفِقَا﴾ وجعلا. يقال: طفق يفعل كذا، أي: جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز، ورقة فوق ورقة ليستترا بها، كما تخصف النعل ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله، وتنبيه على الخطأ. وروي أنه قال لآدم - عليه السلام -: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى، ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزتي! لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا بكذب يمين، وعرق جبين، فأهبط، وعُلِّمَ صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث، وسقى، وحصد، وداس، وذرى، وطحن^(١)، وعجن، وخبز ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

٢٣ - ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه دليل لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائر عندهم مغفورة.

٢٤ - ﴿قَالَ أَهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع؛ لأن إبليس هبط من قبل، ويحتمل: أنه هبط إلى السماء، ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال، أي: متعادين، يعاديهما إبليس، ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، أو: موضع استقرار ﴿وَمَتْنَعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم - عليه السلام - وحضرته الوفاة، وأحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربّي، فإنما أصابني ما أصابني^(٢) فيك، فلما توفي غسلته الملائكة

(١) مستدرك من المطبوع.

(٢) ما أصابه من وسوسة الشيطان أصابها، ولا وجه لوضع اللوم عليها، وهذه فكرة ظالمة ذهب إليها أهل الكتاب، ولا دليل عليها من الكتاب العزيز أو السنة النبوية.

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا

بماء وسدر وتراً، وحنطته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سُنَّتكم بعده.

٢٥ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للشواب والعقاب ﴿تُخْرَجُونَ﴾ حمزة، وعليّ.

٢٦ - ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأن أصله من الماء، وهو منها ﴿يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ﴾ يستر عوراتكم. ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سواتكم، ولباساً يزينكم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ ولباس الورع الذي بقي العقاب، وهو مبتدأ، وخبره: الجملة وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. أو: ﴿ذَٰلِكَ﴾ صفة للمبتدأ و﴿خير﴾ خبر المبتدأ، كأنه قيل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ المشار إليه خير. أو: ﴿لباس التقوى﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس التقوى، أي: ستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ذلك خير. وقيل: ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ مدني، وشامي، وعليّ، عطفاً على لباساً وريشاً أي: وأنزلنا عليكم لباسَ التقوى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات، وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري من الفضيحة، وإشعاراً بأن التستر من التقوى.

٢٧ - ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ لا يخذعكم، ولا يضلنكم بالألا تدخلوا الجنة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزاعهما. والنهي في الظاهر للشيطان. وفي المعنى لبني آدم، أي: لا تتبعوا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَةٍ إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الشیطان فیفتنکم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَةٍ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُ﴾ الضمیر للشأن والحديث ﴿يَرِنُّكُمْ هُوَ﴾ تعلیل للنهی، وتحذیر من فتنته بأنّه بمنزلة العدو المداجي^(١)، یکیدکم من حیث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ وذریته، أو وجنوده من الشیاطین. وهو عطف علی الضمیر فی: «یراکم» المؤکد بهو، ولم یعطف علیه؛ لأنّ معمول الفعل هو المستکنّ دون هذا البارز، وإنّما یعطف علی ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن کان هو یراک من حیث لا تراه، فاستعن بمن یراه من حیث لا یراه، وهو الله الکریم، الستار، الرحیم، الغفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

٢٨ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً﴾ ما یبالغ فی قبحه من الذنوب، وهو: طوافهم بالبيت عراة وشركهم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها: فاقندوا بهم، وبأنّ الله أمرهم بأن يفعلوها؛ حیث أقرنا عليها؛ إذ لو کرهها لنقلنا عنها. وهما باطلان؛ لأنّ أحدهما تقلید للجهال، والثاني افتراء علی ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إذ المأمور به لا بدّ أن یكون حسناً، وإن کان فيه علی مراتب، علی ما عرف فی أصول الفقه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنکار، وتوبيخ.

٢٩ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وبما هو حسن عند كلّ عاقل، فكيف یأمر بالفحشاء؟! ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿و﴾ قل ﴿أَقِيمُوا وجوهکم﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقیمین إليها، غیر عادلین إلى غیرها فی کل وقت سجود، أو: فی کل مکان سجود ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾

(١) «المداجي»: المداجاة: المداراة. يقال: داجيته؛ إذا داريته، كأنك ساترتة العداوة.

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهِتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا
زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الَّذِينَ ﴿٢٩﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم
ابتداء يعيدكم. احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق. والمعنى: أنه
يعيدكم فيجازيكم عن أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠ - ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي: أضل ﴿فَرِيقًا﴾ ﴿حَقَّ
عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الفريق الذين حق عليهم الضلالة
﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهِتَدُونَ﴾.
والآية حجة لنا على الاعتزال في الهداية والإضلال.

٣١ - ﴿يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ لباس زينتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلما
صلّيتم. وقيل: الزينة: المشط، والطيب. والسنة: أن يأخذ الرجل أحسن
هيئاته للصلاة؛ لأن الصلاة مناجاة الرب، فيستحب التزين، والتعطر، كما
يجب التستر، والتطهر ﴿وَكُلُوا﴾ من اللحم، والدسم ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾
بالشروع في الحرام، أو: في مجاوزة الشبع ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وعن ابن
عباس - رضي الله عنهما -: كُلُّ مَاشَتْ، واشرب مَاشَتْ، والبس مَاشَتْ،
ما أخطأتك خصلتان: سَرْفٌ، وَمَخِيلَةٌ. وكان للرشيد طيب نصراني حاذق،
فقال لعلني بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم
علمان علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في
نصف آية من كتابه، وهو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فقال
النصراني: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب. فقال: قد جمع رسولنا الطب في
ألفاظ يسيرة، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية
رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته»^(١). فقال النصراني: ماترك كتابكم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشف ٢/ ١٠٠). قال في المقاصد (ص ٣٨٩):

لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. =

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

ولا نبيكم لجالينوس طباً.

٣٢ - ثم استفهم إنكاراً على محرم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب، وكل ما يتجمل به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: أصلها، يعني: القطن من الأرض، والقر من الدود ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المأكّل والمشارب. وقيل: كانوا إذا أحرّموا حرّموا الشاة، وما يخرج من لحمها، وشحمها، ولبنها ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأنّ المشركين شركاءهم فيها ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد، ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم، لينبّه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، والكفار تبع لهم. ﴿خالصة﴾ بالرفع: نافع، فهي مبتدأ، خبره ﴿للذين آمنوا﴾. و﴿في الحياة الدنيا﴾ ظرف للخبر. أو: ﴿خالصة﴾ خبر ثان، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي خالصة. وغيره نصبها على الحال من الضمير، الذي في الظرف، الذي هو الخبر، أي: هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ نميّز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا شريك له.

٣٣ - ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ حمزة. ﴿الفواحش﴾: ماتفاحش قبحه، أي: تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرّها وعلايتها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: شرب الخمر، أو: كلّ ذنب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والظلم، والكبر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلّق بالبغي. ومحل ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ - حجة - النصب، كأنه قال: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصري. وفيه تهكم، إذ

وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ ءَادَمُ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِءَايَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَذِبِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا

لا يجوز أن ينزل. برهاناً على أن يشرك به غيره ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ وأن تقولوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم، وغيره.

٣٤ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا. وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله، كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيد بساعة، لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال.

٣٥ - ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمُ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي: إن الشرطية، ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط، لأن «ما» للشرط، ولذا ألزمت فعلها النون الثقيلة، أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ يقرؤون عليكم كتيبي. وهو في موضع رفع صفة لرسول. وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلاً^(١) ﴿فلا خوف﴾ يعقوب.

٣٦ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا﴾ منكم ﴿بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تعظموا عن الإيمان بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٧ - ﴿فَمَن أَظْلَمُ﴾ ممن أشنع ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِءَايَاتِهِ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو: كذب ما قاله ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَذِبِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت، وأعوانه. و«حتى» غاية لئيلهم نصيبهم، واستيفائهم له، وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي: ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾

(١) في المطبوع: (فلا خوف) يعقوب. وانظر إتحاف الفضلاء (ص ١٣٤).

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ
 وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ
 أُخْرِجْنِي لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ
 وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنَهُمْ لِأُخْرِيهِمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، وهو حال من الرسل، أي: متوفيهم. و«ما»
 في: ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ في خطِّ المصحف موصولة بأين، وحقها أن
 تكتب مفصولة، لأنها موصولة. والمعنى: أين الآلهة الذين تعبدون؟! ﴿مِنْ
 دُونِ اللَّهِ﴾ ليدبوا عنكم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا، فلا نراهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة، التي هي لتحقيق الخبر.

٣٨ - ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار:
 ﴿ادخلوا﴾ ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أُمم مصاحبين لهم
 ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ من كفار الجن والإنس ﴿فِي
 النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ شكلها في الدين،
 أي: التي ضلّت بالاعتداء بها ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا﴾ أصله: تداركوا، أي:
 تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالاً، وسكنت للإدغام، ثم أدخلت
 همزة الوصل ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَالَتْ أُخْرِجْنِي﴾ منزلة، وهي الأتباع، والسفلة
 ﴿لِأُولِنَهُمْ﴾ منزلة، وهي: القادة، والرؤوس. ومعنى: ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ لأجل
 أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا
 ضِعْفًا﴾ مضاعفاً ﴿مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغواية، والإغواء، وللأتباع
 بالكفر، والاعتداء ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. ﴿لَا
 يَعْلَمُونَ﴾: أبو بكر، أي: لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

٣٩ - ﴿وَقَالَتْ أُولُنَهُمْ لِأُخْرِيهِمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام
 على قول الله تعالى للسفلة: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: فقد ثبت أن
 لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٤٣﴾ بكسبكم، وكفركم. وهو من قول القادة للسفلة، ولا وقف على ﴿فضل﴾. أو: من قول الله لهم جميعاً، والوقف على ﴿فضل﴾.

٤٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة، إذ هي في السماء. أو: لا يصعد لهم عمل صالح، ولا تنزل عليهم البركة. أو: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا، كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء. وبالتالياء مع التخفيف: أبو عمرو. وبالياء معه: حمزة، وعلي ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، أي: لا يدخلون الجنة أبداً؛ لأنه علقه بما لا يكون. والخياط والمخييط: ما يخاط به، وهو الإبرة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزء الفظيع الذي وصفنا ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين؛ بدلالة التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها.

٤١ - ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية. جمع: غاشية. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

٤٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاعتها. والتكليف: إلزام ما فيه كلفة، أي: مشقة ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر الذين ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٤٣ - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ حقد كان بينهم في الدنيا، فلم يبق بينهم إلا التواذ والتعاطف. وعن علي - رضي الله عنه - : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ حال من ﴿هم﴾ في

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ
رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِشْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ

﴿صدورهم﴾ والعامل فيها معنى الإضافة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم، وهو: الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ﴿ما كنا﴾ بغير واو شامي، على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ اللام لتوكيد النفي، أي: وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله. وجواب «لولا» محذوف، دل عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فكان لطفاً لنا، وتبهيها على الاهتداء، فاهتدينا. يقولون ذلك سروراً بما نالوا، وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، والجملة بعدها خبرها، تقديره: ونودوا بأن تلكم الجنة. والهاء ضمير الشأن. أو بمعنى أي، كأنه قيل لهم: ﴿تلكم الجنة﴾ ﴿أُورِشْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها، وهو حال من الجنة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سماها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات، كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة. وقال الشيخ أبو منصور - رحمه الله - : إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً - عليه السلام - وأهل الجنة والنار وإبليس؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [المذثر: ٣١] وقال نوح - عليه السلام - : ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

٤٤ - ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ «أن» مخففة من الثقيلة، أو مفسرة. وكذلك: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾. وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف (كم) لدلالة ﴿وَعَدَنَا رَبَّنَا﴾ عليه. وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار، واعترافاً بنعم الله تعالى ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وبكسر العين حيث كان:

فَأَذَنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

عليّ ﴿فَأَذَنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ نادى مناد، وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿أَن لَعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أَن لَعْنَةً﴾ مكّي، وشامي، وحمزة، وعليّ.

٤٥ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثان
ليبغون، أي: ويطلبون لها الاعوجاج، والتناقض ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة
﴿كَافِرُونَ﴾.

٤٦ - ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وبين الجنة والنار، أو: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ وهو السور
المذكور في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورٌ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ على أعراف
الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه، جمع: عُرف،
استعير من عرف الفرس، وعرف الديك ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين، أو: من
آخرهم دخولاً في الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم، أو: من لم يرض عنه أحد
أبويه، أو: أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء
﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين: بياض الوجوه ونضارتها، وسيما
الكافرين: سواد الوجوه، وزرقة العيون ﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف
﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أنه سلام، أو: أي سلام. وهو تهنئة منهم لأهل
الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أصحاب الأعراف، ولا محلّ له؛ لأنه استئناف، كأن
سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف ف قيل: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في
دخولها. أو: له محلّ، وهو صفة لرجال.

٤٧ - ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه: أن صارفاً
يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيدوا. ﴿تِلْقَاءَ﴾ ظرف. أي: ناحية ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾
ورأوا ما فيه من العذاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله،
وفزعوا إلى رحمته ألا يجعلهم معهم.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

٤٨ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المال، أو: كثرتم واجتماعكم و﴿مَا﴾ نافية ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحق، وعلى الناس. ثم يقولون لهم:

٤٩ - ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر، تقديره: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ هم الذين ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتهم في الدنيا. والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب، وسلمان، ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ جواب ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ وهو داخل في صلة الذين، تقديره: أقسمتم عليهم بألا ينالهم الله برحمة، أي: لا يدخلهم الجنة. يحتقرونهم لفقرهم، فقال لأصحاب الأعراف: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين، وعرفوهم بسيماهم، وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٥٠ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ «أن»: مفسرة. وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة. أو: أريد ﴿أو﴾ ألقوا علينا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتها تبناً وماء بارداً
.....
(١)

أي: وسقيتها. وإنما سألوا ذلك مع بأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحير ينطق بما يفيد؛ وبما لا يفيد ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هو تحريم منع، كما في ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذمّاً. وإن جرته وصفاً للكافرين فلا.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ
 كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ
 بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ
 يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ
 شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ

٥١ - ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرّموا وأحلّوا ما شاؤوا. أو:
 دينهم: عيدهم ﴿وَعَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ اغترّوا بطول البقاء ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾
 تركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ﴾
 أي: كنيستهم، وجحودهم.

٥٢ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ ميّزنا حلاله، وحرامه، ومواعظه،
 وقصصه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من
 منصوب ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ كما أنّ ﴿على علم﴾ حال من مرفوعه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٥٣ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه
 من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾
 يَقُولُ الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ قَبْلُ تركوه، وأعرضوا عنه ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي:
 تبين، وصحّ أنهم جاؤوا بالحق، فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ﴾
 فَيَشْفَعُوا لَنَا جواب الاستفهام ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخله
 معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: فهل لنا من شفعاء، أو هل نرد؟ ورافعه
 وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كقولك ابتداء: هل يضرب زيد؟ أو عطف على
 تقدير: هل يشفع لنا شافع، أو هل نرد؟ ﴿فَنَعْمَلْ﴾ جواب الاستفهام أيضاً
 ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا
 يعبدونه من الأصنام.

٥٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السموات

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ آلِيلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ
مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وُخْفِيَّةً

والأرض وما بينهما. وقد فصلها في «حم السجدة» أي: من الأحد إلى الجمعة؛
لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً، وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يوماً،
ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر يريد يصرفه على اختياره،
ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى
العرش، وإن كان سبحانه وتعالى مستولياً على جميع المخلوقات؛ لأن العرش
أعظمها، وأعلاها. وتفسير العرش بالسرير، والاستواء بالاستقرار كما تقوله
المشبهة باطل؛ لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان؛ لأن
التغير من صفات الأكوان. والمنقول عن الصادق، والحسن، وأبي حنيفة،
ومالك - رحمهم الله -: أَنَّ الاستواء^(١) معلوم، والتكليف فيه مجهول،
والإيمان به واجب، والجحود له كفر، والسؤال عنه بدعة ﴿يُغْشَى آلِيلَ النَّهَارِ﴾
﴿يُغْشَى﴾ حمزة، وعلي، وأبو بكر. أي: يلحق الليل بالنهار، والنهار بالليل
﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ حال من الليل، أي: سريعاً. والطالب: هو الليل، كأنه لسرعة
مضيه يطلب النهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ﴾ أي: وخلق الشمس، والقمر،
والنجوم ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال، أي: مذلات ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ﴾
مسخرات: شامي. والشمس مبتدأ، والبقية معطوفة عليها، والخبر: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ هو أمر تكوين. ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره
قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. أي: هو الذي خلق الأشياء، وله الأمر ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
كثير خيره، أو: دام برّه. من البركة: النماء، أو من البروك: الثبات،
ومنه: البركة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥٥ - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرع
وخفية. والتضرع: تفعل، من: الضراعة، وهي: الدل، أي: تذللًا وتعلّقًا.
قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم

(١) وهذا هو مذهب السلف في عدم التأويل، وهو أسلم.

إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا

أينما كنتم»^(١). عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفاً ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾»^(٢).

٥٦ - ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بالمعصية بعد الطاعة، أو بالشرك بعد التوحيد، أو: بالظلم بعد العدل ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حالان، أي: خائفين من الرد، طامعين في الإجابة. أو: من النيران وفي الجنان. أو: من الفراق وفي التلاق. أو: من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية. أو: من العدل وفي الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ذكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم، أو: الترحم، أو: لأنه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو: على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، [أو: لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي]^(٣)، أو: للإضافة إلى المذكور.

٥٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ﴾ ﴿الرِّيَّحَ﴾ مكّي، وحمة، وعلي ﴿بُشْرًا﴾ (نُشْرًا) حمة، وعلي، مصدر نشر. وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشرًا. وإما على الحال، أي: منشورات. ﴿بُشْرًا﴾ عاصم؛ تخفيف بُشْرًا، جمع بشير، لأن الرياح تبشر بالطر. (نُشْرًا) شامي، تخفيف نُشْر،

(١) رواه البخاري (٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٠).

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ
فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ
الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

كُرْسُلَ وَرُسُلَ، وهو قراءة الباقيين، جمع نشور، أي: ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام نعمته، وهو: الغيث الذي هو من أجل النعم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ﴾ حملت ورفعت. واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرافع المطبق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء؛ جمع سحابة ﴿سُقْنَهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ. ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقليل ثقبلاً ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجل بلد ليس فيه مطر، ولسقيه. ﴿مَّيِّتٍ﴾ مدني، وحمة، وعلي، وحفص ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالسحاب، أو: بالسوق. وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج، وهو: إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤذكُم التذكير إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين؛ لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه.

٥٨ - ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الطيبة الترب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نَكِدًا﴾ ﴿وَالَّذِي خَبثَ﴾ صفة للبلد. أي: والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ أي: نباته، فحذف للاكتفاء ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وهو الكافر. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به، على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نرددها، ونكرزها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله - وهم المؤمنون - ليتفكروا فيها، ويعتبروا بها.

٥٩ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿نُوحًا

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورُ
لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَانصَحْتُ
لَكُمْ وَأَعْلَمْتُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٥٩﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً، وهو نوح بن لَمَك (١) بن
مَتُوشَلَخ بن أَخْنُوخ، وهو اسم إدريس - عليه السلام - ﴿فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ «غيره»: عليّ. فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله
غيره، فلا تعبدوا معه غيره. والجرّ على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، أو: يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

٦٠ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف، والسادة ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ أي: بيّن في ذهاب عن طريق الصواب. والرؤية: رؤية القلب.

٦١ - ﴿قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل ضلال، كما قالوا؛ لأنّ
الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال:
ليس بي شيء من الضلال. ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنّ كونه رسولاً من الله مبلغاً لرسالته في معنى كونه على
الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى.

٦٢ - ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو: في
المعاني المختلفة من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنظائر.
﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ أبو عمرو. وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين
﴿وَأَنْصَحْتُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص، يقال: نصحت، ونصحت له. وفي
زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إحاطة النصيحة. وحقيقة النصح: إرادة الخير
لغيرك مما تريده لنفسك، أو: النهاية في صدق العناية ﴿وَأَعْلَمْتُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفاته، يعني: قدرته الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه، وأنّ
بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين.

(١) في تاريخ الطبري (١/١٦٥): لامك.

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

٦٣ - ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكنذبتُم وعجبتُم؟! ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ على لسان رجل منكم، أي: من جنسكم. وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح - عليه السلام - ويقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] لِيُنذِرَكُمْ لِيَحْذَرَكُمْ عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ولتوجد منكم التقوى، وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

٦٤ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وكانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة، وقيل: تسعة: بنوه سام، وحام، ويافث، وستة ممن آمن به ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ يتعلقي بـ: معه، كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق. يقال: أعمى في البصر، وعم في البصيرة.

٦٥ - ﴿وَإِلَى عَادِ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَى عَادِ﴾. وهو عطف على ﴿نوحاً﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب: للواحد منهم. وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم عن رجل منهم أفهم، فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لـ ﴿أخاهم﴾. وهو: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإنما لم يقل: فقال، كما في قصّة نوح - عليه السلام - لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾. وكذلك:

٦٦ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾. وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأن في أشراف قوم هود من آمن به، منهم: مرثد بن

إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

سعد، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشرف قوم نوح - عليه السلام - مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في خفة حلم، وسخافة عقل. حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفاً مجازاً، يعني: أنه متمكن فيها، غير منفك عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في ادعائك الرسالة.

٦٧، ٦٨ - ﴿قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴿٦٨﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم. وإنما قال هنا: ﴿وَأَنَا لَكُمْ ناصح أمين﴾ لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ليقابل الاسم الاسم.

وفي إجابة الأنبياء - عليهم السلام - من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به، من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضلّ الناس، وأسفههم، أدب حسن، وخلق عظيم. وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغيضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

٦٩ - ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض، أو: في مساكنهم. و﴿إِذْ﴾ مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ طويلاً وامتداداً، فكان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مئة ذراع. ﴿بَضْطَةً﴾ حجازي، وعاصم، وعلي ﴿فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواها من عطايها. وواحد الآلاء: إلى، نحو: إني وآناء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا
 إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
 أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَآءٍ سَمِيئَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ
 فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾

٧٠ - ومعنى المجيء في: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ أن يكون ليهود - عليه السلام - مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشؤوا عليه ﴿فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

٧١ - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: قد نزل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جعل المتوقع - الذي لا بد من نزوله - بمنزلة الواقع، كقولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط ﴿أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَآءٍ سَمِيئَتْهُمَا﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمون الأصنام آلهة، وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ﴾ حجة ﴿فَانظُرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ذلك

٧٢ - ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: من آمن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدابر: الأصل، أو: الكائن خلف الشيء. وقطع دابرهم: استئصالهم، وتدميرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة: نفى الإيمان عنهم، مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعارُ بأن الهلاك خصّ المكذبين.

وقصّتهم: أن عاداً قد تبسّطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء. فبعث الله إليهم هوداً، فكذّبوه، فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين. وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام، فأوفدوا إليه قَيْلَ بن عتزر، ولُقَيْمَ بن هزّال،

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

ومرثد بن سعد - وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام - وأهل مكة إذ ذاك العماليق، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم: معاوية بن بكر، فنزلوا عليه بظاهر مكة. فقال لهم مرثد: لن تُسَقَوْا حتى تؤمنوا بهود. فخلّفوا مرثداً، وخرجوا. فقال قيل: اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحبات ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل! اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم، فاستبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها، حتى ماتوا^(١).

٧٣ - ﴿وَالِى ثَمُودَ﴾ وأرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وقرىء ﴿وإلى ثمود﴾ بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر. ومنع الصرف بتأويل القبيلة. وقيل: سميت: ثمود لقلة ماثها، من: الثمد، وهو: الماء القليل. وكانت مساكنهم: الحجر، بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة، شاهدة على صحة نبوتي. فكانه قيل: ما هذه البيّنة؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم؛ لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب، ولارحم ﴿لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ حال من الناقة. والعامل معنى الإشارة في هذه، كأنه قيل: أشير إليها ﴿آية﴾. ﴿ولكم﴾ بيان لمن هي له آية، وهي ثمود؛ لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها، فليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبري (١/٢١٩ - ٢٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق، وانظر الكشف (٨٨/٢).

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا الْآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِّن

ولا تضربوها، ولا تعقروها، ولا تطردوها إكراماً لآية الله ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧٤ - ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزلكم. والمباعدة: المنزل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض الحجر، بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غراً للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء. وبيوتاً حال مقدرة، نحو: خط هذا الثوب قميصاً؛ إذ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة ﴿فَأَذْكُرُوا الْآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ روي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوها في الأرض، وعمرُوا أعماراً طوالاً، فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات. وكانوا في سعة من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فأنذرهم، فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عُشراء، فصلى، ودعا ربه، فتمخضت تمخض التتوج بولدها، فخرجت منها ناقة كما شاؤوا، فأمن به جندع ورهط من قومه.

٧٥ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقال: شامي ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بإعادة الجار. وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان في تقدير إعادة العامل. والضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ﴿قومه﴾. وهو يدل على أن استضعفهم كان مقصوراً على المؤمنين، أو: إلى الذين استضعفوا، وهو يدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِّن

رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنقُورِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

رَبِّهِ ﴿٧٥﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وإنما صار هذا جواباً لهم؛ لأنهم سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مُسَلِّماً، كأنهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم: أنا به مؤمنون.

٧٦ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فوضعوا ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ موضع ﴿أُرْسِلَ بِهِ﴾ ردّاً لما جعله المؤمنون معلوماً مُسَلِّماً.

٧٧ - ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم، وإن كان العاقر: قدار بن سالف؛ لأنه كان برضاهم. وكان قدار: أحمر، أزرق، قصيراً، كما كان فرعون كذلك. وقال ﷺ: «يا علي! أشقى الأولين: عاقر ناقة صالح، وأشقى الآخرين: قاتلك»^(١) ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولّوا عنه، واستكبروا. وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح - عليه السلام - من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. أو: شأن ربهم، وهو دينه ﴿وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ من العذاب. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٧٨ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ في بلادهم، أو: مساكنهم ﴿جِثِيمَ﴾ ميتين قعوداً. يقال: الناس جثم، أي: قعود لا حراك بهم، ولا يتكلمون.

٧٩ - ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ لما عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَنقُورِ﴾ عند فراقه إياهم. ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ الأمرين

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٧/٤) وانظره في مجمع الزوائد (١٤/٧) و(٢٩٩).

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا
 كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ

بالبهوى لاستحلاء الهوى. والنصيحة: منيحة تدرأ الفضيحة، ولكنها وخيمة، تورث السخيمة. رُوي: أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام، تصفرّ وجوهكم أول يوم، وتحمّر في الثاني، وتسود في الثالث، ويصيبكم العذاب في الرابع. وكان كذلك. ورُوي أنه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فلما علم أنهم هلكوا رجع بمن معه، فسكنوا ديارهم.

٨٠ - ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكروا ﴿لَوْطًا﴾. و﴿إِذْ﴾ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أنفعلون السيئة المتبادية في القبح؟! ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ ما عملها قبلكم. والباء للتعدي. ومنه قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة»^(١) ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ «من» للتبعيض. وهذه جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ثم ويخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها.

٨١ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أنتم ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾. والهمزة مثلها في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ للإنكار ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الإخبار مدني وحفص. يقال: أتى المرأة: إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمة ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: لا من النساء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

٨٢ - ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي:

إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

لوطاً ومن آمن معه، يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة، ووصفهم بصفة الإسراف؛ الذي هو أصل الشر؛ ولكنهم جاؤوا بشيء لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ يدعون الطهارة، ويدعون فعلنا الخبيث. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: عابوهم بما يُتمدح به.

٨٣ - ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن يختص به من ذويه، أو: من المؤمنين ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ من الباقيين في العذاب. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. ورؤي أنها التفتت، فأصابها حجر، فماتت.

٨٤ - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيماً. قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت حجارة على مسافريهم. وقال أبو عبيدة: «أمطر» في العذاب، و«مطر» في الرحمة ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

٨٥ - ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ و﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ وهو اسم قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكايل والموازين ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: معجزة وإن لم تذكر في القرآن ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما. والمراد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. أو: يكون «الميزان» كالميعاد، بمعنى المصدر ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن. وكانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعتهم. و«بخس» يتعدى إلى مفعولين، وهما: الناس، وأشياءهم. تقول:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا

بخست زيدا حقه، أي: نقصته إياه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء. وإضافته كإضافة: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: بل مكرهم في الليل والنهار ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الإنسانية، وحسن الأحداث ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

٨٦ - ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ بالله. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عشارين^(١) ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة، غير مستقيمة، لتمنعوهم عن سلوكها. ومحل ﴿تُوعِدُونَ﴾ وما عطف عليه النصب على الحال، أي: لا تقعدوا موعدين، وصادين عن سبيل الله وباغين عوجاً ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿إِذْ﴾ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ الله، ووفر عددكم. وقيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء، فكثروا ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط - عليهم السلام -.

٨٧ - ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فانتظروا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين

(١) «عشارين»: جمع عشار، وهو أخذ العُشْر وملتزمه.

وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّصْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ

على المبطلين، ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو: هو حث للمؤمنين على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين، إلى أن يحكم الله بينهم، ويتنقم لهم منهم، أو: هو خطاب للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على ميسوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله، فيميز الخبيث من الطيب ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ لأن حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الجور.

٨٨ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم، وإما عودكم في الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ الهمة للاستفهام. والواو للحال. تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراحتنا، ومع كوننا كارهين. قالوا نعم:

٨٩ - ثم قال شعيب: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وهو قسم، على تقدير: حذف اللام، أي: والله لقد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّصْنَا اللَّهُ مِنهَا﴾ خلصنا الله. فإن قلت: كيف قال شعيب ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ والكفر على الأنبياء - عليهم السلام - محال؟ قلت: أراد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك، إجراء للكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما ينبغي لنا، وما يصح ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها، إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: هو عالم بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ، ويوفقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: احكم. والفتاحة: الحكومة. والقضاء بالحق يفتح الأمر المغلق؛ فلذا سُمِّيَ

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ

فتحاً، ويُسمَّى أهل عُمان القاضي: فتاحاً ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

٩٠ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه، لأنه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية. وجواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن أتيتكم﴾ وجواب الشرط، ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ فهو ساد مسد الجوابين.

٩١ - ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ميتين.

٩٢ - ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها. غني بالمكان: أقام ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم: ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾. وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعياً هم المخصوصون بأن أهلكوا، كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الذين اتبعوا شعياً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعياً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه، فهم الرابحون. وفي هذا التكرار مبالغة، واستعظام لتكذيبهم، ولما جرى عليهم.

٩٣ - ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أحن: ﴿عَلَىٰ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾. اشتد حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه، فقال: كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحن عليهم؛ لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم؟! أو: أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير بما حل بكم، فلم تصدقوني، فكيف آسى عليكم؟!.

٩٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يقال: لكل مدينة قرية. وفيه حذف،

إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

أي: فكذبوه ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالبؤس، والفقر ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ الضر، والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم. أو: هما نقصان النفس، والمال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا، ويتذللوا، ويخطوا أودية الكبر.

٩٥ - ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة: الرخاء والسعة والصحة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ كثروا، ونموا في أنفسهم وأموالهم. من قولهم: عفا النبات: إذا كثر. ومنه قوله ﷺ: «وأعفوا للحي»^(١) ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ أي: قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسرء. وقد مسَّ آباءنا نحو ذلك، وما هو بعقوبة الذنب، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

٩٦ - واللام في: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ إشارة إلى أهل القرى التي دل عليها ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ كأنه قال: ولو أنَّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُوا﴾ بدل كفرهم ﴿وَأَتَّقَوْا﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ ﴿لَفَتَّخْنَا﴾ شامي ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أراد: المطر والنبات، أو: لآتيناهم بالخير من كل وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكفرهم، وسوء كسبهم. ويجوز أن تكون اللام للجنس.

٩٧ - ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ يريد الكفار منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ ليلاً، أي: وقت نيات، يقال: بات بياناً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٣) والنسائي (١٦/١ و ١٢٩/٨ و ١٨٢).

أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

٩٨ - ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهاراً. والضحى في الأصل: ضوء الشمس إذا أشرقت. والفاء والواو في ﴿أفأمن﴾ و﴿أو آمن﴾ حرفا عطف، دخل عليهما همزة الإنكار. والمعطوف عليه ﴿فأخذناهم﴾ بغته. وقوله ﴿ولو أنَّ أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنما عطف الأولى بالفاء؛ لأنَّ المعنى فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغته، أبعد ذلك آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ ﴿أَوْ آمِنَ﴾: شامي، وحجازي على العطف بأو. والمعنى: إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلاً، أو ضحى. فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف، وهو ينافي الاستفهام؟ قلت: التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة؛ لأنَّه على استئناف جملة بعد جملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يشتغلون بما لا يجدي عليهم.

٩٩ - ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ أخذه العبد من حيث لا يشعر. وعن الشبلي - قدس الله روحه - العزيز: مكره بهم: تركه إياهم على ما هم عليه. وقالت ابنة الربيع بن خثيم لأبيها: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه! إنَّ أباك يخاف البيات. أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إلا الكافرون؛ الذين خسروا أنفسهم، حتَّى صاروا إلى النار.

١٠٠ - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ «أن لو نشاء» مرفوع بأنَّه فاعل ﴿يهد﴾. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو: أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين. وإنما عدى فعل الهداية باللام؛

وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا

لأنه بمعنى التبيين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف، أي: ونحن نختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

١٠١ - ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾

[هود: ٧٢] في أنه مبتدأ وخبر وحال. أو: تكون ﴿القرى﴾ صفة ﴿تلك﴾ و﴿نقص﴾ خبراً. والمعنى: تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل. أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين مع تنابع الآيات. واللام لتأكيد النفي ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

١٠٢ - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق. يعني:

أن أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان. والآية اعتراض. أو: للأمم المذكورين، فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر وخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم أنجاهم، نكثوا ﴿وَإِنْ﴾ وإن الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة. والوجود بمعنى العلم، بدليل دخول «أن» المخففة واللام الفارقة، ولا يجوز ذلك إلا في المبتدأ، والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

١٠٣ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الضمير للرسول في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾

أو: للأمم ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من وإد واحد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [لقمان: ١٣]. أو: فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن. أو: لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، حيث وضعوا الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين.

١٠٤ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ﴾ يقال للملوك مصر: الفراعنة، كما يقال للملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر. واسمه: قابوس، أو: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك. قال فرعون: كذبت. فقال موسى:

١٠٥ - ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أي: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب على قول الحق أن أكون قائله، والقائم به. ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ نافع، أي: واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق، أي: الصدق. وعلى هذه القراءة تقف على ﴿العالَمِينَ﴾ وعلى الأول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول. و«على» بمعنى: الباء كقراءة أبي، أي: إني رسول خالق بألا أقول. أو: يعلّق على بمعنى الفعل في الرسول، أي: إني رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على ألا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما بيّنت رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فخلّهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم. وذلك أنّ يوسف - عليه السلام - لما توفي غلب فرعون على نسل الأسباط، واستعبدتهم، فأنقذهم الله بموسى - عليه السلام - وكان بين اليوم الذي دخل - عليه السلام - مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام. ﴿مَعِيَ﴾: حفص.

١٠٦ - ﴿قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ﴾ من عند من أرسلك ﴿فَآتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فائتني بها لتصحّ دعواك، ويثبت صدقك فيها.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

١٠٧ - ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى - عليه السلام - ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ «إذا» هذه للمفاجأة، وهي من ظروف المكان بمنزلة ثمة، وهناك ﴿ثُعْبَانٌ﴾ حية عظيمة ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر أمره. رُوي أنه كان ذكراً فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر^(١). ثم توجه نحو فرعون فهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك. وحمل على الناس، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً. فصاح فرعون: يا موسى! خذه، وأنا أومن بك، فأخذه موسى، فعاد عصا.

١٠٨ - ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ أي: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضاً عجبياً خارجاً عن العادة، يجمع الناس للنظر إليه. رُوي: أنه أرى فرعون يده، وقال: ما هذه؟ فقال: يدك. ثم أدخلها في جيبه ونزعها، فإذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس. وكان موسى - عليه السلام - آدم، شديد الأدمة.

١٠٩ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ عالم بالسحر، ماهر فيه، قد خيل إلى الناس العصا حية والآدم أبيض. وهذا الكلام قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ. وهنا عزي إليهم، فيحتمل أنه قد قاله هو، وقالوه هم، فحكى قوله ثمة، وقولهم هنا. أو: قاله ابتداء، فتلقنه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم.

١١٠ - ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: مصر ﴿فَأَمَّاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون، من: أمرته، فأمرني بكذا: إذا شاورته، فأشار عليك برأي. وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾.

(١) رحم الله النسفي! كيف قبل مثل هذه الرواية الإسرائيلية، وما فيها من المبالغات والخيالات المستحيلة!

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ
السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ
أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

١١١ - ﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء: عاصم، وحمة، أي: أخر، واحبس،
أي: أخر أمره، ولا تعجل. أو: كأنه هم بقتله، فقالوا: أخر قتله، واحبسه،
ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ﴾
جامعين.

١١٢ - ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿سَحَارٍ﴾: حمزة، وعلي. أي: يأتوك
بكل ساحر عليم مثله في المهارة، أو بخير منه.

١١٣ - ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ يريد: فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا﴾ على الخبر، وإثبات الأجر العظيم. حجازي، وحفص. ولم يقل:
فقالوا، لأنه على تقدير سؤال سائل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قَالُوا
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ لجعلاً على الغلبة. والتنكير للتعظيم، كأنهم قالوا: لا بد لنا من
أجر عظيم ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.

١١٤ - ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إِنَّ لَكُمْ لَأَجْرًا ﴿وَأِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، فتكونون
أول من يدخل، وآخر من يخرج. وكانوا ثمانين ألفاً، وسبعين ألفاً، أو بضعة
وثلاثين ألفاً.

١١٥ - ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ عصاك ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ لما
معنا. وفيه دلالة على أن رغبتهم في أن يلقوا قبله، حيث أكد ضميرهم المتصل
بالمفصل، وعزف الخبر.

١١٦ - ﴿قَالَ﴾ لهم موسى - عليه السلام - ﴿أَلْقُوا﴾ تخييرهم إياه أدب
حسن راعوه معه، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتخاضوا في الجدال. وقد
سوَّغ لهم موسى ما رغبوا فيه، ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، واعتماداً على
أن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أروها بالحيل

وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَّرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ

والشعوذة، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. روي: أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً ﴿وَأَسْرَهُبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم بالحيلة ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر، أو: في عين من رآه.

١١٧ - ﴿* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ «تلقف»: تبتلع. ﴿تَلْقَفُ﴾ حفص ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، يعني: ما يأفكونه، أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل، ويزورونه. أو: إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك. روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحر لبقيت حبالنا، وعصيتنا.

١١٨ - ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فحصل، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر.

١١٩ - ﴿فَغُلِبُوا هُنَاكَ﴾ أي: فرعون، وجنوده، والسحرة ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ وصاروا أذلاء، مبهوتين.

١٢٠ - ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ وخرّوا سجداً لله. كأنما ألقاهم ملقٍ لشدة خروورهم، أو: لم يتمالكوا قماً رأوا، فكأنهم ألقوا، فكانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

١٢١ و ١٢٢ - ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿هو بدل مما قبله.

١٢٣ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِمْ﴾ على الخبر، حفص. وهذا توبيخٌ منه لهم. وبهمزتين، كوفي غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والاستبعاد ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَّرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾

لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٣﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِمَا نَبَيَّتَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ

لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٣﴾ إِنَّ صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الصحراء، لغرض لكم، وهو أن تخرجوا من مصر القبط، وتسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله، ثم فصله بقوله:

١٢٤ - ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ من كل شق طرفاً ﴿ثُمَّ لَأَضِلَّيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أول من قطع من خلاف، وصلب.

١٢٥ - ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ فلا نبالي بالموت لا نقلا بنا إلى لقاء ربنا، ورحمته. أو: إنا جميعاً - يعنون: أنفسهم وفرعون - ننقلب إلى الله، فيحكم بيننا.

١٢٦ - ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِمَا نَبَيَّتَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله. أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر، وهو الإيمان. ومنه قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنَ فلولُ من قراعِ الكتائب^(١)
﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصعب صبراً ذريعاً. والمعنى: هب لنا صبراً واسعاً، وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إفراغاً ﴿وَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

١٢٧ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها، وتغيير دين أهلها؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمئة ألف نفر ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ عطف على ﴿ليفسدوا﴾. قيل: صنع فرعون لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام، ويقولون:

(١) البيت للناطقة الذيباني. «فلول»: انشلاطات في حدّ السيف. «القراع»: المضاربة. «الكتائب»: الجماعات.

قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوِزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيئاً للملأ ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿سَنَقُولُ﴾ حجازي. أي: سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أننا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولثلاثا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده، فيشطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتباعه.

١٢٨ - ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ تسلية لهم، ووعداً بالنصر عليهم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ﴾ اللام للعهد، أي: أرض مصر. أو: للجنس، فيتناول أرض مصر تناولاً أولياً، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه تمنيته إياهم أرض مصر ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط. وأخلت هذه الجملة عن الواو، لأنها جملة مستأنفة، بخلاف قوله: ﴿وقال الملأ﴾ لأنها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾.

١٢٩ - ﴿قَالُوا أَوِزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبيء، وإعادته عليهم بعد ذلك. وذلك اشتكاء من فرعون، واستبطاء لوعده النصر ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه. وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه، وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، وطلب المنصور زيادة لعمرو، فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية. ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك،

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ ﴿١٣٢﴾

وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

١٣٠ - ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ سني القحط، وهن سبع سنين. والسنة من الأسماء الغالبة كالذابة، والنجم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قيل: السنون لأهل البوادي، ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ليتعظوا، فينبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً، وأرق أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة لم ير مكروهاً في ثلاثمئة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدة وجع، أو جوع، أو حمى لما ادعى الربوبية.

١٣١ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الصحة، والخصب ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: هذه التي نستحقها ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جذب، ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ أصله: يتطيروا، فادغمت التاء في الطاء، لأنها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ تشاءموا بهم، وقالوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا. وإنما دخل ﴿إِذَا﴾ في الحسنة، وعرفت الحسنة، و﴿إِنْ﴾ في السيئة، ونكرت السيئة؛ لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ﴾ سبب خيرهم، وشرهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه ومشيتته، والله هو الذي يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

١٣٢ - ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ﴾ أصل ﴿مهما﴾ ماما، فـ«ما» الأولى للجزاء، ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء، في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]. إلا أن الألف قلبت هاء استقلاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري. وهو في موضع النصب بـ«تأتنا»،

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا
عَهِدَ عِنْدَكَ

أي: أيما شيء [تحضرنا تأتينا به] ^(١). و﴿من آية﴾ تبيين لهما، والضمير في ﴿به﴾ و﴿بها﴾ راجع إلى ﴿مهما﴾، إلا أن الأول ذكر على اللفظ، والثاني أنث على المعنى لأنها في معنى الآية. وإنما سموها آية اعتباراً لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

١٣٣ - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ما طاف بهم، وغلبهم من مطر، أو سيل. قيل: طفا الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمرأ، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، أو: هو الجدري، أو الطاعون ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم، وثمارهم، وسقوف بيوتهم، وثيابهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهي الدبى، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنتها، أو البراغيث، أو كبار الفزدان ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه ﴿وَالْدَّمَ﴾ أي: الرعاف. وقيل: مياههم انقلبت دماً، حتى إن القبطي والإسرائيلي إذا اجتماعا على إناء فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً. وقيل: سال عليهم النيل دماً ﴿ءَايَتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾ مبینات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله. أو: مفرقات، بين كل آيتين شهر ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ﴾.

١٣٤ - ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير، وهو الدم. أو: العذاب المذكور واحداً بعد واحد ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ما مصدرية، أي: بعهدك عندك، وهو النبوة. والباء تتعلق بآدع، أي: ادع الله لنا متوسلاً

لِإِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا

إليه بعده عندك ﴿لِإِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

١٣٥ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ لا محالة، فمعدّون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ - ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأن المتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

١٣٧ - ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنَى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حائثاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَنَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَبِّئُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شامي، وأبو بكر.

وهذا آخر قصة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من فرعون، ومعابيتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلي رسول الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ - ﴿وَجَنَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ روي أنهم عبر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فرموا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعلي ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعلّي - رضي الله عنه -: اختلفتم بعد نبيتكم قبل أن يجف ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تحف أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكدته.

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَّبِعُوا﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقدير خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعترضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة ﴿وَنَبِّئُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحل.

١٤٠ - ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ
بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ
مِّمَّقَتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ - ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَنْجَاكُمْ﴾: شامي
﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ييغونكم شدة العذاب، من: سام السلعة، إذا
طلبها. وهو استئناف لا محل له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون
﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ نافع ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في
الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ - ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾
رؤي أن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعد بني إسرائيل - وهو بمصر - إن
أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه
الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين
أنكر خلوف فيه، فتسوك. فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم
أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة
لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت، وضر به له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
نصب على الحال، أي: تم بالغاً هذا العدد. ولقد أجل ذكر الأربعين في البقرة،
وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿أَخْلَفْنِي فِي
قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلَحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل
﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحددنا. ومعنى
اللام الاختصاص، أي: اختص مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة،
ولا كيفية. وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة. وذكر الشيخ في
«التأويلات»: أن موسى - عليه السلام - سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمع صوتاً تولّى تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّى لي حتى أراك. ﴿أرني﴾ مكّي. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى - عليه السلام - اعتقد أنّ الله تعالى يرى حتى سأل، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليل لنا أيضاً، لأنه لم يقل: لن أرى ليكون نفيًا للجواز. ولو لم يكن مرثياً لأخبر بأنه ليس بمرثي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ وهو دليل لنا أيضاً؛ لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليق الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدلّ على امتناعه. والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجد؛ لأنه مختار في فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً - عليه السلام - بقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعري: إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرثياً.

وبهذه الوجوه يتبيّن جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأن موسى - عليه السلام - كان عالماً بأنه لا يرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ إِيَّاكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا
 آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي، باطل. إذ لو كان كما زعموا لقال: أرهم ينظروا إليك، ثم يقول له: لن يروني، لأنها لو لم تكن جائزة لما أخرج موسى عليه السلام - الرد عليهم - بل كان يردّ عليهم وقت قرع كلامهم سمعه - لما فيه من التقرير على الكفر. وهو - عليه السلام - بعث لتغييره لا لتقريره. ألا ترى أنهم لما قالوا له ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ لم يمهلهم، بل ردّ عليهم من ساعته بقوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾؟! ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مذكوكاً. مصدر بمعنى المفعول، كضرب الأمير، والدقّ والدك: أخوان. ﴿دَكَّاءَ﴾: حمزة، وعليّ. أي: مستوية بالأرض لا أكمة فيها. وناقّة دكّاء: لا سنام لها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ حال: أي سقط مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ إِيَّاكَ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها.

وقال الكعبي والأصم: معنى قوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كآني أنظر إليك. ﴿لن تراني﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة. ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فإني أظهر له آية، فإن ثبت الجبل لتجليها، واستقر مكانه، فسوف تثبت لها، وتطيقها، وهذا فاسد؛ لأنه قال: ﴿أرني أنظر إليك﴾ ولم يقل: إليها، وقال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل: لن ترى آيتي. وكيف يكون معناه: لن ترى آيتي، وقد أراه أعظم الآيات، حيث جعل الجبل دكاً؟!

١٤٤ - ﴿قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ اخترتك على أهل زمانك ﴿بِرِسَالَتِي﴾ هي أسفار التوراة. ﴿برسالتني﴾: حجازي ﴿وَبِكَلَامِي﴾ وبتكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أعطيتك من شرف النبوة، والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك، فهي من أجل النعم.

قيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر. ولما كان هارون وزيراً، وتابعا لموسى تخصّص الاصطفاء بموسى - عليه السلام -.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ

١٤٥ - ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ الألواح: التوراة. جمع لوح. وكانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وكانت من زمرد. وقيل: من خشب. نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿كَتَبْنَا﴾ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة، وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزيز، وعيسى ﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا له: ﴿خُذْهَا﴾ عطفاً على ﴿كَتَبْنَا﴾. والضمير للألواح، أو: لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزيمة، فِعْلٌ أولي العزم من الرسل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، كقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه، وهي مصر، ومنازل عاد وثمود، والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم؛ لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم، فينكل بكم مثل نكالهم. أو: جهنم.

١٤٦ - ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ﴾ عن فهمها. قال ذو النون - قدس الله روحه -: أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق، ويأنفون عن قبول الحق. وحقيقته: التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري - عزت قدرته - ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هو حال، أي: يتكبرون غير محقين؛ لأنَّ التكبر بالحق لله وحده ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر، وطريق الهدى ﴿الرُّشْدِ﴾ حمزة، علي، هما كالشقم والسقم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومحل ﴿ذَلِكَ﴾: الرفع، أي: ذلك

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ
مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ أَلْقَوْا أَنَّهُمْ كِلَابٌ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا

الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد
وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

١٤٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى
المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة، ومشاهدتهم أحوالها. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾
خبر ﴿والذين﴾ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال
بتكذيب الإرسال.

١٤٨ - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾
وإنما نسبت إليهم مع أنها كانت عواري في أيديهم، لأن الإضافة تكون لأدنى
ملازمة. وفيه دليل على أن من حلف ألا يدخل دار فلان، فدخل داراً استعارها
يحنث. على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه
دليل على أن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها. نعم المتخذ
هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل^(١) إليهم. والحلي: جمع حلي،
وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة. ﴿حُلِيِّهِمْ﴾: حمزة، وعلي للإتباع
﴿عِجَلًا﴾ مفعول اتخذ. ﴿جَسَدًا﴾ بدل منه، أي: بدنًا ذا لحم ودم كسائر
الأجساد ﴿لَهُ خُورٌ﴾ هو صوت البقر. والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهاً. ثم
عجب من عقولهم السخيفة فقال: ﴿أَلْقَوْا أَنَّهُمْ كِلَابٌ﴾ حين اتخذوه إلهاً ﴿أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ
وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يقدر على كلام، ولا على هداية سبيل، حتى لا يختاروه
على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي
هدى الخلق إلى سبيل الحق بما ركز في العقول من الأدلة، وبما أنزل في الكتب.

أَتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

ثم ابتداء فقال: ﴿أَتَّخِذُوهُ﴾ إلهاً، فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

١٤٩ - ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل. وأصله: أَنَّ مِنْ شَأْن مَنْ اشتد ندمه أَنْ يَعْصَ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأنّ فاه وقع فيها. و﴿سقط﴾ مسند إلى ﴿في أيديهم﴾ وهو من باب الكناية. وقال الزجاج: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن استحال أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا: حمزة، وعليّ. وانتصاب ربنا على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

١٥٠ - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ من الطور ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضْبَانَ﴾ حال من موسى. ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضاً، أي: حزينا. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ قمتم مقامي، وكنتم خلفائي ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامري وأشياعه، أو: لهارون ومن معه من المؤمنين. ويدلّ عليه قوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]. والمعنى: ﴿بئسما خلفتموني﴾ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو: حيث لم تكفوا من عبد غير الله. وفاعل ﴿بئس﴾ مضمّر يفسره: ﴿ما خلفتموني﴾ والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله ﴿خلفتموني﴾: من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، أو: من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفهم عن عبادة البقرة، حين قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ومن حقّ الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعِجَلْتُمْ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو:

وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ

إتياي لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة. وأصل العجلة: طلب الشيء قبل حينه. وقيل: عجلتم بمعنى تركتم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ ضجراً عند استماعه حديث العجل غضباً لله. وكان في نفسه شديد الغضب. وكان هارون ألبن منه جانباً؛ ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسرت، فرفعت ستة أسباعها، وبقي سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه غضباً عليه، حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ عتاباً عليه لا هواناً به. وهو حال من موسى ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ﴾ بني الابن مع الأم على الفتح كخمسة عشر. وبكسر الميم^(١): حمزة، وعلي، وشامي؛ لأن أصله أُمِّي، فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة. وكان ابن أُمِّه وأبيه. وإنما ذكر الأم؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأن ذكرها أَدْعَى إلى العطف. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: إني لم آل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار، ولكنهم استضعفوني، وهموا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الذين عبدوا العجل، أي: لا تفعل بي ما هو أمنيته من الاستهانة بي، والإساءة إلي. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قريناً لهم بغضبك علي. فلما اتضح له عذر أخيه قال:

١٥١ - ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ ليرضي أخاه، وينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء. والمعنى: اغفر لي ما فرطتني في حق أخي، ولأخي إن كان فرط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

١٥٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما

(١) أي: (ابن أُمِّ).

وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَشْخِطِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

أَمَرُوا بِهِ مِنْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم، فالغربة تذلل الأعناق، أو: ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨].

١٥٣ - ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: السيئات، أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم، تحاء لما كان منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة. وإن مع اسمها وخبرها خبر ﴿الذين﴾ وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم، عظم جنايتهم أولاً، ثم أردفها بعظم رحمته؛ ليعلم: أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم.

١٥٤ - وَلَمَّا كَانَ الْغَضَبُ لَشِدَّتِهِ كَأَنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ لِمُوسَى بِمَا فَعَلَ قِيلَ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه: سكن، وقرئ به ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي تَشْخِطِهَا﴾ وفيما نسخ منها، أي: كتب. فعلة بمعنى مفعول؛ كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول، وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

١٥٥ - ﴿وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي: من قومه، فحذف الجار، وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة، فبلغوا اثنين وسبعين رجلاً، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فقعد كالب، ويوشع. ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ لاعتضارهم^(١) عن عبادة العجل. ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة

(١) أي: لامتناعهم. وفي المطبوع: لاعتذارهم.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْعَافِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ
عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

الشديدة. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل.
﴿وَلَمْ يَكُنْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أهلكنا عقوبة بما فعل
الجهال منا، وهم أصحاب العجل. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك. وهو راجع إلى
قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: هي تلك الفتنة
التي أخبرتني بها. أو: هي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ
فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة. ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ من علمت منهم
اختيار الضلالة. ﴿وَتَهْدِي﴾ بها. ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى.
﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِينَ﴾.

١٥٦ - ﴿وَكَتُبْنَا لَنَا﴾ وأثبت لنا، واقسم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عافية،
وحياة طيبة، وتوفيقاً في الطاعة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾ تبنا
إليك. وهاد إليه، يهود: إذا رجع، وتاب. واليهود: جمع هائد، وهو: التائب.
﴿قَالَ عَذَابِي﴾ من صفته أني ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي: لا أعفو عنه.
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء،
ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه
الرحمة. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة
﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

١٥٧ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به، وهو القرآن
﴿النَّبِيِّ﴾ صاحب المعجزات ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ أي: يجد نعته أولئك
الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

بِالْمَعْرُوفِ ﴿﴾ بخلع الأنداد، وإنصاف العباد ﴿﴾ وَيَنْهَهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿﴾ عبادة
الأصنام، وقطعية الأرحام ﴿﴾ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴿﴾ ما حرم عليهم من الأشياء
الطَّيِّبَةِ؛ كالشحوم وغيرها، أو: ما طاب في الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من
الذبائح، وما خلا كسبه من السحت ﴿﴾ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿﴾ ما يستخبث؛
كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، أو: ما خبث في الحكم؛
كالربا، والرشوة، ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴿﴾ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴿﴾ هو
الثقل الذي يأصره صاحبه، أي: يحبس عن الحراك لثقله. والمراد: التكاليف
الصعبة؛ كقتل النفس في توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة. ﴿﴾ أَصَارَهُمْ ﴿﴾ شامي
على الجمع ﴿﴾ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿﴾ هي الأحكام الشاقة، نحو: بت القضاء
بالقصاص عمداً كان، أو خطأ من غير شرع الدية، وقرض موضع النجاسة من
الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت. وشبهت
بالغلّ للزومها لزوم الغلّ ﴿﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴿﴾ بمحمد ﷺ ﴿﴾ وَعَزَّزُوا ﴿﴾
وعظموه، أو: منعه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو. وأصل العز: المنع،
ومنه التعزيز؛ لأنه منع عن معاودة القبيح كالحد، فهو المنع ﴿﴾ وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴿﴾ أي: القرآن. و«مع» متعلق بـ«اتبعوا»، أي: اتبعوا
القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته ﴿﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿﴾ الفائزون
بكل خير، والناجون من كل شر.

١٥٨ - ﴿﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿﴾ بُعِثَ كُلُّ رَسُولٍ إِلَى قَوْمِهِ
خاصة، وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن ﴿﴾ جَمِيعًا ﴿﴾ حال من
﴿﴾ إِلَيْكُمْ ﴿﴾ ﴿﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿﴾ في محلّ النصب بإضمار أعني، وهو
نصب على المدح ﴿﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿﴾ بدل من الصلة وهي ﴿﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ
قَوْمُهُ أَنِ ابْضَرْبِ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

وَالْأَرْضِ. وكذلك ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. وفي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بيان لاختصاصه بالإلهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: الكتب المنزلة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولم يقل: فآمنوا بالله وبى بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم: أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي؛ الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة، وتفادياً من العصبية لنفسه.

١٥٩ - ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس محقين، أو بسبب الحق الذي هم عليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. قيل: هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد ﷺ ليلة المعراج، أو: هم عبد الله بن سلام وأضرابه.

١٦٠ - ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميّرنا بعضهم من بعض ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سبط. وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. نعم مميّز ما عدا العشرة مفرد، فكان ينبغي أن يقال اثني عشر سبطاً. لكن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباط موضع قبيلة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من اثنتي عشرة، أي: وقطعناهم أُمَمًا؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤم الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ ابْضَرْبِ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضرب

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ^{١٦٠} وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^{١٦١} وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ^{١٦٢} فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ
يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ^{١٦٣}

﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ هو
اسم جمع غير تكسير ﴿وَوَضَعْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه
﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرّون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم
إليهم.

١٦١ - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ واذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت
المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ﴾ ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ﴾: مدني، وشامي، ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ مدني
﴿خَطَايَاكُمْ﴾ أبو عمرو ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ شامي ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦٢ - ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لا تناقض بين قوله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ في هذه السورة، وبين قوله في سورة البقرة ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨] لوجود الدخول والسكنى. وسواء قدموا الحطة
على دخول الباب، أو آخروها، فهم جامعون بينهما. وترك ذكر الرغد
لا يناقض إثباته. وقوله: ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ موعِد
بشيئين: بالغفران وبالزيادة. وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتّب
على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقل له: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكذلك

وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾

زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان. و﴿أرسلنا﴾ و﴿أنزلنا﴾ و﴿يظلمون﴾ و﴿يفسقون﴾ من وادٍ واحد.

١٦٣ - ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أبلة، أو: مدين. وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ إذ يتجاوزون حدَّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ في محلّ الجرّ بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها. كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بيعدون، أو: بدل بعد بدل. ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت، أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، جمع شارع. حال من الحيتان. والسبت: مصدر سبتت اليهود: إذا عظمت سبتها بترك الصيد، والاشتغال بالتعبّد. والمعنى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ في تعظيم هذا اليوم، وكذا قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدلّ عليه: ﴿وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ و﴿يَوْمَ﴾ ظرف ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

١٦٤ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ وحكمه كحكمه في الإعراب ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلّول في موعظتهم، لآخرين لا يقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنما قالوا ذلك لعلمهم: أنّ الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله^(١)؛ لثلاث نسب في

(١) في القاموس: أبلاء عذراً: أذاه إليه فقبله.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِبَعَثَنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسُوُّهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ

النهي عن المنكر إلى التفريط. ﴿مَعذَرَةٌ﴾ حفص على أنه مفعول له، أي: وعظناهم للمعذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ ولطمعنا في أن يتقوا.

١٦٥ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ أي: أهل القرية لما تركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكّرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الراكبين للمنكر. والذين قالوا: لم تعظون من الناجين. فعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً: إذا اشتدّ، فهو بئيس. ﴿بِئْسَ﴾ شامي. ﴿بِئْسَ﴾ مدني. ﴿بِئْسَ﴾ على وزن فيعل: أبو بكر غير حماد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

١٦٦ - ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: جعلناهم قردة، أذلاء، مبعدين. وقيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ والعذاب البئيس هو: المسخ. قيل: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير. وكانوا يعرفون أقاربهم، ويبكون، ولا يتكلمون. والجمهور على أنها ماتت بعد ثلاث. وقيل: بقيت، وتناسلت.

١٦٧ - ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم. وأجري مجرى فعل القسم، ولذا أُجيب بما يحاب به القسم، وهو قوله: ﴿لِبَعَثَنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتب على نفسه لیسطن على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسُوُّهُمْ﴾ من يوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث محمد ﷺ، فضر بها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر!! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للكفار ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمؤمنين.

١٦٨ - ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفرقناهم فيها، فلا تخلو بلد عن فرقة.

أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو: الذين وراء الصين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم: الفسقة. ومحل ﴿دون ذلك﴾ الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، أي: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم، والخصب والجذب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتنبهون فيثابون.

١٦٩ - ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿خَلَفٌ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. والخلف: بدل السوء، بخلاف الخلف فهو الصالح ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة، ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحریم، ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ حال من الضمير في ﴿ورثوا﴾. والعرض: المتاع. أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد: الدنيا، وما يتمتع به منها. وهو من الدنوّ، بمعنى القريب؛ لأنه عاجل قريب. والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام وعلى تحريف الكلم. وفي قوله: ﴿هذا الأدنى﴾ تحسيس، وتحقير ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. والفعل مسند إلى الأخذ، أو: إلى الجار والمجرور، أي: ﴿لَنَا﴾ ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون، عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: الميثاق المذكور في الكتاب ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق. وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ وقرؤوا ما في الكتاب. وهو عطف على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنه تقرير. فكانه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه ﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا، والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا

يعقلون ﴿١﴾ أنه كذلك . وبالتالي : مدني ، وحفص .

١٧٠ - ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ أبو بكر . والإمساك والتمسك والتمسك : الاعتصام ، والتعلق بشيء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ خص الصلاة مع أن التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ؛ لأنها عماد الدين ، و﴿الذين﴾ مبتدأ ، والخبر : ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي : إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَهُمْ . وجاز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون . و﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ اعتراض .

١٧١ - ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكر إذ قلعناه ورفعناه ، كقوله : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء : ١٥٤] . ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ هي كل ما أظلك من سقيفة ، أو سحاب ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم . وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم - وكان فرسخاً في فرسخ - وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها ، وإلا ليقعن عليكم . فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة . وقلنا لهم : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزم على احتمال مشاقه ، وتكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ، ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه .

١٧٢ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ أي : ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ﴾ ﴿مِن﴾ ظُهُورِهِمْ ﴿بَدَلٍ﴾ من ﴿بَنِي آدَمَ﴾ . والتقدير : وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ . ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم : إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ هذا من باب التمثيل . ومعنى ذلك : أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم التي

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا

ركبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الهدى والضلالة، فكانه أشهدهم على أنفسهم، وقرّهم، وقال لهم: ﴿ألست بربكم﴾ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه.

١٧٣ - ﴿أَوْ قُولُوا﴾ ﴿أَوْ﴾ كراهة ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فاقدينا بهم؛ لأنّ نصب الأدلة على التوحيد، وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والاعتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك، وتركهم سنة لنا.

١٧٤ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نَقْصِلُ الْآيَاتِ﴾ لهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفصلها.

إلى هذا ذهب المحققون من أهل التفسير، منهم الشيخ أبو منصور، والزجاج، والزمخشري. وذهب جمهور المفسرين إلى أنّ الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق أنّه ربهم بقوله: ﴿ألست بربكم﴾ فأجابوه ب: بلى. قالوا: وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أخرج الله من ظهر آدم ذريته، وأراه إيتاهم كهينة الذر وأعطاهم من العقل، وقال: هؤلاء ولدك، أخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني. قيل: كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف. وقيل: بعد النزول من الجنة. وقيل: في الجنة. والحجة للأولين أنّه قال: ﴿من بني آدم من ظهورهم﴾ ولم يقل: من ظهر آدم، ولأنّا لا نتذكر ذلك، فأتى يصير حجة!

﴿ذرياتهم﴾ مدني وبصريّ وشاميّ. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ ﴿أَوْ يَقُولُوا﴾ أبو عمرو.

١٧٥ - ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ هو عالم من

فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَخَاوِبِ ﴿١٧٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

علماء بني إسرائيل. وقيل: هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله. ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَخَاوِبِ﴾ فصار من الضالين الكافرين. رُوي أَنَّ قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى، ومن معه، فأبى. فلم يزالوا به حتى فعل، وكان عنده اسم الله الأعظم.

١٧٦ - ﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: تزجره، وتطرده ﴿يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود ﴿يَلْهَثُ﴾ والمعنى: فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أحسن أحواله وأذلها، وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه، أي: شد عليه، وهيج، فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه. وذلك: أَنَّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرك، أما الكلب فيلهث في الحالين. فكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه، ووضعنا منزلته. فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حظ. ومحل الجملة الشرطية: النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهثاً في الحالين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه، فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب. وقيل: معناه: هو ضال: وعظ أو ترك. وعن عطاء: من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبج إن طرد، أو ترك ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَانْفُسَہُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ
 الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِّ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
 الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا

١٧٧ - ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ أي: مثل القوم، فحذف
 المضاف. وفاعل ساء مضمَر، أي: ساء المثل مثلاً. وانتصاب مثلاً على التمييز
 ﴿وَانْفُسَہُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على كَذَبُوا، فيدخل في حيز الصلة، أي:
 الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم. أو: منقطع عن الصلة،
 أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب. وتقديم المفعول به للاختصاص، أي:
 وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعد إلى غيرها.

١٧٨ - ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضِلِّ﴾ أي:
 ومن يضلله ﴿فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [حمل على المعنى]^(١) ولو كان الهدى من الله
 البيان - كما قالت المعتزلة - لاستوى الكافر والمؤمن، إذ البيان ثابت في حق
 الفريقين. فدل أنه من الله تعالى التوفيق، والعصمة، والمعونة، ولو كان ذلك
 للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

١٧٩ - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هم الكفار من الفريقين،
 المعرضون عن تدبر آيات الله. والله تعالى علم منهم اختيار الكفر، فشاء منهم
 الكفر، وخلق فيهم ذلك، وجعل مصيرهم جهنم لذلك. ولا تنافي بين هذا
 وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ [الذاريات: ٥٦] لأنه إنما خلق
 منهم للعبادة من علم أنه يعبد، وأما من علم أنه يكفر به فإنما خلقه لما علم
 أنه يكون منه. فالحاصل: أن من علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه
 للعبادة. ومن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك. وكم من عام يُراد به
 الخصوص! وقول المعتزلة بأن هذه لام العاقبة، أي: لما كان عاقبتهم جهنم
 جعل كأنهم خلقوا لها، فراراً عن إرادة المعاصي، عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ
 لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق، ولا يتفكرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ

وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۖ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ الوعظ ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار، والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنهم كابروا العقول، وعاندوا الرسول، وارتكبوا الفضول. فالأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارها، وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار. وكيف يستوي المكلف المأمور والمُخْلِى المذدور؟! فالآدمي، روحاني، شهواني، سماوي، أرضي، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقت بهائم الأرض ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

١٨٠ - ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة. فمنها: ما يستحقه بحقائقه؛ كالقديم قبل كل شيء، والباقي بعد كل شيء، والقادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء. ومنها: ما تستحسنة الأنفس لآثارها؛ كالغفور، والرحيم، والشكور، والحليم. ومنها: ما يوجب التخلق به؛ كالفضل، والعفو. ومنها: ما يوجب مراقبة الأحوال؛ كالسميع، والبصير، والمقتدر. ومنها: ما يوجب الإجلال؛ كالعظيم، والجليل، والمتكبر ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى. وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، نحو أن يقولوا: يا سخي، يا رقيق، لأنه لم يسم نفسه بذلك. ومن الإلحاد تسميته بالجسم، والجوهر، والعقل، والعلّة. ﴿يُلْحِدُونَ﴾ حمزة. لحد وألحد: مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٨١ - ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ للجنة، لأنه في مقابلة ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم. قيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين. وفيه دلالة على ^(١) أن إجماع كل عصر حجة.

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ

١٨٢ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً، وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين: أن مواترة النعم أثره من الله تعالى وتقريب، وإنما هو خذلان منه وتبعيد. وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة [﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم] (١).

١٨٣ - ﴿وَأُمْلِ لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سنستدرجهم﴾ وهو غير داخل في حكم السين. أي: أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أخذي شديد. سماء: كيداً، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان، وفي الحقيقة خذلان.

١٨٤ - وَلَمَّا نَسَبُوا النِّبْيَ ﷺ إِلَى الْجَنُونِ نَزَلَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ. و﴿مَا﴾ نافية بعد وقف. أي: أو لم يتفكروا في قولهم؟! ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر من الله، موضح إنذاره.

١٨٥ - ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملكوت: الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ﴿وَأَنْ عَسَى﴾ ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة. وأصله: وأنه عسى. والضمير ضمير الشأن. وهو في موضع الجز بالعطف على ملكوت. والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحق،

فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا

وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل، وحلول العقاب ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وهو متعلق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم. كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب؛ فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟! وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا؟! وماذا

١٨٦ - ﴿مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ﴾ أي: يضلله الله ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وبالياء: عراقي. وبالجزم: حمزة وعلي عطفاً على محل ﴿فلا هادي له﴾، كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد، ﴿ويذرهم﴾ والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذرهم. الباقون: بالنون ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون.

١٨٧ - ولما سألت اليهود، أو قریش عن الساعة: متى تكون؟ نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ وهي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو: لسرعة حسابها، أو: لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أَيَّانَ﴾ متى، واشتقاقه من أي، فعلان منه، لأن معناه: أي وقت؟ ﴿مُرْسَاهَا﴾ إرساؤها، مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال. أو: وقت إرسائها، أي: إثباتها، والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص - وهو وقت الموت - لذلك ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظْهِرُ أمرها، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، ويتمنى أن يتجلى له علمها، وشق عليه خفاؤها، وثقل عليه. أو: ثقلت فيها، لأن أهلها يخافون شدائدها، وأحوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ فجأة على غفلة منكم ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها؛ لأن من بالغ في المسألة عن الشيء، والتنقير عنه استحكم علمه فيها. وأصل

قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

هذا التركيب المبالغه، ومنه: إحقاء الشارب. أو: ﴿عنها﴾ متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وكرر يسألونك، وإنما علمها عند الله للتأكيد، ولزيادة كأنك حفي عنها. وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم: محمد بن الحسن - رحمه الله - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه المختص بالعلم بها.

١٨٨ - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هو إظهار للعبودية، وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر كالممالك إلا ما شاء مالكي من النفع لي، والدفع عني ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير، واجتناب السوء والمضارة، حتى لا يمسنني شيء منها، ولم أكن غالباً مرة، ومغلوباً أخرى في الحروب. وقيل: الغيب: الأجل، والخير: العمل، والسوء: الوجل. وقيل: ﴿لاستكثر﴾ لأعددت من الخصب للجذب. والسوء: الفقر. وقد ردّ ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أن أعلم الغيب. واللام في: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلق بالنذير والبشير؛ لأنّ النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم. أو: بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف، أي: ﴿إلا نذير﴾ للكافرين ﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾.

١٨٩ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم - عليه السلام - ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء خلقها من جسد آدم، من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن ويميل، لأنّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وذكر ﴿ليسكن﴾ بعد ما أنث في قوله: ﴿واحدة وخلق منها زوجها﴾ ذهاباً إلى معنى

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

النفس؛ ليبين أن المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ خف عليها، ولم تلق منه ما يلقي بعضُ الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستقله كما يستقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده، من غير إخداج^(١) ولا إزلاق. أو: ﴿حملت حملاً خفياً﴾ يعني: النطفة ﴿فمَرَّتْ بِهِ﴾ فقامت به، وقعدت ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ حان وقت ثقل حملها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما، الذي هو الحقيق بأن يدعى، ويُلْتَجَأُ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سواً قد صلح بدنه، أو: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك. والضمير في ﴿آتَيْنَا﴾ و﴿لنكونن﴾ لهما، ولكل من يتناسل من ذريتهما.

١٩٠ - ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذلك: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: أتى أولادهما. دليله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريثان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناف، وعبد شمس، ونحو ذلك مكان: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم. أو: يكون الخطاب لقريش؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي، أي: هو الذي خلقكم من نفس واحدة: قصي. وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بـ: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد الدار. والضمير في ﴿أيشركون﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ﴿شُرَكَاءَ﴾: مدني، وأبو بكر، أي: ذوي شرك، وهم الشركاء.

(١) من غير إخداج: من غير نقص.

أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِحُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَنْزِلْ بِعَمَلِهِمْ آيَاتٍ يَبْطِشُونَ بِهَا

١٩١ - ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ أجريت الأصنام مجرى أولي العلم بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها إلهاً. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء، وهم يخلقون؛ لأن الله خالقهم. أو: الضمير في ﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ للعابدين، أي: أيشركون ما لا يخلق شيئاً، وهم مخلوقو الله، فليعبدوا خالقهم. أو: للعابدين والمعبودين، وجمعهم كأولي العلم، تغليبا للعابدين.

١٩٢ - ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعترها من الحوادث، كالكسر، وغيره. بل عبدتهم الذين يدفعون عنهم.

١٩٣ - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى ما هو هدى ورشاد، أو: إلى أن يهدوكم، أي: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير، والهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: نافع ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِحُونَ﴾ عن دعائهم: في أنه لا فلاح معهم، ولا يجيبونكم. والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرؤوس الآي.

١٩٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم، وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع، أو: دفع ضرر ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهم آلهة. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم، فقال:

١٩٥ - ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ بِعَمَلِهِمْ آيَاتٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يتناولون

أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ ﴿١٩٥﴾ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴿١٩٦﴾ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٧﴾ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٨﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٠﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٠١﴾

بها ﴿أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ﴾ بها أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴿١٩٥﴾ أي: فلم تعبدون ما هو دونكم؟! ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالياء يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ فإنني لا أبالي بكم. وكانوا قد خوفوه آلهتهم، فأمر أن يخاطبهم بذلك. وبالياء: يعقوب.

١٩٦ - ﴿إِنَّ وَلِيِّ﴾ ناصري عليكم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أوحى إلي، وأعزني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده، ولا يخذلهم.

١٩٧ - ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

١٩٨ - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرئي.

١٩٩ - ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو ضد الجهد، أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشق؛ حتى لا ينفروا؛ كقوله ﷺ: «يسرّوا ولا تعسّروا»^(١) ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بالمعروف، والجميل من الأفعال، أو: كلّ خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عليهم. وفسرها جبريل عليه السلام

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

بقوله: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمن ظلمك»^(١). وعن الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

٢٠٠ - ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وإما ينخسك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تطعه. والنزغ: النخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه. أو: أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر - رضي الله عنه -: إن لي شيطاناً يعتريني ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

٢٠١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿طَلِيفٌ﴾: مكّي، وبصريّ وعليّ، أي: لمة منه. مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً. وعن أبي عمرو: هما واحد، وهي: الوسوسة. وهذا تأكيد لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به، ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فأبصروا السداد، ودفعوا وسوسته. وحقيقته: أن يفرّوا منه إلى الله، فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

٢٠٢ - ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس، فإنّ الشياطين ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنِ﴾، أي: يكونون مدداً لهم فيه، ويعضدونهم ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ من الإمداد: مدنيّ ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتّى يصروا، ولا يرجعوا. وجاز أن يراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلّق به إلى الجاهلين. والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. وإنّما جمع الضمير في ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ والشيطان مفرد؛ لأنّ المراد به الجنس.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٣ - ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها.

أي: اختلفتها كما اختلفت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢٠٤ - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وجمهور الصحابة - رضي الله عنهم - على أنه في استماع المؤتم. وقيل: في استماع الخطبة. وقيل: فيهما، وهو الأصح.

٢٠٥ - ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عام في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتلهيل، وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكير ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين. وقيل: المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر. ومعنى: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ بأوقات الغدو، وهي: الغدوات. والآصال: جمع أصل. والأصل جمع أصيل، وهو: العشي ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه.

٢٠٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة، لا مكاناً ومنزلاً، يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ويترهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره. والله أعلم.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النفل: الغنيمة؛ لأنها من فضل الله، وعطائه. والأنفال: الغنائم. ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله: كيف نقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين، أم للأَنْصار، أم لهم جميعاً؟ فقل له: قل لهم: هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول: أن حكمها يختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أحوال بينكم. يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة، ومحبة، واتفاق. وقال الزجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم. والبين: الوصل. أي: فاتقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به. قال عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله ﷺ، فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم، وغيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

٢ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما الكاملو الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظماً له، وتهيباً من جلاله، وعزّه، وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة؛ لأنّ تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، وأثبت لقدمه. أو: زادتهم إيماناً بتلك الآيات؛ لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون، ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم، لا يخشون، ولا يرجون إلا إياه.

٣ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل، والإخلاص، والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة، والصدقة.

٤ - ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً. أو: هو مصدر مؤكّد للجملة التي هي: ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حقّ ذلك حقاً. وعن الحسن - رحمه الله -: أن رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، والبعث، والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية؛ فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟! وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية. أي: كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً. وبهذا يتشبت من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وكان أبو حنيفة - رحمه الله - لا يقول ذلك. وقال لقتادة: لم تستثن في إيمانك؟ قال: أتباعاً لإبراهيم في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. فقال له: هلاً اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وعن إبراهيم التيمي: قل أنا مؤمن حقاً، فإن صدقت أثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشدّ من كذبك. وعن ابن عباس

لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ
بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ ﴿٢﴾

- رضي الله عنهما -: من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً. وقد احتج عبد الله على أحمد فقال: ايش اسمك؟ فقال: أحمد. فقال: أأقول أنا أحمد حقاً، أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقاً. فقال: حيث سمّاك والدك لا تستثني، وقد سمّاك الله في القرآن مؤمناً تستثني؟! ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ضاف عن كذا الاكتساب، وخوف الحساب.

٥ - الكاف في: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في محلّ النصب، على أنه صفة لمصدر الفعل المقدّر. والتقدير: قل الأنفال استقرّت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل إخراج ربك إياك من بيتك، وهم كارهون ﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجرة ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِالْحَقِّ﴾ إخراجاً ملتبساً بالحكمة، والصواب ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ﴾ في موضع الحال. أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك: أنّ عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان، فأخبر جبريل النبي ﷺ، فأخبر أصحابه، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير، وقلة القوم. فلما خرجوا علمت قريش بذلك، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهو النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقليل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل، ونجت. فأبى، وسار بمن معه إلى بدر. وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة. ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريشاً. فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «العير أحب إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثم ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير، ودع العدو. فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - فأحسنّا، ثم قام سعد بن عبادة

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِذُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ

فقال: انظر أمرك فامض، فوالله! لو سرت إلى عدن أبين^(١) ما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: امض لما أمرك الله، فإننا معك حيث أحببت، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف. فضحك رسول الله ﷺ. وقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله! لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. فسر بنا على بركة الله. ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. والله! لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(٢). وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ قَرِيْبًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، ويحتمل أن يكونوا مخلصين، وأن يكون ذلك كراهة طبع، لأنهم غير متأهين له.

٦ - ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ: تلقى النفي لإيثارهم عليه تلقى العير ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون. وجدالهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد. وذلك لكراحتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يُعتل^(٣) إلى القتل، ويُساق على الصغار إلى الموت، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان.

٧ - ﴿وَإِذْ يَعِذُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ «إذ»: منصوب باذكر، و﴿إِحْدَى﴾

(١) «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن، ف قيل: عدن أبين.

(٢) القصة في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١-٣٣).

(٣) «يُعتل»: يجذب جذباً عنيفاً.

أَنَّهُا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ
الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ

مفعول ثان ﴿أَنَّهُا لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إحدى الطائفتين﴾ وهما: العير، والنفير. والتقدير: وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: العير. وذات الشوكة: ذات السلاح. والشوكة كانت في النفير لعددهم وعُدَّتْهم، أي: تتمنون أن تكون لكم العير، لأنها الطائفة التي لا سلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: يشبته، ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته المنزل في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قلب بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم. والدابر: الآخر، فاعل، من: دبر؛ إذا أدبر. وقطع الدابر: عبارة عن الاستئصال. يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وأعزكم، وأذلهم.

٨ - ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلق بيقطع. أو: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ فعل ذلك. والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص، أي: ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. وليس هذا بتكرار؛ لأن الأول تمييز بين الإرادتين، وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

٩ - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: متعلق بقوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله، يقولون: أي ربنا! انصرنا على عدوك! يا غياث المستغيثين أغثنا! وهي طلب الغوث، وهو: التخليص من المكروه ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ فأجاب. وأصل ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾: بأنني ممدكم، فحذف الجار، وسلط عليه «استجاب»

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً
مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ

فنصب محله ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ ﴿مُرْدَفِينَ﴾ مدني. غيره بكسر الدال.
فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكاً آخر.
يقال: ردفه: إذا تبعه، وأردفته إياه: إذا أتبعته.

١٠ - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمداد الذي دلّ عليه ﴿مَدَّكُمْ﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾
إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: أنكم استغثتم، وتضرعتم
لقلّتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على
قلوبكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإن
الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو: ﴿وما النصر﴾ من الملائكة وغيرهم من
الأسباب ﴿إلا من عند الله﴾ والمنصور من نصره الله.

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر. فقيل: نزل جبريل - عليه السلام - في
خمسئة ملك على الميمنة، وفيها: أبو بكر - رضي الله عنه - وميكائيل في خمسئة
على الميسرة وفيها: علي - رضي الله عنه - في صورة الرجال عليهم ثياب بيض،
وعمائم بيض، قد أرخوا أذناهما بين أكتافهم، فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن
مسعود: من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة،
قال: فهم غلبونا لا أنتم. وقيل: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثرّون السواد
ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

١١ - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثان من: ﴿إِذْ يَعِدْكُمْ﴾. أو: منصوب بالنصر،
أو: بإضمار اذكر. ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ مدني ﴿النُّعَاسُ﴾ النوم، والفاعل هو الله على
القراءتين ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ مكّي، وأبو عمرو ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له. أي: إذ
تنعسون أمنة، بمعنى: أمانة، أي: لأمنكم. أو: مصدر، أي: فأمتم أمنة.
فالنوم يزيحُ الرعب، ويريح النفس ﴿مِنَهُ﴾ صفة لها، أي: أمنة حاصلة لكم
من الله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصري. وبالتشديد غيرهم ﴿عَلَيْكُمْ مِّنَ

السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

السَّمَاءِ مَاءً ﴿١١﴾ مطراً ﴿١٢﴾ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ ﴿١٣﴾ بالماء من الحدث، والجنابة. ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش، أو: الجنابة من الاحتلام؛ لأنه من الشيطان. وقد وسوس إليهم: أن لا نصرة مع الجنابة ﴿١٦﴾ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴿١٧﴾ بالصبر ﴿١٨﴾ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٩﴾ أي: بالماء. إذ الأقدام كانت تسوخ في الرمل. أو: بالربط؛ لأن القلب إذا تمكّن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال.

١٢ - ﴿١٣﴾ إِذْ يُوحِي ﴿١٤﴾ بدل ثالث من ﴿١٥﴾ إِذْ يَعِدْكُمْ ﴿١٦﴾ أو: منصوب بـ «يُثَبِّتُ» ﴿١٧﴾ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴿١٨﴾ بالنصر ﴿١٩﴾ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٢٠﴾ بالشرى. كان الملك يسير أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم ﴿٢١﴾ سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴿٢٢﴾ هو امتلاء القلب من الخوف. و﴿٢٣﴾ الرُّعْبُ ﴿٢٤﴾ شامي، وعلي ﴿٢٥﴾ فَأَضْرِبُوا ﴿٢٦﴾ أمر للمؤمنين، أو للملائكة. وفيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿٢٧﴾ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴿٢٨﴾ أي: أعالي الأعناق؛ التي هي المذابح تطيراً للرؤوس، أو: أراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، يعني: ضرب الهام ﴿٢٩﴾ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٣٠﴾ هي الأصابع، يريد: الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى^(١)؛ لأن الضرب إما أن يقع على مقتل، أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

١٣ و ١٤ - ﴿١٥﴾ ذَلِكَ ﴿١٦﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب، والقتل، والعقاب العاجل. وهو مبتدأ، خبره: ﴿١٧﴾ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿١٨﴾. أي: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم، أي: مخالفتهم. وهي مشتقة من الشق؛ لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه. وكذا المعادة والمخاصمة؛ لأن هذا في

(١) «الشوى»: أطراف الجسم.

وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاُكِبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا
تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى
فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَكِنِ اللَّهُ قَتَلَهُمْ

عدوة وخُصم، أي: جانب، وذاك في عدوة وخصم ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
﴿فَاُكِبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والكاف في ﴿ذلك﴾ لخطاب الرسول، أو لكل أحد.
وفي ﴿ذلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات. ومحلّه: الرفع على ﴿ذلكم﴾
العقاب، أو: العقاب. ﴿ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ﴾ والواو في: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ﴾ بمعنى مع. أي: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم
في الآخرة. فوضع الظاهر موضع الضمير.

١٥ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ حال من ﴿الذين
كفروا﴾. والزحف: الجيش الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف، أي: يدب ديباً،
من زحف الصبي: إذا دب على استه قليلاً قليلاً. سُمِّي بالمصدر ﴿فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَذْبَارَ﴾ فلا تصرفوا عنهم منهزمين. أي: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير،
وأنتم قليل، فلا تفروا، فضلاً أن تدانوهم في العدد، أو تساووهم، أو: حال
من المؤمنين، أو: من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

١٦ - ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلاً ﴿لِقُنَالٍ﴾ هو الكرّ بعد الفرّ،
يخيل عدوه أنه منهزم، ثم يعطف عليه، وهو من خدع الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾
منضمّاً ﴿إِلَى فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وهما
حالان من ضمير الفاعل في ﴿يُولِهِمْ﴾ ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ووزن متحيز متفيعل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز، فبناء
متفعل منه متحوز.

١٧ - وَلَمَّا كَسَرُوا أَهْلَ مَكَّةَ، وقتلوا، وأسروا، وكان القاتل منهم يقول
تفاخراً: قتل وأسرت، قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنِ اللَّهُ قَتَلَهُمْ﴾ الفاء
جواب لشرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكن

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ رَحْمَىٰ وَلِلسَّلَاسِلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

الله قتلهم. ولَمَّا قَالَ جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فرمى بها في وجوههم، قال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا، قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ^(١) يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ رَحْمَى﴾ يعني: أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم. وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً، لا كما تقول الجبرية والمعتزلة؛ لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم نفاه عنه وأثبتته لله تعالى بقوله: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى﴾، ولكن الله قتلهم ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى﴾ بتخفيف ﴿لَكِنْ﴾ شامي، وحمة، وعلي ﴿وَلِلسَّلَاسِلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيههم ﴿مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ عطاء جيلاً. والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعل إلا لذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

١٨ - ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن. ومحلّه الرفع، أي: المراد ذلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ذَلِكُمْ﴾. أي: المراد إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ شامي، وكوفي غير حفص ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ حفص. ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ غيرهم.

١٩ - ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم. وهو خطاب لأهل مكة لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على الحق فانصرنا. وقيل: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ خطاب للمؤمنين، و﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ للكافرين ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

وَأَن تَعُودُوا نَعْدًا وَلَن تُغْفَى عَنْكُمْ فَنُفِثَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الَّذِينَ لَكُمْ أَلْمُومُونَ ﴿٢٢﴾

وَأُسلِم ﴿وَأَن تَعُودُوا﴾ لمحاربته ﴿نَعْدًا﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْفَى عَنْكُمْ﴾ فَنُفِثَكُمْ ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ جمعكم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عدداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالفتح: مدني، وشامي، وحفص. أي: ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك. وبالكسر غيرهم. ويؤيده قراءة عبد الله «والله مع المؤمنين».

٢٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن رسول الله ﷺ؛ لأن المعنى: أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. أو: يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولّوا عن هذا الأمر وأمثاله. وأصله: ولا تتولّوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعون. أو ﴿ولا تتولّوا﴾ عن رسول الله ﷺ، ولا تخالفوه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: تصدّقون؛ لأنكم مؤمنون، لستم كالصم المكذّبين من الكفرة.

٢١ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي: ادّعوا السماع، وهم المنافقون، وأهل الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين. والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن، والنبوة، فإذا تولّيتهم عن طاعة الرسول في بعض الأمور، من قسمة الغنائم وغيرها، أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال:

٢٢ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ لَكُمْ أَلْمُومُونَ﴾ أي: إن شر من يدب على وجه الأرض البهائم وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه. جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها؛ لأنهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

٢٣ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقاً، ورغبة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عنه. أي: ولو أسمعهم، وصدقوا، لا رتدوا بعد ذلك، ولم يستقيموا ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

٢٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وخذ الضمير أيضاً، كما وحده فيما قبله؛ لأن استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته. والمراد بالاستجابة: الطاعة، والامتثال، وبالدعوة: البعث، والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لَا تُعْجِبَنَّ الْجَهْلُ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنٌ
أو لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم، وقتلوهم. أو: للشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: يميته، فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي: التمكن من إخلاص القلب. فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله. أو: بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة، فيفسخ عزائمه ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون، فيثيبكم على حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة.

٢٥ - ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً﴾ عذاباً ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هو جواب للأمر، أي: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم. وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؛ لأن فيه معنى النهي، كما إذا قلت: انزل عن الدابة لا تطرحك، وجاز: لا تطرحنك. ﴿ومن﴾ في ﴿منكم﴾ للتبعيض ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيَأْبَسَكُمْ بِبَصِيرِهِ ۚ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا

٢٦ - ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ مفعول به لا ظرف، أي: واذكروا وقت كونكم أقلّة أذلة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ لأنّ الناس كانوا لهم أعداء مضادين ﴿فَتَأْوِنَكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَيَأْبَسَكُمْ بِبَصِيرِهِ﴾ بمظاهرة الأنصار، وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم، ولم تحل لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

٢٧ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ بأن تعطلوا فرائضه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بالآلا تستنوا به ﴿وَتَخُونُوا﴾ جزم عطف على ﴿لا تخونوا﴾ أي: ولا تخونوا ﴿أَمْنَكُمْ﴾ فيما بينكم بالآلا تحفظوها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك، ووباله. أو: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون. يعني: أنّ الخيانة توجد منكم عن تعمد، لا عن سهو. أو: وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن، وقبح القبيح. ومعنى الخون: النقص، كما أنّ معنى الوفاء: التمام. ومنه: تخونه: إذا انتقصه. ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

٢٨ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة، وهي: الإثم، والعذاب، أو: محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك، وترهّدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الولد.

٢٩ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصراً، لأنّه يفرق بين الحق وبين الكفر، ياذلال حزبه؛ والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم، ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: سطع الفرقان،

وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: طلع الفجر، أو مخرجاً من الشبهات، وشرحاً للصدور، أو: تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: الصغائر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، أي: الكبائر ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على عباده.

٣٠ - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما فتح عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم، واستيلائه عليهم. والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك. وذلك: أن قريشاً لما أسلمت الأنصار فرّقوا^(١) أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد دخلت مكة، فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً. فقال أبو البخترى: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه غير كوة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بش الرأي! يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحمله على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، واسترحتم. فقال إبليس: بش الرأي! يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل - لعنه الله -: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم. فإذا طلبوا العقل عقلناه، واسترحنا. فقال اللعين: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً! فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ، وأمره ألا يبيت في مضجعه، وأذن له الله في الهجرة، فأمر علياً، فنام في مضجعه، وقال له: «أتشع بردي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وباتوا مترصدين. فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه،

(١) «الفرق»: الخوف.

لِيُنِشُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا
ثُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

فأبصروا علياً، فبهتوا، وخيب الله سعيهم، واقتفوا أثره، فأبطل الله مكرهم ^(١)
﴿لِيُنِشُوكَ﴾ ليحبسوك، ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من
مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى
يأتيهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره، وأبلغ تأثيراً.

٣١ - كان ﷺ يقرأ القرآن، ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته، فقال
النضر بن الحارث: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس
بنسخة حديث رستم، وأحاديث العجم، فنزل: ﴿وَإِذَا ثُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي:
القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا
صلف منهم، ووقاحة؛ لأنهم دُعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا
القرآن، فلم يأتوا به.

٣٢ - ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾
﴿هَذَا﴾ اسم كان. و﴿هو﴾ فصل. و﴿الحق﴾ خبر كان. روي: أَنَّ النضر لما
قال: (إن هذا إلا أساطير الأولين) قال له النبي - عليه الصلاة والسلام -:
«ويلك هذا كلام الله». فرفع النضر رأسه إلى السماء، وقال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ﴿فَأَمْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: إن كان القرآن هو
الحق، فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم. فقتل يوم بدر صبراً. وعن معاوية:
أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك! حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل
من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ

(١) قال ابن حجر: القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي . (حاشية الكشف ٢ / ٢١٥).

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً

الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿٣٣﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له!

٣٣ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفي. والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين وسنته ألا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نيتهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو في موضع الحال. ومعناه: نفي الاستغفار عنهم. أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم. أو: معناه: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم؛ ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

٣٤ - ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذبهم الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم: أنهم يصدّون عن المسجد الحرام، كما صدّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية. وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد. وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء. فقليل: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ من المسلمين. وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند. أو: أراد بالأكثر الجميع؛ كما يُراد بالقلّة العدم.

٣٥ - ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ صغيراً كصوت المكاء، وهو طائر مليح الصوت. وهو فعال، من: مكا يمكو: إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقاً، تفعله من الصدى. وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم

فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها، ويصفقون. وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم.

٣٦ - ونزل في المطعمين يوم بدر. وكانوا اثني عشر رجلاً، وكلهم من قريش. وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد ﷺ، وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكان ذاتها تصوير ندماً، وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر. وهو من دلائل النبوة؛ لأنه أخبر عنه قبل وقوعه، فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم من أسلم، وحسن إسلامه.

٣٧ - واللام في: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿وَمِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق الطيب من المؤمنين. متعلقة بيحشرون، ﴿لِيَمِيزَ﴾: حزة، وعلي ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم، وأموالهم.

٣٨ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أبي سفيان وأصحابه ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقاتله، بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ لقاتله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى.

وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُُونَ الَّذِينَ كَلَّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمْ الْمَوْلَى
وَنَعَمْ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

أو: معناه: أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر، وأسلموا، غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي. وبه احتج أبو حنيفة - رحمه الله - في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

٣٩ - ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ إلى ألا يوجد فيهم شرك قط ﴿وَيَكُُونَ الَّذِينَ كَلَّهُ لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن الكفر، وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يشيهم على إسلامهم.

٤٠ - ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ ناصركم، ومعينكم، فثقوا بولايته، ونصرته ﴿نَعَمْ الْمَوْلَى﴾ لا يضيع من تولاها ﴿وَنَعَمْ النَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره، والمخصوص بالمدح محذوف.

٤١ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ «ما» بمعنى الذي. ولا يجوز أن يكتب إلا مفصلاً إذ لو كتب موصولاً، لوجب أن تكون ما كافة. وغنمتم صلته. والعائد محذوف، والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانه. قيل: حتى الخيط والمخيط ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والفاء إنما دخلت لما في «الذي» من معنى المجازاة. وأن وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ، تقديره: فالحكم: أن لله خمسة ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني عبد المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل - استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم - وثلاثة أسهم لليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأما بعد رسول الله ﷺ فسهمة ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى. وإنما يعطون لفقرهم، ولا يعطى أغنياؤهم. فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان

إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ

على ستة: لله والرسول سهران، وسهم لأقاربه حتى قبض. فأجرى أبو بكر - رضي الله عنه - الخمس على ثلاثة، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء - رضي الله عنهم - ومعنى لله وللرسول: لرسول الله كقوله: ﴿وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ فاعملوا به، وارضوا بهذه القسمة. فالإيمان يُوجب الرضا بالحكم، والعمل بالعلم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ معطوف على ﴿بِاللّٰهِ﴾ أي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ وبالنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد: ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ. وهو بدل من يوم الفرقان ﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير. كما فعل بكم يوم بدر.

٤٢ - ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ بدل من يوم الفرقان. أو: التقدير: اذكروا ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ ﴿بِالْعُدُوِّ﴾ شط الوادي. وبالكسر^(١) فيهما: مكّي، وأبو عمرو ﴿الدُّنْيَا﴾ القربى إلى جهة المدينة، تأنيث الأدنى ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى﴾ البعدى عن المدينة، تأنيث الأقصى. وكلتاها فعلى من بنات الواو. والقياس قلب الواو ياء، كالعليا تأنيث الأعلى. وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير، وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ نصب على الظرف، أي: مكاناً أسفل من مكانكم. يعني: في أسفل الوادي بثلاثة أميال، وهو مرفوع المحل لأنه خبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وأهل مكة، وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لخالف بعضهم بعضاً. فنبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين. فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه

وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ

الله، وسبب له ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته. أو: اللام تتعلق بمحذوف، أي: ليقضي الله أمراً كان ينبغي أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: القضاء يحتمل الحكم، أي: ليحكم ما علم أنه يكون كائناً، أو ليتّم أمراً كان قد أراده - وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة - وهو عزّ الإسلام وأهله، وذللّ الكفر وحزبه. ويتعلق بـ «يقضي» ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿حَيٍّ﴾ نافع، وأبو عمرو. فالإدغام لالتقاء المثليين، والإظهار؛ لأنّ حركة الثاني غير لازمة؛ لأنك تقول في المستقبل: يحيا، والإدغام أكثر. استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبهة؛ حتى لا يبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنّه دين الحق؛ الذي يجب الدخول فيه، والتمسك به. وذلك أنّ وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها، ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين، وأنّ العير كانت أسفل منهم، مع أنّهم قد علموا ذلك كلّهم مشاهدة؛ ليعلم الخلق: أنّ النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب، بل بالله تعالى، وذلك: أنّ العدو القصوى؛ التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوّة الدنيا وهي خبار^(١) تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدّتهم، وقلة المسلمين، وضعفهم. ثمّ كان ما كان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

٤٣ - ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ نصب بإضممار اذكر. أو: هو متعلق بقوله:

(١) «الخبار»: ما لان من الأرض واسترخى.

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّدُورُ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

﴿لسميع عليهم﴾ أي: يعلم المصالح، إذ يقللهم في عينك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾. أي: في رؤياك. وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوهم ﴿وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ﴾ لجبستم، وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال، وترددتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم، وأنعم بالسلامة من الفشل، والتنازع، والاختلاف ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّدُورُ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة، والجبن، والصبر، والجزع.

٤٤ - ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان، أي: يبصركم إياهم ﴿إِذِ التَّفَقُّتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو نصب على الحال. وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعانيوا ما أخبرهم به، فيزداد يقينهم ويحدوا، ويثبتوا. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: لقد قللوا في أعيننا، حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وكانوا ألفاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور. قيل: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيما بعده؛ ليجترئوا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا، ويهابوا. ويجوز أن يبصروا الكثير قليلاً، بأن يستر الله بعضهم بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إنَّ الأحوال يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد، فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟! ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد ﴿تَرْجَعُ﴾: شامي، وحزة، وعلي.

٤٥ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتهم جماعة من الكفار.

فَاقْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ

وترك وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء: اسم غالب للقتال ﴿فَاقْبُتُوا﴾ لقتالهم، ولا تفروا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم! ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم، من النصر والمثوبة، وفيه إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون همّاً؛ وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره.

٤٦ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالجهاد، والثبات مع العدو، وغيرها ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فتجنبوا. وهو منصوب بإضمار أن، ويدل عليه: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم. يقال: هبت رياح فلان: إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره. شبهت في نفوذ أمرها، وتمشيته بالريح وهبوبها. وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله. وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصبا، وأهلكْتُ عاد بالدبور»^(١) ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: معينهم، وحافظهم.

٤٧ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير، فاتاهم رسولُ أبي سفيان: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتى نقدم بدرًا، ونشرب بها الخمر، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها العرب! فذلك بطرهم. وريأؤهم الناس: ياطعامهم. فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين، طريين، مرأئين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكأبة، والحزن من خشية الله،

(١) رواه أحمد (٣٢٤/١) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَبْكُ الَّذِينَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُتْ أَلَاءَ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

مخلصين أعمالهم لله. والبطر: أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم. وهو وعيد.

٤٨ - ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ واذكر ﴿إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ، ووسوس إليهم: أنهم لا يغلِبون. و﴿غالب﴾ مبنى، نحو: لا رجل. و﴿لكم﴾ في موضع رفع خبر ﴿لا﴾ تقديره: لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ أي: مجير لكم. أوهمهم أَنَّ طاعة الشيطان تما يجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ فلما تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هارباً ﴿عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقري ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي: رجعت عما ضمنت لكم من الأمان. روي: أن إبليس تمثل لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، في جند من الشيطان، معه راية، فلما رأى الملائكة تنزل نكص، فقال له الحارث بن هشام: أخذنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكة. وانهمزوا. فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغنني هزيمتكم. فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: عقوبته ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٤٩ - اذكروا ﴿إِذْ يَبْكُ الَّذِينَ الْمُتَنَفِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين، أو: أريد: والذين هم على حرف، ليسوا بثباتي الأقدام في الإسلام ﴿غَرَّهُتْ أَلَاءَ دِينِهِمْ﴾ يعنون: أن المسلمين اغتروا بدينهم، فخرجوا وهم ثلاثمئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوي بين وليه وعدوه.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٥٠ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ولو عاينت وشاهدت، لأن «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ﴿إِذ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلوا ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾ ظهورهم واستأههم إذا أدبروا. أو: وجوههم عند الإقدام، وأدبارهم عند الانهزام. وقيل: في ﴿يتوفى﴾ ضمير الله تعالى ﴿والملائكة﴾ مرفوعة بالابتداء ﴿ويضربون﴾ خبر. والأول الوجه. لأنّ الكفار لا يستحقّون أن يكون الله متوفّيهم بلا واسطة. دليله قراءة ابن عامر ﴿تَتَوَفَّى﴾ بالتاء ﴿وَذُفُّوا﴾ يقولون لهم: ﴿ذوقوا﴾ معطوف على ﴿يضربون﴾ ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: مقدّمة عذاب النار. أو: ﴿ذوقوا عذاب﴾ الآخرة بشارة لهم به. أو: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لرأيت أمراً فظيعاً.

٥١ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: كسبت، وهو ردّ على الجبريّة. وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة و﴿ذلك﴾ رفع بالابتداء و﴿بما قَدَّمْت﴾ خبره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأنّ الله ﴿لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛ لأنّ تعذيب الكفار من العدل. وقيل: «ظلام» للتكثير لأجل العبيد، أو: لنفي أنواع الظلم.

٥٢ - الكاف في: ﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه، أي: داوموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش، أو: من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمعنى: جروا على عادتهم في التكذيب، فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنُ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ ۖ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ۖ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ۖ

٥٣ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب، أو: الانتقام ﴿يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بسبب: أن الله لم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال. نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها. وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه، وسعوا في إراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

٥٤ - ﴿كَذَّابٌ ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنُ ۖ﴾ تكرير للتأكيد، أو: لأن في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك، والاستتصال ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم، وجحود الحق ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنَ ۖ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلُّ ۖ﴾ وكلهم من غرقى القبط، وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، والمعاصي.

٥٥ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ۖ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الإيمان.

٥٦ - ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين كفروا﴾، أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا. وجعلهم شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ۖ﴾

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَائِضِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ

كل معاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار، والنار.

٥٧ - ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ فإما تصادفهم، وتظفرون بهم ﴿فَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ ففرق عن محاربتك، ومناصبتك بقتلهم شر قتلة، والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتباراً بهم، واتعاضاً بحالهم. وقال الزجاج: افعل بهم ما تفرق به جمعهم، وتطرد به من عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعل المشركين من ورائهم يتعظون.

٥٨ - ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نكثاً بأمارات تلوح لك ﴿فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد. وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم، أي: حاصلين على استواء في العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِضِينَ﴾ الناقضين للعهد.

٥٩ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين: شامي، وحزة، ويزيد، وحفص. وبالتاء وفتح السين: أبو بكر. وبالتاء وكسر السين: غيرهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فاتوا، وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنهم لا يفتوتون، ولا يجيدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: شامي. أي: لأنهم. وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، غير أن المكسورة على طريقة الاستئناف، والمفتوحة تعليل صريح. فمن قرأ بالتاء ف﴿الذين كفروا﴾ مفعول أول، والثاني ﴿سبقوا﴾. ومن قرأ بالياء ف﴿الذين كفروا﴾ فاعل و﴿سبقوا﴾ مفعول، تقديره: أن سبقوا، فحذف أن. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أنهم سبقوا، فسد مسد المفعولين. أو: يكون الفاعل مضمراً، أي: ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين. ومن ادعى تفرد حزة بالقراءة ففيه نظر، لما بيناه من عدم تفرد بها. وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

٦٠ - ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد، أو لجميع الكفار

مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب من عُدِّها. وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةَ»^(١) قالها ثلاثاً على المنبر. وقيل: هي الحصون ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هو: اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله أو: هو جمع: ربيط، كفصيل وفصال. وخصّ الخيل من بين ما يتقوى به، كقوله: ﴿وَحَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ غيرهم. وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل فارس، أو كفرة الجن. وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْرُبُ صَاحِبَ فَرَسٍ، وَلَا دَاراً فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ»^(٢). ورؤي: أَنَّ صَهِيلَ الْخَيْلِ يَرْهَبُ الْجَنَّ. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفّر عليكم جزاؤه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ في الجزاء، بل تُعْطُونَ على التمام.

٦١ - ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مالوا. جنح له، وإليه: مال ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصلح. وبكسر السين: أبو بكر. وهو مؤنث تأنيث ضدها، وهو الحرب ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ، وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

٦٢ - ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ يمكروا، ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قواك ﴿بِالنَّصَارِ﴾ جميعاً، أو بالأنصار.

(١) رواه أحمد (٤ / ١٥٦ - ١٥٧) ومسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٢٣٢).

وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ

٦٣ - ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب الأوس والخزرج بعد تعدادهم مئة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال، لم يقدر عليه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضلِهِ ورحمته، وجمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التواذ والتحاب، وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يمدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر من يتبعونك.

٦٤ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو بمعنى مع، وما بعد منصوب. والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصر. ويجوز أن يكون في محل الرفع، أي: كفاك الله، وكفاك المؤمنون. قيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر، فنزلت.

٦٥ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: المبالغة في الحث على الأمر، من الحرص، وهو: أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه عِدَّةٌ من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار، بعون الله، وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب، وطلب ثواب، كالبهائم، فيقل ثباتهم، ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، بخلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو النصر من الله. قيل: كان عليهم ألا يفروا، ويثبت الواحد للعشرة. ثم ثقل عليهم ذلك، فنسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله:

٦٦ - ﴿أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ضعفاً حمزة وعاصم ﴿فَإِنْ

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخِفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ﴿﴾ بالبلاء فيها، كوفي، وافقه البصري في الأولى، والمراد الضعف في البدن ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أَنَّ الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت؛ إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المئتين والمئة الألف. وكذلك بين مقاومة المئة والمئتين والألف الألفين.

٦٧ - ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ﴾ ما صحَّ له، ولا استقام ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ بصري ﴿حَتَّى يَتُخِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثنان: كثرة القتل والمبالغة فيه من: الشخانة، هي: الغلظ والكثافة. يعني: حتى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزَّز الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك. روي: أَنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بسبعين أسيراً، فيهم العباس عمه وعقيل، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر فيهم، فقال: قومك وأهلك استبقهم لعلَّ الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر - رضي الله عنه -: كذبوك، وأخرجوك، فقدمهم، واضرب أعناقهم، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ. مَكَّنَ عَلِيّاً من عقيل، وحمزة من العباس، ومكني من فلان - لنسيب له - فلنضرب أعناقهم. فقال ﷺ: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]». ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ، وَاسْتَشْهَدْ مِنْكُمْ بَعْدْتُمْ». فقالوا: بل نأخذ الفداء. فاستشهدوا بأحد. فلَمَّا أَخَذُوا الْفِدَاءَ نَزَلَتِ الْآيَةُ^(١): ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا﴾ متاعها. يعني: الفداء، سَمَاهُ عَرَضاً لِقَلَّةِ بَقَائِهِ، وسرعة فَنَائِهِ

وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا
أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ في عتاب الأولياء.

٦٨ - ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ ألا يعذب أحداً على العمل بالاجتهاد. وكان هذا اجتهداً منهم؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربّما كان سبباً في إسلامهم، وأن فداءهم يُتَّقَوِي به على الجهاد، وخفي عليهم: أن قتلهم أعز للإسلام، وأهيب لمن ورائهم، أو: ما كتب الله في اللوح ألا يعذب أهل بدر، أو: ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار. وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد، فيكون حجة على منكري القياس. ﴿كتاب﴾ مبتدأ و﴿من﴾ الله ﴿صفته﴾ أي: لولا كتاب ثابت من الله. و﴿سَبَقَ﴾ صفة أخرى له. وخبر المبتدأ محذوف، أي: لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود. و﴿سَبَقَ﴾ لا يجوز أن يكون خبراً، لأن «لولا» لا يظهر خبرها أبداً ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم، وأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رُوي: أن عمر - رضي الله عنه - دخل على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت. فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - لشجرة قريبة منه ^(١) - ورُوي: أنه ﷺ قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» لقوله: كان الإثخان في القتل أحب إليّ ^(٢).

٦٩ - ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوي: أنهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدّوا أيديهم إليها فتزلت. وقيل: هو إياحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم. والفاء للتسبب، والسبب محذوف، ومعناه: قد أحللت لكم الغنائم ﴿فَكُلُوا﴾ ﴿حَلَالًا﴾ مطلقاً

(١) رواه أحمد (٣١/١) ومسلم (١٧٦٣) (٥٨).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/٤٤).

طَيْبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

عن العتاب والعقاب. من: حلّ العقال. وهو نصب على الحال من المغنوم، أو: صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً ﴿طَيْبًا﴾ لذيذاً هنيئاً، أو: حلالاً بالشرع، طيباً بالطبع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تقدموا على الشيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

٧٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ﴾ في ملكتكم، كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿مِنَ الْأَسَارَى﴾ أبو عمرو، جمع: أسرى ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان، وصحة نية ﴿يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو: يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روي: أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضاً لصلاة الظهر، وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، وأرجو المغفرة. وكان له عشرون عبداً، وإن أدناهم ليتجر في عشرين ألفاً، وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقة من الآخر^(١).

٧١ - ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة، أو: منع ما ضمنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كفرهم به، ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك منهم، أي: أظفرك بهم، كما رأيتم يوم بدر، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالمال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر في الحال.

٧٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من مكة حباً لله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ
فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ
كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٧٢﴾ هم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا﴾ أي: آووههم إلى
ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. وهم الأنصار ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي:
يتولى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة
وبالنصرة، دون ذوي القربات، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقيل: أراد به النصرة والمعاونة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ
يُهَاجِرُوا﴾ من مكة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ﴾ من توليهم في الميراث ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ﴾:
حزمة. وقيل: هما واحد ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ فكان لا يرث المؤمن الذي لم
يهاجر ممن آمن وهاجر. ولما أبقي للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت
الهجرة فريضة، فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة، دلّ على أن صاحب الكبيرة
لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ أي: من أسلم ولم يهاجر ﴿فِي الدِّينِ
فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: إن وقع بينهم وبين الكفار قتال، وطلبوا معونة،
فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فإنه
لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتدون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك
﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدي حد الشرع.

٧٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم. ومعناه:

نهي المسلمين عن موالاة الكفار، وموارثتهم، وإيجاب مباعدهم، ومصارمتهم،
وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾
أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولي بعضهم بعضاً، حتى
في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفار
كلا قرابة، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تحصل فتنة في الأرض،

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً.

٧٤ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم، وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن، ومفارقة الأهل، والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا؛ لأجل الدين والعقبى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لامتنة فيه، ولا تنغيص. ولا تكرار: لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضيلاً وترغيباً ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ وأولو القربابات أولى بالتوارث. وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وقسمته، أو: في اللوح، أو: في القرآن. وهو آية الموارث. وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه. قسم الناس أربعة أقسام: قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشش من النفاق، أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكلهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال: فعن عليّ وابن عباس - رضي الله عنهم -: أن بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان. وعن عثمان - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية، قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفي رسول الله ﷺ، ولم يُبين لنا أين نضعها. وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال؛ لأن فيها ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود؛ فلذلك قرنت بينهما. وكانتا تدعيان: القريتين. وتعدان السابعة من الطوال، وهي سبع. وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، نزلت في القتال. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

١ - ﴿بَرَاءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿براءة﴾ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية، متعلّق بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. أي: هذه براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم، كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان. أو: مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ كقولك: رجل من بني تميم في الدار. والمعنى: أنّ الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنّه منبوذ إليهم.

٢ - ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا في الأرض كيف شئتم. والسيح: السير على مهل. روي: أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فمكثوا إلا ناساً منهم، وهم بنو ضمرة، وبنو كنانة. فنبد العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا، لا يتعرّض لهم. وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان. وكان الأمير فيها عتّاب بن أسيد. وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليّاً راكب العضباء ليقراها على أهل الموسم. فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدّي عني إلا رجل منّي» فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يوم النحر عند جرة العقبة فقال: يا أيها الناس! إني رسول الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين، أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمّ إلى كلّ ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ! أبلغ ابن عمك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنّه

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ

ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف^(١). والأشهر الأربعة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، أو عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر. وكانت حرماً؛ لأنهم أومنوا فيها، وحرم قتلهم وقتالهم، أو: على التغليب؛ لأن ذا الحجة والمحرم منها. والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم، وأن ذلك قد نسخ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ مذلهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

٣ - ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع ﴿براءة﴾ على الوجهين. ثم الجملة معطوفة على مثلها. والأذان بمعنى الإيذان، وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والفرق بين الجملة الأولى والثانية: أن الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين، وعلقت الأذان بالناس؛ لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم. وأما الأذان فعام لجميع الناس؛ من عاهد، ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين، ومن لم ينكث ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة، لأن الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج، أو: يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحج بالأكبر، لأن العمرة تُسمى: الحج الأصغر ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بأن الله، حذف صلة الأذان تخفيفاً ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على المنوي في ﴿بريء﴾، أو: على الابتداء، وحذف الخبر، أي: ورسوله بريء. وقرئ بالنصب عطفاً على اسم إن، والجر على الجوار، أو: على القسم، كقولك: لعمرك. وحكي: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء. فلبّيه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر بتعلم العربية ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوبة

(١) قال ابن حجر: هذا ملق من مواضع. (حاشية الكشاف ٢/٢٤٣).

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو: تبتم على التولي والإعراض عن الإسلام ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ غير سابقين الله، ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم.

٤ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والمعنى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ فقولوا لهم: سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد، أو: وفوا بالعهد ولم ينقضوه. وقرئ ﴿لم ينقضوكم﴾ أي: عهدكم، وهو أليق. لكن المشهورة أبلغ؛ لأنه في مقابلة التمام ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدوًّا ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأدوه إليهم تامًّا كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم. والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: لكن الذين لم ينكثوا فأتوا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الموفي كالغادر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن قضية التقوى ألا يسوى بين الفريقين، فاتقوا الله في ذلك.

٥ - ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ﴾ مضى، أو خرج ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم، وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من حل أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ: الأسر ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ وقيدوهم. وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ كل ممر ومجتاز ترصدونهم به. وانتصابه على الظرف ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فاطلقوا عنهم بعد الأسر

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ
 اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ
 عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
 اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

والحصر، أو: فكفوا عنهم، ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الكفر
 والغدر بالإسلام ﴿رَحِيمٌ﴾ برفع القتل قبل الأداء بالالتزام.

٦ - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ «أحد» مرتفع بفعل شرط
 مضممر يفسره الظاهر، أي: وإن استجارك أحد استجارك. والمعنى: وإن جاءك
 أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه، واستأمنك لسمع
 ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ويتدبره، ويطلع
 على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ اتْلُغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُ﴾ داره التي يأمن فيها إن لم
 يسلم، ثم قاتله إن شئت. وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى، وليس له
 الإقامة في دارنا، ويُمكن من العود ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر بالإجارة في قوله:
 ﴿فأجره﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام،
 وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا، أو يفهموا
 الحق.

٧ - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ «كيف»
 استفهام في معنى الاستنكار، أي: مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا
 في ذلك، ولا تحدثوا به نفوسكم، ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك
 بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكت كبنى كنانة، وبنى ضمرة، فتريصوا أمرهم،
 ولا تقتلوهم ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ﴾ ولم يظهر منهم نكت، أي: فما أقاموا على
 وفاء العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء. و«ما» شرطية، أي: فإن ﴿استقاموا
 لكم فاستقيموا لهم﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن التريص بهم من أعمال
 المتقين.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَسَدُوا عَنْ
سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد. وحذف الفعل لكونه معلوماً، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا﴾ لا يراعوا حلفاً، ولا قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان، والوفاء بالعهد. وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان، والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون العهد، أو متمردون في الكفر، لا مروءة تمنعهم عن الكذب، ولا شمائل تردعهم عن النكث، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما.

٩ - ﴿أَشْتَرُوا﴾ استبدلوا ﴿بِعَاقِبَتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو: اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَوَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه، وصرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بش صنيع صنيعهم.

١٠ - ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ «ولا» تكرار، لأن الأول على الخصوص حيث قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم، لأنه قال: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم، والشرارة.

١١ - ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم؛ على حذف المبتدأ ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون فيفتكرون فيها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها، فهو العالم تحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

وَأِنْ لَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ

١٢ - ﴿وَأِنْ لَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وعابوه ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم. فوضع ﴿أئمة الكفر﴾ موضع ضمير «هم» وهم ^(١) رؤساء الشرك، أو زعماء قريش الذين هموا بإخراج الرسول. وقالوا: إذا طعن الدمي في دين الإسلام طعنًا ظاهرًا جاز قتله، لأن العهد معقود معه على ألا يطعن. فإذا طعن فقد نكث عهده، وخرج من الذمة. ﴿أئمة﴾ بهمزتين: كوفي، وشامي. الباقيون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة. أصلها: أئمة، لأنها جمع إمام؛ كعماد وأعمدة، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة، وأدغمت في الميم الأخرى. فمن حَقَّق الهمزتين أخرجهما على الأصل، ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ وإنما أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها، ثم قال: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة. وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يميناً. ومعناه عند الشافعي - رحمه الله - أنهم لا يوفون بها، لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث. ﴿لَا إِيْمَانُ﴾: شامي، أي: لا إسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ وما بينهما اعتراض، أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عما هم عليه بعد ما وجد منهم من العظائم. وهذا من غاية كرمه على المسيء.

١٣ - ثم حرَّض على القتال فقال: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ بالقتال، والبادئ أظلم. فما يمنعكم من أن تقاتلوهم؟! ونجهم بترك مقاتلتهم، وحشم عليها. ثم وصفهم بما يوجب الحث عليها من نكث العهد، وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَاتْلَوْهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورٌ قَوِّمٌ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ توبيخ على الخشية منهم ﴿فَاللَّهُ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ بأن تخشوه، فقاتلوا أعداءه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فاخشوه، أي: إِنْ قَضَيْتَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ الْآ بِخَشَى الْمُؤْمِنِ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَبَالِي بِمَنْ سِوَاهُ.

١٤- وَلَمَّا وَتَخَهُمُ اللَّهُ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ جَرَّدَ لَهُمُ الْأَمْرَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتْلَوْهُمْ﴾، وَوَعَدَهُمُ النَّصْرَ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَهُمْ، وَيُصْخَحَ نِيَّتَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قِتْلًا ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ أَسْرًا ﴿وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يَغْلِبُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوِّمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَهُمْ خِزَاةٌ عِيَّةٌ ^(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٥- ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لَمَّا لَقُوا مِنْهُمْ مِنَ الْمَكْرِهِ. وَقَدْ حَصَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْمَوَاعِيدَ كُلَّهَا، فَكَانَ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نَبَوْتِهِ ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابْتِدَاءً كَلَامًا، وَإِخْبَارًا بِأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ مَكَّةَ يَتُوبُ عَنْ كُفْرِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا، فَقَدْ أَسْلَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ؛ كَأَبِي سَفْيَانَ، وَعُكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَسَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو. وَهِيَ تَرَدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ قَوْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَ أَنْ يَتُوبَ عَلَى جَمِيعِ الْكُفْرَةِ، لَكِنْهُمْ لَا يَتُوبُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ، كَمَا يَعْلَمُ مَا قَدْ كَانَ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ.

١٦- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ﴿أَمْ﴾. مَنْقُطَعَةٌ، وَالْهَمْزَةُ فِيهَا لِلتَّوْبِخِ عَلَى وَجُودِ الْحِسْبَانِ، أَيْ: لَا تَتْرَكُونَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْخُلُوصُ مِنْكُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوَجْهَ اللَّهِ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أَيْ: بَطَانَةً مِنَ الَّذِينَ يَضَادُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَلَمَّا: مَعْنَاهَا التَّوَقُّعُ. وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ تَبَيَّنَ ذَلِكَ

وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ

متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على ﴿جاهدوا﴾ داخل في حيز الصلاة. كأنه قيل: ولما يعلم المجاهدين منكم والمخلصين، غير المتخذين وليجة من دون الله. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كقولك: ما علم الله مني ما قيل في، تريد: ما وجد ذلك مني. والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة، ولا براءة من المشركين ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فيجازيكم عليه.

١٧ - ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم، وما استقام ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: (مسجد الله) مكّي، وبصري. يعني: المسجد الحرام. وإنما جمع في القراءة بالجمع، لأنه قبله المساجد، وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. أو: أريد جنس المساجد. وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام، الذي هو صدر الجنس، وهو أكد؛ إذ طريقه طريق الكناية، كما تقول: فلان لا يقرأ كتب الله، فإنه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام. وهو حال من الواو في ﴿يعمروا﴾. والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وعبادته ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون.

١٨ - ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عمارتها: رم ما استرم منها، وقمها، وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وصيانتها بما لم تبني له المساجد من أحاديث الدنيا، لأنها بنيت للعبادة والذكر. ومن الذكر: درس العلم ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام لما علم أن الإيمان بالله قريته الإيمان بالرسول، لاقتراهما في الأذان، والإقامة، وكلمة الشهادة، وغيرها. أو: دل عليه بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾. وفي

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ تنبيه على الإخلاص. والمراد: الخشية في أبواب الدين، بالأختيار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف؛ إذ المؤمن قد يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألا يخشاها. وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم، لأن عسى كلمة إطماع. والمعنى: إنما تستقيم عمارة هؤلاء، وتكون معتداً بها عند الله دون سواهم.

١٩ - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ السقاية والعمارة مصدران من: سقى، وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بد من مضاف محذوف، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقيل: المصدر بمعنى الفاعل، يصدقه قراءة ابن الزبير: (سُقَاةُ الْحَاجِّ وَعَمَرَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ). والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يُسَوَّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما. نزلت جواباً لقول العباس حين أُسر، فطفق عليّ - رضي الله عنه - يوبّخه بقتال رسول الله ﷺ، وقطيعة الرحم: تذكر مساوينا وتدع محاسننا؟ فقل: أولكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد، ونسقي الحاج، ونفك العاني. وقيل: افتخر العباس بالسقاية، وشيية بالعمارة، وعليّ - رضي الله عنه - بالإسلام والجهاد. فصّدق الله تعالى علياً.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من أهل السقاية، والعمارة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ لا أنتم المختصون بالفوز دونهم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءِبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

٢١ - ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ : يبشرهم : حمزة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ﴾ تنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف، وتعريف المعرف ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

٢٢ - ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ : لا ينقطع.

٢٣ - لما أمر الله النبي ﷺ بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه، ولأخيه، ولقرابته : إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده، فيقول : تدعنا بلا شيء فنضيع ! فيجلس معهم، ويدع الهجرة. فنزل : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي : آثروه، واختاروه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾.

٢٤ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءِبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ أَقَارِبُكُمْ﴾ (وعشيراتكم) : أبو بكر ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وهو عذاب عاجل، أو عقاب أجل، أو فتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والآية تنعي على الناس مما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أروع الناس ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والأموال، والحفظ.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

٢٥- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوقعة بدر، وقریظة، والنضیر، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة. وقيل: إن المواطن التي نصر الله فيها النبي ﷺ والمؤمنين ثمانون موطناً. ومواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكروا ﴿يوم حنين﴾ ﴿حُنَيْنٍ﴾ وإد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف. فلما التقوا قال رجلٌ من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة! فساءت رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يوم﴾ ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدرکت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلهم^(١) مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده، وهو ثابت في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه آخذاً بركابه. فقال للعباس: «صح بالناس» - وكان صيتاً - فنأدى: يا أصحاب الشجرة! فاجتمعوا وهم يقولون: لبيك لبيك. ونزلت الملائكة عليهم الثياب البياض على خيول بلق^(٢). فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب فرماهم به. ثم قال: «انهزموا وربّ الكعبة». فانهزموا^(٣). وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان». وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «ما» مصدرية. والباء بمعنى مع، أي: مع رُحْبها. وحقيقته ملتبسة برحبها، على أن الجارّ والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بشباب السفر، أي: ملتبساً بها. والمعنى: لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم، فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ثم انهزمت.

(١) «فلهم»: الفلّ: الكتبية المنهزمة.

(٢) «بلق»: البلق: سواد وبياض في اللون.

(٣) رواه مسلم (١٧٧٥) (٧٧).

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

٢٦ - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها، وأمنوا ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، أو خمسة آلاف، أو ستة عشر ألفاً ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل، والأسر، وسبي النساء، والذراري ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٧ - ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بستر كفر العدو بالإسلام ﴿رَحِيمٌ﴾ بنصر الولي بعد الانهزام.

٢٨ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجس. وهو مصدر، يقال: نجس نجساً، وقدر قَدَرًا، لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنَّهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو: جعلوا كأنَّهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يحجوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة، حين أُمِّر أبو بكر - رضي الله عنه - على الموسم. [ويكون المراد من نهي القريبان: النهي عن الحج والعمرة]^(١). وهو مذهبنا. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا. وعند الشافعي - رحمه الله - يمنعون عن المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره. وقيل: نهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين عن الحج، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق، والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الغنائم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حجيج

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِنْ شَاءَ إِنْكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَلِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

الإسلام ﴿إِنْ شَاءَ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتقطع الآمال إليه
﴿إِنْكَ اللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق آمالكم. أو ﴿عليم﴾
بمصالح العباد، ﴿حكيم﴾ فيما حكم، وأراد.

٢٩ - نزل في أهل الكتاب: ﴿قَلِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لأن اليهود
مثنية والنصارى مثلثة ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، حيث
يزعمون: أن لا أكل في الجنة ولا شرب ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لأنهم
لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، أو: لا يعلمون بما في التوراة والإنجيل
﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحق. يقال: فلان
يدين بكذا: إذا اتخذه دينه، ومعتقه ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان
لـ «الذين» قبله. وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية. وكذا:
الترك، والهنود، وغيرهما، بخلاف مشركي العرب، لما روى الزهري: أن النبي
عليه الصلاة والسلام صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب^(١).
﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها. وسميت جزية لأنها مما يجب على أهلها أن
يجزوه، أي: يقضوه، أو: هي جزاء على الكفر على التمهيل في تذليل ﴿عَنْ
يَدٍ﴾ أي: عن يد مواتية غير ممتنعة لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف
المطيع المنقاد. ولذا قالوا: أعطى بيده: إذا انقاد. وقالوا: نزع يده عن الطاعة.
أو: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن
عن يد المعطي إلى يد الآخذ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار،
والذل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويُسَلِّمها وهو قائم والمتسلم
جالس، وأن يتلثل^(٢) تلتلة، ويؤخذ بتليبه، ويقال له: أذ الجزية ياذمي، وإن

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره. (حاشية الكشاف ٢/٢٦٣).

(٢) «يتلثل»: يزعرع ويزلزل.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا يَوْمَ كُورٍ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

كان يؤدّيها، ويزخ^(١) في قفاه. وتسقط بالإسلام.

٣٠ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ كلهم، أو بعضهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾. وعزير: اسم أعجمي. ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه. ومن نون - وهم: عاصم، وعلي - فقد جعله عربياً ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: قول لا يعضده برهان، ولا يستند إلى بيان. فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ عن معنى تحته، كالألفاظ المهملة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ لا بد فيه من حذف مضاف، تقديره: يضاهي قولهم قولهم. ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، يعني: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم. ﴿يضاهئون﴾ عاصم. وأصل المضاهاة: المشابهة. والأكثر ترك الهمز^(٢). واشتقاقه من قولهم: امرأة ضهاء، وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض. كذا قاله الزجاج ﴿قَنَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا. ﴿أَن يَكُونُوا يَوْمَ كُورٍ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان.

٣١ - ﴿أَخَذُوا﴾ أي: أهل الكتابين ﴿أَخْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهْبَنَهُمْ﴾ نساكهم ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في

(١) «يزخ»: يُدْفَعُ وَيُرْمَى بِهِ.

(٢) أي: «يضاهون» وهي قراءة: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، ونافع، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم، ونواهيهم ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿أخبارهم﴾، أي: اتخذه رباً، حيث جعلوه ابن الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ يجوز الوقف عليه، لأن ما بعده يصلح ابتداء، ويصلح وصفاً لـ: ﴿واحدًا﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن الإشراك.

٣٢ - ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ مثل حالهم في طلبهم أن ييطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده، ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق، ليطفئه بنفخه. أجرى ﴿ويأبى الله﴾ مجرى: لا يريد الله. ولذا وقع في مقابلة ﴿يريدون﴾. وإلا فلا يقال: كرهت، أو أبغضت إلا زيدا.

٣٣ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى﴾ بالقرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على أهل الأديان كلهم. أو: ليظهر دين الحق على كل دين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

٣٤ - ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ استعمار الأكل للأخذ ﴿بِالْبُطْلِ﴾ أي: بالرشا في الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سفلتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾. يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأخبار والرهبان، للدلالة على

وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكَوَّىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ

اجتماع حصلتين ذميتين فيهم: أخذ الرشا، وكثر الأموال، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد: المسلمون الكانزون غير المنفقين. ويقرب بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً. وعن النبي ﷺ: «ما أدّى زكاته فليس بكتر وإن كان باطلاً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كتر وإن كان ظاهراً»^(١). ولقد كان كثير من الصحابة - رضي الله عنهم - كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة يقتنون الأموال، ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية، لأن الإعراض اختياراً للأفضل، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى المعنى، لأن كل واحد منهما دنائير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]. أو: أريد به الكنوز والأموال. أو: معناه: ولا ينفقونها والذهب. كما أن معنى قوله:

..... فإني وقيارٌ بها لغريب^(٢)

أي: وقيار كذلك. وخصاً بالذكر من بين سائر الأموال، لأنهما قانون التمول، وأثمان الأشياء. وذكر كنزهما دليل على ما سواهما ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣٥ - ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أن النار تحمى عليها، أي: توقد. وإنما ذكر الفعل، لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: ﴿يُحْمَى﴾ لانتقال الإسناد عن النار إلى ﴿عليها﴾ كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير ﴿فَتُكَوَّىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ وخصت هذه الأعضاء، لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمتهم وإياه مجلس ازوروا عنه،

(١) رواه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد (٦٤/٣).

(٢) عجز بيت لضابيء بن الحارث البرجي، وصدره: فمن يك أمسى بالمدينة رحله.

هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ

وتولوا بأركانهم، وولوه ظهورهم. أو: معناه: يكونون على الجهات الأربع: مقاديمهم، ومآخيرهم، وجنوبهم ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم، وهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونونه، أو: بال كونكم كانزين.

٣٦ - ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة. والمراد: بيان: أن أحكام الشرع تُبنى على الشهور القمرية المحسوبة بالأهلة دون الشمسية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما أثبتته، وأوجبه من حكمته، أو: في اللوح. ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة للفقود عن القتال، وذو الحجة للحج، والمحرم لتحريم القتال فيه. وواحد فرد، وهو رجب لترجيح العرب إياه، أي: لتعظيمه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الدين المستقيم، لا ما يفعله أهل الجاهلية. يعني: أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم، ودين إبراهيم وإسماعيل. وكانت العرب تمسكت به، فكانوا يعظمونها، ويمحرمون القتال فيها، حتى أحدثت النسيء، فغيروا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ في الحرم، أو في الاثني عشر ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصي ﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ حال من الفاعل، أو المفعول ﴿كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصر لهم. حثهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

٣٧ - ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ بالهمزة مصدر نساء: إذا أخره، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك: أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون، شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه، ويمحرمون

زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْكِرُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا
 عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ

مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون
 من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ﴾ أي: هذا الفعل منهم
 زيادة في كفرهم ﴿يُضِلُّ﴾ كوفي، غير أبي بكر ﴿بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالنسيء.
 والضمير في: ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْكِرُونَهُ عَامًا﴾ للنسيء، أي: إذا أحلوا شهراً من
 الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرموه في العام القابل ﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾
 ليوافقوا العدة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها. وقد خالفوا تخصيص الذي
 هو أحد الواجبين. واللام تتعلق بـ ﴿يَحْلُونَهُ﴾ و﴿يَحْكِرُونَهُ﴾ أو بـ ﴿يَحْرُمُونَهُ﴾
 فحسب، وهو الظاهر ﴿فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ﴿فَيَحْلُوا﴾ بمواطأة العدة
 وحدها من غير تخصيص ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من القتال، أو: من ترك الاختصاص
 للأشهر بعينها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان ذلك، فحسبوا
 أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ حال اختيارهم
 الثبات على الباطل.

٣٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَنَا قُلْتُمْ﴾ ثاقلتهم، وهو أصله، إلا أَنَّ التاء أدغمت في التاء فصارت ثاء
 ساكنة، فدخلت ألف الوصل لثلاثاً بيتداً بالساكن، أي: تباطأتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾
 ضمن معنى الميل والإخلاق فعدّي بلى، أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم
 مشاق السفر ومتاعبه. أو: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في
 غزوة تبوك، استنفروا في وقت عسرة، وقحط، وقبط مع بعد الشقة، وكثرة
 العدو، فشق عليهم ذلك. وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى
 عنها بغيرها، إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخَزنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴿ بدل الآخرة ﴾ ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٣٩ - ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ سخط عظيم على المتأقلين، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم، ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم، وأطوع، وأنه غني عنهم في نصره دينه، لا يقدرح تأقلهم فيها شيئاً. وقيل: الضمير في: ﴿ولا تضروه﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الله وعده أن يعصمه من الناس، وأن ينصره. ووعد كائن لا محالة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التبديل، والتعذيب، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

٤٠ - ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد. فدلّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسند الإخراج إلى الكفار، لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج، فكانهم أخرجوه ﴿ثَانِيًا﴾ أحد اثنين، كقوله: ﴿ثَالِثٌ ثَلَاثَةً﴾ [المائدة: ٧٣]. وهما: رسول الله، وأبو بكر. وانتصابه على الحال ﴿إِذْ هُمَا﴾ بدل من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ ﴿فِي الْفَكَارِ﴾ هو نقب في أعلى ثور، وهو جبل في اليمنى مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَخَزنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصرة، والحفظ. قيل: طلع المشركون فوق الغار، فاشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال: إن تُصَبَّ اليوم ذَهَبٌ دِينَ اللَّهِ! فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١).

(١) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - =

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

وقيل: لما دخل الغار بعث الله حامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت فسجت عليه^(١). وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم!»^(٢) فجعلوا يترددون حول الغار، ولا يفتنون، قد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها، وعلم: أنهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على أبي بكر، لأنه كان يخاف، وكان عليه الصلاة والسلام ساكن القلب ﴿وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، أو: أيده بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: دعوتهم إلى الكفر ﴿السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾ فصل ﴿الْغَلِيَّةُ﴾ وكلمة الله بالنصب: يعقوب، بالعطف. والرفع على الاستئناف أوجه، إذ هي كانت، ولم تزل عالية ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز بنصره أهل كلمته ﴿حَكِيمٌ﴾ يذل أهل الشرك بحكمته.

٤١ - ﴿انْفِرُوا خِفَافًا﴾ في النفور لنشاطكم له ﴿وَثِقَالاً﴾ عنه لمشقة عليكم، أو: خفافاً لقلّة عيالكم، وثقالاً لكثرتها، أو: خفافاً من السلاح، وثقالاً منه، أو: ركبناً ومشاة، أو: شباباً وشيوخاً، أو: مهازيل وسماناً، أو: صحاحاً ومرامضاً ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال، والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ﴾ الجهاد ﴿خَيْرٌ

= قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما». (حاشية الكشف ٢/ ٢٧٢).

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٧٤١) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٥٣/٦).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشف ٢/ ٢٧٢).

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لَكُمْ ﴿ من تركه ﴾ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كون ذلك خيراً فبادروا إليه .

٤٢ - ونزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا ﴾ هو ما عرض لك من منافع الدنيا . يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر . أي: لو كان ما دعوا إليه مغنماً ﴿ قَرِيبًا ﴾ سهل المأخذ ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ وسطاً مقارباً . والقاصد والقصد: المعتدل ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ المسافة الشاقة الشاقة ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ من دلائل النبوة، لأنه أخبر بما سيكون بعد القبول فقالوا كما أخبر . و﴿ بِاللَّهِ ﴾ متعلق بـ ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾، أو: هو من جملة كلامهم . والقول مراد في الوجهين، أي: ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معترزين يقولون: ﴿ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ . أو: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ يقولون: ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ . وقوله: ﴿ لَخَرَجْنَا ﴾ سدّ مسدّ جوابي القسم، و﴿ لَوِ ﴾ جميعاً . ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان، كأنهم تمارضوا ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بدل من ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ أو: حال منه، أي: مهلكين . والمعنى: أنهم يهلكونها بالحلف الكاذب، أو حال من ﴿ لَخَرَجْنَا ﴾ أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما يقولون .

٤٣ - ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ كناية عن الزلة، لأنّ العفو رادف لها . وهو من لطف العتاب، بتصدير العفو في الخطاب . وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام، حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلّوا لك بعلمهم، وهلاً استأنيت بالإذن؟! ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه .

لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَكُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ اللَّهَ أَنْبَعَثَهُمْ فَنَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

وقيل: شيان فعلهما رسول الله ﷺ، ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه
الفدية من الأسارى، فعاتبه الله. وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم
السلام، لأنه عليه الصلاة والسلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنما عوتب مع
أن له ذلك لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

٤٤ - ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ ليس من
عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾
عدة لهم بأجزل الثواب.

٤٥ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: المنافقين.
وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿وَأَزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ﴾ شكوا في دينهم، واضطربوا في
عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون، لأن التردد ديدن المتحير، كما
أن الثبات ديدن المتبصر.

٤٦ - ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَكُمْ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾
أهبة، لأنهم كانوا مياسير. ولما كان ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معطياً معنى نفي
خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَنْبَعَثَهُمْ﴾ نهوضهم
للخروج. نهوضهم للخروج، كأنه قيل: ما خرجوا، ولكن تثبطوا عن الخروج
لكراهة انبعاثهم ﴿فَنَبَّطَهُمْ﴾ فكسلهم، وضعت رغبتهم في الانبعاث. والتشيط:
التوقيف عن الأمر بالتهديد فيه ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو
قاله الرسول ﷺ غضباً عليهم، أو: قاله الشيطان بالوسوسة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾
هو ذم لهم، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمنى، الذين شأنهم القعود في
البيوت.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُلُ أَذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي

٤٧ - ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فساداً وشرّاً. والاستثناء متصل؛ لأنّ المعنى ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً. والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور. وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء، فكان استثناء متصلاً؛ لأن الخبال بعبارة ﴿وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب، والنمائم، وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعا: إذا أسرع. وأوضعتة أنا. والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم. والمراد: الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من المشي. وخط في المصحف ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ بزيادة الألف، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي. والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن. وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى. ونحوه: ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ حال من الضمير في: ﴿أَوْضَعُوا﴾ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ بالمنافقين.

٤٨ - ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ﴾ بصدّ الناس، أو: بأن يفتكوا به عليه الصلاة والسلام ليلة العقبة، أو بالرجوع يوم أحد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك الحيل والمكائد، ودوروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك، ونصرك ﴿وَبَدَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه، وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ أي: على رغم منهم.

٤٩ - ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُلُ أَذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ ولا توقعني في الفتنة - وهي الإثم - بالأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت. أو: لا تلقني في

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِخُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاءً إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّآ مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٥٤﴾

الهلكة، فإنني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجد بن قيس المنافق: قد علمت الأنصار أنني مُستهتر بالنساء، فلا تفتني بنات [بني] (١) الأصفر، يعني: نساء الروم، ولكنني أعينك بمالي، فاتركني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعني: أن الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن؛ لأن أسباب الإحاطة معهم. أو: هي تحيط بهم يوم القيامة.

٥٠ - ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر، وغنيمة.

﴿سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة، وشدة في بعضها، نحو ما جرى يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ الذي نحن متسمون به من الحذر، والتيقظ، والعمل بالحزم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن مقام التحدث بذلك إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِخُونَ﴾ مسرورون.

٥١ - ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قضى من خير، أو شر ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: الذي يتولانا، ونتولاه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله.

٥٢ - ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاءً﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ وهما النصر، والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين، إمّا ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد، وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ بنا ما ذكرنا

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
 مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
 الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تَعْجَبْكَ
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿ إِنَّمَا مَعَكُمْ مُتْرِضُونَ ﴾ ما هو عاقبتكم.

٥٣ - ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا ﴾ في وجوه البر ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ طائعين، أو مكرهين
 نصب على الحال. ﴿ كَرْهًا ﴾: حمزة، وعلي. وهو أمر في معنى الخير. ومعناه
 ﴿ لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾
 [التوبة: ٨٠]. وقوله:

أُسَيِّئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا ملومةً لدينا ولا مقلية إن تقلت^(١)
 أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت
 إلينا أو أحسنت. وقد جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً. ومعنى عدم
 القبول: أنه ﷺ يردها عليهم، ولا يقبلها، أو: لا يشيها الله. وقوله: ﴿ طَوْعًا ﴾
 أي: من غير إلزام من الله ورسوله. و﴿ كَرْهًا ﴾ أي: ملزمين. وسمي الإلزام
 إكراهاً لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه ﴿ إِنْكُمْ ﴾
 تعليل لرد إنفاقهم ﴿ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ متمردين، عاتين.

٥٤ - ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ ﴾ وبالياء: حمزة، وعلي ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ
 كَفَرُوا ﴾ «أنهم»: فاعل منع. و﴿ هُمْ ﴾ و﴿ أَنْ تُقَبَلَ ﴾ مفعولاه. أي:
 وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى ﴿ جَمْعُ كَسَلَانِ ﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ لَأَنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ بِهَا
 وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى. وصفهم بالطوع في قوله: ﴿ طَوْعًا ﴾ وسلبه عنهم هاهنا، لأن
 المراد بطوعهم: أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ، أو من
 رؤسائهم. وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

٥٥ - ﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
 الإعجاب بالشيء: أن تسر به سرور راض به، متعجب من حسنه. والمعنى:

وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾

فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإن الله إنما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له، أو بنهب أموالهم، وسبي أولادهم، أو بجمعها، وحفظها، وحبها، والبخل بها، والخوف عليها. وكل هذا عذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة. ودلت الآية على بطلان القول بالأصلح، لأنه أخبر: أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر، وعلى إرادة الله تعالى المعاصي؛ لأن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه. وكذا إرادة الإماتة على الكفر.

٥٦ - ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركون، فيتظاهرون بالإسلام تقيّة.

٥٧ - ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصّنين، من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة ﴿أَوْ مَخْرَجًا﴾ أو غيراً ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ أو نفقاً يندسون فيه. وهو مفتعل من الدخول ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء. من: الفرس الجموح.

٥٨ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات، ويطعن عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ «إذا»: للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط. وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، وما فيه صلاح أهله، لأنه عليه الصلاة والسلام استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ

٥٩ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ جواب ﴿ لو ﴾ محذوف، تقديره: ﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ لكان خيراً لهم. والمعنى: ﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ ما أصابهم به الرسول من الغنيمة، وطابت به نفوسهم، وإن قل نصيبهم ﴿ وقالوا ﴾ كفانا فضل الله وصنعه، و﴿ حسبنا ﴾ ما قسم لنا، سيرزقنا غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ ﴾ في أن يغنمنا فضله ﴿ لراغبون ﴾. ثم بين مواضعها التي توضع فيها، فقال:

٦٠ - ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ قصر جنس الصدقات على الأصناف المحدودة، أي: هي مختصة بهم، لا تتجاوز إلى غيرهم، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنما الخلافة لقریش، تريد: لا تتعداهم، ولا تكون لغيرهم. فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك. وعند الشافعي - رحمه الله - لا بد من صرفها إلى الأصناف. وهو المروي عن عكرمة. ثم: الفقير: الذي لا يسأل، لأن عنده ما يكفيه للحال. والمسكين: الذي يسأل، لأنه لا يجد شيئاً، فهو أضعف حالاً منه. وعند الشافعي - رحمه الله - على العكس ﴿ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ هم السعاة الذين يقبضونها ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ على الإسلام، أشرف من العرب، كان رسول الله ﷺ يتألفهم على أن يسلموا، وقوم منهم أسلموا، فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ هم المكاتبون يعانون منها ﴿ وَالْغَرَمِينَ ﴾ الذين ركبته الديون ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقراء الغزاة، أو: الحجيج المنقطع بهم ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. وعدل عن اللام إلى ﴿ في ﴾ في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم

فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ

من سبق ذكره، لأن في اللوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها. وتكرير ﴿في﴾ في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، ليدلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم، على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها، وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها. وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - لأن الله أعز الإسلام، وأغنى عنهم. والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاص يرتفع، وينتهي بذهاب ذلك المعنى ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالمصلحة. ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة.

٦١ - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد. سُمّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملة أذن سامعة. وإذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن. قصدوا به المذمة، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة. ففسره الله تعالى بما هو مدح له، وثناء عليه، فقال: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كقولك: رجل صدق، تريد: الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك. ثم فسر كونه أذن خير بأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار. وعدى فعل الإيمان بالباء إلى الله، لأنه قصد به التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدقهم لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] كيف ينبو عن الباء؟! ﴿وَرَحْمَةُ اللَّهِ﴾ بالعطف على

لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْفُوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُمُ فِئَاءٌ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُاْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أذن﴾. ﴿ورحمة﴾: حمزة، عطف على ﴿خير﴾ أي: هو أذن خير، وأذن رحمة لا يسمع غيرهما، ولا يقبله ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: ﴿و﴾ هو ﴿رحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي: أظهروا الإيمان أيها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفعل بكم مايفعل بالمشركين. أو: هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ويشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين.

٦٢ - ﴿يَخْفُوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم. ف قيل لهم: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاء. وإنما وُحِدَ الضمير، لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله، فكانا في حكم شيء واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني. أو: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

٦٣ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أَنَّ الأمر والشأن ﴿مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يجاوز الحد بالخلاف. وهي مفاعلة، من: الحد، كالمشاقة من الشق ﴿فَأَبَقَ لَهُ﴾ على حذف الخبر، أي: فحق أن له ﴿فَأَبَقَ لَهُمُ فِئَاءٌ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

٦٤ - ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليحذر المنافقون ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ «تنزل» بالتخفيف: مكِّي، وبصري ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق. والضمائر للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت في معنائهم؛ فهي نازلة عليهم، دليله ﴿قل استهزؤوا﴾. أو: الأولان للمؤمنين، والثالث للمنافقين. وصح ذلك؛ لأن المعنى يقود إليه ﴿قُلِ اسْتَهْزَؤُاْ﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ
 كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ
 مِنْكُمْ يُغَدِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ ﴿٦٧﴾ مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم. وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم، وفي استهزائهم بالإسلام وأهله، حتى قال بعضهم: وددتُ أني قدمت فجلدت مئة وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

٦٥ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله نبيه على ذلك. فقال: «احبسوا عليّ الركب» فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فقالوا: يانبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر، أي: ﴿ولئن سألتهم﴾ وقلت لهم: لم قلتم ذلك؛ لقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾^(١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لم يعأ باعتذارهم، لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود فيهم، حتى وبخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير. وذلك إنما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء.

٦٦ - ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرركم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ بتوبتهم، وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مُصْرِّين على النفاق، غير تائبين منه ﴿إِنْ يُعَفِّ﴾ تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ غير عاصم.

٦٧ - ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلاثمئة، والنساء

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٥٥).

بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ

المنافقات مئة وسبعين ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: كأنهم نفس واحدة. وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾. وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر، والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الطاعة، والإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحاً بالمبار، والصدقات، والإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من رحته، وفضله. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق، الذي هو التمرّد في الكفر، والانسلاخ عن كلّ خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلمّ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش، الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم.

٦٨ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلود فيها ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ فيه دلالة على عظم عذابهم، وأنه بحيث لا يزداد عليه ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب، وجعلهم مذمومين، ملحقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم معهم في العاجل، لا ينفكّون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

٦٩ - الكاف في: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ﴾ محلّها رفع، أي: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو: نصب على

وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

فعلتم، مثل فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا
 بخلاقهم، أي: تلذذوا بملاذ الدنيا. والخلاق: النصيب، مشتق من الخلق،
 وهو: التقدير، أي: ما خلق للإنسان، بمعنى: قدر من خير ﴿وَحُضِّمْتُمْ﴾ في
 الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالفوج الذي خاضوا، أو: كالخوض الذي
 خاضوه. والخوض: الدخول في الباطل واللهو. وإنما قدم ﴿فاستمتعوا﴾
 بخلاقهم، وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ مغن عنه، ليذم
 الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، والتهائم بشهواتهم الفانية عن
 النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين
 بحالهم ﴿أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَأَيَّتَنَّهُ
 أَجْرُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ﴾ ثم ذكر نبا من قبلهم فقال:

٧٠ - ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو بدل من ﴿الذين﴾
 ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم هم قوم
 شعيب ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ مدائن قوم لوط، وائتفاكهن: انقلاب أحوالهن عن
 الخير إلى الشر ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صح منه أن
 يظلمهم بإهلاكهم، لأنه حكيم، فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، وتكذيب الرسل.

٧١ - ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر، والتراحم
 ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك،
 والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

اللَّهُ ﴿٧١﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في: سأنتقم منك يوماً ﴿٧٢﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴿٧٣﴾ غالب على كل شيء، قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ واضع كلاً موضعاً.

٧٢ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ﴾ يطيب فيها العيش. وعن الحسن - رحمه الله - : قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ هو عِلْمٌ بدليل قوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ أَلْقَى وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [مريم: ٦١]. وقد عرفت أَنَّ الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمال. وهي مدينة في الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وشيء من رضوان الله ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذلك كله، لأنَّ رضاه سبب كل فوز، وسعادة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وعد، أو: إلى الرضوان ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وحده دون ما يعده الناس فوزاً.

٧٣ - ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا الْكُفَّارُ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم. وكلٌّ من وَقَفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

٧٤ - أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين، فيسمع من معه منهم، منهم: الجلاس بن سويد، فقال: والله! لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم، وهم سادتنا، فنحن شرّ من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنَّ محمداً صادق، وأنت شرّ من الحمار! وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستحضر، فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق

يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ
يَسْتَوُوا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ

الصادق، وتكذيب الكاذب^(١)، فنزل: ﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ
الْكُفْرِ﴾^(٢) يعني: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرّ من الحمير، أو: هي
استهزاؤهم. فقال الجلاس: يا رسول الله! والله لقد قلته، وصدق عامر، فتاب
الجلاس، وحسنت توبته ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم
الإسلام. وفيه دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد، لأنه قال: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ﴾ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتل محمد ﷺ، أو: قتل عامر لردّه على
الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوجوا ابن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وَمَا
نَقَمُوا﴾ وما أنكروا، وما عابوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أنهم
كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل،
ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم. وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول
الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى^(٣) ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عن النفاق ﴿يَكْ﴾
الشواب ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿وَإِنْ يَسْتَوُوا﴾ يصروا
على النفاق ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل، والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من العذاب.

٧٥ - ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول
الله! ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال عليه الصلاة والسلام: «يا ثعلبة! قليل تؤدي
شكره، خير من كثير لا تطيقه». فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق! لئن رزقني
مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فدعا له. فاتخذ غنماً، فتمت كما ينمي الدود،
حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجمعة والجماعة. فسأل عنه

(١) في الأصل المخطوط: تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي. (حاشية الكشف ٢/٢٩١).

(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/٢٩٢).

لَيْتَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ

رسول الله ﷺ ، فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد . فقال «ياويح ثعلبة!» . فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرآ بثعلبة فسألاه الصدقة ، فقال : ماهذه إلا جزية ، وقال : أرجعاً حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه : «ياويح ثعلبة!» مرتين . فنزلت . فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال : «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل التراب على رأسه ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فلم يقبلها . وجاء بها إلى عمر - رضي الله عنه - في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان - رضي الله عنه ^(١) - ﴿لَيْتَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرجن الصدقة . والأصل : لتصدقن . ولكن التاء أدغمت في الصاد لقرها منها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بإخراج الصدقة .

٧٦ - ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أعطاهم الله المال ، ونالوا منهاهم ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله ، ولم يفوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ مصرون على الإعراض .

٧٧ - ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ، لأنه كان سبباً فيه ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي : جزاء فعلهم ، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق ، والصلاح ، وكونهم كاذبين . ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق .

٧٨ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعني : المنافقين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٩٠/٥) وفي إسناده ضعفاء لا يُحتج بحديثهم .

وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

من المطاعن في الدين، وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

٧٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجزر على البدل من الضمير في ﴿سَرَّهُمْ ونجواهم﴾ ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعييون المطَّوعين المتبرعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون. روي: أن رسول الله ﷺ حثَّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي. فقال عليه الصلاة والسلام: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»^(١) فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً. وتصدق عاصم بمئة وسق من تمر ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على ﴿المطَّوعِينَ﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم. وعن نافع: ﴿جَهْدَهُمْ﴾ وهما واحد. وقيل: الجُهد: الطاقة، والجُهد: المشقة. وجاء أبو عقيل بصناع من تمر فقال: بت ليلتي أجز بالجرير^(٢) على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأما صاع أبي عقيل، فالله غني عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزؤون ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم. وهو خبر غير دعاء. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٨٠ - ولما سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه في مرضه، نزل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. وقد مرَّ أن هذا الأمر في معنى الخير، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم

(١) رواه البزار كما في: كشف الأستار (٢٢١٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ٣٢).

(٢) «الجرير»: جبل البعير.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ

للتكثير، وليس على التحديد والغاية. إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنهم كفار، والله لا يغفر لمن كفر به. والمعنى: وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم. وقد وردت الأخبار بذكر السبعين، وكلها تدل على الكثرة، لا على التحديد والغاية. ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد: أن العدد قليل وكثير؛ فالقليل مادون الثلاث، والكثير الثلاث فما فوقها، وأدنى الكثير الثلاث، وليس لأقصاه غاية. والعدد أيضاً نوعان: شفع ووتر. وأول الأشفاع اثنان، وأول الأوتار ثلاثة. والواحد ليس بعدد، والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين، لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب، لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة، كقولك: اثنا عشر، وثلاثة عشر إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرتين، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات، وكذلك إلى مئة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه، وكمال الحساب والكثرة منه، فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه، ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليأس من المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولا غفران للكافرين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر، والطغيان.

٨١ - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسول الله ﷺ، فأذن لهم، وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك. أو: الذين خلفهم كسلهم، ونفاقهم، والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بعودهم عن الغزو ﴿خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مخالفة له. وهو مفعول له، أو حال، أي: قعدوا لمخالفته، أو: مخالفين له ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان، وداعي الإيقان ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قالوا

لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٦﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا

إليه بعهده عندك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

١٣٥ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ - ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأن المتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

١٣٧ - ﴿وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿أَلَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَرُبِّدُ أَنْ تَمَنَّٰ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنَى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَنُوزَنَا
بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ
لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَطَّلُوا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شامي، وأبو بكر.

وهذا آخر قصة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من فرعون، ومعانيتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلي رسول الله ﷺ عما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ - ﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عبر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعلي ﴿قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعلّي - رضي الله عنه -: اختلفتم بعد نبيتكم قبل أن يجف ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تجف أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكدته.

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَّبِعُوا﴾ مهلك، من: التبار ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقدير خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعترضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة ﴿وَنَطَّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحل.

١٤٠ - ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ
مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ - ﴿وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَنْجَاكُمْ﴾: شامي
﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ييغونكم شدة العذاب، من: سام السلعة، إذا
طلبها. وهو استئناف لا محل له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون
﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ نافع ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في
الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ - ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾
روي أن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعد بني إسرائيل - وهو بمصر - إن
أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه
الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين
أنكر خلوف فيه، فتسوّك. فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم
أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة
لذلك ﴿قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت، وضر به له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
نصب على الحال، أي: تم بالغاً هذا العدد. ولقد أجل ذكر الأربعين في البقرة،
وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿أَخْلِفْنِي فِي
قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل
﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحددنا. ومعنى
اللام الاختصاص، أي: اختص مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة،
ولا كيفية. وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة. وذكر الشيخ في
«التأويلات»: أن موسى - عليه السلام - سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتاً تولّى تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّى لي حتى أراك. ﴿أرني﴾ مكّي. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى - عليه السلام - اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأل، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِيْ﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليل لنا أيضاً، لأنه لم يقل: لن أرى ليكون نفيّاً للجواز. ولو لم يكن مرثياً لأخبر بأنه ليس بمرثي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرِنِيْ﴾ وهو دليل لنا أيضاً؛ لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليق الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدلّ على امتناعه. والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجد؛ لأنه مختار في فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً - عليه السلام - بقوله: ﴿إِنِّيْ اَعْظَمُكَ اَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى التجلي للجبل ما قاله الأشعرى: إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرثياً.

وبهذه الوجوه يتبيّن جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأن موسى - عليه السلام - كان عالماً بأنه لا يرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

كل سر وعلانية ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك.

٩٥ - ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ لتركوهم، ولا توبخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ تعليل لترك معابيتهم، أي: أن المعاتبة لا تنفع فيهم، ولا تصلحهم، لأنهم أرجاس، لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وَمَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ﴾ ومصيرهم النار، يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: يجزون جزاء كسبهم.

٩٦ - ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم؛ لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها. وإنما قيل ذلك لئلا يتوهم: أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم.

٩٧ - ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر، لجفائهم، وقسوتهم، وبُعدهم عن العلم والعلماء ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ وأحقّ بألا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني: حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»^(١) يعني: الأكره، لأنهم يقدون، أي: يصيحون في حروثهم. والفديد: الصياح. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إمهالهم.

(١) رواه البخاري (٣٣٠٢) ومسلم (٥١). والفدّادون: الذين تلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم فدّاد.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ
سَيِّدُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٨ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: يتصدق ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله، وابتغاء الثوبة عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: دوائر الزمان، وتبدل الأحوال بدور الأيام، لتذهب غلبتكم عليه، فيتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدور المصائب والحروب، التي يتوقعون وقوعها في المسلمين ﴿السَّوْءِ﴾: مكِّي، وأبو عمرو. وهو العذاب. والسَّوْء - بالفتح - ذمٌ للدائرة، كقولك: رجل سوء، في مقابلة قولك: رجل صدق ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٩٩ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في الجهاد، والصدقات ﴿قُرْبَاتٍ﴾ أسباباً للقربة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾. وهي مفعول ثانٍ ليتخذ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعاءه، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(١) ﴿أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: النفقة، أو: صلوات الرسول ﴿قُرْبَةً لَهُمْ﴾ ﴿قُرْبَةً﴾: نافع. وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه، على طريق الاستئناف، مع حربي التنبيه، والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر، وتمكّنه. وكذلك ﴿سَيِّدُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: جنته، وما في السنين من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين! وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخل. ﴿رَحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقل.

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَبِمَنِّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
 مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ

١٠٠ - ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾ مبتدأ ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ صفة لهم ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ تبين لهم. وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو: الذين شهدوا بدرًا، أو بيعة الرضوان ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ عطف على المهاجرين، أي: ومن الأنصار. وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ من المهاجرين والأنصار، فكانوا سائر الصحابة. وقيل: هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. والخبر: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية، والدينية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ عطف على ﴿رضي﴾ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿مِنْ﴾ تَحْتِهَا: مكِّي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠١ - ﴿وَبِمَنِّ حَوْلَكُمْ﴾ يعني: حول بلدتكم، وهي المدينة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار. وكانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ، الذي هو: ﴿بِمَنِّ حَوْلَكُمْ﴾. والمبتدأ ﴿منافقون﴾. ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾، أي: تمهروا فيه، على أن ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف. وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره. ودل على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، أي: يخفون عليك مع فطنتك، وصدق فراستك لفرط تنويعهم^(١) في تحامي ما يشكك في أمرهم. ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على سرهم غيره، لأنهم يبتغون الكفر في سويداء قلوبهم، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾

(١) «تنويعهم»: أي: تأنفهم.

ثُمَّ يَرْدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

هما: القتل، وعذاب القبر، أو: الفضيحة، وعذاب القبر، أو: أخذ الصدقات من أموالهم، ونهك أبدانهم ﴿ثُمَّ يَرْدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب النار.

١٠٢ - ﴿وَأَخَرُونَ﴾ أي: قوم آخرون سوى المذكورين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بشئ ما فعلوا نادمين. وكانوا عشرة: فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتين - وكانت عادته كلما قدم من سفر - فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكروا له: أنهم أقسموا ألا يجلووا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يجلوهم، فقال: «وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أوامر فيهم». فنزلت، فأطلقهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها، وطهرنا. فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً». فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(١) ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ خروجاً إلى الجهاد ﴿وَعَمَلًا سَيِّئًا﴾ تخلفاً عنه. أو: التوبة: والإثم. وهو من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً، أي: شاة بدرهم. فالواو بمعنى الباء، لأن الواو للجمع، والباء للإلصاق، فيتناسبان. أو: المعنى: خلط كل واحد منهما بالآخر، فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه، بخلاف قولك: خلطت الماء باللبن، لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء ﴿عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يذكر توبتهم، لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة.

١٠٣ - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ كفارة لذنوبهم. وقيل: هي الزكاة

(١) قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه. (حاشية الكشاف ٣٠٧/٢).

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب، وهو صفة لصدقة. والتاء للخطاب، أو لغيبة المؤنث. والتاء في: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ للخطاب لا محالة ﴿بِهَا﴾ بالصدقة. والتزكية مبالغة في التطهير، وزيادة فيه، أو: بمعنى الإنماء، والبركة في المال ﴿وَصَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم، وترحم. والسنة أن يدعو المصدق^(١) لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ صلواتك كوفي غير أبي بكر. قيل: الصلاة أكثر من الصلوات، لأنها للجنس ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يسكنون إليه، وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم، أو: سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.

١٠٤ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ المراد: المتوب عليهم، أي: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم، وتقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحت ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ويقبلها إذا صدرت عن خلوص النية. وهو للتخصيص، أي: أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنما الله هو الذي يقبل التوبة، ويردها، فاقصدوه بها، ووجهوها إليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير قبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة.

١٠٥ - ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين: ﴿أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فإن عملكم لا يخفى، خيراً كان أو شراً، على الله وعباده، كما رأيتم، وتبين لكم. أو: غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة. فقد روي: أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمر معنا لا يكلمون، ولا يجالسون، [فما لهم]^(٢)؟ فنزلت. وقوله تعالى: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار، والذهول عن التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ﴾

(١) «المصدق»: اسم فاعل، وهو الذي يأخذ الصدقات.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَالشَّهَادَةَ فَيَنْتَشِكُرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا

ما يغيب عن الناس ﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيَنْتَشِكُرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبئة تذكير، ومجازاة عليه.

١٠٦ - ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ بغير همز: مدني، وكوفي غير أبي بكر. ﴿مُرْجُونَ﴾ غيرهم، من أرجيته، وأرجأته: إذا أخرته. ومنه المرجئة، أي: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا، ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا. وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. والضابط: مكة. تخلفوا عن غزوة تبوك. وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إرجائهم. و «إمّا» للشك. وهو راجع إلى العباد، أي: خافوا عليهم العذاب، وارجوا لهم الرحمة. ورؤي: أنه عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه إلا يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفُسهم على السواري، وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله، وأخلصوا نياتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله^(١).

١٠٧ - ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ تقديره ﴿و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا﴾ ﴿الذين﴾ بغير واو: مدني، وشامي. وهو مبتدأ، خبره محذوف، أي: جازيناهم. روي: أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلّى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف^(٢)، وقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه، ويصلي فيه

(١) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. (حاشية الكشف ٢/ ٣٠٩).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ =

ضَرَارًا وَكَفْرًا وَتَفَرُّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ

أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام - وهو الذي قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين - فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه». فلما قفل من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد، فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، وأحرقوه» ففعل، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة. ومات أبو عامر بالشام ﴿ضَرَارًا﴾ مفعول له، وكذا ما بعده، أي: مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ﴿وَكَفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَفَرُّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا عنه، وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ﴾ إعداداً لأجل من ﴿حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو الراهب، أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ. وقيل: كل مسجد بني مباهاة، أو رياء، أو سمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ «حارب»، أي: من قبل بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

١٠٨ - ﴿لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ اللام للابتداء، و﴿أُسِّسَ﴾ نعت له. وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ، وصلى

= فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبنى مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. (حاشية الكشف ٢ / ٣٠٩).

مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَ بُنِيكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَتَسَسَ بُنِيكُمْ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

فيه أيام مقامه بقاء^(١)، أو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده. قيل: القياس فيه «مذ» لأنه لا ابتداء الغاية في الزمان، و«من» لا ابتداء الغاية في المكان. والجواب: أن «من» عام في الزمان والمكان ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مصلياً ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتى وقفوا على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أؤمنون أنتم؟» فسكت القوم. ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله! إنهم لمؤمنون، وأنا معهم. فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم. قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون أنتم ورب الكعبة». فجلس، ثم قال: «يا معشر الأنصار! إن الله عز وجل قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» قالوا: يا رسول الله! نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبي ﷺ: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾^(٢). قيل: هو عام في التطهر عن النجاسات كلها. وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه حرص المحب للشيء. ومعنى محبة الله إياهم: أنه يرضى عنهم، ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

١٠٩ - ﴿أَفَمَنْ أَتَسَسَ بُنِيكُمْ﴾ وضع أساس ما بينه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَ بُنِيكُمْ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا سؤال تقرير، وجوابه مسكوت عنه لوضوحه. والمعنى: ﴿أفمن أسس﴾ ببيان دينه على قاعدة محكمة، وهي: تقوى الله ورضوانه ﴿خير أَمْ مَنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف

(١) في المطبوع: وهي يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس. وخرج يوم الجمعة.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، وكأنه ملفق من حديثين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١١).

فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي
بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

القواعد، وهو الباطل والنفاق؛ الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات، والاستمسك. وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. والشفا: الحرف، والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحقر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر، وهو المتصدع؛ الذي أشفى على التهديم، والسقوط، ووزنه فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف. وألفه ليس بألف فاعل. وإنما هي عينه. وأصله: هور، فقلبت ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل، وكنه أمره. ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيَانُهُ﴾ ﴿أَمَنْ أُسِّسَ بُيَانُهُ﴾: شامي، ونافع. ﴿جُرْفٍ﴾: شامي، وحمزة، ويحيى. ﴿هار﴾ بالإمالة: أبو عمرو، وحمزة في رواية، ويحيى ﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاح به الباطل في نار جهنم. ولما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، رشح المجاز، فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليتصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم، فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها، قال جابر: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوقفهم للخير، عقوبة لهم على نفاقهم.

١١٠ - ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لما غاظهم من ذلك، وعظم عليهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: شامي، وحمزة، وحفص، أي: تنقطع. غيرهم ﴿تُقَطَّعُ﴾ أي: إلا أن تُقَطَّعَ قلوبهم قطعاً، وتفرق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها، متمكنة. ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها، وما هو كائن منه بقتلهم، أو: في القبور، أو: في النار. أو: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً، وأسفاً على تفريطهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ

١١١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ مثل الله إيمانهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله، بالشراء. ورؤي: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها. ومز برسول الله ﷺ أعرابي وهو يقرؤها، فقال: بيع والله مربح، لا نقيه، ولا نستقيه. فخرج إلى الغزو، واستشهد^(١) ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان محل التسليم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: تارة يقتلون العدو، وطوراً يقتلهم العدو ﴿فَيُقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: حمزة، وعلي ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر، أي: وعدهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صفته، أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، قد أثبتته ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾. وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال، ووعدوا عليه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأن إخلاف الميعاد قبيح، لا يقدم عليه الكريم منا، فكيف بأكرم الأكرمين؟! ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه، وأبلغ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا غاية الفرح، فإنكم تبيعون فانياً بياق ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

١١٢ - ﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين. أو: هو مبتدأ، خبره: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾، أي: الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي هكذا بلا سند، عن البصري مرسلاً، لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. (حاشية الكشف ٢ / ٣١٣).

الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الْرُكَّعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

الشرك، وتبرؤوا من النفاق ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ على نعمة الإسلام ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ: «سباحة أمتي الصيام»^(١)، أو: طلبة العلم لأنهم يسبحون في الأرض، يطلبونه في مظانه، أو: السائرون في الأرض للاعتبار ﴿الْرُكَّعُونَ السَّجِدُونَ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، والمعرفة، والطاعة ﴿وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك، والمعاصي. ودخلت الواو للإشعار بأن السبعة عقد تام، أو: للتضاد بين الأمر، والنهي، كما في قوله: ﴿تَبَيَّنَ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥] ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، أو: معالم الشرع ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات.

١١٣ - هم عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لأبي طالب، فنزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ أي: ما صح له الاستغفار في حكم الله، وحكمته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك. ثم ذكر عذر إبراهيم، فقال:

١١٤ - ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: وعد أبوه إياه أن يسلم، أو: هو وعد أباه أن يستغفر، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤] دليله قراءة الحسن ﴿وعدها أباه﴾. ومعنى استغفاره: سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو: سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهة الوحي ﴿لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُ﴾ أن أباه ﴿عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

(١) رواه ابن جرير موقوفاً عن عائشة. (الدر المنثور ٤/ ٢٩٧). ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «السائحون هم الصائمون». المصدر السابق.

لَاؤَاهُ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَىٰ مُلْكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

لَاؤَاهُ ﴿﴾ هو المتأوه شفقاً وفرقاً. ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر ﴿حَلِيمٌ﴾ هو الصبور على البلاء، الصفوح عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه، وهو يقول: لأرجنك.

١١٥ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين، وغيره مما نهى عنه، وبين أنه محذور، لا يؤاخذ به عباده؛ الذين هداهم للإسلام، ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره، وعلمهم بأنه واجب الامتثال. وأما قبل العلم والبيان فلا. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين. والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١١٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَىٰ مُلْكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١٧ - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فيه بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ في غزوة تبوك. ومعناه: في وقتها. والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق. وكانوا في عسرة من الظَّهْرِ يعتقب العسرة على بغير واحد، ومن الزاد تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة^(١)، وبلغت بهم الشدة

(١) «الإهالة الزنخة»: الدهن الممتن.

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

حتى اقتسم التمرة اثنان، وربما مضى الجماعة ليشربوا عليها الماء، ومن الماء حتى نَحَرُوا الإبل، وعصروا كرشها وشربوه، وفي شدة زمان من حمارة القيظ^(١)، ومن الجذب والقحط ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾^(٢) عن الثبات على الإيمان، أو: عن اتباع الرسول في تلك الغزوة، والخروج معه. وفي ﴿كَادَ﴾ ضمير الشأن، والجملة بعده في موضع النصب، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثله أي: ليس الشأن خلق الله مثله. ﴿يَزِيغُ﴾ حمزة، وحفص ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١١٨ - ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ أي: ﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة﴾^(٣) وهو عطف على النبي ﴿الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ عن الغزو ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برُحْبِهَا، أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً، وجزعاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وَزَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عن أبي بكر الوراق أنه قال: التوبة النصوح: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

١١٩ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم دون

(١) «حمارة القيظ»: شدة حرّه.

(٢) أثبت المصنف في الأصل ﴿تَزِيغُ﴾ وهي قراءة: الكسائي، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٤٩/٣).

(٣) وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

المنافقين، أو: مع الذين لم يتخلفوا، أو: مع الذين صدقوا في دين الله نية، وقولاً، وعملاً. والآية تدل على أن الإجماع حجة؛ لأنه أمر بالكون مع الصادقين، فلزم قبول قولهم.

١٢٠ - ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ المراد بهذا النفي: النهي. وخص هؤلاء بالذكر - وإن استوى كل الناس في ذلك - لقرينهم منه، ولا يخفى عليهم خروجه ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا ﴾ ولا أن يضنوا ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ عما يصيب نفسه، أي: لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شديدة ﴿ ذَلِكَ ﴾ النهي عن التخلف ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ مجاعة ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في الجهاد ﴿ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا ﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بجوافر خيولهم، وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ يغضبهم، ويضيق صدورهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ ولا يصيبون منهم إصابة بقتل، أو أسر، أو جرح، أو كسر، أو هزيمة ﴿ إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لكل روعة سبعون ألف حسنة. يقال: نال منه: إذا رزاه، ونقصه. وهو عام في كل ما يسؤوهم. وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، وقعود، ومشى، وكلام، وغير ذلك، وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأن وط ديارهم مما يغيظهم. وقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب^(١). والموطىء: إما مصدر كال مورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا. (حاشية الكشاف ٢/٣٢٢).

إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَإِدْيَاءً إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾
﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١٢٣﴾

فمعنى ﴿يَفِظُ الْكُفَّارَ﴾: يغيظهم وطؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
أي: أنهم محسنون، والله لا يبطل ثوابهم.

١٢١ - ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا
كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان - رضي الله عنه - في جيش العسرة ﴿وَلَا
يَقْطَعُونَ وَإِدْيَاءً﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيتهم. وهو: كل منفرج بين جبال
وأكام يكون منفذاً للسيل وهو في الأصل فاعل، من: ودى: إذا سال. ومنه:
الودي. وقد شاع الاستعمال بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ ذلك من
الإنفاق، وقطع الوادي ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بكتب، أي: أثبت في
صحائفهم لأجل الجزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كل واحد
جزاء أحسن عمل كان لهم، فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم.

١٢٢ - ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي، أي:
أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا
نَفَرَ﴾ فحين لم يكن نفير الكافة فهلاً نفر ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: من
كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم، يكفونهم النفير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكفوا
الفقاهة فيه، ويتجشّموا المشاق في تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مرمى
همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراض
الخشيسة من: الصدر، والرتوس، والتشبه بالظلمة في المراكب والملابس
﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه. وقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً
بعد غزوة تبوك، بعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنين
عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن التفقه في الدين. فأمرُوا أن ينفر من
كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد، ويبقى سائرهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن
التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ إذ الجهاد بالحِجاج أعظم أثراً من الجهاد

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَئِلَ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

بالتضال. والضمير في ﴿ليتفقوها﴾ للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم. ﴿ولينذروا قومهم﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم. وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتحقق.

١٢٣ - ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلَئِلَ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ يقربون منكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾. القتال واجب مع جميع الكفرة قريتهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. وقد حارب النبي ﷺ قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره. وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وعنفاً في المقاتل، قبل القتال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة، والغلبة.

١٢٤ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ﴿مَا﴾ صلة مؤكدة ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ إنكاراً، واستهزاء بالمؤمنين. وأيتكم: مرفوع بالابتداء. وقيل:

١٢٥ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شك، ونفاق. فهو فساد يحتاج إلى علاج، كالفساد في البدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفرة مضموماً إلى كفرهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت.

١٢٦ - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين. وبالناء: حمزة، خطاب للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالقحط، والمرض، وغيرهما ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لا يعتبرون. أو:

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
 أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بالجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿لايتوبون﴾ بما يرون من دولة الإسلام، ﴿وَلَا هُمْ
 يَذْكُرُونَ﴾ بما يقع بهم من الاصطدام^(١).

١٢٧ - ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً
 للوحي، وسخرية به، قائلين: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين
 لننصرف، فإننا لانصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح
 بينهم. أو: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض: ﴿هل
 يراكم من أحد﴾ إن قمتم من حضرته ﷺ ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن حضرة النبي ﷺ
 مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن فهم القرآن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم قَوْمٌ
 لَا يَفْقَهُونَ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

١٢٨ - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم،
 ومن نسبكم، عربي، قرشي مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه شاق
 - لكونه بعضاً منكم - عنتكم، ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع في
 العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ على إيمانكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم
 ﴿رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾. قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ.

١٢٩ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وناصبوك ﴿فَقُلْ
 حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فاستعين بالله، وفوض إليه أمورك، فهو كافيك معرفتهم، وناصرك
 عليهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ هو
 أعظم خلق الله، خلق مطافاً لأهل السماء، وقبلة للدعاء ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالجر.
 وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز. عن أبي: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾... الآية.

فهرس الآيات

(١) سورة الفاتحة

٢٥	تفسير الآية (١)
٢٩	تفسير الآية (٢)
٣٠	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٣١	تفسير الآية (٥)
٣٢	تفسير الآيتين (٦ - ٧)

(٢) سورة البقرة

٣٥	تفسير الآية (١)
٣٨	تفسير الآية (٢)
٤١	تفسير الآية (٣)
٤٢	تفسير الآية (٤)
٤٣	تفسير الآية (٥)
٤٤	تفسير الآية (٦)
٤٥	تفسير الآية (٧)
٤٦	تفسير الآية (٨)
٤٨	تفسير الآية (٩)
٤٩	تفسير الآية (١٠)
٥٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٥١	تفسير الآية (١٣)
٥٢	تفسير الآية (١٤)

٥٣	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
٥٤	تفسير الآية (١٧)
٥٦	تفسير الآية (١٨)
٥٧	تفسير الآية (١٩)
٦٠	تفسير الآية (٢٠)
٦١	تفسير الآية (٢١)
٦٢	تفسير الآية (٢٢)
٦٣	تفسير الآية (٢٣)
٦٦	تفسير الآية (٢٤)
٦٧	تفسير الآية (٢٥)
٧١	تفسير الآية (٢٦)
٧٥	تفسير الآية (٢٧)
٧٦	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٧٧	تفسير الآية (٣٠)
٧٨	تفسير الآية (٣١)
٧٩	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٨٠	تفسير الآية (٣٤)
٨١	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٨٢	تفسير الآية (٣٧)
٨٣	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٨٤	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٨٥	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٨٦	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٨٧	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٨٨	تفسير الآيتين (٥٠ - ٥١)
٨٩	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٤)
٩٠	تفسير الآيتين (٥٥ - ٥٦)

٩١	تفسير الآيتين (٥٧ - ٥٨)
٩٢	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٩٣	تفسير الآية (٦١)
٩٤	تفسير الآية (٦٢)
٩٥	تفسير الآيتين (٦٣ - ٦٤)
٩٦	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٩٧	تفسير الآية (٦٨)
٩٨	تفسير الآيتين (٦٩ - ٧٠)
٩٩	تفسير الآيتين (٧١ - ٧٢)
١٠٠	تفسير الآية (٧٣)
١٠١	تفسير الآية (٧٤)
١٠٢	تفسير الآيتين (٧٥ - ٧٦)
١٠٣	تفسير الآيتين (٧٧ - ٧٨)
١٠٤	تفسير الآيات (٧٩ - ٨١)
١٠٥	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
١٠٦	تفسير الآيتين (٨٤ - ٨٥)
١٠٧	تفسير الآيتين (٨٦ - ٨٧)
١٠٨	تفسير الآية (٨٨)
١٠٩	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
١١٠	تفسير الآيات (٩١ - ٩٣)
١١١	تفسير الآيتين (٩٤ - ٩٥)
١١٢	تفسير الآية (٩٦)
١١٣	تفسير الآية (٩٧)
١١٤	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
١١٥	تفسير الآيتين (١٠١ - ١٠٢)
١١٦	تفسير الآية (١٠٢)
١١٧	تفسير الآيتين (١٠٣ - ١٠٤)

١١٨	تفسير الآيتين (١٠٥ - ١٠٦)
١١٩	تفسير الآيتين (١٠٧ - ١٠٨)
١٢٠	تفسير الآيات (١٠٩ - ١١١)
١٢١	تفسير الآيتين (١١٢ - ١١٣)
١٢٢	تفسير الآية (١١٤)
١٢٣	تفسير الآيتين (١١٥ - ١١٦)
١٢٤	تفسير الآيتين (١١٧ - ١١٨)
١٢٥	تفسير الآيتين (١١٩ - ١٢٠)
١٢٦	تفسير الآيات (١٢١ - ١٢٤)
١٢٨	تفسير الآية (١٢٥)
١٢٩	تفسير الآيتين (١٢٦ - ١٢٧)
١٣٠	تفسير الآيتين (١٢٨ - ١٢٩)
١٣١	تفسير الآيات (١٣٠ - ١٣٢)
١٣٢	تفسير الآية (١٣٣)
١٣٣	تفسير الآيات (١٣٤ - ١٣٦)
١٣٤	تفسير الآيتين (١٣٧ - ١٣٨)
١٣٥	تفسير الآيتين (١٣٩ - ١٤٠)
١٣٦	تفسير الآيتين (١٤١ - ١٤٢)
١٣٧	تفسير الآية (١٤٣)
١٣٩	تفسير الآية (١٤٤)
١٤٠	تفسير الآية (١٤٥)
١٤١	تفسير الآيات (١٤٦ - ١٤٨)
١٤٢	تفسير الآيتين (١٤٩ - ١٥٠)
١٤٣	تفسير الآيات (١٥١ - ١٥٤)
١٤٤	تفسير الآيتين (١٥٥ - ١٥٦)
١٤٥	تفسير الآيتين (١٥٧ - ١٥٨)
١٤٦	تفسير الآيات (١٥٩ - ١٦٢)

١٤٧	تفسير الآيتين (١٦٣ - ١٦٤)
١٤٨	تفسير الآيتين (١٦٥ - ١٦٦)
١٤٩	تفسير الآيتين (١٦٧ - ١٦٨)
١٥٠	تفسير الآيات (١٦٩ - ١٧١)
١٥١	تفسير الآيتين (١٧٢ - ١٧٣)
١٥٢	تفسير الآيتين (١٧٤ - ١٧٥)
١٥٣	تفسير الآيتين (١٧٦ - ١٧٧)
١٥٤	تفسير الآية (١٧٨)
١٥٦	تفسير الآية (١٧٩)
١٥٧	تفسير الآيات (١٨٠ - ١٨٢)
١٥٨	تفسير الآيتين (١٨٣ - ١٨٤)
١٥٩	تفسير الآية (١٨٥)
١٦٠	تفسير الآية (١٨٦)
١٦١	تفسير الآية (١٨٧)
١٦٣	تفسير الآيتين (١٨٨ - ١٨٩)
١٦٥	تفسير الآيتين (١٩٠ - ١٩١)
١٦٦	تفسير الآيات (١٩٢ - ١٩٤)
١٦٧	تفسير الآيتين (١٩٥ - ١٩٦)
١٦٩	تفسير الآية (١٩٧)
١٧٠	تفسير الآية (١٩٨)
١٧١	تفسير الآيتين (١٩٩ - ٢٠٠)
١٧٢	تفسير الآية (٢٠١)
١٧٣	تفسير الآيتين (٢٠٢ - ٢٠٣)
١٧٤	تفسير الآيات (٢٠٤ - ٢٠٦)
١٧٥	تفسير الآيات (٢٠٧ - ٢٠٩)
١٧٦	تفسير الآيات (٢١٠ - ٢١٢)
١٧٧	تفسير الآية (٢١٣)

١٧٨	تفسير الآية (٢١٤)
١٧٩	تفسير الآيتين (٢١٥ - ٢١٦)
١٨٠	تفسير الآية (٢١٧)
١٨١	تفسير الآيتين (٢١٨ - ٢١٩)
١٨٣	تفسير الآية (٢٢٠)
١٨٤	تفسير الآيتين (٢٢١ - ٢٢٢)
١٨٥	تفسير الآية (٢٢٣)
١٨٦	تفسير الآية (٢٢٤)
١٨٧	تفسير الآية (٢٢٥)
١٨٨	تفسير الآيات (٢٢٦ - ٢٢٨)
١٩٠	تفسير الآية (٢٢٩)
١٩١	تفسير الآية (٢٣٠)
١٩٢	تفسير الآية (٢٣١)
١٩٣	تفسير الآية (٢٣٢)
١٩٤	تفسير الآية (٢٣٣)
١٩٦	تفسير الآية (٢٣٤)
١٩٧	تفسير الآية (٢٣٥)
١٩٨	تفسير الآية (٢٣٦)
١٩٩	تفسير الآيتين (٢٣٧ - ٢٣٨)
٢٠٠	تفسير الآيتين (٢٣٩ - ٢٤٠)
٢٠١	تفسير الآيات (٢٤١ - ٢٤٣)
٢٠٢	تفسير الآيتين (٢٤٤ - ٢٤٥)
٢٠٣	تفسير الآية (٢٤٦)
٢٠٤	تفسير الآية (٢٤٧)
٢٠٥	تفسير الآيتين (٢٤٨ - ٢٤٩)
٢٠٦	تفسير الآيتين (٢٥٠ - ٢٥١)
٢٠٧	تفسير الآية (٢٥٢)

٢٠٨	تفسير الآية (٢٥٣)
٢٠٩	تفسير الآيتين (٢٥٤ - ٢٥٥)
٢١١	تفسير الآية (٢٥٦)
٢١٢	تفسير الآيتين (٢٥٧ - ٢٥٨)
٢١٣	تفسير الآية (٢٥٩)
٢١٥	تفسير الآية (٢٦٠)
٢١٦	تفسير الآية (٢٦١)
٢١٧	تفسير الآيتين (٢٦٢ - ٢٦٣)
٢١٨	تفسير الآيتين (٢٦٤ - ٢٦٥)
٢١٩	تفسير الآية (٢٦٦)
٢٢٠	تفسير الآيات (٢٦٧ - ٢٦٩)
٢٢١	تفسير الآيتين (٢٧٠ - ٢٧١)
٢٢٢	تفسير الآيتين (٢٧٢ - ٢٧٣)
٢٢٣	تفسير الآية (٢٧٤)
٢٢٥	تفسير الآيات (٢٧٦ - ٢٧٨)
٢٢٦	تفسير الآيات (٢٧٩ - ٢٨١)
٢٢٧	تفسير الآية (٢٨٢)
٢٣٠	تفسير الآية (٢٨٣)
٢٣١	تفسير الآية (٢٨٤)
٢٣٢	تفسير الآية (٢٨٥)
٢٣٣	تفسير الآية (٢٨٦)

(٣) سورة آل عمران

٢٣٥	تفسير الآيات (١ - ٣)
٢٣٦	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٢٣٧	تفسير الآية (٧)
٢٣٨	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٣٩	تفسير الآيات (١١ - ١٣)

٢٤٠	تفسير الآية (١٤)
٢٤١	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٢٤٢	تفسير الآيات (١٨ - ١٩)
٢٤٣	تفسير الآية (٢٠)
٢٤٤	تفسير الآية (٢١)
٢٤٥	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٢٤٦	تفسير الآية (٢٦)
٢٤٧	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٢٤٨	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٢٤٩	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٢٥٠	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٦)
٢٥١	تفسير الآية (٣٧)
٢٥٢	تفسير الآية (٣٨)
٢٥٣	تفسير الآية (٣٩)
٢٥٤	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٢٥٥	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٢٥٦	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٩)
٢٥٧	تفسير الآيتين (٥٠ - ٥١)
٢٥٨	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٤)
٢٥٩	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٢٦٠	تفسير الآيات (٥٨ - ٦١)
٢٦١	تفسير الآية (٦١)
٢٦٢	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٢٦٣	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٢٦٤	تفسير الآيات (٦٨ - ٧٢)
٢٦٥	تفسير الآية (٧٣)
٢٦٦	تفسير الآيات (٧٤ - ٧٥)

٢٦٧	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
٢٦٨	تفسير الآية (٧٩)
٢٦٩	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)
٢٧٠	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
٢٧١	تفسير الآيات (٨٤ - ٨٦)
٢٧٢	تفسير الآيات (٨٧ - ٩٠)
٢٧٣	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٢٧٤	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)
٢٧٥	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٢٧٨	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٢٧٩	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٢٨٠	تفسير الآية (١٠٤)
٢٨١	تفسير الآيات (١٠٥ - ١٠٨)
٢٨٢	تفسير الآيات (١٠٩ - ١١١)
٢٨٣	تفسير الآية (١١٢)
٢٨٤	تفسير الآيات (١١٣ - ١١٥)
٢٨٥	تفسير الآيات (١١٦ - ١١٨)
٢٨٦	تفسير الآية (١١٩)
٢٨٧	تفسير الآيتين (١٢٠ - ١٢١)
٢٨٨	تفسير الآيتين (١٢٢ - ١٢٣)
٢٨٩	تفسير الآيتين (١٢٤ - ١٢٥)
٢٩٠	تفسير الآيات (١٢٦ - ١٢٨)
٢٩١	تفسير الآيات (١٢٩ - ١٣٢)
٢٩٢	تفسير الآيتين (١٣٣ - ١٣٤)
٢٩٣	تفسير الآية (١٣٥)
٢٩٤	تفسير الآيتين (١٣٦ - ١٣٧)
٢٩٥	تفسير الآيات (١٣٨ - ١٤٠)

٢٩٦	تفسير الآيتين (١٤١ - ١٤٢)
٢٩٧	تفسير الآيتين (١٤٣ - ١٤٤)
٢٩٨	تفسير الآيتين (١٤٥ - ١٤٦)
٢٩٩	تفسير الآيات (١٤٧ - ١٥٠)
٣٠٠	تفسير الآيتين (١٥١ - ١٥٢)
٣٠١	تفسير الآية (١٥٣)
٣٠٢	تفسير الآية (١٥٤)
٣٠٤	تفسير الآيتين (١٥٥ - ١٥٦)
٣٠٥	تفسير الآيات (١٥٧ - ١٥٩)
٣٠٦	تفسير الآية (١٦٠)
٣٠٧	تفسير الآيتين (١٦١ - ١٦٢)
٣٠٨	تفسير الآيات (١٦٣ - ١٦٥)
٣٠٩	تفسير الآيتين (١٦٦ - ١٦٧)
٣١٠	تفسير الآيات (١٦٨ - ١٧٠)
٣١١	تفسير الآيتين (١٧١ - ١٧٢)
٣١٢	تفسير الآية (١٧٣)
٣١٣	تفسير الآيات (١٧٤ - ١٧٦)
٣١٤	تفسير الآيات (١٧٧ - ١٧٩)
٣١٥	تفسير الآية (١٨٠)
٣١٦	تفسير الآيتين (١٨١ - ١٨٢)
٣١٧	تفسير الآيتين (١٨٣ - ١٨٤)
٣١٨	تفسير الآيتين (١٨٥ - ١٨٦)
٣١٩	تفسير الآيتين (١٨٧ - ١٨٨)
٣٢٠	تفسير الآيتين (١٨٩ - ١٩٠)
٣٢١	تفسير الآية (١٩١)
٣٢٢	تفسير الآيات (١٩٢ - ١٩٤)
٣٢٣	تفسير الآيات (١٩٥ - ١٩٦)

٣٢٤	تفسير الآيات (١٩٧ - ١٩٩)
٣٢٥	تفسير الآية (٢٠٠)
	(٤) سورة النساء
٣٢٦	تفسير الآية (١)
٣٢٧	تفسير الآية (٢)
٣٢٨	تفسير الآية (٣)
٣٢٩	تفسير الآية (٤)
٣٣٠	تفسير الآية (٥)
٣٣١	تفسير الآية (٦)
٣٣٢	تفسير الآية (٧)
٣٣٣	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٣٣٤	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٣٣٧	تفسير الآية (١٢)
٣٣٨	تفسير الآية (١٣)
٣٤٠	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٣٤١	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٤٢	تفسير الآية (١٨)
٣٤٣	تفسير الآية (١٩)
٣٤٤	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٣٤٥	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٣٤٧	تفسير الآية (٢٤)
٣٤٩	تفسير الآية (٢٥)
٣٥٠	تفسير الآية (٢٦)
٣٥١	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٣٥٢	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣٥٣	تفسير الآية (٣٢)
٣٥٤	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)

٣٥٦	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٣٥٧	تفسير الآية (٣٧)
٣٥٨	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٣٥٩	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٣٦١	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٣٦٣	تفسير الآية (٤٧)
٣٦٤	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٣٦٥	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٤)
٣٦٦	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٣٦٧	تفسير الآيتين (٥٨ - ٥٩)
٣٦٨	تفسير الآية (٦٠)
٣٦٩	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٣٧٠	تفسير الآيتين (٦٤ - ٦٥)
٣٧١	تفسير الآيات (٦٦ - ٦٩)
٣٧٢	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
٣٧٣	تفسير الآيتين (٧٣ - ٧٤)
٣٧٤	تفسير الآية (٧٥)
٣٧٥	تفسير الآيتين (٧٦ - ٧٧)
٣٧٦	تفسير الآيتين (٧٨ - ٧٩)
٣٧٧	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)
٣٧٨	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
٣٧٩	تفسير الآية (٨٤)
٣٨٠	تفسير الآيتين (٨٥ - ٨٦)
٣٨١	تفسير الآيتين (٨٧ - ٨٨)
٣٨٢	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
٣٨٣	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٣٨٥	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)

٣٨٧	تفسير الآيتين (٩٥ - ٩٦)
٣٨٨	تفسير الآيتين (٩٧ - ٩٨)
٣٨٩	تفسير الآيتين (٩٩ - ١٠٠)
٣٩٠	تفسير الآية (١٠١)
٣٩١	تفسير الآية (١٠٢)
٣٩٢	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٥)
٣٩٣	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
٣٩٤	تفسير الآيات (١٠٨ - ١١١)
٣٩٥	تفسير الآيات (١١٢ - ١١٤)
٣٩٦	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٧)
٣٩٧	تفسير الآيات (١١٨ - ١٢٠)
٣٩٨	تفسير الآيات (١٢١ - ١٢٤)
٣٩٩	تفسير الآية (١٢٥)
٤٠٠	تفسير الآيتين (١٢٦ - ١٢٧)
٤٠١	تفسير الآية (١٢٨)
٤٠٢	تفسير الآيتين (١٢٩ - ١٣٠)
٤٠٣	تفسير الآيات (١٣١ - ١٣٤)
٤٠٤	تفسير الآيتين (١٣٥ - ١٣٦)
٤٠٥	تفسير الآيات (١٣٧ - ١٣٩)
٤٠٦	تفسير الآيتين (١٤٠ - ١٤١)
٤٠٧	تفسير الآية (١٤٢)
٤٠٨	تفسير الآيات (١٤٣ - ١٤٥)
٤٠٩	تفسير الآيات (١٤٦ - ١٤٨)
٤١٠	تفسير الآيات (١٤٩ - ١٥٢)
٤١١	تفسير الآية (١٥٣)
٤١٢	تفسير الآيتين (١٥٤ - ١٥٥)
٤١٣	تفسير الآيتين (١٥٦ - ١٥٧)

٤١٤	تفسير الآيتين (١٥٨ - ١٥٩)
٤١٥	تفسير الآيات (١٦٠ - ١٦٢)
٤١٦	تفسير الآيات (١٦٣ - ١٦٥)
٤١٧	تفسير الآيات (١٦٦ - ١٦٩)
٤١٨	تفسير الآيتين (١٧٠ - ١٧١)
٤١٩	تفسير الآية (١٧٢)
٤٢١	تفسير الآيات (١٧٣ - ١٧٦)

(٥) سورة المائدة

٤٢٣	تفسير الآية (١)
٤٢٤	تفسير الآية (٢)
٤٢٥	تفسير الآية (٣)
٤٢٧	تفسير الآية (٤)
٤٢٨	تفسير الآية (٥)
٤٢٩	تفسير الآية (٦)
٤٣١	تفسير الآية (٧)
٤٣٢	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٤٣٣	تفسير الآية (١٢)
٤٣٤	تفسير الآية (١٣)
٤٣٥	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٤٣٦	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٤٣٧	تفسير الآية (١٨)
٤٣٨	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٤٣٩	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٤٤٠	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٤٤١	تفسير الآية (٢٧)
٤٤٢	تفسير الآيات (٢٨ - ٣١)
٤٤٣	تفسير الآية (٣٢)

٤٤٤	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)
٤٤٥	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٨)
٤٤٦	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٤٤٨	تفسير الآيتين (٤٢ - ٤٣)
٤٤٩	تفسير الآيتين (٤٤ - ٤٥)
٤٥٠	تفسير الآية (٤٦)
٤٥١	تفسير الآيتين (٤٧ - ٤٨)
٤٥٢	تفسير الآية (٤٩)
٤٥٣	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٤٥٤	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)
٤٥٦	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٤٥٧	تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠)
٤٥٨	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)
٤٥٩	تفسير الآيتين (٦٣ - ٦٤)
٤٦٠	تفسير الآيتين (٦٥ - ٦٦)
٤٦١	تفسير الآية (٦٧)
٤٦٢	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٤٦٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٤٦٤	تفسير الآيتين (٧٢ - ٧٣)
٤٦٥	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٤٦٦	تفسير الآيتين (٧٦ - ٧٧)
٤٦٧	تفسير الآيات (٧٨ - ٨٠)
٤٦٨	تفسير الآيتين (٨١ - ٨٢)
٤٦٩	تفسير الآيتين (٨٣ - ٨٤)
٤٧٠	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٧)
٤٧١	تفسير الآيتين (٨٨ - ٨٩)
٤٧٣	تفسير الآيتين (٩٠ - ٩١)

٤٧٤	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٤)
٤٧٥	تفسير الآية (٩٥)
٤٧٧	تفسير الآية (٩٦)
٤٧٨	تفسير الآيات (٩٧ - ١٠٠)
٤٧٩	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٤٨٠	تفسير الآيتين (١٠٤ - ١٠٥)
٤٨١	تفسير الآية (١٠٦)
٤٨٢	تفسير الآية (١٠٧)
٤٨٣	تفسير الآيتين (١٠٨ - ١٠٩)
٤٨٤	تفسير الآية (١١٠)
٤٨٥	تفسير الآيات (١١١ - ١١٤)
٤٨٦	تفسير الآيتين (١١٥ - ١١٦)
٤٨٧	تفسير الآيات (١١٧ - ١١٩)
٤٨٨	تفسير الآية (١٢٠)

(٦) سورة الأنعام

٤٨٩	تفسير الآية (١)
٤٩٠	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٤٩١	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٤٩٢	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٤٩٣	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٤٩٤	تفسير الآيات (١٤ - ١٧)
٤٩٥	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٤٩٦	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٣)
٤٩٧	تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٤٩٨	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٨)
٤٩٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٥٠٠	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)

٥٠١		تفسير الآيات (٣٦ - ٣٤)
٥٠٢		تفسير الآيات (٣٩ - ٣٧)
٥٠٣		تفسير الآيات (٤٣ - ٤٠)
٥٠٤		تفسير الآيات (٤٦ - ٤٤)
٥٠٥		تفسير الآيات (٥٠ - ٤٧)
٥٠٦		تفسير الآيتين (٥٢ - ٥١)
٥٠٧		تفسير الآيتين (٥٤ - ٥٣)
٥٠٨		تفسير الآيات (٥٧ - ٥٥)
٥٠٩		تفسير الآيتين (٥٩ - ٥٨)
٥١٠		تفسير الآيتين (٦١ - ٦٠)
٥١١		تفسير الآيات (٦٥ - ٦٢)
٥١٢		تفسير الآيات (٦٨ - ٦٦)
٥١٣		تفسير الآيتين (٧٠ - ٦٩)
٥١٤		تفسير الآية (٧١)
٥١٥		تفسير الآيات (٧٤ - ٧٢)
٥١٦		تفسير الآيات (٧٧ - ٧٥)
٥١٧		تفسير الآيات (٨٠ - ٧٨)
٥١٨		تفسير الآيات (٨٤ - ٨١)
٥١٩		تفسير الآيات (٨٩ - ٨٥)
٥٢٠		تفسير الآيتين (٩١ - ٩٠)
٥٢١		تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٢)
٥٢٢		تفسير الآية (٩٤)
٥٢٣		تفسير الآيتين (٩٦ - ٩٥)
٥٢٤		تفسير الآيتين (٩٨ - ٩٧)
٥٢٥		تفسير الآية (٩٩)
٥٢٦		تفسير الآيات (١٠٢ - ١٠٠)
٥٢٧		تفسير الآية (١٠٣)

٥٢٨		تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٦)
٥٢٩		تفسير الآيات (١٠٧ - ١٠٩)
٥٣٠		تفسير الآيات (١١٠ - ١١٢)
٥٣١		تفسير الآيتين (١١٣ - ١١٤)
٥٣٢		تفسير الآيات (١١٥ - ١١٨)
٥٣٣		تفسير الآيات (١١٩ - ١٢١)
٥٣٤		تفسير الآيتين (١٢٢ - ١٢٣)
٥٣٥		تفسير الآيتين (١٢٤ - ١٢٥)
٥٣٦		تفسير الآيات (١٢٦ - ١٢٨)
٥٣٧		تفسير الآيتين (١٢٩ - ١٣٠)
٥٣٨		تفسير الآيات (١٣١ - ١٣٣)
٥٣٩		تفسير الآيتين (١٣٤ - ١٣٥)
٥٤٠		تفسير الآيتين (١٣٦ - ١٣٧)
٥٤١		تفسير الآيتين (١٣٨ - ١٣٩)
٥٤٢		تفسير الآيتين (١٤٠ - ١٤١)
٥٤٣		تفسير الآيتين (١٤٢ - ١٤٣)
٥٤٤		تفسير الآيتين (١٤٤ - ١٤٥)
٥٤٥		تفسير الآيتين (١٤٦ - ١٤٧)
٥٤٦		تفسير الآيات (١٤٨ - ١٥٠)
٥٤٧		تفسير الآية (١٥١)
٥٤٨		تفسير الآيتين (١٥٢ - ١٥٣)
٥٤٩		تفسير الآيتين (١٥٤ - ١٥٥)
٥٥٠		تفسير الآيات (١٥٦ - ١٥٨)
٥٥١		تفسير الآيتين (١٥٩ - ١٦٠)
٥٥٢		تفسير الآيات (١٦١ - ١٦٤)
٥٥٣		تفسير الآية (١٦٥)

(٧) سورة الأعراف

٥٥٤	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٥٥	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٥٥٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٥٥٧	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٥٥٨	تفسير الآيات (١٣ - ١٧)
٥٥٩	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٥٦٠	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
٥٦١	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)
٥٦٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٥٦٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٥٦٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٥٦٥	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٥٦٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٥٦٧	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٥٦٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٣)
٥٦٩	تفسير الآية (٤٤)
٥٧٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧)
٥٧١	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٠)
٥٧٢	تفسير الآيات (٥١ - ٥٤)
٥٧٣	تفسير الآية (٥٥)
٥٧٤	تفسير الآيتين (٥٦ - ٥٧)
٥٧٥	تفسير الآيتين (٥٨ - ٥٩)
٥٧٦	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٢)
٥٧٧	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٦)
٥٧٨	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
٥٧٩	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)

٥٨٠	تفسير الآية (٧٣)
٥٨١	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٥٨٢	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٩)
٥٨٣	تفسير الآيات (٨٠ - ٨٢)
٥٨٤	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٥)
٥٨٥	تفسير الآيتين (٨٦ - ٨٧)
٥٨٦	تفسير الآيتين (٨٨ - ٨٩)
٥٨٧	تفسير الآيات (٩٠ - ٩٤)
٥٨٨	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٥٨٩	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٥٩٠	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٥٩١	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٦)
٥٩٢	تفسير الآيات (١٠٧ - ١١٠)
٥٩٣	تفسير الآيات (١١١ - ١١٦)
٥٩٤	تفسير الآيات (١١٧ - ١٢٣)
٥٩٥	تفسير الآيات (١٢٤ - ١٢٧)
٥٩٦	تفسير الآيتين (١٢٨ - ١٢٩)
٥٩٧	تفسير الآيات (١٣٠ - ١٣٢)
٥٩٨	تفسير الآيتين (١٣٣ - ١٣٤)
٥٩٩	تفسير الآيات (١٣٥ - ١٣٧)
٦٠٠	تفسير الآيات (١٣٨ - ١٤٠)
٦٠١	تفسير الآيات (١٤١ - ١٤٣)
٦٠٣	تفسير الآية (١٤٤)
٦٠٤	تفسير الآيتين (١٤٥ - ١٤٦)
٦٠٥	تفسير الآيتين (١٤٧ - ١٤٨)
٦٠٦	تفسير الآيتين (١٤٩ - ١٥٠)
٦٠٧	تفسير الآيتين (١٥١ - ١٥٢)

٦٠٨	تفسير الآيات (١٥٣ - ١٥٥)
٦٠٩	تفسير الآيتين (١٥٦ - ١٥٧)
٦١٠	تفسير الآية (١٥٨)
٦١١	تفسير الآيتين (١٥٩ - ١٦٠)
٦١٢	تفسير الآيتين (١٦١ - ١٦٢)
٦١٣	تفسير الآيتين (١٦٣ - ١٦٤)
٦١٤	تفسير الآيات (١٦٥ - ١٦٨)
٦١٥	تفسير الآية (١٦٩)
٦١٦	تفسير الآيات (١٧٠ - ١٧٢)
٦١٧	تفسير الآيات (١٧٣ - ١٧٥)
٦١٨	تفسير الآية (١٧٦)
٦١٩	تفسير الآيات (١٧٧ - ١٧٩)
٦٢٠	تفسير الآيتين (١٨٠ - ١٨١)
٦٢١	تفسير الآيات (١٨٢ - ١٨٥)
٦٢٢	تفسير الآيتين (١٨٦ - ١٨٧)
٦٢٣	تفسير الآيتين (١٨٨ - ١٨٩)
٦٢٤	تفسير الآية (١٩٠)
٦٢٥	تفسير الآيات (١٩١ - ١٩٥)
٦٢٦	تفسير الآيات (١٩٦ - ١٩٩)
٦٢٧	تفسير الآيات (٢٠٠ - ٢٠٢)
٦٢٨	تفسير الآيات (٢٠٣ - ٢٠٦)

(٨) سورة الأنفال

٦٢٩	تفسير الآية (١)
٦٣٠	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٦٣١	تفسير الآية (٥)
٦٣٢	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٦٣٣	تفسير الآيتين (٨ - ٩)

٦٣٤	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٦٣٥	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٦٣٦	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٦٣٧	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٦٣٨	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)
٦٣٩	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٥)
٦٤٠	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٩)
٦٤١	تفسير الآية (٣٠)
٦٤٢	تفسير الآيتين (٣١ - ٣٢)
٦٤٣	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٥)
٦٤٤	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٦٤٥	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٦٤٦	تفسير الآية (٤٢)
٦٤٧	تفسير الآية (٤٣)
٦٤٨	تفسير الآيتين (٤٤ - ٤٥)
٦٤٩	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٦٥٠	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٦٥١	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٦٥٢	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦)
٦٥٣	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)
٦٥٤	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)
٦٥٥	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٦)
٦٥٦	تفسير الآية (٦٧)
٦٥٧	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٦٥٨	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
٦٥٩	تفسير الآية (٧٣)
٦٦٠	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)

(٩) سورة التوبة

٦٦٢	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٦٦٣	تفسير الآية (٣)
٦٦٤	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٦٦٥	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٦٦٦	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٦٦٧	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٦٦٨	تفسير الآيات (١٤ - ١٦)
٦٦٩	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٦٧٠	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
٦٧١	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٦٧٢	تفسير الآية (٢٥)
٦٧٣	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٨)
٦٧٤	تفسير الآية (٢٩)
٦٧٥	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٦٧٦	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
٦٧٧	تفسير الآية (٣٥)
٦٧٨	تفسير الآيتين (٣٦ - ٣٧)
٦٧٩	تفسير الآية (٣٨)
٦٨٠	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٦٨١	تفسير الآية (٤١)
٦٨٢	تفسير الآيتين (٤٢ - ٤٣)
٦٨٣	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٦٨٤	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
٦٨٥	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٦٨٦	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٥)
٦٨٧	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٨)

٦٨٨	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٦٨٩	تفسير الآية (٦١)
٦٩٠	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٦٩١	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٦٩٢	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٦٩٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٦٩٤	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٤)
٦٩٥	تفسير الآية (٧٥)
٦٩٦	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
٦٩٧	تفسير الآيتين (٧٩ - ٨٠)
٦٩٨	تفسير الآية (٨١)
٦٩٩	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٤)
٧٠٠	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٨)
٧٠١	تفسير الآيات (٨٩ - ٩٢)
٧٠٢	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)
٧٠٣	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٧٠٤	تفسير الآيتين (٩٨ - ٩٩)
٧٠٥	تفسير الآيتين (١٠٠ - ١٠١)
٧٠٦	تفسير الآيتين (١٠٢ - ١٠٣)
٧٠٧	تفسير الآيتين (١٠٤ - ١٠٥)
٧٠٨	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
٧٠٩	تفسير الآية (١٠٨)
٧١٠	تفسير الآية (١٠٩)
٧١١	تفسير الآية (١١٠)
٧١٢	تفسير الآيتين (١١١ - ١١٢)
٧١٣	تفسير الآيتين (١١٣ - ١١٤)
٧١٤	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٧)

٧١٥	تفسير الآيتين (١١٨ - ١١٩)
٧١٦	تفسير الآية (١٢٠)
٧١٧	تفسير الآيتين (١٢١ - ١٢٢)
٧١٨	تفسير الآيات (١٢٣ - ١٢٦)
٧١٩	تفسير الآيات (١٢٧ - ١٢٩)
٧٢٠	فهرس الآيات

* * *

تَقْسِيرُ النَّسْفِي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود النسفي

(ت ٧١٠ هـ)

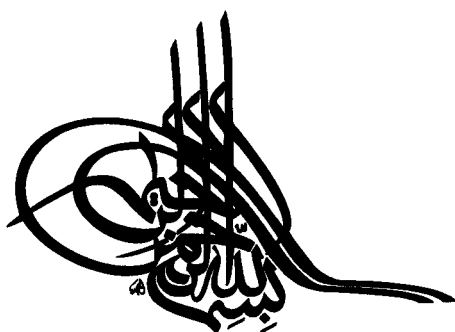
حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يوسف علي بدوي

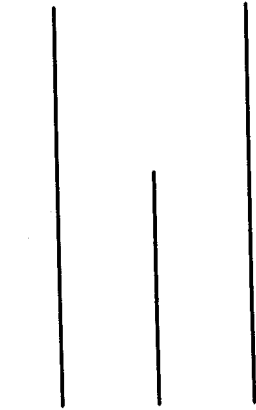
رَاجَعَهُ وَفَتَّ مَرَلَهُ
محمي الدين ديبستو

المجلد الثالث

كتاب التكميل الطيب

بيروت





تفسير النسي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقوقُ الطَّبعِ وَالنَّصْرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
الطَّبعةُ الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

١ ، ٢ - ﴿الْم﴾ - على أنها اسم السورة - مبتدأ، وخبره: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾. وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تنزيل﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف. أو: هو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو: يرتفع بالابتداء، وخبره: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محل له. والضمير فيه راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلاً من رب العالمين؛ لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب. ثم أضرب عن ذلك إلى قوله:

٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ - أي: اختلقه محمد ﷺ - لأن ﴿أم﴾ هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة. معناه: بل يقولون افتراه، إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منه؛ لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ ولم يفتره محمد ﷺ كما قالوا تعنتاً وجهلاً ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: العرب ﴿مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ «ما» للنفي. والجملة صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾

الترجي من رسول الله ﷺ كما كان ﴿لَعَلُّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [طه: ٤٤] على الترجي من موسى وهارون.

٤ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى عليه بإحدائه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم، ولا شافعياً يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بمواعظ الله.

٥ - ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: أمر الدنيا ﴿وَمِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كله، أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو: يوم القيامة ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا. ولا تمسك للمشبهة بقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ في إثبات الجهة؛ لأن معناه: إلى حيث يرضاه، أو: أمره، كما لا تشبث لهم بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصفات: ٩٩] ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

٦ - ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: الموصوف بما مرّ عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب أمره وتديره ﴿الرَّحِيمُ﴾ البالغ لطفه وتيسيره. وقيل: لا وقف عليه، لأن:

٧ - ﴿الَّذِي﴾ صفته ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: حسنه، لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿خَلَقَهُ﴾ كوفي، ونافع، وسهل، على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسن. ﴿خَلَقَهُ﴾ غيرهم على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ آدم ﴿مِنْ طِينٍ﴾.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ من نطفة ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: مني. وهو بدل من ﴿سلالة﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف، حقير.

٩ - ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قومه، كقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ﴾ الإضافة للاختصاص، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به، وبعلمه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتسمعوا، وتبصروا، وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون قليلاً.

١٠ - ﴿وَقَالُوا﴾ القائل: أبي بن خلف. ولرضاهم بقوله: أسند إليهم ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها. وقرأ علي: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بكسر اللام، يقال: ضلَّ يَضِلُّ، وضلَّ يَضِلُّ. وانتصب الظرف في ﴿إِذَا ضَلَلْنَا﴾ بما يدل عليه ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بُعِثُ ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون. لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده.

١١ - ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ﴿يتوفاكم ملك الموت الذي وكلَّ بقبض أرواحكم﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ترجعون ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بعد ذلك مبعوثين للحساب، والجزاء. وهذا معنى لقاء الله. والتوفي: استيفاء النفس وهي الروح، أي: يقبض أرواحكم أجمعين. من قولك: توفيت حقي من فلان: إذا أخذته وافياً كملاً من غير نقصان. وعن مجاهد: حُوِّتَ لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيئه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الأمر بذلك كله، وهو الخالق لأفعال المخلوقات. فهذا وجه الجمع بين هذه

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

الآية، وبين قوله: ﴿تَوَفَّنَا رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

١٢ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو: لكل أحد. و«لو» امتناعية. والجواب محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. و«لو» و«إِذَا» للضمي. وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود. ولا يقدر له ﴿تَرَىٰ﴾ ما يتناوله؛ كأنه قيل: ﴿ولو﴾ تكون منك الرؤية. و﴿إِذَا﴾ ظرف له ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ من الذل، والحياء، والندم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿عِنْدَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾. ويوقف عليه حق الحذف، إذا التقدير: يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعدك، ووعدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. أو كنا عمياً وصماً، فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: الإيمان، والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث، والحساب الآن.

١٣ - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ في الدنيا ﴿هُدًى﴾ أي: لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف، لما علمنا منهم اختيار الكفر، وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة، فإن عندهم: شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاه، لكنها لم تهتد، وهم أولوا الآية بمشيئة الجبر، وهو تأويل فاسد؛ لما عرف في تبصرة الأدلة ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن وجب القول مني لما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم، وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب. وفي تخصيص الجن والإنس إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم.

١٤ - ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾ بما تركتم عمل لقاء ﴿يَوْمِكُمْ﴾

هَذَا إِنَّا نَسِيتَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

هَذَا ﴿ وهو: الإيمان به ﴾ إِنَّا نَسِيتَكُمْ ﴿ وتركناكم في العذاب كالمنسي ﴾ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴿ أي: العذاب الدائم، الذي لا انقطاع له ﴾ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ من الكفر، والمعاصي.

١٥- ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ أي: وعظوا بها ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ سجدوا لله تواضعاً، وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ونزهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه حامدين له ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان، والسجود له.

١٦- ﴿ نَتَجَافَى ﴾ ترتفع، وتتنحى ﴿ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ عن الفرش ومواضع النوم. قال سهل: وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه، فقال: ﴿ نتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ﴿ يَدْعُونَ ﴾ داعين ﴿ رَبَّهُمْ ﴾ عابدين له ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مفعول له، أي: لأجل خوفهم من سخطه، وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون. عن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»^(١). وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة. يعني: صلاة الليل. وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان أناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم^(٢). وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في طاعة الله تعالى.

١٧- ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ «ما» بمعنى الذي ﴿ أُخْفِيَ ﴾ على حكاية النفس: حزة ويعقوب ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من

(١) رواه أحمد (٥/٢٣٢، ٢٤٢).

(٢) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشف ٣/٥١٢).

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ

الكرامة ﴿جَزَاءٌ﴾ مصدر، أي: جوزوا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن الحسن - رحمه الله -: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وفيه: دليل على أَنَّ المراد: الصلاة في جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً.

١٨ - ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي نُورِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ لَا يَسْتَوِي مَعَ مَنْ هُوَ فِي ظِلْمَةِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾، أي: كافراً، وهما محمولان على لفظ ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ على المعنى، بدليل قوله:

١٩ - ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ هِيَ نَوْعٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ. وَقِيلَ: هِيَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثُمَّ صَارَ عَامًّا.

٢٠ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ﴾ أي: ملجؤهم، ومنزلهم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ وهذا دليل على أَنَّ المراد بالفاسق: الكافر، إذ التكذيب يقابل الإيمان.

٢١ - ﴿وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذاب الدنيا من الأسر، وما منحوا به من السنة سبع سنين ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخذلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: العذاب الأدنى: عذاب القبر - ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل المعذنين بالعذاب الأدنى ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

٢٢ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وعظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ

عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَمَ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ

عَنْهَا ﴿٢٢﴾ أي: فتولى عنها، ولم يتدبر فيها. و﴿ثم﴾ للاستبعاد، أي: أن الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تتنزهها؟! استبعاداً لتركه الانتهاز ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ ولم يقل: منه؛ لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم؛ فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام. ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

٢٣ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَمَ﴾ شك ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: لقاء موسى ربه في الآخرة. كذا عن النبي ﷺ ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى هدى لقومه.

٢٤ - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً﴾ بهزتين: كوفي، وشامي ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس، ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله، وشرائعه ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيتاهم بذلك حين صبروا على الحق وطاعة الله. أو: عن المعاصي ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١): حمزة وعلي، أي: لصبرهم عن الدنيا. وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ التوراة ﴿يُوقِنُونَ﴾ يعلمون علماً لا يخالجه شك.

٢٥ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحق من المبطّل.

٢٦ - ﴿أَوَلَمْ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف، أي: ﴿أ﴾ لم يدع ﴿يَهْدِ﴾ يبين، والفاعل: الله؛ بدليل قراءة زيد عن يعقوب

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة (لَمَّا صَبَرُوا). وهي قراءة من ذكرهم.

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
 نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿نَهَدٌ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يكون فاعل ﴿يهد﴾؛ لأن ﴿كَمْ﴾ للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله. وعمله نصب بقوله: ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ كعاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: أهل مكة يَمْشُونَ في متاجرهم على ديارهم، وبلادهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيتعظون.

٢٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ﴾ نجري المطر، والأنهار ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: الأرض التي جرز نباتها، أي: قطع، إما لعدم الماء، أو: لأنه رُعي. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز، بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَمُهُمْ﴾ من عَصْفِهِ ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من حَبِّهِ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بأعينهم، فيستدلوا على إحياء الموتى.

٢٨ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ النصر، أو: الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. وكان المسلمون يقولون: إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ لَنَا عَلَى الْمَشْرِكِينَ. أو: يفتح بيننا وبينهم. فإذا سمع المشركون قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: في أي وقت يكون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنه كائن.

٢٩ - ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: يوم القيامة - وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم، أو: يوم بدر، أو: يوم فتح مكة - ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. وهذا الكلام لا ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً. ولكن لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم، فقليل لهم: لا تستعجلوا به، ولا تستهزئوا، فكأنني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وأمتتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتهم في إدراك العذاب فلم تنظروا. ومن

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

فسره بيوم الفتح، أو: بيوم بدر، فهو يريد المقتولين منهم، فإنهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

٣٠ - ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ النصره عليهم، وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ الغلبة عليكم، وهلاككم. وكان عليه الصلاة والسلام لا ينام حتى يقرأ: ﴿ألم تنزل﴾ السجدة و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. وقال: «من قرأ: ﴿ألم تنزل﴾ في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»^(١) وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سورة ﴿ألم تنزل﴾ هي المانعة، تمنع من عذاب القبر.

* * *

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٣ / ٥١٧).

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

قال أبي بن كعب - رضي الله عنه - لزرر: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قال: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذي يحلف به أبي، إن كانت لتعدل سورة البقرة، أو: أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أبي: أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة - رضي الله عنها - فأكلتها الداجن، فمن تأليفات الملاحدة، والروافض.

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وبالهزمة: نافع، أي: يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنما لم يقل: يا محمد، كما قال: ﴿يَا آدَمُ﴾ ﴿يَا مُوسَى﴾ تشريفاً له، وتنوياً بفضلته. وتصريحه باسمه في قوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونحوه لتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ أثبت على تقوى الله، ودُم عليه، وازدد منه، فهو باب لا يدرك مداه ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولا تساعدهم على شيء، واحترس منهم، فإنهم أعداء الله

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ

والمؤمنين. ورؤي: أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قدموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على عبد الله بن أبي، وأعطاهم النبي^(١) الأمان على أن يكلموه. فقالوا له: ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إنها تشفع وتنفع. ووازرهم المنافقون على ذلك، فهم المسلمون بقتلهم؛ فنزلت. أي: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ في نقض العهد ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكة ﴿والمنافقين﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم ﴿حَكِيمًا﴾ في تأخير الأمر بقتالهم.

٢ - ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي يُوحى إليك ﴿كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لم يزل عالماً بأعمالهم، وأعمالكم. وقيل: إنما جمع لأن المراد بقوله: ﴿اتَّبِعْ﴾ هو وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم، ومكرهم بكم.

٣ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وأسند أمرك إليه، وكله إلى تدبيره ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه وإن كان لفظ الخبر، والمعنى: اكتفِ بالله وكيلاً.

٤ - ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجة وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودعوة في رجل. والمعنى: أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك،

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً، في حالة واحدة - لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرجل وزوجاً له؛ لأنّ الأمّ مخدومة والمرأة خادمة، وبينهما منافاة، وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له؛ لأن النبوة أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، لئلا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل.

وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، وهو رجلٌ من كلب سبي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه، وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبي ﷺ زينب - وكانت تحت زيد - قال المنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه، وهو ينهى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه. وقيل: كان أبو معمر أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلين، فأكذب الله قولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبني. والتنكير في ﴿رجل﴾ وإدخال ﴿من﴾ الاستغرافية على ﴿قلين﴾ وذكر الجوف للتأكيد. ﴿اللائي﴾ بياء بعد الهمزة حيث كان، كوفي، وشامي. ﴿اللاء﴾ نافع، ويعقوب، وسهل. وهي جمع التي ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ عاصم، من: ظاهر؛ إذا قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ علي، وحزة، وخلف ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ شامي من اظاهر بمعنى تظاهر. غيرهم ﴿تَظْهَرُونَ﴾ من: اظهر بمعنى: تظهر. وعدي بـ ﴿مِنْ﴾ لتضمنه معنى البعد؛ لأنه كان طلاقاً للجاهلية ونظيره: آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدي بـ ﴿مِنْ﴾. وإلا، فـ ﴿آلى﴾ في أصله - الذي هو معنى حلف وأقسم - ليس هذا بحكمه. والدعي: فعل بمعنى مفعول، وهو الذي يدعى ولداً. وجمع على أفعلاء شاذاً - لأنّ بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقي وأنقياء، وشقي وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو: رمي وسمي - للتشبيه اللفظي ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: أن قولكم للزوجة: هي أم، وللدعي: هو ابن قول تقولونه بالستكم، لا حقيقة له، إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأم ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: ما هو حق ظاهره وباطنه ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي:

أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ

سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله:

٥ - ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾. وبين أن دعاءهم لأبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل ضمه إلى نفسه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان بن فلان. ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجمل الطليية، ثم فصل الخبرية عنها، ووصل بينها، ثم فصل الاسمية عنها، ووصل بينها، ثم فصل بالطليية ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم في الدين، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي، يريد: الأخوة في الدين، والولاية فيه ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي، أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بني! على سبيل الخطأ، وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين. و﴿مَا﴾ في موضع الجر عطف على ﴿مَا﴾ الأولى. ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم، ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده. وإذا وجد التبني، فإن كان المتبني مجهول النسب، وأصغر سنًا منه، ثبت نسبه منه، وعق إن كان عبدًا له. وإن كان أكبر سنًا منه لم يثبت النسب، وعق عند أبي حنيفة - رحمه الله - وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني، وعق إن كان عبدًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمد.

٦ - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوا دونه، ويجعلوها فداءه. أو: هو أولى بهم، أي: أرأف بهم، وأعطف عليهم، وأنفع

وَأَزْوَاجَهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

لهم، كقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي قراءة ابن مسعود: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته. ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ في تحريم نكاحهن، ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك كالإرث وغيره كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك، وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، وأن يكون لابتداء الغاية، أي: أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أي: الأنصار بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ الاستثناء من خلاف الجنس، أي: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وهو: أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث. وعدي ﴿تَفْعَلُوا﴾ بإلى لأنه في معنى: تُسَدُّوا. والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

٧ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ واذكر حين ﴿أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم ﴿وَمِنْكَ﴾ خصوصاً. وقدم رسول الله على نوح ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع. فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقد من قدمه زمانه ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

لَيْسَتَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

وثيقاً - وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه - وإنما فعلنا ذلك :

٨ - ﴿لَيْسَتَلِ﴾ الله ﴿الصَّادِقِينَ﴾ أي: الأنبياء ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ عما قالوه لقومهم. أو: ﴿لَيْسَالِ﴾ المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو: ﴿لَيْسَالِ﴾ الأنبياء ما الذي أجابتهم به أمهم. وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالرسول ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وهو عطف على ﴿أَخَذْنَا﴾ لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أو: على ما دلّ عليه: ﴿لَيْسَالِ الصَّادِقِينَ﴾ كأنه قال: فأثاب المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بسنة ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: الأحزاب. وهم: قريش، وغطفان، وقريظة، وبنو النضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا. قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالْصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالْدُبُورِ»^(١) ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاطئة فأخصرتهم، وسَفَتِ التراب في وجوههم. وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فانهزموا من غير قتال. وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم، ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، ف ضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذَّراري والنسوان فَرُفِعُوا فِي الْأَطَامِ^(٢)، واشتدَّ الخوفُ. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من

(١) رواه أحمد (١/٢٢٨ و٣٢٤) والبخاري (٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠).

(٢) «الآطام»: الحصون.

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾

الأحباش، وبنو كنانة، وأهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان. وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريب من شهر، لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق، والثبات على معاونة النبي ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾. وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكفار من البغي، والسعي في إطفاء نور الله.

١٠ - ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ﴾ بدل من ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق، بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن ستنها ومستوى نظرها حيرة، أو: عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة: رأس الغلصمة، وهي: منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. روي: أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم. قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»^(١) ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ خطاب للذين آمنوا، ومنهم: ثبتت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب، والمنافقون. فظن الأولون بالله أنه يبتليهم فخافوا الزلل، وضعف الاحتمال. وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكي عنهم. قرأ أبو عمرو وحمة: ﴿الظنون﴾ بغير ألف في الوصل والوقف، وهو القياس. وبالألف فيهما: مدني، وشامي، وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف. وبالألف في الوقف: مكِّي، وعلي، وحفص،

(١) رواه أحمد (٢٥/٢) وأبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجه (٣٨٧١) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

هَٰئِلِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْتَأْهُل يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ

ومثله: ﴿الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿السَّيْلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧] زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية من قال:

أَقْبَلُ اللُّومَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا^(١)

وهن كلهن في الإمام بألف.

١١ - ﴿هَٰئِلِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ امتحنوا بالصبر على الإيمان ﴿وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وحركوا بالخوف تحريكاً بليغاً.

١٢ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عطف على الأولى ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قيل: هو وصف المنافقين بالواو، كقوله:

إلى الملك القزم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وقيل: هم قوم لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ زوي: أن معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً^(٢)! ما هذا إلا وعد غرور.

١٣ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، وهم: عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿يَبْتَأْهُل يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾^(٣) وبضم الميم: حفص، أي: لا قرار لكم - هاهنا - ولا مكان تقومون فيه، أو: تقيمون ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى الكفر. أو: من عسكر رسول الله إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ أي:

(١) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولي إن أصبت لقد أصابا.

(٢) «فرقاً»: خوفاً.

(٣) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿مَقَامٌ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (١١٤/٥).

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُمِّلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

بنو حارثة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذات عورة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ العورة: الخلل. والعورة: ذات العورة. وهي قراءة ابن عباس: يقال: عور المكان عوراً؛ إذا بدا منه خلل يخاف منه العدو، والسارق. ويجوز أن يكون ﴿عورة﴾ تخفيف عورة. اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والشراق، لأنها غير محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها، ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار من القتال.

١٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المدينة، أو: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، أي: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرّون خوفاً منها مدينتهم، أو: بيوتهم من نواحيها كلها، واثالث^(١) على أهاليهم وأولادهم ناهيين سابين ﴿ثُمَّ سُمِّلُوا﴾ عند ذلك الفرع ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: الردة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها ﴿لَآتَوْهَا﴾ بلا مد: حجازي، أي: لجأوها، وفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ بإجابتها ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو: ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ليفرّوا عن نصره رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورعباً. وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا^(٢) عليهم أرضهم وديارهم، وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لساوعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء. وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام، وحبهم الكفر.

١٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بنو حارثة من قبل الخندق، أو: من قبل نظرهم إلى الأحزاب ﴿لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً مقتضى، حتى يوفى به.

(١) «اثالث»: انصبت.

(٢) «كبسوا»: أغاروا فجأة.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ

١٦ - ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجليكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يضر وفررتم لم تمتعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو مدة أعماركم وذلك قليل. وعن بعض الرواية: أنه مر بحائط مائل فأسرع، فقلت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب.

١٧ - ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مما أراد الله إنزاله بكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ في أنفسكم من قتل، أو: غيره ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إطالة عمر في عافية وسلامة. أي: من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة؛ لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَحِذُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً.

١٨ - ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أي: من يعوق عن نصره رسول الله ﷺ، أي: يمنع، وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الظاهر من المسلمين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قربوا أنفسكم إلينا، ودعوا محمداً. وهي لغة أهل الحجاز، فإنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل، وهلموا يا رجال. وهو صوت سمي به فعل متعدي، نحو: أحضر، وقرب ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً قليلاً، أي: يحضرون ساعة رياء، ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودهم، ثم ينصرفون.

١٩ - ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، وهو: البخيل. نصبت على الحال من الضمير في ﴿يَأْتُونَ﴾، أي: يأتون الحرب بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من قبل العدو، أو منه عليه الصلاة والسلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً، وخوراً، ولو إذا بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ زال ذلك الخوف، وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ﴾

أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ

خاطبوكم مخاطبة شديدة، وأذكركم بالكلام. خطيب مَسْلُوقٌ: فصيح، ورجل مَسْلُوقٌ: مبالغ في الكلام، أي: يقولون: وفروا قسمتنا، فإننا قد شاهدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم أشحة على المال، والغنيمة. و﴿أَشْحَةً﴾ حال من فاعل ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ إحباط أعمالهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً.

٢٠ - ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: لجنبتهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا، ولم ينصرفوا، مع أنهم قد انصرفوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً ثَانِيَةً ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ﴾ البادون: جمع البادي، أي: يتمنى المنافقون لجنبتهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه المؤمنون من القتال ﴿يَسْتُلُوكَ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ عن أخباركم، وعمّا جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء، وسمعة.

٢١ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ بالضم حيث كان؛ عاصم - أي:

قدوة. وهو: المؤتسى به، أي: المُقْتَدَى به - كما تقول: في البيضة عشرون مناحديد، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، أو: فيه خصلة من حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَى بِهَا حَيْثُ قَاتَلَ بِنَفْسِهِ ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: يخاف الله، ويخاف اليوم الآخر. أو: يأمل ثواب الله، ونعيم اليوم الآخر. قالوا: ﴿لِمَنْ﴾ بدل من ﴿لكم﴾. وفيه ضعف؛ لأنه لا يجوزُ البدل من ضمير المخاطب. وقيل: ﴿لِمَنْ﴾ يتعلق بحسنة، أي: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كائنة ﴿لِمَنْ كَانَ﴾

وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ

﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ أي: في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

٢٢ - ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ وعدمهم الله أن يُزْلزلوا حتى يستغيثوه، ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فلما جاء الأحزاب، واضطربوا، ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وعلموا أن الجنة والنصرة قد وجبا لهم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إِنَّ الْأَحْزَابَ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ فِي آخِرِ تِسْعِ لَيَالٍ أَوْ عَشْرٍ». فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك^(١). و﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الخطب، أو: البلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم، ومجيئهم ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

٢٣ - ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما عاهدوه عليه. فحذف الجار كما في المثل: «صَدَقْنِي سَنَ بَكْرِهِ»^(٢) أي: صدقني في سنِّ بكره بطرح الجار، وإيصال الفعل إليه. نَذَرَ رجالٌ من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن زيد، وحزمة، ومصعب، وغيرهم ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: مات شهيداً كحزمة، ومصعب - رضي الله عنهما -. وقضاء النحب: صار عبارة عن الموت؛ لأن كلَّ حيٍّ من المحدثات لا بدَّ له أن يموت، فأكنه نَذَرَ لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نَحْبَهُ، أي: نذره ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٣/ ٥٣١).

(٢) وأصله: أن رجلاً ساوم رجلاً ببيعير، وسأله عن سنِّه، فزعم أنه بازل - أي: عمره تسع سنين - فينما هما كذلك نَفَرَ، فدعاه: هِرْعَ هِرْعَ! فسكن. وهي كلمة تسكن بها الصغار، فقال المشتري ذلك، يريد: أنه صدق في سنِّه الآن لما دعاه بتلك الكلمة، وقد كان كاذباً. (المستقصى ٢/ ١٤٠).

وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ

الموت، كعثمان، وطلحة ﴿وَمَا بَدَلُوا﴾ العهد ﴿بَدِيلًا﴾ ولا غيره، لا المُسْتَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض لمن بدّلوا من أهل النفاق ومرض القلوب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذَنْبًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

٢٤ - ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بوفائهم العهد ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ إِنْ شَاءَ ﴿غذا لم يتوبوا﴾ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْ تَابُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة ﴿رَحِيمًا﴾ بغفو الحوبة. جُعِلَ المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم؛ لأنّ كلا الفريقين مسوقٌ إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما، والسَّعي في تحصيلها.

٢٥ - ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿بِعَيْثِهِمْ﴾ حال. أي: مغيظين، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَالُذَّهَنَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ﴿لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا﴾ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسماه خيراً بزعمهم. وهو حال، أي: غير ظافرين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح، والملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ قادراً، غالباً.

٢٦ - ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوا الأحزاب ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. والصيصة: ما تُحَصَّن به. رُوي: أنّ جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس وعلى السرج. فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: من متابعة قريش. [فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس

وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ
قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ إِنَّ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ

وعن سرجه^(١). فقال يا رسول الله! [إن الملائكة لم تضع السلاح]^(٢). إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ عليهم؛ فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة. فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة. فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تنزلون على حكمي»؟! فأبوا. فقال: «على حكم سعد بن معاذ»؟! فرضوا به. فقال سعد: حكمتُ فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم ونسأوهم. فكبر النبي ﷺ وقال: «لقد حكمتُ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». ثم استنزلهم، وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدمهم ف ضرب أعناقهم، وهم من ثمانئة إلى تسعمئة. وقيل: كانوا ستمئة مقاتل وسبعمئة أسير^(٣) ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف. وبضم العين: شامي، وعلي ﴿فَرِيقًا﴾ ونصب بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء، والذراري.

٢٧ - ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: المواشي، والنقود، والأمتعة. روي: أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنكم في منازلكم»^(٤) ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ بقصد القتال، وهي مكة، أو: فارس والروم، أو: خيبر، أو: كل أرض تُفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٨ - ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ إِنَّ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السعادة، وكثرة الأموال ﴿فَتَعَالَيْكَ﴾ أصل تعال: أن يقوله من في المكان

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٢٤٤) وما بعدها.

(٤) أخرجه الواقدي. (حاشية الكشف ٣/٥٣٤).

أُمِّتَعَكُنَّ وَأُسْرِيحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْדَّارُ
الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ
بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ

المرتفع لمن في المكان المستوطىء، ثم كثر حتى استوت في استعماله
الأمكنة. ومعنى ﴿تعالين﴾: أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين، ولم
يرد نهوضهن إليه بأنفسهن، كقوله: قام يهددني ﴿أُمِّتَعَكُنَّ﴾ أعطكن متعة
الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطاء ﴿وَأُسْرِيحَكُنَّ﴾
وأطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرار فيه.

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب، وزيادة نفقة، وتغايير، فغم ذلك رسول الله
ﷺ فنزلت. فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - وكانت أحبهن إليه، فخيرها، وقرأ
عليها القرآن، فاختارت الله، ورسوله، والدار الآخرة، فروي الفرح في وجه
رسول الله ﷺ، ثم اختارت جميعهن اختيارها. وروي: أنه قال لعائشة: «إني
ذاكر لك امرأ، عليك ألا تغجلي فيه حتى تستأمري أبويك». ثم قرأ عليها
القرآن. فقال: «أفي هذا أستمأمر أبوي! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»^(١).

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت
نفسي، أن تقع تطليقة بائنة. وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء. وعن علي
- رضي الله عنه -: إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، وإن اختارت نفسها
فواحدة بائنة.

٢٩ - ﴿وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ
مِنْ: للبيان، لا للتبعض ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٠ - ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ سيئة بليغة في القبح ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾
ظاهر فحشها. من: بين، بمعنى: تبين. ويفتح الياء: مكى، وأبو بكر. قيل:
هي عصيانهن رسول الله ﷺ، ونشوزهن. وقيل: الزنى، والله عاصم رسول
من ذلك ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ﴾ ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ﴾ مكى، وشامي،

ضَعُفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى

﴿يُضَعَّفُ﴾: أبو عمرو، ويزيد، ويعقوب ﴿ضَعُفَيْنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهن من النساء؛ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ؛ ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح؛ ولذا فضل حد الأحرار على العبيد، ولا يُرجم الكافر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا.

٣١ - ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأقنوت: الطاعة ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ﴾ وبالياء فيهما: حمزة، وعلي ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثلي ثواب غيرهما ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جليل القدر، وهو: الجنة.

٣٢ - ﴿يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، إذا تَقُصِّيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل. وأحد في الأصل بمعنى وحيد، وهو: الواحد. ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ إن أردتن التقوى، أو: إن كنتن متقيات ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجئن بقولكن خاضعا، أي: ليتنا خشنا مثل كلام المربيات ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب، على جواب النهي ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ريبة، وفجور ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ حسنا مع كونه خشنا.

٣٣ - ﴿وَقَرْنَ﴾ مدني، وعاصم غير هبيرة، وأصله: إقررن، فحذفت الراء تخفيفا، وألقيت فتحتها على ما قبلها، أو: من: قار يقار، إذا اجتمع. والباقون ﴿قَرْنَ﴾ من: وقر، وقاراً، أو: من قر، بقر، حذفت الأولى من را، أي: إقررن فراراً من التكرار، ونقلت كسرتها إلى القاف ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بضم الباء، بصري، ومدني، وحفص ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: القديمة.

وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْثَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

والتبرج: التبختر في المشي، أو: إظهار الزينة. والتقدير: ﴿لا تبرجن﴾ تبرجاً مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم، أو: ما بين آدم ونوح - عليهما السلام - أو: زمن داود وسليمان - عليهما السلام -. والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -. أو: الجاهلية الأولى الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خصص الصلاة والزكاة بالأمر، ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأن من واطب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ الإثم ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو: على المدح. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. وقال: ﴿عنكم﴾ لأنه أريد الرجال والنساء من آله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام. بين أنه إنما نهاهن، وأمرهن، ووعظهن؛ لثلاث يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصوتوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات فالعرض منها نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولي الألباب عن المناهي، وترغيب لهم في الأوامر.

٣٤- ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْثَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾

أي: السنة، أو: بيان معاني القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، أي: هو عالم بأفعالكن، وأقوالكن، وأحوالكن، فاحذرن مخالفة أمره، ونهيه، ومعصية رسوله.

٣٥- ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟! فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو: المفوض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

أسلم وجهه إلى الله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدق به ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في النيات، والأقوال، والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات، وعن السيئات ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين ﴿وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ﴾ عما لا يحل ﴿وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وقراءة القرآن، والاشتغال بالعلم من الذكر. والمعنى: ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ فروجهن ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه. والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين: أنَّ الأول نظير قوله: ﴿تُبَيَّنَتْ وَأُبْكَرَتْ﴾ [التحریم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان، واشتركا في حكم واحد، فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما. وأما الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع. ومعناه: أنَّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم.

٣٦ - خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت، وأبى أخوها عبد الله. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور، ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١) أن يختاروا من أمرهم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿تَكُونُ﴾ بالتاء، وهي قراءة: ابن =

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

ما شاؤوا. بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوّاً لاختياره، فقالوا: رضينا يا رسول الله! فأنكحها إياه، وساق عنه إليها مهرها. وإنما جمع الضمير في ﴿لهم﴾ وإن كان من حقه أن يوحد؛ لأنّ المذكورين وقعا تحت النفي، فعما كلّ مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. و﴿يكون﴾ بالياء: كوفي. والخيرة: ما يتخير. ودلّ ذلك على أنّ الأمر للوجوب ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ فإن كان العصيان عصيان رذّ، وامتناع عن القبول، فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعلٍ مع قبول الأمر، واعتقاد الوجوب، فهو ضلال خطأ وفسق.

٣٧ - ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجلّ النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبني - فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله. وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب بنت جحش، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقع في نفسه^(١)، فقال: «سبحان الله مقلب القلوب». وذلك أنّ نفسه كانت تحفو عنها قبل ذلك لا تريدها، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتني، فقال: «مالك؟ أراك منها شيء؟» قال: لا والله ما رأيت منها إلّا خيراً! ولكنها تتعظم عليّ لشرفها، وتؤذي، فقال له: أمسك عليك زوجك ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فلا تطلقها - وهو نهي تنزيه إذ الأولى ألا يطلق، أو: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر، وأذى الزوج ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وهو الذي أبداه الله تعالى. وقيل: الذي أخفى في نفسه

= كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (١٢٥/٥).

(١) هذا كلام باطل، ولا أصل له، ويتنافى مع منصب النبوة، فهي ابنة عمته يعرفها ﷺ من قدم، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ

تعلّق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها. والواو في ﴿وتخفي في نفسك﴾، ﴿وتخشى الناس﴾ أي: قاله الناس بأنه نكح امرأة ابنه ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ واو الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة ألا يمسكها؛ وتخفي خاشياً قاله الناس، وتخشى الناس حقيقة في ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة - رضي الله عنها -: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ الوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة، قيل: قضى منه وطره. والمعنى: ﴿فلما﴾ لم يبق فيها حاجة وتقاصرت عنها همته، وطلّقها، وانقضت عدتها ﴿زوّجناكها﴾. روي: أنها لما اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليّ زينب». قال زيد: فانطلقت، وقلت: يا زينب! أبشري، إنّ رسول الله ﷺ يخطبك، وفرحت، وتزوجها رسول الله ﷺ، ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار^(١) ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ قيل: قضاء الوطر: إدراك الحاجة، وبلوغ المراد منه ﴿وكان أمر الله﴾ الذي يريد أن يكونه ﴿مفعولاً﴾ مكتوباً لا محالة. وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب.

٣٨ - ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أحلّ له، وأمره، وهو نكاح زينب امرأة زيد. أو قدر له من عدد النساء ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: ثرباً، وجندلاً - مؤكّد لقوله: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾، كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين، وهو: ألا يُحرّج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم، ووسّع عليهم في باب النكاح وغيره. وقد

(١) ذكره الثعلبي بغير سند. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٤١).

فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

كانت تحتهم المهائر^(١) والسراري، وكانت لداود مئة امرأة، وثلاثمئة سُرِّيَّة، وللسليمان ثلاثمئة حرة وسبعمئة سُرِّيَّة! ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ في الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً. ولا وقف عليه إن جعلت :

٣٩ - ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿الذين﴾ الأول. وقف إن جعلته في محل الرفع، أو: النصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يبلِّغون﴾ أو: أعني: ﴿الذين يبلِّغون﴾ ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله، تعريض بعد التصريح في قوله: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تحشاه﴾ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف. أو: محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن يُخْشَى منه.

٤٠ - ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر، والنكاح. والمراد: من رجالكم البالغين. والحسن والحسين: لم يكونا بالغين حينئذ. والظاهر والطيب والقاسم وإبراهيم: توفوا صبياناً ﴿وَلَكِن﴾ كان ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾. وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، وجوب الشفقة، والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم. والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بفتح التاء: عاصم بمعنى الطابع، أي: آخرهم، يعني: لا ينبت أحد بعده. وعيسى ممن نبيء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ﷺ، كأنه بعض أمته. وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع، وفاعل الختم. وتقويّه قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: (ولكن نبياً ختم النبيين) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(١) المَهَائِرُ: جمع المَهْيَرَةِ، وهي الحرائر، ضد السَّرَارِي.

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ

٤١ ، ٤٢ - ﴿يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أثنوا عليه بضروب الشناء، وأكثروا ذلك ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ أَوَّلَ النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصاً بالذكر؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. والفعالان - أي: اذكروا الله، وسبحوه - موجّهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم، وصلّ يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر. وإنما اختصّ من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانة لفضله على سائر الأذكار؛ لأنّ معناه: تنزيه ذاته عمّا لا يجوز عليه من الصفات. وجاز أن يُراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنّها من جملة الذكر. ثمّ خصّ من ذلك التسبيح ﴿بكرة﴾ وهي صلاةُ الفجر ﴿وأصيلًا﴾ وهي صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو: صلاة الفجر، والعشاءين.

٤٣ - ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لما كان من شأن المصلّي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنوًّا عليه، وترؤفًا، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوِّها على ولدها. ثمّ كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف. ومنه قولهم: صلى الله عليك، أي: ترخّم عليك، وترأف. والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللهم صلّ على المؤمنين. جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنّهم فاعلون الرحمة والرأفة. والمعنى: هو الذي يترخّم عليكم، ويترأف حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر، والتوفّر على الصلاة، والطاعة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ هو دليلٌ على أنّ المراد بالصلاة: الرحمة. ورُوي: أنّه لما نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر: ما خصّك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه، فنزلت:

٤٤ - ﴿يَحْيَتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: تحية الله لهم ﴿يَوْمَ

يَلْقَوْنَهُمْ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

يَلْقَوْنَهُمْ ﴿٤٤﴾ يرونه ﴿سَلَامٌ﴾ يقول الله تبارك وتعالى: السلام عليكم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة.

٤٥ - ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم
وتصديقهم، أي: مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد
العدل في الحكم. وهو حال مقدرة، كما تقول: مررت برجل معه صقر صائداً
به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾
للكافرين بالنار.

٤٦ - ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بأمره، أو: تيسيره - والكل منصوب على الحال
- ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجَلَّى
ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. والجمهور على أنه القرآن. فيكون
التقدير: وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً. ووصف بالإشارة؛ لأن من
السرج مالا يضيء إذا قل سليطه، ودقت فتيلته. أو: ﴿شاهداً﴾ بوحدانيتنا
﴿ومبشراً﴾ برحمتنا، ﴿ونذيراً﴾ بنقمتنا، ﴿وداعياً إلى﴾ عبادتنا، ﴿وسراجاً﴾
وحجة ظاهرة لحضرتنا.

٤٧ - ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ثواباً عظيماً.

٤٨ - ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المراد به: التهيج، والدوام والثبات
على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ هو بمعنى: الإيذاء. فيحتمل أن يكون مضافاً
إلى الفاعل، أي: اجعل إيدائهم إيتاك في جانب، ولا تبال بهم، ولا تخف من
إيدائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيداءك إيتاهم مكافأة لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ﴾ فإنه يكفيهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى به مفوضاً إليه.

وقيل: إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف، وقابل كلاً منها بخطاب

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوْنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

مناسب له . قابل الشاهد بقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه يكون شاهداً على أمته ، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير ؛ والمبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسبٌ للبشارة ؛ والتذير بـ ﴿دَعِ أَذَاهُمْ﴾ لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر ، والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل ، أو : آجل ، كانوا منذرين به في المستقبل ؛ والداعي إلى الله بتيسيره بقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لأنّ من توكل على الله يسر عليه كل عسير ، والسراج المنير بالاكْتِفَاء به وكَيْلًا ؛ لأنّ من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه .

٤٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي : تزوجتم . والنكاح هو : الوطء في الأصل . وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثماً لأنها سببه وكقول الراجز :

أَسْنَمَةُ الْآبَالِ ^(١) فِي سَحَابِهِ

سَمَّى الماء بأسنمة الآبال ؛ لأنه سبب سمن الآبال ، وارتفاع أسنمته . ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلّا في معنى العقد ؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به . ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملاسة ، والملاسة ، والقربان ، والتغشي ، والإتيان . وفي تخصيص المؤمنات - مع أنّ الكتابيات تساوي المؤمنات في هذا الحكم - إشارة إلى أنّ الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ والخلوة الصحيحة كالسّر ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوْنَهَا﴾ فيه دليل على أنّ العدة تجب على النساء للرجال . ومعنى ﴿تَعُدُّوْنَهَا﴾ تستوفون عددها ، تفتعلون ، من : العدّ ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ والمتعة تجب للتي طلقها قبل الدخول بها ، ولم يُسم لها مهراً دون غيرها ﴿وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي : لا تمسكوهن ضراراً ، وأخرجوهن من منازلكن ؛ إذ لا عدة لكم عليهن .

(١) «الآبال» : جمع الإبل .

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا
 آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتٍ خَلَلْنِكَ الَّتِي
 هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
 خَالِصَةً

٥٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ إذ
 المهر أجر على البضع. ولهذا قال الكرخي: إنَّ النكاح بلفظ الإجارة جائز.
 وقلنا: التأييد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة.
 وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو: فرضها وتسميتها في العقد ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
 مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ وهي صفة، وجويرية، فأعتقهما، وتزوجهما ﴿وَبَنَاتٍ عِمَّكَ
 وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتٍ خَلَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ و﴿مع﴾ ليس للقران،
 بل لوجودهما فحسب، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤] وعن أم
 هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت، فعذرني، فأنزل الله
 هذه الآية فلم أحل له لأنني لم أهاجر معه ^(١) ﴿وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾
 وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها، ولا تطلب مهرًا من النساء
 المؤمنات إن اتفق ذلك؛ ولذلك نكرها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:
 هو بيان حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحدٌ منهن بالهبة. وقيل: الواهبة
 نفسها: ميمونة بنت الحارث، أو: زينب بنت خزيمة، أو: أم شريك
 بنت جابر، أو: خولة بنت حكيم. وقرأ الحسن: ﴿أَنْ﴾ بالفتح على التعليل
 بتقدير حذف اللام. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - بغير ﴿إِنْ﴾ ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ
 أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ استنكاحها: طلب نكاحها، والرغبة فيه. وقيل: نكح واستنكح
 بمعنى. والشرط الثاني تقييد للشرط الأول. شرط في الإحلال هبتها نفسها.
 وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله ﷺ، كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت
 لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها؛ أو إرادته هي: قبول الهبة، وما به تتم.
 وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة؛ لأن رسول الله ﷺ وأُمَّته سواء في
 الأحكام، إلّا فيما خصّه الدليل ﴿خَالِصَةً﴾ بلا مهر - حال من الضمير في

لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ

﴿وهبت﴾ أو: مصدر مؤكد - أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوصاً. والفاعلة في المصادر غير عزيز، كالعافية، والكاذبة ﴿لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجب المهر لغيرك، وإن لم يسمه، أو: نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله لِلنَّبِيِّ: ﴿إن أراد النبي﴾. ثم رجع إلى الخطاب ليؤذن أَنَّ الاختصاصَ تكرمةً له لأجل النبوة. وتكريره تفخيماً له ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق. متصل بـ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ جملة اعتراضية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده.

٥١ - ﴿تَرْجِي﴾ بلا همز. مدني، وحمة، وعلي، وخلف، وحفص. وبهمز. غيرهم: تؤخر ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ تضم، يعني: ترك مضاجعة من تشاء منهم، وتضاجع من تشاء، أو: تطلق من تشاء، وتمسك من تشاء، أو: لا تقسم لأيتهم شئت، وتقسم لمن شئت، أو: ترك تزوج من شئت من نساء أمتك، وتزوج من شئت. وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم. وإذا طلق وعزل فإما أن يخلّي المعزولة لا يبتغيها أو: يبتغيها، ورؤي: أنه أرجى منهم: جويرية، وسودة، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة - رضي الله عنهم - . فكان يقسم لهم ما شاء كما شاء. وكانت ممن آوى إليه: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب - رضي الله عنهم -، أرجى خمساً، وآوى أربعاً^(١). ورؤي: أنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير، وعبد الرزاق عن معمر، كلاهما عن منصور، عن أبي رزين، وهذا مرسل. (حاشية الكشف ٥٥٢/٣).

وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَ
وَيَرْضَيْنَ بِمَا آيَأْتِيَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ

كان يسوي مع ما أطلق له، وخير فيه إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة،
وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك ﴿وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكَ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن
نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أي: ليس إذا عزلتها لم يجز لك
ردّها إلى نفسك. و﴿من﴾: رفع بالابتداء، وخبره: ﴿فلا جناح﴾ ﴿ذلك﴾
التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آيَأْتِيَهُنَّ
كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقرب إلى قرّة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنهن
إذا علمن أنّ هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن، وذهب التغير،
وحصل الرضا، وقرّت العيون. ﴿كلهن﴾ بالرفع تأكيد لنون ﴿يرضين﴾ وقرىء
(ويرضين كلهن بما آتيتهن) على التقديم. وقرىء شاذّاً ﴿كلهن﴾ بالنصب تأكيداً
لهن في ﴿آتيتهن﴾ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر
الله من ذلك، وفوض إلى مشيئة رسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور
﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يتقي ويحذر.

٥٢ - ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ﴾ وبالنساء: أبو عمرو، ويعقوب، وغيرهما بالتذكير؛
لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي، وإذا جاز بغير فصل: في ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾
[يوسف: ٣٠] فمع الفصل أجوز ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع؛ لأنّ التسع نصاب
رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أنّ الأربع نصاب أمته ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾
بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل هؤلاء التسع أزواجاً آخر بكلهن، أو بعضهن،
كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن، ورضين، وقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهنّ
التسع التي مات عنهنّ: عائشة، حفصة، أمّ حبيبة، سودة، أمّ سلمة، صفية،
ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية. و﴿من﴾ في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد التقي،
وفائدته: استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في موضع

إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ

الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تبدّل﴾ أي: تبدّل، لا من المفعول الذي هو ﴿من أزواج﴾ لتوغّله في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. وقيل: هي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنّها ممن أعجبه حسنهن. وعن عائشة، وأم سلمة - رضي الله عنهما -: ما مات رسول الله ﷺ حتّى أحلّ له أن يتزوّد من النساء ما شاء. يعني: أنّ الآية نسخت، ونسخها إمّا بالسنة، أو: بقوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ استثنى ممن حرم عليه الإماء، ومحلّ ﴿ما﴾ رفع بدل من ﴿النساء﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ حافظاً. وهو تحذير عن مجاوزة الحدود.

٥٣ - ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ ﴿أن يؤذن لكم﴾: في موضع الحال، أي: ﴿لا تدخلوا﴾ إلا مأذوناً لكم. أو: في معنى الظرف، تقديره: وقت أن يؤذن لكم. و﴿غير ناظرين﴾: حال من ﴿لا تدخلوا﴾. وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنه قيل: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾، أي: غير منتظرين. وهؤلاء قوم كانوا يتحيتون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: ﴿لا تدخلوا﴾ يا هؤلاء المتحيتون للطعام ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾. وإنّي الطعام: إدراكه. يقال: أنى الطعام إنى، كقولك: قلاه قلّى. وقيل: إناه: وقته، أي: ﴿غير ناظرين﴾ وقت الطعام، وساعة أكله. وروى: أنّ النّبي ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنساً أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوج فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يا رسول الله! دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرّق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف رسول الله ﷺ بالحجرات، وسلّم عليهنّ، ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون.

وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا

وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى، فلما رآوه متولين خرجوا، فرجع، ونزلت ^(١) ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فتفرقوا ﴿وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور معطوف على ﴿ناظرين﴾ أو: منصوب، أي: ﴿ولا﴾ تدخلوها ﴿مستأنسين﴾. نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يُستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل: ﴿لا يستحي من الحق﴾ أي: لا يمتنع منه، ولا يتركه ترك الحي منكم. وهذا أدب أدب الله به الثقلاء. وعن عائشة - رضي الله عنها -: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء رسول الله ﷺ لدلالة بيوت النبي؛ لأن فيها نساءه ﴿مَتَاعًا﴾ عارية، أو: حاجة ﴿فَسْأَلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطر الشيطان، وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر - رضي الله عنه - يحب ضرب الحجاب عليهن، ويود أن ينزل فيه، وقال: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت ^(٢). وذكر: أن بعضهم قال: أنهى أن نكل بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟! لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لاتزوجن فلانة، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. أي: وما صح لكم إيذاء رسول الله ﷺ، ولا نكاح أزواجه من

(١) رواه أحمد (٣/ ٩٨ و ١٠٥ و ٢٠٠) والبخاري (٤٧٩٤) ومسلم (١٤٢٨) (٨٧ و ٨٩ و ٩٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٩٠).

إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

بعد موته ^(١) ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

٥٤ - ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ من أذى النبي ﷺ، أو: من نكاحهن ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ في أنفسكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعاقبكم به.

٥٥ - ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله! أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي: نساء المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن في ألا يحتجن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاءت تسمية العم أباً، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِزْمَعَمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيل عم يعقوب - عليهم السلام - وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب. ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل فضل تشديد، كأنه قيل: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب، وأنزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ عالماً. قال ابن عطاء: الشهيد: الذي يعلم خطرات القلوب، كما يعلم حركات الجوارح.

٥٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي:

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي. (حاشية الكشف ٣ / ٥٥٦).

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا

قولوا: اللهم صلِّ على محمد، أو: صلى الله على محمد ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه انقياداً. وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِيْ مَلَكِينَ فَلَا أُذْكَرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا قَالَ ذَانِكَ الْمَلَكَانِ: غُفِرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَاباً لَذَيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمِينَ. وَلَا أُذْكَرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا وَقَالَ ذَانِكَ الْمَلَكَانِ: لَا غُفَرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَاباً لَذَيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمِينَ»^(١). ثم هي واجبة مرة عند الكرخي - رحمه الله -، وكلما ذكر اسمه عند الطحاوي - رحمه الله -، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور. وإن صَلَّى على غيره على سبيل التبع كقولك: صَلَّى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرَدَ غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

٥٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يؤذون رسول الله. وذكر اسم الله للتشريف، أو عبرَ بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر، وإنكار النبوة، مجازاً. وإنما جعل مجازاً فيهما، وحقيقة الإيذاء يتصور في رسول الله لثلاثاً يجتمع المجاز والحقيقة تحت لفظ واحد ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ طردهم الله عن رحمته في الدارين ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ في الآخرة.

٥٨ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ ذا يكون غير حق أبداً. وأما هذا فمنه حق - كالحَدِّ، والتعزير - ومنه باطل. قيل: نزلت في ناسٍ من المنافقين يؤذون علياً - رضي الله عنه - ويسمعونه، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنَّ كارهات. وعن الفضيل: لا يحلُّ لك أن تؤذي كلباً، أو: خنزيراً

فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

بغير حق، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟! ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا﴾ تحملوا ﴿بُهْتَنَا﴾ عظيمًا ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ ظاهرًا.

٥٩ - ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ الجلباب: ما يستر الكل مثل الملحفة، عن المبرد. ومعنى: ﴿يُدْنِي عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ يرخيها عليهن، ويغطي بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك. و﴿مِنْ﴾ للتبعض، أي: ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها، تتقنع، حتى تتميز من الأمة. أو: المراد أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلابيب، أي: لا تكون متبذلة في درع وخمار كالأمة، ولها جلبابان فصاعدًا في بيتها. وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراهن^(١) في الجاهلية، متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة. وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرضوا للحرة بحسبان الأمة، فأمرن أن يخالفن بزينة عن زي الإماء بلبس الملاحف، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهن طامع. وذلك قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ أي: أولى وأجدر بأن يعرفن، فلا يتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

٦٠ - ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فجور، وهم: الزناة. من قوله: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هزموا، وقُتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب

لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿١١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾

المؤمنين. يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبراً مترزلاً، غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ لأنمرتك بقتالهم، أو: لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ في المدينة. وهو عطف على ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ﴾ لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بتم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً. والمعنى: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم ﴿والمرجفون﴾ عما يؤلفون من أخبار السوء، لأنمرتك بأن تفعل بهم الأفعال التي تسوؤهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب إخلاء عن المدينة، وإلى ألا يسكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرحلون. فسمي ذلك إغراء - وهو التحريش - على سبيل المجاز.

٦١ - ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو: الحال، أي: ﴿لا يجاورونك﴾ إلا ﴿ملعونين﴾. فالاستثناء دخل على الظرف والحال معاً كما مر. ولا ينتصب عن ﴿أُخِذُوا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلهما ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا﴾ التشديد يدل على التكثير.

٦٢ - ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكد، أي: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يبدل الله سنته، بل يجريها مجرى واحداً في الأمم.

٦٣ - ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة، وفي كل كتاب، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٦﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مِنْكَ الْغَدَابَ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

شيئاً قريباً. أو: لأن الساعة في معنى الزمان.

٦٤، ٦٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارا شديدة الإيقاد ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا يردّ مذهب الجهمية لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفتيان. ولا تقف على ﴿سعيراً﴾ لأن قوله ﴿خالدين﴾ حال عن الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يمنعهم.

٦٦ - اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تُصَرَّفُ في الجهات، كما ترى البضعة^(١) تدور في القدر إذا غلت. وخصّصت الوجوه؛ لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو يكون الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فتخلص من هذا العذاب. فتمنوا حين لا ينفعهم التمني.

٦٧ - ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ جمع سيد. (ساداتنا): شامي، وسهل، ويعقوب، جمع الجمع. والمراد: رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر، وزينوه لهم ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ ذوي الأسنان منا، أو: علماءنا ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ يقال: ضلّ السبيل، وأضله إياه. وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها: الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف.

٦٨ - ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مِنْكَ الْغَدَابَ﴾ للضلال، والإضلال ﴿وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ بالبلاء: عاصم؛ ليدلّ على أشدّ اللعن، وأعظمه. وغيره: بالثناء، تكثيراً لأعداد اللعائن.

٦٩ - ونزل في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة بعض الناس

(١) «البضعة»: من اللحم وغيره: القطعة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ «ما» مصدرية، أو: موصولة. وأيهما كان، فالمراد: البراءة عن مضمون القول ومؤداه، وهو الأمر المغيب. وأذى موسى - عليه السلام - هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، أو: اتهامهم إياه بقتل هارون، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءة موسى - عليه السلام - كما برأ نبينا ﷺ بقوله ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا جاه، ومنزلة، ومستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش: (وكان عبد الله وجيهاً).

٧٠ - ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسددوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير. ولا تقف على ﴿ سديداً ﴾ لأن جواب الأمر قوله:

٧١ - ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ يقبل طاعتكم، أو: يوفقكم لصالح الأعمال ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي: يمحها. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم، والإثابة عليها، ومن مغفرة سيئاتكم، وتكفيرها. وهذه الآية مقررة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان؛ ليرادف عليهم النهي والأمر، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى - عليه السلام - وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى، والداعي إلى تركه. ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أتبعه قوله:

٧٢ - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ وهو يريد بالأمانة:

فَأَيُّكُمْ أَن يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

الطاعة لله، وبحمل الأمانة: الخيانة. يقال: فلان حامل الأمانة، ومحمّل لها، أي: لا يؤدّيها إلى صاحبها حتّى تزول عن ذمّته، إذ الأمانة كأنّها راكبة للمؤمن عليها، وهو حاملها؛ ولهذا يقال: ركبته الديون، ولي عليه حقّ، فإذا أداها لم تبق راكبة له، ولا هو حاملها لها، يعني: أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت بأمر الله انقياد مثلها، وهو ما يتأتّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تليقُ بها، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً، وتكويناً، وتسوية على هيئات مختلفة، وأشكال متنوعة، كما قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وأخبر أنّ الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب يسجدون لله، وإنّ من الحجارة لما يهبط من خشية الله. وأمّا الإنسان فلم تكن حاله فيما يصحّ منه من الطاعة، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل، صالح للتكليف، مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها، ويليق بها من الانقياد، وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَيُّكُمْ أَن يَحْمِلَهَا﴾ أي: أيّن الخيانة فيها، وألا يؤدّيها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخِفْنَ من الخيانة فيها ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ أي: خان فيها، وأبى إلا أن يكون محملاً لها، لا يؤدّيها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركاً لأداء الأمانة ﴿جَهُولًا﴾ لإخطائه ما يُسَعِّدُهُ مع تمكّنه منه، وهو أداؤها. قال الزجاج: الكافر والمنافق حملا الأمانة، أي: خانا، ولم يُطِيعا. ومن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

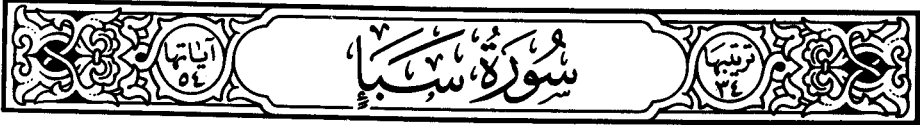
وقيل: معنى الآية: أنّ ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنّه عُرِضَ على أعظم ما خلق الله من الإجمام، وأقواه، فأبى حمّله، وأشفق منه ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ على ضعفه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ حيث حمل الأمانة، ثم لم يف بها، وضمنها، ثم خان بضمّانه فيها. ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم. من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج.

٧٣ - واللام في: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

للتعليل؛ لأنَّ التعذيبَ هنا نظير التأديب في قولك: ضربته للتأديب. فلا تقف على ﴿جهولاً﴾، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، وابتدىء ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾. ومعنى المشهورة: ليعذب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنه إذا تيب على الوافي كان نوعاً من عذاب الغادر. أو: للعاقبة، أي: حملها الإنسان، قال الأمر إلى تعذيب الأشقياء، وقبول توبة السعداء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

١ - ﴿الْحَمْدُ﴾ إن أجري على المعهود، فهو بما حمد به نفسه محمود. وإن أجري على الاستغراق، فله لجلُّ المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك الحمد، للتحميد أهلاً ﴿الَّذِي لَمْ يَمُوتْ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سراً، وجهرًا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب؛ لأنَّ الدنيا دار تكليف؛ وثم لا؛ لعدم التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم، بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء، والعرض.

٢ - ﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموات، والدفائن، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، وجوهر المعادن، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار، وأنواع البركات، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد إليها من

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الملائكة، والدعوات ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿الْعَفُورُ﴾ لما يجترئون عليه .

٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: منكرو البعث ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ نفى للبعث، وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أوجب ما بعد النفي بـ ﴿بلى﴾ على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم أعيد إيجابهم مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد، والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله - عز وجل - ثم أمد التوكيد القسمي بما أتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ لأنَّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه، وبشدة ثباته، واستقامته؛ لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر. وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى، وأكد، والمستشهد عليه أثبت، وأرسخ. ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، كان الوصف بما يرفع إلى علم الغيب أولى، وأحق. ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾: مدني، وشامي، أي: هو ﴿عالم الغيب﴾. (علام الغيب): حمزة، وعلي، على المبالغة ﴿لَا يُعْزِبُ عَنْهُ﴾ وبكسر الزاي: علي. يقال: عزب، ويعزب إذا غاب، وبعد ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ من مثقال ذرة ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إلا في اللوح المحفوظ ﴿وَلَا أَصْغَرُ، وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطف على ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾. ويكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن. أو: رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿فِي كِتَابٍ﴾.

٤ - واللام في: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا فيه من مدارج الإيمان ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. متعلق بـ ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، تعليلاً له.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُّرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٥ - ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ جاهدوا في رد القرآن ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين، ظانين أنهم يفوتوننا. ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مكّي، وأبو عمرو، أي: مُثْبِطِينَ الناس عن اتباعها، وتأملها، أو: ناسين الله إلى العجز ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع الميم: مكّي، وحفص، ويعقوب، صفة لعذاب، أي: عذاب أليم من بين العذاب. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب. وغيرهم: بالجر، صفة. لـ ﴿رجز﴾

٦ - ﴿وَيَرَى﴾ في موضع الرفع بالاستئناف، أي: ويعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ - يعني: أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابهم من أمته، أو: علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وكعب الأحمار - ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ - يعني: القرآن - ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق. و﴿هو﴾ فصل، و﴿الحق﴾ مفعول ثان. أو: في موضع النصب معطوف على ﴿ليجزي﴾، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق، علماً لا يزداد عليه في الإيقان. ﴿وَيَهْدِي﴾ الله، أو: الذي أنزل إليك ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو دين الله.

٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال^(١) قريش بعضهم لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وإنما نكروه - مع أنه كان مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم - تجاهلاً به، وبأمره. وباب التجاهل في البلاغة والي سخرها. ﴿يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُّرَقٍ﴾ أي: يحدّثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تُبعثون، وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، ويمرّق أجسادكم البلى ﴿كلّ ممزق﴾ أي: يفرّقكم كلّ فريق. فالممزق مصدر بمعنى التمزيق، والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿إنكم لفي خلق

(١) أي: قال رجال قريش، أو سادة قريش وزعمائها.

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ
نَحْنُصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَلِكَ

جديد ﴿٨﴾ أي: تبعثون. والجديد: فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، تقول: جدّ فهو جديد، لـ «قلّ» فهو قليل، ولا يجوز أنكم بالفتح للآم في خبره.

٨ - ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مفتر على الله كذباً فيما نسب إليه من ذلك؟ والهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار، وفيما يؤذيه من الضلال عن الحق، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون. جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلاً كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأنّ البعيد صفة الضال إذا بُعد عن الجادة.

٩ - ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ نَحْنُصِفْ بِهِمُ﴾ وبالإدغام: عليّ، للتقارب بين الفاء والباء. وضغفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ﴾ الثلاثة بالياء: كوفي غير عاصم، لقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾^(١) كسفاً: حفص ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أعمو فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا، وأينما ساروا أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم، أو: يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول، وبما جاء به، كما فعل بقارون، وأصحاب الأيكة ﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض، والفكر فيهما،

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة ﴿كِسْفًا﴾: وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٤٥/٥).

لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ اَوْبِيْ مَعَهُ وَالطَّيْرُ
وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ اَنْ اَعْمَلَ سَبِيْعَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ

وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَايَةً﴾ للدلالة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له؛ إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث، ومن عقاب من يكفر به.

١٠ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ﴾ بدل من ﴿فَضْلًا﴾ أو: من ﴿آتَيْنَا﴾ بتقدير قولنا ﴿يا جبال﴾ أو: قلنا ﴿يا جبال﴾ ﴿اَوْبِيْ مَعَهُ﴾ من التأويب. أي: رجعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يخلق فيها تسبيحاً فيسمع منها كما يسمع من المسبح، معجزة داود - عليه السلام - ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطف على محل الجبال، ﴿وَالطَّيْرُ﴾ زيد، عطف على لفظ الجبال.

وفي هذا النظم من الفخامة التي لا تحفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجاد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى. ولو قال: آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه، والطير، لم تكن فيه هذه الفخامة.

﴿وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين يصرفه بيده كيف شاء، من غير نار، ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة.

١١ - ﴿اَنْ اَعْمَلَ﴾ «أن» بمعنى: أي، أي: أمرناه: ﴿اَنْ اَعْمَلَ﴾ ﴿سَبِيْعَتٍ﴾ دروعاً واسعة تامة، من: السبوغ، وهو: أول من اتخذها. وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف، فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدق على الفقراء. وقيل: كان يخرج متكرراً، فيسأل الناس عن نفسه، ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه. فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي، فسأله على عادته، فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه، وهو: أنه يطعم عياله من بيت المال. فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولا غلاظاً فيفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع

وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحُ غُدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَّحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ

﴿وَأَعْمَلُوا﴾ الضمير لداود، وأهله ﴿صَالِحًا﴾ خالصاً يصلح للقبول ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

١٢ - ﴿وَلَسْلَيْمَنَ الرِّيحُ﴾ أي: سخرنا ﴿لسليمان الريح﴾ وهي الصبا. ورفع ﴿الريح﴾ أبو بكر، وحماد، والفضل، أي: ﴿لسليمان الرِّيحُ﴾ مُسَخَّرَةٌ ﴿غُدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك. وكان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغذى بالري، ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي: معدن النحاس. فالقطر: النحاس، وهو: الصُّفْر، ولكنه أساله، فكان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء، وكان قبل سليمان - عليه السلام - لا يذوب. وسمّاه: عين القطر باسم ما آل إليه ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ «من»: في وضع نصب، أي: ﴿و﴾ سخرنا له من الجن من يعمل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ ومن يعدل ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان - عليه السلام - ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان - عليه السلام - ضربه ضربةً أحرقتة.

١٣ - ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ﴾ أي: مساجد، أو: مساكن ﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ أي: صور السباع، والطيور. رُوي: أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصويرُ مباحاً حينئذ ﴿وَحِفَانٍ﴾ جمع جفنة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية، وهي: الحياض الكبار. قيل: كان يقعدُ على الجفنة ألف رجل. (كالجوابي) في الوصل والوقف: مكّي، ويعقوب، وسهل. وافق أبو عمرو في الوصل. الباقون بغير ياء اكتفاءً بالكسرة ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ ثابتات

اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلََمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، وقيل: إنها باقية باليمن. وقلنا لهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: ارحموا أهل البلاد، واسألوا ربكم العافية، عن الفضيل. و﴿شكراً﴾ مفعول له، أو: حال، أي: شاكرين. أو: اشكروا شكراً؛ لأن ﴿اعملوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث إنَّ العمل للمنع شكر له. أو: مفعول به، يعني: إننا سخّرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً. وسُئِلَ الجنيدُ - رحمه الله - عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ ^(١) بسكون الياء: حمزة، وغيره بفتحها ﴿الشَّكُورُ﴾ المتوفّر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً، واعترافاً، وكدحاً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من يشكر على أحواله كلّها. وقيل: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود - عليه السلام - أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود - عليه السلام - قائم يصلي.

١٤ - ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان - عليه السلام - ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنّ، أو آل داود - عليه السلام - ﴿عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضة، وهي: دويبة يقال لها: سُرْفَةٌ، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أَرْضَتِ الخشبَةُ أَرْضاً؛ إذا أكلتها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾ والمِنْسَاءُ العصا؛ لأنه ينسأ بها، أي: يطرد. ﴿ومنساته﴾ بغير همز: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿فَلََمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان - عليه السلام - ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجنُّ علماً يتّناً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ بعد موت سليمان - عليه السلام - ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. وروى: أن داود - عليه السلام - أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى - عليه السلام - فمات قبل أن

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿عبادني﴾ بسكون الياء.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾

يتمه، فوصى به إلى سليمان - عليه السلام -، فأمر الشياطين بإقامته. فلما بقي من عمره سنة سأل ربه أن يعطي عليهم موته حتى يفرغوا منه، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان - عليه السلام - ثلاثاً وخمسين سنة. ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة. وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضي من ملكه. وزوي: أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه.

١٥ - ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف بتأويل الحي، وبعده أبو عمرو بتأويل القبيلة ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾: حمزة، وحفص ﴿مَسْكِنِهِمْ﴾: علي، وخلف. وهو موضع سكناهم. وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن، أو مسكن كل واحد منهم. غيرهم: (مساكنهم) ﴿آيَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿آيَةٍ﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية ﴿جَنَّتَانِ﴾. ومعنى كونهما آية: أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله تعالى سلبهم الله النعمة ليعتبروا، ويتعظوا، فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وغمط النعم. أو: جعلهما آية، أي: علامة دالة على قدرة الله، وإحسانه، ووجوب شكره ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أراد: جماعة من البساتين عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها، وتضامها كأنها جنة واحدة، كما تكون بساتين البلاد العامرة. أو: أراد: بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه، وشماله ﴿كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاةٍ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو: لما قال لهم لسان المقال، أو هم أحقأ بأن يقال لهم ذلك. ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقكم ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وربكم الذي رزقكم، وطلب شكركم ﴿رَبِّ غَفُورٍ﴾ لمن شكره. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل، فتعمل بيديها، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر، وأطيبها، ليس فيها

فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثِلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ
وَشَقِئٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾

بعوض، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية، ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هواها.

١٦ - ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم - عليهم السلام - وكذبوهم، وقالوا: ما نعرف الله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: المطر الشديد، أو: العرم: اسم الوادي، أو: الجرد الذي نقب عليهم السكر. قالوا: لما طغوا سلط الله عليهم الجرد، فنقبه من أسفله، فغرقهم ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة، وازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً تَبْلَاهُمْ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿ذَوَاتِ أَكْثِلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل: الثمر يثقل ويخفف. وهو قراءة نافع، ومكي. والخمط: شجر الأراك. أو: كل شجر ذي شوك ﴿وَأَثَلٍ وَشَقِئٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل: شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عوداً. ووجه من نَوْنِ الْأَكْلِ - وهو غير أبي عمرو - أن: أصله: ذواتي أكل أكل خمطٍ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو: وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ووجه أبي عمرو: أن أكل الخمط في معنى البربر^(١) فكأنه قيل: ذواتي بربر. والأثل والسدر معطوفان على ﴿أكل﴾ لا على خط؛ لأن الأثل لا أكل له. وعن الحسن: قلل السدر لأنه أكرم ما بُدِّلوا؛ لأنه يكون في الجنان.

١٧ - ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فهو مفعول ثانٍ مقدّم ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾ كوفي غير أبي بكر. ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾، غيرهم. يعني: ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ﴾ مثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله. أو: هل يعاقب؛ لأنّ الجزاء وإن كان عاماً على يُستعمل في معنى المعاقبة، وفي معنى الإثابة، لكن المراد الخاص، وهو: العقاب.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -.

(١) البربر: ثمر الأراك، واحدها: بريرة.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ

١٨ - ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبا ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه - وهي: قرى الشام - ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. و﴿ظَاهِرَةً﴾ للسَّابِلَةِ لم تبعد عن مسالكهم حتى لا تخفى عليهم. وهي أربعة آلاف وسبعمئة قرية متصلة من سبا إلى الشام ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقل المسافر في قرية، ويروح في أخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا﴾. ولا قول ثم، ولكنهم لما مكثوا من السير، وسويت لهم أسبابه، فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ إن شتم بالليل، وإن شتم بالنهار، فإنَّ الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو: سِيرُوا فيها ﴿آمِنِينَ﴾ لا تخافون عدوًّا، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، وامتدت أياماً وليالي.

١٩ - ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: ياليتها كانت بعيدة، ففسر على نجائبنا، ونربح في التجارات، ونفاخر في الدواب والأسباب. بطروا النعمة، وملؤا العافية، وطلبوا الكد والتعب ﴿بَعْدَ﴾: مكِّي، وأبو عمرو ﴿وَزَلَمُوا﴾ بما قالوا ﴿أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرقناهم تفريقاً، اتخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبا، وتفرقوا أيادي سبا. فلحق غسان بالشام، وأنمار يثرب، وجدام بتهامة، والأرد بعمان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم. أو: لكل مؤمن؛ لأنَّ الإيمان نصفان: نصفه شكر، ونصفه صبر.

٢٠ - ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ بالتشديد: كوفي، أي: حقق عليهم ظنه، أو: وجده صادقاً. وبالتخفيف: غيرهم، أي: صدق في ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾

إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ
بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِّنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ
أُذِنَ لَهُ

الضمير في ﴿عليهم﴾، و﴿اتبعوه﴾ لأهل سبأ، أو: لبني آدم. وقُلَّ المؤمنين
بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلَّتْهم بالإضافة إلى الكفار ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

٢١ - ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن
سُلْطَانٍ﴾ من تسليط، واستيلاء بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه
معدوماً. والتغْيِيرُ على المعلوم لا على العلم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ
وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ محافظ عليه. وفعل ومفاعل: متآخيان.

٢٢ - ﴿قُلِ﴾ لشركي قومك: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي:
زعمتموهم آلهة من دون الله. فالمفعول الأول: الضمير الراجع إلى الموصول،
وحذف كما حذف في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً
لطول الموصول بصلته. والمفعول الثاني: آلهة، وحذف؛ لأنه موصوف بصفته
﴿من دون الله﴾ والموصوف يجوز حذفه، وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً.
فإذاً مفعولاً زعم محذوفان بسببين مختلفين. والمعنى: ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم
من دون الله من الأصنام والملائكة، وسميتهم باسمه، والتجئوا إليهم فيما
يعروكم كما تلجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون
استجابته. ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو
شر، أو نفع أو ضرر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِّنْ شَرِكٍ﴾ ومالهم
في هذين الجنسين من شركة في الخلق، ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾
من آلهتهم ﴿مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ من عَويْن يعينه على تدبير خلقه. يريد: أنهم على هذه
الصفة من العجز، فكيف يصح أن يُدْعُوا كما يدعى، ويُرْجَوْا كما يرجى؟

٢٣ - ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ﴾ الله، يعني: إلا لمن وقع الإذن

حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾

للسفيع لأجله، وهي: اللام الثانية في قولك: أَذِنَ لِزَيْدٍ لِعَمْرٍو، أي: لأجله. وهذا تكذيب لقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿أُذِنَ لَهُ﴾: كوفي غير عاصم، إلا الأعشى ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. و﴿فَزِعَ﴾: شامي، أي: الله تعالى. والتفريع: إزالة الفزع. و﴿حَتَّى﴾ غاية لما فهم من أن ثم، انتظاراً للإذن، وتوقفاً، وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم، أولا يؤذن لهم؟! كأنه قيل: يتربصون، ويتوقعون ملياً فزعين ﴿حتى غذا فزع عن قلوبهم﴾ ﴿قَالُوا﴾ سأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ قال: ﴿الْحَقُّ﴾ أي: قول الحق. وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

٢٤ - ﴿قُلْ﴾ أمره بأن يقرّره بقلوبهم بقوله: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾. ثم أمره بأن يتولى الإجابة، والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم ﴿الله﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربّما أبوا أن يتكلّموا به؛ لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم، وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألستهم لم يتقاصر عنه: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. ومعناه: وإن أحد الفريقين من الموحدّين ومن المشركين لعلّ أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من الكلام المنصف الذي كلّ من سمعه من موال، أو مناف قال لمن خاطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي درّجة بعد تقدّمه ما قدّم من التقدير: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض. ونحوه قولك للكاذب: إن أحدنا لكاذب. وخولف بين

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشِئُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾

حرفي الجزر الداخلين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يدري أين يتوجه.

٢٥ - ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشِئُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجماع إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور، والعمل إلى المخاطبين. وهو مزجور عنه محذور.

٢٦ - ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ بلا جور، ولا ميل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

٢٧ - ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِ﴾ بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾ في العبادة معه. ومعنى قوله: ﴿أروني﴾ - وكان يراهم - أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على حالة الإشراك به ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، فلا يشاركه أحد - و﴿هو﴾ ضمير الشأن - ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره.

٢٨ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالاً عامة لهم، محيطاً بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: معنى الكافة في اللغة: الإحاطة؛ والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، ففعله حالاً من الكاف. والتاء على هذا للمبالغة، كثناء الراوية، والعلامة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقر ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

٢٩ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: القيامة المشار إليها في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦] ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٣٠ - ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعاد: ظرف الوعد من مكان، أو زمان. وهو - هنا - الزمان، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿ميعاد يوم﴾^(١) فأبدل منه اليوم. وأما الإضافة فإضافة تبين، كما تقول: بغير سانية ﴿لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون له، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مُرْصَدُونَ ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه، ولا تقدماً عليه.

٣١ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبو جهل، وذووه ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما نزل قبل القرآن من كتب الله، أو: القيامة، والجنة، والنار. يعني: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾، يرد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ في الجدل. أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسول الله ﷺ، أو: للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم بتجاذبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجب، فحذف الجواب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: للرؤوس، والمقدمين ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله، ورسوله.

(١) انظر هذه القراءة في التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥٨/٢٥)، والبحر المحيط (٢٨٢/٧).

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

٣٢ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ أولي الاسم، أي: ﴿نحن﴾ حرف الإنكار؛ لأن المراد إنكار أن يكونوا هم الصادق لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه، وأنهم أوتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ إنما وقعت ﴿إِذْ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت إذ، وإذا من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين لاختياركم، وإيثارك الضلال على الهدى، لا لقولنا، وتسويلنا.

٣٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لم يأت بالعاطف في: ﴿قَالَ الَّذِينَ استكبروا﴾ وأُتِيَ في ﴿وقال الذين استضعفوا﴾ لأن الذين استضعفوا مرّ أولاً كلامهم، فجاء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بل مكرهم بنا في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، أي: الليل والنهار مكرراً بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على حق ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أشباهاً. والمعنى: أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم: ﴿أنحن صددناكم﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن ذلك بكسبهم، واختيارهم، كثر عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجراء من جهتنا، بل من جهة مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك، واتخاذ الأنداد ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أضمرنا، أو: أظهروا، وهو من الأضداد. وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبا: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم، وإضلالهم. والمستضعفون على ضلالهم، واتباعهم المضللين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الجحيم

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَءَمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحًا

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في أعناقهم، فجاء بالصریح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٣٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعموها، ورؤساؤها: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. هذه تسلية للنبي ﷺ مما مُني به من قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة، وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، كما قال:

٣٥- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، أرادوا: أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، فظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم، فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسّع عليهما، وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب بقوله:

٣٦- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ - قدّر الرزق: تضييقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧] - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٣٧- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: وما جماعة أموالكم، ولا جماعة أولادكم ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ وذلك: أن الجمع المكسر؛ عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث. والزلفى والزلفة، كالقربى والقربة. وعملها النصب، أي: تقربكم قربة، كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِلَّا مَنَءَمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء من «كُم» في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ يعني: أن الأموال

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
 ءَابِئَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب
 أحداً إلا من علمهم الخير، وفقهم في الدين، ورسخهم للصالح والطاعة.
 وعن ابن عيسى^(١): ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، و﴿مَنْ﴾ شرط جوابه ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
 الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾
 أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء
 الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً. وقرأ يعقوب: ﴿جزاء
 الضعف﴾ على ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ الضعف جزاء ﴿بما عملوا﴾ بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِي
 الْغُرُفَاتِ﴾ أي: غرف منازل الجنة. (في الغرفة): حمزة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل
 هائل، وشاغل.

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِئَتِنَا﴾ في إبطالها. ﴿مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
 مُحْضَرُونَ﴾.

٣٩- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسع ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ﴾ «ما» شرطية، في موضع النصب ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾
 يعوضه. لا معوض سواء إما عاجلاً بالمال، أو آجلاً بالثواب. جواب الشرط
 ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المطعمين، لأن كل ما رزق غيره من سلطان، أو:
 سيد، أو: غيرهما، فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالق
 الرزق، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد
 لله الذي أوجدني، وجعلني ممن يشتهي، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد
 لا يشتهي!

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِیَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

٤٠ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(١) وبالياء فيهما: حفص، ويعقوب. هذا خطابٌ للملائكة، وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعني، واسمعي يا جارة^(٢). ونحو قوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

٤١ - ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة. ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿أَنْتَ وَلَيْسْنَا﴾ الموالة: خلاف المعادة، وهي: مفاعلة، من الولي، وهو: القرب. والولي يقع على الموالي والموالى جميعاً. والمعنى: أنت الذي نواليه ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ إذ لا موالة بيننا وبينهم. فبينوا بإثبات موالة الله، ومعادة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافيةً لذلك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدَتْ، فيُعْبَدون بعبادتها، أو: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر الإنس، أو: الكفار ﴿بِهِمْ﴾ بالجن ﴿مُؤْمِنُونَ﴾.

٤٢ - ﴿قَالِیَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة، ولا مضرة لأحد؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو: الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار التكليف، والناس فيها غلّ بينهم يتضارون، ويتنافعون. والمراد: أنه

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿نَحْشُرُهُمْ، نقول﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٦٥/٥).

(٢) هذا المثل في: مجمع الأمثال (٨٠/١). يُضْرَب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَنِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانِ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّثِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَايَاتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

لا ضارَ ولا نافع يومئذٍ إلا هو. ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع العبادة في غير موضعها - معطوف على ﴿لا يملك﴾ -: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

٤٣ - ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي: إذا قرئ عليهم القرآن ﴿يَنْتَنِي﴾ واضحات ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون ﴿مَا هَذَا﴾ أي: محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانِ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقالوا - والعدول عنه دليل على إنكار عظيم، وغضب شديد - ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن، أو: لأمر النبوة كله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: الحق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّثِينٌ﴾. بثوه على أنه سحر، ثم بثوه على أنه بين ظاهره؛ كل عاقل تأمله ستمه سحراً.

٤٤ - ﴿وَمَا ءَايَاتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكة كتباً يدرسونها، فيها برهان على صحة الشرك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

٤٥ - ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: وكذب الذين تقدموهم من الأمم والقرون الخالية الرسل، كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُهُمْ﴾ أي: وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمار، وقوة الأجرام، وكثرة الأموال، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذبين الأولين. فليحذروا من مثله - وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب - أي: فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وإنما قال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنه لما كان معنى قوله: ﴿وَكَذَّبَ

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُحْرِ وَفَرَدَى ثُمَّ تُنْفَكُوا مِمَّا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦)

الذين من قبلهم ﴿فعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه. وهو كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ.﴾

٤٦ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ بخصلة واحدة. وقد فسرها بقوله:

﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ على أنه عطف بيان لها، وقيل: هو بدل. وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر. وقيل: هو في محل الرفع على تقدير: هي ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾، أو: النصب على تقدير: أعني. فأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ، وتفرقهم عن مجتمعهم عنده، أو: قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب. والمعنى: إنما أعظمكم بوحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم، وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لوجه الله خالصاً - لا لحمية، ولا عصبية، بل لطلب الحق - ﴿مِثْلَ شُحْرِ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفَرَدَى﴾ وفرداً فرداً ﴿ثُمَّ تُنْفَكُوا﴾ في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤدبهما النظر الصحيح إلى الحق. وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل، ونصفه، ويعرض فكره على عقله. ومعنى تفرقهم مثني وفردى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويقل الإنصاف فيه، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب. و﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ معطوف على ﴿تَقُومُوا﴾ ﴿مِمَّا يَصَاحِبُكُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ جنون. والمعنى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فتعلموا ﴿مِمَّا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدام ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذاب الآخرة. وهو كقوله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»^(١).

(١) رواه أحمد (٣١٠/٢) ومسلم (٨٦٧) (٤٥٤ و٤٥٥) والنسائي (١٨٨/٣) وابن ماجه (٤٥).

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِقَذْفٍ بِالْحَقِّ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

٤٧- ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على إنذارى، وتبليغي الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط، تقديره: أي: شيء سألتكم من أجر كقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ومعناه: نفي مسألة الأجر رأساً، نحو: مالي في هذا فهو لك، أي: ليس لي فيه شيء ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مدني، وشامي، وأبو عمرو، وحفص. وبسكون الياء: غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أنني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه.

٤٨- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِقَذْفٍ بِالْحَقِّ﴾ بالوحي. والقذف: توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعار لمعنى الإلقاء. ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] ﴿أَنْ أَقْدِرَ فِيهِ فِي الثَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]. ومعنى ﴿يقذف بالحق﴾ يليقه، وينزله إلى أنبيائه، أو: يرمي به الباطل فيدمغه، ويذهقه ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ مرفوع على البذل من الضمير في ﴿يقذف﴾، أو: على أنه خبر مبتدأ محذوف.

٤٩- ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام، والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زال الباطل، وهلك؛ لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي، فعدمهما عبارة عن الهلاك. والمعنى: جاء الحق، وزهق الباطل، كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: دخل النبي ﷺ مكة، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنهما بعود نَبْعَةٍ^(١) يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد»^(٢).

وقيل: الباطل: الأصنام. وقيل: إبليس؛ لأنه صاحب الباطل، أو: لأنه هالك. كما قيل له الشيطان، من شاط: إذا هلك، أي: لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه، فالمنشئ والباعث هو الله.

(١) النَّبْعُ: شجر تتخذ منه السهام والقسي.

(٢) رواه أحمد (٣٧٧/١) والبخاري (٢٤٧٨) ومسلم (١٧٨١).

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

٥٠- ولما قالوا: قد ضللت بترك دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي: إن ضللت فمني وعلي، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ﴾ فبتسديده بالوحي إلي. وكان قياس التقابل أن يقال: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا، كقوله: ﴿فَمَنْ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]. ولكن هما متقابلان معنى؛ لأن النفس كل ما عليها وضار لها فهو بها، وبسببها؛ لأنها الأثارة بالسوء، ومالها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلف. وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله، وسداد طريقته، كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف، أي: لو رأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلة ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ عند البعث، أو: عند الموت، أو: يوم بدر ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ فلا مهرب، أو: فلا يفوتون الله، ولا يسبقونه ﴿وَأُخِذُوا﴾ عطف على ﴿فَرَغُوا﴾ أي: فرغوا، وأخذوا، فلا فوت لهم. أو: على ﴿لَا قُوَّةَ﴾ على معنى ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو: ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو: من صحراء بدر إلى القلب.

٥٢- ﴿وَقَالُوا﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو: بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول، أي: كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم، يريد: أن التوبة كانت تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو: أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناول الآخر من قيس ذراع. ﴿التناوش﴾ بالهمزة: أبو عمرو، وكوفي غير حفص. همزت الواو؛ لأن كل واو مضمومة ضمتها

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِلَّ يَلَنَّهُمْ
وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ

لازمة إن شئت أبدلتها همزة، وإن شئت لم تبدل، نحو قولك: أدور، وتقاوم، وإن شئت قلت: أدور، وتقاوم. وعن ثعلب: التناؤش - بالهمز -: التناول من بُعد، وبغير همز: التناول من قرب.

٥٣- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل العذاب، أو: في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ معطوف على ﴿قد كفروا﴾ على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلمون بالغيب، أو: بالشيء الغائب، يقولون: لابعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق، أو: عن الحق، والصواب. أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ: شاعر، ساحر، كذاب. وهذا تكلم بالغيب، والأمر الخفي؛ لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً، ولا شعراً، ولا كذباً. وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله؛ لأن أبعد شيء مما جاء به السحر والشعر، وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم، وجربت الكذب. ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ محبوب عن أبي عمرو على البناء للمفعول، أي: تأتيهم به شياطينهم، ويلقنونهم إياه. وإن شئت فعلقه بقوله: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد، بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً. ويجوز أن يكون الضمير في ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة، والعقاب، والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا، قائلين أمر الآخرة على أمر الدنيا. فهذا كان قذفهم بالغيب. وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا ينقاس على دار التكليف.

٥٤- ﴿وَجِلَّ﴾ وحجز ﴿يَلَنَّهُمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة، أو: من الرد إلى الدنيا كما حكي عنهم بقوله: ﴿فَأَنزَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا،

كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

وحيل؛ كلها للمعنى، والمراد بها: الاستقبال؛ لتحقيق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسل، والبعث ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع للريبة، من أرابه؛ إذا أوقعه في الريبة. هذا رد على من زعم: أن الله لا يعذب على الشك.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرُبُعٌ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليمياً، وتعظيماً ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدئها، ومبتدعها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرته، أي: ابتدأتها ﴿وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُولَىٰ﴾ ذوي. اسم جمع لـ «ذو». وهو بدل من ﴿رُسُلًا﴾ أو: نعت له ﴿أَجْنَحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرُبُعٌ﴾ صفات لـ ﴿أَجْنَحَةٍ﴾، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر، كما عدل عمر عن عامر، وعن تكرير إلى غير تكرير. وقيل: للعدل والوصف. والتعويل عليه. والمعنى: أَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طائفة أجنتهم اثنان اثنان، أي: لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنتهم ثلاثة ثلاثة، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة، وطائفة أجنتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن، والخط الحسن، والملاحة في العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من: طول قامة، واعتدال صورة، وجزالة في الرأي، وذلاقة^(١) في اللسان، ومحبة في قلوب المؤمنين، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

(١) «الذلاقة»: الحدة والطلاقة.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفٍ تُؤْفِكُونَ ﴿٣﴾

٢- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ نكر الرحمة للإشاعة والإيهام. كأنه قال: مِنْ
 آية ﴿رحمة﴾ رزق، أو: مطر، أو: صحة، أو: غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا
 أحد يقدر على إمساكها وحبسها. واستعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى
 إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ يمنع، ويحبس ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ مُطْلَقٌ لَهُ ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ من
 بعد إمساكه. وأنت الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى
 الرحمة. ثم ذكره محلاً على اللفظ المرجوع إليه، إذ لا تأنيث فيه؛ لأن الأول فسر
 بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.
 وعن معاذ مرفوعاً: «لا تزال يدُ الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم
 بشرارهم، ويعظم برهم فاجرهم، وتعن قزائهم أمراءهم على معصية الله. فإذا
 فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، القادر على الإرسال
 والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

٣- ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَذْكَرُوا﴾ باللسان، والقلب ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي التي
 تقدمت من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد؛ وإرسال الرسل لبيان
 السُّبُل دعوة إليه، وزلفة لديه؛ والزيادة في الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثم نبه
 على رأس النعم، وهو اتحاد المنعم، بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ برفع ﴿غَيْرِ﴾
 على الوصف محلاً لأن ﴿خالق﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: لكم. وبالجزم: علي،
 وحزمة، على الوصف لفظاً ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون
 صفة لخالق ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة
 مفصولة، لا محل لها ﴿فَآفٍ تُؤْفِكُونَ﴾ فبأي وجه تصرفون عن التوحيد إلى
 الشرك.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/١٥٠).

وَلَا يَكْذِبُوكُمْ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿٢﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

٤ - ﴿وَلَا يَكْذِبُوكُمْ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلى رسوله بأن له في الأنبياء قبله أسوة. ولهذا نكر ﴿رسل﴾ أي: رسل ذوو عدد كثير، وأولو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم؛ لأنه أسلى له. وتقدير الكلام: ﴿وَلَا يَكْذِبُوكُمْ﴾ فتأس بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأن الجزاء يتعقب الشرط. ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه. فوضع: ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأس، استغناء بالسبب عن المسبب، أي: بالتكذيب عن التأسى ﴿وَلِيَّ اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ كلام يشمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذب والمكذب^(١). ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء: شامي، وحمزة، وعلي، وخلف، ويعقوب، وسهل.

٥ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم الدنيا، ولا يذهلنكم التمتع بها، والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة، وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾ أي: الشيطان، فإنه يمتنكم الأمانى الكاذبة، ويقول: إن الله غني عن عبادتك، وعن تعذيبك.

٦، ٧ - ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ﴾ ظاهر العداوة. فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره، وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤتمه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ أي: فمن أجابه حين دعى فله عذاب شديد؛ لأنه صار من حزبه،

(١) زاد في المطبوع: بما يستحقانه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زَيْنَ لَمْ سَوْءَ عَمَلِهِ
 فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ
 فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

أي: أتباعه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يجيئوه، ولم يصيروا من حزبه، بل
 عادوه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم.

٨- ولما ذكر الفريقين قال لنبينه ﷺ: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَمْ سَوْءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾
 بتزيين الشيطان، كمن لم يزيّن له. فكأن رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ
 اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وذكر الزجاج أن
 المعنى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَمْ سَوْءَ عَمَلِهِ﴾ ذهبت نفسك عليه حسرة. فحذف الجواب
 لدلالة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه. أو: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه
 الله، فحذف لدلالة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يزيل، أي: لا تهلكها ﴿حسرات﴾ مفعول له، يعني: فلا
 تهلك نفسك للحسرات. و﴿عليهم﴾ صلة ﴿تذهب﴾ كما تقول: هلك عليه
 حباً، ومات عليه حزناً. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا تتقدم
 عليه صلتها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

٩- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ ﴿الرِّيحَ﴾ مكّي، وحزة، وعليّ ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ
 إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بالتشديد: مدني، وحزة، وعليّ، وحفص. وبالتخفيف: غيرهم
 ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالمطر - لتقدم ذكره ضمناً - ﴿الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يبسها. وإنما قيل
 ﴿فَتَثِيرُ﴾ لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتُسْتَحْضَرُ تلك
 الصورة الدالة على القدرة الربانية. وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز
 وخصوصية بحال تستغرب. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء
 الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا،
 وأحيينا، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص، وأدل
 عليه ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ الكاف في محل الرفع، أي: مثل إحياء الموات، نشور

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ
وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ

الأموات. قيل: يحیی الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق.

١٠ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزة كلها مختصة بالله؛ عزة الدنيا، وعزة الآخرة. وكان الكافرون يتعززون بالأصنام، كما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]. والذين آمنوا بألستهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشرکین، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فبين أن لا عزة إلا لله. والمعنى: فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ موضعه، استغناءً به عنه، لدلالته عليه؛ لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه، ومالكة. ونظيره قولك: مَنْ أَرَادَ النِّصِيحَةَ؛ فهي عند الأبرار، تريد: فليطلبها عندهم، إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. وفي الحديث: «إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيَطْعِ الْعَزِيزَ»^(١). ثم عرّف أن ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومعنى قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى محلّ القبول والرضا، وكلّ ما اتّصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود. وإلى حيث لا ينفذ فيه إلا حكمه. و﴿الكلم الطيب﴾ كلمات التوحيد، أي: لا إله إلا الله. وكان القياس: الطيبة، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحد إلا التاء يذكر، ويؤنث. و﴿العمل الصالح﴾ العبادة الخالصة. يعني: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ الكلم الطيب. فالرافع: الكلم. والمرفوع: العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع: الله، والمرفوع: العمل، أي: ﴿العمل الصالح يرفعه﴾ الله. وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكلم الطيب يصعد بنفسه. وقيل: العمل الصالح يرفع العامل، ويشرفه، أي: من أراد العزّ فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هي صفة لمصدر محذوف، أي:

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٢١/١).

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

المكرات ﴿السيئات﴾ لأن مكر فعل غير متعد. لا يقال: مكر فلان عمله. والمراد مكر قریش به ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يُبَوِّرُ﴾ خبر، أي: ﴿ومكر أولئك﴾ الذين مكروا ﴿هُوَ﴾ خاصة ﴿يُبَوِّرُ﴾ أي: يفسد، ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة، وقتلهم، وأثبتهم في قلب بدر. فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

١١- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ هو في موضع الحال، أي: إلا معلومة له ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ﴿وما يعمر من أحد - وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه -﴾ ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح، أو: صحيفة الإنسان ﴿وَلَا يَنْقُصُ﴾ زيد. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أي: طويل العمر، أو: منقوص العمر، أي: قصيره. فإمّا أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صحّ قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس. يقولون: لا يثيب الله عبداً، ولا يعاقبه إلا بحق. أو: تأويل الآية: أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره، فذلك نقصان عمره. وعن قتادة: المعمر: من بلغ ستين سنة. والمنقوص من عمره: من يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إحصاءه، أو: زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ يُتَنَفَّوْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

١٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذَبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة - وقيل: هو الذي يكسر العطش - ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ مريء، سهل الانحدار لعذوبته، وبه يرتفع شرابه ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: هو الذي يحرق بملوحته ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ ومن كل واحد منهما ﴿تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، والمرجان ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوَاحِرَ﴾ شواق للماء بجريها - يقال: غرت السفينة الماء، أي: شقته. وهي جمع ماخرة - ﴿يُتَنَفَّوْنَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فضل الله - ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها. ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه - ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين - العذب والملح - مثلين للمؤمن والكافر. ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه: ويحتمل غير طريقة الاستطراد، وهو أن يشبه الجنتين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر، بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك، واللؤلؤ، وجري الفلك فيه، والكافر خلو من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَلَا مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَلَا مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ مِنْهُ الْمَاءُ وَلَا مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

١٣- ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلل أضواء صورة، لأنسوا سيرة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبر إن. و﴿له الملك﴾ جملة مبتدأة

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

واقعة في قران قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونهم من دون الله - ﴿يَدْعُونَ﴾ قتيبة - ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة.

١٤- ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جاد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ﴾ بإشراككم لهم، وعبادتكم إياهم، ويقولون: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ولا ينبتك - أيها المفتون بأسباب الغرور - كما ينبتك الله الخبير بخبايا الأمور. وتحقيقه: ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد: أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنّي خبير بما أخبرت به.

١٥- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال ذو النون - رحمه الله -: الخلق محتاجون إليه في كلّ نفس، وخطوة، ولحظة، وكيف لا؟ ووجودهم به، وبقاؤهم به ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمع، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود بكلّ لسان.

ولم يستهم بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مُطْعِمُ الأغنياء. وذكر ﴿الحميد﴾ ليدلّ به على أنّه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، إذ ليس كلّ غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً. فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى، ولهم بالفقر، فمن ادّعى الغنى حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسرّ إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي: الذلّ

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا

والخضوع، وعلامته: ألا يسأل من أحد. وقال الواسطي: مَنْ استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى. وقال يحيى - رحمه الله -: الفقر خيرٌ للعبد من الغنى؛ لأنَّ الذلَّةَ في الفقر، والكبر في الغنى. والرجوع إلى الله بالتواضع والذلَّة، خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كلِّ شيء، والفقر إليه في كلِّ شيء، والرجوع إليه من كلِّ شيء. وقال الشبلي - رحمه الله -: الفقر يجرُّ البلاء، وبلاؤه كله عزٌّ.

١٦، ١٧ - ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلُّكم إلى العدم، فإنَّ غناه [بذاته] (١) لا بكم في القدم؛ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإنشاء والإفتاء ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

١٨ - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى. والوزر والوقر أخوان. ووزر الشيء: إذا حمله. والوازية: صفة للنفس. والمعنى: أنَّ كلَّ نفس يوم القيامة لا تحمل إلاَّ وزرها؛ الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبايرة الدنيا الوليَّ بالولي، والجار بالجار. وإنَّما قيل: ﴿وازية﴾ ولم يقل ﴿ولا تزر﴾ نفس ﴿وزر أخرى﴾ لأنَّ المعنى: أنَّ النفوس الوازرات لا ترى منهنَّ واحدة إلاَّ حاملة وزرها لا وزر غيرها. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وارد في الضالِّين المضلِّين. وإنهم يحملون أثقالاً أضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب أحداً ﴿إِلَّا جَمِلَهَا﴾ ثقلها، أي: ذنوبها ليتحمَّل عنها بعض ذلك

لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا
يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعو - وهو مفهوم من قوله ﴿وإن تدع﴾ -
﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ ذا قرابة قريبة كآب، أو: ولد، أو: أخ. والفرق بين معنى قوله:
﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ومعنى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه
شيء﴾، أن الأول دال على عدل الله في حكمه، والآ يؤاخذ نفساً بغير ذنبها،
والثاني: في بيان أن لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتى إن نفساً قد أثقلتها
الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب، ولم تُغف، وإن كان المدعو
بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: إنما يتنفع بإنذارك هؤلاء
﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، أي: يخشون ربهم غائبين عن
عذابه. أو: يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: ﴿بالغيب﴾ في السر حيث
لا اطلاع للغير عليه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في مواقيتها ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر بفعل
الطاعات، وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾. وهو اعتراض مؤكد
لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنهما من جملة التزكي ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.
وهو وعد للمتركين بالثواب.

١٩- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، أو: للجاهل والعالم.

٢٠- ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ مثل للكفر ﴿وَلَا النُّورُ﴾ الإيمان.

٢١- ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ﴾ الحق والباطل، أو: الجنة والنار. والحرور:

الريح الحار كالسموم، إلا أن السموم تكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار؛
عن الفراء.

٢٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم
يدخلوا فيه. وزيادة «لا» لتأكيد معنى التفي. والفرق بين هذه الواوَات: أن
بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وترأ إلى وتر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ
بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل

إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

فيه، فيهدي من يشاء هدايته، وأما أنت فخفي عليك أمرهم؛ فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين. شبه الكفار بالموتى؛ حيث لا ينتفعون بمسموعهم.

٢٣- ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المُنذِر ممّن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من المصّرّين فلا عليك.

٢٤- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محقاً، أو: محقّين، أو: صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً ﴿بالحق﴾ ﴿بشيراً﴾ بالوعد ﴿ونذيراً﴾ بالوعيد ﴿وإن من أمة﴾ وما ﴿من أمة﴾ قبل أمّتك - والأمة: الجماعة الكثيرة ﴿وجد عليه أمة من النكاس﴾ [القصص: ٢٣] ويقال لأهل كل عصر: أمة. والمراد هنا: أهل العصر. وقد كانت آثارُ النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - فلم تخل تلك الأمم من نذير. وحين اندرست آثارُ نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد ﷺ ﴿إلا خلا﴾ مضى ﴿فيها نذير﴾ يخوفهم وخامة الطغيان، وسوء عاقبة الكفران. واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؛ لأنّ النذارة مشفوعة بالبشارة، فدلّ ذكر النذارة على ذكر البشارة.

٢٥- ﴿وإن يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿جاءتهم رسلهم﴾ حال، و﴿قد﴾ مضمرة ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات ﴿وبالزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزيور. ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم، وهي: البينات، وبعضها في بعضهم، وهي: الزبور، والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

٢٦- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿الذين كفروا﴾ بأنواع العقوبة ﴿فكيف كان نكير﴾ إنكارى عليهم، وتعذبي لهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ
بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

٢٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾
أجناسها من: الرمان، والتفاح، والتين، والعنب، وغيرها مما لا يحصر. أو:
هياتها من: الحمرة، والصفرة، والخضرة، ونحوها ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طرق
مختلفة اللون، جمع جُدَّة، كمُدَّة ومُدَدٍ ﴿بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾
جمع غريب. وهو تأكيد للأسود. يقال: أسود غريب، وهو الذي أبعد في
السواد، وأغرب فيه. ومنه: الغراب. وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكّد،
كقولك: أصفر فاقع، إلّا أنّه أضمر المؤكّد قبله. والذي بعده تفسير للمضمر.
وإنّما يفعل ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدلّ على المعنى الواحد من طريقي
الإظهار والإضمار جميعاً. ولا بدّ من تقدير حذف المضاف، أي: في قوله:
﴿ومن الجبال﴾ ذو جدد بيض، وحر، وسود، حتّى يؤول إلى قولك: ومن
الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

٢٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يعني: ومنهم بعض
مختلف ألوانه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات، والجبال. ولما قال: ﴿أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وعدّد آيات الله، وأعلام قدرته، وأثار صنعته،
وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع
ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: العلماء به؛ الذين علموه بصفاته،
فعظّموه. ومن ازداد ١٣٦ علماً به ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقلّ كان
آمن. وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»^(١). وتقدير اسم الله تعالى
وتأخير العلماء يؤذن أنّ معناه: أنّ الذين يخشون الله من عباده العلماء دون
غيرهم. ولو عكس لكان المعنى: أنّهم لا يخشون إلّا الله، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية».

(حاشية الكشف ٣/ ٦١١).

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكُونَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

اللَّهُ ﴿[الأحزاب: ٣٩]﴾. وبينهما تغاير، ففي الأول بيان أَنَّ الخاشين ^(١) هم العلماء، وفي الثاني بيان أَنَّ المخشِي منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة، وعمر بن عبد العزيز، وابن سيرين - رحمهم الله -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. والخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إِنَّمَا يَعِظُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. تعليل لوجوب الخشية بدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم، والمعاقب المنيب حقّه أن يُخْشَى.

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: سرّين النفل، ومعلنين الفرض. يعني: لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن ﴿تَجَرَّةً﴾ هي: طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّنْ تَكُونَ﴾ لن تكسد، يعني: تجارة ينتفي عنها الكساد، وتنفق عند الله.

٣٠- ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ متعلّق ب: لن تبور، أي: ﴿ليؤفّقهم﴾ بنفاقها عنده ﴿أَجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه. أو: يرجون في موضع الحال، أي: راجين. واللام تتعلّق ببتلون وما بعده، أي: فعلوا جميع ذلك من التلاوة، وإقامة الصلاة، والإنفاق لهذا الغرض. وخبر ﴿إِنَّ﴾: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: ﴿غفور﴾ لهم ﴿شكور﴾ لأعمالهم، أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

٣١- ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن. و﴿مِّن﴾ للتبيين ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة؛ لأنَّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

(١) في الأصل المخطوط: الخاشعين. والمثبت هو الصواب.

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

لما تقدمه من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فعلمك، وأبصر أحوالك، وراك أهلاً لأن يُوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز؛ الذي هو عيار على سائر الكتب.

٣٢ - ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثم أورثناه من بعدك - أي: حكمنا بتوريثه ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم - رضي الله عنهم أجمعين - إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثم رتبهم على مراتب، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. وهذا التأويل يوافق التنزيل، فإنه تعالى قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] وقال بعده: ﴿وَالْآخِرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَالْآخِرُونَ مَثْرُجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٠٦] والحديث: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(١) وعنه ﷺ: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة»^(٢). رواه أبو الدرداء.

والأثر: فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - السابق: المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر بالنعمة غير الجاحد له؛ لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

(١) رواه ابن مردويه كما في (الدر المنثور ٧/ ٢٥) وذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ٣٤٦) ورواه العقيلي في (الضعفاء الكبير ٣/ ٤٤٣) في ترجمة الفضل بن عميرة.

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٨) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣) وطريق الهجرتين (ص ٣٦٦).

يَاذِنِ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

وقول السلف: فقد قال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن البصري: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف - رحمه الله - عن هذه الآية، فقال: كلهم مؤمنون، وأما صفة الكفار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عبادته، فإنه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أهل الإيمان، وعليه الجمهور. وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم، فإنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم. والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء - رحمه الله -: إنما قدم الظالم لثلاث بآس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرفه أنَّ ذنبه لا يبعده من ربِّه. وقيل: لأنَّ أَوَّلَ الأحوال معصية، ثم توبة، ثم استقامة. وقال سهل: السابق العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذي يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذي يعبد على الرغبة والرغبة، والسابق: الذي يعبد على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصد: من يجتهد ألا يأخذها إلا من حلال، والسابق: من أعرض عنها جملة. وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب العقبى، والسابق: طالب المولى ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ بأمره، أو: بعلمه، أو: بتوفيقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراد الكتاب ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

٣٣ - ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ خبر ثانٍ لـ «ذالك»، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، والخبر: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الفرق الثلاث ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أبو عمرو ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: من ذهب مرصع باللؤلؤ. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب والهمز: نافع، وحفص، عطفاه على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أي: يحلون أساور ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذة، والزينة.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا
 دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي
 كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي
 كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ

٣٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ خوف النار، أو: خوف الموت،
 أو: هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل
 الطاعات وإن قلت.

٣٥- ﴿الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها، يقال:
 أقمت، إقامة، ومقاماً، ومقامة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه وإفضاله،
 لا باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء
 من التعب وفترة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿لُغُوبٌ﴾ بفتح اللام، وهو
 شيء يلغب منه، أي: لا نتكلف عملاً يلغبنا.

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ جواب النفي،
 ونصبه بإضمار أن، أي: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بموت ثان فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ
 عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ
 كَفُورٍ﴾ نجزي كل: أبو عمرو.

٣٧- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون، فهو يفتعلون من الصراخ، وهو:
 الصياح بجهد وشدة. واستعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته ﴿رَبَّنَا﴾
 يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: أخرجنا من النار،
 وردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر، ونطع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر
 الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون ﴿مَا﴾ نكرة
 موصوفة، أي: تعميراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾. وهو متناول لكل عمر تمكن فيه
 المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم. ثم قيل:
 هو ثماني عشرة سنة. وقيل: أربعون، وقيل: ستون ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾

فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

الرسول ﷺ، أو: المشيب. وهو عطف على معنى ﴿أولم نعمركم﴾ لأن لفظه استخبار، ومعناه: إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم ﴿وجاءكم النذير﴾ ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ناصر يعينهم.

٣٨- ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما في الصدور - وهو أخفى ما يكون - فقد علم كل غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها. وهي تأنيث ذو، في نحو قول أبي بكر - رضي الله عنه -: «ذو بطن خارجة جارية»^(١) أي: ما في بطنها من الحبل لأن الحبل يصحب البطن. وكذا المضمرات تصحب الصدور. و«ذو» موضوع لمعنى الصلبة.

٣٩- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلف: خليفة، ويجمع على: خلائف. والمعنى: أنه جعلكم خلفاء في أرضه، قد ملككم مقاليد التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنية ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فوبال كفره راجع عليه. وهو مقت الله، وخسار الآخرة، كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، وهو أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾: هلاكاً، وخسراناً.

٤٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ ألهمتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أرأيتم﴾ لأن معنى ﴿أرأيتم﴾: أخبروني، كأنه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء، وعمّا استحقوا به الشركة،

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا
إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا
نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أروني﴾ أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم مع الله شركة في خلق السموات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ
مِّنْهُ﴾ أي: معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه، فهم على حجة وبرهان
من ذلك الكتاب. ﴿بَيِّنَات﴾: علي، وابن عامر، ونافع، وأبو بكر ﴿بَلْ إِن
يَعِدُ﴾ ما يعدُّ ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ﴾ - بدل من ﴿الظالمون﴾ وهم الرؤساء - ﴿بَعْضًا﴾
أي: الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ هو قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

٤١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يمنعهما من أن تزولا؛ لأن
الإمساك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما
﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية
للابتداء ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما، وكانتا
جديرتين بأن تهذا هداً لعظم كلمة الشرك، كما قال: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ
مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

٤٢ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصب على المصدر، أي: إقساماً بليغاً، أو:
على الحال، أي: جاهدين في أيمانهم. ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى
الْأُمَمِ﴾ بلغ قريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا:
لئن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول
لنكوننَّ أهدي من إحدى الأمم ﴿أي: من الأمة التي يقال فيها: هي إحدى
الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى، والاستقامة، كما يقال للداهية
العظيمة: هي إحدى الدواهي﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلما بعث رسول الله ﷺ ﴿مَّا
زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحق - وهو
إسناد مجازي -.

أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَسْنَتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا

٤٣- ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مفعول له. وكذا ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾. والمعنى: وما زادهم إلا نفوراً للاستكبار ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾. أو: حال، يعني: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ. وأصل قوله: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وأن مكروا السيء، أي: المكر السيء، ثم ومكراً السيء، ثم ومكر السيء. والدليل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر. وفي المثل: «من حفر لأخيه جباً، وقع فيه مُنْكَباً»^(١) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَسْنَتَ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسولهم من الأمم قبلهم. والمعنى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل. جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بين أن سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدلها في ذاتها، ولا يحولها عن أوقاتها، وأن ذلك مفعول لا محالة.

٤٤- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسابيرهم إلى الشام، واليمن، والعراق من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم، ودمارهم ﴿وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتداراً، فلم يتمكنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادراً عليهم.

٤٥- ﴿وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكر الأرض في قوله:

(١) ذكره الزخشي في: «المستقصى في أمثال العرب» رقم (١٣٠٢).

مِنْ دَابَّةٍ وَلَئِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

﴿ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدبُّ
عليها ﴿وَلَئِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي: لم تخف عليه حقيقة أمرهم، وحكمة حكمهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَّ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

- ١- ﴿يَسَّ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: معناه: يا إنسان في لغة طييء. وعن ابن الحنفية: يا محمد. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاني فِي الْقُرْآنِ بِسَبْعَةِ أَسْمَاءَ: مُحَمَّد، وَأَحْمَد، وَطَه، وَيَس، وَالزَّمَل، وَالْمَدَثَر، وَعَبْدَ اللَّهِ»^(١). وقيل: يا سيّد ﴿يَس﴾ بالإمالة: عليّ، وحزرة، وخلف، وحمّاد، ويحيى.
- ٢- ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ قسم ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو: لأنّه دليل ناطق بالحكمة، أو: لأنّه كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلّم به.
- ٣- ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم. وهو ردّ على الكفار حين قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].
- ٤- ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو: صلة للمرسلين، أي: الذين أرسلوا ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: طريقة مستقيمة، وهو: الإسلام.

(١) رواه بنحوه ابن عدي وابن عساكر. (كنز العمال ٣٢١٦٩).

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ
عَلَيْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْآذْقَانِ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

٥- ﴿تَنْزِيلَ﴾ بنصب اللام: شامي، وكوفي غير أبي بكر، علي: اقرأ ﴿تنزيل﴾ أو: على أنه مصدر، أي: نزل ﴿تنزيل﴾. وغيرهم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿تنزيل﴾. والمصدر بمعنى المفعول ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ﴿الرَّحِيمِ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد.

٦- واللام في: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متصل بمعنى ﴿المرسلين﴾ أي: أرسلت ﴿لتنذر قوما﴾ ﴿مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ نافية عند الجمهور، أي: ﴿قوما﴾ غير منذر آبائهم على الوصف، بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤]. أو: موصولة منصوبة على المفعول الثاني، أي: العذاب الذي أُنْذِرُهُ آبَاءَهُمْ، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠] أو: مصدرية، أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، أي: مثل إنذار آبائهم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إن جعلت ﴿مَا﴾ نافية، فهو متعلق بالنفي، أي: لم ينذروا ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. وإلا فهو متعلق بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ... لتنذر﴾ كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو: فهو غافل.

٧- ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] أي: تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم، ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

٨- ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم؛ بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، في ألا تأمل لهم، ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْآذْقَانِ﴾، معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان، ملزوزة إليها ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ مرفوعة رؤوسهم، يقال: قمع

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا

البعير فهو قاصح؛ إذا روي ورفع رأسه، وهذا لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن، حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يخليه يطأطأ رأسه، فلا يزال مقحماً.

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بفتح السين: حمزة، وعلي، وحفص. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله كالجبل، ونحوه، فبالضم ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم، أي: غطيناها، وجعلنا عليها غشاوة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحق، والرشاد.

وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلي، ومعه حجر ليدمغه به؛ فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره.

١٠- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: سواء عليه الإنذار وتركه، والمعنى: من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار. روي: أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري، فقال: كأني لم أقرأها، أشهدك أنني تائب عن قولي في القدر. فقال عمر: اللهم إن صدق فتب عليه، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه. فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق.

١١- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك من اتبع القرآن ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ وخاف عقاب الله، ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ وهي العفو عن ذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

١٢- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات، وغيرها

وَأَثَرَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ ما هلكوا عنه من أثر حسن: كعلم علموه، أو: كتاب صنفوه، أو: حبس، أو: رباط، أو: مسجد صنعوه، أو سبى: كوظيفة وظفها بعض الظلمة، وكذلك كل سئة حسنة، أو: سيئة يستن بها، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدم من أعماله، وأخر من آثاره. وقيل: هي خطاهم إلى الجمعة، أو: إلى الجماعة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ عددناه، وبيّناه ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب، ومقتداها.

١٣- ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ومثل لهم. من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثل، و: هذه الأشياء على ضرب واحد، أي: على مثال واحد. والمعنى: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ مثل أصحاب القرية، أي: أنطاكية، أي: اذكر لهم قصة عجيبة، قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بدل من أصحاب القرية ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ رسل عيسى - عليه السلام -، بعثهم دعاءً إلى الحق، وكانوا عبدة أوثان.

١٤- ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى. ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾ أي: أرسل عيسى - عليه السلام - بامرنا ﴿اثْنَيْنِ﴾ صادقاً وصدوقاً، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب التجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ابنٌ مريض من سنين، فمسحاه، فقام، وآمن حبيب. وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلِهتنا؟ قالا: نعم. من أوجدك وآلهتك. فقال: حتى أنظر في أمركما. فتبعهما الناس، وضربوهما. وقيل: حبسا. ثم بعث عيسى - عليه السلام - شمعون، فدخل متكرراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا. فدعاهما.

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَعَلَّكُم لِمَرْسَلُونَ ﴿١٦﴾

فقال شمعون: مَنْ أرسلكما؟ قالوا: الله الذي خلق كل شيء، ورزق كل حي، وليس له شريك. فقال: صفاه وأجزاه. قالوا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالوا: ما يتمنى الملك. فدعا بغيلا أمه، فدعوا الله، فأبصر الغلام. فقال له شمعون: أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال الملك: ليس لي عنك سر، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضرب، ولا ينفع. ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به. فدعوا بغيلا مات من سبعة أيام، فقام، وقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك، وأنا أحذركم ما أنتم فيه! فأمنوا. وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومن هم؟ قال: شمعون وهذان؟ فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذب أصحاب القرية الرسولين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ ففوقيناهما - ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: أبو بكر، من: عزّه يعزّه؛ إذا غلبه، أي: فغلينا وقهرنا - ﴿بِشَالِكٍ﴾ وهو شمعون. وترك ذكر المفعول به، لأن المراد ذكر المعزّز به و[هو] ^(١) شمعون، وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق، وذلل الباطل. وإذا كان الكلام منصّباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له، وتوجّهه إليه كأن ما سواه مرفوض ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قال الثلاثة لأهل القرية.

١٥- ﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب القرية ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ رفع ﴿بَشَرٍ﴾ هنا، ونصب في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لانتفاض النفي بإلا، فلم يبق لـ «ما» شبه بليس وهو الموجب بعمله ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وحياً ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ما أنتم إلا كذبة.

١٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَعَلَّكُم لِمَرْسَلُونَ﴾ أكد الثاني باللام دون الأول؛ لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿رَبَّنَا

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ لَكُمْ لَن لَّمْ يَنْتَهُوا لَرْجُمِكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْوَيْسَ لِيَأْتِيَكُمُ الرِّسَالُ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

يعلم ﴿٢٢﴾ جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله.
١٧- ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآية الشاهدة لصحته.

١٨- ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ﴾ تشاء منا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه، وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك ﴿لَن لَّمْ يَنْتَهُوا﴾ عن مقاتل هذه ﴿لَرْجُمِكُمْ﴾ لنقتلنكم، أو لنطردنكم، أو: لنشتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وليصيبنكم عذاب الحريق، وهو أشد عذاب.

١٩- ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ وهو: الكفر ﴿أَيْنَ﴾ بهمة الاستفهام وحرف الشرط: كوفي، وشامي ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ وعظمت، ودعيت إلى الإسلام، وجواب الشرط مضمرة. وتقديره: تطيئرتم. ﴿أَيْنَ﴾ بهمة ممدودة، بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو. و﴿أَيْنَ﴾ بهمة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكِّي، ونافع ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ بالتخفيف: يزيد ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحد في العصيان. فمن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله، وتذكيرهم. أو: بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيتكم، حيث تشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

٢٠-٢٢- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار، وكان في غار من الجبل يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه، فقال: أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْوَيْسَ لِيَأْتِيَكُمُ الرِّسَالُ﴾ أو أنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقتني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مرجعكم ﴿وَمَا لِيَ﴾: حمزة.

ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
أَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُلِيعُونَ ﴿٢٩﴾

٢٣- ﴿ءَاتَّخِذْ﴾ بهمزتين: كوفي ﴿مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿إِن يُرِدِنِ
الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ شرط جوابه ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ من مكروه.
﴿ولا ينقذوني﴾ ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥] في الحالين: يعقوب.

٢٤- ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إذا اتخذت. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيّن.

٢٥- ولما نصح قومه أخذوا يرجونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال
لهم: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به. ولما
قتل:

٢٦، ٢٧- ﴿قِيلَ﴾ له ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وقبره في سوق أنطاكية. ولم يقل: قيل
له؛ لأن الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً. وفيه دلالة
أن الجنة مخلوقة. وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه، وهو في
الجنة، ولا يموت إلا بفناء السموات والأرض! فلما دخل الجنة، ورأى
نعيمها: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بمغفرة ربِّي لي، أو:
بالذي غفر لي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بالجنة.

٢٨- ﴿﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾﴾ «ما»: نافية ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ قوم حبيب ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي:
من بعد قتله، أو: رفعه ﴿مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لتعذيبهم ﴿﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾﴾
وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛
وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة
اقتضت ذلك.

٢٩- ﴿﴿ إِن كَانَتْ ﴾﴾ الأخذة، أو: العقوبة ﴿﴿ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً ﴾﴾ صاح جبريل
- عليه السلام - صيحة واحدة ﴿﴿ فَإِذَا هُمْ خُلِيعُونَ ﴾﴾ ميتون، كما تحمد النار.

يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا

والمعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر، والخذق.

٣٠- ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الحسرة: شدة الندم. وهذا نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة، فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسول. والمعنى: أنهم أحقاء بأن يتحسّر عليهم المتحسّرون ويتلهّف على حالهم المتلهّفون. أو هم مُتَحَسَّرٌ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

٣١- ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ «كم» نصب بأهلكنا، و﴿يروا﴾ معلق عن العمل في ﴿كم﴾ لأن ﴿كم﴾ لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام، أو: للخبر؛ لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كم أهلكنا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ﴿ألم يروا﴾ كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم أنهم غير راجعين إليهم.

٣٢- ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «لما» بالتشديد: شامي، وعاصم، وحزة، بمعنى إلا، و﴿إن﴾ نافية. وغيرهم بالتخفيف، على أن ﴿ما﴾ صلة للتأكيد و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. وهي متلقة باللام لا محالة. والتنوين في ﴿كل﴾ عوض من المضاف إليه. والمعنى: إن كلهم محشورون، مجموعون، محضرون للحساب، أو: معذبون، وإنما أخبر عن كل بجميع لأن «كلاً» يفيد الإحاطة. والجميع: فاعل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، يعني: أن المحشر يجمعهم.

٣٣- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: علامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض الميتة، ويجوز أن يرتفع ﴿آية﴾ بالابتداء، و﴿لهم﴾ صفتها، وخبرها ﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ الياسة. وبالتشديد: مدني ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر. وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك ﴿نسلخ﴾. ويجوز أن توصف

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿الأرض﴾ و﴿الليل﴾ بالفعل؛ لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات في وصفها بالأفعال، ونحوه:
ولقد أُمِرُّ على اللّٰثِمِ يَسْبُثِي^(١)

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريد به الجنس ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قَدَمَ الظرف ليدلّ على أنّ الحبّ هو الشيء الذي يتعلّق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان. وإذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء.
٣٤- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿زائدة عند الأخفش. وعند غيره: المفعول محذوف، تقديره: ما ينتفعون به.

٣٥- ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الضمير لله تعالى، أي: ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ ممّا خلقه الله من الثمر ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وممّا عملته أيدِيهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك من الأعمال، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بني آدم. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿وجعلنا﴾. ﴿وفجّرنا﴾ فنقل الكلام من التكلّم إلى الغيبة على طريق الالتفات. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل، وترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنّه علم أنّها في حكم النخيل مما علّق به من أكل ثمره. ويجوز أن يراد من ثمر المذكور، وهو الجنّات، كما قال رؤية:

فيها خطوط من بياض وبلق كأنه في الجلد توليع البهق
ف قيل له، فقال: أردت كأنّ ذلك. (وما عملت) كوفي غير حفص. وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين، والبصرة، والشام، مع الضمير. وقيل: ﴿ما﴾ نافية، على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاء، وحثّ على شكر النعمة.

(١) صدر بيت لرجل من بني سلول، وعجزه: فمضيتُ ثمة قلت: لا يعنيني.

سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

٣٦- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النخل، والشجر، والزرع، والثمر ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصلوا إلى معرفتها، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

٣٧- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، أو: ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض، فيعري نفس الزمان كشخص زنجي أسود؛ لأنَّ أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة، فاكتمى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

٣٨- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وآية لهم الشمس تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحدِّ لها مؤقَّت مقدر، تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبه بمستقرِّ المسافر إذا قطع مسيره. أو: لحدِّ لها من مسيرها كلَّ يوم في مرائي عيوننا، وهو المغرب. أو: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير، والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كلِّ مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكلِّ معلوم.

٣٩- ﴿وَالْقَمَرَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿قَدَرْنَاهُ﴾. وبالرفع: مكِّي، ونافع، وأبو عمرو، وسهل، على الابتداء، والخبر: ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ أو على: وآية لهم القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو يسير فيها من ليلة المستهلِّ إلى الثامنة والعشرين، ثمَّ يستسرُّ ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بدَّ في ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ من تقدير مضاف؛ لأنَّه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، أي: قدرنا نوره يزيد وينقص، أو: قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ فيكون ظرفاً. فإذا كان في آخر منازلها دق، واستفوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ - هو عودُ الشِّمَارِخِ إذا بيس

الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

واعوج. ووزنه فعلون، من الانعراج، وهو: الانعطاف - ﴿الْقَدِيرِ﴾ العتيق المُنْخُول، وإذا قدم دق، وانحنى، واصفر. فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه.

٤٠ - ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ أي: لا يتسهّل لها، ولا يصحّ، ولا يستقيم ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فاجتمع معه في وقت واحد، وتداخله في سلطانه فطمس نوره؛ لأنّ لكل واحد من النّيرين سلطاناً على حياله. فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولا يسبق الليل النهار، أي: آية الليل آية النهار، وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة، فيجمع الله بين الشمس والقمر، وتطلع الشمس من مغربها ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أي: وكلهم. والضمير للشمس والأقمار ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسرون.

٤١ - ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (ذُرِّيَّاتِهِمْ): مدني، وشامي. ﴿فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء. والمراد بالذرية: الأولاد، ومن يهتمهم حملة. وكانوا يبعثونهم إلى التجارات براً أو بحراً. أو: الآباء لأنها من الأضداد. والفلك على هذا: سفينة نوح - عليه السلام - . وقيل: معنى حمل الله ذريّاتهم فيها: أنّه حمل آباءهم الأقدمين، وفي أصلاهم هم وذريّاتهم. وإنّما ذكر ذريّاتهم دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم.

٤٢ - ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل. وهي سفائن البر.

٤٣ - ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث، أو: فلا إغاثة ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ لا يُنْجُونَ.

٤٤ - ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولا ينقذون إلا لرحمة منا، ولتمتع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما منصوبان على المفعول له.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملونه من بعد، أو: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب ﴿إِذَا﴾ مضمرة، أي: أعرضوا. وجاز حذفه لأن قوله:

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدل عليه. و﴿من﴾ الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبويض، أي: ودأبهم الإعراض عند كل آية، وموعظة.

٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لمشركي مكة ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تصدقوا على الفقراء ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله، ونطعمه نحن؟! ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو: حكاية قول المؤمنين لهم، أو: هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد البعث، والقيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما يقولون. خطاب للنبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -.

٤٩- ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، من: خصمه: إذا غلبه في الخصومة. وشدد الباقون الصاد، أي: يخصمون بإدغام التاء في الصاد، لكنه مع فتح الخاء مكى بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء: مدني، ويكسر الباء والحاء: يحيي، فأتبع الباء الخاء في الكسر، وفتح الباء وكسر الخاء غيرهم. والمعنى: تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيَّحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِجَمِيعٍ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾

٥٠- ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يقدرّون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصَّيْحَةَ.

٥١- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية. والصور: القرن، أو: جمع صورة ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يَغْدُونَ.

٥٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا﴾ من أنشرنا ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ مضجعنا. وقف لازم: عن حفص. وعن مجاهد: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم. فإذا صبح بأهل القبور قالوا: ﴿من بعثنا؟﴾ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ كلام الملائكة، أو: المتقين، أو: الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم، أو: بعضهم بعضاً. أو ﴿مَا﴾ مصدرية. ومعناه: هذا وعْدُ الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق. أو: موصولة، وتقديره: هذا الذي وعده الرحمن، والذي صدقه المرسلون، أي: والذي صدق فيه المرسلون.

٥٣- ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيَّحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِجَمِيعٍ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

٥٤- ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٥- ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾ بضمّتين: كوفي، وشامي، وبضمة وسكون: مكّي، ونافع، وأبو عمرو. والمعني: في أيّ شغل، وفي شغل لا يوصف، وهو: افتضاض الأبقار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو: ضرب الأوتار، أو: ضيافة الجبار ﴿فَاكِهُونَ﴾ خبر ثان ﴿فَاكِهون﴾: يزيد.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾
 سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَأْخُذْ بِعَهْدٍ إِلَيْكُمْ
 يَنْبِئُ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا

والفاكه والفكه: المتنعم المتلذذ. ومنه الفكاهة؛ لأنه مما يتلذذ به. وكذلك الفكاهة.

٥٦- ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف عليه ﴿فِي ظِلِّ﴾ حال، جمع ظلّ، وهو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. كذب وذئاب. أو: جمع ظلة، كبرمة وبرام، دليله قراءة: حمزة، وعليّ. ﴿ظِلِّ﴾ جمع ظلة، وهي: ما سترك عن الشمس ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير في الحجرة، أو: الفراش فيها ﴿مُتَّكِفُونَ﴾ خبر، أو: ﴿فِي ظِلِّ﴾ خبر، و﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ مستأنف.

٥٧- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ يفتعلون، من: الدعاء، أي: كلّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم، أو: يتمنون، من قولهم: ادّع عليّ ما شئت، أي: تمنّه عليّ. الفراء: هو من الدعوى، ولا يدعون: ما لا يستحقون.

٥٨- ﴿سَلَامٌ﴾ بدل من: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾. كأنه قال لهم: سلام، يقال ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾. والمعنى: أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو: بغير واسطة تعظيماً لهم، وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يُمنعون. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من ربّ العالمين.

٥٩- ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة. وذلك حين يحشر المؤمنون، ويُسار بهم إلى الجنة. وعن الضحاك: لكلّ كافر بيت من النار، يكون فيه، لا يرى، ولا يرى أبداً. ويقول لهم يوم القيامة:

٦٠- ﴿أَلَمْ نَأْخُذْ بِعَهْدٍ إِلَيْكُمْ يَنْبِئُ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ العهد: الوصية. وعهد إليه: إذا وصّاه. وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل، وأنزل عليهم من دلائل السمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويُرِيته لهم.

٦١- ﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي﴾ وحدوني، وأطيعوني ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما عهد

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾

إليهم من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: صراط بليغ في استقامته، ولا صراط أقوم منه.

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد: مكِّي، وعاصم، وسهل ﴿جِبِلًّا﴾ بضم الجيم والباء والتشديد: يعقوب ﴿جِبِلًّا﴾ مخففاً: شامي، وأبو عمرو ﴿جِبِلًّا﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام: غيرهم. وهذه لغات في معنى الخلق ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل.

٦٣- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها.

٦٤- ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها بكفركم، وإنكاركم لها.

٦٥- ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم من الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يروى: أنهم يجحدون، ويخاصمون. فيشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيزُ عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، فعنك كنت أناضل»^(١).

٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم، وأذهبنا أبصارهم. والطمس: تغطية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ على حذف الجار، وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٦٥٣).

«أناضل»: أجادل.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تُعَذِّبْهُ نُغَشِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۖ

كفيف ﴿يُصِرُّونَ﴾ حينئذ، وقد طمسنا أعينهم؟!

٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ فردة، وخنازير، أو: حجارة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (على مكاناتهم): أبو بكر، وحماد. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام، أي: ﴿لمسخناهم﴾ في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء، أو: ﴿مُضِيًّا﴾ أمامهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ خلفهم.

٦٨- ﴿وَمَنْ تُعَذِّبْهُ نُغَشِّسْهُ﴾: عاصم، وحمة. والتغشيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. الباقون ﴿نُغَشِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: نقله فيه، يعني: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماء، وذلك أننا خلقناه على ضعف في جسده، وخلق من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته، ويعقل، ويعلم ماله وما عليه، فإذا انتهى نكسناه ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادر على أن يطمس على أعينهم، ويمسحهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت. وبالتالي: مدني، ويعقوب، وسهل.

٦٩- وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، فنزل ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾. أي: وما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام قول الشعراء. أو: ﴿وما علمناه﴾ بتعليم القرآن ﴿الشعر﴾ على معنى: أن القرآن ليس بشعر، فهو كلامٌ موزونٌ مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له، ولا يليق بحاله، ولا يتطلب لو طلبه،

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾

أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له، ولم يتسهّل، كما جعلناه أُمِّيًّا لا يتهدّى للخطّ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدهش. وأما قوله: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله:

هل أنت إلا أصبع دَمِيت وفي سبيل الله ما لقيت

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة، من غير صنعة فيه، ولا تكلف، إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك، ولا التفات منه أن جاء موزوناً، كما يتفق في خطب الناس، ورسائلهم، ومحاورتهم أشياء موزونة، ولا يُسمّيها أحد شعراً؛ لأنّ صاحبه لم يقصد الوزن. ولا بدّ منه. على أنّه عليه الصلاة والسلام قال: لقيت بالسكون، وفتح الباء في: كذب، وخفض الباء في: المطلب. ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: المعلّم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجنّ، وما هو إلا قرآن كتاب سماويّ يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!

٧٠- ﴿لِيُنذِرَ﴾ القرآن، أو: الرسول. ﴿لتنذر﴾: مدنيّ، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً، متأملاً؛ لأنّ الغافل كالميت، أو: حيّاً بالقلب ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتأملون، وهم في حكم الأموات.

٧١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ أي: ممّا تولّينا نحن إحداثه، ولم يقدر على تولّيه غيرنا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكتها إيّاهم، فهم متصرّفون فيها تصرّف الملاك، مختصّون بالانتفاع بها، أو: فهم لها ضابطون، قاهرون.

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَا يَخْزِنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٠﴾

٧٢- ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيّرناها منقادة لهم، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذييله تعالى، وتسخيره لها؛ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وهو ما يركب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها، ويأكلوا لحمها.

٧٣- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود، والأوبار، وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من اللبن، وهو: جمع مشرب، وهو: موضع الشرب، أو: الشرب ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعام الأنعام؟!

٧٤- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لعل أصنامهم تنصرهم إذا حاربهم أمرّ.

٧٥- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتهم. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ نصر عابديهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفار للأصنام أعوان وشيعة يخدومونهم، ويدبّون عنهم. أو: اتخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار.

٧٦- ﴿فَلَا يَخْزِنَكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء، وكسر الزاي: نافع، من: حزنه، وأحزنه، يعني: فلا يُهمّتك تكذيبهم، وأذاهم، وجفائهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنا مجازوهم عليه. فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم، ولا يرهقه الحزن. ومن زعم أن من قرأ ﴿أَنَا نَعْلَمُ﴾ بالفتح فسدت صلاته، وإن اعتقد معناه كفر، فقد أخطأ؛ لأنه يمكن حمله على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن، والشعر، وفي كلّ كلام. وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْحَمْدَ

أَوْلَٰئِكَ الْإِنسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

والنعمه لك^(١). كسر أبو حنيفة، وفتح الشافعي - رحمة الله عليهما - وكلاهما تعليل. فإن قلت: إن كان المفتوح بدلاً من ﴿قولهم﴾ كأنه قيل: ﴿فلا يحزنك﴾ أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، ففساده ظاهر. قلت: هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً، وعدم تعلقه، لا يدوران على كسر إن وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك، فيفضل إن فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل، ولا تقدّر معنى البدل، كما أنك تفضل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدّر معنى المفعولية. ثم إن قدرته كاسراً، أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على علمه تعالى بسرهم وعلايتهم، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك، كما في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

٧٧- ونزل في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً، وجعل يفتنه بيده، ويقول: يا محمد! أترى الله يحبي هذا بعد ما رم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم»^(٢) ﴿أَوْلَٰئِكَ الْإِنسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مذرة، خارجة من الإحليل؛ الذي هو قناة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بين الخصومة، أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربّه، وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات. وهو غاية المكابرة.

٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتة العظم ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من النسي، فهو أغرب من إحياء العظم. المصدر مضاف إلى المفعول، أي: خلقنا إياه ﴿قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ هو اسم لما يلي من العظام، غير صفة، كالرمة والرفات،

(١) رواه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٤٦).

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

فلهذا لم يؤنث، وقد وقع خبراً لمؤنث. ومن يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميت نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها، يتشبث بهذه الآية. وهي عندنا طاهرة، وكذا الشعر، والعصب؛ لأن الحياة لا تحلها، فلا يؤثر فيها الموت. والمراد بإحياء العظام في الآية: ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتداء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه أجزاءه وإن تفرقت في البر والبحر، فيجمعه، ويعيده كما كان.

٨٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ﴾ تقدحون. ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء، وانطفائها به، وهي الزناد التي تُوري بها الأعراب، وأكثرها من المَرخ والعفار. وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»^(١) يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهي أنثى - فتندح النار بإذن الله. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب؛ لمصلحة الدق للثياب. فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر، قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر. وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب. و: «الأخضر» على اللفظ، وقرئ: «الخضراء» على المعنى. ثم بين أن من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر بقوله:

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدهم؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ،

(١) انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص ٢٠٢).

بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وليس به ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قل: ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادرٌ على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿الْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات.

٨٢- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أن يكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة، فالحاصل: أن المكوّنات بتخليقه وتكوينه، ولكن عبّر عن إيجاده بقوله: ﴿كُنْ﴾ من غير أن كان منه كاف ونون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول كما لا يثقل قول ﴿كُنْ﴾ عليكم، فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق، وإعادتهم ﴿فَيَكُونُ﴾: شاميّ وعليّ، عطف على ﴿يقول﴾. وأما الرفع فلائها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي: ﴿أمره أن يقول له كن﴾.

٨٣- ﴿فَسُبْحَنَ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة، يعني: هو مالك كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يعقوب.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس. من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له، وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله، وإن كان ظمآن أرواه الله، وإن كان غريباً ألبسه الله، وإن كان خائفاً أمنه الله، وإن كان مستوحشاً آنسه الله، وإن كان فقيراً أغناه الله، وإن كان في السجن أخرجته الله، وإن كان أسيراً خلّصه الله، وإن كان ضالاً هده الله، وإن كان مديوناً قضى الله دينه من خرائنه». وتُدعى: الدافعة، والقاضية تدفع عنه كل سوء، وتقضي له كل حاجة.

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٧).

(٢) رواه الدارمي عن عطاء بن أبي رباح بلاغاً. (الدر المنثور ٧ / ٣٨).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾

١-٣- ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة، أو: بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقاً، وعن المعاصي بالالهام، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد - رضي الله عنهم - أو: بنفوس العلماء العمال ﴿الصافات﴾ أقدامها في التهجد، وسائر الصلوات: ﴿فالزاجرات﴾ بالمواعظ والنصائح ﴿فالتاليات﴾ آيات الله، والدارسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك. و﴿صفاً﴾ مصدر مؤكّد. وكذلك ﴿زجراً﴾ والفاء تدلّ على ترتيب الصفات في التفاضل، فتقيد الفضل للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو: على العكس.

٤- وجواب القسم: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قيل: هو جواب قولهم: ﴿أَجْمَلُ الْإِلَهِاتِ إِلَهِهَا وَاحِدٌ﴾ [ص: ٥].

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ

٥- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿رَبُّ﴾ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاثمئة وستون مشرقاً. وكذلك المغرب. تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب. ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأما ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ فإنه أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما، وأما ﴿رَبُّ المشرق والمغرب﴾ فإنه أراد به الجهة. فالمشرق جهة والمغرب جهة.

٦- ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القربى منكم. تأنيث الأدنى ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ حمزة وحفص، على البدل من ﴿زينة﴾. والمعنى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بالكواكب ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ أبو بكر، على البدل من محل ﴿بِزِينَةِ﴾ أو: على إضمار: أعني، أو: على إعمال المصدر منوَّناً في المفعول ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب. وأصله: بزينة الكواكب. أو: على إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسنها؛ لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله: بزينة الكواكب؛ لقراءة أبي بكر.

٧- ﴿وَحِفْظًا﴾ محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا الْكَوَاكِبَ زِينَةً لِلْسَّمَاءِ وَحِفْظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] أو: الفعل المعلل مقدَّر كأنه قيل: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ زيناها بالكواكب، أو: معناه حفظناها حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة.

٨- والضمير في: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ لـ ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ لأنه في معنى الشياطين. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كوفي غير أبي بكر. وأصله: يستمعون. والتسمع: تطلب السماع، يقال: تسمع فسمع، وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ، اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنهم لا يقدر أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو: يستمعوا. وقيل: أصله لثلاث يسمعون، فحذفت اللام كما حذفت في جئتكم أن تكرمني، فبقي ألا يسمعون فحذفت أن، وأهدر عملها، كما في قوله:

إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا

أَلَا أَيْهَذَا الزَّاجِرِ أَخْضَرُ الْوَعْيِ ^(١)

وفيه تعسف يجب صَوْنُ القرآن عن مثله، فَإِنَّ كُلَّ واحد من الحذفين غير مردود على انفراده، ولكن اجتماعهما منكر. والفرق بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه وإلى حديثه: أَنَّ المَعْدَى بنفسه يفيد الإدراك، والمَعْدَى يُلِي يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: الملائكة؛ لأنهم يسكنون السموات. والإنس والجن هم المَلَأُ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ يرمون بالشهب ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق.

٩- ﴿دُحُورًا﴾ مفعول له، أي: ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ للدحور، وهو الطرد. أو: مدحورين على الحال، أو: لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى، فكأنه قيل: يدحرون، أو: قذفاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم، من: الوصوب، أي: أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب. وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم، غير منقطع.

١٠- و«مَنْ» في: ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محلّ الرفع بدل من الواو في ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع الشياطين إِلَّا الشيطان الذي ﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: سلب السلبة. يعني: أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه ﴿شَهَابٌ﴾ أي: نجم رجم ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء.

١١- ﴿فَاسْتَفْنِهِمْ﴾ فاستخبر كفار مكة ﴿أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خلقاً، من قولهم: شديد الخلق، وفي خلقه شدة، أو: أصعب خلقاً وأشقّه، على معنى الردّ لإنكارهم البعث، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة، ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما. وجيء ب«مَنْ» تغليبا

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد، وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي.

إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَلَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَوَلَا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَوْ لَوْنٌ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

للعقلاء على غيرهم. ويدل عليه قراءة من قرأ (أم من عددنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ لاصق، أو: لازم. وقرئ به. وهذا شهادة عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو: احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: ﴿أَوَلَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

١٢- ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك ومن تعجبك. أو: ﴿عجبت﴾ من إنكارهم البعث ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ من أمر البعث ﴿بل عجب﴾: حزة، وعلي، أي: استعظمت. والعجب روعة تعري الإنسان عند استعظام الشيء، فجردد لمعنى الاستعظام في حقه تعالى؛ لأنه لا يجوز عليه الروعة. أو: معناه: قل يا محمد ﴿بل عجب﴾.

١٣- ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.

١٤- ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر، ونحوه ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها، أو: يبالغون في السخرية.

١٥- ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر.

١٦- ﴿أَوَلَا﴾ استفهام إنكار ﴿مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: أنبعث إذا كنا تراباً، وعظاماً.

١٧- ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ معطوف على محلّ إن واسمها، أو: على الضمير في ﴿لمبعوثون﴾ والمعنى: أبيعث أيضاً أبائنا؛ على زيادة الاستبعاد، يعنون: أنهم أقدم. فبعثهم أبعد وأبطل ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ يسكون الواو: مدني، وشامي، أي: أبيعث واحد منا على المبالغة في الإنكار ﴿أَلَوْ لَوْنٌ﴾ الأقدمون.

١٨- ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿نَعَمْ﴾: علي. وهما لغتان ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَتْلُوَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ نُكَذِّبُوكَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾

١٩- ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان كذلك فما ﴿هِيَ﴾ إلا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾. و﴿هِيَ﴾: لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها. ويجوز فإنما البعثة ﴿زجرة واحدة﴾ وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة. من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينتظرون ما يحلُّ بهم.

٢٠- ﴿وَقَالُوا يَتْلُوَنَا﴾ الويل: كلمة يقولها القاتل وقت الهلكة ﴿هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: اليوم الذي ندان فيه، أي: نُجازى بأعمالنا.

٢١- ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال ﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ نُكَذِّبُوكَ﴾. ثم يحتمل أن يكون ﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله: ﴿احشروا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة و﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم.

٢٢، ٢٣- ﴿احشُرُوا﴾ خطاب الله للملائكة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَأَرْوَجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم أو قرناءهم من الشياطين، أو: نساءهم الكافرات. والواو: بمعنى مع. وقيل: للعطف. وقرئ بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ظلموا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ أي: الأصنام ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ دلّوهم، عن الأصمعي. هديته في الدين هدى، وفي الطريق هداية ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار.

٢٤- ﴿وَقَفُوهُمْ﴾ احبسوهم. ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن أقوالهم، وأفعالهم.

٢٥- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا. وقيل: هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر: ﴿فَنَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وهو في موضع النصب على الحال، أي: ﴿مالككم﴾ غير متناصرين.

بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَالِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦- ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون. أو: قد أسلم بعضهم بعضاً، وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر.

٢٧- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: التابع على المتبوع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون.

٢٨- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع للمتبعين ﴿إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن القوة، والقهر؛ إذ اليمين موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش، أي: أنكم كنتم تحملوننا على الضلال، وتقسروننا عليه.

٢٩- ﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمككنكم منه، مختارين له على الكفر، غير ملجئين.

٣٠- ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط نسلبكم به تمككنكم، واختياركم ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

٣١- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمنا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة؛ لعلمه بحالنا. ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ التكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قوله:

فقد زَعَمْتُ هَٰوِزُنْ قَلَّ مَالِي^(١)

ولو حكى قولها لقال: قَلَّ مَالِك.

٣٢- ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي ﴿إِنَّا كُنَّا غَالِينَ﴾، فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

٣٣- ﴿فَأَنَّهُمْ﴾ فإن الأتباع والمتبعين جميعاً ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين في الغواية.

(١) صدر بيت، وعجزه: وهل لي غير ما أنفقت مال.

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرِكُوا إِلَهًا تَارِكًا لِشَاعِرٍ يَجْتُنِمْ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مُمْكِرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

٣٤- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بالمشركون ﴿إِنَّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ﴾ بكل مجرم.

٣٥- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا عنها، وأبوا إلا الشرك.

٣٦- ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرِكُوا إِلَهًا تَارِكًا لِشَاعِرٍ يَجْتُنِمْ﴾ وكوفي، شامي، بهزتين: شامي، وكوفي ﴿لَتَارِكُوا إِلَهًا تَارِكًا لِشَاعِرٍ يَجْتُنِمْ﴾ يعنون: محمداً ﷺ.

٣٧- ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ ردّ على المشركون ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

٣٨، ٣٩- ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿بلا زيادة.

٤٠- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام: كوفي، ومدني. وكذا ما بعده. أي: لكن عباد الله - على الاستثناء المنقطع.

٤١، ٤٢- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ فَوَكَهَهُمْ ﴿فَوَكَهَهُمْ﴾ فسر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي: كل ما يتلذذ به، ولا يتقوت لحفظ الصحة، يعني: أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلذذ. ويجوز أن يراد: ﴿رزق معلوم﴾ منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. والنفس إليه أسكن ﴿وَهُمْ مُكْرِمُونَ﴾ معظّمون.

٤٣- ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون حالاً، وأن يكون خبراً بعد خبر. وكذا:

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾

٤٤- ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ التقابل أتم للسورر، وأنس.

٤٥- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾^(١) بغير همز: أبو عمرو، وحمزة في الوقف، وغيرهما: بالهمزة. يقال للزجاجة فيها الخمر كأس. وتسمى الخمر نفسها كأساً. وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر. وكذا في تفسير ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ من شراب معين، أو: من نهر معين، وهو: الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون. وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

٤٦- ﴿بَيَّضَاءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينها، أو: ذات لذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾.

٤٧- ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا. وهو من: غاله، يغو له، غولاً: إذا أهلكه، وأفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون، من: نُزِفَ الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف ﴿يُنْزَفُونَ﴾: عليّ، وحمزة، أي: لا يسكرون، أو: لا ينفد شرابهم، من: أنزف الشارب؛ إذا ذهب عقله، أو: شرابه.

٤٨- ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿عَيْنٌ﴾ جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين.

٤٩- ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ مصون. شبههن ببياض النعام المكنون في الصفاء. وبها تشبه العرب النساء، وتسميهن ببيضات الخدود.

٥٠- ﴿وَعُطِفَ﴾ فاقبل بعضهم ﴿يَعْنِي﴾: أهل الجنة ﴿عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ على

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (بكاس) بغير همز. وهي قراءة: أبي عمرو، وأبي جعفر، والسوسي. معجم القراءات القرآنية (٥/٢٣٥).

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْ تَكْ لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهْ ذَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا
وَعِظْمًا أَهْ تَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعْ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأُزِدَّيْنِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ
بِمِيتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾

﴿يطاف عليهم﴾ والمعنى: يشربون، فيتحدثون على الشراب كعادة الشُّرب^(١).
قال:

وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكَرَامِ عَلَى الْمُدَامِ^(٢)
فيقبل بعضهم على بعض يتسائلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، إِلَّا أَنَّهُ
جِيءَ بِهِ مَاضِيًا عَلَى مَا عُرِفَ فِي أَخْبَارِهِ.

٥٢، ٥١ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْ تَكْ﴾ بهمزتين: شامي،
وكوفي ﴿لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين.

٥٣ - ﴿أَهْ ذَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا أَهْ تَا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون. من الدين، وهو: الجزء.

٥٤ - ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين؟
قيل: إِنْ فِي الْجَنَّةِ كَوَى يَنْظُرُ أَهْلُهَا مِنْهَا إِلَى أَهْلِ النَّارِ. أو: قال الله تعالى لأهل
الجنة: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.
٥٥ - ﴿فَأَطْلَعْ﴾ المسلم ﴿قَرَاءَهُ﴾ أي: قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ في وسطها.

٥٦ - ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأُزِدَّيْنِ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة. وهي تدخل على
كاد كما تدخل على كان، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والإرداء:
الإهلاك. وبالياء في الحاليين: يعقوب.

٥٧ - ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وهي: العصمة، والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام
﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب، كما أحضرته أنت وأمثالك.
٥٨، ٥٩ - ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمِيتَيْنِ﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿الفاء للعطف
على محذوف تقديره: ﴿أ﴾ نحن مخلصون منعمون ﴿فما نحن بميتين﴾

(١) «الشرب»: جمع شارب.

(٢) البيت للفرزدق.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنَ الْبُطُونِ ﴿٦٦﴾

ولا معذيين. والمعنى: أن هذه حال المؤمنين، وهو: ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شرُّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنى فيه الموت. وهذا قولٌ يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله بمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة تعذيب. و﴿موتتنا﴾: نصب على المصدر. والاستثناء متصل، تقديره: لا نموت إلا مرة، أو: منقطع، وتقديره: لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. ثم قال لقرينه تقريباً له: ٦٠- ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: الأمر الذي نحن فيه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ثم قال الله عز وجل.

٦١- ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ وقيل هو أيضاً من كلامه.

٦٢- ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً﴾ تمييز، أي: نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خير نزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ خير نزلاً؟ والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق. والزقوم: شجر مَرَّ يكون بتهامة.

٦٣- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو: ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ فكذبوا.

٦٤- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما.

٦٥- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حلها. وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض. وقيل: الشيطان: حية عرافاء، قبيحة المنظر، هائلة جداً.

٦٦- ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة، أو: من طلوعها ﴿فَمَا لَوْ مِنَ الْبُطُونِ﴾

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلفُوا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

فماثلو بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد.

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أكلها ﴿لَشَوْبًا﴾ لخلطاً ولمزاجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمَرَجَاهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]. والمعنى: ثم إنهم يملؤون البطون من شجرة الزقوم، وهو حار، يحرق بطونهم، ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد مليّ تعذيباً لهم ذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحرّ، وهو: الشراب المشوب بالحميم.

٦٨- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم - وهي: الدركات التي أسكنوها - إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملؤوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم. ومعنى التراخي في ذلك ظاهر.

٦٩، ٧٠- ﴿إِنَّهُمْ أَلفُوا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهِرُونَ ﴿٦٩﴾ علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم في الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يجثّون حثّاً.

٧١- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قوم قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الأمم الخالية بالتقليد، وترك النظر والتأمل.

٧٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ أنبياء - عليهم السلام - حذروهم العواقب.

٧٣- ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: الذين أنذروا، وحذروا. أي: أهلكوا جميعاً.

٧٤- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلا الذين آمنوا منهم، وأخلصوا لله دينهم، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين.

٧٥- ولما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين، أتبع

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكَّعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

ذلك ذكر نوح، ودعائه إياه حين أيس من قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا﴾ دعانا لننجاه من الغرق. وقيل: أريد به قوله: ﴿أَنِّي مَعْلُوبٌ فَاتَّصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام الداخلة على «نِعْم»: جواب قسم محذوف. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: ﴿ولقد نادانا نوح﴾ فوالله لنعم المجيبون نحن. والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى: أنا أجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن آمن به، وأولاده ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ غم الغرق.

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وقد فني غيرهم. قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح. وكان لنوح - عليه السلام - ثلاثة أولاد: سام: وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام: وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث: وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

٧٨- ﴿وَرَكَّعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي:

٧٩- ﴿سَلَّمْنَا عَلَى نُوحٍ﴾ يعني: يسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكي، كقولك: قرأت سورة أنزلناها ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي: ثبت هذه التحية فيهم جميعاً، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين، يسلّمون عليه عن آخرهم.

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسناً.

٨١- ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح، والتعظيم.

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي: الكافرين.

﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ﴾ ٨٣ ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٤ ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ٨٥ ﴿أَفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ٨٦ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨٧ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ٨٨ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ٨٩

٨٣- ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من شيعة نوح، أي: ممن شايعه على أصول الدين، أو: شايعه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلا نبيان: هود، وصالح.

٨٤- ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ «إذ» تعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة. يعني: ﴿وَإِن﴾ ممن شايعه على دينه وتقواه حين ﴿جاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾. أو: بمحذوف، وهو: اذكر. ومعنى المجيء بقلبه ربّه: أنّه أخلص لله قلبه، وعلم الله ذلك منه، فضرب المجيء مثلاً لذلك.

٨٥، ٨٦- ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى ﴿قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ «إفكاً» مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنّه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إفكاً﴾ مفعولاً به، أي: أتريدون إفكاً. ثمّ فسر الإفك بقوله: آلهة من دون الله، على أنّها إفك في نفسها؛ أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

٨٧- ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ أي شيء ظنكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنتم تعبدون غيره. و﴿ما﴾ رفع بالابتداء. والخبر: ﴿ظنكم﴾. أو: فما ظنكم به ماذا يفعل بكم، وكيف يعاقبكم، وقد عبدتم غيره، وعلمتم أنّه المنعم على الحقيقة، فكان حقيقاً بالعبادة؟

٨٨- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: نظر في النجوم رامياً يبصره إلى السماء، متفكراً في نفسه كيف يحثال. أو: أراهم أنّه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنّه استدلّ بأماره على أنّه يسقم.

٨٩- ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مشارف للسقم - وهو: الطاعون، وكان أغلب

فَنُؤَلِّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾

الأسقام عليهم. وكانوا يخافون العدو - ليتفرقوا عنه. فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد. ففعل بالأصنام ما فعل. وقالوا: علم النجوم كان حقاً، ثم نسخ الاشتغال بمعرفته. والكذب حرام إلّا إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم - عليه السلام - مغرض من الكلام، أي: سأسقم. أو: من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داءً. ومات رجل فجأة، فقالوا: مات، وهو صحيح. فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟ أو: أراد ﴿إني سقيم﴾ النفس لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا.

٩٠- ﴿فَنُؤَلِّوْا﴾ فأعرضوا ﴿عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ مولين الأدبار.

٩١- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ﴾ فمال إليهم سراً ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وكان عندها طعام.

٩٢- ﴿مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنه خاطبها خطاب من يعقل.

٩٣- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنه قال: فضربهم ﴿ضَرْبًا﴾ لأن ﴿راغ عليهم﴾ بمعنى: ضربهم. أو: ﴿فراغ عليهم﴾ يضربهم ﴿ضَرْبًا﴾ أي: ضارباً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أي: ضرباً شديداً قوياً؛ لأنّ اليمين أقوى الجارحتين، وأشدّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذي سبق منه، وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٩٤- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم ﴿يَزْفُونَ﴾ يسرعون. من الزفيف، وهو: الإسراع ﴿يَزْفُونَ﴾: حمزة، من: أزف، إذا دخل في الزفيف، إزفافاً، وكأنه قد رآه بعضهم يكسرها، وبعضهم لم يره، فأقبل من رآه مسرعاً نحوه، ثم جاء من لم يره يكسرها، فقال لمن رآه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم: ﴿سَمِعْنَا قَتْلَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم بقوله:

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي
الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ

٩٥- ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم.

٩٦- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام؟ أو: ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: وخلق أعمالكم. وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟

٩٧- ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ﴾ أي: لأجله ﴿بُيُوتًا﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً ﴿فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة. وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم.

٩٨- ﴿فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ المهوورين عند الإلقاء.

٩٩- فخرج من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿سَيِّدِينَ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاح في ديني، ويعصمني، ويوفقني. ﴿سَيِّدِينَ﴾ فيهما: يعقوب.

١٠٠- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب في الولد.

١٠١- ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم؛ لأن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً؛ وأتى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم استسلم لذلك؟!.

١٠٢- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وحوائجه. و﴿معه﴾ لا يتعلق بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولا بالسعي؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال «فلما بلغ السعي» أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع من؟ قال: مع أبيه.

كَأَلْ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ ۖ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَلِلَّهِ لُجَيْنٌ ﴿١٠٣﴾ وَتَدْنِيْهُ أَنْ
يَتَابَرَهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا ۚ

وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿كَأَلْ يَبْنَىٰ﴾ حفص . والباقون بكسر الياء
﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ويفتح الياء فيهما: حجازي، وأبو عمرو، قيل له
في المنام: اذبح ابنك . ورؤيا الأنبياء وحي، كالوحي في اليقظة . وإنما لم يقل:
رأيت؛ لأنه رأى مرة بعد مرة . فقد قيل: رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له:
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِذَبْحِ ابْنِكَ هَذَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَوَى فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى
الرَّوْحِ: أَمِنَ اللَّهُ هَذَا الْحَلْمَ، أَمْ مِنَ الشَّيْطَانِ؟ فَمِنْ ثَمَّ سَمِيَ يَوْمَ التَّروِيَةِ، فَلَمَّا
أَمْسَى رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَعَرَفَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَمِنْ ثَمَّ سَمِيَ يَوْمَ عَرَفَةَ، ثَمَّ رَأَى
مِثْلَ ذَلِكَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَهَمَّ بِنَحْرِهِ، فَسَمِيَ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾
من الرأي على وجه المشاورة، لا من رؤية العين . ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه
ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ ﴿تُرَىٰ﴾: علي، وحمة، أي: ماذا
تبصر من رأيك، وتبديه ﴿قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ به . وقرئ
به ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح . رُوي: أَنَّ الذَّبِيحَ قَالَ لِأَبِيهِ:
يَا أَبَتُ! خُذْ بِنَاصِيَتِي، وَاجْلِسْ بَيْنَ كَتْفِي، حَتَّى لَا أَوْذِيكَ إِذَا أَصَابَتْنِي الشَّفَرَةُ،
وَلَا تَذْبَحْنِي وَأَنْتَ تَنْظُرُ فِي وَجْهِ، عَسَى أَنْ تَرْحَمَنِي، وَاجْعَلْ وَجْهِي إِلَى
الْأَرْضِ . وَيُرَوَّى: أَذْبَحْنِي وَأَنَا سَاجِدٌ، وَاقْرَأْ عَلَى أُمِّي سَلَامِي، وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ
تَرَدَّ قَمِيصِي عَلَى أُمِّي فَافْعَلْ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَسْهَلَ لَهَا .

١٠٣-١٠٥- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انقادا لأمر الله، وخضعا - وعن قتادة - رحمه الله -:
أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه - ﴿وَلِلَّهِ لُجَيْنٌ﴾ وصرعه على جبينه، ووضع السكين
على حلقه فلم يعمل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودي: يا
إبراهيم قد صدقت الرؤيا . رُوي أَنَّ ذَلِكَ الْمَكَانَ عِنْدَ الصَّخْرَةِ الَّتِي بِمَنَى .
وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف، تقديره: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَلِلَّهِ لُجَيْنٌ﴾ ﴿وَتَدْنِيْهُ أَنْ
يَتَابَرَهُمَا﴾ ﴿قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا﴾ - أي: حَقَّقَتْ مَا أَمْرُنَا بِهِ فِي الْمَنَامِ مِنْ تَسْلِيمِ
الْوَلَدِ لِلذَّبْحِ - كَانَ مَا كَانَ بِمَا يَنْطِقُ بِهِ الْحَالُ، وَلَا يَحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ مِنْ

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

استبشارهما، وحمدهما لله، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله. أو: الجواب: قبلنا منه، و: ﴿ناديناه﴾ معطوف عليه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتحويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة.

١٠٦- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم، أو: المحنة البينة.

١٠٧- ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ﴾ هو ما يذبح. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فُدي به إسماعيل. وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة، وذبح الناس أبناءهم ﴿عَظِيمٍ﴾ ضخمة الجنة، سمين. وهي السنة في الأضاحي. وروي: أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي. وروي: أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر، الله أكبر. وقال: الذبيح - عليه السلام -: لا إله إلا الله، والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، والله الحمد، فبقي سنة. وقد استشهد أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة.

والأظهر: أن الذبيح إسماعيل، وهو قول أبي بكر، وابن عباس، وابن عمر، وجماعة من التابعين - رضي الله عنهم - لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين»^(١) فأحدهما جدّه إسماعيل والآخر أبوه عبد الله. وذلك: أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرباً، وكان عبد الله آخراً ففداه بمئة من الإبل، ولأن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير. وعن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعي! أين عزب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحرج بمكة. وعن علي، وابن مسعود، والعباس، وجماعة من التابعين - رضي الله عنهم - أنه إسحاق. ويدلُّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا

- عليهما السلام -: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وإنما قال : ﴿وفدينا﴾ وإن كان الفادي إبراهيم - عليه السلام - والله تعالى هو الْمُفْتَدَى منه ؛ لأنه الأمر بالذبح ؛ لأنه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به . وها هنا إشكال : وهو أنه لا يخلو إما أن يكون ما أتى به إبراهيم - عليه السلام - من بطحه على شقه ، وإمرار الشفرة على حلقه في حُكْم الذبح أم لا ؟ فإن كان في حُكْم الذبح ، فما معنى الفداء ، والفداء هو : التخليص من الذبح ببدل ؟ وإن لم يكن ، فما معنى قوله : ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ ؟ وإنما كان يصدقها لو صَحَّ منه الذبح أصلاً أو بدلاً . ولم يصح . والجواب : أنه - عليه السلام - قد بذل وسعه ، وفعل ما يفعل الذابح ، ولكن الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه . وهذا لا يقدر في فعل إبراهيم - عليه السلام - ووهب الله له الكبش ليقم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل - عليه السلام - بدلاً منه . وليس هذا بنسخ للحكم ، كما قال البعض ، بل ذلك الحكم كان ثابتاً ، إلا أن المحل الذي أضيف إليه لم يحلّه الحكم على طريق الفداء دون النسخ ، وكان ذلك ابتلاء ليستقر حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال ، على أن المبتغى منه في حق الولد أن يصير قريباً بنسبة الحكم إليه ، مكرماً بالفداء الحاصل لمعزة الذبح ، مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة ، وإنما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله . وقد سمي فداء في الكتاب لا نسخاً .

١٠٨ ، ١٠٩ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا وقف عليه لأن : ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول ﴿وتركنا﴾ .

١١٠ - ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل إنا هنا كما في غيره ؛ لأنه قد سبق في هذه القصة ، فاستخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية .

١١١ ، ١١٢ - ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا ﴿١١١﴾ حال مقدرة من إسحاق . ولا بد من تقدير مضاف محذوف ، أي : ﴿وبشرناه به﴾ وجود

مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
 مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّصْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ
 الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾
 وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿إسحاق نبياً﴾، أي: بأن يوجد مقدرة نبوته، فالعامل في الحال الوجود لا فعل
 البشارة ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثانية. وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبي
 لا بد أن يكون من الصالحين.

١١٣ - ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا.
 وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرجنا من صلبه ألف
 نبي، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى - عليهم السلام - ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾
 مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كافر ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر. أو: محسن إلى الناس، وظالم
 على نفسه بتعديه عن حدود الشرع. وفيه تنبيه على أن الخبث والطيب لا يجري
 أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البرّ الفاجر، والفاجر البرّ، وهذا ممّا
 يهدم أمر الطبايع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعب
 ولا نقیصة، وأن المرء يعاب بسوء فعله، ويُعاقب على ما اجتاحت يده لا على
 ما وجد من أصله، أو فرعه.

١١٤ - ﴿وَلَقَدْ مَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ بالنبوة.

١١٥ - ﴿وَخَيَّصْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق،
 أو: من سلطان فرعون، وقومه، وغشهم.

١١٦ - ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي: موسى وهارون، وقومهما ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾
 على فرعون، وقومه.

١١٧ - ﴿وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ﴾ البليغ في بيانه، وهو: التوراة.

١١٨ - ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط
 الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرَبِ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِلْيَاسَ ﴿١٣٠﴾

١١٩-١٢٣ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى. وقيل: هو
إدريس النبي - عليه السلام.. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وَإِنَّ
إدريس) في موضع ﴿إلياس﴾.

١٢٤ - ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَلَا تخافون الله!.

١٢٥ - ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ - هو علم لصنم كان من ذهب. وكان
طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه. فتنوا به، وعظموه حتى أخدموه أربعمئة
سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان بموضعهم يقال له بك، فركب وصار بعلبك،
وهو من بلاد الشام - وقيل: إلياس مُوَكَّلٌ بالفيافي، كما وكل الخضر بالبحار.
والحسن يقول: قد هلك إلياس والخضر، ولا نقول كما يقول الناس: إنهما
حَيَّان ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن
المقدِّرين!؟.

١٢٦ - ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بنصب الكل: عراقي غير أبي
بكر، وأبي عمرو، على البدل من ﴿أحسن﴾. وغيرهم بالرفع على الابتداء.
١٢٧، ١٢٨ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من
قومه.

١٢٩، ١٣٠ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرَبِ﴾ * سَلَّمْ عَلَىٰ إِلْيَاسَ ﴿١٢٩﴾ أي: إلياس وقومه
المؤمنين، كقولهم: الخبيون، يعني: أبا خبيب عبد الله بن الزبير، وقومه ﴿آل
ياسين﴾: شامي، ونافع؛ لأن ياسين اسم أبي الياس، فأضيف إليه الآل.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٤٠﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِنُكْزِلَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٤٢﴾ لَنَمُرُونَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٤٣﴾ وَيَالَيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٥﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٦﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٧﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٨﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٩﴾

١٣١ - ١٣٥ - ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٤٠﴾ في الباقيين .

١٣٦ - ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا﴾ أَهْلَكْنَا ﴿الْآخَرِينَ﴾ .

١٣٧ - ﴿وَلِنُكْزِلَ﴾ يا أهل مكة ﴿لَنَمُرُونَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح .

١٣٨ - ﴿وَيَالَيْلٍ﴾ والوقف عليه مطلق ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني : تمرّون على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها؟! وإنما لم يختتم قصّة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصّة من قبلهما؛ لأنّ الله تعالى قد سلّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتمى بذلك عن ذكر كلّ واحد منفرداً بالسلام .

١٣٩ ، ١٤٠ - ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ أَبَقَ ﴿الإباق﴾ : الهرب إلى حيث لا يُهْتَدَى إليه الطلب، فَسُمِّيَ هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء . وكان يونس - عليه السلام - وعد قومه العذاب . فلَمَّا تأخّر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم . فقصّد البحر، وركب السفينة، فوفقت، فقالوا: ها هنا عبد أبى من سيّده . وفيما يزعم البحّارون أنّ السفينة إذا كان فيها أبى لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس - عليه السلام - فقال: أنا الأبق، وزجّ بنفسه في الماء . فذلك قوله :

١٤١ - ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعهم مرّة أو: ثلاثاً بالسهم . والمساهمة : إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلّوبين بالقرعة .

١٤٢ - ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ فابتلعه ﴿الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة .

١٤٣ - ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، أو :

لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَامْتَنَوْا فَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَاكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

من القائلين: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أو: من المصلين قبل ذلك. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - كل تسبيح في القرآن فهو صلاة. ويقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

١٤٤ - ﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الظاهر لبثه حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. وقد لبث في بطنه ثلاثة أيام، أو: سبعة، أو: أربعين يوماً. وعن الشعبي - رحمه الله -: التقمه ضحوة، وَلَفَّظَهُ عَشِيَّةً.

١٤٥ - ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا بناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت. وروى: أنه عاد بدنه كبذن الصبي حين يولد.

١٤٦ - ﴿وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أنبتناها فوقه مظلة له، كما كان يطنّب البيت على الإنسان ﴿مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ الجمهور على أنه القرع. وفائدته: أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع. قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»^(١).

١٤٧ - ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ﴾ المراد به: القوم الذين بعث إليهم قبل الانتقام. فيكون قد مضى في مرأى الناظر، إذا رآها الرائي قال هي: مئة ألف أو أكثر. وقال الزجاج: قال غير واحد: معناها: بل يزيدون. قال ذلك الفراء وأبو عبيدة. ونقل عن ابن عباس كذلك.

١٤٨ - ﴿فَامْتَنُوا﴾ به، وبما أرسل به ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالهم.

١٤٩ - ﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَاكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ معطوف على مثله في أول السورة، أي: على ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الصافات: ١١] وإن تباعدت

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنْنًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

بينهما المسافة. أَمَرَ رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً ببعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها، حيث جعلوا الله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراحتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهن.

١٥٠- ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنْنًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ حاضرون. تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل؛ لأنه كما لم يعلموا ذلك مشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. أو: معناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقهم.

١٥١، ١٥٢- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم.

١٥٣- ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام. وهو استفهام توبيخ. وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمة الاستفهام.

١٥٤- ﴿مَا لَكُمْ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد.

١٥٥- ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي، وحفص.

١٥٦- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله.

١٥٧- ﴿فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١٥٨- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿نِسْبًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته. وقالوا: إِنَّ الله تزوّج من الجن، فولدت له الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار.

سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ
بِقَدَرٍ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

١٥٩ - ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ نزه نفسه عن الولد، والصاحبة.

١٦٠ - ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن
المخلصين ناجون من النار. و﴿سبحان الله﴾ اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع
منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من واو ﴿يصفون﴾ أي: يصفه هؤلاء بذلك.
ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه به.

١٦١-١٦٣ - ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبوديكم ﴿مَا أَنتُمْ﴾ وهم
جميعاً ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِقَدَرٍ﴾ بمضلين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام،
أي: لستم تصلون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء
أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. يقال: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول:
أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من
الأصنام، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً إلا من قدر عليه أن يصلى
البحيم، أي: يدخل النار. وقيل: ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه
الضلال في السابقة. و: ﴿ما﴾ في ﴿ما أنتم﴾ نافية. و﴿من﴾ في موضع النصب
بـ ﴿فانتين﴾. وقرأ الحسن: ﴿صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ بضم اللام، ووجهه أن يكون
جمعاً فحذفت النون للإضافة، وحذف الواو لالتقاء الساكنين، هي واللام في:
﴿البحيم﴾ و﴿من﴾ موحد اللفظ مجموع المعنى، فحمل ﴿هو﴾ على لفظه،
والصالون على معناه.

١٦٤ - ﴿وَمَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ في العبادة لا يتجاوزه، فحذف
الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه.

١٦٥ - ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ نصف أقدامنا في الصلاة، أو: نصف حول العرش
داعين للمؤمنين.

١٦٦ - ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون، أو: المصلون. والوجه: أن يكون هذا

وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾

وما قبله من قوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ كأنه قيل: ولقد علم الملائكة، وشهدوا: أَنَّ المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة، وقالوا ﴿سبحان الله﴾ فنزّهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّؤوهم منه، وقالوا للكفرة: وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلّوه إلاّ مَنْ كان من أهل النار، وكيف نكون مناسيين لرب العزة، وما نحن إلاّ عبيد أذلاء بين يديه، لكلّ منا مقام معلوم من الطاعة، لا يستطيع أن يزلّ عنه ظفراً خشوعاً لعظمته، ونحن الصّافون أقدامنا لعبادته، مسبّحين، ممجّدين، كما يجب على العباد لربهم. وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ، يعني: وما من المسلمين أحد إلاّ له المقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ثم ذكر أعمالهم، وأنهم الذين يصطفون في الصلاة، ويسبّحون الله، وينزّهونه عما لا يجوز عليه.

١٦٧ - ١٧٠ - ﴿وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ﴾ أي: مشركو قريش قبل مبعثه ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولا خالفنا كما خالفوا. فجاءهم الذكر الذي هو سيّد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبة تكذيبهم، وما يحلّ بهم من الانتقام. ﴿وَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكّدين للقول، جادّين فيه، فكم بين أول أمرهم وآخره!

١٧١ - ١٧٣ - ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الكلمة قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَأَن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. وإنما سمّاها كلمة، وهي كلمات؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد، كانت في حكم كلمة مفردة. والمراد: الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في

فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ

الآخرة. وعن الحسن: ما غلب نبي في حرب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى. والحاصل: أنَّ قاعدة أمرهم، وأساسه، والغالب منه: الظفر، والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، والمحنة. والعبرة للغالب.

١٧٤- ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة يسيرة، وهي المدة التي أمهلوا فيها، أو: إلى يوم بدر، أو: إلى فتح مكة.

١٧٥- ﴿وَأَبْصَرْتُمْ﴾ أي: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ ذلك. وهو للوعيد لا للتبديد. أو: انظر إليهم إذا عذبوا ﴿فسوف يبصرون﴾ ما أنكروا، أو: أعلمهم فسوف يعلمون.

١٧٦- ﴿أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قبل حينه؟

١٧٧- ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ﴾ بفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ صباحهم. واللام في: ﴿المنذرين﴾ مبهم في جنس ما أنذروا؛ لأنَّ ساء وبش يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. مثل العذاب النازل بهم - بعد ما أنذروه فأنكروه - بجيش أنذر بهجومه قومه بعضُ نصّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارة. وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً، فسميت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر.

١٧٨، ١٧٩- ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ * وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾ وإنما ثنى ليكون تسلية على تسلية، وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة، وهي: إطلاق الفعلين معاً عن التقيد بالمفعول، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالأخر: عذاب الآخرة.

١٨٠- ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها؛ كأنه

﴿١٨٠﴾ وَمَا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾

قيل: ذو العزة، كما نقول: صاحب صدق؛ لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يُراد أنه ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها، كقوله: ﴿تُعْزُ مِنْ نَشَأْ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والصاحبة، والشريك.

١٨١- ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ عمّ الرسل بالسلام بعد ما خصّ البعض في السورة؛ لأنّ في تخصيص كلّ بالذكر تطويلاً.

١٨٢- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله، ونسبوه إليه ممّا هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولّوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عمّا وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لربّ العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب. والمراد: تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

وعن عليّ - رضي الله عنه -: من أحبّ أن يكتال بالملكيات الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سبحان ربك...﴾ إلى آخر السورة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَـ

١- ﴿ص﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي، والتنبيه على الإعجاز. ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي الشرف إنه لكلام معجز. ويجوز أن يكون ﴿ص﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنه اسم للسورة، كأنه قال: هذه ﴿ص﴾ أي: هذه السورة التي أعجزت العرب ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ كما تقول: هذا حاتم والله. تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله. وكذلك إذا أقسم بها، كأنه قال: أقسمت بص القرآن ذي الذكر إنه لمعجز. ثم قال:

٢- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ﴾ تكبر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحق ﴿وشقاق﴾ خلاف لله ولرسوله. والتنكير في: ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، وتفاقمهما. وقرىء ﴿في غيرة﴾ أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر، واتباع الحق.

٣- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوي العزة، والشقاق ﴿من قبلهم﴾ من قبل قومك ﴿من قرن﴾ أمة ﴿فنادوا﴾ فدعوا، واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿ولآت﴾ هي

حِينَ مَنَاصٍ ﴿٢﴾ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ أَجْعَلِ
الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

«لا» المشتبهة بـ «ليس» زيدت عليها تاء التأنيث، كما زيدت على «رب» و«ثم» للتوكيد. وتغير بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يبرز إلا أحد مقتضيهما، إما الاسم أو الخبر، وامتنع بـ «و» جمعاً. وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها «لا» النافية للجنس، زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان. وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منجى منصوب بها، كأنك قلت: ولا حين مناص لهم. وعندهما أن النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص.

٤ - ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ من أن جاءهم ﴿مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رسول من أنفسهم يعني: استبعدوا أن يكون النبي من البشر ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

٥ - ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر، المنهمكون في الغي، إذ لا كفر أبلغ من أن يسموا من صدقه الله: كاذباً ساحراً، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الأبلج، ولا يتعجبوا من الشرك، وهو باطلٌ لجلج. روي: أن عمر - رضي الله عنه - لما أسلم فرح به المؤمنون، وشق على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء - يريدون الذين دخلوا في الإسلام - وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا بن أخي! هؤلاء قومك يسألونك سؤالاً فلا تمل كل الميل على قومك. فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تسألوني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهمنا، وتدعك وإلهك. فقال ﷺ: «أعطيني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» قالوا: نعم، وعشراً. أي: نعطيكمها وعشر كلمات معها. فقال: «قولوا: لا إله إلا الله». فقاموا، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟﴾ - أي: أصير - ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(١) أي:

(١) رواه أحمد (٣٦٢/١) والترمذي (٣٢٣٢) والحاكم (٤٣٢/٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ﴿٧﴾ أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي
بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

بليغ في العجب. وقيل: العجيب ماله مثل، والعجاب ما لا مثل له.

٦- ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب،
بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد، قائلين بعضهم لبعض: ﴿أمشوا﴾
و«أن» بمعنى أي؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا،
ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم متضمنًا معنى القول ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ﴾
عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الأمر ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريد الله تعالى، ويحكم
بإمضائه، فلا مرد له، ولا ينفع فيه إلا الصبر. أو: إن هذا الأمر لشيء من
نوائب الدهر يراد بنا، فلا انفكاك لنا منه.

٧- ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالتوحيد ﴿فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾ في ملة عيسى؛ التي هي آخر
الملل؛ لأن النصراني مثلثة غير موحدة، أو: في ملة قريش التي أدركنا عليها
آباءنا ﴿إِنْ هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا خُلُقٌ﴾ كذب اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه.

٨- ﴿أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾؟! أنكروا أن يختص بالشرف من
بين أشرافهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من
القرآن ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم
من الشك، والحسد حينئذ، أي: إنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب
فيصدقون حينئذ.

٩- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يعني: ما هم بمالكي خزائن
الرحمة حتى يصيبوا بها من شأؤوا، أو يصرفوها عمّن شأؤوا، ويتخيروا للنبوة
بعض صناديدهم، ويرفعوا بها عن محمد. وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها
العزیز القاهر على خلقه، الوهاب الكثير المواهب، المصيب بها مواقعها، الذي
يقسمها على ما تقتضيه حكمته. ثم رشح هذا المعنى فقال:

١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يتكلموا في الأمور الزبانية،

فَلْيَرْقُؤْا فِي الْأَسْبَبِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ

والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء. ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة ﴿فَلْيَرْقُؤْا فِي الْأَسْبَبِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى السماء، حتى يدبروا أمر العالم، وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون. ثم وعد نبيه ﷺ النصر عليهم بقوله:

١١- ﴿جُنْدٌ﴾ مبتدأ. ﴿مَا﴾ صلة مقوية للنكرة المبتدأة ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر، ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك. خبر المبتدأ ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ متعلق بجند، أو: بمهزوم. يريد: ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسول الله مهزوم عما قريب، فلا تبال بما يقولون، ولا تكثر لما به يهدون.

١٢- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿ذُو الْأَوْدَادِ﴾. قيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه، وقيل: يوتد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه.

١٣- ﴿وَتَمُودُ﴾ - وهم قوم صالح - صالحاً ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً ﴿وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾: الغيضة شعيباً ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أراد بهذه الإشارة: الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب.

١٤- ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ﴾ ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، حيث لم يبين المكذب، ثم جاء بالجملة الاستثنائية، فأوضحه فيها، وبين المكذب وهم الرسل، وذكر أن كل واحد من الأحزاب كذب جميع

فَحَقَّقَ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ

الرسول؛ لأن في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتحاد دعوتهم. وفي تكرير التكذيب، وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب، وأبلغه. ثم قال: ﴿فَحَقَّقَ عِقَابِ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم. (عذابي) (عقابي) في الحالين: يعقوب.

١٥- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ وما ينتظر أهل مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: النفخة الأولى، وهي: الفرع الأكبر ﴿مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ وبالضم: حمزة وعلي، أي: ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلتبي الحالب، أي: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما لها من رجوع وترداد، من: أفاق المريض: إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة: ساعة يرجع الدر إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب، لا تشتى، ولا تردّد.

١٦- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا﴾ حظنا من الجنة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ذكر وعد الله المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزاء: ﴿عَجِّلْ لَنَا﴾ نصيبنا منها، أو: نصيبنا من العذاب الذي وعده، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وأصل القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من: قطه: إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

١٧- ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فيك، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم، وتحمل أذاهم ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة، فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة في الدين ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليل لذي الأيد. روي: أنه كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وهو أشد الصوم، ويقوم نصف الليل.

١٨- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذللنا ﴿الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. قيل: كان تسخيرها أنها تسير معه

يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ ۖ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً ۖ كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَايَتْنَاهُ
الْحِكْمَةَ وَفَصَّلِ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾

- إذا أراد سيرها - إلى حيث يريد ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى: مسَبَّحات، على الحال. واختار ﴿يسبحن﴾ على مسَبَّحات؛ ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: في طرفي النهار. والعشي: وقت العصر إلى الليل، والإشراق: وقت الإشراف، وهو حين تُشرق الشمس، أي: تضيء، وهو وقت الضحى. وأما شروقها: فطلوعها، تقول: شرقت الشمس ولما تُشرق. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية.

١٩- ﴿وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً﴾ وسَخَرْنَا ﴿الطَّيْرِ﴾ مجموعة من كل ناحية. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان إذا سَبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسَبَّحت؛ فذلك حشرها ﴿كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسييحه مسَبَّح؛ لأنها كانت تُسَبِّح لتسييحه ووضع الأواب موضع المسَبَّح؛ لأن الأواب، وهو التواب، الكثير الرجوع إلى الله، وطلب مرضاته من عاداته أن يكثر ذكر الله، ويدم تسييحه، وتقديسه. وقيل: الضمير لله، أي: كل من داود والجبال والطير لله أواب، أي: مسَبَّح، مرجع للتسبيح.

٢٠- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ قوَّيناه. قيل: كان بيتٌ حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل يجرسونه ﴿وَأَيَّتْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ الزبور، وعلم الشرائع. وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة ﴿وَفَصَّلِ الْخُطَابِ﴾ علم القضاء، وقطع الخصام، والفصل بين الحق والباطل. والفصل هو: التمييز بين الشئين. وقيل للكلام البين: فصل؛ بمعنى المفاصل؛ كضرب الأمير. وفصل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه. وجاز أن يكون الفصل بمعنى الفاصل؛ كالصَّوم والزَّور. والمزاد بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب؛ الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل. وهو كلامه في القضايا، والحكومات، وتدابير الملك، والمشورات. وعن علي - رضي الله

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَرُ يَنْتَنَّا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ﴿٢٢﴾

عنه -: هو الحكم بالبيّنة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل. وعن الشعبي: هو قوله أما بعد، وهو أوّل من قال أما بعد، فإنّ من تكلم في الأمر الذي له شأن يفتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

٢١- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: الدلالة على أنّه من الأنبياء العجيبة. والخصم: الخصماء. وهو يقع على الواحد والجمع؛ لأنّه مصدر في الجمع^(١) تقول: خصمه خصماً. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بمحذوف، تقديره: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ﴾ تحاكم ﴿الخصم﴾، أو: بالخصم لما فيه من معنى الفعل ﴿سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سوره، ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع. والمحراب: الغرفة، أو: المسجد، أو: صدر المسجد.

٢٢- ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى. ﴿دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي: أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلوا عليه، فوجداه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس، فتسوّرا عليه المحراب، فلم يشعر إلّا وهما بين يديه جالسان ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن ﴿خصمان﴾ ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ تعدّى، وظلم ﴿فَأَخَرُ يَنْتَنَّا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ﴾ ولا تجر، من: الشطط، وهو: مجاوزة الحد، وتخطي الحق ﴿وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق، ومحجّته، والمراد: عين الحق، ومحضه. رُوي: أنّ أهل زمان داود - عليه السلام - كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبت، وكان لهم عادة في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أنّ عين داود - عليه السلام - وقعت على امرأة

إِنَّ هَذَا أَخِي

أوريا فأحبّها، فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يرده، ففعل، فتزوّجها، وهي أم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك، وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول [عنها لك] ^(١) بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا، ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكانت زلتة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزاة اللقاء ^(٢)، وأحب أن يقتل ليتزوّجها فلا يليق من المتسمين بالصالح من أفناء المسلمين ^(٣) فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال عليّ - رضي الله عنه -: من حدّثكم بحديث داود - عليه السلام - على ما يرويه القصّاص جلدته مئة وستين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء - عليهم السلام - . وروى: أنّه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحقّ، فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصّة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك! وإن كانت على ما ذكرت، وكفّ الله عنها سترأ على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس.

والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصّته - عليه السلام - ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. وإنّما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح؛ لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أذاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكّناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

٢٣ - ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ هو بدل من هذا، أو: خبر لأنّ. والمراد: أخوة الدين، أو: أخوة الصداقة والألفة، أو: أخوة الشركة والخلطة؛ لقوله: ﴿وإن كثيراً من

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) «اللقاء»: مدينة بالشام.

(٣) «أفناء المسلمين»: يقال: هو من أفناء الناس؛ إذا لم يعلم ممن هو.

لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ

الخطاء ﴿لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١): ﴿وَلِي﴾ حفص. والنعجة: كناية عن المرأة^(٢). ولما كان هذا تصويراً للمسألة، وفرضاً لها لا يمتنع أن يفرض الملائكة في أنفسهم، كما تقول: لي أربعون شاة ولك أربعون، فخلطناها، ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعا ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: اجعلها كفلي، أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبنني - يقال: عزه، يعزّه - ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ في الخصومة، أي: أنه كان أقدر على الاحتجاج مني. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاجّ المجادل، أو: أراد خطبت المرأة، وخطبها هو، فخاطبني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبنني حيث زوّجها دوني. ووجه التمثيل: أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، وخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمّة المئة، فطمع في نعجة خليطه، وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجّه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

٢٤- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ حتّى يكون محجوباً بحكمه. وهذا جواب قسم محذوف. وفي ذلك استنكارٌ لفعل خليطه. والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول. وقد ضمن معنى الإضافة، فعدي تعديتها، كأنه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب. وإنما ظلّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه، ولكنه لم يُخك في القرآن لأنّه معلوم. ويروى: أنّه قال: أنا أريد أن آخذها منه، وأكمل نعاجي مئة. فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة ﴿وَلِي﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٥/٢٦١).

(٢) الصواب أن يبقى التفسير على ظاهر القرآن، وحقيقة ما ورد فيه من أن الخصمين بشران، وأن النعاج شياه. انظر: تفسير الرازي (١٨٩/٢٦) والبحر المحيط (٣٩١/٧).

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة، فقال: يا داود! أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا؛ وأنت فعلت كيت وكيت. ثم نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ﴾ الشركاء، والأصحاب ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المستثنى منصوب، وهو من الجنس. والمستثنى منه ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما» للإبهام، و﴿هَمْ﴾ مبتدأ. و﴿قليل﴾ خبره ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أي: علم، وأيقن. وإنما استعير له؛ لأن الظنَّ الغالب يداني العلم ﴿أَتَمَّا فَتَنَّهُ﴾ ابتليناه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لزلته ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: سقط على وجهه ساجداً لله. وفيه دليل على أن الركوع يقوم مقام السجود في الصلاة إذا نوى؛ لأن المراد مجزء ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة. والركوع في الصلاة يعمل هذا العمل، بخلاف الركوع في غير الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة. ورؤي: أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة، لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو: مالا بد منه، ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه، ولم يشرب ماء إلا وثلاثه دمع.

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: زلته ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُرْبَةً ﴿وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ مرجع، وهو: الجنة.

٢٦- ﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، أو: جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله إذ كنت خليفة، أو: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في قضائك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ دينه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي: بنسيانهم يوم العذاب.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَذَّبَ أَتْرَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ

٢٧- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق. ﴿بَطْلًا﴾ خلقاً باطلاً، لا لحكمة بالغة، أو: مبطلين عابثين. كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] وتقديره: ذوي باطل، أو: عبثاً، فوضع باطلاً موضعاً، أي: ما خلقناها وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المتين، وهو: أنا خلقنا نفوساً أودعناها العقل، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها، ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظن بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما؛ بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] لأنه لما كان إنكارهم للبعث، والحساب، والثواب، والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل، جُعلوا كأنهم يظنون ذلك، ويقولونه؛ لأنَّ الجزاء هو الذي سيقى إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحد جحد الحكمة في خلق العالم ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

٢٨- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار. والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكفار لاستوت أحوال من أصلح، وأفسد، واتقى، وفجر. ومن سوى بينهم كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً.

٢٩- ﴿كَذَّبَ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَتْرَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿مُبْرَكٌ﴾ صفة أخرى ﴿لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾ وأصله: ﴿ليتدبروا﴾. وقرئ به، ومعناه: ليتفكروا فيها، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به. عن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيّعوا حدوده. ﴿لتدبروا﴾

وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي

على الخطاب بحذف إحدى التاءين: يزيد ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وليتعض بالقرآن أولو العقول.

٣٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعِمَ الْعَبْدُ﴾ أي: سليمان. وقيل: داود، وليس بالوجه، فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى.

٣١- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان. ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّفِيفَتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر ﴿الْجَيَادُ﴾ السراع جمع جواد؛ لأنه يجود بالركض، وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجن، وإنما هو في العراب. وقيل: وصفها بالصفون وبالجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: الجياد، الطوال الأعناق، من الجيد. روي: أن سليمان - عليه السلام - غزا أهل دمشق ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلى الظهر على كرسيه، واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر. وكانت فرضاً عليه، فاغتم لما فاته فاستردّها، وعقرها تقريباً لله وبقي مئة، فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها. وقيل: لما عقرها أبدله خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره.

٣٢- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: أثرت حب الخيل عن ذكر ربّي، كذا عن الزجاج. فأحببت بمعنى: أثرت، كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] و ﴿عن﴾ بمعنى على. وسمى الخيل خيراً لأنها نفس الخير؛ لتعلق الخير بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١). وقال أبو علي - رحمه الله -: ﴿أحببت﴾ بمعنى

حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

جلست، من: إحياب البعير، وهو بروكه ﴿حَبَّ الْخَيْرِ﴾ مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾. والذي دلَّ على أَنَّ الضمير للشمس مرور ذكر العشي ولا بدَّ للمضمر من جزي ذكر، أو: دليل ذكر. أو: الضمير لـ «الصفافنات»، أي: حتى توارت بحجاب الليل، يعني: الظلام.

٣٣- ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أي: قال للملائكة: ردّوا الشمس عليّ لأصلي العصر. فَرُدَّتِ الشمس له، وصلى العصر. أو: ردّوا الصفافنات ﴿فَنُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يمسح ﴿مَسْحًا﴾ أي: يمسح السيف بسوقها - وهي جمع ساق، كدار ودور - وأعناقها. يعني: يقطعها؛ لأنها منعه عن الصلاة. تقول: مسح علاوته: إذا ضرب عنقه. ومسح المسفر الكتاب^(١): إذا قطع أطرافه بسيفه، وقيل: إنما فعل ذلك كفارة لها، أو: شكرًا لردّ الشمس. وكانت الخيل مأكولة في شريعته، فلم يكن إتلافًا. وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ سرير ملكه ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله. قيل: فتن سليمان - عليه السلام - بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته: أنّه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم نفك من السخرة، فسييلنا أن نقتله، أو: نُحَبِّلَهُ. فعلم ذلك سليمان - عليه السلام - فكان يغذوه^(٢) في السحابة خوفاً من مضرة الشياطين، فألفى ولده ميتاً على كرسية، فتنبه على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه. وروى عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، فجيء به على كرسية،

(١) في الصحاح: سمرت الكتاب أسفره سفراً. وسمرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر

الصبح: أي: أضواء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق.

(٢) «يغذوه»: غذوت الصبي باللبن؛ أي: ربيته به فاغتنى.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ
الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

فوضع في حجره. فوالذي نفس محمد بيده! لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل
الله فرساناً أجمعون»^(١). وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشیطان وعبادة الوثن
في بيت سليمان - عليه السلام - فمن أباطيل اليهود.

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قدّم الاستغفار على استيهاب الملك، جرياً
على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال ﴿لَا
يَنْبَغِي﴾ لا يتسهّل، ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: دوني. وبفتح الباء:
مدني، وأبو عمرو. وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً. وكان
قبل ذلك لم يُسَخَّرْ له الريح والشیاطين، فلما دعا بذلك سُخِّرَتْ له الريح
والشیاطين. وأن يكون معجزة حتى يخرج العادات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

٣٦- ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ (الرياح): أبو جعفر ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح
﴿بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان. ﴿رُحَاءَ﴾ لينة طيبة، لا تزعزع. وهو حال من ضمير
﴿تَجْرِي﴾ ﴿حَيْثُ﴾ ظرف تجري ﴿أَصَابَ﴾ قصد، وأراد. والعرب تقول:
أصاب الصواب، وأخطأ الجواب.

٣٧- ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح، أي: وسخّرنا له الشیاطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾
بدل من ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿وَعَوَّاصٍ﴾ أي:
ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من
البحر. والمعنى: سخّرنا له ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ من الشیاطين.

٣٨- ﴿وَعَاخِرِينَ﴾ عطف على ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ داخل في حكم البدل ﴿مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ﴾ وكان يقرن مردة الشیاطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل
للتأديب، والكفّ عن الفساد. والصفّد: القيد. وسُمّي به العطاء لأنه ارتباط
للمنعم عليه. ومنه قول عليّ - رضي الله عنه -: من برك فقد أسرك، ومن
جفاك فقد أطلقك.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحَسَنَ مَقَابٍ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ

٣٩- ﴿هَذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك، والمال، والبسطة ﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت، من: المنة، وهي: العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن الإعطاء - وكان إذا أعطى أجراً، وإن منع لم يَأثم بخلاف غيره - ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿عَطَاؤُنَا﴾ وقيل: هو حال منه، أي: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ جمّاً كثيراً، لا يكاد يقدر على حصره. أو: ﴿هَذَا﴾ التسخير ﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ على من شئت من الشياطين بالإطلاق ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت منهم في الوثاق ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك.

٤٠- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحَسَنَ مَقَابٍ﴾ ﴿لُزْفًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ والخبر ﴿له﴾ والعامل في ﴿عند﴾ الخبر.

٤١- ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو بدل من ﴿عبدنا﴾ أو: عطف بيان ﴿إِذْ﴾ بدل اشتغال منه ﴿نَادَى رَبَّهُ﴾ دعاه ﴿أَنِّي مَسْنِي﴾ بأنني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال: بأنه مسه؛ لأنه غائب ﴿الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ﴾ قراءة العامة: ﴿يَنْصُبْ﴾ يزيد: بتشكيل نُصْب ﴿يَنْصُبْ﴾ كرشد ورشد: يعقوب ﴿يَنْصُبْ﴾ على أصل المصدر: هبيرة، والمعنى واحد، وهو: التعب، والمشقة ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم. يريد: مرضه، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب^(١)، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو: بالتوفيق في دفعه، وردّه بالصبر الجميل. ورُوي: أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين، فارتد أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه: أنه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى منكراً فسكت عنه، أو: ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلة سبقت منه.

٤٢- ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب - عليه السلام - أي: أرسلنا

(١) «الوصب»: المرض.

هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
أَوَابٌ ﴿٤٤﴾

إليه جبريل - عليه السلام - فقال له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب برجلك الأرض، وهي أرض الجابية^(١)، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به، وتشرب منه، فيراً باطنك وظاهره. وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله.

٤٣ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاده مثلهم ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مفعول لهما، أي: الهبة كانت للرحمة له، ولتذكير أولي الألباب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء.

٤٤ - ﴿وَخُذْ﴾ - معطوف على ﴿اركض﴾ - ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حُزْمَةٌ صغيرة من حشيش، أو: رِيحَان، أو: غير ذلك. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قبضة من الشجر ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ وكان حلف في مرضه ليضربن امرأته مئة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها؛ لحسن خدمتها إياه. وهذه الرخصة باقية. ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المئة. والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فخرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتها برغيفين، وكانتا متعلقن أيوب - عليه السلام - إذا قام! ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ علمناه ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء. نعم قد شكنا إليه ما به، واسترحمه، لكن الشكوى إلى الله لا تسمى جزعاً، فقد قال يعقوب - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] على أنه - عليه السلام - كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم: أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب - عليه السلام - ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ
ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾

٤٥- ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿عبدنا﴾: مكي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فمن جمع
إبراهيم ومن بعده عطف بيان لـ: ﴿عبدنا﴾، ومن وحد فإبراهيم - عليه
السلام - وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على ﴿عبدنا﴾. ولما كانت أكثر
الأعمال تباشر بالأيدي غُلِبَتْ، فقليل في كل عمل: هذا مما عملت أيديهم، وإن
كان عملاً لا تتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو: كان العمال جذماً لا أيدي لهم،
وعلى هذا ورد قوله: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي: أولي الأعمال، والفكر؛ كأن
الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكار ذوي
الديانات في حكم الزماني، الذين لا يقدرّون على إعمال جوارحهم، والمسلوبي
العقول الذين لا استبصار لهم. أو فيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله،
ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل، مع كونهم
متمكّنين منهما.

٤٦- ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخالصة خالصة،
لا شوب فيها ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿ذكرى﴾: في محلّ النصب، أو: الرفع بإضمار:
أعني، أو: هي، أو الجر على البدل من ﴿خالصة﴾ والمعنى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾
بـ ﴿ذكرى الدار﴾ و﴿الدار﴾ هنا: الدار الآخرة، يعني: جعلناهم لنا خالصين
بأن جعلناهم يذكرون الناس الدار الآخرة، ويزهّدونهم في الدنيا، كما هو ديدن
الأنبياء - عليهم السلام - . أو: معناه: أنهم يكثرّون ذكر الآخرة، والرجوع إلى
الله، وينسون ذكر الدنيا. ﴿بخالصة ذكرى﴾ على الإضافة: مدني وهي من
إضافة الشيء إلى ما يبيته؛ لأنّ الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى. و﴿ذكرى﴾
مصدر ومضاف إلى المفعول، أي: بأن خلص ذكرى الدار. وقيل: ﴿خالصة﴾
بمعنى خلوص، فهي مضافة إلى الفاعل، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار،
على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر، إنّما همتهم ذكرى الدار لا غير.
وقيل: ﴿ذكرى الدار﴾ الثناء الجميل في الدنيا، وهذا شيء قد أخلصهم به،
فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به، يقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِسَانًا
صَدِيقًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وَلَا تُهَمُّ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ ﴿٥٢﴾ أَرْابٌ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾

٤٧- ﴿وَلَا تُهَمُّ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير، أو: خير على التخفيف، كأموات في جمع ميت، أو: ميت.

٤٨- ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ كَأَنَّ حرف التعريف دخل على يسع ﴿وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، أي: وكلهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

٤٩- ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ أي: ﴿هذا﴾ شرف، وذكر جميل، يذكرون به أبداً. ﴿وَإِنَّ﴾ لهم مع ذلك لحسن مرجع، يعني: يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة رب جليل. ثم بين كيفية حسن ذلك المرجع، فقال:

٥٠- ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿حَسَنَ مَّآبٍ﴾ ﴿مُّفْتَحَةٌ﴾ حال من ﴿جَنَّاتٍ﴾ لأنها معرفة لإضافتها إلى ﴿عَدْنٍ﴾ وهو علم، والعامل فيها ما في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من معنى الفعل ﴿لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ارتفاع الأبواب بأنها فاعل ﴿مُّفْتَحَةٌ﴾ والعائد محذوف، أي: ﴿مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ منها، فحذف كما حذف في قوله: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٩] أي: لهم. أو: أبوابها، إلا أن الأول أجود. أو: هي بدل من الضمير في ﴿مُّفْتَحَةٌ﴾ وهو ضمير الجئات، تقديره: مفتحة هي ﴿الأبواب﴾ وهو من بدل الاشتمال.

٥١- ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من المجرور في ﴿لَهُمُ﴾ والعامل ﴿مُّفْتَحَةٌ﴾ ﴿فِيهَا يَدْعُونَ﴾ فيها بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: ﴿وشراب﴾ كثير، فحذف اكتفاء بالأول.

٥٢- ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن ﴿أَرْابٌ﴾ لِدَاتٍ أسنانهن كآسنانهم؛ لأنَّ التحاب بين الأقران أثبت؛ وكأنَّ اللدات سمين أتراباً؛ لأنَّ التراب مسهن في وقت واحد.

٥٣- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالباء: مكّي، وأبو عمرو ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: ليوم تجزى كل نفس بما عملت.

إِنَّ هَذَا الرَّزْقُ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُونَ
الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ
مُتَّحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ

٥٤- ﴿إِنَّ هَذَا الرَّزْقُ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ من انقطاع. والجملة حال من الرزق،
والعامل الإشارة.

٥٥- ﴿هَذَا﴾ خبر، والمبتدأ محذوف، أي: الأمر هذا، أو: هذا كما ذكر
﴿وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ﴾ مرجع.

٥٦- ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل منه ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَيَنْسُونَ الْمِهَادُ﴾ شبه ما تحتهم من
النار بالمهاد الذي يفرشه النائم.

٥٧- ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: هذا حميم وغساق فيلذوقوه. فهذا:
مبتدأ، و﴿حميم﴾ خبره، ﴿وغساق﴾ عطف على الخبر، ﴿فليذوقوه﴾ اعتراض.
أو: العذب ﴿هذا فليذوقوه﴾ ثم ابتداء فقال: هو ﴿حميم﴾ ﴿وغساق﴾
بالتشديد: حمزة، علي، وحفص. والغساق بالتشديد والتخفيف: ما يغسق من
صديد أهل النار. يقال: غَسَقَتِ العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق
بحرّه، والغساق يحرق ببرده.

٥٨- ﴿وَآخِرُ﴾ أي: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخِرُ﴾ أو: مذوق آخر ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾
من مثل العذاب المذكور ﴿وَأَخْرُ﴾ بصري، أي: ﴿و﴾ مذوقات ﴿أَخْرُ﴾ من
شكل هذا المذوق في الشدة، والفظاعة ﴿أَزْوَاجُ﴾ صفة لآخر؛ لأنه يجوز أن
يكون ضرباً.

٥٩- ﴿هَذَا فَوْجٌ مُتَّحِمٌ مَعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي:
دخل النار في صحبتكم. والافتحام: الدخول في الشيء بشدة، والقُحمة:
الشدة. وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا.
والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب
﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت
رحباً من البلاد لا ضيقاً. أو: رُحِبْتَ بلادك رحباً. ثم تدخل عليه «لا» في

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

دعاء السوء و﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ داخلوها، وهو تعليل على لاستجابهم الدعاء عليهم. وقيل: ﴿هذا فوج مقتحم﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، و﴿لا مرحباً بهم﴾ إنهم صالوا النار ﴿كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

٦٠- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: الدعاء الذي دعوتهم به علينا أنتم أحق به. وعللوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب، أو: لصليهم، أي: إنكم دعوتونا إليه، فكفرنا باتباعكم ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ أي: النار.

٦١- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾ ومعناه: ذا ضعف. ونحوه قوله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله.

٦٢- ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا﴾ يعنون: فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأرذال؛ الذين لا خير فيهم، ولا جدوى.

٦٣- ﴿أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾^(١) بلفظ الإخبار: عراقى غير عاصم، على أنه صفة لرجالاً، مثل ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ وبهزمة الاستفهام: غيرهم، على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخرار منهم. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مدني، وحزمة، وعلي، وخلف، والمفضل ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾. هو متصل بقوله: ﴿مالنا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار، كأنهم ليسوا فيها؟ بل أزاغت عنهم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ موصولة الألف، وهي قراءة: أبي عمرو، وحزمة، والكسائي، وابن كثير، ويعقوب، وخلف، والأعمش، واليزيدي، وعبد الله. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٧٣).

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

أبصارنا، فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنه خفي عليهم مكانهم.

٦٤- ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لصدق كائن لا محالة، لا بد أن يتكلموا به. ثم بين ماهو، فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. ولما شبه تقاولهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماه تخاصماً، ولأن قول الرؤساء: ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول أتباعهم: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصماً؛ لاشتماله على ذلك.

٦٥- ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ ما أنا إلا رسول منذر، أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وأقول لكم: إن دين الحق توحيد الله، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ بلا ند، ولا شريك ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء.

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملك والربوبية في العالم كله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوب من التجأ إليه.

٦٧- ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة، ثم:

٦٨- ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ غافلون.

٦٩- ﴿مَا كَانَ لِي﴾ : - حفص - ﴿مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ احتج بصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملأ الأعلى، واختصاصهم، أمر ما كان له به من علم قط. ثم علمه، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو: الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب، فعلم أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله.

٧٠- ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لـ ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ومعناه:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي

ما يوحى إليّ إلاّ للإنذار، فحذف اللام، وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليّ إلاّ هذا، وهو أن أنذر، وأبلغ، ولا أفترط في ذلك، أي: ما أومر إلاّ بهذا الأمر وحده، وليس إليّ غير ذلك. ويكسر ﴿إنما﴾ يزيد على الحكاية، أي: إلاّ هذا القول، وهو أن أقول لكم: ﴿إنما أنا نذير مبين﴾ ولا أدعي شيئا آخر. وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. والمراد بالملا الأعلى: أصحاب القصة، الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنهم كانوا في السماء، وكان التناول بينهم. و﴿إذ يختصمون﴾ متعلق بمحذوف، إذ المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصاصهم.

٧١- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ - بدل من ﴿إذ يختصمون﴾ في شأن آدم - حين قال تعالى على لسان ملك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

٧٢- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فإذا أتممت خلقته، وعدلته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الذي خلقته - وأضافه إليه تخصيصاً، ك: بيت الله، وناقة الله. والمعنى: أحييته، وجعلته حساساً، متنفساً - ﴿فَقَعُوا﴾ أمر من: وقع يقع، أي: اسقطوا على الأرض. والمعنى: اسجدوا ﴿لَهُمْ سَجْدِينَ﴾. قيل: كان انحناء يدلّ على التواضع، وقيل: كان سجدة لله، أو: كان سجدة التحية.

٧٣- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ كلّ للإحاطة. و﴿أجمعون﴾ للاجتماع، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.

٧٤- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر.

٧٥- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾
قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾

أي: بلا واسطة، امتثالاً لأمرى، وإعظماً لخطايي. وقد مرّ: أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل: في عمل القلب: هو ما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يدي له: «يداك أوكتا وفوك نفخ»^(١) وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا تما عملته، وهذا مما عملته يداك. ومنه قوله: ﴿مَمَّا عَمِلَتْ آيْدِينَا﴾ [يس: ٧١] و ﴿لَمَّا خَلَّيْتُ يَدَيَّ﴾ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ استفهام إنكار ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ تمن علوت وفقت. وقيل: ﴿أستكبرت﴾ الآن، أم لم تزل مذ كنت من المستكبرين.

٧٦- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟ لأنه من طين، والنار تغلب الطين، وتأكله. وقد جرت الجملة الثانية من الأولى - وهي ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ - مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

٧٧- ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السموات، أو: من الحلقة التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقة، واسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً ﴿فَأَنكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم، أي: مطرود. تكبر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين، وزلّ عنه: أن الله أمر به ملائكته، واتبعوا أمره إجلالاً لخطابه، وتعظيماً لأمره، فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره.

٧٨- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ ويفتح الياء: مدني، أي: إبعادي من كل الخير ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. ولا يُظنُّ أن لعنته غايتها يوم الدين، ثم تنقطع؛ لأنّ معناه: أنّ عليه اللعنة في الدنيا وحدها، فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد. أو: لما كان عليه اللعنة في أوان الرحمة، فأولى أن تكون عليه في غير أوانها. وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ

(١) هذا مثل، انظره في: جمهرة الأمثال (٢/٢٤٣ و ٤٣٠) وجمع الأمثال (١/٥٥ و ٢/٤١٤).

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿الأعراف: ٤٤﴾ ١٩.

٧٩-٨١- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فامهلني ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ: الوقت المعلوم: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يتقدم، ولا يتأخر.

٨٢، ٨٣- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بعزة الله، وهي: سلطانه، وقهره ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ وبكسر اللام: مكّي، وبصري، وشامي.

٨٤- ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ بالرفع: كوفي غير عليّ، على الابتداء، أي: الحقّ قسمي، أو: على الخبر، أي: أنا الحقّ. وبالنصب وغيرهم على أنه مقسم به، كقوله: الله لأفعلن كذا، يعني: حذف عنه الباء فانتصب، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، وهو منصوب بأقول، ومعناه: ولا أقول إلا الحقّ. والمراد بالحقّ إمّا اسمه عز وجلّ الذي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] أو: الحقّ الذي هو نقيض الباطل، عظّمه الله بإقسامه به.

٨٥- ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ من جنسك. وهم: الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنّم من المتبوعين والتابعين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا أترك منهم أحداً.

٨٦، ٨٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو: للوحي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قطّ متصنعاً، ولا مدّعياً بما ليس عندي، حتّى أنتحل النبوة، وأتقول القرآن ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين أوحى إليّ فانا أبلغه.

وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»^(١).

٨٨- ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ﴾ نَبَأُ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: يوم القيامة. ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر.

* * *

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١٠٩/٤).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

١- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن، مبتدأ خبره: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله، أو: خبر مبتدأ محذوف، والجار صلة التنزيل، أو: غير صلة، بل هو خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ هذا من الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرار؛ لأنَّ الأول كالعنوان للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ حال ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: محضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، فالدين منصوب بـ ﴿مُخْلِصًا﴾.

٣- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاع على الغيوب والأسرار. وعن قتادة: الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: آلهة. وهو مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ﴿وَالَّذِينَ﴾

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٢﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
 لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣﴾ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ

عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ مصدر، أي: تقريباً
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل:
 كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا
 قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
 زُلْفَىٰ﴾ والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يهدي من هو في علمه أنه يختار الكفر،
 يعني: لا يوفقه للهدى، ولا يعينه وقت اختياره الكفر، ولكنه يخذله. وكذبهم:
 قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله. ولذا عقبه محتجاً
 عليهم بقوله:

٤- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو جاز اتخاذ
 الولد على ما تظنون، لاختار مما يخلق ما يشاء، لا ما تختارون أنتم، وتشاؤون
 ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد،
 ودلّ على ذلك بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني: أنه واحد، متبرئ عن
 انضمام الأعداد، متعالٍ عن التجزؤ والولاد، قهار غلاب لكل شيء، ومن
 الأشياء ألهمتهم، فأنى يكون له أولياء وشركاء؟

٥- ثم دلّ بخلق السموات والأرض وتكوين كل واحد من المَلَوْنِ^(١) على
 الآخر، وتسخير النيران، وجريهما لأجل مسمى، وبث الناس على كثرة عددهم
 من نفس واحدة، وخلق الأنعام، على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب
 بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
 اللَّيْلِ﴾. والتكوين: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه، وكورها،

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
 ثَمَنِيَّةً ۖ زَوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ۖ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ
 ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
 غَنِيٌّ عَنْكُمْ

والمعنى: إنَّ كلَّ واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه. فشبهه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لفَّ عليه ما غيَّبه عن مطامح الأبصار، أو: أنَّ هذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر، فلم يؤمن بمسخرهما ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن فكَرَ واعتبر، فأمن بمديرهما.

٦- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: آدم - عليه السلام - ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء من قصيراه^(١). قيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: جعل، عن الحسن. أو: خلقها في الجنة مع آدم - عليه السلام - ثم أنزلها. أو: لأنها لا تعيش إلّا بالنبات، والنبات لا يقوم إلّا بالماء، وقد أنزل الماء، فكانه أنزلها ﴿ثَمَنِيَّةً زَوَاجٌ﴾ ذكراً وأنثى، من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما بين في سورة الأنعام. والزواج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد، ووتر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة. أو: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هذه مفعولاته هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يُعدَّلُ بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بين أنه غني عنهم بقوله:

٧- ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم، وأنتم محتاجون إليه

(١) «قصيراه»: منى القصيرى، وهي أعلى الأضلاع وأسفلها. وهما قصيران.

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ۚ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنَ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۚ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَلَنْتَ

لتضرركم بالكفر، وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لأن الكفر ليس برضا الله تعالى وإن كان بإرادته ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم، فيثيبكم عليه الجنة. ﴿يرضه﴾ بضم الهاء والإشباع: مكّي، وعليّ ﴿يرضه﴾ بضم الهاء بدون الإشباع نافع، وهشام، وعاصم غير يحيى وحمّاد. وغيرهم: ﴿يرضه﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يؤاخذ أحدٌ بذنب آخر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ إلى جزاء ربكم رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾ بخفيات القلوب.

٨- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ هو: أبو جهل، أو: كل كافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء، وشدة. والمسّ في الأعراض مجاز ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء، لا يدعو غيره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله عز وجل ﴿نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه. و﴿مَا﴾ بمعنى من، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]. أو: ﴿نسي﴾ الضّر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أمثالا ﴿لِيُضِلَّ﴾: ﴿لِيُضِلَّ﴾: مكّي، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: الإسلام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ من أهلها.

٩- ﴿أَمَّنْ﴾ قرأ بالتخفيف: مكّي، ونافع، وحمزة، على إدخال همزة الاستفهام على ﴿من﴾ وبالتشديد غيرهم، على إدخال ﴿أم﴾ عليه. و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمَّن ﴿هُوَ قَلَنْتَ﴾ كغيره، أي: أمَّن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت: المطيع لله، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جزي ذكر الكافر قبله، وقوله بعده ﴿قُلْ﴾ هل يستوي الذي يعملون والذين

ءَانَاءَ الْاَيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ اِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولُو الْاَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْجِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اَنْقُوا رَبَّكُمْ
لِلَّذِينَ اَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّارْضُ اللَّهُ وَّسِعَةً اِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ

لا يعلمون ﴿٩﴾ ءَانَاءَ الْاَيْلِ ﴿٩﴾ ساعاته ﴿٩﴾ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴿٩﴾ حالان من الضمير في
﴿قَانت﴾ ﴿٩﴾ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴿٩﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿٩﴾ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴿٩﴾ أي: الجنة.
ودلت الآية على أَنَّ المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته
لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله. ثم الرجاء إذا جاوز حدّه
يكون أمنًا، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياسًا. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَاثِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلمون ويعملون، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم.
وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يفتنون، ويفتنون فيها ثم
يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: أريد
به التشبيه، أي: كما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع
والعاصي ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولُو الْاَلْبَابِ﴾ جمع لب، أي: إنما يتعظ بوعظ الله أولو
العقول.

١٠- ﴿قُلْ يَعْجِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بلا ياء، عند الأكثر. ﴿اَنْقُوا رَبَّكُمْ﴾ بامثال
أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ اَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: أطاعوا الله
في الدنيا. و﴿فِي﴾ يتعلق بأحسنوا لا بـ ﴿حَسَنَةً﴾، معناه: الذين أحسنوا في هذه
الدنيا، فلهم حسنة في الآخرة، وهي: دخول الجنة، أي: حسنة لا توصف.
وقد علّقه السدي بـ ﴿حَسَنَةً﴾ ففسّر الحسنة بالصحة، والعافية. ومعنى:
﴿وَارْضُ اللَّهُ وَّسِعَةً﴾ أي: لا عذر للمفترطين في الإحسان البتّة، حتّى إن اعتلوا
بأنهم لا يتمكّنون في أوطانهم من التوفّر على الإحسان، قيل لهم: فإن أرض الله
واسعة، وبلاده كثيرة، فتحوّلوا إلى بلاد آخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في
مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم
﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم وعلى غيرها من تجرّع

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَغْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ
 دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾

الغصص، واحتمال البلايا في طاعة الله، وازدياد الخير ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. عن
 ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف. وهو
 حال من الأجر، أي: موافراً.

١١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ بأن أعبد الله ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمرت
 بإخلاص الدين.

١٢- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول
 المسلمين. أي: مقدمهم، وسابقهم في الدنيا والآخرة. والمعنى: أن الإخلاص
 له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فالأول أمر بالعبادة مع
 الإخلاص، والثاني بالسبق. فلاختلاف جهتيهما نزلتا منزلة المختلفين، فصح
 عطف أحدهما على الآخر.

١٣- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين
 آبائك، وذلك: أن كفار قريش قالوا له عليه الصلاة والسلام: ألا تنظر إلى
 أبيك، وجدك، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى؟! فنزلت ردّاً عليهم.

١٤- ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فهذه الآية إخبار بأنه يخص الله وحده
 بعبادته، مخلصاً له دينه دون غيره. والأولى إخبار بأنه مأمور بالعبادة
 والإخلاص، فالكلام أولاً واقع في نفس الفعل وإثباته، وثانياً فيمن يفعل الفعل
 لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله:

١٥- ﴿فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ وهذا أمر تهديد. وقيل له: إن خالفت دين
 آبائك فقد خسرت، فنزلت: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران،
 الجامعين لوجوهه، وأسبابه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بإهلاكها في النار ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾
 أي: وخسروا أهلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم أضلّوهم، فصاروا إلى النار. ولقد
 وصف خسراهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ حيث صدر

لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ
فَآتَقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾
الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

الجملة بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران، ونعته بالمبين، وذلك لأنهم استبدلوا بالجنة ناراً، وبالدرجات دركات.

١٦- ﴿لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق ﴿مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظلل﴾ لآخرين، أي: النار محيطة بهم ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وصف من العذاب، أو: ﴿ذَلِكَ﴾ الظلل ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليؤمنوا به، ويجتنبوا عن مناهيه ﴿يَعْبَادُ فَآتَقُونِ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. خوفهم بالنار، ثم حذرهم نفسه.

١٧- ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الشياطين. فعلوت، من الطغيان، كالملوك والرحموت؛ إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على الغين. أطلقت على الشيطان، أو: الشياطين لكون الطاغوت مصدراً، وفيها مبالغات، وهي التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأن البناء بناء مبالغة، فإن الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب وهو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها - هاهنا - الجمع. وقرىء ﴿الطواغيت﴾ ﴿أَن يَّعْبُدُوهَا﴾ بدل الاشتمال من ﴿الطاغوت﴾ أي: عبادتها ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، تتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨- ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الذين اجتنبوا، وأنابوا. وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير. أراد أن يكونوا نقاداً في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل. فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب - حراساً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً. أو: يسمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أو: يسمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو: القصاص، والعفو، ونحو ذلك، أو: يسمعون الحديث مع

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رَهْمَهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِمَا فَعَلُوا عُرِفُوا مَبِئَّةً تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا

القوم فيه محاسن ومساوىء، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: المتفعلون بعقولهم.

/ ١٩ - ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب - أي: وجب - فأنت تنقذه. جملة شرطية دخلت عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف، تقديره: أنت مالك أمرهم؟ فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه؟ والهمزة الثانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار. ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير، أي: تنقذه. فالآية على هذا جملة واحدة، أو: معناه ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب﴾ ينجو منه؟ فأنت تنقذه؟! أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضله الله، وسبق في علمه أنه من أهل النار.

٢٠ - ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رَهْمَهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِمَا فَعَلُوا عُرِفُوا﴾ أي: لهم منازل في الجنة رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها، يعني: للكفار ظلل من النار، وللمتقين غرف ﴿مَبِئَّةً تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت منازلها ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿وَعَدَ﴾: مصدر مؤكد؛ لأن قوله ﴿لهم غرف﴾ في معنى: وعدهم الله ذلك.

٢١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فادخله ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً، ومسالك، وبحاري كالعروق في الأجساد. و﴿ينابيع﴾ نصب على الحال، أو: على الظرف. و﴿في الأرض﴾ صفة لينابيع ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ هيئاته من: خضرة، وحمرة، وصفرة، وبياض. أو: أصنافه من: برّ، وشعير، وسمسم، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد نضارته، وحسنه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا﴾ فتاتاً متكسراً.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٔ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ

فالخطام: ما تفتت وتكسر من النبت وغيره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنزال الماء، وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لتذكيراً، وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن إهمال وتعطيل.

٢٢- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أي: وسع صدره ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فاهتدى. وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن الشرح، فقال: «إذا دخل القلب انشرح وانفسح». فقيل: هل له علامة؟ قال: «نعم: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١) ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان وبصيرة. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ فاهتدى، كمن طبع على قلبه فقسا قلبه؟! فحذف؛ لأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدل عليه ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: من ترك ذكر الله، أو: من أجل ذكر الله، أي: إذا ذكر الله عندهم، أو: آياته ازدادت قلوبهم قساوة، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة.

٢٣- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في إيقاع اسم الله مبتداً، وبناءً ﴿نَزَّلَ﴾ عليه، تفخيماً لأحسن الحديث ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أحسن الحديث﴾ أو: حال منه ﴿مُتَشَبِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق، والبيان، والوعظ، والحكمة، والإعجاز، وغير ذلك ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ﴿كِتَابًا﴾ جمع مثني، بمعنى: مردد ومكرر لما ثنى من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهيه، ووعدته، ووعيده، ومواعظه. فهو بيان لكونه متشابهاً؛ لأن القصص المكررة وغيرها لا تكون إلا متشابهة. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل. وإنما جاز وصف الواحد بالجمع؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي: جملة. ألا تراك

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١٢٧). وانظره في تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠-١٨١) والدر المنثور (٣/ ٣٥٥) وتنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ٣٧) تحقيق يوسف بدوي.

نَفْسَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَبْقَى
بُوجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

تقول: القرآن أسباع، وسور وآيات؟! فكذلك تقول: أقاصيص، وأحكام، ومواعظ مكررات. أو: منصوب على التمييز من ﴿متشابهاً﴾ كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه ﴿نَفْسَعْرُ﴾ تضطرب، وتتحرك ﴿مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. يقال: اقشعر الجلد، إذا تقبض تقبضاً شديداً، والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن، وبآيات وعيده، أصابهم خشية تقشعر منها جلودهم. وفي الحديث: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحأت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»^(١) ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. وعدي بـ «إلى» لتضمنه معنى فعل متعد بـ «إلى»، كأنه قيل: اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة. واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؛ لأن رحمة سبقت غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رؤوفاً رحيماً. وذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب ثانياً؛ لأن محل الخشية: القلب، فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وهو ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، وهم من علم منهم اختيار الاهتداء ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الحق.

٢٤- ﴿أَفَمَنْ يَبْقَى بُوجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كمن أمن من العذاب؟! فحذف الخبر كما حذف في نظائره. وسوء العذاب: شدته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعز أعضائه عليه. والذي يلقى في النار يلقى مغلوله يده إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له، ومحاماة عليه

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣١٠).

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: كسبكم.

٢٥- ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش ﴿فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها. بينا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمهم.

٢٦- ﴿فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذل، والصغار، كالمسخ، والخسف، والقتل، والجلاء، ونحو ذلك من عذاب الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لآمنوا.

٢٧- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ ليتعظوا.

٢٨- ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وإنساناً عاقلاً. فتذكر رجلاً وإنساناً تأكيداً. أو: نصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيماً، بريئاً من التناقض والاختلاف. ولم يقل: مستقيماً؛ للإشعار بالآ يكون فيه عوج قط. وقيل: المراد بالعوج: الشك ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ الكفر.

٢٩- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ بدل. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾ متنازعون، ومختلفون ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ - مصدر: سلم، والمعنى: ذا سلامة - ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي: ذا خلوص له من الشركة. (سالمًا): مكّي، وأبو عمرو، أي: خالصاً له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة، وهو تمييز، والمعنى: هل تستوي صفاتها وحالهما؟! وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: ﴿مَثَلَيْنِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره. مثل الكافر

﴿٢١﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ ﴿٢٣﴾
 ﴿٢٤﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ

ومعبوديه بعد اشتراك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجادبون، ويتعاورونه في مهن شتى وهو متحير، لا يدري أيهم يرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، ومن يطلب رزقه، ومن يلمس رفقته، فهمه شعاع^(١)، وقلبه أوزاع^(٢)، والمؤمن: بعبد له سيد واحد، فهمه واحد، وقلبه مجتمع.

٣٠- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت ﴿وَأَنْتُمْ مَمَيِّتُونَ﴾. وبالتخفيف: مَنْ حَلَّ بِهِ الموت. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسيرَ ميِّتٍ وميِّتٍ فدونك وقد فسرتُ إن كنت تعقل
 فمن كان ذا روح فذلك ميِّتٌ وما الميِّتُ إلا مَنْ إلى القبر يُحمل
 كانوا يترىسون برسول الله ﷺ موته، فأخبر: أَنَّ الموت يعمهم، فلا معنى للتريص وشماته الفاني بالفاني. وعن قتادة - رحمه الله -: نعى إلى نبيته نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. أي: إِنَّك وإياهم في عداد الموتى؛ لأنَّ ما هو كائن فكأن قد كان.

٣١- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إِنَّك وإياهم - فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب - ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا، واجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته. تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، ويقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون. قالت الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قُتل عثمان - رضي الله عنه - قالوا: هذه خصومتنا. وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة، وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم. والوجه هو الأول؛ ألا ترى إلى قوله:

٣٢- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ

(١) أي: متفرق.

(٢) «الأوزاع»: مشتت أو مفروق.

وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ

﴿٣٢﴾ [الزمر: ٣٣] وما هو إلا بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة ﴿كذب على الله﴾: افترى عليه بإضافة الولد، والشريك إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو: ما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال رويته، أو: اهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل التصفة فيما يسمعون ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله، وكذبوا بالصدق. واللام في ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

٣٣- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله ﷺ، جاء بالحق، وآمن به. وأراد به: إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وقال الزجاج: روي عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ محمد رسول الله ﷺ، ﴿و﴾ الذي ﴿صدق به﴾ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -. وروي: أن الذي جاء بالصدق محمد رسول الله ﷺ، ﴿صدق به﴾: المؤمنون. والكل صحيح. كذا قالوا. والوجه في العربية أن يكون ﴿جاء﴾ و﴿صدق﴾ لفاعل واحد؛ لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز، أو: إضمار الفاعل من غير تقدم الذكر، وذا بعيد.

٣٤، ٣٥- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بني مروان.

٣٦- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية، وتقريرها ﴿عَبْدَهُ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿عباده﴾: همزة، وعلي، أي: الأنبياء والمؤمنين. وهو مثل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه، وذلك: أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك مضرتها لعلك إياها ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ بغالب، منيع ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه. وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم. ثم أعلم بأنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض بقوله:

٣٨- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ - بفتح الياء سوى حمزة - ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض، أو: فقر، أو: غير ذلك ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ دافعات شدته عني ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ صحة، أو: غنى، أو: نحوهما ﴿هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ﴾ كاشفات ضره ﴿مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ﴾ بالتثنية على الأصل: بصري. وفرض المسألة في نفسه دونهم؛ لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضر أو برحة، هل تقدر على خلاف ذلك؟ فلما أفحمهم قال الله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً لمعرة أوثانهم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يروي: أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وإنما قال: ﴿كاشفات﴾ و﴿مُمْسكات﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ لأنهن إناث، وهن: اللات، والعزى، ومناة. وفيه تهكم بهم، وبمعبودهم.

قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ أَلَّتْ فَضَىٰ عَلَيْهَا أَلْمَوْتُ

٣٩، ٤٠- ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها

وجهتمكم من العداوة التي تمكتكم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى، كما يستعار هنا وحيث للزمان، وهما للمكان ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي: على مكاتي. وحذف للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد والإيدان بأن حالته تزداد كل يوم قوة؛ لأن الله تعالى ناصره ومعينه. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم عالياً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب، فذاك عزه وغلبته من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل ذليل من أعدائه. و﴿يُخْزِيهِ﴾ صفة للعذاب، كمقيم، أي: عذاب يخز له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم، وهو عذاب النار ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾: أبو بكر، وحماد.

٤١- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، ولأجل حاجتهم إليه؛ ليشروا، وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن اختار الضلالة فقد ضرها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ. ثم أخبر بأنه الحفيظ القدير عليهم بقوله:

٤٢- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفس: الجُمل كما هي. وتوفيها: إمامتها، وهو: أن تسلب ما هي به حية حساسة ذراة ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ﴿فِيْمِمْسِكَ﴾ الأنفس ﴿أَلَّتْ فَضَىٰ﴾: حمزة، وعلي ﴿عَلَيْهَا أَلْمَوْتُ﴾ الحقيقي، أي:

وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

لا يردّها في وقتها حيّة ﴿وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: ﴿يتوفى الأنفس﴾ أي: يستوفىها، ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ﴿و﴾ يتوفى الأنفس ﴿التي لم تمت في منامها﴾ وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتّي تُتوفى في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النّفس، والنائم يتنفس. ولكلّ إنسان نفسان: إحداهما: نفس الحياة، وهي: التي تفارق عند الموت، والآخرى: نفس التمييز، وهي: التي تفارقه إذا نام.

وروا عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: في ابن آدم نفس وروح [بينهما شعاع]^(١) مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النّفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه.

وعن عليّ - رضي الله عنه - قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا نُبّه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

وعنه: ما رأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت بعد الإرسال فيلقبها الشيطان فهي كاذبة.

وعن سعيد بن جبیر: إنّ أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها إلى انقضاء مدّة حياتها.

وروي: أنّ أرواح المؤمنين تعرج عند النوم في السماء، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود، ومن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذن لهم فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إنّ في توفى الأنفس مائة وناائمة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَآيَاتٍ﴾ على قدرة الله، وعلمه ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيلون فيه أفكارهم، ويعتبرون.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ

٤٣- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قريش - والهمزة للإنكار - ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَاءَ﴾ حين قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يشفعون ﴿ولو كانوا لا يملكون شيئا﴾ قط، ولا عقل لهم.

٤٤- ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالکها، فلا يستطيع أحد شفاعته إلا بإذنه. وانتصب ﴿جميعا﴾ على الحال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله: ﴿لله الشفاعة جميعا﴾ لأنه إذا كان له الملك كله، والشفاعة من الملك، كان مالكا لها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متصل بما يليه. معناه: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ اليوم ﴿ثم إليه ترجعون﴾ يوم القيامة. فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملك الدنيا والآخرة.

٤٥- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ مدار المعنى على ﴿وحده﴾ أي: إذا أفرد الله بالذكر، ولم تذكر معه آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت، وانقبضت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: آلهتهم ذكر الله معهم، أو: لم يذكر ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لافتتانهم بها. أو: إذا قيل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نفروا؛ لأن فيها نفيا لآلهتهم. ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كل واحد منهما غاية في بابه، فالاستبشار: أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه، ويتهلل، والاشمئزاز: أن يمتلئ غمًا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. والعامل في ﴿إذا ذكر﴾ هو العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة. تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار.

٤٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا ﴿فاطر﴾ - وليس بوصف كما يقوله المبرد، والفراء - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السر، والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ﴾

بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

تقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وقيل: هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله. وعن الربيع ابن المسيب: لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب، سواها. وعن الربيع بن خثيم - وكان قليل الكلام - أنه أخبر بقتل الحسين - رضي الله عنه - وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. ورؤي: أنه قال على أثره: قُتِلَ مَنْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

٤٧ - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ الهاء تعود إلى ما ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ شدته ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم، ولا يحدثون به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري: أنه قرأها فقال: ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر - رحمه الله - عند موته فقبل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه.

٤٨ - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو: سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ ونزل بهم، وأحاط ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء هزئهم.

٤٩ - ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ يقال: خولني: إذا أعطاك على غير جزاء - ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾ - ولا تقف عليه؛ لأن جواب ﴿إِذَا﴾ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني أني سأعطاه لما في من فضل، واستحقاق. أو: ﴿على علم﴾ مني بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. وإنما ذكر الضمير في ﴿أوتيته﴾ وهو للنعمة، نظراً إلى المعنى؛ لأن

بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

قوله: ﴿نِعْمَةٌ مِّنَّا﴾ شيئاً من النعمة، وقسماً منها. وقيل: ﴿مَا﴾ في ﴿إِنَّمَا﴾ موصولة لا كافة، فيرجع الضمير إليها، أي: إِنَّ الذي أوتيته على علم ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ - إنكار لقوله، كأنه قال: ما خولناك من النعمة لما تقول ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء وامتحان لك، أتشكر أم تكفر. ولَمَّا كان الخبر مؤثراً، أعني: ﴿فِتْنَةٌ﴾. ساغ تأنيث المبتدأ لأجله. وقرئ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ على وفق ﴿إِنَّمَا أوتيته﴾ - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها فِتْنَةٌ. والسبب في عطف هذه الآية بالفاء، وعطف مثلها في أول السورة بالواو: أَنَّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ على معنى: أَنَّهُمْ يَشْمِئُزُّونَ عن ذكر الله، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مَسَّ أحدهم ضَرَّ دعا من اشْمَأَزَّ عن ذكره دون من استبشر بذكره. وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعارض بينه وبينه. قلت: ما في الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربه بأمر من الله، وقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ متناول لهم ولكل ظالم إن جعل عاماً، أو: إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ لهؤلاء الظالمين ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ حين أَحْكَمَ عليهم بسوء العذاب. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة، وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها، فعطفت عليها بالواو، نحو: قام زيد، وقعد عمرو. وبيان وقوعها مسببة أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مَسَّ ضَرَّ التجأ إليه. فهذا تسيب ظاهر، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مَسَّ ضَرَّ التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجأ المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً في الالتجاء.

٥٠ - ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ هذه المقالة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا أوتيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]

﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أوتيته على علم عندي﴾ وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأهم الخالية

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

اخرى قائلون مثلها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما يجمعون منها.

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو سقى جزاء السيئة سيئة لازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَاوُا سَيِّئَةً سَيِّئَةً تَمَثَّلُوا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم بيد، وحبس عنهم الرزق، فمحطوا سبع سنين ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفاتتين من عذاب الله. ثم بسط لهم، فمطروا سبع سنين، فقليل لهم:

٥٢- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق؟ وقيل: يجعله على قدر القوت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلا الله - عز وجل -.

٥٣- ﴿قُلْ﴾ يا محمد يقول الله: ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ﴾ - ويسكون الباء: بصري، وحزة، وعلي - ﴿اسْتَرْفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي، والغلو فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ لا تياسوا - وبكسر النون: علي، وبصري - ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفو عنها إلا الشرك. وفي قراءة النبي ﷺ: (يعفو الذنوب جميعاً ولا يبالي). ونظير نفى المبالاة: نفى الخوف في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]. قيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة - رضي الله عنه - . وعن رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»^(١) ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْغَفُورُ﴾ بستر عظام الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بكشف فضائع الكروب.

وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمِمَّن قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ
وَلَوْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٥٤- ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا لِمِمَّن قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ وأخلصوا له العمل
﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العذاب.

٥٥- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تحشون شيئاً
لفرط غفلتكم.

٥٦- ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لثلاث أقوال. ﴿نَفْسٌ﴾ إنما نكرت؛ لأن المراد بها بعض
الأنفس، وهي: نفس الكافر. ويجوز أن يُراد نفس متميزة من الأنفس إما
بلجاج في الكفر شديد، أو: بعذاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير ﴿بِحَسْرَتٍ﴾
الألف بدل من ياء المتكلم. وقرئ ﴿يا حسرتي﴾ على الأصل، و﴿يا حسرتاي﴾
على الجمع بين العوض والمعوض منه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ قصرت. و﴿مَا﴾ مصدرية
مثلها في ﴿بِمَا رَجَبْتُ﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ في أمر الله، أو: في
طاعة الله، أو: في ذاته. وفي حرف عبد الله بن مسعود (في ذكر الله). والجانب:
الجانب. يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه، وناحيته، وفلان لئن الجانب
والجنب. ثم قالوا: فرط في جنبه، وفي جانبه، يريدون: في حقه. وهذا من
باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل، وحيزه، فقد أثبتته فيه.
ومنه الحديث: «مِنَ الشُّرَكَاءِ الْخَفِيِّ: أَنْ يَصِلِيَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ»^(١) أي:
لأجله. وقال الزجاج: معناه: فرط في طريق الله، وهو: توحيده، والإقرار
بنبوة محمد ﷺ ﴿وَلَوْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ المستهزئين. قال قتادة: لم يكفه أن

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ
كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

ضَيَع طاعة الله حتى سخر من أهلها. ومحل ﴿وإن كنت﴾: النصب على الحال،
كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي: فرطت في حال سخريتي.

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي: أعطاني الهداية ﴿لَكُنْتُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾ من الذين يتقون الشرك. قال الشيخ الإمام أبو منصور - رحمه الله
تعالى -: هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة. وكذا أولئك الكفرة الذين
قالوا لأتباعهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يقولون: لو وفقنا الله للهداية،
وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية،
فخذلنا، ولم يوفقنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم، وأعطاهم التوفيق لكنهم لم
يهتدوا. والحاصل: أن عند الله لطفًا؛ من أعطي ذلك اهتدى، وهو التوفيق
والعصمة، ومن لم يعطه ضلّ وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحق
بعد ما أمكن من تحصيله، لذلك.

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الموحدين.

٥٩- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾
﴿بلى﴾: رد من الله عليه، كأنه يقول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ وبينت لك
الهداية من الغواية، وسبيل الحق من الباطل، ومكنتك من اختيار الهداية على
الغواية، واختيار الحق على الباطل. ولكن تركت ذلك، وضيعته، واستكبرت
عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، فإنما جاء
التضييع من قبلك، فلا عذر لك. و﴿بلى﴾ جواب لنفي تقديرتي؛ لأن معنى
﴿لو أن الله هداني﴾: ما هُديت. وإنما لم يقرن الجواب به؛ لأنه لا بُدَّ من حكاية
أقوال النفس على ترتيبها، ثم الجواب من بينها عما اقتضى الجواب.

٦٠- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه من

وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

إضافة الشريك والولد إليه، ونفي الصفات عنه ﴿وَجُوهُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿مُسْوَدَّةٌ﴾ خبر. والجملة في محلّ النصب على الحال إن كان ﴿ترى﴾ من رؤية البصر، وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثانٍ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو إشارة إلى قوله: ﴿واستكبرت﴾.

٦١- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ وينجي ﴿رَوْحُ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم. يقال: فاز بكذا؛ إذا أفلح به، وظفر بمراده منه وتفسير المفازة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ﴾ النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السَّوْءُ﴾ أي: ينجيهم بنفي السوء، والحزن عنهم، أي: لا يمسّ أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن. أو: بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاة منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب نجاتهم: العمل الصالح. ولهذا فسّر ابن عباس - رضي الله عنهما -: المفازة بالأعمال الحسنة. ويجوز بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح، وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمّى العمل الصالح في نفسه مفازة؛ لأنّه سببها. ولا محلّ لـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ على التفسير الأول؛ لأنّه كلام مستأنف، ومحله النصب على الحال على الثاني. ﴿بِمَفَازَاتِهِمْ﴾ كوفي، غير حفص.

٦٢- ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ردّ على المعتزلة، والثبوتية ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ.

٦٣- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو مالك أمرها، وحافظها. وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزان، ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها. ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك، وهي: المفاتيح، واحدا: مَقْلِيد. وقيل: لا واحد لها من لفظها. والكلمة أصلها فارسية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هو متصل بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي:

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

ينجي الله المتقين بمفازاتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق كل شيء وهو مهيمن عليه، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يجزون عليها. أو: بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه ﴿والذين كفروا﴾ وجحدوا أن يكون الأمر كذلك ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾. وقيل: سأل عثمان - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ عن تفسير قوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: «يا عثمان! ما سألتني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»^(١). وتأويله على هذا: أن الله هذه الكلمات يوحد بها، ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه، و﴿الذين كفروا بآيات الله﴾ وكلمات توحيده وتمجيده ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾.

٦٤- ﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ ﴿تأمروني﴾: مكي. ﴿تأمروني﴾ على الأصل: شامي. ﴿تأمروني﴾: مدني. وانتصب ﴿أفغير﴾ بـ ﴿أعبد﴾. و﴿تأمروني﴾ اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ بتوحيد الله؟

٦٥- ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء - عليهم السلام - ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وإنما قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد، والوحي إليهم جماعة؛ لأن معناه: (أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك)، وإلى الذين من قبلك مثله. واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب. وهذا الجواب ساد مسد الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط. وإنما صح هذا الكلام، مع علمه تعالى بأن رسله لا يشركون؛ لأن

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٤١/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٥/١٠).

بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، ولأنه على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها. وقيل: لئن طالعت غيري في السر ليحبطن ما بيني وبينك من السر.

٦٦- ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله، فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم.

٦٧- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عظموه حق عظمته؛ إذ دعوك إلى عبادة غيره. ولما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره، عظمه حق تعظيمه، قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل، فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كنهه جلالة لاغير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو: جهة مجاز. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ ولأن الموضع موضع تعظيم فهو مقتضى للمبالغة ﴿وَالْأَرْضُ﴾: مبتدأ، و﴿قَبْضَتُهُ﴾ الخبر، و﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على الحال. أي: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة. والقبضة: المرة من القبض. والقبضة: المقدار المقبوض بالكف، ويقال: أعطني قبضة من كذا، تريد: معنى القبضة تسمية بالمصدر، وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون ﴿جَمِيعًا قبضته﴾ أي: ذوات قبضته، يقبضهن قبضة واحدة، يعني: أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان. أي: لا تفي إلا بأكلة فذة من أكلاته. وإذا أريد معنى القبضة فظاهر؛ لأن المعنى: أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. والمطويات من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال:

سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه يمينه. وقيل: ﴿قبضته﴾: ملكه بلا مدافع ولا منازع. و﴿يمينه﴾ بقدرته. وقيل: ﴿مطويات يمينه﴾ مُفْنِيَات بِقَسَمِهِ؛ لَأَنَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يَفْنِيهَا ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد من هذه قُدْرَتُهُ وعظمتُهُ! وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء!

٦٨ - ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾ مات ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت - عليهم السلام - وقيل: هم حملة العرش، أو: الرضوان، والخور، ومالك، والزبانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هي في محل الرفع؛ لأنَّ المعنى: ﴿ونفخ في الصور﴾ نفخة واحدة ﴿ثَنَ نفخ فيه﴾ نفخة ﴿أخرى﴾. وإنما حذفت للدلالة ﴿أخرى﴾ عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهوتين إذا فاجأه خطب، أو: ينظرون أمر الله فيهم. ودلت الآية على أنَّ النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث، والجمهور على أنها ثلاث: الأولى للفرع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧] والثانية للموت، والثالثة للإعادة.

٦٩ - ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: بعدله بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقال: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١). وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزيئها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها. ولا ترى أزين للبقيع من العدل، ولا أعمر لها منه. وقال الإمام أبو منصور - رحمه الله -: يجوز أن يخلق الله نوراً فينور به أرض الموقف. وإضافته إليه تعالى للتخصيص ك: بيت الله،

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).

وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ
 جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
 يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ
 كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
 مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وناقة الله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس،
 أو: اللوح المحفوظ ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة،
 وما أجابهم قومهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾: الحفظة. وقيل: هم الأبرار في كل زمان،
 يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل
 ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحها بإثبات العدل.

٧٠- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير
 كتاب، ولا شاهد. وقيل: هذه الآية تفسير قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي:
 ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر، لا يزداد في شر، ولا ينقص من خير.

٧١- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً كما يفعل بالأسارى،
 والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس، أو: قتل ﴿زُمَرًا﴾ حال، أي:
 أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما:
 كوفي ﴿أَبْوَابُهَا﴾ وهي سبعة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ حفظة جهنم، وهم: الملائكة
 الموكلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من بني آدم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
 رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار
 لا يوم القيامة ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أتونا، وتلوا علينا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
 الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمة الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣]
 بسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:
 ١٠٦] فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب، وهو: الكفر، والضلال.

٧٢- ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة، أي: مقدرين
 الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس؛ لأن مثنى المتكبرين

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ

فاعل ﴿بئس﴾ وبئس فاعلها اسم معرّف بلام الجنس، أو: مضاف إلى مثله. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

٧٣- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المراد: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يكرم، ويشرف من الوافدين على بعض الملوك ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل، والجمل المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف؛ لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدلّ بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف. وقال الزجاج: تقديره: حتى إذا جاؤوها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فحذف دخلوها؛ لأن في الكلام دليلاً عليه. وقال قوم: ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ جاؤوها ﴿وفتحت أبوابها﴾ فعندهم جاؤوها محذوف، والمعنى: ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ وقع مجيئهم مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]. فلذلك جيء بالواو، كأنه قال: ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ وقد ﴿فتحت أبوابها﴾ ﴿طبتم﴾ من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا. وقال الزجاج: أي: كنتم طيبين في الدنيا، ولم تكونوا خبيثين، أي: لم تكونوا أصحاب خبائث. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: طاب لكم المقام. وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة؛ لأنها دار الطيبين، ومثوى الطاهرين. قد طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قدر، فلا يدخلها إلا مناسب لها، موصوف بصفتها.

٧٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من

نعيم العقبى ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أرض الجنة. وقد أورثوها، أي: ملكوها، وجعلوا ملوكها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث، وتصرفه فيما يرثه، واتساعه فيه ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ - حال - ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾

فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

أي: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوا أي: فيتخذ مقراً ومتبواً من جنته حيث يشاء ﴿فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ في الدنيا: الجنة.

٧٥- ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ حال من الملائكة ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: محدقين من حوله و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿حَافِينَ﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولون: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. أو: سُبِّح قُدُّوس، رب الملائكة والروح؛ وذلك للتلذذ دون التعب؛ لزوال التكليف ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الأنبياء والأمم، أو: بين أهل الجنة والنار ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: يقول أهل الجنة: شكراً حين دخولها، وتم وعد الله لهم، كما قال: ﴿وَمَا اخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وكان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر^(١).

* * *

(١) رواه أحمد (٦/ ١٢٢ و ١٨٩) والترمذي (٣٤٠٢) والحاكم (٤٣٤/ ٢) وأبو يعلى في مسنده (٤٦٤٣) وانظره في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ

الحواميم كلها مكيات؛ عن ابن عباس.

١- ﴿حَمَّ﴾ وما بعده بالإمالة: حمزة، وعلي، وخلف، ويحيى، وحمّاد - رحمهم الله - وبين الفتح والكسر: مدني، وغيرهم: بالتفخيم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه اسم الله الأعظم.

٢- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع بسلطانه عن أن يتقول عليه متقول ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمن صدق به، وكذب فهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين.

٣- ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ سائر ذنب المذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي الفضل على العارفين، أو: ذي الغنى عن الكل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لمن قال: لا إله إلا الله ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لا يقول: لا إله إلا الله. والتوب، والثوب، والأوب: أخوات، في معنى الرجوع. والطول: الغنى،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

والفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة؟ قلت: أمّا ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يُردّ بهما حدوث الفعلين حتّى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأمّا ﴿شديد العقاب﴾ فهو في تقدير: شديد عقابه، فتكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: لما وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأنّ كلّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو في: ﴿وقابل التوب﴾ لنكتة، وهي: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محاة للذنوب كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة، والقبول.

وروي: أنّ عمر - رضي الله عنه - افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصير﴾ وختم الكتاب. وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتّى تجده صاحباً، ثمّ أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها، ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه. فلم يبرح يردّها حتّى بكى. ثمّ نزع، فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر - رضي الله عنه - أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم قد زلّ زلّة فسددوه^(١)، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه^(٢) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة أيضاً ك: ﴿ذي الطول﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: المرجع.

٤ - ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما يخاصم فيها بالكذب بها،

(١) زاد في المطبوع والكشاف (٤/١٥٠): ووقفوه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٩٧).

فَلَا يَغْرُوكَ ثَقَلُتُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴿١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ
وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ ﴿٣﴾

والإنكار لها. وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. وأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحلّ مشكلها، واستنباط معانيها، وردّ أهل الزيف بها، فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿فَلَا يَغْرُوكَ ثَقَلُتُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ بالتجارات النافقة، والمكاسب المربحة، سالين غانمين، فإنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب. ثمّ يبيّن كيف ذلك، فأعلم أنّ الأمم الذين كذبت قبلهم أهلكت، فقال:

٥- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل، وناصبهم - وهم: عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم - ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي: قوم نوح، والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه فيقتلوه. والأخذ: الأسير ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بالكفر ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليطلوا به الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مُظْهَرٌ^(١): مكّي، وحفص. يعني: أنّهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم، فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: وإنكم تمرون على بلادهم تعانون أثر ذلك. وهذا تقريرٌ فيه معنى التّعجب.

٦- ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: مدني، وشامي - ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محلّ الرفع بدل من ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو: في محلّ النصب بحذف لام التعليل، وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك

(١) أي: لم تدغم الذال مع التاء كما في قراءة نافع وغيره.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

هؤلاء؛ لأنّ علة واحدة تجمعهم ﴿أنهم﴾ من ﴿أصحاب النار﴾. ويلزم الوقف على النار؛ لأنّه لو وصل لصار:

٧ - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ - يعني: حاملي العرش، والشافين حوله، وهم الكروبيّون سادة الملائكة - صفة لأصحاب النار، وفساده ظاهر.

رُوي: أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طرفهم. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا، ويروحوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»^(١). وقيل: حول العرش سبعون ألف صف قيام، يطوفون به مهلّين، مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف من الملائكة قيام، يهلّلون ويكبرون ومن ورائهم مئة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلا وهو يُسَبِّح بما لا يسبّح به الآخر ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو: ﴿الذين﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: مع حمده، أو: الباء تدلّ على أنّ تسييحهم بالحمد له ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وفائدته - مع علمنا بأنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون -: إظهار شرف الإيمان، وفضله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿ويؤمنون به﴾ ﴿ويستغفرون للذين ءامنوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم. وفيه دليلٌ على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المحذوف حال ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فالرحمة والعلم هما اللذان وسعا كلّ شيء في المعنى؛ إذ الأصل: وسع كلّ شيء رحمتك، وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن

(١) قال الحافظ: لم أجده. (الكشاف ٤ / ١٥٢).

فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ
مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ

أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم، وأخرجنا منصوبين على التمييز، مبالغة
في وصفه بالرحمة، والعلم ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة
لتناسب ذكر الرحمة، والعلم ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: طريق الهدى الذي دعوت
إليها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ «مَنْ»: في
موضع نصب عطف على ﴿هم﴾ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو: في ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾ والمعنى:
﴿وَعَدْتَهُمْ وَ﴾ وعدت من صلح من آباءهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب. وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل
شيئاً خالياً عن الحكمة. وموجب حكمتك: أن تفي بوعدك.

٩- ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: جزاء السيئات، وهو عذاب النار ﴿وَمَنْ تَقِ
السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ﴾ أي: دفع العذاب ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا
أنفسهم، فتناديهم خزنة النار: ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي:
لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم. فاستغنى بذكرها مرة، والمقت: أشد
البغض. وانتصاب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ بـ «المقت» الأول عند الزمخشري،
والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء
والكفر - حين كان الأنبياء - عليهم السلام - يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون
قبوله، وتختارون عليه الكفر - أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار، إذ
أوقعنكم فيها باتباعكم هواهن. وقيل: معناه: ﴿لمقت الله﴾ إيتاكم الآن ﴿أكبر﴾
من مقت بعضكم لبعض، كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تعليل. وقال

فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنَبِّئُنَا أَنَّكُنْتَ بِنُؤْمَانِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

«جامع العلوم» وغيره: ﴿إِذْ﴾ منصوب بفعل مضمر دلّ عليه ﴿لَمَلَقْتُ اللَّهَ﴾، أي: يملكهم الله حين دُعُوا إلى الإيمان فكفروا. ولا ينتصب بالملق الأول؛ لأنّ قوله: ﴿لَمَلَقْتُ اللَّهَ﴾ مبتدأ، وهو: مصدر، وخبره: ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ فلا يعمل في ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾؛ لأنّ المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلّق به شيء يكون في صلته؛ لأنّ الإخبار عنه يؤذن بتمامه، وما يتعلّق به يؤذن بنقصانه، ولا بالثاني لاختلاف الزمانين، وهذا لأنهم مقتوا أنفسهم في النار، وقد دُعُوا إلى الإيمان في الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فتصرون على الكفر.

١١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنَبِّئُنَا أَنَّكُنْتَ بِنُؤْمَانِنَا﴾ أي: إمامتين وإحياءتين، أو: موتيتين وحياتين. وأراد بالإمامتين: خلقهم أمواتاً أولاً، وإمامتهم عند انقضاء آجالهم. وصحّ أن يُسمّى خلقهم أمواتاً إماتة، كما صحّ أن يقال: سبحانه من صغّر جسم البعوضة، وكبّر جسم الفيل. وليس ثمة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر. والسبب فيه أنّ الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، فقد صرف المصنوع من الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنفله منه. وبالإحياءتين: الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقيل: الموتة الأولى في الدنيا، والثانية في قبره بعد الإحياء للسؤال. والإحياء الأول: إحياءه في قبره بعد موتها للسؤال، والثاني: للبعث ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا أنّ الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث، وما تبعه من معاصيهم ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ من النار - أي: إلى نوع من الخروج سريع، أو: بطيء لتخلص - ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلامٌ من غلب عليه اليأس، وإنّما يقولون ذلك تحيراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله:

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
 الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا
 يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

١٢ - ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي:

ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد
 الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي
 - ﴿الْعَلِيِّ﴾ شأنه، فلا يرد قضاؤه، ﴿الْكَبِيرِ﴾ العظيم سلطانه، فلا يحذ
 جزاؤه. وقيل: كأنَّ الحُرورية^(١) أخذوا قولهم: «لا حكم إلا الله» من هذا.
 وقال قتادة: لما خرج أهل حروراء قال عليّ - رضي الله عنه -: مَنْ هؤلاء؟
 قيل: المحكمون. أي: يقولون: لا حكم إلا لله. فقال عليّ - رضي الله عنه -:
 كلمة حق أريد بها باطل.

١٣ - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من الريح، والسحاب، والرعد، والبرق،
 والصواعق، ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وبالتخفيف: مكي، وبصري
 ﴿رِزْقًا﴾ مطراً؛ لأنه سبب الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ وما يتعظ،
 وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك، ويرجع إلى الله، فالمعاند
 لا يتذكر ولا يتعظ. ثم قال للمنيين:

١٤ - ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ﴾ وإن عاب ذلك أعداءكم؛ ممن ليس على دينكم.

١٥ - ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: ﴿هو﴾
 مرتبة على قوله ﴿الذي يريكم﴾. أو: أخبار مبتدأ محذوف. ومعنى ﴿رفيع
 الدرجات﴾: رافع السموات بعضها فوق بعض، أو: رافع درجات عباده في
 الدنيا بالمنزلة، أو: رافع منازلهم في الجنة. و﴿ذو العرش﴾ مالك عرشه الذي
 فوق السموات. خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه في مملكته.

(١) «الحُرورية»: طائفة من الخوارج تُنسب إلى «حرور» اسم قرية.

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ

و﴿الروح﴾ جبريل - عليه السلام - أو: الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من أجل ﴿أمره﴾ أو: بأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ﴾ أي: الله، أو الملقى عليه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، ويدل عليه قراءة يعقوب ﴿لتنذر﴾ ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والأولون والآخرون ﴿التلاقي﴾: مكي، ويعقوب.

١٦ - ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ ظاهرون، لا يسترهم شيء من جبل، أو: أكمة، أو: بناء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من أعمالهم، وأحوالهم ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه، ثم يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر الخلق بالموت. ويتنصب ﴿اليوم﴾ بمدلول ﴿لَمَن﴾ أي: ﴿لَمَن﴾ ثبت ﴿الملك﴾ في هذا اليوم. وقيل: ينادي مناد، فيقول: ﴿لَمَن الملك اليوم﴾؟ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لله الواحد القهار﴾.

١٧ - ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لما قرّر: أَنَّ الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك، وهي: أَنَّ كل نفس تُجْزَى ﴿بما كسبت﴾ عملت في الدنيا من خير وشر، وَأَنَّ الظلم مأمون منه؛ لأنه ليس بظلام للعبيد، وَأَنَّ الحساب لا يبطيء؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين.

١٨ - ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ القيامة، سميت بها لأزوفها، أي: لقربها. ويبدل من يوم الأزفة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبهم عن مقارّها، فتلتصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفّسوا، ويتروّحوا ﴿كَظِيمٍ﴾ مسكين بحناجرهم. من كظم القربة: شدّ رأسها. وهو مُحالٌ من القلوب محمولٌ على أصحابها. وإنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم؛ الذي هو من أفعال العقلاء. ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ﴾

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

للكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ حب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي: يشفع. وهو مجاز؛ لأن الطاعة حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك. والمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كما في قوله:

... .. ولا تَرَى الضَّبَّ بها يُنَجِّحِرُ^(١)

يريد نفي الضب وانجحاره، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع البتة.

١٩- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة. والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وما تسره من أمانة، أو خيانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته، والله يعلم ذلك كله. و﴿يعلم خائنة الأعين﴾: خبر من أخبار ﴿هو﴾ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: ١٣] مثل ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر: ١٥] ولكن ﴿يلقي الروح﴾ قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾. ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

٢٠- ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ وآلهتهم لا يقضون بشيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو: لا يقضي. ﴿تدعون﴾: نافع ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ووعد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويُبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعرض بما يدعون من دونه، وأنها لا تسمع، ولا تبصر.

(١) عجز بيت لابن أحر، وصدره: لا تفرع الأرنب أهوالها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانٍ وَقُرُونٌ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

٢١- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمر الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿هَم﴾: فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين، إلا أن ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ ضارِع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجري مجراه. (منكم): شامي ﴿وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حصونا، وقصوراً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ﴾ عاقبهم بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ولم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله.

٢٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الأخذ بسبب أنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ قَوِيٌّ﴾ قادر على كل شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانٍ وَقُرُونٌ فَقَالُوا﴾: هو ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فسموا السلطان المبين: سحراً، وكذباً.

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالنبوة ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي: أعيدها عليهم القتل كالذي كان أولاً ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: ضياع. يعني: أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني هذا القتل الثاني.

وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى - عليه السلام - وأحسن بأنه قد وقع، أعاده عليهم غيظاً، وظناً منه أنه يصدّهم بذلك عن مظاهره موسى - عليه السلام - وما علم أن كيده ضائع في الكرّتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لئله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾. كان إذا هم بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة. والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن كان فيه خب، وكان قتلاً، سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحسن بأنه هو الذي يهدم ملكه؟ ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربه. وكان قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه. وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ بضم الياء، ونصب الدال: مدني، وبصري، وحفص، وغيرهم: بفتح الياء، ورفع الدال، والأول أولى لموافقة ﴿يُبَدِّلُ﴾، والفساد في الأرض: القتال، والتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً. كأنه قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وقرأ غير أهل الكوفة: ﴿وَأَنْ﴾. ومعناه: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ فساد دينكم ودنياكم معاً.

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. وفي قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ بعث لهم على أن يقتلوا به، فيعوذوا بالله عياده، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه. وقال: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاضته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ. وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق. وهو أقبح استكبار، وأدله على دناءة صاحبه، وعلى فرط

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَفِيَ
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ
 صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾

ظلمه. وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر،
 والتكذيب بالجزاء، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة
 على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبتها. وعدت، ولدت: أخوان.
 (عت) بالإدغام: أبو عمرو، وحمزة، وعلي.

٢٨- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قيل: كان قبطياً، ابن
 عمّ لفرعون، آمن بموسى سرّاً. و﴿من آل فرعون﴾: صفة لرجل. وقيل: كان
 إسرائيلياً. و﴿من آل فرعون﴾ صلة ليكنتم، أي: يكتُم إيمانه من آل فرعون.
 واسمه: سمعان، أو: حبيب، أو: خربيل، أو: حزيل. والظاهر الأول
 ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ﴾ ل: ﴿أن يقول﴾. وهذا إنكارٌ منه عظيم، كأنه قال:
 أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرّمة، وما لكم علة في ارتكابها إلا
 كلمة الحق؟ وهي قوله: ﴿رَفِيَ اللَّهُ﴾ وهو ربُّكم أيضاً لا ربه وحده ﴿وَقَدْ
 جَاءَكُمْ﴾ الجملة حال ﴿بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: أنه لم يُظهر لتصحیح قوله
 بيّنة واحدة، ولكن بيّنات من عند من نُسبت إليه الربوبية. وهو استدراج لهم
 إلى الاعتراف به ﴿وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ﴾ احتج عليهم بطريق التقسيم، فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً، أو:
 صادقاً. فإن: ﴿يك كاذباً فعليه﴾ وبال ﴿كذبه﴾ ولا يتخطاه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا
 يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ من العذاب. ولم يقل: كل الذي يعدكم - مع أنه
 وعد من نبي صادق القول - مداراة لهم، وسلوكاً لطريق الإنصاف. فجاء بما
 هو أقرب إلى تسليمهم له. وليس فيه نفي إصابة الكل، فكأنه قال لهم: أقل
 ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي
 ذلك هلاككم. وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتقدير الكاذب على
 الصادق من هذا القبيل أيضاً. وتفسير البعض بالكل مزيف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
 هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مجاوز للحدّ ﴿كَذَابٌ﴾ في ادعائه. وهذا أيضاً من باب المجاملة،

يَقْوِمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا
قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
ءَامَنَ يَقْوِمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

والمعنى: أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وأهلكه، فتخلصون منه. أو: لو
كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة، ولما عضده بالبينات. وقيل: أوهم أنه
عنى بالمسرف موسى، وهو يعني به: فرعون.

٢٩- ﴿يَقْوِمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾: عالين - وهو حال من ﴿كم﴾ في
﴿لكم﴾ - ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟﴾
يعني: أن لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم
على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله، أي: عذابه، فإنه لا طاقة لكم به إن
جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه منهم في
القراية، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أشير عليكم برأيي إلا بما أرى من قتله، يعني:
لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا
الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح. أو: ما أعلمكم إلا ما أعلم
من الصواب، ولا أذكر منه شيئاً، ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أن
لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف
الشديد من جهة موسى - عليه السلام - ولكنه كان يتجلد. ولولا استشعاره لم
يستشر أحداً، ولم يقف الأمر على الإشارة.

٣٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقْوِمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: مثل
أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب، وفسرهم بقوله:

٣١- ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ولم يُبَسَّنْ أن كل حزب
منهم كان لهم يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم
في عملهم من: الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصي، وكون ذلك دأباً منهم
لا يفترون عنه. فلا بد من حذف مضاف، أي: ﴿مثل﴾ جزاء دأبهم. وانتصاب

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ
مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ
قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ

﴿مثل﴾ الثاني بأنه عطف بيان لمثل الأول ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب، أو: يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب، يعني: أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَارَبُكَ بِظُلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكراً، ومن بعد عن إرادة ظلم ما لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك. وهذا تخويف بعذاب الدنيا. ثم خوفهم من عذاب الآخرة بقوله:

٣٢- ﴿وَيَقُومُ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾^(١) - أي: يوم القيامة. ﴿النَّادِ﴾: مكّي، ويعقوب، في الحالين. وإثبات الباء هو الأصل، وحذفها حسن؛ لأن الكسرة تدل على الباء، وأواخر هذه الآي على الدال. وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وقيل: ينادى: ألا إن فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إن فلاناً شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

٣٣- ﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾ مانع، ودافع ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو يوسف بن يعقوب - عليهما السلام-. وقيل: يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمّر إلى زمنه.

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿التنادي﴾ وهي قراءة: ورش، وابن وردان، وعبد الوارث، وقالون. معجم القراءات القرآنية (٤٤/٦).

فَإِزَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنْ أَبْنَىٰ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾

وقيل: هو فرعون آخر. ويخهم بأن يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿فَإِزَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ فشككتهم فيها، ولم تزالوا شاكين ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، أي: أقمتهم على كفركم، وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: مثل هذا الإضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه، مرتاب، شاك في دينه.

٣٥- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ - بدل من ﴿من هو مسرف﴾ وجاز إيداله منه، وهو جمع؛ لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، بل كل مسرف - ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ في دفعها، وإبطالها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا﴾ أي: عظم بغضاً. وفاعل ﴿كبر﴾ ضمير ﴿من هو مسرف﴾ وهو جمع معنى، وموحد لفظاً. فحمل البدل على معناه. والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يرفع ﴿الذين﴾ على الابتداء، ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في ﴿كبر﴾ تقديره: جدال ﴿الذين يجادلون كبر مقْتًا﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿قَلْبٍ﴾ بالتونين: أبو عمرو. وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبهما، كما تقول: سَمِعَتِ الْأُذُنُ، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ءَاتُوا قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة.

٣٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه، أو: جهلاً منه: ﴿يَهْمُنُنْ أَبْنَىٰ لِي صَرْحًا﴾ قصراً - وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه يقال: صَرَحَ الشَّيْءُ: إذا ظهر - ﴿لَّعَلِّي﴾ - ويفتح الياء: حجازي، وشامي، وأبو عمرو - ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾، ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإبانة أنه يقصد أمراً عظيماً:

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ
لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُومُ إِنَّمَا
هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ

٣٧- ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: طرقها، وأبوابها، وما يؤدي إليها - وكل ما أذاك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه - ﴿فَأَطْلَعَ﴾ بالنصب حفص، على جواب الترجي، تشبيهاً للترجي بالتمني. وغيره بالرفع عطفاً على ﴿أبلغ﴾ ﴿إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ والمعنى: فأنظر إليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أي: موسى ﴿كَذِبًا﴾ في قوله: له إله غيري ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين، وذلك الصد ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستقيمة. وبفتح الصاد: غير كوفي ويعقوب، أي: غيره صدأ، أو: هو بنفسه صدوداً. والمزتين: الشيطان بوسوسته، كقوله: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]. أو الله تعالى، ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسران، وهلاك.

٣٨- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ﴾ ﴿اتَّبِعُونِ﴾ في الحالين: مكّي، ويعقوب، وسهل ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ هو نقيض الغي. وفيه تعريض شبيه بالتصريح: أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي. أجمل أولاً، ثم فسر، فافتتح بدم الدنيا، وتصغير شأنها بقوله:

٣٩- ﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ تمتع يسير. فالإخلاذ إليها أصل الشر، ومنع الفتن. وثنى بتعظيم الآخرة، وبين أنها هي الوطن والمستقر بقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها، وعاقبة كل منهما ليثبت عما يتلف، وينشط لما يُزلف، بقوله:

٤٠- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بَعِيرٍ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَيَقَوْمٌ مَا
لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ
بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بَعِيرٍ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ - ﴿يَدْخُلُونَ﴾: مَكِّي،
وبصري، ويزيد، وأبو بكر.

٤١، ٤٢- ثم وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة،
ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد؛ الذي عاقبته النار، بقوله: ﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِيَ﴾
- وبفتح الياء: حجازي، وأبو عمرو - ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى﴾ أي: الجنة
﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴿٤٢﴾ - هو بدل من ﴿تدعونني﴾
الأول. يقال: دعاه إلى كذا، ودعاه له، كما يقال: هداه إلى الطريق، وهداه
له - ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته. والمراد بنفي العلم: نفي
المعلوم، كأنه قال: ﴿وأشرك به ما ليس بياله، وما ليس بياله كيف يصح أن
يعلم إلهاً؟﴾ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ وهو الله سبحانه وتعالى. وتكرير
النداء لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه، وأنه من
آل فرعون. وجيء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ لأن الثاني داخل على
كلام هو بيان للمجمل، وتفسير له بخلاف الثالث.

٤٣- ﴿لَا جَرَمَ﴾ عند البصريين ﴿لَا﴾ رد لما دعاه إليه قومه، و﴿جرم﴾ فعل
بمعنى حق، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي: حق، ووجب بطلان دعوته
﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ معناه: ﴿أَنْ مَا تَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ إلى نفسه قط، أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد
إلى طاعته. وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدعي
الربوبية. أو: معناه ليس له استجابة دعوة ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أو:
﴿دعوة﴾ مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها، ولا منفعة كلا دعوة.
أو: سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم

وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِئْضُ أَمْرِتِ إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ فَقِيلُوا

بالجزاء، في قولهم: «كما تدين تدان»^(١) ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وأن رجوعنا إليه ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

٤٤- ﴿فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب ﴿وَأَفِئْضُ﴾ وأسلم ﴿أَمْرِتِ﴾ - وبفتح الباء: مدني، وأبو عمرو - ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بأعمالهم، ومآلهم.

٤٥- ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَّرُوا﴾ شذائد مكرهم، وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألف في طلبه، فممنهم من أكلته السباع، ومن رجع منهم صلبه فرعون ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

٤٦- ﴿النَّارُ﴾ بدل من ﴿سوء العذاب﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو: مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعرضهم عليها: إحراقهم بها - يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف؛ إذا قتلهم به - ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار. وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر، أو: ينفَس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ عبارة عن الدوام. هذا في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال لخزنة جهنم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ من: الإدخال. مدني، وحمزة، وعلي، وحفص، وخلف، ويعقوب. وغيرهم: ﴿ادخلوا﴾ أي: يقال لهم: ﴿ادخلوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: عذاب جهنم. وهذه الآية دليل على عذاب القبر.

٤٧- ﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ﴾ ﴿و﴾ اذكر وقت تحاصمهم ﴿فِي النَّارِ فَقِيلُوا﴾

(١) انظره في: الأمثال النبوية (٥٣/٢) ومجمع الأمثال (١٥٥/٢ و ١٦٢).

الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾

الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿٤٧﴾ يعني: الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تبعاء، كخدم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءاً ﴿مِّنَ النَّارِ﴾.

٤٨- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾. التنوين عوض من المضاف إليه، أي: ﴿إِنَّا﴾ كلنا ﴿فيها﴾ لا يغني أحدٌ عن أحد ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

٤٩- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوام بتعذيب أهلها. وإنما لم يقل لخزنتها؛ لأن في ذكر ﴿جهنم﴾ تهويلاً وتفظيلاً. ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً؛ من قولهم: بئر جهنم؛ بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفار، وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله؛ فلهذا تعتمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يوم من الدنيا ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

٥٠- ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة توبيخاً لهم بعد مدة طويلة: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ﴾ أولم تكن القصة. وقوله: ﴿تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ تفسير للقصة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار: ﴿بَلَىٰ قَالُوا﴾ أي: الخزنة تهكما بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم، فلا استجابة لدعائكم ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ بطلان. وهو من قول الله تعالى عز وجل. ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة.

٥١- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ

مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتصر من أعدائهم ولو بعد حين. ﴿يوم﴾ نصب محمول على موضع الجاز والمجور، كما تقول: جئتك في أمس واليوم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالكذب، والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال. ﴿تقوم﴾: الرازي، عن هشام.

٥٢- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ هذا بدل من ﴿يوم يقوم﴾، أي: لا يقبل عذرهم ﴿لا ينفع﴾: كوفي، ونافع ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: ﴿سوء﴾ دار الآخرة، وهو: عذابها.

٥٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ يريد به: جميع ما أتاه في باب الدين من: المعجزات، والتوراة، والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور، لأن الكتاب جنس.

٥٤- ﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ إلهاداً وتذكرة. وانتصابهما على المفعول له، أو: على الحال ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول.

٥٥- ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما يجرعك قومك من الغصص ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: أن ما سبق به وعدي من نصرتك، وإعلاء كلمتك ﴿حَقٌّ﴾ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: لذنب أمتك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: دُم على عبادة ربك، والثناء عليه. وقيل: هما صلاتا العصر والفجر. وقيل: قل: سبحان الله، وبحمده.

٥٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ لا وقف

إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا

عليه؛ لأن خبر إن ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تعظم، وهو إرادة التقدم؛ والرياسة، وألا يكون أحد [فوقهم] ^(١) فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم، ويكونوا تحت يدك، وأمرك، ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة. أو: إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً، وبغياً. ويدل عليه قوله:

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو: إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ﴾ ببالغي موجب الكبر ومقتضاه، وهو متعلق بإرادتهم من الرياسة، والنبوة، أو: دفع الآيات ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك، ويبغي عليك ﴿إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ بما تقول ويقولون ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرهم عليهم، وعاصمك من شرهم.

٥٧- ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ لما كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة، ومدارها، حجوا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، فإن من قدر على خلقها مع عظمها، كان على خلق الإنسان مع مهانتها أقدر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتأملون؛ لغلبة الغفلة عليهم.

٥٨- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ﴾ «لا» زائدة ﴿قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. بتاءين: كوفي. وبياء، وتاء: غيرهم. و﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: تذكر أقل قليلاً يتذكرون. و﴿مَا﴾ صلة زائدة.

٥٩- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا﴾ لا بد من مجيئها، وليس بمرتاب فيها؛

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

لأنه لا بد من جزاء؛ لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها.

٦٠- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم . فالدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ هذه الآية ﷺ^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: وُحِّدوني أغفر لكم. وهذا تفسير للدعاء بالعبادة. ثم للعبادة بالتوحيد. وقيل: سلوني أعطكم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾: مكّي، وأبو عمرو ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرین.

٦١- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هو من الإسناد المجازي، أي: مبصراً فيه؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، ولم يكونا حالين، أو: مفعولاً لهما، رعاية لحق المقابلة؛ لأنهما متقابلان معنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه؛ فانت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، لم تتميز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة. ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج؟! وساكن لا ریح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ولم يقل: لَمْفَضِّلٌ، أو: لَمْتَفَضِّلٌ؛ لأن المراد تكثر الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم؛ حتى لا يتكرر ذكر الناس؛ لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

(١) رواه أحمد (٢٦٧/٤) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٢٤٧) وابن ماجه (٣٨٢٨).

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَن تَوَفَّكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

٦٢- ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من: الإلهية والربوبية، وخلق كل شيء، والوحدانية ﴿فَاَن تَوَفَّكُونَ﴾ فكيف، ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟!

٦٣- ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كل من جحد بآيات الله، ولم يتأملها، ولم يطلب الحق؛ أفك كما أفكوا.

٦٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقراً ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذيات ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦٥- ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: والحمد لله رب العالمين.

٦٦- ولما طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان نزل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ هي: القرآن، وقيل: العقل، والوحي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أستقيم، وأنقاد ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ بَصَرُؤُنَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أصلكم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ اقتصر على الواحد؛ لأن المراد بيان الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: ﴿ثُمَّ﴾ يبيكم ﴿لِتَبْلُغُوا﴾. وكذلك ﴿ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين: مكّي، وحزة، وعلي، وحماد، ويحيى، والأعشى ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: من قبل بلوغ الأشد، أو: من قبل الشيخوخة ﴿وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى﴾ معناه: ﴿و﴾ يفعل ذلك ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الموت، أو: يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر، والحجج.

٦٨- ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فإنما يكونه سريعاً من غير كلفة.

٦٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ بَصَرُؤُنَ﴾ ذكر الجدل في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام، أو: ثلاثة أصناف، أو: للتأكيد.

٧٠- ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٧١، ٧٢- ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إذ: ظرف زمان ماض، والمراد به الاستقبال هنا؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا لأن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها، عبر عنها بلفظ ما كان، ووجد، والمعنى: على الاستقبال ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾. والخبر: ﴿في أعناقهم﴾. والمعنى: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ﴾ والسلاسل في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في الحميم يمزون

ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُزِّلَتْكَ

في الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من: سجر التثور: إذا ملأه بالوقود، ومعناه: أنهم في النار، فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار، مملوءة بها أجوافهم.

٧٣، ٧٤- ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: تقول لهم الحزنة: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ يعني: الأصنام التي تعبدونها ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء، إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة، أو: طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا، أو: كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين؛ الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين.

٧٥- ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق، وهو: الشرك، وعبادة الأوثان. فيقال لهم:

٧٦- ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم - قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود ﴿فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، جهنم.

٧٧- ﴿فَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بإهلاك الكفار ﴿حَقٌّ﴾ كائن. ﴿فَكَيْمَا نُزِّلَتْكَ﴾ أصله: فإن نزل، و﴿ما﴾ مزيدة، لتوكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن:

بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

إِذَا تَكْرَمَنِي أَكْرَمَكَ ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ هذا الجزء متعلق بتتوفايتك، وجزء ﴿نريتك﴾ محذوف، وتقديره: ﴿فإِذَا نريتك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب، وهو: القتل يوم بدر، فذاك ﴿أو﴾ إن ﴿تتوفايتك﴾ قبل يوم بدر ﴿فإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشد الانتقام.

٧٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى أهمهم ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علي - رضي الله عنه -: إن الله تعالى بعث نبياً أسود، فهو ممن لم تذكر قصته في القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً، يعني: إِنَّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة. وهو وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون؛ الذين اقترحوا الآية ^(١).

٧٩- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.

٨٠- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: الألبان، والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها، وعلى الفلك في البر، والبحر.

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: الآيات عناداً.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾

٨١- ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أنها ^(١) من عند الله. و﴿أَيَّ﴾ نصب بـ ﴿تُنْكِرُونَ﴾. وقد جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فآية آيات الله قليل؟ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حار وحارة غريب، وهي في «أَيَّ» أغرب لإيهامه.

٨٢- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بدلاً ^(٢) ﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ قصوراً، ومصابيح ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ - ما نافية - ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

٨٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي: أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا، والظلف ^(٣) عن الملاذ والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا: أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم الفلاسفة والديريين؛ فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه، وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى - عليه السلام - وقيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذبون، فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. أو: المراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، مرحين. ويدل عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. أو: الفرح للرسول، أي: الرسل لما رأوا جهلهم،

(١) زاد في الأصل المخطوط: ليست، ولم تر إثباتها؛ لأن المعنى سيتغير.

(٢) كذا في الأصل المخطوط، و«بدل الشيء»: الخلف منه.

(٣) «الظلف»: الكف.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمُوهُمَا كَفَرْنَا بَمَا كُتِّبَ بِهِمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

واستهزاءهم بالحق، وعلموا سوء عاقبتهم، وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم، واستهزائهم، فرحوا بما أوتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحق بالكافرين جزاء جهلهم، واستهزائهم.

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمُوهُمَا كَفَرْنَا بَمَا كُتِّبَ بِهِمْ مُّشْرِكِينَ﴾.

٨٥- ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يصح، ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿سُنَّتَ اللَّهُ﴾ - بمنزلة وعد الله، ونحوه من المصادر المؤكدة - ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع، وأن العذاب نازل بمكذبي الرسل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾: مكان مستعار للزمان. والكافرون خاسرون في كل أوان، ولكنه يتبين خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات: أن ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾؛ و﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ كقوله: رزق زيد المال، فمنع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء؛ و﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ كأنه قال: فكفروا ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ آمنوا. وكذلك ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصَّلَاتٍ ءَايَاتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝

٣، ١ - ﴿حَمْدٌ﴾ إن جعلته اسماً للسورة كان مبتدأ، و: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: خبره. وإن جعلته تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف. و﴿كِتَابٌ﴾ بدل من تنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: مبتدأ ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفة ﴿كَتَبْتُ﴾ خبره ﴿فُصِّلْتُ ءَايَاتُهُمْ﴾ مبرز، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من: أحكام، وأمثال، ومواعظ، ووعد، ووعد، وغير ذلك ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل ﴿قُرْءَانًا﴾ من صفة كيت وكيت، أو: على الحال، أي: ﴿فُصِّلْتُ آيَاتُهُ﴾ في حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لِقَوْمٍ﴾ عرب ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ما نزل عليهم من الآيات المفصلة، الميَّنة بلسانهم العربي. و﴿لِقَوْمٍ﴾ يتعلق بتنزيل، أو: بفضلت. أي: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ من الله لأجلهم، أو: ﴿فُصِّلْتُ آيَاتُهُ﴾ لهم. والأظهر أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده. أي: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كائناً ﴿لِقَوْمٍ﴾ عرب.

٤ - ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان لقُرْءَانًا ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي:

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

لا يقبلون، من قولك: تشفعت إلى فلان، فلم يسمع قولي، ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله، ولم يعمل بمقتضاه، فكأنه لم يسمعه.

٥- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية، جمع: كنان، وهو: الغطاء ﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ ستر. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق، واعتقاده، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، ومجّ أسماعهم له، كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين، كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً، وحاجزاً منيعاً من جبل، أو: نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَأَعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ على ديننا. أو: ﴿فَاعْمَلْ﴾ في إبطال أمرنا ﴿إِنَّا عاملون﴾ في إبطال أمرك. وفائدة زيادة ﴿مِنْ﴾ أن الحجاب ابتداءً منا، وابتداءً منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. ولو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾. ووجهه: أنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم، فصحت نبوتي بالوحي إليّ وأنا بشر، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد، وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

٧- ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لا يؤمنون بوجوب الزكاة، ولا يعطونها، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو: الإيمان ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ بالبعث،

﴿٧﴾ هُمْ كَفَرُونَ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَفَرُونَ﴾ وإنما جمع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، ونصوح طويته. وما خدع^(١) المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة^(٢) من الدنيا، فقرت عصبيتهم، ولانت شكيمتهم. وما ارتدت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها.

٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع. قيل: نزلت في المرضى، والزمى، والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة، كتب لهم الأجر كما كانوا يعملون^(٣).

٩- ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والإثنين، تعليماً للأناة، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَندَادًا﴾ شركاء، وأشباهاً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع الموجودات، وسيدها، ومربيها.

١٠- ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رُوسَىٰ﴾ جبلاً ثوابت ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾. وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك، وهو: الله عز وجل ﴿وَبَرَكَ﴾ بالماء، والزرع، والشجر، والثمر ﴿فِيهَا﴾ في الأرض. وقيل: ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها، ومعاشهم، وما يصلحهم. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وقسم فيها أقواتها) ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تنمة أربعة أيام. يريد بالتنمة: اليومين، تقول: سرت من البصرة

(١) استعمال «خدع» غير لائق؛ لأنه ﷺ إنما تألفهم من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(٢) «اللمظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.

(٣) أي: في حال صحتهم.

سَوَاءٌ لِّلسَّالِئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

إلى بغداد في عشرة، وإلى الكوفة في خمسة عشر، أي: في تامة خمسة عشر. ولا بد من هذا التقدير؛ لأنه لو أجري على الظاهر لكانت ثمانية أيام، لأنه قال: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ ثم قال: ﴿وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام﴾ ثم قال: ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ فيكون خلاف قوله ﴿في ستة أيام﴾ في موضع آخر. وفي الحديث: «إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والعمران، والخراب، فتلك أربعة أيام. وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة، وخلق آدم - عليه السلام - في آخر ساعة من يوم الجمعة»^(١). قيل: هي الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿سَوَاءٌ﴾: يعقوب، صفة للأيام، أي: في أربعة أيام مستويات، تامات ﴿سَوَاءٌ﴾: يزيد، أي: هي سواء. غيرهما: على المصدر، أي: استوت ﴿سواء﴾ أي: استواء، أو: على الحال ﴿لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ متعلق بـ ﴿قَدَّرَ﴾، أي: قدر فيها الأوقات لأجل الطالين لها، المحتاجين إليها؛ لأن كلاً يطلب القوت، ويسأله، أو: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها؟

١١ - ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد. تقول العرب: فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا، يريدون: أنه أكمل الأول، وابتدأ الثاني. ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض. وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما - . وعنه: أنه قال: أول ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة، في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع، واجتمع زبد، فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً، والدخان سماء.

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٧) ومسلم (٢٧٨٩).

فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتنالهما: أنه أراد أن يكونتهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالأمر المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع. وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: اثتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، اثتي يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، واثتي يا سماء مقيية سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضياً. وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين، أو: مكرهتين. وإنما لم يقل طائعتين على اللفظ، أو: طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات، وأرضون؛ لأنهن لما جعلن مخاطبات ومحبيات، ووصفن بالطوع والكره قيل: ﴿طائعتين﴾ في موضع طائعات، كقوله: ﴿سَجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

١٢ - ﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾ فأحكم خلقهن. قال:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا^(١)

والضمير يرجع إلى السماء؛ لأن السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بقوله: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. والفرق بين النصيبين: أن الأول: على الحال، والثاني: على التمييز، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في يوم الخميس، والجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها، ودبره من خلق الملائكة والنيران، وغير ذلك ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبة من الأرض ﴿بِمَصْبِيحٍ﴾ بكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظاً ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمواقع الأمور.

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب، وعجزه: داود؛ أو صنع السوابغ تُنع.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

١٣- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ عذاباً شديداً الوقع، كأنه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾.

١٤- ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كل جانب، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم، وعذاب الآخرة. ﴿أَنْ﴾ بمعنى أي، أو: مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا﴾ أي: القوم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل - فمفعول شاء محذوف - ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. معناه: فإذا أنتم بشر، ولستم بملائكة، فإننا لا نؤمن بكم، وبما جئتم به. وقوله: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقوله: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء؛ الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

رُوي: أن قريشاً بعثوا عتبة بن ربيعة - وكان أحسنهم حديثاً - ليكلّم رسول الله ﷺ وينظر ما يردُّ. فأتاه وهو في الحطيم، فلم يسأل شيئاً إلا أجابه، ثم قرأ ﷺ عليه السورة إلى قوله: ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ فناشده بالرحم، وأمسك على فيه، ووثب مخافة أن يصبّ عليهم العذاب، فأخبرهم به، وقال: لقد عرفتُ السحر والشعر، فوالله ما هو بساحر ولا بشاعر، فقالوا: لقد صبأت، أما فهمت منه كلمة؟ فقال: لا، ولم أهتم إلى جوابه، فقال عثمان بن مظعون: ذلك والله لتعلموا أنه من رب العالمين.

ثم بيّن ما ذكر من صاعقة عاد وثمود، فقال:

١٥- ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تعظّموا فيها على أهلها

وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَلُونِ

بما لا يستحقّون به التعظّم، وهو القوة، وعظم الأجرام. أو: استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أنّ الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ أولم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أوسع منهم قدرة؛ لأنّه قادرٌ على كلّ شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿وكانوا ينادوننا ينجّدهم﴾ معطوف على ﴿فاستكبروا﴾، أي: كانوا يعرفون أنّها حق، ولكنهم جحدوها، كما يجحد المودعُ الوديعة.

١٦- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة تصرصر، أي: تصوت في هبوبها، من: الصرير. أو: باردة، تحرق بشدّة بردها. تكرير لبناء الصرّ، وهو البرد. قيل: إنّها الدبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم ﴿نَحْسَاتٍ﴾: مكّي، وبصري، ونافع. نُحِسْ نَحْسًا: نقيض سعد سعدًا. وهو نحس. وأما نحس فإمّا مخفف نحس، أو: صفة على فعل، أو: وصف بمصدر. وكانت من الأربعاء في آخر سؤال إلى الأربعاء. وما عذب قوم إلّا في الأربعاء ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذاب إلى الخزي، وهو: الذلّ، على أنّه وصف للعذاب، كأنّه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد الفعل السيّء، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي. ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به، فشتان ما بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ من الأصنام التي عبدوها، على رجاء النصر لهم.

١٧- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع على الابتداء هو الفصيح لوقوعه بعد حرف الابتداء. والخبر: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾. وبالنصب المفضل بإضمار فعل يُفسّره ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم الرشد ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب ﴿الهُونِ﴾ الهوان، وصف

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا

به العذاب مبالغة، أو: أبدله منه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكسبهم، وهو شركهم ومعاصيهم. وقال الشيخ أبو منصور: يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين كما يتنا، ويحتمل خلق الاهتداء فيهم، فصاروا مهتدين، ثم كفروا بعد ذلك، وعقروا الناقة؛ لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان، والتوفيق، وخلق فعل الاهتداء. فأما الهدى المضاف إلى الخلق يكون بمعنى البيان لا غير. وقال صاحب «الكشاف» فيه: فإن قلت: أليس معنى قولك هديته حصّلت فيه الهدى؟ الدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم، فأزاح عللهم، ولم يبق لهم عُذْرًا، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها، ويقتضيها.

وإنما تمحل بهذا؛ لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء؛ لأنه يخالف مذهبه الفاسد.

١٨- ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: اختاروا الهدى على العمى من تلك الصاعقة ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اختيار العمى على الهدى.

١٩- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أي: الكفار من الأولين والآخرين. ﴿نَحْشُرُ أَعْدَاءَ﴾: نافع، ويعقوب ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار. وأصله: من وزعته، أي: كلفته.

٢٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ صاروا بحضرتها. و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ شهادة الجلود باللامسة للحرام، وقيل: هي كناية عن الفروج.

٢١- ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاضهم من شهادتها عليهم

قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيهِ تَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان. والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله؛ الذي قدر على إنطاق كل حيوان ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي: وهو قادرٌ على إنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم، ورجعكم إلى جزائه.

٢٢- ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشاهدتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث، والجزاء أصلاً ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولكنكم إنما استترتم لظنكم: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم.

٢٣- ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَسْخَبَ لَكُمْ﴾ وذلك الظن هو الذي أهلككم ﴿وَذَلِكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمْ﴾ خبر. و﴿الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ صفة، و﴿أَرَدْتُمْ﴾ خبر ثان. أو: ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدل من ذلكم، و﴿أَرَدْتُمْ﴾ الخبر ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٢٤- ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الشقاء في النار ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يطلبوا الرضا فمالهم من المرضيين، أو: وإن يسألوا العتبي - وهي: الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه - لم يعتبوا: لم يُعطوا العتبي، ولم يُجابوا إليها.

٢٥- ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدرنا لمشركي مكة، يقال: هذان ثوبان قِضَانُ أي: مثلان. والمقايضة: المعاوضة. وقيل: سلطنا عليهم ﴿قُرْآنًا﴾ أخذاناً من الشياطين؛ جمع قرين، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ

فَرِيتُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِنَ الْجَحَنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
 وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ

فَرِيتُ ﴿[الزخرف: ٣٦]﴾ ﴿فَرِيتُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم، وما هم عازمون عليها. أو: ﴿ما بين أيديهم﴾ من أمر الدنيا، واتباع الشهوات ﴿وما خلفهم﴾ من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِي أَمْرٍ﴾ في جملة أمم. ومحله النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾، أي: ﴿حق عليهم القول﴾ كائنين ﴿فِي﴾ جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿مِنَ الْجَحَنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ هو تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم، وللأمم.

٢٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قرئ ﴿وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتى تشوشوا عليه، وتغلبوا على قراءته. واللغو: الساقط من الكلام؛ الذي لا طائل تحته.

٢٧- ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاعنين، والأمين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطوي تحت ذكرهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿ولنجزينهم﴾ أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر.

٢٨- ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الأسوأ. ويجب أن يكون التقدير: ﴿أسوأ﴾ جزاء ﴿الذي كانوا يعملون﴾ حتى تستقيم هذه الإشارة ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: النار في نفسها دار الخلد. كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها ﴿جَزَاءُ﴾ أي: جوزوا بذلك جزاء ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٢٩- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وبسكون الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ فخذ: مكّي، وشامي، وأبو بكر. وبالاختلاس: أبو عمرو ﴿الَّذِينَ

أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ جَعَلَهُمَا نَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

أَضَلَّانَا ﴿٢٩﴾ أي: الشيطانين الذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ لأن الشيطان على صريين: جنّي، وإنسي. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] - ﴿جَعَلَهُمَا نَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ في النار جزاء إضلالهم إيانا.

٣٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: نطقوا بالتوحيد ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن الصديق - رضي الله عنه -: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشده. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر - رضي الله عنه -: «لم يروغوا وروغان الثعالب» أي: لم ينافقوا. وعن عثمان - رضي الله عنه -: أخلصوا العمل. وعن عليّ - رضي الله عنه -: أدوا الفرائض. وعن الفضيل - رحمه الله -: زهدوا في الفانية، ورجبوا في الباقية.

وقيل: حقيقة الاستقامة: القرار بعد الإقرار، لا الفرار بعد الإقرار - ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أن بمعنى: أي، أو: مخففة من الثقلية. وأصله: بأنه ﴿لا تخافوا﴾ والهاء ضمير الشأن، أي: لا تخافوا ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم. فالخوف: غمّ يلحق الإنسان لتوقع المكروه، والحزن: غمّ يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو: حصول ضرر. والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غمّ فلن تذوقوه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا. وقال محمد بن عليّ الترمذي: ﴿تتنزل عليهم﴾ ملائكة الرحمن، عند مفارقة الأرواح عن الأبدان، ﴿أن لا تخافوا﴾ سلب الإيمان، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما كان من العصيان، ﴿وَأَبشروا﴾ بدخول الجنان ﴿التي كنتم توعدون﴾ في سالف الأزمان.

٣١ - ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كما أن الشياطين، قرناء

وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزْلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين، وأحبّاءهم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تتمنون.

٣٢- ﴿تَزْلَا﴾ هو رزق التزليل، وهو: الضيف. وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَا﴾ ﴿مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ نعت له.

٣٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ هو رسول الله - ﷺ - دعا إلى التوحيد ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ خالصاً ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً بالإسلام، ومعتقداً له. و: أصحابه عليه الصلاة والسلام، أو: المؤذنون، أو: جميع الهداة، والدعاة إلى الله.

٣٤- ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: أن السيئة والحسنة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان، فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة، فالحسنة أن تغفوَ عنه، والتي هي أحسن أن تحسنَ إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمَّك فتمدحه، أو: يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الوليِّ الحميم مصافاة لك. ثم قال:

٣٥- ﴿وَمَا يُلْقُهَا﴾ أي: وما يلقي هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إلا أهل الصبر ﴿وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إلا رجل خير، وفق لحظّ عظيم من الخير. وإنما لم يقل: فادفع بالتي هي أحسن؛ لأنه على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. وقيل: ﴿لَا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: لا تستوي الحسنة والسيئة. وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، ولكن وضع «التي هي

وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

أحسن» موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنَّ مَنْ دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿بالتي هي أحسن﴾: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن: والله ما عظم حظّ دون الجنة. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدواً مؤذياً للنبي ﷺ، فصار ولياً مُصافياً.

٣٦- ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه؛ يبعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، أو: أريد ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ نازغ، وصفاً للشيطان بالمصدر، أو: لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عمّا وُصِّيتَ به من الدفع بالتّي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على حلمك، ولا تطعه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنزغ الشيطان.

٣٧- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدر، ونور مقرر ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. الضمير في ﴿خلقهن﴾ للآيات، أو: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى، أو: الإناث، تقول: الأقلام بريتها، وبريتهن. ولعلّ ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصّابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى، فنّهوا عن هذه الوساطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً إن كانوا إيّاه يعبدون، وكانوا موحدّين غير مشركين، فإنّ مَنْ عبّد مع الله غيره لا يكون عابداً لله.

٣٨- ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ ﴿٣٨﴾ لا يملّون. والمعنى: ﴿فإن استكبروا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به، وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشأنهم، فإن الله تعالى لا يعدم عابداً وساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون؛ الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد. و﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى، والمكانة، والكرامة. وموضع السجدة عندنا ﴿لا يسأمون﴾، وعند الشافعي - رحمه الله - عند ﴿تعبدون﴾. والأول أحوط.

٣٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة مغبرة. والخشوع: التذلل، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورة.

٤٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا ^(١) - يقال: ألحد الحافر ولحد؛ إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. ﴿يُلْحِدُونَ﴾ حمزة - ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ هذا نهاية في التهديد، ومبالغة في الوعيد ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

٤١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ بالقرآن؛ لأنهم لكفروهم به طعنوا فيه، وحرّفوا تأويله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حين جاءهم. وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، أي: يعذبون، أو: هالكون. أو: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع، محمي بحماية الله.

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ

٤٢ - ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ التبديل، أو: التناقض ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: بوجه من الوجوه ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ مستحق للحمد.

٤٣ - ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٤٤ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة العجم. كانوا لتعتنهم يقولون: هلاً نزل القرآن بلغة العجم! فقل: لو كان كما يقترحون ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ﴾ - أي: بيّنت - بلسان العرب حتى نفهمها - تعنتاً - ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ^(١) بهمزيّن كوفي غير حفص، الهمزة للإنكار، يعني: لأنكروا، وقالوا: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ قرآن ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ ورسول ﴿عَرَبِيٌّ﴾ أو: مرسل إليه عربي. الباقيون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة. والأعجمي: الذي لا يفصح، ولا يفهم كلامه، سواء كان من العجم أو العرب. والعجمي منسوب إلى أمة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح. والمعنى: إن آيات الله على أيّ طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأنهم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم. وفيه إشارة إلى أنه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة - رحمه الله - في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ إرشاد إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من الشك؛ إذ

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾. وهي قراءة: حزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وروح. معجم القراءات القرآنية (٧٥/٦).

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ

الشك مرض ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ في موضع الجز لكونه معطوفاً على ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: هو ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هدى وشفاء و﴾ هو لـ ﴿الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم، إلا أن فيه عطفًا على عاملين، وهو جائز عند الاختصاص. أو: الرفع، وتقديره: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ هو ﴿في آذانهم وقر﴾ على حذف المبتدأ، أو: ﴿في آذانهم﴾ منه ﴿وقر﴾ وهو: أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم، كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة. وقيل: ﴿ينادون﴾ في القيامة ﴿من مكان بعيد﴾ بأقبح الأسماء.

٤٥- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ - فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل - كما اختلف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكهم إهلاك استتصال. وقيل: الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تُفصل في ذلك اليوم. ﴿ولولا﴾ ذلك ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن الكفار ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

٤٦- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾، فنفسه نفع ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيعذب غير المسيء.

٤٧- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها يرد إليه، يجب على المسؤول أن يقول: الله يعلم ذلك ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ - : مدني، وشامي، وحفص. غيرهم: بغير ألف - ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها قبل أن تنشق - جمع كم - ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ حملها ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضح إلا وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل،

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ
وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّهُ
لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

وساعاته، وأحواله من: الخداج، والتمام، والذكورة، والأنوثة، والحسن،
والقبح، وغير ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أضافهم إلى نفسه على
زعمهم، وبيانه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم. وفيه تهكم، وتقرير
﴿قَالُوا أَدْذَنْكَ﴾ أعلمناك، وقيل: أخبرناك، وهو الأظهر؛ إذ الله تعالى كان عالماً
بذلك. وإعلام العالم محال، أما الإخبار للعالم بالشيء فيتحقق بما علم به، إلا
أن يكون المعنى: إنك علمت من قلوبنا الآن: أنا لا نشهد تلك الشهادة
الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي:
مما أحد يشهد بأن لك شريكاً، وما منا إلا من هو موحد لك. أو: ﴿مَا مِنَّا
من﴾ أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم، وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في
ساعة التوبخ. وقيل: هو كلام الشركاء. أي: ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يشهد بما
أضافوا إلينا من الشراكة.

٤٨- ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَضَلُّوا﴾
وأيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ﴾ مهرب.

٤٩- ﴿لَا يَسْتَمُ﴾ لا يمل ﴿الْإِنْسَانُ﴾ الكافر - بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] - ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة،
والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِنْ مَسَّهُ
الشَّرُّ﴾ الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة. بولغ فيه من طريقين:
من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير. والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس
فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله، وروحه. وهذا صفة الكافر؛
بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِشْنَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٥٠- ﴿وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وإذا فرجنا عنه
بصحة بعد مرض، أو: سعة بعد ضيق، قال: ﴿هَذَا لِي﴾ أي: هذا حقّي وصل

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

إِلَيَّ؛ لَأَتِي استوجبه بما عندي من خير، وفضل، وأعمال برّ. أو: ﴿هذا لي﴾ لا يزول عني ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: ما أظنها تكون قائمة ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كما يقول المسلمون: ﴿إِنِّي لِي عِنْدَهُ﴾ عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة. أو: الحالة الحسنى من الكرامة، والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد، لا يفتر عنهم.

٥١- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة، فنسي المنعم، وأعرض عن شكره ﴿وَنَسَا بِجَانِبِهِ﴾ وتباعد عن ذكر الله، ودعائه، أو: ذهب بنفسه، وتكبر، وتعظم، وتحقيقه: أن يوضع جانبه موضع نفسه؛ لأنّ مكان الشيء وجهته ينزل منزلة نفسه، ومنه قول الكتاب: وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون: نفسه، وذاته، فكأنه قال: وناء بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر، والفقر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتغال، والتضرّع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام، كما استعير الغلظ لشدة العذاب. ولا منافاة بين قوله: ﴿فِيؤوس قنوط﴾ وبين قوله: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن الأول في قوم، والثاني في قوم. أو: قنوط في البرّ، وذو دعاء في البحر. أو: قنوط بالقلب، ذو دعاء باللسان. أو: قنوط من الصنم، ذو دعاء لله تعالى.

٥٢- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ ثم جحدتم أنّه من عند الله ﴿مَّنْ أَضَلُّ﴾ منكم؟ إلاّ أنّه وضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضع منكم بياناً لحالهم، وصفتهم.

سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتِهِمْ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُونُوا يَكْفُورُونَ ﴿٥٤﴾

٥٣- ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكة ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو: الإسلام ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ موضع ﴿بِرَبِّكَ﴾ الرفع على أنه فاعل، والمفعول محذوف. وقوله: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، أي: أولم تكفهم شهادة ربك على كل شيء. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب؛ الذي هو على كل شيء شهيد.

٥٤- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتِهِمْ﴾ شك ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُونُوا يَكْفُورُونَ﴾ عالم بجمل الأشياء، وتفاصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية، فيجازيهم على كفرهم، ومريتهم في لقاء ربهم.

* * *

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَأْتِ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾

١، ٢- فصل ﴿حَمْدٌ﴾ من ﴿عَسَقٌ﴾ كتابة مخالفاً لـ: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١] تلفيقاً بأخواتها، ولأنه آيتان و﴿كَهَيْعَصَ﴾ آية واحدة.

٣- ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ذلك الوحي، أو: مثل ذلك الكتاب ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿اللَّهُ﴾ يعني: أَنَّ ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى من قبلك، يعني: إلى رسله. والمعنى: أَنَّ الله كرّر هذه المعاني في القرآن، وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس من نبيٍّ صاحب كتاب إلا أوحى إليه بـ ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ ﴿يُوحَىٰ﴾ بفتح الحاء: مكّي، ورافع اسم ﴿اللَّهُ﴾ على هذه القراءة مادّل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾ كأن قائلًا قال: مَنْ الموحى؟ فقيل: الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب بقره ﴿الْحَكِيمُ﴾ المصيب في فعله، وقوله.

٤- ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكاً وَمِلْكاً ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ شأنه ﴿الْعَظِيمُ﴾

برهانه.

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

- ٥- ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ - وبالباء: نافع، وعليّ - ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ -
يتشققن. ﴿ينفطرن﴾ بصريّ، وأبو بكر. ومعناه: يكدن ينفطرن من علو شأن
الله وعظمته، يدلّ عليه مجيئه بعد: ﴿العليّ العظيم﴾. وقيل: من دعائهم له
ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. ومعنى ﴿من
فوقهن﴾ أي: يبتدىء الانفطار من جهتهنّ فوقانيّة، وكان القياس أن يقال:
ينفطرن من تحتهنّ، من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنّها جاءت من
الذين تحت السموات، ولكنه بولغ في ذلك؛ فجعلت مؤثرة في جهة الفوق،
كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهنّ، دع الجهة التي تحتهنّ. وقيل:
﴿من فوقهن﴾ من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض؛ لأنه بمعنى
الأرضين. وقيل: يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة. قال عليه الصلاة
والسلام: «أطت السماء وحُق لها أن تتطّ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك
قائم أو راعع أو ساجد»^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعاً لما يرون من
عظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ للمؤمنين منهم - كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] - خوفاً عليهم من سطواته، أو: يوحدون الله، وينزهونه
عما لا يجوز عليه من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من الطافه، متعجبين
تأوا من تعرضهم لسخط الله تعالى، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ لمؤمني أهل الأرض؛
الذين تبرّؤوا من تلك الكلمة، أو: يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض،
ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لهم.

- ٦- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: جعلوا له شركاء، وأنداداً ﴿اللَّهُ
حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، فيجازيهم
عليها ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بموكل عليهم، ولا مفوض إليك
أمرهم، إنما أنت منذر فحسب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ

٧- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أن الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر؛ لأن هذا المعنى كرره الله في كتابه، فالكاف: مفعول به لأوحينا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي: أوحينا إليك، وهو قرآن عربي بين ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي: مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنها أشرف البقاع، والمراد: أهل أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلائق تجمع فيه ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له، يقال: أنذرت كذا، وأنذرت بكذا. وقد عدي ﴿لتنذر أم القرى﴾ إلى المفعول الأول ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ إلى المفعول الثاني ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: ومنهم ﴿فريق في الجنة﴾ ومنهم ﴿فريق في السعير﴾ والضمير للمجموعتين؛ لأن المعنى: يوم جمع للخلائق.

٨- ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلهم ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: يكرم من يشاء بالإسلام، ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

٩- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الفاء لجواب شرط مقدر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا ولياً بحق ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ بالحق، وهو الذي يجب أن يؤلى وحده، ولا ولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

١٠- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلقتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، ﴿فَحُكْمُهُ﴾ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين ﴿ذَلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم

اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيه ردُّ كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كفاية شرهم. وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم؛ التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح، وغيره.

١١ - ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ارتفاعه على أنه أحد أخبار ﴿ذلكم﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يكثركم. يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم، وكثرهم ﴿فيه﴾ - في هذا التدبير، وهو: أن جعل الناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد؛ والتناسل. واختير ﴿فيه﴾ على به؛ لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبت، والتكثير. والضمير في ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب تماماً لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل، وتقديره: ليس مثله شيء، وقيل: المثل زيادة، وتقديره: ليس كهو شيء. كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. وقيل: المراد ليس كذاته شيء؛ لأنهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به: نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدّه فقد نفوه عنه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ليس كمثل شيء، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفي المماثلة عن ذاته. ونحوه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فمعناه: بل هو جوادٌ من غير تصوّر يد، ولا بسط لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، ومن لا مثل له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع

الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

المسموعات بلا أذن ﴿الْبَصِيرُ﴾ لجميع المراتب بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له.

١٢- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَرَّ فِي «الزمر» ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يَضِيقُ. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣- ﴿شَرَعَ﴾ بَيْنَ، وَأَظْهَرَ ﴿لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أَي: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ دِينُ نُوحٍ وَمُحَمَّدٍ وَمَنْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ثُمَّ فَسَّرَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي اشْتَرَكَ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامُ مِنْ رِسَلِهِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وَالْمُرَادُ: إِقَامَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَطَاعَتُهُ، وَالْإِيمَانُ بِرِسَلِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبُيُوتِ الْجَزَاءِ، وَسَائِرُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ بِإِقَامَتِهِ مُسْلِمًا، وَلَمْ يَرُدَّ بِهِ الشَّرَائِعُ فَإِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وَمَحَلٌّ ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ نَصَبَ بَدَلٍ مِنْ مَفْعُولِ ﴿شَرَعَ﴾ وَالْمَعْطُوفِينَ عَلَيْهِ. أَوْ: رَفَعَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا ذَلِكَ الْمَشْرُوعُ؟ فَقِيلَ: هُوَ إِقَامَةُ الدِّينِ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ فِيهِ ﴿وَلَا تَخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ. قَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لَا تَتَفَرَّقُوا، فَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةً، وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عَظُمَ عَلَيْهِمْ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ﴿مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنْ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، وَالتَّوْحِيدِ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ يَجْتَلِبُ، وَيَجْمَعُ ﴿إِلَيْهِ﴾ إِلَى الدِّينِ بِالتَّوْفِيقِ، وَالتَّسْدِيدِ ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ يَقْبَلُ عَلَى طَاعَتِهِ.

١٤- ﴿وَمَا نَفَرَقُوا﴾ أَي: أَهْلُ الْكِتَابِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْفِرْقَةَ ضَلَالٌ، وَأَمْرٌ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حَسَدًا، وَطَلَبًا لِلرَّئَاسَةِ، وَالْإِسْطَالَةِ بِغَيْرِ

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَالَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٥﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا
 أُمِرْتُ وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءُهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
 بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ
 يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

حق ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ - وهي: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾
 [القمر: ٤٦] - ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افرقوا لعظم ما افرقوا ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ
 ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان ﴿مُرِيبٌ﴾ مدخل في
 الريبة. وقيل: وما تفرق أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بمبعث
 رسول الله ﷺ - كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
 الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] - ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم المشركون
 أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب: التوراة، والإنجيل.

١٥ - ﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر
 شعباً ﴿قَادَعُ﴾ إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الخنيفية القديمة ﴿وَأَسْتَقِمَ﴾
 عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءُهُمْ﴾
 المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب صح أن الله
 تعالى أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض،
 وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله:
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١] - ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ في
 الحكم إذا تخاضتم فتحاكمتم إلي ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: كلنا عبيده ﴿لَنَا
 أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].
 ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نؤاخذ بأعمالكم، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لَا
 حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا خصومة؛ لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به،
 فلا حاجة إلى المحااجة، ومعناه: لا إيراد حجة بيننا؛ لأن المتحاجين يورد هذا
 حجته وهذا حجته ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل
 لقضاء، فيفصل بيننا، وينتقم لنا منكم.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

١٦- ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، ليردوهم إلى دين الجاهلية - كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، وأولى بالحق. وقيل: ﴿من بعد ما استجيب﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام دعاؤه في المشركين يوم بدر - ﴿جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً﴾: باطلة - وسمّاها حجة - وإن كانت شبهة - لزعمهم أنها حجة - ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

١٧- ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أي: ملتبساً به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزل. وقيل: هو عين الميزان، أنزله في زمن نوح - عليه السلام - ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: لعل الساعة قريب منك وأنت لا تدري. والمراد: مجيء الساعة. والساعة في تأويل البعث. ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أن الساعة يوم الحساب، ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل، والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجتكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

١٨- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون، وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ - المماراة: المراجعة؛ لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه - ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى. وقد دل الكتاب والسنة على وقوعها، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

١٩ - ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ في إيصال المنافع، وصرف البلاء من وجهٍ يلطف إداركه. أو: برّ بليغ البرّ بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم. وقيل: من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه. أو: من ينشر المناقب، ويستر المثالب. أو: من يعفو عمّن يهفو. أو: يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلفه الطاعة دون الطاقة، وعن الجنيد - رحمه الله -: لطف بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه. في الحديث: «إِنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلّا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك. وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(١) ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغْلَب.

٢٠ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ سُمِّيَ ما يعملُه العاملُ ممّا يتغي به الفائدة حَرْثاً مجازاً ﴿نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ﴾ بالتوفيق في عمله، أو: التضعيف في حسناته، أو: بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي: مَنْ كان عمله للدنيا، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ شيئاً ﴿مِنْهَا﴾ - لأنّ من للتبعيض - وهو رزقه الذي قُسم له، لا ما يريده، ويتغيه ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وماله نصيب قط في الآخرة. ولم يذكر في عوامل الآخرة أنّ رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله، وفوزه في المآب.

٢١ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ قيل: هي «أم» المنقطعة، وتقديره: بل ألهم شركاء، وقيل: هي المعادلة لألف الاستفهام. وفي الكلام إضمار، تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ آلهة ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾

وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ

أي: لم يأمر به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أو:
ولولا العدة بأنَّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين
والمؤمنين، أو: لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأن
المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة، وإن آخر عنهم في دار الدنيا.

٢٢- ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا
كَسَبُوا﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ نازلٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو
لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ﴾ كأن روضة
جنة المؤمن أطيب بقعة فيها، وأنزهها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ نصب بالظرف
لا بـ ﴿يَشَاءُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

٢٣- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الفضل الكبير ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ ﴿يُبَشِّرُ﴾: مكي، وأبو
عمرو، وحمة، وعلي ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: به، فحذف الجار،
كقوله: ﴿وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم حذف الراجع إلى
الموصول، كقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. ولما قال
المشركون: أيتنغي محمد على تبليغ الرسالة أجراً؟ نزل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على
التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. يجوز أن يكون استثناء متصلاً، أي: لا أسألكم
عليه أجراً إلا هذا، وهو: أن تودوا أهل قرابتي. ويجوز أن يكون منقطعاً،
أي: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم
قرابتكم ولا تؤذوهم. ولم يقل إلا مودة القربى، أو: المودة للقربى؛ لأنهم
جعلوا مكاناً للمودة، ومقرراً لها، كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم حب
شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبي ومحله. وليست ﴿في﴾ بصلة للمودة
كاللام، إذا قلت: إلا المودة للقربى، إنما هي متعلقة بمحذوف، تعلق الظرف

وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

به، في قولك: المال في الكيس. وتقديره: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ ثابتة ﴿في القربى﴾ وتممكت فيهما. والقربى مصدر، كالزلفى، والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: ﴿في﴾ أهل ﴿القربى﴾. وروي: أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، وابناهما - رضي الله عنهم - وقيل: معناه: إلا أن تؤدوني لقرابتي فيكم، ولا تؤدوني، ولا تهيجا علي، إذ لم يكن من بطون قريش إلا بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة، والعمل الصالح ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ يكتب طاعة. عن السدي - رحمه الله -: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - ومودته فيهم. والظاهر: العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعفها، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ (حسنى) وهو مصدر كالبشرى، والضمير يعود إلى الحسنة، أو: إلى الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بطوله ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضل. وقيل: قابل للتوبة، حامل عليها. وقيل: الشكور في صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة، وتوفية ثوبها، والتفضل على المثاب.

٢٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم» منقطعة، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ، كأنه قيل: أيتماكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى، وأفحشها؟ ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افترى على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أي: الشرك، وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ لأن محو الباطل غير مُعلّق بالشرط، بل هو وعد مطلق، دليله: تكرار اسم الله، ورفْع ﴿وَيُحْيِي﴾. وإنما سقطت الواو في الخط كما سقطت في ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿سَتَنُحِ الزَّيْبَةَ﴾ [العلق: ١٨] على أنها مثبتة في مصحف نافع ﴿وَيُحْيِي الْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام، ويثبت ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾

إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ﷺ. وقد فعل الله ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: ﴿عليهم﴾ بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك.

٢٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يقال: قبلت منه الشيء: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولي. ويقال: قبلته عنه، أي: عزلته عنه، وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما، والعزم على ألا يعود، وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصي على طريقه. وقال علي رضي الله عنه -: هو اسم يقع على ستة معان؛ على الماضي من الذنوب - الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. وعن السدي: هو صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب. وعن غيره: هو ألا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره. وعن سهل - رحمه الله -: هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد - رحمه الله -: هو الإعراض عما دون الله ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ هو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة - ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ بالتاء: كوفي غير أبي بكر، أي: من التوبة، والمعصية. ولا وقف عليه للعطف عليه، واتصال المعنى.

٢٦- ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: إذا دعوهم استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا، وزادهم على مطلوبهم. واستجاب وأجاب بمعنى. والسين في مثله لتوكيد الفعل، كقولك: تعظم، واستعظم. والتقدير: ويجيب الله الذين آمنوا، وقيل: معناه: ويستجيب للذين، فحذف اللام. من عليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا، ويعفو عن سيئاتهم، ويستجيب لهم إذا دعوهم، ويزيدهم على ما سألوا. وعن إبراهيم بن أدهم: أنه قيل له:

وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ

ما بالناس ندعوه فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

٢٧- ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: لو أغناهم جميعاً ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ من البغي: الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأسرة^(١). وكفى بحال فرعون عبدة. أو: من البغي، وهو: الكبر، أي: لتكبروا في الأرض ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ﴾ وبالتخفيف: مكّي، وأبو عمرو ﴿يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ﴾ بتقدير. يقال: قدره، قدراً، وقدرأ ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته، فيفقر ويغني، ويمنع، ويعطي، ويقبض، ويسبط، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. وما ترى من البسط على من يبغي، ومن البغي بدون البسط، فهو قليل. ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب.

٢٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وقرئ ﴿قَنَطُوا﴾ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب. وقيل لعمر - رضي الله عنه -: اشتد القحط، وقنط الناس! فقال: مُطِرُوا إذاً. أراد هذه الآية. أو أراد رحمته في كل شيء ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

٢٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من علامات قدرته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فزق و﴿مَا﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً حملاً على المضاف، أو: المضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ الدواب تكون في الأرض وحدها، لكن يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان

(١) «مأسرة»: الأشر: البطر، وهو قلة احتمال النعمة، والطغيان بها، وشدة المَرَح.

وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنما هو في فخذ^(١) من أفخاذهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْثُ وَالْمَرَّحَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح. ولا يبعد أن يخلق في السموات حيواناً يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض، أو: يكون للملائكة مشي مع الطيران، فوصفوا بالذئب كما وصف به الأناسي ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾. إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

٣٠- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بجناية كسبتموها عقوبة عليه (بما كسبت) مدني، وشامي، على أن ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿بما كسبت﴾ خبره من غير تضمين معنى الشرط، ومن أثبت الفاء فعلى تضمين معنى الشرط. وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ، وقال: لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا. وقلنا: الآية مخصوصة بالملكفين بالسباق والسياق، وهو ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقب عليه، أو: عن كثير من الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وقال ابن عطاء - رحمه الله -: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربه إليه.

وقال محمد بن حامد: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في طاعته أكثر من جنایاته في معاصيه؛ لأن جنایة المعصية من وجه، وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جنایاته بأنواع المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفو ورحمته لهلك في أول خطوة. وعن علي - رضي الله تعالى عنه -: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانياً، وإذا عفا لا يعود.

٣١- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بفاتتين ما قضيَ عليكم من المصائب

(١) «فخذ»: العشائر أقلها فخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب، وهو أكثرها.

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَنَعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ متولٍ بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حلّ بكم.

٣٢- ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي: السفينة ﴿الجواري﴾ في الحالين: مكّي، وسهل، ويعقوب. وافقهم مدني، وأبو عمرو في الوصل ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال.

٣٣- ﴿إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الرِّيحَ﴾ (الرياح): مدني ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تحجري ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، أي: لكل مؤمن مخلص. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. أو: ﴿صَبَّارٍ﴾ على طاعته ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمته.

٣٤- ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ﴾ يهلكهن، وهو عطف على ﴿يَسْكُنِ﴾ والمعنى: ﴿إِنْ يَسَاءَ يَسْكُنِ الرِّيحَ﴾ فيركدن، أو: يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازي عليها. وإنما أدخل العفو في حكم الإيباق، حيث جزم جزمه؛ لأن المعنى: أو إن يَسَاءَ يهلك ناساً، وينج ناساً على طريق العفو عنهم.

٣٥- ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب، عطف على تعليل محذوف، تقديره: لينتقم منهم ﴿وَيَعْلَمَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: في إبطالها ودفعها ﴿وَيَعْلَمَ﴾: مدني، وشامي على الاستئناف ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه.

٣٦- ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَنَعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين تصدق بجميع ماله، فلامه الناس.

وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٣٧- ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذا ما بعده ﴿كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس. (كبير الإثم): علي، وحمة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كبير الإثم هو الشرك ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنى ﴿وَالْإِثْمَ﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب. والمجيء بـ ﴿هم﴾ وإيقاعه مبتدأ، وإسناد ﴿يغفرون﴾ إليه: لهذه الفائدة. ومثله: ﴿هم ينتصرون﴾.

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به، وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به، وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأتموا الصلوات الخمس ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، يعني: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمورهم. والشورى مصدر، كالفيتا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ الظلم ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم، أي: يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم، ولا يعتدون. وكانوا يكرهون أن يذللوا أنفسهم فيجترء عليهم الفساق، وإنما حمدوا على الانتصار؛ لأن من انتصر، وأخذ حقه، ولم يجاوز في ذلك حد الله، فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم، فهو مطيع لله، وكل مطيع محمود.

٤٠- ثم بين حد الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فالأولى سيئة حقيقة، والثانية لا، وإنما سميت سيئة؛ لأنها مجازاة السوء، أو: لأنها تسوء من تنزل به، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو: في تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو، والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مبهمه لا يقاس

إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

أمرها في العظم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يدؤون بالظلم، أو: الذين يجاوزون حد الانتصار. في الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلا من عفا»^(١).

٤١ - ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: أخذ حقه بعد ما ظلم - على إضافة المصدر إلى المفعول - ﴿فَأُولَئِكَ﴾ - إشارة إلى معنى ﴿من﴾ دون لفظه - ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب.

٤٢ - ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يتدثرونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفسر السبيل بالتبعة، والحجة.

٤٣ - ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على الظلم، والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الصبر، والغفران منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي ندب إليها، أو: مما ينبغي أن يوجهه العاقل على نفسه، ولا يترخص في تركه. وحذف الراجع - أي: منه - لأنه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أجل الأحوال، ومن جزع من المصيبات، وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه، ثم لم تنفعه شكواه.

٤٤ - ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إياه، ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب - واختير لفظ الماضي للتحقيق - ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨).

وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَسِيلِ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً

٤٥- ﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار؛ إذ العذاب يدلّ عليها ﴿خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ متضائلين، متقاصرين بما يلحقهم من الذلّ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ «يوم» متعلق بخسروا - وقول المؤمنين واقع في الدنيا - أو: بـ ﴿قال﴾، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم.

٤٦- ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَسِيلِ﴾ إلى النجاة.

٤٧- ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي: أجبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يتصل بـ ﴿لا مردّ﴾، أي: لا يرده الله بعد ما حكم به، أو: بـ ﴿يأتي﴾، أي: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يقدر أحد على رده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مخلص من العذاب، ولا تقدر أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، ودون في صحائف أعمالكم. والنكير: الإنكار.

٤٨- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ المراد: الجمع ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة، وسعة، وأمناء، وصحة ﴿فَرَحَ بِهَا﴾ بطر لأجلها ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ بلاء كالمرض، والفقر، ونحوهما - وتوحيد ﴿فرح﴾

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

باعتبار اللفظ، والجمع في ﴿وإن تصبهم﴾ باعتبار المعنى - ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾. ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. والكفور: البليغ الكفران. والمعنى: أنه يذكر البلاء، وينسى النعم، ويغْمُطُهَا. قيل: أريد به كفران النعمة. وقيل: أريد به الكفر بالله تعالى.

٤٩، ٥٠ - ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرنهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾. لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة، وإصابته بضدها، أتبع ذلك: أن له تعالى الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخصّ بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً. والعقيم: التي لا تلد. وكذلك رجل عقيم؛ إذا كان لا يولد له. وقدم الإناث أولاً على الذكور، لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم. ويلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاءً ذكر البلاء. ولما أخرج الذكور - وهم أحقّاء بالتقديم - تدارك تأخيرهم لتعريفهم؛ لأنّ التعريف تنويه وتشهير. ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقّه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر، فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾. وقيل: نزلت في الأنبياء - عليهم السلام - حيث وهب للوط وشعيب إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شيء.

٥١ - ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صَحَّ لأحد من البشر ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾

أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ

أي: إلهاماً - كما روي: «نفث في روعي»^(١)، أو: رؤيا في المنام؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «رؤيا الأنبياء وحي»^(٢). وهو كأمير إبراهيم - عليه السلام - بذبح الولد - ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي: يسمع كلاماً من الله، كما سمع موسى - عليه السلام - من غير أن يبصر السامع من يكلمه. وليس المراد به حجاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوزُ عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به: أن السامع محجوبٌ عن الرؤية في الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: يرسل ملكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ الملك إليه. وقيل: ﴿وحيّاً﴾ كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أَوْ يرسل رسولاً﴾ أي: نبياً، كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وحيّاً﴾ و«أن يرسل» مصدران واقعان موقع الحال؛ لأن أن يرسل في معنى إرسالاً. و﴿من وراء حجاب﴾ ظرف واقع موقع الحال؛ كقوله ﴿وَعَلَىٰ جُثُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. والتقدير وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو: مرسلأ. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا﴾ بأن يوحى، أو: أن يُسمعَ من وراء حجاب، أو: أن يُرسلَ رسولاً، وهو اختيار الخليل. ﴿أَوْ يرسلُ رسولاً فيوحي﴾ بالرفع: نافع، على تقدير ﴿أو﴾ هو ﴿يرسل رسولاً فيوحي﴾ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ إذن الله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الوحي ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ﴾ قاهر، فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب في أقواله، وأفعاله، فلا يعارض.

٥٢- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل قبلك، أو: كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إيحاءً كذلك ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يريد: ما أوحى إليه؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم، كما يحيا الجسد بالروح. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ - الجملة حال من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾ - ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ القرآن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: شرائعه، ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ بالكتاب؛ لأنه إذا كان لا يعلم بأن الكتاب ينزل عليه لم يكن عالماً بذلك الكتاب. وقيل: الإيمان يتناول أشياء؛ بعضها الطريق إليه العقل،

(١) رواه أحمد (٥٠/٣).

(٢) رواه البخاري (٨٥٩).

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
 صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ لتدعو - وقرء به - ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الإسلام.

٥٣ - ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ - بدل - ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً ومُلكاً ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ هو وعيد بالبحيم، ووعد بالنعيم.

* * *

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَدِينًا أَلَعَلَّيْ حَكِيمٌ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ

١-٣- ﴿حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ صيرناه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً للقسم. وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه. والمبين: البين للذين أنزل عليهم؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم، أو: الواضح للمتدبرين، أو: الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

٤- ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَدِينًا﴾ وإن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، دليله قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿[البروج: ٢١ - ٢٢]﴾ وسُمِّي أم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. ﴿أم الكتاب﴾ بكسر الألف: عليّ وحمزة ﴿لَعَلَّيْ﴾ خبر إن، أي: في أعلى طبقات البلاغة، أو: رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ ﴿أ﴾ فننحي عنكم الذكر، ونذوده عنكم.

صَفْحًا ۖ أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا

على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب^(١) عن الحوض. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهم لكم ﴿فنضرب عنكم الذكر﴾ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب، وجعله قرآناً عربياً ليعقلوه، وليعملوا بمواجهه ﴿صَفْحًا﴾ مصدر، من: صفح عنه؛ إذا أعرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفغزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم. ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر؛ لأنه يقال: ضربت عنه؛ أي: أعرضت. كذا قاله الفراء ﴿أَن كُنْتُمْ﴾ لأن كنتم ﴿إن كنتم﴾: مدني، وحزة، وعليّ. وهو من الشرط الذي يصدر عن المدلّ بصحة الأمر المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملتُ لك فوقني حقّي، وهو عالم بذلك ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مفرطين في الجهالة، مجاوزين الحدّ في الضلالة.

٦- ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى من تقدّمك.

٧- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هي حكاية حال ماضية مستمرة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

٨- ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ تمييز. والضمير للمسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصّتهم، وحالهم العجيبة التي حقّها أن تسير مسير المثل^(٢). وهذا وعد لرسول الله ﷺ، ووعد لهم.

٩، ١٠- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا - : كوفي.

(١) «الغرائب»: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.

(٢) في الأصل المخطوط: مثل المسير، والمثبت من الكشاف للزمخشري (٤٧٨/٣).

وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِّتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٥﴾

أي: موضع قرار وغيره ﴿مهاداً﴾ أي: موضع قرار - ﴿وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاتاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا في أسفاركم.

١١ - ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ فأحيينا - عدول من المغاية إلى الإخبار لعلم المراد بالمخاطب بالمراد ﴿بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾ يزيد: ﴿مَّيِّتًا﴾ ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿تُخْرَجُونَ﴾: حمزة، وعلي. ولا وقف على ﴿العليم﴾ لأن ﴿الذي﴾ صفته. وقد وقف عليه أبو حاتم، على تقدير: هو ﴿الذي﴾؛ لأن هذه الأوصاف ليست من مقول الكفار؛ لأنهم ينكرون الإخراج من القبور، فكيف يقولون: ﴿كذلك تخرجون﴾؟ بل الآية حجة عليهم في إنكار البعث.

١٢ - ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: تركبونه. يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فغلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة، فقليل: تركبونه.

١٣ - ﴿لِّتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تركبونه، وهو: الفلك، والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ذل هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء: إذا أطاقه. وحقيقة أقرنه: وجده قرينته؛ لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف.

١٤ - ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ لراجعون قيل: يذكرون عند ركوبهم مركب الدنيا آخر مركبهم منها، وهو: الجنابة. وعن النبي ﷺ: «أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ إلى قوله ﴿لمنقلبون﴾ وكبر ثلاثاً، وهلل

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

ثلاثاً^(١). وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿يَسْرِ اللَّهُ بِجَارِهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَكَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وحكي: أن قوماً ركبوا، وقالوا ﴿سبحان الذي سخر لنا...﴾ الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزاً، فقال: إنني مقرن لهذه، فسقط منها لوثبها، واندقت عنقه.

وينبغي ألا يكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ، بل للاعتبار، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة، ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه.

١٥- ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ﴿و﴾ قد ﴿جعلوا له﴾ مع ذلك الاعتراف ﴿من عباده جزءاً﴾ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده. ﴿جزوا﴾: أبو بكر، وحماد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ لجحود للنعمة، ظاهر جحوده؛ لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله.

١٦- ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أي: بل اتخذ. والهمزة للإنكار تهجيلاً لهم، وتعجيباً من شأنهم، حيث ادعوا أنه اختار لنفسه المنزل الأدنى، ولهم الأعلى.

١٧- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شياً - لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله، وبعضاً منه، فقد جعله من جنسه، ومثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد - ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم: أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت، اغتم، واربذ وجهه غيظاً^(٢) وتأسفاً، وهو مملوء من

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦).

(٢) أي: تغير إلى الغيرة من الغضب.

أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ

الكر. والظلول: بمعنى الصيرورة.

١٨ - ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: ﴿أو﴾ يُجْعَلُ للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنه ﴿ينشأ في الحلية﴾ أي: يترتب في الزينة، والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثة الخصوم^(١)، ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ وذلك لضعف عقولهن^(٢). قال مقاتل - رحمه الله -: لا تتكلم المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها. وفيه أنه جعل النشأ في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويتزين بلباس التقوى. و﴿من﴾ منصوب المحل. والمعنى: ﴿أو﴾ جعلوا ﴿من ينشأ في الحلية﴾ - يعني: البنات - لله عز وجل ﴿ينشأ﴾: حمزة، وعلي، وحفص، أي: يربى. قد جمعوا في كفر ثلاث كفرات، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخس النوعين، وجعلوه من الملائكة المكرمين، فاستخفوا بهم.

١٩ - ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي: سموا، وقالوا: إنهم إناث ﴿عند الرحمن﴾: مكّي، ومدني، وشامي، أي: عندي منزلة ومكانة، لا منزل ومكان، والعباد جمع: عبد. وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد، لتضاد بين العبودية والولاد ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهذا تهكم بهم، يعني: أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها. وهذا وعيد.

٢٠ - ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: الملائكة. تعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء الإيمان، فإن

(١) «مجاثة الخصوم»: جثا: برك على ركبته.

(٢) في الأصل المخطوط: «عقولهم».

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

الكفار ادعوا: أَنَّ الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي: لو شاء منا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منا عبادة الأصنام. والله تعالى رد عليهم قولهم، واعتقادهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ المقول ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون. ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا. وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجل عقوبتنا، أو: لمنعنا عن عبادتها منع قهر، واضطرار، وإذ لم يفعل فقد رضي بذلك، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء لا جدًّا واعتقادًا، فأكذبهم الله تعالى فيه، وجهلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد، كما قال مخبراً عنهم: ﴿أَنْظِعُكُمْ مِّن لَّوْيشَاءَ اللَّهِ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] وهذا حق في الأصل، ولكن لما قالوا ذلك استهزاء، كذبهم الله بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد، وجعلوا المشيئة حجة لهم فيما فعلوا باختيارهم، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك، فردَّ الله تعالى عليهم.

٢٢، ٢١- ﴿أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن، أو: من قبل قولهم هذا ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون، عاملون. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ﴿أشهدوا﴾ خلقهم أم أتيناهم كتاباً، فيه: أن الملائكة إناث؟! ﴿بَلْ قَالُوا﴾ بل لا حجة لهم يتمسكون بها، لا من حيث العيان، ولا من حيث العقل، ولا من حيث السنع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين، فقلدناهم، وهي من الأم، وهو القصد. فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الظرف صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

٢٣- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي:

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِن نَّقَمْنَا مِنْهُمُ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ

منتعموها، وهم: الذين أترفهم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات، والملاهي، ويعافون مشاق الدين، وتكاليفه ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ وهذه تسلية للنبي ﷺ وبيان: أن تقليد الآباء داء قديم.

٢٤- ﴿قُلْ﴾: شامي، وحفص، أي: النذير. (قل) غيرهما، أي: قيل للنذير: قل ﴿أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟! ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ثابتون على دين آبائنا، وإن جئنا بما هو أهدى، وأهدى.

٢٥- ﴿فَإِن نَّقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

٢٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ أي: اذكر إذ قال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي: بريء - وهو مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كما تقول: رجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل، والمعنى: ذو عدل، وذات عدل - ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢٧- ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية.

٢٨- ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم - عليه السلام - كلمة التوحيد التي تكلم بها - وهي قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إلا الذي فطرني ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. والترجي لإبراهيم - عليه السلام -

٢٩- ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم

حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

- عليه السلام - بالمد في العمر، والنعمة، فاغترّوا بالملهة، وشغلوا بالنعم، واتباع الشهوات، وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أي: محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مُبِينٌ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البينة.

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

٣١- ﴿وَقَالُوا﴾ متحكمين بالباطل: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ - فيه استهانة به - ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: على رجل عظيم من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما. والقريتان: مكة والطائف. وعنوا بعظيم مكة: الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفي. وأرادوا بالعظيم: مَنْ كان ذا مال، وجاه، ولم يعرفوا: أَنَّ العظيم مَنْ كان عند الله عظيماً.

٣٢- ﴿أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة. والهمزة للإنكار المستقل بالتجھيل والتعجيب من تحكّمهم في اختيار مَنْ يصلح للنبوة. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: لم نجعل قسمة الأدون إليهم، وهو الرزق، فكيف النبوة؟ أو: كما فضّلت البعض على البعض في الرزق، فكذا أخصّ بالنبوة من أشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخداماء ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْحِيًّا﴾ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنتهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتّى يتعاشوا، ويصلوا إلى منافعهم، هذا بماله، وهذا بأعماله ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة، أو: دين الله، وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

٣٣- ولما قلل أمر الدنيا، وصغرها أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده، فقال:

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولولا كراهة^(١) أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

٣٥، ٣٤- ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ☆ ﴿وَزُخْرَفًا﴾ أي: لجعلنا للكفار سقوفاً، ومصاعد، وأبواباً، وسرراً، كلها من فضة، وجعلنا لهم زخرفاً، أي: زينة من كل شيء. والزخرف: الذهب، والزينة. ويجوز أن يكون الأصل: سقفاً من فضة وزخرف، أي: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب، فنصب عطفاً على محل من فضة. ﴿لبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتغال من ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾. ﴿سُقْفًا﴾ على الجنس: مكّي، وأبو عمرو، ويزيد. والمعارج: جمع معرج، وهي: المصاعد إلى العلالي. ﴿عليها يظهرون﴾ على المعارج ﴿يظهرون﴾ السطوح، أي: يعلونها ﴿وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿إِنَّ﴾ نافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلّا، أي: وما ﴿كل ذلك﴾ إلّا ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وقد قرئ به. وقرأ ﴿لَمَّا﴾ غير عاصم، وحزة، على أن اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. و﴿ما﴾ صلة، أي: إن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن يتقي الشرك.

٣٦- ﴿وَمَن يَعِشْ﴾ وقرئ ﴿ومن يعش﴾. والفرق بينهما: أنه إذا حصلت الآفة في بصره، قيل: عشي يعشى. وإذا نظر نظر العُشي ولا آفة به، قيل: عشا^(٢). ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن، كقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِي﴾ [البقرة: ١٨] ومعنى القراءة بالضم: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل، كقوله: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا

(١) من المطبوع.

(٢) مضارعه: يعشو.

نُقِضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَكِنْ يَنْفَعُكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أَنْفُسُهُمْ ﴿النمل: ١٤﴾ ﴿نُقِضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نسلطه عليه، فهو معه في الدنيا والآخرة، يحمل على المعاصي، وفيه إشارة إلى أن من داوم عليه لم يقرنه الشيطان.

٣٧- ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ليمنعون العاشين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. وإنما جمع ضمير ﴿مَنْ﴾ وضمير الشيطان؛ لأن ﴿مَنْ﴾ مبهم في جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فجاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً.

٣٨- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ - على الواحد: عراقي في غير أبي بكر، أي: العاشي. (جاءنا) غيرهم. أي: العاشي، وقرينه - ﴿قَالَ﴾ لشیطانه: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب، كما قيل: العُمران، والقُمران. والمراد: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق ﴿فَيَنْسُ الْقَرِينَ﴾ أنت.

٣٩- ﴿وَلَكِنْ يَنْفَعُكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إذ صح ظلمكم، أي: كفركم، وتبين، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين - ﴿إِذْ﴾ بدل من اليوم - ﴿أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. ﴿أَنْتُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، أي: ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب، أو: كونكم مشتركين في العذاب، كما كان عموم البلوى يُطَيَّبُ القلب في الدنيا، كقول الخساء:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يكون مثل أخي ولكن أعزني النفس عنه بالتأسي

أما هؤلاء فلا يؤسيهم اشتراكهم، ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه. وقيل: الفاعل مضمّر، أي: ولن ينفعكم هذا التمني، أو: الاعتذار لـ ﴿أَنْتُمْ﴾ في العذاب مشتركون ﴿لاشتراككم في سببه، وهو: الكفر. ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿إِنْكُمْ﴾ بالكسر.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُنْقَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠ - ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: مَنْ فقد سمع العقول ﴿أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ أي: مَنْ فقد البصائر ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلالة.

٤١ - ﴿فَإِنَّمَا﴾ - دخلت ﴿مَا﴾ على ﴿إِنْ﴾ تأكيداً للشرط، وكذا النون الثقيلة في ﴿نَذِيرٌ بِكَ﴾ - تنويفتك قبل أن ننصرك عليهم، ونسفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ أشد الانتقام في الآخرة.

٤٢ - ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ قبل أن نتوفيك - يعني: يوم بدر - ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قادرون. وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلal بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تسمع الصم...﴾ الآية. ثم أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ...﴾ الآيتين.

٤٣ - ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ فتمسك ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، واعمل به ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على الدين الذي لا عوج له.

٤٤ - ﴿وَإِنَّمَا﴾ وإن الذي أوحى إليك ﴿لَذِكْرٌ لَكَ﴾ لشرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ ولأمتك ﴿وَسَوْفَ تُنْقَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

٤٥ - ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ليس المراد بسؤال الرسل: حقيقة السؤال، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم؛ هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم ﴿يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ [الحج: ٧١]. وهذه الآية

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ

في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها. وقيل: إنه ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأقّمهم، وقيل له: سلهم، فلم يشكك، ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين^(١). وإنما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنهم على الباطل. ﴿وسل﴾ بلا همز: مكّي، وعليّ. ﴿رُسِلنا﴾: أبو عمرو.

٤٦- ثُمَّ سَلَّى رَسُولُهُ ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما أجابوه به عند قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ محذوف دلّ عليه قوله:

٤٧- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾. وهو مطالبتهم إياه بإحضار البيّنة على دعواه، وإبراز الآية. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها، ويهزؤون بها، ويستمونها سحراً. و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة. وهو جواب ﴿فلما﴾ لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب في محلّ ﴿إِذَا﴾ كأنه قيل: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ فاجؤوا وقت ضحكهم.

٤٨- ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها، وصاحبها التي كانت قبلها في نقض العادة. وظاهر النظم يدلّ على أنّ اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل: المراد بهذا الكلام: أنّهم موصوفات بالكبر، ولا يكدن يتفاوتن فيه. وعليه كلام الناس، يقال: هما أخوان، كلّ واحد منهما أكرم من الآخر ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ - هو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآية - ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

٤٩- ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لتعظيمهم

(١) أي: التوراة والإنجيل.

أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَوِمِرِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ

علم السحر ﴿يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ بضم الهاء بلا ألف: شامي، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت لالتقاء الساكنين أتبعته حركتها حركة ما قبلها ﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهدك عندك من أن دعوتك مستجابة، أو: بعهدك عندك، وهو: النبوة. أو: ﴿بما عهد عندك﴾ من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون.

٥٠- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون العهد بالإيمان، ولا يفون به.

٥١- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط، أو: أمر منادياً فنادى، كقولك: قطع الأمير اللص؛ إذا أمر بقطعه ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلاً لندائه، وموقعاً له ﴿قَالَ يَنْتَوِمِرِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار النيل - ومعظمها أربعة - ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ من تحت قصري، وقيل: بين يدي في جناني، والواو عاطفة للأنهار على ﴿ملك مصر﴾. و﴿تجري﴾ نصب على الحال منها، أو: الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، و﴿الأنهار﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأوليئها أخس عبيدي، فولأها الخصيب، وكان خادمه على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر: أنه وليها، فخرج إليها، فلما شارفها، قال: أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أليس لي ملك مصر؟﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قوتي وضعف موسى، وغناي وفقره.

٥٢- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ «أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة، كأنه قال: أثبت عندكم، واستقر رأيي ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ - وهذه حالي - ﴿مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٧﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا

حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما كان به من الرتبة ^(١).

٥٣- ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾: حفص، ويعقوب، وسهل، جمع: سوار. غيرهم: (أساوره) جمع إسوار، وهو: السوار، حذف الياء من أساوير، وعوض منها التاء ﴿مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار، وطوقوه بطوق من ذهب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يمشون معه، يقترن بعضهم ببعض؛ ليكونوا أعضاده، وأنصاره.

٥٤- ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ استفزهم بالقول، واستزلهم، وعمل فيهم كلامه. وقيل: طلب منهم الخفة في الطاعة، وهي الإسراع إليها ﴿فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ خارجين عن دين الله.

٥٥- ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آسف: منقول من آسف أسفاً: إذا اشتد غضبه. ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا، وانتقمنا، وألاً نحلم عنهم.

٥٦- ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾ جمع سالف، كخادم وخدم ﴿سُلَفًا﴾: حمزة، وعلي، جمع سليف، أي: فريق قد سلف ﴿وَمَثَلًا﴾ وحديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يضرب بهم الأمثال، ويقال: مثلكم مثل قوم فرعون ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ لمن يجيء بعدهم، ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، ومثلاً يحدثون به.

٥٧- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش:

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] غضبوا. فقال ابن الزبيري: يا محمد! أخاصة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال: أأستترع أن عيسى ابن مريم نبي، وتثني عليه خيراً وعلى أمته، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد. والملائكة يعبدون. فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم. ففرحوا، وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فترلت هذه الآية^(١). والمعنى: ﴿ولما﴾ ضرب ابن الزبيري عيسى ابن مريم مثلاً لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً، وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجذله. ﴿يَصِدُّونَ﴾: مدني، وشامي، وعلي، والأعشى، من الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق، ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد، وهو الجلبة، وأنهما لغتان، نحو: يعكف، ويعكف. ٥٨- ﴿وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لد، شداد الخصومة، دأهم اللجاج، وذلك: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يرد به إلا الأصنام؛ لأن ما لغير العقلاء، إلا أن ابن الزبيري بخداعه لما رأى كلام الله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساعاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريق اللجاج، والجدال، وحب المغالبة، والمكابرة، وتوقع في ذلك، فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه.

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشف ٢/ ١٣٦).

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا
صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾

٥٩- ﴿إِنْ هُوَ﴾ وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العباد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة
﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

٦٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً منكم. كذا قاله
الزجاج. وقال في «جامع العلوم»: لجعلنا بدلکم. و﴿من﴾ بمعنى البديل
﴿يَخْلُقُونَ﴾ يخلقونكم في الأرض، أو: يخلق الملائكة بعضهم بعضاً. وقيل:
﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور ﴿لجعلنا منكم﴾ لولدنا منكم يا رجال
﴿ملائكة﴾ يخلقونكم في ﴿الأرض﴾ كما يخلقكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من
أنثى من غير فعل، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام
لا تتولد إلا من أجسام، والقديم متعال عن ذلك.

٦١- ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى بما يعلم به مجيء الساعة. وقرأ ابن
عباس - رضي الله عنهما -: ﴿لَعَلَّمُ﴾ وهو العلامة، أي: وإن نزوله علم
للساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُ بِهَا﴾ فلا تشك فيهما، من المرية، وهو: الشك ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾
وبالياء فيهما: سهل، ويعقوب، أي: واتبعوا هداي وشرعي، أو: رسولي.
أو: هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: ﴿هذا﴾ الذي
يدعوكم إليه.

٦٢- ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن الإيمان بالساعة، أو: عن الاتباع ﴿إِنَّهُمْ
لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة إذ أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

٦٣- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، أو: بآيات الإنجيل، والشرائع
البيّنات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل، والشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الدين، لا أمر الدنيا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿١٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٤﴾ يَتَّبِعُونَكَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾

٦٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى عليه السلام -.

٦٥ - ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى - عليه السلام -، وهم: اليعقوبية، والنسطورية، والمكائنية، والشمعونية ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ وهو يوم القيامة.

٦٦ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقوم عيسى، أو: للكفار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة، أي: ﴿هل ينظرون إلا﴾ إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم غافلون لاشتغالهم بأموال دنياهم، كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

٦٧ - ﴿الْأَخِلَاءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين. وانتصاب ﴿يَوْمئِذٍ﴾ بـ ﴿عدو﴾، أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالفين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية.

٦٨ - ﴿يَتَّبِعُونَكَ﴾ ^(١) بالياء في الوصل والوقف: مدني، وشامي، وأبو عمرو. ويفتح الياء: أبو بكر. الباقون: بحذف الياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو حكاية لما يُنادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ.

٦٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ منصوب المحل صفة لعبادي؛ لأنه منادى مضاف ﴿ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صدقوا بآياتنا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لله، منقادين له.

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة (ياعبادي).

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ
وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

٧٠- ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنين في الدنيا ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره، أي: أثره على وجوهكم.

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ جمع: صحيفة ﴿مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من ذهب أيضاً، والكوب: الكوز لا عروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ﴾ -: مدني، وشامي، وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول، وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل، والفاعل، والمفعول - ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهيات في القلوب، أو: مستلذة في العيون ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٧٢- ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة، وهي مبتدأ، و﴿الجنة﴾ خبر، و﴿التي أورثتموها﴾ صفة ﴿الجنة﴾ أو: الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، و﴿التي أورثتموها﴾ خبر المبتدأ، أو: التي أورثتموها صفة، و﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف، أي: حاصلة، أو كائنة، كما في الظروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأول تتعلق بـ ﴿أورثتموها﴾، وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

٧٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزينة بالثمار أبداً. وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاًها»^(١).

٧٤- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر بعد خبر.

٧٥- ﴿لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ﴾ خبر آخر، أي: لا يخفف، ولا ينقص ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٥٣٠).

مُبِلْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمْرُؤًا مَرًّا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

العذاب ﴿مُبِلْسُونَ﴾ آيسون من الفرج، متحيرون.

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ «هم»: فصل.

٧٧- ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ﴾ لما آيسوا من فتور العذاب ﴿نَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار - وقيل لابن عباس - رضي الله عنهما -: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قرأ ﴿يَا مَالِ﴾ فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم - ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، من: قضى عليه: إذا أماته ﴿فَوَكَّرْهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ لاثبون في العذاب، لا تتخلصون عنه بموت ولا فتور.

٧٨- ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ كلام الله تعالى. ويجب أن يكون في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله. لما سألوا مالكا أن يسأل الله القضاء عليهم أجابهم الله بذلك، وقيل: هو متصل بكلام مالك^(١) والمراد بقوله: ﴿جِئْتُمْ﴾ الملائكة، إذ هم رسل الله، وهو منهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ لا تقبلونه، وتنفرون منه؛ لأنَّ مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب.

٧٩- ﴿أَمْ أَمْرُؤًا﴾ أم أحكم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم، ومكرهم بمحمد ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا، كما أبرموا كيدهم.

٨٠- وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة، فنزل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتحدثون فيما بينهم، ويخفونه عن غيرهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلْنَا﴾ أي: الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عندهم يكتبون ذلك. وعن يحيى بن معاذ: مَنْ سَرَّ مِنَ النَّاسِ ذَنْبَهُ، وَأَبْدَاهَا لِمَنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ. وهو من أمارات النفاق.

(١) أي: فضمير قال يعود على مالك.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ

٨١- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وصح ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ فأنا أول من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه. وهذا كلام وارد على سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد، وذلك: أنه علق العبادة بكيونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها. ونظيره: قول سعيد بن جبير للحجاج - حين قال له: والله لأبدلك بالدينار ناراً تلظى: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. وقيل: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم فأنا أول الأنفين من أن يكون له ولد. من: عبد يعبد: إذا اشتد أنفه، فهو عبد وعابد. وقرئ ﴿العبدین﴾. وقيل: هي ﴿إِنْ﴾ النافية، أي: ما ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فأنا أول من قال بذلك، وعبد، ووحد. ورؤي: أن النضر قال: إن الملائكة بنات الله، فتزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني. فقال له الوليد: ما صدقك، ولكن قال: ما ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له ﴿وُلْدٌ﴾: حمزة، وعلي. ثم نزه ذاته عن اتخاذ الولد، فقال:

٨٢- ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: هو رب السموات والأرض والعرش، فلا يكون جسماً؛ إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد، لأن التولد من صفة الأجسام.

٨٣- ﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: القيامة. وهذا دليل على أن ما بقولونه من باب الجهل، والخرص، واللعب.

٨٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف، فلذلك علق به الظرف في قوله: في السماء، وفي الأرض، كما تقول: هو حاتم

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ

في طي، وحاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في طي، جواد في تغلب. وقرئ: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله). ومثله قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنه ضمن معنى المعبود، والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، والتقدير: ﴿وهو الذي﴾ هو ﴿في السماء إله﴾. ﴿إله﴾ يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة، ولا يرتفع ﴿إله﴾ بالابتداء، و﴿في السماء﴾: خبرٌ لخلو الصلة حيثئذ من عائد يعودُ إلى الموصول ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون.

٨٥- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرْجَعُونَ﴾: مكّي، وحمة، وعليّ.

٨٦- ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿الشَّفْعَةَ﴾ كما زعموا: أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ولكن ﴿من شهد بالحق﴾ بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ربهم حقاً، ويعتقدون ذلك، هو الذي يملك الشفاعة. وهو استثناء منقطع، أو: متصل؛ لأن في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة.

٨٧- ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، أو: من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟

٨٨- ﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ بالجر: عاصم، وحمة، أي: وعنده علم الساعة وعلم قبله ﴿يَكْرَبُ﴾ والهاء يعود إلى محمد ﷺ لتقدم ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١] وبالنصب، الباقون عطفاً على محل ﴿الساعة﴾ أي: يعلم الساعة، ويعلم ﴿قِيلَ لَهُ﴾ أي: قيلَ مُحَمَّدٌ ﴿يَا رَبِّ﴾. والقليل، والقول، والقال، والمقال واحد. ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم

﴿٨٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وحذفه. وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قيل: وأقسم بقبيله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وإقسام الله بقبيله رفع منه، وتعظيم لدعائه، والتجائه إليه.

٨٩- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودّعهم، وتاركهم ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تَسَلَّمَ منكم ومتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم، وتسلية لرسوله ﷺ. وبالتاء: مدني، وشامي.

* * *

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ

في الخبر: «من قرأها في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له»^(١).

١-٣- ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: القرآن. الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت ﴿حم﴾ تعديداً للحروف، أو: اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حم﴾ مقسماً بها. وجواب القسم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، أو: ليلة النصف من شعبان. وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. والجمهور على الأول؛ لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. ثم قالوا: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل في وقت وقوع الحاجة إلى نبيّه محمد ﷺ، وقيل: ابتداء نزوله في ليلة القدر. والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، ويستجاب من الدعاء، ولو لم يوجد فيها

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يُضَعِّف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾

إِلَّا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

٤- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم، كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار، والتحذير من العقاب. وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم. ومعنى ﴿يفرق﴾ يفصل، ويكتب ﴿كل أمر﴾ من أرزاق العباد، وأجالهم، وجميع أمرهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تحيء في السنة المقبلة ﴿حكيم﴾ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقضيه الحكمة. وهو من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز.

٥، ٦- ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص، جعل كل أمر جزلاً فحماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر ﴿أمرًا﴾ حاصلًا ﴿من عندنا﴾ كما اقتضاه علمنا، وتديبرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. و﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ مفعول له، على معنى: إِنَّا أنزلنا القرآن؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا؛ لأجل الرحمة عليهم. أو: تعليل لقوله: ﴿أمرًا من عندنا﴾. و﴿رحمة﴾ مفعول به. وقد وصف الرحمة بالإرسال، كما وصفها به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُمْ بَعْدَهُ﴾ [فاطر: ٢] والأصل: ﴿إِنَّا كُنَّا مرسلين رحمة﴾ متا. فوضع الظاهر موضع الضمير إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

٧- ﴿رَبِّ﴾ كوفي بدل من ﴿رَبِّكَ﴾، وغيرهم بالرفع، أي: هو رب ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. ومعنى الشرط: أنهم كانوا يقرّون بأنّ للسموات والأرض رباً وخالقاً، فقبل لهم: إن إرسال الرسل، وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم؛ الذي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أنتم مقرّون به، ومعترفون بأنّه ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم، وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسمع الناس بكرمه إن بلغك حديث، وَحُدِّثَتْ بقصته.

٨- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ عطف عليه. ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله:

٩- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وإنّ إقرارهم غير صادر عن علم، وتيقن، بل قول مخلوط بهزؤ، ولعب.

١٠-١٢- ومفعول: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يدخل في أسمع الكفرة حتّى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد^(١)، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص. وقيل: إنّ قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللّهم اشدّد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فأصابهم الجهد حتّى أكلوا الجيف والعِلْهَز^(٢). وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان. وكان يحدث الرجل، فيسمع كلامه، ولا يراه من الدخان^(٣) ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر حاله، لا يشكّ أحد في أنّه دخان ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يشملهم، ويلبسهم، وهو في محلّ الجرّ صفة لـ: «دخان». وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ - أي: سنؤمن إن كُشِفَ عَنَّا العذاب - منصوب المحلّ بفعل مضمر، وهو: يقولون. و: يقولون: منصوب المحلّ على الحال، أي: قائلين ذلك.

(١) «الحنيد»: المشوي.

(٢) «العِلْهَز»: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة.

(٣) رواه أحمد (٤٤١/١) والبخاري (٤٨٢٤) ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩).

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنِ ادْعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ

١٣، ١٤- ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف يذكرون، ويتعظون، ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظم، وأدخل في وجوب الازكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبيّنات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذكروا، وتولّوا عنه، وبهتوه بأنّ عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه، ونسبوه إلى الجنون.

١٥- ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ أو: كشفاً ﴿قَلِيلًا﴾ ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه، أو: إلى العذاب.

١٦- ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ هو يوم القيامة، أو: يوم بدر ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم. وانتصاب ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بـ «اذكر»، أو: بما دلّ عليه: ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ وهو: ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأنّ ما بعد إنّ لا يعمل فيما قبلها.

١٧- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المشركين - أي: فعلنا بهم فعل المختبر؛ ليظهر منهم ما كان باطناً - ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو: كريم في نفسه حسيب نسيب؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبياً إلّا من سراً قومه، وكرامهم.

١٨- ﴿أَنِ ادْعُوا إِلَىٰ﴾ هي ﴿أَنْ﴾ المفسرة؛ لأنّ مجيء الرسول إلى مَنْ بعث إليهم متضمّن لمعنى القول؛ لأنّه لا يجيئهم إلّا مبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله. أو: المخففة من الثقيلة. ومعناه: ﴿وجاءهم﴾ بأنّ الشأن والحديث ﴿أدوا إلي﴾ سلّموا إلي ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ هو مفعول به، وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إلي، وأرسلوهم معي، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَ ابْنِ إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِيَهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم، على معنى: ﴿أدوا إلي﴾ يا ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ ما هو واجب لي

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ
 بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ
 مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾

عليكم من الإيمان لي، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي. وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: على رسالتي، غير متهم.

١٩- ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ هذه مثل الأولى في وجهيها، أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه، أو: لا تستكبروا على نبي الله ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تدل على أني نبي.

٢٠- ﴿وَإِنِّي عَذْتُ﴾ - «عُتْ»: مدغم: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ - ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلوني رجماً، ومعناه: أنه عائدٌ بربه، متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه من الرجم، والقتل.

٢١- ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ﴾ أي: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحوا عني، أو: فخلوني كفافاً لا لي ولا عليّ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم، فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك. ﴿تَرْجُمُونِي﴾ فاعتزلوني في الحالين: يعقوب.

٢٢- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ شاكياً قومه ﴿أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ بأن هؤلاء، أي: دعا ربه بذلك. قيل: كان دعاؤه: اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم. وقيل: هو قوله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وقرىء: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ بالكسر؛ على إضمار القول، أي: ﴿فدعا ربه﴾ فقال: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾.

٢٣- ﴿فَأَسْرِ﴾ من: أسرى ﴿فأسر﴾ بالوصل: حجازي، من: سرى. والقول مضمر بعد الفاء ﴿ف﴾ قال: أسر ﴿بِعِبَادِي﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ أي: دبر الله أن تتقدموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجي المتقدمين، ويغرق التابعين.

وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

٢٤- ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ساكناً. أراد موسى - عليه السلام - لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله؛ من انتصاب الماء، وكون الطريق ييساً، لا يضربه بعصاه، ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. وقيل: الرهو: الفجوة الواسعة، أي: أتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ﴾ بعد خروجك من البحر. وقرئ بالفتح، أي: لأنهم.

٢٥، ٢٦- ﴿كَمْ﴾ عبارة عن الكثرة، ومنصوب بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة. وقيل: المناير.

٢٧- ﴿وَنَعْمَةً﴾ تنعم ﴿كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ متنعمين.

٢٨- ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك. فالكاف في موضع الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمّر ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة، ولا دين، ولا ولاء. وهم: بنو إسرائيل.

٢٩- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ لأنهم ماتوا كفاراً. والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، فيبكي على المؤمن من الأرض مُصلّاه، ومن السماء مَضْعُدُ عمله. وعن الحسن - رحمة الله عليه -: أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي: لم يُنظروا إلى وقت آخر، ولم يُمهّلوا.

٣٠- ﴿وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: الاستخدام، والاستعباد، وقتل الأولاد.

٣١- ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿العذاب المهين﴾ بإعادة الجار، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم، وإهانتهم. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك ﴿من فرعون﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان، أي: كان متكبراً مسرفاً.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَيْتَنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنذَرْنَا يُبَاقِيَانَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ

٣٢- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: عالين بمكان الخير، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

٣٣- ﴿وَمَا أَيْتَنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

٣٤، ٣٥- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ كفار قريش ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿إِنَّ هِيَ﴾ ما الموتة ﴿إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾. والإشكال: أن الكلام وقع في الحياة الثانية لا في الموت، فهلاً قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى؟ وما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى جحدوها، وأثبتوا الأولى. والجواب: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة؛ كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياة. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجنّة: ٢٤] في المعنى. ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بمبعوثين. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم.

٣٦- ﴿فَأَنذَرْنَا يُبَاقِيَانَا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن صدقتم فيما تقولون، فاجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك، حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق.

٣٧- ﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾ في القوة، والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبّع الحميري، كان

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

مؤمناً وقومه كافرين. وقيل: كان نبياً. وفي الحديث: «ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبى»^(١) ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿قَوْم تَبِع﴾ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين، منكرين للبعث.

٣٨- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿لَعِبٍ﴾ حال. ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب، كان خلق الخلق للفناء خاصة، فيكون لعباً.

٣٩- ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالجد، ضد اللعب ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه خلق لذلك.

٤٠- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقت موعدهم كلهم.

٤١- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى﴾ أي: ولي؛ أي ولي كان عن أي ولي كان ﴿شَيْئًا﴾ من إغناء، أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى.

٤٢- ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في ﴿ينصرون﴾ أي: لا يمنع من العذاب ﴿إِلَّا مَنْ﴾ رحمه ﴿اللَّهُ﴾ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأوليائه.

٤٣- ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ هي على صورة شجر الدنيا لكنها في النار. والزقوم: ثمرها، وهو كل طعام ثقيل.

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشف ٤/ ٢٨٠).

طَعَامُ الْإِثْمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

٤٤- ﴿طَعَامُ الْإِثْمِ﴾ هو: الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء: أنه كان يقرئ رجلاً، فكان يقول: طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر يا هذا. وبهذا تستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها^(١). ومنه أجاز أبو حنيفة - رحمه الله - القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدي القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأن في كلام العرب - خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه - من لطائف المعاني والدقائق مالا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها. ويروى رجوعه إلى قولهما، وعليه الاعتماد.

٤٥- ﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو دُردي^(٢) الزيت. والكاف رفع خبر بعد خبر ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾^(٣) - وبالياء: مكّي، وحفص، فالتاء للشجرة، والياء للطعام -.

٤٦- ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحار الذي انتهى غليانه. ومعناه: غلياً ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾. فالكاف منصوب المحل. ثم يقال للزبانية:

٤٧- ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة - ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ مكّي، ونافع، وشامي، وسهل، ويعقوب - ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

٤٨- ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ المصبوب هو الحميم

(١) قال أحمد بن المنير الإسكندري في «الانتصاف»: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمولٌ على إيضاح المعنى؛ ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوفاً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب «الانتصار» وهو الوجه. (حاشية الكشف ٤/٢٨١).

(٢) «الدردي»: ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٣) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿تَغْلِي﴾. بالتاء. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وخلف، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (١٤٢/٦).

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٢﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٣﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ ﴿٥٤﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٥﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾

لا عذابه، إلا أنه إذا صبَّ عليه الحميم، فقد صبَّ عليه عذابه، وشدته. وصب العذاب: استعارة. ويقال له:

٤٩- ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ له على سبيل الهزؤ والتهكم ﴿أَنْتَ﴾ أي: لأنك، علي.

٥٠- ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب، أو: هذا الأمر هو ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون.

٥١- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ بالفتح، وهو: موضع القيام. والمراد: المكان. وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم. وبالضم: مدني، وشامي. وهو: موضع الإقامة ﴿أَمِينٍ﴾ من: أمن الرجل أمانة، فهو أمين. وهو ضد الخائن. فوصف به المكان استعارة؛ لأنَّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره.

٥٢- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.

٥٣- ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ﴾ ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه. وهو تعريب: استبر. واللفظ إذا عَرَبَ خرج من أن يكون أعجمياً؛ لأنَّ معنى التعريب أن يجعلَ عربياً بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، فساغ أن يقعَ في القرآن العربي ﴿مُتَقَنِينَ﴾ في مجالسهم. وهو أتمُّ للأنس.

٥٤- ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف مرفوعة، أي: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم. ولهذا عَدِي بالباء ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء، وهي: الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء، وهي: الواسعة العين.

٥٥- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون في الجنة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ﴾ من الزوال، والانقطاع، وتولد الضرر من الإكثار.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
 فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

٥٦- ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿الْمَوْتَ﴾ البتة ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾
 أي: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا. وقيل: لكن الموتة الأولى قد
 ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٥٧- ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: للفضل. فهو مفعول له، أو: مصدر مؤكد لما
 قبله؛ لأن قوله: ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تفضل منه لهم؛ لأن العبد
 لا يستحق على الله شيئاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: صرف العذاب، ودخول الجنة ﴿هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ﴾.

٥٨- ﴿إِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ﴾ أي: الكتاب. وقد جرى ذكره في أول السورة ﴿بِلِسَانِكَ
 لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٥٩- ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلُّ بك
 من الدوائر.

* * *

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ ۞ وَخَلَّافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞

١ ، ٢ - ﴿حَمَّ﴾ : إن جعلتها اسماً للسورة فهي مرفوعة بالابتداء، والخبر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ صلة للتزليل. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ : مبتداً، والظرف: خبراً ﴿الْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٣ ، ٤ - ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ لدلالات على وحدانيته. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿إِنَّ فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ لِّلْمُؤْمِنِينَ. دليله قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ على الخلق المضاف؛ لأنَّ المضاف إليه ضمير مجرور متصل يقبح العطف عليه ﴿ءَايَاتٌ﴾ حمزة وعلي بالنصب، وغيرهما بالرفع، مثل قولك: إن زيدا في الدار وعمراً في السوق، أو: وعمرو في السوق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٥ - ﴿وَخَلَّافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ - أي: مطر. وسمي به لأنه سبب الرزق - ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ - ﴿الرِّيْحِ﴾ حمزة وعلي - ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالنصب: علي وحمزة، وغيرهما بالرفع. وهذا من

تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلِكُلْ أَفَاكِ
 أَتِيرِ ﴿٧﴾

العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت. فالعاملان إذا نصبت ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي﴾. أقيمت الواو مقامهما فعملت الجرّ في ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ والنصب في ﴿آيات﴾. وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وحرف ﴿فِي﴾. عملت الواو الرفع في آيات، والجرّ في ﴿واختلاف﴾. وهذا مذهب الأخفش؛ لأنه يجوز العطف على عاملين، وأما سيبويه فإنه لا يجيزه. وتخريج الآية عنده أن يكون على إضمار ﴿فِي﴾. والذي حسنه تقدّم ذكر ﴿فِي﴾ في الآيتين قبل هذه الآية. ويؤيده قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وفي اختلاف الليل والنهار). ويجوز أن ينتصب ﴿آيات﴾ على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله، أو: على التكرير توكيداً لآيات الأولى. كأنه قيل: آيات آيات. ورفعها بإضمار ﴿هي﴾ والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقان، وتوسيطه، وتأخير الآخر: أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظراً صحيحاً علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بُدَّ لها من صانع فآمنوا بالله، فإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وفي خلق ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

٦- ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة، أي: تلك الآيات ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾. قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ في محلّ الحال، أي: متلوة ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. والعامل دلّ عليه ﴿تِلْكَ﴾ من معنى الإشارة ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ﴾ أي: بعد آيات الله. كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، ويريدون: أعجبني كرم زيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ حجازي، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. وبالتاء غيرهم، على تقدير: قل يا محمد.

٧- ﴿وَيَلِكُلْ أَفَاكِ﴾ كذاب ﴿أَتِيرِ﴾ متبالغ في اقرار الآثام.

يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

٨- ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ في موضع جرّ صفة ﴿تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره، ويقيم عليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحقّ، مزدرياً لها، معجباً بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن. والآية عامة في كلّ مَنْ كان مضاراً لدين الله. وجيء بـثم؛ لأنّ الإصرار على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعد في العقول ﴿كَأَن﴾ مخففة. والأصل: كأنه ﴿لَمْ يَسْمَعْهَا﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ الجملة: النصب على الحال، أي: ﴿يُصِرُّ﴾ مثل غير السامع ﴿فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبره خبراً يظهر أثره على البشرية.

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا، وعلم أنّه منها ﴿اتَّخَذَهَا﴾ اتَّخَذَ الآيات ﴿هُزُوًا﴾. ولم يقل: اتَّخَذَهُ؛ للإشعار بأنه إذا أحسن بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات؛ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الشيء؛ لأنّه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلِّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا^(١)
حيث: أراد عتبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ - إشارة إلى ﴿كُلَّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لشموله الأفاكين -
﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخز.

١٠- ﴿مِّنْ وَرَآئِهِمْ﴾ من قدامهم - وراء: اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف، أو: قدام - ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ - ﴿مَا﴾ فيهما مصدرية، أو: موصولة - ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في جهنم.

(١) كَتَى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها: عتبة؛ ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثاً.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا

١١- ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ إشارة إلى القرآن. يدلُّ عليه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾؛ لأنَّ آيات ربِّهم هي القرآن، أي: هذا القرآن كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيد رجل، أي: كامل في الرجولية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ ﴾ - هو أشدُّ العذاب - ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفع: مكِّي، ويعقوب، وحفص، صفة لعذاب. وغيرهم: بالجرِّ صفة لرجز.

١٢- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ بإذنه ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة، أو: بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

١٣- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هو تأكيد ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾. وهو مفعول ﴿ سَخَّرَ ﴾. وقيل: ﴿ جَمِيعًا ﴾: نصب على الحال ﴿ مِّنْهُ ﴾ حال، أي: سخر هذه الأشياء كائنة ﴿ مِنْهُ ﴾ وحاصلة من عنده، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه النعم كلها ﴿ مِنْهُ ﴾، أو: صفة للمصدر، أي: تسخيراً ﴿ مِنْهُ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

١٤- ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ أي: ﴿ قُلْ ﴾ لهم اغفروا ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ - فحذف المقول؛ لأنَّ الجواب يدلُّ عليه. ومعنى ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ يغفوا، ويصفحوا. وقيل: إنَّه مجزوم بلام مضمرة، تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف. وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر - ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه. من قولهم لوقائع العرب: «أيام العرب». وقيل: لا يؤملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت في عمر - رضي الله عنه - حين شتمه رجلٌ من المشركين من بني غفار، فهم أن يبطش به ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير ﴿ قَوْمًا ﴾ على المدح لهم، كأنه قيل: ﴿ ليجزى ﴾ أيما قوم، وقوماً مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم - ﴿ لنجزى ﴾: شامي، وحمة، وعلي.

يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

﴿لِيُجْزِيَ قَوْمًا﴾ يزيد، أي ﴿لِيُجْزِيَ﴾ الخير ﴿قَوْمًا﴾. فأضمر الخير للدلالة الكلام عليه، كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] لأن قوله ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ﴾ [ص: ٣١] دليل على توارى الشمس. وليس التقدير: ﴿لِيُجْزِيَ﴾ الجزء ﴿قَوْمًا﴾ لأن المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. أما إقامة المفعول الثاني مقام الفاعل فجائز، وأنت تقول: جزاك الله خيراً - ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الإحسان.

١٥ - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: لها الثواب، وعليها العقاب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه.

١٦ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة، والفقه، أو: فصل الخصومات بين الناس؛ لأن الملك كان فيهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء - عليهم السلام - فيهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بما أحل الله لهم ما طاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

١٧ - ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ﴾ آيات، ومعجزات ﴿مِنْ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فما وقع الخلاف بينهم في الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف، وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أي: لعداوة وحسد ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: المراد: اختلافهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً، وطلباً للرئاسة، لا عن جهل يكون الإنسان به معذوراً.

١٨ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة، ومنهاج ﴿مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني
على هوى وبدعة. وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك.

١٩ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن هؤلاء الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهم موالوه. وما أبين الفضل بين الولايتين!

٢٠ - ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع
بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل روحاً وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة
﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لمن آمن، وأيقن بالبعث.

٢١ - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ «أم»: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان
﴿أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر. ومنه: الجوارح، وفلان جارحة
أهله، أي: كاسبهم ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم. وهو من «جعل» المتعدي إلى
مفعولين. فأولهما الضمير، والثاني الكاف في ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
والجملة التي هي ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأن الجملة تقع
مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد «سواء»: علي، وحمزة، وحفص بالنصب
على الحال من الضمير في «نجعلهم». ويرتفع محياهم ومماتهم بـ «سواء»، وقرأ
الأعمش «ومماتهم» بالنصب. جعل «محياهم ومماتهم» ظرفين، كمقدم الحاج،
أي: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون
محياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام
بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشري
بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار
أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة في الرزق والصحة. وعن تميم
الداري - رضي الله عنه -: أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية،
فجعل يبكي، ويرددها إلى الصباح. وعن الفضيل - رحمه الله عليه -: أنه بلغها،

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

فجعل يرددها^(١)، ويقول: يا فضيل! ليت شعري من أي الفريقين أنت؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشئ ما يقضون؛ إذ حسبوا أنهم كالمؤمنين، فليس من أقعد على بساط الموافقة، كمن أقعد في مقام المخالفة، بل نفرق بينهم فنعلي المؤمنين، ونخزي الكافرين.

٢٢- ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليدل على قدرته ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوف على هذا المعلل المحذوف ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٣- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ منه باختياره الضلال. أو: أنشأ فيه فعل الضلال ﴿على علم﴾ منه بذلك ﴿وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يقبل وعظاً ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعتقد حقاً ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ فلا يبصر عبرة - ﴿غِشْوَةً﴾ حمزة، وعلي - ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي، وحفص، وغيرهم: بالتشديد، فأصل الشر: متابعة الهوى، والخير كله في مخالفته، فنعم ما قال:

إذا طلبتك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدوٌ والخلاف صديق

٢٤- ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة - لأنهم وعدوا حياة ثانية - ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك، أو: يصيبنا الأمران الموت والحياة - يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها - وليس وراء ذلك حياة. وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ، أي: يموت الرجل، ثم

(١) ليست في الأصل المخطوط، واستدركت من المطبوع ليستقيم المعنى.

وَمَا يُهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ^{٢٥} وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ هَآئِنَا يَبِينَتْ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ

تجعل روحه في موت فيحيا به ﴿وَمَا يُهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كلَّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان، ومنه قوله ﷺ: «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(١). أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهر ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين، ولكن عن ظنٍّ وتخمين.

٢٥- ﴿وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ هَآئِنَا﴾ - أي: القرآن، يعني: ما فيه من ذكر البعث - ﴿يَبِينَتْ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ﴾ - وسمى قولهم حجة وإن لم يكن حجة؛ لأنه في زعمهم حجة - ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا﴾. أي: أحيوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى البعث. و﴿حجَّتَهُمْ﴾ خبر كان. واسمها ﴿أن قالوا﴾. والمعنى: ﴿ما كان حجَّتَهُمْ إِلَّا﴾ مقاتلهم ﴿اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا﴾. وقرئ ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالرفع على أنها اسم ﴿كان﴾ و﴿أن قالوا﴾: الخبر.

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً. ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في الجمع ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على البعث؛ لإعراضهم عن التفكير في الدلائل.

٢٧- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ عامل النصب في ﴿يوم تقوم﴾ هو ﴿يُحْشَرُ﴾. و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿يوم تقوم﴾.

٢٨- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ جالسة على الركب. يقال: جثا فلان يجثو؛ إذا جلس على ركبتيه. وقيل: ﴿جاثية﴾ مجتمعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ - بالرفع على الابتداء.

نُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

﴿كل﴾: يعقوب، على الإبدال من ﴿كل أمة﴾ - ﴿نُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها - فاكثفى باسم الجنس - فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٢٩- ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضيف الكتاب إليهم لملاسته إيّاهم؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله تعالى؛ لأنه مالكة، والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عبادهم ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم لما عملتم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نستكتب الملائكة أعمالكم. وقيل: نسخت، واستنسخت: بمعنى. وليس ذلك بنقل من كتاب، بل معناه: ثبت.

٣٠- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

٣١- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. والمعنى: ﴿أ﴾ لم يأتكم رسلي ﴿فلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ - فحذف المعطوف عليه - ﴿فَاستَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالجزاء ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾ - بالرفع عطف على محلّ إن واسمها ﴿والساعة﴾ حمزة. عطف على ﴿وعد الله﴾ - ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾. أصله: نظن ظناً، ومعناه: إثبات الظنّ فحسب، فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظنّ مع نفي ما سواه. وزيد نفي ما سوى الظنّ تأكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ﴾.

٣٣- ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ﴾ ظهر لهؤلاء الكفار ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ قبائح أعمالهم، أو: عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم.

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفْكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِيَكُمْ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾
 بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْنَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفْكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم عُدَّة لقاء يومكم، وهي: الطاعة، وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَأَلْنَهَارٌ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: ﴿نسيتم لقاء﴾ الله تعالى في ﴿يومكم هذا﴾ ولقاء جزائه ﴿وَمَاوِيَكُمْ النَّارُ﴾ أي: منزلكم ﴿وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

٣٥- ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنكم ﴿أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا﴾ لا يخرجون منها: حمزة، وعلي ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي: يرضوه.

٣٦- ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب الحمد والثناء على كل مربوب.

٣٧- ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أحكامه.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝

١ - ٣ - ﴿حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۝ مُلْتَبِسًا بِالْحِكْمَةِ ۝ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ يُنْتَهَى إِلَيْهِ، وَهُوَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا ۝ عَمَّا أُنذَرُوهُ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ الَّذِي لَا بَدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ انْتِهَائِهِ إِلَيْهِ ۝ مُعْرِضُونَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ۝ مَا ۝ مُصَدَّرِيَّةٌ، أَيْ: عَنْ إِنْذَارِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمِ.﴾

٤ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ۝ أَخْبِرُونِي ۝ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝ تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ: ۝ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ۝ أَيُّ شَيْءٍ خَلَقُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ إِنْ كَانُوا آلِهَةً؟ ۝ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۝ شَرَكَةٌ مَعَ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ؟ ۝ أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ۝ أَيْ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ نَاطِقٌ بِالتَّوْحِيدِ، وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ. وَمَا مِنْ كِتَابٍ أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَهُوَ نَاطِقٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَاتُّوا بِكِتَابٍ وَاحِدٍ مَنْزِلٍ مِنْ قَبْلِهِ، شَاهِدٌ بِصَحَّةِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ۝ أَوْ أَثَرُهُمْ مِنْ عِلْمٍ ۝ أَوْ: بَقِيَّةٌ مِنْ عِلْمٍ بَقِيَتْ عَلَيْكُمْ مِنْ عُلُومِ الْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.﴾

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَادٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

٥ - ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ أي: أبداً.

٦ - ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: الأصنام لعبدها ﴿وَكَانُوا﴾ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ تقول: ما دعوناهم إلى عبادتنا. ومعنى الاستفهام في: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على كل شيء، ويدعون من دونه جهاداً لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ﴿وَإِذَا﴾ قامت القيامة، و﴿حُشِرَ﴾ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة: لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تعاديهم، وتجدد عبادتهم. ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل: ﴿مَنْ﴾ و﴿هُمْ﴾ ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريق التهكم بها وبعيدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٧ - ﴿وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَادٍ﴾ جمع بيّنة، وهي: الحجة والشاهد، أو: واضحات مبينات ﴿قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: الممتلؤ عليهم. فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر، وللممتلؤ بالحق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: باداهوه بالجحود ساعة أتاهاهم، وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر، ولا إعادة نظر ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أمره في البطلان، لا شبهة فيه.

٨ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات: سحراً إلى ذكر قولهم: إن محمداً ﷺ ﴿افتراه﴾ أي: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً. والضمير

قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ

للحق، والمراد به: الآيات ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله بعقوبة الافتراء عليه، فلا تقدرُونَ على كفه عن معاجلتي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه، فكيف أفتريه، وأتعرض لعقابه؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تندفعون فيه من القدح في وحي الله، والظعن في آياته، وتسميته سحراً تارة، وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجوحد والإنكار. ومعنى ذكر العلم والشهادة: وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر، وآمنوا.

٩- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بديعاً، كالحفّ بمعنى الخفيف. والمعنى: إني لست بأول مرسل فتكروا نبوتي ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ﴿ما﴾ يفعل الله بي ولا بكم فيما يستقبل من الزمان. وعن الكلبي: «قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين -: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ما أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرضٍ قد رفعت لي، ورأيتها - يعني: في منامه - ذات نخيل وشجر؟»^(١) و﴿ما﴾ في ﴿ما يفعل﴾ يجوز أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهامية مرفوعة. وإنما دخل ﴿لا﴾ في قوله: ﴿ولا بكم﴾، مع أن ﴿يُفْعَلُ﴾ مثبت غير منفي، لتناول النفي في ﴿ما أَدْرِي﴾ ما، وما في حيزه ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام عند الجمهور. ولهذا قيل: إن هذه الآية مدنية لأن إسلام ابن سلام بالمدينة. روي: أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى

عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، قال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشرار الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع، وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً^(١) ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ الضمير للقرآن، أي: مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من: التوحيد، والوعد، والوعيد، وغير ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهد على نحو ذلك، يعني: كونه من عند الله ﴿فَقَامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به. وجواب الشرط محذوف، تقديره: ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟! ويدل على هذا المحذوف: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. والواو الأولى عاطفة لـ: ﴿كُفَرْتُمْ﴾ على فعل الشرط، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة لـ: ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على ﴿شَهِدَ شَاهِدًا﴾. وأما الواو في ﴿وَشَهِدَ﴾ فقد عطفت جملة قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على جملة قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ والمعنى: ﴿قُلْ﴾ أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله، فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟

١١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم، وهو كلام كفار مكة،

قالوا: عامة من يتبع محمداً السقاط، يعنون: الفقراء، مثل: عمار، وصهيب، وابن مسعود ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه،

(١) رواه أحمد (٣/ ١٠٨) والبخاري (٣٣٢٩) والنسائي في عشرة النساء (١٨٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٨-٥٢٩) وابن حبان (٧١٦١).

فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

تقديره: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ظهر عنادهم. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه. وقولهم: ﴿إفك قديم﴾ أي: كذب متقادم، كقولهم: ﴿أَسْطِيطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

١٢- ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: القرآن ﴿كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: التوراة. وهو مبتدأ و﴿من قبله﴾ ظرف واقع خبراً مقدماً عليه. وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، نحو: في الدار زيد قائماً. ومعنى ﴿إِمَامًا﴾: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، وعمل بما فيه ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كَتَبْتُ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، ولما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿مُصَدِّقٌ﴾. والعامل في ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو: من ﴿كتاب﴾ لتخصّصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوز أن يكون مفعولاً لـ: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، أي: يصدّق ذا لسان عربي، وهو الرسول ﴿لِّنَذِرِ﴾ أي: الكتاب ﴿لتنذر﴾: حجازي، وشامي ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَبُشْرَى﴾ في محل النصب معطوف على محل ﴿لينذر﴾ لأنه مفعول له ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين.

١٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على توحيد الله، وشرعية نبيه محمد ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.

١٤- ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والعامل فيه معنى الإشارة؛ الذي دلّ عليه ﴿أُولَئِكَ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مصدر لفعل دلّ عليه الكلام، أي: جوزوا ﴿جَزَاءً﴾.

١٥- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ كوفي، أي: وصّيناه بأن يحسن ﴿بوالديه﴾ إحساناً ﴿حَسَنًا﴾ غيرهم، أي: وصّيناه بوالديه أمراً ذا حسن، أو: بأمر ذي حسن، فهو في موضع البدل من قوله ﴿بوالديه﴾ وهو من بدل الاشتمال

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلِإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ بفتح الكاف: حجازي، وأبو عمرو. وهما لغتان في معنى المشقة. وانتصابه على الحال، أي: ذات كره، أو: على أنه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كره ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ﴾ ومدة حملة وطاقمه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستة أشهر. وبه قال أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله -. وقال أبو حنيفة - رحمه الله -: المراد به: الحمل بالأكف ﴿وفصله﴾: يعقوب. والفصل والفصال كالقطم والقطام، بناءً ومعنى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هو جمع، لا واحد له من لفظه. وكان سيوييه يقول: واحده شدة. وبلوغ الأشد: أن يكتهل، ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة. ووجهه: أن يكون ذلك أول الأشد، وغايته الأربعين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ - المراد به: نعمة التوحيد والإسلام. وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه - ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ - قيل: هي الصلوات الخمس - ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل ذريتي موقعاً للصالح، ومظنة له ﴿إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ﴾ من كل ذنب ﴿وَلِإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين.

١٦ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: حمزة وعلي وحفص. ﴿يُنْقَبِلُ﴾ ﴿وَيَتَجَاوَزُ﴾ ﴿أَحْسَنُ﴾: غيرهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ هو كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه. تريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم. وعمله النصب على الحال على معنى كائنين ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ومعدودين فيهم ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز

الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِي لَكُمْ أَنْ تُعَدَّائِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَأَمِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ

قيل: نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وفي أبيه أبي قحافة، وأمه أم الخير، وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. فإنه آمن بالنبى ﷺ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة. ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر - رضي الله عنهم - ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

١٧ - ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾. والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول؛ ولذلك وقع الخبر مجموعاً. وعن الحسن - رضي الله عنه -: هو في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنه - قبل إسلامه. ويشهد لبطلانه كتاب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية. أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيُّها الناس هذا الذي قال الله تعالى فيه ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾. فسمعت عائشة رضي الله عنها فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله^(١). أي: قطعة ﴿أَفِي لَكُمْ﴾ مدني وحفص ﴿أَف﴾ مكِّي وشامي ﴿أَف﴾ غيرهم. وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال: حس؛ علم أنه متوجع. واللام للبيان. أي: هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما ﴿أُعَدَّائِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث و﴿أُخْرَجَ﴾ من الأرض ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿وهما﴾ أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له: ﴿ويْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور. والمراد به: الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ءَأَمِنَ﴾ بالله وبالبعث ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٤٩١).

مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لهما: ﴿مَا هَذَا﴾ القول ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿فِي أَمْرٍ﴾ في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

١٩- ﴿وَلِكُلِّ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرار والفسّاق ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: منازل ومراتب ﴿مِنْ﴾ جِزَاءٍ ﴿مَّا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر. أو ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿مَّا عَمِلُوا﴾ منهما. وقيل: ﴿درجات﴾، وقد جاء: الجنة درجات، والنار دركات، على وجه التغليب ﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾ بالياء: مكِّي، وبصري، وعاصم ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾. أي: ﴿وليُوفيَهُمْ أعمالهم﴾ ولا يظلمهم حقوقهم، قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، فاللام متعلقة بمحذوف.

٢٠- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ عرضهم على النار: تعذيبهم بها. من قولهم: عَرَضَ بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: «عرضت الناقة على الحوض» يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ وهو ناصب الطرف ﴿طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. أي: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم. وقد ذهبتم به وأخذتموه. فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر - رضي الله عنه - : لو شئت لكنت أطيكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنني أستبقي طيباتي ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ بالطيبات ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان. وقرئ به ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: باستكباركم وفسقكم.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ﴾ (٢٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرٌ﴾

٢١- ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حَقْف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من: احقوق الشيء إذا اعوجَّ. عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو واد بين عمان ومَهْرَة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو: الإنذار ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن خلف هود. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وقع اعتراضاً بين: ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ وبين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والمعنى: ﴿واذكر﴾ إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك.

٢٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ لتصرفنا. فالأفك: الصرف. يقال: أفكه عن رأيه ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معالجة العذاب على الشرك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك.

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو. أي: الذي هو شأني أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ﴾ أي: ولكنكم جاهلون لا تعلمون: أن الرسل بعثوا منذرين، لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

٢٤، ٢٥- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما تعدنا﴾ أو: هو مبهم وضح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزاً أو حالاً. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق من السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرٌ﴾. روي: أن المطر قد احتبس عنهم فأروا سحابة استقبلت أوديتهم، فقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيهَا مَكَنًا كَثِيرًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً فَأَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وأظهروا من ذلك فرحاً. وإضافة «مستقبل» و«مطر» مجازية غير معرفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود ﴿بَلْ هُوَ﴾. ويدل عليه قراءة من قرأ: (قال هود بل هو) ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب. ثم فسره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجَمَّ الكثير. فعبّر عن الكثرة بالكليّة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ربّ الريح ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ عاصم وحمة وخلف. أي: ﴿لا يرى﴾ شيء ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾. غيرهم: ﴿لا ترى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ والخطاب للرائي من كان ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿نَجْزِي﴾ من أجرم مثل جرمهم. وهو تحذير لمشركي العرب. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: اعتزل هود - عليه السلام - ومن معه في حظيرة، ما يصيبهم من الريح إِلَّا ما تلذه الأنفُس، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

٢٦ - ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيهَا مَكَنًا كَثِيرًا﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية. أي: فيما ما مكنّاكم فيه. إِلَّا أَنْ ﴿إِنْ﴾ أحسن في اللفظ لما في جماعة ما مثلها من التكرير المستبشع. ألا ترى: أَنَّ الأصل في مهما ما ما، فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء. وقد جعلت ﴿إِنْ﴾ صلة وتؤول بأنّا ﴿مَكَنَّاهُمْ فِي﴾ مثل ما ﴿مَكَنَّاهُمْ فِيهِ﴾. والوجه هو الأول. لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَاوَرِيئًا﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِمَّنْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا﴾ [غافر: ٨٢]. و﴿مَا﴾ بمعنى الذي، أو: نكرة موصوفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً﴾ أي: آلات الدرك والفهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ﴿من شيء﴾ من الإغناء، وهو القليل منه ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ «إِذْ»: نصب بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾. وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدّى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إِذْ أساء. لأنك إِذَا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إِلَّا

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا
الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ
ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا

أَن إِذْ، وَحَيْثُ غَلَبْنَا دُونَ سَائِرِ الظُّرُوفِ فِي ذَلِكَ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وَنَزَلَ بِهِمْ ﴿مَا﴾
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿﴾ جَزَاءُ اسْتَهْزَائِهِمْ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، ثُمَّ زَادَهُمْ تَهْدِيدًا
بِقَوْلِهِ:

٢٧- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ نَحْوُ: حَجَرِ ثُمُودَ،
وَقُرَى قَوْمِ لُوطَ. وَالْمُرَادُ: أَهْلَ الْقُرَى. وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ أَيِ: كَرَّرْنَا عَلَيْهِمُ الْحُجُجَ وَأَنْوَاعَ الْعِبَرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الطُّغْيَانِ
إِلَى الْإِيمَانِ فَلَمْ يَرْجِعُوا.

٢٨- ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَا ﴿نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الْقُرْبَانُ
مَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. أَيِ: اتَّخَذُوهُمْ شَفْعَاءَ مُتَقَرِّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ حَيْثُ
قَالُوا: هَؤُلَاءِ شَفْعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. وَأَحَدُ مَفْعُولِي اتَّخَذَ الرَّاجِعِ إِلَى الَّذِينَ مَحذُوفٍ.
أَيِ: اتَّخَذُوهُمْ. وَالثَّانِي ﴿آلِهَةً﴾. وَ﴿قُرْبَانًا﴾ حَالٌ ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غَابُوا عَنِ
نَصْرَتِهِمْ ﴿وَذَلِكَ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿وَذَلِكَ﴾: إِشَارَةٌ إِلَى امْتِنَاعِ نَصْرَةِ
آلِهَتِهِمْ لَهُمْ، وَضَلَالِهِمْ عَنْهُمْ. أَيِ: ﴿وَذَلِكَ﴾ أَثَرُ ﴿إِفْكَهِمْ﴾ الَّذِي هُوَ اتِّخَاذُهُمْ
إِيَّاهَا آلِهَةً، وَثَمَرَةُ شُرْكِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ.

٢٩- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أَمْلَنَاهُمْ إِلَيْكَ وَأَقْبَلْنَا بِهِمْ نَحْوَكِ. وَالنَّفَرُ دُونَ
الْعَشْرَةِ ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ جَنٌّ نَصِيبِينَ ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ مِنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أَيِ: الرَّسُولَ ﷺ أَوْ الْقُرْآنَ. أَيِ: ﴿فَلَمَّا﴾ كَانُوا مِنْهُ
بَحِثٍ يَسْمَعُونَ ﴿قَالُوا﴾ أَيِ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿أَنْصِتُوا﴾ اسْكُتُوا مُسْتَمْعِينَ.
رَوَى: أَنَّ الْجَنَّ كَانَتْ تَسْتَرْقِ السَّمْعَ، فَلَمَّا حَرَسَتْ السَّمَاءَ وَرَجَحُوا بِالشَّهْبِ
قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا لِنَبَأٍ حَدَثَ، فَنَهَضَ سَبْعَةُ نَفَرٍ، أَوْ تِسْعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ جَنِّ

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ
مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا
دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

نصييين، أو نينوى، منهم: زوبعة. فضربوا حتى بلغوا تهامة. ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته^(١). وعن سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما كان يتلو في صلاته، فمروا به، فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم^(٢). وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم، فصرف إليه نفرًا منهم، فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لم يحضره ليلة الجن أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون، فخط لي خطأ وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً. فقال لي رسول الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سوداً. فقال: «أولئك جن نصييين». وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم «اقرأ باسم ربك»^(٣) ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ النبي ﷺ من القراءة ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ إياهم.

٣٠، ٣١ - ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وإنما قالوا من بعد موسى لأنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى - عليه السلام - ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَالِى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿وَأَمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. قال أبو حنيفة - رحمه الله -: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لهذه الآية. وقال مالك وابن

(١) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله.

(٢) هو في الحديث الذي قبله.

(٣) قال الحافظ: لم أجده بتمامه في سياق واحد (حاشية الكشف ٤/٣١٢).

وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

أبي ليلي وأبو يوسف ومحمد - رحمهم الله - : لهم الثواب والعقاب. وعن الضحاك : أنهم يدخلون الجنة، ويأكلون، ويشربون؛ لقوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَنٌّ﴾ [الرحمن : ٥٦].

٣٢- ﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : لا ينجي منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

٣٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَقَدِيرٍ﴾ هو كقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨]. ويقال : عيبت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ﴿بَقَدِيرٍ﴾ محله الرفع ؛ لأنه خبر «أَنْ» يدل عليه قراءة عبد الله (قادر)، وإنما دخلت الباء لاشتغال النفي في أول الآية على : أَنْ وما في حيزها. وقال الزجاج : لوقلت : ما ظننت أَنْ زيداً بقائم جاز كأنه قيل : أليس الله بقادر؟ ألا ترى إلى وقوع : «بلى» مقررة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم ﴿عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى﴾ هو جواب للنفي ﴿إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقال : لهم : ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ فناسب الظرف القول المضمّر. و«هذا» إشارة إلى العذاب ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا.

٣٥- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ أولو الجد والثبات والصبر ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ «من» : للتبعية. والمراد بأولي العزم : ما ذكر في الأحزاب : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧]. ويونس ليس منهم ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم : ٤٨]. وكذا آدم لقوله : ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥]. أو : للبيان، فيكون أولو العزم صفة

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ
يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

الرسول كلهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب. أي: لا تدع لهم بتعجيله، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ أي: أنهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ﴿بَلَّغَ﴾ هذا ﴿بَلَغَ﴾. أي: هذا الذي وعظمت به كفاية في الموعظة. أو: هذا تبليغ من الرسول ﴿فَبَلَ يَهْلِكُ﴾ هلاك عذاب. والمعنى: فلن يَهْلِكَ بعذاب الله ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: المشركون الخارجون عن الاعتاظ به والعمل بموجبه.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَعَمَلُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

١ - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدّوا غيرهم عنه. قال الجوهرى: صدّ عنه، يصدّ، صدوداً: أعرض. وصدّه عن الأمر، صدّاً: منعه، وصرّفه عنه. وهم المطعمون يوم بدر، أو: أهل الكتاب، أو: عامٌّ في كلّ من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحقيقته: جعلها ضالّةً ضائعةً ليس لها من يتقبّلها، ويشب عليها؛ كالضالّة من الإبل. وأعمالهم: ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام. أو ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله.

٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم ناس من قريش، أو: من الأنصار، أو: من أهل الكتاب، أو: عامٌّ ﴿وَعَمَلُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن. وتخصيص الإيمان بالمتزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه. وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: القرآن. وقيل: إنّ دين محمد ﷺ هو الحق؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها، وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً

الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

٣ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿ذلك﴾ : مبتدأ. وما بعده خبره. أي: ﴿ذلك﴾ الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني، والإصلاح كائن بسبب اتباع هؤلاء ﴿الباطل﴾ وهو الشيطان، وهؤلاء ﴿الحق﴾ وهو القرآن ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ أي: يبين الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾. والضمير راجع إلى الناس. أو: إلى المذكورين من الفريقين على معنى: أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وقد جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو: جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار.

٤ - ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل، وقدم المصدر، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدلّ على الفعل بالنسبة التي فيه. و﴿ضرب الرقاب﴾ عبارة عن القتل، لا أن الواجب تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، ولأنّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبته ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: اسم ما يوثق به. والمعنى: ﴿فشدوا﴾ وطاق الأسارى حتى لا يفلتوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ أي: بعد أن تأسروهم ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ﴿مَنًّا﴾ و﴿فداء﴾ منصوبان بفعليهما مضميرين أي: ﴿فَإِمَّا﴾ تمنون ﴿مَنًّا﴾ أو تفدون ﴿فداء﴾. والمعنى: التخيير بين الأمرين بعد الأسر: بين أن يمّنوا عليهم، فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. وحكم أسارى المشركين عندنا: القتل أو الاسترقاق. والمنّ والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] لأنّ

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا^١ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ
وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾

سورة براءة من آخر ما نزل. وعن مجاهد - رحمه الله -: ليس اليوم من ولا فداء [إنما هو الإسلام أو ضرب العنق]^(١) أو المراد بالمن: أن يمن عليهم بترك القتل، ويسترقوا. أو يمن عليهم، فيخلوا لقبولهم الجزية. وبالفداء: أن يفادي بأسارهم أسارى المشركين^(٢). فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفة - رحمه الله - وهو قولهما. والمشهور: أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لثلا يعودوا حربا علينا. وعند الشافعي - رحمه الله -: للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة: القتل، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمن ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها، وآلاتها التي لا تقوم إلا بها؛ كالسلاح، والكراع. وقيل: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثامها. يعني: ﴿حَتَّى﴾ يترك أهل الحرب؛ وهم المشركون شركهم بأن يسلموا. أو: ﴿حَتَّى﴾ لا يخلو من أن يتعلق بالضرب والشدة أو بالمن والفداء. فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي - رحمه الله -: أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى ألا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى - عليه السلام -. وعند أبي حنيفة - رحمه الله -: إذا علق بالضرب والشدة فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين، وإذا علق بالمن والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم، ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها، إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذَلِكَ﴾ فهو مبتدأ وخبر، أو افعلوا بهم ﴿ذَلِكَ﴾ فهو في محل نصب ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك؛ كالخسف، أو الرجة، أو غير ذلك ﴿وَلَكِنْ﴾ أمرهم بالقتال ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين، وتمحيصاً للكافرين ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ بصري وحفص ﴿قَاتِلُوا﴾ غيرهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) كذا في الأصل المخطوط: المشركين وبذلك نعيد الضمير في: (بأسارهم) إلى المسلمين.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُم بِأَلْهَمٍ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

٥- ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة أو إلى الصواب في جواب مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ ﴿وَيُضِلُّهُم بِأَلْهَمٍ﴾ يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم.

٦- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ عن مجاهد: عَرَفَهُمْ مساكنهم فيها حتى لا يحتاجوا أن يسألوا، أو: طَيَّبَهَا لَهُمْ من: العَرَفِ، وهو طيب الرائحة.

٧- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دين الله ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام.

٨- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء. والخبر ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ على الفعل الذي نصب ﴿تَعَسَا﴾؛ لأنَّ المعنى: ﴿فـ﴾ قال: ﴿تَعَسَا لَهُمْ﴾. والتعس: العثور. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد: في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردي في النار.

٩- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التعس والضلال ﴿يَأْذَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: القرآن، ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٠- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفار أمتك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلكتهم هلاك استئصال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مشركي قريش ﴿أَمْثَلُهَا﴾ أمثال تلك الهلكة لأن التدمير يدل عليها.

١١- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿يَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وليهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم، فالله مولى العبد من جهة الاختراع، وملك التصرف فيه، والنصرة، فهو مولى المؤمنين والكافرين من جهة الاختراع والتصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النُّصْرَةِ.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا

١٢ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ﴾ يتنفعون بمتاع الحياة الدنيا أياً ما قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ﴾ في معالفاها ومسارحها غافلة عما هي بصده من النحر والذبح ﴿وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ﴾ منزل ومقام.

١٣ - ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم ﴿من قرية﴾ - للتكثير. وأراد بالقرية أهلها. ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ - ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ أي: وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك؛ أي: كانوا سبب خروجك ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي: فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم.

١٤ - ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: ﴿أفمن كان على﴾ حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات. يعني: رسول الله ﷺ ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. وقال: ﴿سوء عمله﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ للحمل على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٥ - ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن ﴿الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ داخل في حكم الصلاة؛ كالتكرير لها، ألا ترى إلى صحة قولك: التي فيها أنهار. أو حال: أي: مستقرة. فيها أنهار ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ غير متغير اللون والريح والطعم - يقال: أسن الماء: إذا تغير طعمه وريحه. ﴿ءَاسِنٍ﴾ مكِّي - ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: ما هو إلا التلذذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار، ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿وَلَهُمْ فِيهَا

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴿١٥﴾ مثل ﴿١٥﴾ مبتدأ خبره ﴿١٥﴾ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴿١٥﴾ حازاً في النهاية ﴿١٥﴾ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾. والتقدير: أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه: النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه. وهو قوله: ﴿١٥﴾ أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَنبَئٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴿١٤﴾ [محمد: ١٤] وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينّة والتابع لهواه، وأنّه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسقى أهلها الحميم.

١٦ - ﴿١٦﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١٦﴾ هم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه ولا يعونه، ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم. فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾.

١٧ - ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ ﴿١٧﴾ بالآيمان واستماع القرآن ﴿١٧﴾ زَادَهُمْ ﴿١٧﴾ الله ﴿١٧﴾ هُدًى ﴿١٧﴾ علماً وبصيرة، أو شرح صدورهم ﴿١٧﴾ وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ ﴿١٧﴾ أعانهم عليها. أو: آتاهم جزاء تقواهم. أو: بين لهم ما يتقون.

١٨ - ﴿١٨﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴿١٨﴾ أي: ينتظرون ﴿١٨﴾ أَن تَأْتِيَهُمْ ﴿١٨﴾ أي: إتيانها. فهو بدل اشتمال من الساعة ﴿١٨﴾ بَغْتَةً ﴿١٨﴾ فُجَاءَةً ﴿١٨﴾ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴿١٨﴾ علاماتها، وهو مبعث محمد ﷺ، وانشقاق القمر، والدخان. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام ﴿١٨﴾ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا ﴿١٨﴾ قال الأخفش: التقدير: فأنى لهم ذكرها إذا جاءتهم.

١٩ - ﴿١٩﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ كَذَّبُوا اللَّهَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب مَنْ على دينك. وفي شرح التأويلات: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكننا لا نعلمه، غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر. وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معاشكم ومتاجرکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ ويعلم حيث تستقرون من منازلکم. أو: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في حياتکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في القبور. أو: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ من الجنة والنار. ومثله حقيق بأن يتقى، ويخشى، وأن يستغفر. وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

٢٠- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مبيّنة غير متشابهة لا تحتل وجهاً إلا وجوب القتال. وعن قتادة - رحمه الله - كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأن النسخ لا يرد عليها من قبل: أن القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق. أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً؛ كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل من الوَلَّى، وهو القرب. ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

٢١- ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف. أي: ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ فإذا جد الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوْ كَذَّبُوا اللَّهَ﴾

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من كراهة الجهاد.

٢٢- ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فلعلكم، إن أعرضتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتجاوز، والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، ووَاد البنات. وخبر عسى: ﴿أَنْ تَفْسِدُوا﴾ والشرط اعتراض بين الاسم والخبر. والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

٢٣- ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبغدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

٢٤- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي؟ و﴿أَمْ﴾ في ﴿أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ بمعنى بل، وهمة التقرير؛ للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر، ونكرت القلوب لأن المراد: على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. والمراد: بعض القلوب، وهي قلوب المنافقين. وأضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأن المراد الأقفال المختصة بها. وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح، نحو: الرين، والختم، والطبع.

٢٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: المنافقون، رجعوا إلى الكفر سراً بعد وضوح الحق لهم - ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين ﴿لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ: ﴿إِنَّ﴾، نحو: إن زيدا عمرو مَرَّ به - ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الآمال والأمان. ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ أبو عمرو. أي: أمهلوا، ومدّ في عمرهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَرُهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ

٢٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: المنافقون قالوا
لليهود ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: عداوة محمد - ﷺ، والقعود عن
نصرته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسر، حمزة وعلي وحفص.
﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ غيرهم. جمع سر.

٢٧- ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ﴿فَكَيْفَ﴾ يعملون؟ وما حيلتهم
حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرُهُمْ﴾.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من
الملائكة في وجهه ودبره.

٢٨- ﴿ذَٰلِكَ﴾ - إشارة إلى التوفي الموصوف - ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم
﴿أَتَّبَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ من نصره
المؤمنين ﴿فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٢٩- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ أحقادهم.
والمعنى: أظنَّ المنافقون: أن الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين؟

٣٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكم ودللتناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾
بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله بعلامة يُعلمون بها. وعن أنس - رضي الله عنه -:
«ما أخفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين. كان يعرفهم
بسماهم» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن في فحوى كلامهم؛
لأنهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾
داخله في جواب ﴿لو﴾ كالتي في ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ كزرت في المعطوف. وأما
اللام في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾ فيميز خيرها من شرها .

٣١- ﴿وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً . أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ على الجهاد . أي : نعلم كائناً ما علمنا أنه سيكون ﴿وَتَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ أسراركم . ﴿وَلِيلُوُنَّكُمْ﴾ حتى يعلم . . . ويبلو ﴿أبو بكر . وعن الفضيل - رحمه الله - : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبُلُنَا ؛ فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، وعذبتنا .

٣٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ وعادوه ، يعني : المطعمين يوم بدر . وقد مر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنه الحق ، وعرفوا الرسول ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها في مشاقّة الرسول . أي : سييطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم .

٣٣- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالنفاق أو بالرياء .

٣٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قيل : هم أصحاب القليب . والظاهر العموم .

٣٥- ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا ، ولا تذلّوا للعدوّ ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ وبالكسر حمزة وأبو بكر وأبو عمرو . وهما المسألة . أي : ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ﴾ أي : لأغلبون . ﴿وتدعوا﴾ مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالنصرة . أي : ناصركم ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم .

إِنَّمَا لِلْيَتِيمِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِبَخْلُوا وَتُخْرِجْ أَصْفَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ
 هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ
 عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

٣٦- ﴿إِنَّمَا لِلْيَتِيمِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ تنقطع في أسرع مدة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله
 ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الشرك ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانهم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: ولا يسألکم جميعها. بل ربع العشر. والفاعل الله أو الرسول.
 وقال سفيان بن عيينة: غيضاً من فيض.

٣٧- ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ﴾ أي: يجهدكم ويطلبه كله. والإحفاء:
 المبالغة، وبلوغ الغاية في كل شيء. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من
 الإلحاح، وأحفى شاربه: إذا استأصله ﴿تَبْخُلُوا وَتُخْرِجْ﴾ أي: الله، أو: البخل
 ﴿أَصْفَانَكُمْ﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع؛ لأنه عند مسألة المال تظهر
 العداوة والحقد.

٣٨- ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ ﴿هَآ﴾ للتنبيه ﴿هَؤُلَاءِ﴾ موصول بمعنى الذين، صلته
 ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي: أنتم الذين تدعون ﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هي النفقة في الغزو
 أو الزكاة. كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم، وكرهتم العطاء: أنكم
 تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ بالرفع لأن ﴿مَنْ﴾ هذه ليست
 للشرط. أي: فمنكم ناس يبخلون به ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة
 ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ أي: يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربه. وقيل:
 ﴿يبخل﴾ على نفسه، يقال: بخلت عليه، وعنه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾
 أي: إنه لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنه غني عن الحاجات، ولكن لحاجتكم
 وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة
 رسوله والإنفاق في سبيله - وهو معطوف على ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ -
 ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً خيراً منكم، وأطوع، وهم فارس. وسئل
 رسول الله ﷺ عن القوم - وكان سلمان إلى جنبه - فضرب على فخذه، وقال:

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ

«هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجالٌ من فارس»^(١) ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا﴾ في الطاعة ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ بل أطوع منكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٤١٧/٢) والبخاري (٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ

١ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ الفتح: الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب؛ لأنه مُنْغَلِقٌ ما لم يظفر به، فإذا ظفر به فقد فتح. ثم قيل: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح. وجيء به على لفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه ما لا يخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، فرموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم، وسألوا الصلح، فكان فتحاً مبيناً. وقال الزجاج: كان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك: أنه نزع ماؤها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم سجد في البئر، فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس. وقيل: هو فتح خيبر. وقيل: معناه: قضينا لك قضاء بيتاً على أهل مكة؛ أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت. من: الفتحاة، وهي: الحكومة.

٢ - ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة. والتقدير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فاستغفر ﴿ليغفر لك الله﴾. ومثله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخَرُ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَضْرُكَ
 اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ
 وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا
 عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ
 ظُلْمًا سَوِيًّا

إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ - ٣]. ويجوز أن يكون فتح
 مكة - من حيث إنه جهاد للعدو - سبباً للغفران. وقيل: الفتح لم يكن ليغفر
 له، بل لإتمام النعمة، والنصر العزيز. ولكنه لما عدّد عليه هذه النعم وصلها
 بما هو أعظم النعم. كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، أو كذا؛ لنجمع لك بين
 عزّ الدارين، وأغراض الآجل والعاجل ﴿مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخَرُ﴾ يريد: جميع
 ما فرط منك. أو ﴿ما تقدم﴾ من حديث مارية ﴿وما تأخر﴾ من امرأة زيد
 ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك، وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾
 ويثبتك على الدين المرضي.

٣- ﴿وَيَضْرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قوياً منيعاً لا ذلّ بعده أبداً.

٤- ٦- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ السكينة
 للسكون كالبهية للبهتان. أي: أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب
 الصلح؛ ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم. وقيل: السكينة: الصبر على ما أمر الله،
 والثقة بوعده الله، والتعظيم لأمر الله ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا﴾ ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
 وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: ﴿والله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض،
 كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن قضيته: أن سكن قلوب المؤمنين بصلح
 الحديبية، ووعدهم أن يفتح لهم. وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله
 فيه، ويشكروها، فيشبههم، ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك
 وكرهه ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمًا سَوِيًّا﴾ وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
 وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا
 وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

يقال: فَعَلَ سَوْءًا؛ أي: مسخوط فاسد. والمراد: ظنهم أن الله لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (١) مكي وأبو عمرو. أي: ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسَّوْءُ: الهلاك والدمار. غيرهما ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بالفتح. أي: الدائرة التي يذمونها، ويسخطونها. السَّوْءُ والسَّوْءُ كالكره والكُره والضَّعْفُ والضَّعْفُ. إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء. وأما السوء فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنّم.

٧- ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا﴾ غالباً، فلا يردّ بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر.

٨- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة، وهذه حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار.

٩- ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ولأُمَّته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ. والمراد بتعزيز الله: تعزيز دينه ورسوله، ومن فرق الضمائر فجعل الأولين للنبي ﷺ فقد أبعد. ﴿ليؤمنوا﴾ مكي وأبو عمرو. والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصلوات الأربع.

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بيعة الرضوان. ولما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أكده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. يريد: أن يد

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (السَّوْءُ). وهي قراءة: مكي، وأبي عمرو.

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

رسول الله ﷺ التي تعلق أيدي المبايعين هي يد الله، والله منزّه عن الجوارح، وعن صفات الأجسام. وإِنَّمَا المعنى: تقرير أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما؛ كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. و﴿إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ﴾ خبر إنّ ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلّا عليه. قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر: فما نكث أحد منا البيعة إلّا جدّ بن قيس، وكان منافقاً. اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يسر مع القوم^(١) ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به. ومنه قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَالْمُؤُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ حفص ﴿فَمِيسُورٌ بِهِ﴾ - وبالنون حجازي وشامي - ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة.

١١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلفوا عن الحديبية. وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والدليل. وذلك أنّه ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قریش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدى لِيُعْلَمَ: أنّه لا يريد حرباً. فتناقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم. وظنّوا: أنّه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هي جمع أهل. اعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم، وأنّ الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشف ٣٣٥/٤). وروى بعضه أحمد

(٣/٣٩٦) ومسلم (١٨٥٦) (٦٨ و ٦٩) والترمذي (١٥٩١) والنسائي (٧/١٤٠).

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ

وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادقٍ عن حقيقة ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿ضَرًّا﴾ حمزة وعلي ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من غنيمَةٍ وظفر ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٢ - ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان ﴿وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوًّا﴾ من علو الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر كعائد وعوذ. من: بار الشيء: هلك، وفسد. أي: ﴿وكنتم قوما﴾ فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم، لا خير فيكم. أو: هالكين عند الله مستحقين لسخطه وعقابه.

١٣ - ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم، فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيدان بأن من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله، والإيمان برسوله فهو كافر. ونكر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة. كما نكر ﴿نَارًا تَلْقَى﴾ [الليل: ١٤].

١٤ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته. وحكمته: المغفرة للمؤمنين، والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

١٥ - ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾. ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ حمزة وعلي. أي: يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ
نُقْنِلُهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرْيِضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وذلك: أنه وعدهم أن يعرضهم من مغنم مكة مغنم خيبر إذا قفلوا مواعدين،
لا يصيبون منهم شيئاً ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر. وهو إخبار من الله بعدم
اتباعهم، ولا يبدل القول لديه ﴿كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ انصرافهم إلى
المدينة: إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿فَسَبِقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾
أي: لم يأمركم الله به ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نشارككم في الغنيمة ﴿بَلْ كَانُوا لَا
يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ شيئاً قليلاً. يعني مجرد القول. والفرق
بين الإضرابين: أن الأول: رد أن يكون حكم الله ألا يتبعوهم وإثبات الحسد،
والثاني: إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم
منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

١٦ - ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى
قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفة، قوم مسيلمة، وأهل الردة الذين حاربهم
أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمتردين هم الذين لا يقبل منهم
إلا الإسلام أو السيف. وقيل: هم فارس، وقد دعاهم عمر - رضي الله عنه -
﴿نُقْنِلُهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين؛ إما المقاتلة، أو الإسلام.
ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾ على هذا التأويل: ينقادون؛ لأن فارس مجوس تقبل منهم
الجزية. وفي الآية دلالة صحة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة
الداعي عند دعوته بقوله: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا
حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
قَبْلُ﴾ أي: عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٧ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرْيِضِ حَرَجٌ﴾ نفى الحرج
عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الجهاد وغير

يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ

ذلك ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾ مدني وشامي.

١٨ - ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هي بيعة الرضوان. سميت بهذه الآية. وقصتها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حين نزل بالحديبية بعث حَوَاسِبَ بن أمية الخزاعي رسولاً إلى مكة، فهُمَّوْا به، فَمَنَعَهُ الْأَحَابِيشُ. فلَمَّا رَجَعَ دَعَا بِعُمَرَ - رضي الله عنه - لِيُبْعِثَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَى نَفْسِي لَمَّا عُرِفَ مِنْ عِدَاوَتِي إِيَّاهُمْ. فَبَعَثَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رضي الله عنه - فَخَبَّرَهُمْ: أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ، فَوَقَرُوهُ، وَاحْتَبَسَ عِنْدَهُمْ، فَأَرْجَفَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَنَاجِزَ الْقَوْمَ. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يَنَاجِزُوا قَرِيشًا وَلَا يَفِرُوا. ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وكانت سَمْرَةَ. وكان عدد المبايعين ألفاً وأربعمئة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَبَهُمْ﴾ وجزأهم ﴿فَتَحًّا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غِبَّ انصرافهم من مكة.

١٩ - ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغنم خيبر. وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسَمَهَا عَلَيْهِمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض.

٢٠ - ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه هم مع النَّبِيِّ ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم. يعني: مغنم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم. فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدي أهل مكة

وَلْيَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ

بالصلح ﴿وَلْيَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله عز وجل بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وفعل ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة، ويقيناً، وثقة بفضل الله.

٢١- ﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على ﴿هذه﴾. أي: فعجل لكم ﴿هذه﴾ المغانم ﴿و﴾ مغانم ﴿أخرى﴾ هي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر عليها، واستولى، وأظهركم عليها. ويجوز في ﴿أخرى﴾ النصب بفعل مضمر يفسره ﴿قد أحاط الله بها﴾ تقديره ﴿و﴾ قضى الله ﴿أخرى﴾ قد أحاط بها. وأما ﴿لم تقدرُوا عليها﴾ فصفة لأخرى. والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بـ ﴿لم تقدرُوا﴾ و﴿قد أحاط الله بها﴾ خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٢- ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصلحوا - أو من حلفاء أهل خيبر - ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ لغلّبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

٢٣- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد. أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنّة. وهو قوله: ﴿لَا غَلَبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلُنَا﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

٢٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي: أيدي أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عن أهل مكة. يعني: قضى بينهم وبينكم المكافئة والمجازة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة. وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة - رضي الله عنه - على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً. وقيل: كان في غزوة الحديبية؛ لما روي: أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمئة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه، وأدخله

يَبْطِنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ

حيطان مكة^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ﴿يَبْطِنُ مَكَّةَ﴾ أي: بمكة. أو بالحديبية لأن بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدركم وسلطكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وبالبيان أبو عمرو.

٢٥ - ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ﴾ هو ما يهدي إلى الكعبة. ونصبه عطفاً على ﴿كَمْ﴾ في ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: ﴿صَدُّوكُمْ﴾ و﴿وَصَدُّوا﴾ الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ﴾ محبوساً عن ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال. وكان ﷺ ساق سبعين بدنة ﴿حِمْلُهُ﴾ مكانه الذي يحل فيه نحره. أي: يجب. وهذا دليل على أَنَّ المحصر محلُّ هديه الحرم. والمراد: المحلُّ المعهود، وهو منى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ بمكة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً ﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾ بدل اشتغال منهم، أو من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾ ﴿فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ إثم وشدة. وهي مفعلة من: عَرَّ، بمعنى عَرَّاهُ: إذا دهاه ما يكرهه، ويشقُّ عليه. وهو الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء قالة المشركين: أَنَّهُمْ فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾. يعني: ﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾ غير عالين بهم. والوطة: عبارة عن الإيقاع والإبادة. والمعنى: أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَخْتَلَطُونَ بِالْمَشْرِكِينَ غَيْرَ مُمْتَازِينَ مِنْهُمْ. فقيل: ﴿وَلَوْلَا﴾ كراهة أَنْ تَهْلِكُوا نَاسًا مُؤْمِنِينَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمَشْرِكِينَ، وَأَنْتُمْ غَيْرُ عَارِفِينَ بِهِمْ، فَيَضَيِّبُكُمْ بِأَهْلَاكِهِمْ مَكْرُوهٌ وَمَشَقَّةٌ؛ لَمَا كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ. وقوله: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صوتاً

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

لمن بين أظهرهم من المؤمنين. كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمة﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم، أو: ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين وجواب ﴿لولا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لو﴾. ويجوز أن يكون ﴿لو تزيّلوا﴾ كالتكرير لـ ﴿لولا رجال مؤمنون﴾ لرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الجواب. تقديره: ﴿ولولا﴾ أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف ﴿منهم﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٦ - والعامل في: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريش ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ أي: لعذبناهم في ذلك الوقت. أو: اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا، وهي الأنفة، وسكينة المؤمنين، وهي الوقار: ما يروي: أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام. ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً. فقال ﷺ لعلي - رضي الله عنه -: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا. ولكن اكتب: باسمك اللهم. ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة». فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة. فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنني رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا^(١) ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ الجمهور على أنها كلمة

(١) رواه البخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١٠٥).

وَكَاْنُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ

الشهادة. وقيل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها
سبب التقوى وأساسها. وقيل: ﴿كلمة﴾ أهل ﴿التقوى﴾ ﴿وَكَاْنُوا﴾ أي:
المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجري الأمور على مصالحها.

٢٧ - ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى
الله عن الكذب - فحذف الجارَ وأوصل الفعل؛ كقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ
عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] روي: أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى
الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا. فقص الرؤيا
على أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إن رؤيا
رسول الله ﷺ حق. فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي بن غيرة: والله!
ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام. فنزلت ^(١) ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق
بـ ﴿صَدَقَ﴾ أي: صدقه فيما رأى في كونه وحصوله صدقاً ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾
أي: بالحكمة البالغة. وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص
وبين من في قلبه مرض. ويجوز أن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾ قسماً؛ إما بالحق الذي هو
نقيض الباطل، أو بالحق الذي هو من أسمائه. وجوابه: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ﴾. وعلى الأول هو جواب قسم محذوف ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ حكاية من الله
تعالى قول رسوله لأصحابه وقصهم عليه. أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم
مثل ذلك متأدين بأدب الله، ومقتدين بسنته ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، والشرط
معترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾ ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أي: جميع
شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/٣٤٥). وروى ابن جرير بعضه كما
في: الدر المنثور (٧/٥٣٨).

فَتَحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ تَحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَدِئًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ

أي من دون فتح مكة ﴿فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

٢٨- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جنس الدين. يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العزة والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام؛ حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن. عن الحسن - رضي الله عنه -: شهد على نفسه أنه سيظهر دينه. والتقدير: وكفاه الله شهيداً. و﴿شَهِيدًا﴾ تمييز، أو حال.

٢٩- ﴿تَحَمَّدُ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو ﴿مُحَمَّدٌ﴾ لتقدم قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾. أو مبتدأ خبره ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾. وقف عليه نصير ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ - أي: أصحابه: مبتدأ. والخبر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾. أو: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ عطف بيان و﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على المبتدأ. و﴿أَشِدَّاءُ﴾ خبر عن الجميع. ومعناه: غلاظ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون. وهو خبر ثان. وهما جمعاً شديداً، ورحيم، ونحوه ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وبلغ من تشدهم على الكفار أنهم كانوا يتحززون من ثيابهم أن تلتزق بشياهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم. وبلغ من تراحمهم فيما بينهم: أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا﴾ راعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿يُبْتَغُونَ﴾ حال، كما أن ﴿رُكْعًا﴾ و﴿سُجَّدًا﴾ كذلك ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: من التأثير الذي يؤثره السجود. وعن عطاء - رحمه الله -: استنارت وجوههم من طول ما صلوا

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

بالليل، لقوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه. يقال: أسطا الزرع: إذا فرخ ﴿فَآزَرَهُ﴾ قواه. ﴿فَآزَرَهُ﴾ شامي ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يتعجبون من قوته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر. وعن عكرمة - رضي الله عنه - ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ بأبي بكر ﴿فَآزَرَهُ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعثمان ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ بعلي - رضي الله عنهم -. وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقيته في الزيادة إلى أن قوي واستحكم؛ لأنَّ النبي ﷺ قام وحده، ثمَّ قواه الله تعالى بمن آمن معه؛ كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها ممَّا يتولد منها حتى يعجب الزرع ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لما دلَّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة. ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأنَّ الكفار إذا سمعوا بما أعدَّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْهُمْ﴾ للبيان كما في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ الذي هو الأوثان. وقولك: أنفق من الدراهم. أي: اجعل نفقتك هذا الجنس. وهذه الآية ترد قول الروافض: إنهم كفروا بعد وفاة النبي ﷺ. إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا﴾ قدمه وأقدمه منقولان بثقل الحشو والهمزة، من قدمه؛ إذا تقدمه في قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ [هود: ٩٨]. وحذف المفعول ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم من القول أو الفعل. وجاز ألا يقصد مفعول، والنهي متوجه إلى نفس التقدم. كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أو هو من قدم بمعنى تقدم كوجه [بمعنى توجه] ^(١). ومنه: مقدمة الجيش. وهي الجماعة المتقدمة منه. ويؤيده قراءة يعقوب ﴿لَا تَقْدَمُوا﴾ بحذف إحدى تاءي تتقدموا ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان: أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه. فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً؛ كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره. وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمّى تمثيلاً. وفيه فائدة جليّة وهي: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، واستدرك من المطبوع.

وَأَقْوُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

يجري مجرى قولك: سرتني زيد وحسن حاله. أي: سرتني حسن حال زيد. فكَذَلِكَ هنا المعنى بين يدي رسول الله ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوة الاختصاص. ولَمَّا كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك. وفي هذا تمهيد لما نُقِمَ منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ؛ لأنَّ من فضله الله بهذه الأثرة، واختصه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيّب والإجلال أن يُخَفِّضَ بين يديه الصوت. وعن الحسن - رضي الله عنه -: أَنَّ أَنَسًا ذَبَحُوا يَوْمَ الْأُضْحَى قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَنَزَلَتْ وَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعِيدُوا ذَبْحًا آخَرَ^(١). وعن عائشة - رضي الله عنها -: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِّ^(٢) ﴿وَأَقْوُوا اللَّهَ﴾ فَإِنَّكُمْ إِنْ اتَّقَيْتُمُوهُ عَاقَتَكُمْ التَّقْوَى عَنِ التَّقَدُّمَةِ الْمُنْهَى عَنْهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لَمَا تَقُولُونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَحَقَّ مِثْلُهُ أَنْ يُتَّقَى.

٢- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألاّ تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهه باهراً لجهركم، حتّى تكون مزيّته عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلّمتموه وهو صامت؛ فإياكم والعدول عمّا نهيتم عنه من رفع الصوت. بل عليكم ألاّ تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمّدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضادّ الجهر. أو لا تقولوا له: يا محمداً! يا أحمداً! وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم. ولَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَا كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ^(٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ

(١) رواه عبد الرزاق. (حاشية الكشف ٤/ ٣٥٠).

(٢) ذكره الثعلبي والدارقطني. المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٥).

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جَهْوَريَّ الصوت، وكان إذا كَلَّمَ رفع صوته، وربّما كان يكَلِّم النبي ﷺ فيتأدَّى بصوته. وكاف التشبيه في محلّ النصب. أي: ﴿لا تجهروا له﴾ جهرًا مثل ﴿جهر بعضكم لبعض﴾. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتّى لا يسوغ لهم إلّا أن يكلموه بالمخافتة. وإنّما نهوا عن جهر مخصوص. أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم. وهو الخلوّ من مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ منصوب الموضع على أنّه مفعول له متعلّق بمعنى النهي. والمعنى: انتهوا عمّا نهيتم عنه لحبوط أعمالكم. أي: لخشية حبوطها، على تقدير حذف المضاف ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ تمّ اسم ﴿إِنْ﴾ عند: ﴿رسول الله﴾. والمعنى: يخفضون أصواتهم في مجلسه تعظيماً له ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وتمّ صلة ﴿الذين﴾ عند قوله: ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾. و﴿أولئك﴾ مع خبره: خبر ﴿إِنْ﴾. والمعنى: أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب، وفتنه: إذا أذابه، فخلص إبريزه من خبثه، ونقاّه. وحقيقته: عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة. وعن عمر - رضي الله عنه -: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال من: محنة. وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جملة أخرى. قيل: نزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غضّ الصوت. وهذه الآية - بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لـ: ﴿إِنْ﴾ المؤكدة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره دالّة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ نزلت في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج إلينا يا محمد؛ فَإِنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ، وَذَمُّنَا شَيْنٌ، فاستيقظ وخرج^(١)، والوراء: الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام. ﴿وَمِنْ﴾ لابتداء الغاية، وَأَنَّ المناداة نشأت من ذلك المكان. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها. وهي فعلة بمعنى مفعولة؛ كَالْقُبْضَةِ. وجمعها: الحجرات - بضمتين - والحجرات - بفتح الجيم - وهي قراءة يزيد. والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ. وكانت لكلّ منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها ولعلهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها. ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين فكانهم تولّوه جميعاً ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قَصِدَ استنائه. ويحتمل أن يكون المراد: النفي العام؛ إذ القلة تقع موقع النفي.

وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محلّ رسول الله ﷺ. منها: التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل. ومنها: إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ولو تأمل متأمّل من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك. فتأمل كيف ابتداءً بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها من غير تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني. ثمّ أثنى على الغاضين أصواتهم ليدلّ على عظيم موقعه عند الله. ثمّ عقّبه بما هو أطمّ، وهجنته أتمّ من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة وابن مردويه وابن منده والثعلبي. (حاشية الكشف

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا

يصاح بأهون الناس قدراً؛ لينبئه على فظاعة ما جسروا عليه؛ لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً.

٥- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أي: ﴿ولو﴾ ثبت صبرهم. وحل ﴿أنهم صبروا﴾: الرفع على الفاعلية. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس. وقيل: الصبر مَرٌّ، لا يتجرعه إلا حَزٌّ. وقوله: ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيد: أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دينهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة، واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

٦- ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ أجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد، فوجدهم يصلون، فسلموا إليه الصدقات فرجع^(١). وفي تنكير الفاسق والنبا شياخ في الفساق والأنباء. كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. وفي الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل؛ لأننا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. والفسوق: الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: فقسست البيضة: إذا كسرتها

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١).

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً

وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء: إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له عليه. ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر. حمزة وعلي: ﴿فتثبتوا﴾. والتثبت والتبين متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ لئلا تصيبوا ﴿بِجَهَلَةٍ﴾ حال. يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة ﴿فَتُصْحِرُوا﴾ فتصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. الندم: ضرب من الغم، وهو أن تغتم على ما وقع منك، تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام.

٧- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يخبره، فينهتك ستر الكاذب. أو: فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه. ثم قال مستأنفاً: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ لوقعتم في الجهد والهلاك. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زيتوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وأن بعضهم كانوا يتصوتون ويزعمهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وقيل: هم ﴿الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. ولما كانت صفة الذين حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ غايرت صفة المتقدم ذكرهم وقعت ﴿لكن﴾ في حاق موقعها من الاستدراك، وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا وإثباتاً ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجة الإيمان بركوب الكبائر ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ترك الانقياد لما أمر به الشارع ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي ﴿أولئك﴾ المستنون ﴿هم الراشدون﴾ يعني: أصابوا طريق الحق، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. من: الرشادة، وهي: الصخرة.

٨- ﴿فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام.

وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

والانتصاب على المفعول له. أي: حيب وكره للفضل والنعمة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يُفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل.

٩- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك ابن أبي أنفه، وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا ننته. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك! ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبأ، وتجالدا، وجاء قوماهما - وهما الأوس والخزرج - فتجالدوا بالعصي، وقيل: بالأيدي، والنعال، والسعف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، ونزلت^(١). وجمع ﴿اقتتلوا﴾ حملاً على المعنى؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وثنى في ﴿فأصلحوا بينهما﴾ نظراً إلى اللفظ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ البغي: الاستطالة، والظلم، وإياء الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي: ترجع، والفيء: الرجوع. وقد سمي به الظل والغنيمة لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت، فإذا كفت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ المذكور في كتابه من الصلح، وزوال الشحنة ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا. وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. والقسط: الجور. والقسط: العدل. والفعل منه: أقسط. وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

١٠- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولي

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ

الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاققة من المؤمنين، وبيان: أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة لم ينقص عنها. ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولاداً ألزم السائر أن يتناهما في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما. فالأخوة في الدين أحق بذلك ﴿إِخْوَتُكُمْ﴾ يعقوب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فالتقوى تحملك على التواصل والاتلاف، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجواً. والآية تدل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي.

١١ - ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوام بأمور النساء. قال الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] هو في الأصل جمع قائم؛ كصوم، وزور في جمع صائم وزائر. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة في ﴿قَوْمٍ﴾ لم يقل: ﴿ولا نساء﴾ وحق ذلك زهير في قوله:

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء؟

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقين. ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن. وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد ﴿لا يسخر﴾ بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يقصد إفادة الشيعاء، وأن يصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه. وقوله: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف ورد مورد جواب المستخبر عن علّة النهي. وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوب أن يعتقد كل واحد: أن

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ

المسخور منه ربّما كان عند الله خيراً من الساخر؛ إذ لا اطلاع للناس إلا على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر. والذي يزن عند الله خلوص الضمائر. فينبغي ألاّ يجترى أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته. فلعلّه أخلص ضميراً، وأتقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته. فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً^(١) ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا تطعنوا أهل دينكم. واللمز: الطعن، والضرب باللسان ﴿وَلَا تُلْمِزُوا﴾ يعقوب وسهل. والمؤمنون كنفس واحدة. فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به. لأنّ من فعل ما استحقّ به اللمز فقد لزم نفسه حقيقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز بالألقاب: التداعي بها. والنبز: لقب السوء. والتلقيب المنهي عنه هو ما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيراً به وذمّاً له، فأمّا ما يجبه فلا بأس به. وروي: أنّ قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلال وخبّاب وعمار وصهيب - رضي الله عنهم - فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة. وعن أنس رضي الله عنه: عيّرت نساء النبي ﷺ أمّ سلمة بالقصر^(٢). وروي: أنّها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ لسمع، فأتى يوماً وهو يقول: تفسّحوا حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ. فقال لرجل: تنحّ؛ فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة. يريد أمّاً كان يعير بها في الجاهليّة فخجل الرجل. فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحدٍ في الحسب بعدها أبداً^(٣) ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ الاسم هاهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم. وحقيقته ما سما من ذكره

(١) رواه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد. (حاشية الكشف ٤/٣٦٨).

(٢) رواه أحمد (٣/١٣٥-١٣٦) والترمذي (٣٨٩٤) والنسائي في عشرة النساء (٣٣).

(٣) ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند. (حاشية الكشف ٤/٣٧٠).

وَمَنْ لَّمْ يَنْتَبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا

وارتفع بين الناس. كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه
الجرائر أن يذكروا بالفسق. وقوله: ﴿بعد الإيمان﴾ استقباح للجمع بين الإيمان
وبين الفسق الذي يحظره الإيمان كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرة الصبوة.
وقيل: كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي! يا فاسق! فنهوا عنه.
وقيل لهم: بشئ الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ﴿وَمَنْ لَّمْ
يَنْتَبْ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وحّد وجمع للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٢ - ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ يقال: جنبه الشر: إذا أبعده عنه.
وحقيقته: جعله في جانب. فيعدى إلى مفعولين. قال الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ
أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومطاوعه: اجتنب الشر، فنقص مفعولاً.
والمأمور باجتنابه بعض الظن. وذلك البعض موصوف بالكثرة. ألا ترى إلى
قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. قال الزجاج: هو ظنك بأهل الخير سوءاً. فأما
أهل الفسق فلنا أن نظنّ فيهم مثل الذي ظهر منهم. أو معناه: اجتناباً ﴿كثيراً﴾
أو: احترزوا من الكثير ليقع التحرز عن البعض. والإثم: الذنب الذي يستحق
صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه، كالنكال والعذاب ﴿وَلَا
يَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايهم. يقال: تجسس الأمر: إذا
تطلبه وبحث عنه. تَفَعَّلَ من الجسس. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر
الله. وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب معايب ما ستره الله على عباده ﴿وَلَا يَغْتَبَ
بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: الذكر بالغيب في ظهر الغيب. وهي من الاغتيال،
كالغيلة من الاغتيال. وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره»^(١). فإن كان
فيه فهو غيبة؛ وإلا فهو بهتان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الغيبة: إدام
كلام الناس ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿مَيْتًا﴾ مدني. وهذا

(١) رواه أحمد (٣٨٤/٢) ومسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٤).

فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها: جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أحدكم﴾ والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها: أن لم يُقتَصَرْ على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها: أن يُقتَصَرْ على لحم الأخ حتى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوذة أن تأكل منها؛ كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، أو من أخيه. ولما قرّره بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل. فليتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ التواب: البليغ في قبول التوبة. والمعنى ﴿واتقوا الله﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه: والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وروي: أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوماً. فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً. وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ. فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان. فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً. قال: «إنكما قد اغتبتما، ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه» ثم قرأ الآية^(١). وقيل: غيبة الخلق، إنما تكون من الغيبة عن الحق.

١٣ - ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ من آدم وحواء. أو كل واحد منكم من أب وأم. فما منكم من أحد إلا وهو يلدي بمثل ما يلدي به الآخر سواء بسواء. فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشُّعْبُ: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب. وهي: الشعب،

(١) هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو (حاشية الكشف ٤/٣٧٤).

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ

والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العماثر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعبت منها ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: إنما رتبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ في الحديث: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وروي: أنه ﷺ طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس! إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله». ثم قرأ الآية^(٢). وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط ألا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده رسول الله ﷺ، ثم توفي فحضر دفنه، فقالوا في ذلك شيئاً، فنزلت^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٌ﴾ بهمم النفوس في دعواها.

١٤ - ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أي: بعض الأعراب - لأن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر - وهم أعراب بني أسد، قدموا المدينة في سنة جذبة فأظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنون عليه ﴿ءَمَنَّا﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿قُلْ﴾ لهم

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو يعلى، وإسحاق، وعبد، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية. (حاشية الكشف ٤/٣٧٥).

(٢) رواه أحمد (٣٦١/٢) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠).

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٥).

لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

يا محمد: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان هو التصديق. والإسلام: الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين، بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب للسان فهو إيمان. وهذا من حيث اللغة. وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد لما عرف. وفي ﴿لَمَّا﴾ معنى التوقع. وهو دال على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. والآية تنقض على الكرامية مذهبهم: أن الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقال: ﴿قُلْ﴾ لا تقولوا: آمنا ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. أو: ﴿قُلْ﴾ لم تؤمنوا ﴿وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ﴾. قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً فقليل: ﴿قُلْ﴾ لم تؤمنوا ﴿مع أدب حسن فلم يقل: كذبتُمْ - تصريحاً - ووضع﴾ لم تؤمنوا ﴿الذي هو نفي ما ادّعوا إثباته موضعه واستغنى بقوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان. ولم يقل: ولكن أَسْلَمْتُمْ؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿آمنا﴾ كذلك. ولو قيل: ولكن أَسْلَمْتُمْ لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به. وليس قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ فإنَّ فائدة قوله ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه. كأنه قيل لهم: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا﴾ حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في السرِّ بترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ (يألتكم) بصري ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً. ألت، يألت، وألات، يئلت، ولات، يليت: بمعنى، وهو النقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
يُدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

١٥، ١٦- وصف المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ارتاب: مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى: أنهم آمنوا، ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لما صدقوه. ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه. وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المجاهد منوياً، وهو العدو المحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في: جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها؛ وبالمجاهدة بالمال نحو صنيع عثمان في جيش العسرة، وأن يتناول الزكاة وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿المؤمنون﴾: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق. وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ صفة لهم. ولما نزلت هذه الآية جاؤوا، وحلفوا: أنهم مخلصون فتزل: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ﴾ أي: أخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك.

١٧- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَسْلَمُوا﴾ يعني: بإسلامهم. والمن: ذكر الأيادي تعريضاً للشكر، ونهينا عنه ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المنة لله عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ بأن هداكم، أو: لأن. ﴿لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن صح زعمكم، وصدقت دعواكم. إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ﴿إِنْ

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

كنتم صادقين ﴿١٨﴾ في ادعائكم الإيمان فلله المنّة عليكم . وقرىء : ﴿إِنْ هَذَا كَذِبٌ﴾ .
 ١٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء مكّي .
 وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم . يعني : أنه تعالى يعلم كلّ مستترٍ في العالم ، ويبصر كلّ عملٍ تعملونه في سرّكم وعلاانيتكم ، لا يخفى عليه منه شيء . فكيف يخفى عليه ما في ضمائرکم؟! .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِنْ دَامَتْنا وَكُنَّا رَبَّابًا

١ - ٣ - الكلام في: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا﴾ كالكلام في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ١ - ٢] سواء بسواء؛ لالتقائهما في أسلوب واحد. و﴿المجيد﴾: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه، وعمل بما فيه، مَجْدٌ عند الله وعند الناس. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: كفار مكة ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ، إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه. وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم لزمه أن ينذرهم. فكيف بما هو غاية المخاوف؟ وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء، وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿١﴾ إِنْ دَامَتْنا وَكُنَّا رَبَّابًا﴾، دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار. ووضع ﴿الكافرون﴾ موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. و﴿هذا﴾ إشارة إلى

ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٤﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٦﴾

الرجع. و﴿إذا﴾ منصوب بمضمر معناه: أحين نموت ونبلى نرجع؟ ﴿متنا﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر؛ كقولك: هذا قولٌ بعيد؛ أي: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث. والوقف على ﴿تراباً﴾ على هذا حسن. وناسب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع: ما دلّ عليه المنذر من المنذر به وهو البعث.

٤- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع؛ لأنّ من لطف علمه حتّى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيّر. وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

٥- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل للدلالة على أنّهم جاؤوا بما هو أقطع من تعجبهم، وهو التكذيب بالحقّ الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه؛ أي: اضطرب من سعته، فيقولون تارة: شاعر، وطوراً: ساحر، ومرة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد. وقيل: الحق: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

٦، ٧- ثُمَّ دَلَّهِمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ فَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا﴾ رفعناها بغير عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنيرات ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ من فتوق وشقوق. أي: أنها سليمة من العيوب، لا فتق فيها، ولا صدع، ولا خلل ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ دحوناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، لولا هي لالت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٌ﴾ يبتهج به لحسنه.

تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَنَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُجُ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَيْنَا

٨- ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ﴾ لنبصر به، ونذكر كلَّ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه، مفكرٍ في بديع خلقه.

٩- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: وحَبَّ الزَّرْع الذي من شأنه أن يحصد؛ كالخنطة، والشعير، وغيرهما.

١٠- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً في السماء ﴿لِّمَا طَلَعَ﴾ هو كلُّ ما يُطْلَعُ من ثمر النخيل ﴿نَضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض؛ لكثرة الطلع وتراكمه، أو: لكثرة ما فيه من الثمر.

١١- ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتناها ﴿رِزْقًا﴾؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق فيكون ﴿رِزْقًا﴾ مصدراً من غير لفظه. و: هو مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ قد جفَّت نباتها ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة؛ كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم لأنَّ إحياء الموات كإحياء الأموات. والكاف في محلِّ الرفع على الابتداء.

١٢- ١٤- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ﴾ هو بشر لم تطو. وهم قوم باليمامة. وقيل: أصحاب الأخدود ﴿وَنَمُودُ﴾ و﴿عَادُ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون قومه كقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] لأنَّ المعطوف عليه ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ والمعطوفات جماعة ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ ستمهم إخوانه؛ لأنَّ بينهم وبينه نسباً قريباً ﴿وَقَوْمُ تُيُجُ﴾ هو ملك باليمن أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه. وسمي به لكثرة تبعه ﴿كُلُّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأنَّ من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فوجب وحلَّ وعيدي. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

١٥- ﴿أَفَعَيَيْنَا﴾ أعيا بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار

بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ
نَقْسُمْ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾

﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أنا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ في خلط وشبهة وقد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. وذلك تسويله إليهم: أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح. وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد الموت. وإنما نكر الخلق الجديد ليدل على عظمة شأنه، وأن حق من سمع به أن يخاف، ويهتم به.

١٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ نَقْسُمْ﴾ الوسوسة: الصوت الخفي، ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهيج في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قوله صوت بكذا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد قرب علمه منه ﴿مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو مثل في فرط القرب. والوريد: عرق في باطن العنق. والحبل: العرق. والإضافة للبيان؛ كقولهم: بغير سانية.

١٧- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين الحافظين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ التلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. والقعيد: المقاعد؛ كاجلس بمعنى المجلس. وتقديره: ﴿عن اليمين﴾ قعيد ﴿وعن الشمال قعيد﴾ من المتلقيين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله:

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوي رماني

أي: رماني بأمر كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً. و﴿إِذْ﴾ منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب. والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه. وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيداناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه. وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما ذلك لحكمة، وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم القيامة لطف له في الانتهاء عن السيئات، والرغبة في الحسنات.

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا

١٨- ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به وما يرمى به من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر. ثم قيل: يكتبان كل شيء حتى أُنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر. وقيل: إن الملكين لا يجتنبانه إلا عند الغائط والجماع.

١٩- لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم: أن ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة. ونبه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي. وهو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: شدته الزاهية بالعقل ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ﴾ الإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ على طريق الالتفات ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب.

٢٠- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي: وقت ذلك الوعيد. على حذف المضاف. والإشارة إلى مصدر ﴿نُفِخَ﴾.

٢١- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. ومحل ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ النصب على الحال من ﴿كُلِّ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

٢٢- ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي: يقال لها: لقد كنت ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ النازل بك اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، وَرَجَعَ بَصَرُهُ الْكَلِيلُ عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقظه.

٢٣- ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الجمهور على أنه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿هَذَا﴾ أي: ديوان عمله. مجاهد: شيطانه الذي قُبِضَ له في قوله: ﴿نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ﴾

مَا لَدَيْ عَتِيدٍ ﴿٢٦﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٥﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٤﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

قَرِينٌ ﴿الزخرف: ٣٦﴾ ﴿هذا﴾ أي: الذي وكلتُ به ﴿مَا لَدَيْ عَتِيدٍ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ و﴿ما﴾ نكرة بمعنى شيء. والظرف بعده وصف له. وكذلك ﴿عتيد﴾. و﴿ما﴾ وصفتها خبر ﴿هذا﴾. والتقدير: ﴿هذا﴾ شيء ثابت ﴿لدي عتيد﴾.

٢٤- ثم يقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ والخطاب للسائق والشهيد. أو: للملك. وكان الأصل: ألق، ألق. فتاب ﴿أَلْقِيَا﴾ عن: ألق، ألق. لأن الفاعل كالجاء من الفعل، فكانت تشية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل. وقيل: أصله: أَلْقَيْنِ. والألف بدل من النون إجراء للوصل مجرى الوقف؛ دليله: قراءة الحسن (ألقين) ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعيم والمنعم ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند بجانب للحق معادٍ لأهله.

٢٥- ﴿مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه. أو: متاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخطٍ للحق ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه.

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط، خبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. أو بدل من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ و﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرير للتوكيد. ولا يجوز أن يكون جرأ صفة لـ ﴿كَفَّارٍ﴾ لأن النكرة لا توصف بالموصولة.

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه الذي قرن به. وهو شاهد لمجاهد - رحمه الله -. وإنما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى، لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول. أعني: مجيء كل نفس مع المالكين، وقول قرينه ما قال له. وأما هذه فهي مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التناول؛ كما في مقابلة موسى - عليه السلام - وفرعون. وكان الكافر قال: ربِّ هو أطغاني، فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى، واختار الضلالة على الهدى.

٢٨- ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ كأن قائلًا قال: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال: لا تختصموا﴾ ﴿لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾

مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾

أي: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصاصكم، ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتيبي، وعلى ألسنة رسلي، فما تركت لكم حجة عليّ. والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيدة؛ كما في قوله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو مُعْدِيَةٌ على أن: قدّم مطاوع بمعنى: تقدّم.

٢٩- ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب. وقال: ﴿بظلام﴾ على لفظ المبالغة؛ لأنه من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده.

٣٠- ﴿يَوْمَ﴾ ^(١) نصب بظلام أو بمضمر نحو: اذكر وأنذر ﴿نَقُولُ﴾: نافع وأبو بكر. أي: ﴿يقول﴾ الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وهو مصدر كالمجيد. أي: أنها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد! أي: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟! يعني: قد امتلأت. أو: أنها تستزيد. وفيها موضع للمزيد. وهذا على تحقيق القول من جهنم. وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح. والسؤال لتوبيخ الكفرة؛ لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا.

٣١- ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً ﴿غير بعيد﴾. أو على الحال. وتذكيره؛ لأنه على زنة المصدر كالصليل. والمصادر يستوى في الوصف بها المذكر والمؤنث. أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً ﴿غير بعيد﴾. ومعناه: التوكيد كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

٣٢- ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، وهو إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر ﴿أُزْلِفَتِ﴾، ﴿مَا نُوْعِدُونَ﴾ - صفته. وبالياء مكّي، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى ذكر الله. خبره: ﴿حَفِيفٍ﴾ حافظ لحدوده. في الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً».

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿يقول﴾ وهي قراءة نافع، وأبي بكر، كما نص على ذلك. وما أثبتناه هي قراءة حفص.

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

٣٣- ﴿مَنْ﴾ مجرور المحل بدل من ﴿أَوَابٍ﴾. أو رفع بالابتداء، وخبره: ﴿ادخلوها﴾ على تقدير يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ في معنى الجمع ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ الخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة. وقرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي. وهو خشيته مع علمه: أنه الواسع الرحمة؛ كما أثنى عليه بأنه خاش، مع أن المخشي منه غائب ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول. أي: خشيه وهو غائب. أو: صفة لمصدر خشى. أي: خشيه خشيةً ملتبسة بالغيب، حيث خشى عقابه وهو غائب. الحسن: إذا أغلق الباب وأرعى الستر ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله. وقيل: بسريرة مرضية، وعقيدة صحيحة.

٣٤- ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: مقدرين الخلود.

٣٥- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشتهون. والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف.

٣٦- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ من قومك ﴿بَطْشًا﴾ قوة وسطوة ﴿فَنَقَّبُوا﴾ فخرقوا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ وطافوا. والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. ودخلت الفاء للتسبب عن قوله: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم في بلاد القرون. فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم؟ ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ على الأمر ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب من الله، أو من الموت.

٣٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرًا﴾ تذكيراً وعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ

واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

٣٨- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ إعياء. قيل: نزلت في اليهود - لُعِنَتْ - تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش. وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود. ومنهم أخذ. وأنكر اليهود التبريع في الجلوس، وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت.

٣٩- ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول اليهود، ويأتون به من الكفر والتشبيه. أو: على ما يقول المشركون في أمر البعث؛ فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً ربك. والتسبيح محمول على ظاهره. أو على الصلاة. فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر.

٤٠- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان، أو: التهجد ﴿وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات - والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة - وقيل: النوافل بعد المكتوبات. أو: الوتر بعد العشاء. والأدبار جمع دُبر ﴿وَادْبَارُ﴾ حجازي، وحزمة، وخلف. من: أدبرت الصلاة: إذا انقضت وتمت. ومعناه: وقت انقضاء السجود؛ كقولهم: آتيك خفوق النجم.

٤١- ﴿وَأَسْتَمِعْ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل، وتعظيم لشأن المخبر به. وقد وقف يعقوب عليه. وانتصب ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ بما دل عليه: ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي: ﴿يوم ينادي المنادي﴾ يخرجون من القبور. وقيل: تقديره: ﴿واستمع﴾ حديث ﴿يوم ينادي المنادي﴾ ﴿المنادي﴾ بالياء في

مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

الحالين مكّي وسهل ويعقوب، وفي الوصل مدني وأبو عمرو. وغيرهم بغير ياء
فيهما. والمنادي إسرافيل، ينفخ في الصور، وينادي: أيتها العظام البالية!
والأوصال المتقطعة! واللحوم المتمزقة! والشعور المتفرقة! إن الله يأمركن أن
تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي بالحشر ﴿من مَّكَانٍ
قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر
ميلاً، وهي وسط الأرض.

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ - بدل من ﴿يوم ينادي﴾ - ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية
﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة. والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾
من القبور.

٤٣، ٤٤- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الخلق ﴿وَنُمِيتُ﴾ أي: ونميتهم في الدينا ﴿وَالَيْنَا
الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرهم ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ﴾ خفيف كوفي وأبو عمرو. وغيرهم
بالتشديد ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: تتصدع الأرض، فيخرج الموتى من صدوعها
﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور. أي: مسرعين ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين.
وتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا
على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤٥- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا. تهديد لهم، وتسلية لرسول الله ﷺ
﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُصِيطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. أي: ما أنت
بمسلط عليهم. إنما أنت داع وباعث. وقيل: هو من: جبره على الأمر،
بمعنى: أجبره. أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ
يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَحْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفع
إلا فيه.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَّتِ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلَحْمِلَتِ وَقَرًا ﴿٢﴾ فَلَجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَلَمَقَسَمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْيَوْمَ لَوُفْعٌ ﴿٦﴾

١ - ٤ - ﴿وَالذَّارِيَّتِ﴾ الرياح؛ لأنها تذرّو التراب وغيره. وبإدغام التاء في الذال حمزة، وأبو عمرو ﴿ذَرَوْا﴾ مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل ﴿فَلَحْمِلَتِ﴾ السحاب لأنها تحمل المطر ﴿وَقَرًا﴾ مفعول الحاملات ﴿فَلَجَرِيَّتِ﴾ الفلك ﴿يُسْرًا﴾ جرياً ذا يسر؛ أي: ذا سهولة ﴿فَلَمَقَسَمَتِ أَمْرًا﴾ الملائكة؛ لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها؛ أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك، أو يتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب. وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جرياً سهلاً، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب. ومعنى الفاء على الأول: أنه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فباللائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحار ومنافعها. وعلى الثاني: أنها تبتدىء في الهبوب، فتذرّوا التراب والحصباء، فتقلّ السحاب، فتجري في الجو باسطة له، فتقسم المطر.

٥، ٦ - ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم. و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية. والموعود البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾ وعد صادق؛ كعيشة راضية؛ أي: ذات رضا ﴿وَإِنَّ الْيَوْمَ لَوُفْعٌ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿لَوُفْعٌ﴾ لكائن.

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾

٧- ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ هذا قسم آخر ﴿ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ الطرائق الحسنة، مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تشنيه وتكسره. جمع: حبيكة، كطريقة، وطرق. ويقال: إِنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ كَذَلِكَ. وعن الحسن: حبكها: نجومها. جمع: حباك.

٨- ﴿إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: قولهم في الرسول: ساحر، وشاعر، ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر، وأساطير الأولين.

٩- ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول. أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم، أو: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله؛ أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لـ ﴿ما توعدون﴾ أو لـ ﴿الدِّينِ﴾. أقسم بالذاريات على أَنَّ وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد، ثم قال: ﴿يُؤَفِّكُ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من: هو المأفوك.

١٠- ﴿قِيلَ﴾ لعن. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك. ثم جرى مجرى لعن ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون المقدرون ما لا يصح. وهم أصحاب القول المختلف. واللام إشارة إليهم كأنه قيل: ﴿قتل﴾ هؤلاء ﴿الخراصون﴾.

١١-١٣- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَقٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْتَلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: متى يوم الجزاء. وتقديره: أَيَّانَ وقوع يوم الدين؛ لأنه إنما تقع الأحيان ظروفاً للحدثان. وانتصب اليوم الواحد في الجواب بفعل مضمّر دلّ عليه السؤال، أي: يقع ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن وهو الجملة، ومحلّه نصب بالمضمّر الذي هو «يقع» أو رفع على هو ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون.

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ

١٤- ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا﴾ عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿هَذَا﴾: مبتدأ خبره: ﴿الَّذِي﴾؛ أي: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو الذي ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بقولكم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٠].

١٥، ١٦- ثُمَّ ذَكَرَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: تكون العيون، وهي الأنهار الجارية بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابِلِينَ لِكُلِّ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، رَاضِينَ بِهِ. و﴿ءَاخِذِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. وهو خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده:

١٧، ١٨- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون. و﴿مَا﴾ مزيدة للتوكيد - و﴿يهجعون﴾ خبر كان. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو مصدرية. والتقدير: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، فيرتفع هجوعهم: لكونه بدلاً من الواو في ﴿كانوا﴾، لا بقليل؛ لأنه لما صار موصوفاً بقوله: ﴿من الليل﴾ خرج من شبه الفعل، وعمله باعتبار المشابهة. أي: كان هجوعهم ﴿قليلًا من الليل﴾. ولا يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية على معنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً وَيُخَيُّونُهُ كُلَّهُ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا تقول: زيدا ما ضربت ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. والسحر: السدس الأخير من الليل.

١٩- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿وَالْمَحْرُورِ﴾ أي: الذي يتعرض ولا يسأل حياء.

٢٠، ٢١- ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره،

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقّلين فيها، وهي مجزأة، فمن سهل، ومن جبل، ورخوة، وعدّاة، وسبّخة، وفيها عيون متفجرة، ومعادن مفتنة، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للموحدّين الذين سلكوا الطريق السويّ الرهانيّ الموصل إلى المعرفة، فهم نظّارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة. كلّما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الخلق، ما تتحرّر فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها. دع الأسماع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما سويّ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني؛ فإنه إذا جسا^(١) شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذلّ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وما قيل: إنّ التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف؛ لأنّه يفضي إلى تقديم ما في حيز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

٢٢- ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ المطر؛ لأنّه سبب الأقوات. وعن الحسن - رضي الله عنه -: أنّه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أنّ ما ترزقونه في الدنيا، وما توعّدونه في العقبى كلّ مقدور مكتوب في السماء.

٢٣- ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ الضمير يعود إلى الرزق، أو إلى ما توعّدون ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾^(٢) بالرفع كوفي غير حفص صفة للحق. أي:

(١) «جسا»: ييس وصلب وغلظ.

(٢) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿مثل﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، =

هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

حقّ مثل نطقكم. وغيرهم النصب أي: ﴿أنه لحق﴾ حقّاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. و﴿ما﴾ مزيدة. وعن الأصمعيّ: أنه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعود. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. قال: اتل عليّ. فتلوت: ﴿والذاريات﴾ فلما بلغت قوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحراها، ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولّى. فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابيّ قد نحل واصفرّ، فسلم عليّ، واستقرأ السورة. فلما بلغت الآية صاح وقال: ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدّقوه بقوله حتى حلف. قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

٢٤- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾ تفخيم للحديث، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. وانتظامها بما قبلها باعتبار أنه قال: ﴿وفي الأرض آيات﴾ وقال في آخر هذه القصة: ﴿وتركنا فيها آية﴾ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الضيف: للواحد والجماعة، كالصوم، والزور؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه. وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم - عليه السلام - . أو لأنهم كانوا في حسابانه كذلك ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله؛ لقوله: ﴿بل عباد مكرمون﴾. وقيل: لأنه خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى.

٢٥- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم. وإلا فيضمّار اذكر ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ مصدر ساد مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم ﴿سلام﴾ فهو مرفوع على الابتداء.

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَعَجَلَهُ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

وخبره محذوف. والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام؛ كأنه قصد أن يحبيهم بأحسن مما حيّوه به أخذاً بأدب الله. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. حمزة وعلي ﴿سَلِّمْ﴾. والسلم: السلام ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أنتم ﴿قوم منكرون﴾ فعرفوني من أنتم.

٢٦-٢٨- ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه. ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يياده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفه. وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر ﴿فَعَجَلَهُ بِعِجَلٍ سَمِينٍ﴾ * ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل، أو حثهم عليه، ﴿فَأَوْحَسَ﴾ فأضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفاً؛ لأن من لم يأكل طعامك، لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. وقيل: مسح جبريل العجل فقام ولحق بأمه ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يبلغ ويعلم. فالمبشّر به إسحاق عند الجمهور.

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ﴾ في صيحة. من: صر القلم والباب. وقال الزجاج: الصرة: شدة الصياح هاهنا. ومحلّه النصب على الحال. أي: فجاءت صارة. وقيل: فأخذت في صياح. وصرتها: قولها: ﴿يا ويلتنا﴾ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا ﴿عجوز﴾ فكيف ألد؟ كما قال في موضع آخر: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء. وروي: أن جبريل قال لها حين استبعدت:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٣) ﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٤) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧) ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨)

انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشمرة.

٣١-٣٤- ولما علم أنهم ملائكة، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ أرسلتم بالشارة خاصة، أو لأمر آخر، أو لهما؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد السجبل، وهو طينٌ طبخ كما يطبخ الأجر حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلّمة. من: السومة وهي: العلامة، على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ سّماهم: مسرفين، كما سّماهم: عادين؛ لإسرافهم وعدوانهم في عملهم، حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

٣٥- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لوطاً ومن آمن به.

٣٦- ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: غير أهل بيت. وفيه دليل: على أن الإيمان والإسلام واحد؛ لأن الملائكة سمّوهم مؤمنين ومسلمين هنا.

٣٧- ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ في قراهم ﴿آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قيل: هي ماء أسود منتن.

٣٨- ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ معطوف على ﴿وفي الأرض آيات﴾. أو على قوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ على معنى ﴿و﴾ جعلنا ﴿في موسى﴾ آية؛ كقوله.

علفئها تبناً وماءً بارداً (١)

﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة، وهي: اليد والعصا.

(١) وتماه: حتى شئت همالة عيناها.

فَتَوَلَّىٰ بَرْكِيهٖ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ

٣٩، ٤٠ - ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿بَرْكِيهٖ﴾ بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. والركن: ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ آتٍ بما يلام عليه من كفره وعناده. وإنما وصف يونس عليه السلام به في قوله: ﴿فَالْفَقْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢] لأن موجبات اللوم تختلف. وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكفر ملوم على مقداره، وراكب الكبيرة والصغيرة والزلة كذلك. والجملة مع الواو حال من الضمير في ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾

٤١ - ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ هي: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلحاق شجر. وهي ريح الهلاك. واختلف فيها. والأظهر: أنها الدبور لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(١).

٤٢ - ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو: كل ما رمى؛ أي: بلى، وتفتت من عظم، أو نبات، أو غير ذلك. والمعنى: ما ترك من شيء هبت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا أهلكته.

٤٣ - ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ﴾. تفسيره قوله: ﴿تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

٤٤ - ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب، وكلُّ عذاب مهلك صاعقة. ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ علي. وهي: المرة، من مصدر: صعقتهم الصاعقة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ لأنها كانت نهاراً يعاينونها.

٤٥ - ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: هرب. أو هو من قولهم: ما يقوم به: إذا

وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

عجز عن دفعه ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ ممتنعين من العذاب. أو: لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأن معنى الانتصار المقابلة.

٤٦- ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قوم نوح﴾ لأن ما قبله يدل عليه. أو: ﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح﴾. وبالجزء أبو عمرو، وعلي، وحمة. أي ﴿و﴾ في ﴿قوم نوح﴾ آية. ويؤيده قراءة عبد الله (وفي قوم نوح) ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ كافرين.

٤٧- ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة. والأيد: القوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون. من الوسع، وهي: الطاقة. والموسع: القوي ع لى الإنفاق. أو: ﴿لموسعون﴾ ما بين السماء والأرض.

٤٨- ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ بسطناها، ومهدناها. وهي منصوبة بفعل مضمّر. أي: وفرشنا الأرض، فرشناها ﴿فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ﴾ نحن.

٤٩- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. وعن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة. فعدّد أشياء وقال: كلّ اثنين منها زوج. والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّ من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج؛ لتذكروا، فتعرفوا الخالق، وتعبدوه.

٥٠، ٥١- ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من الشرك إلى الإيمان بالله. أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. أو ممّا سواه إليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ولا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ والتكرير للتوكيد. والإطالة في الوعيد أبلغ.

٥٢- ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً أو مجنوناً. ثم فسّر ما أجمل بقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك

مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾ فَنُوحِلُهُمْ فَمَا
 أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٨﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُونِ ﴿٦٠﴾

﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم.

٥٣- ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِمْ﴾ الضمير للقول. أي: أتواصى الأولون والآخرين بهذا القول؛ حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يتواصوا به؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحدٍ، بل جمعتهم العلة الواحدة، وهي: الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

٥٤- ﴿فَنُوحِلُهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كذرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فلا لوم عليك في إعراضك بعدما بلغت الرسالة، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة.

٥٥- ﴿وَذَكَرْ﴾ وعظ بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تزيد في علمهم.

٥٦- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة. بل المراد بها المؤمنون من الفريقين. دليله: السياق، أعني: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين) وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بد أن توجد منهم، فإذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: إلا لآمرهم بالعبادة، وهو منقول عن علي - رضي الله عنه - وقيل: إلا ليكونوا عباداً لي. والوجه: أن تحمل العبادة على التوحيد، فقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كل عبادة في القرآن فهي توحيد. والكل يوحدونه في الآخرة لما عرف: أن الكفار كلهم مؤمنون موحدون في الآخرة. دليله قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] نعم قد أشرك البعض في الدنيا لكن مدة الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقل من يوم. ومن اشترى غلاماً وقال: ما اشتريته إلا

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

للكتابه كان صادقاً في قوله: ما اشتريته إلا للكتابة، وإن استعمله في يومٍ من عمره لعملٍ آخر.

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم، أو: واحداً من عبادي ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ قال ثعلب: أن يطعموا عبادي. وهو إضافة تخصيص؛ كقوله ﷺ خبراً عن الله تعالى: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني، ومن أذى مؤمناً فقد آذاني»^(١).

٥٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الشديد القوة. و﴿المتين﴾ بالرفع صفة لذو. وقرأ الأعمش بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار.

٥٩- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكة ﴿ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ نصيباً من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المهلكة. قال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ نزول العذاب. وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

٦٠- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر ﴿ليعبدوني﴾ ﴿أن يطعموني﴾ ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء في الحاليين يعقوب. وافقه سهل في الوصل، الباكون بغير ياء.

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٥٨٠٦)، وانظره في: فيض القدير (٨٥١٢) وميزان الاعتدال للذهبي (٩٦٢٨).

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

١-٧- ﴿وَالطُّورِ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ هو القرآن. ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب. أو اللوح المحفوظ، أو التوراة ﴿فِي رَقٍّ﴾ هو الصحيفة، أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿مَّنْشُورٍ﴾ مفتوح لاختتم عليه، أو: لائح ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أي: الضراح. وهو بيت في السماء حيال الكعبة. وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة. روي: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون ثم لا يعودون إليه. وقيل: الكعبة؛ لكونها معمورة بالحجاج والعمار ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، أو العرش ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء أو الموقد. والواو الأولى للقسم، والبواقي للعطف. وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أوعد الكفار به ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مطعم - رضي الله عنه -: أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى، فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب^(١).

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، والذي جاء في الصحيح أن ذلك في صلاة المغرب، وأنه =

مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

٨-١٤- ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ لا يمنعه مانع، والجملة صفة ﴿لواقع﴾ أي: واقع غير مدفوع. والعامل في ﴿يوم﴾: ﴿لواقع﴾ أي: يقع في ذلك اليوم. أو: اذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ في الهواء كالسحاب؛ لأنها تصير هباءً منثوراً ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاطِنِينَ﴾ [المدر: ٤٥] ويبدل ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ من ﴿يوم تمور﴾. والدع: الدفع العنيف. وذلك: أَنَّ خزانة النار يُغْلَوْنَ أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزخاً في أفقيتهم، فيقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

١٥- ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ ﴿أسحر﴾ خبره. يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحر ﴿أسحر هذا﴾؟ يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا. يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه؛ كما كنتم عمياً عن الخبر؟ وهذا تقرير وتهكم.

١٦- ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر ﴿سواء﴾ محذوف؛ أي: ﴿سواء عليكم﴾ الأمران: الصبر وعدمه. وقيل: على العكس. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الصبر إنما تكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير. وأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له، ولا منفعة، ولا مزية له على الجزع.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ يَمَاءً أَنَّهُمْ رِيُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابٍ
الْحَلِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَاءً كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكَبِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا
أَلَنَّا لَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَشْتَرُونَ فِيهَا كَأْسًا

١٧- ٢٠- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في آية جنات ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ﴿و﴾ أي ﴿نعيم﴾

بمعنى الكمال في الصفة. أو ﴿في جنات ونعيم﴾ مخصوصة بالمتقين، خلقت لهم خاصة ﴿فَتَكْبِهِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. والظرف خبر. أي: متلذذين ﴿يَمَاءً أَنَّهُمْ رِيُّهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على ﴿في جنات﴾ أي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ استقروا ﴿في جنات... ووقاهم ربهم﴾ أو على ﴿آتاهم ربهم﴾ على أن تجعل ﴿ما﴾ مصدرية. والمعنى: ﴿فاكبهين﴾ بإيتائهم ربهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ الْحَلِيمِ﴾. أو: الواو للحال «وقد» بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَاءً كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلاً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾. أو طعاماً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾. وهو الذي لا تنغص فيه ﴿مُتَكَبِّينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كلوا واشربوا﴾ ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٍ﴾ عظام الأعين، حسانها.

٢١- ٢٣- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ. و﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ خبره. و﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾

﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾: أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ أولادهم ﴿بِإِيمَانٍ﴾ حال من الفاعل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء. وقيل: إن الذرية وإن لم يبلغوا مبلغاً يكون منهم الإيمان استدلالاً، وإنما تلقنوا منهم تقليداً فهم يلحقون بالآباء. ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ ذرياتهم. مدني ﴿ذرياتهم﴾ ذرياتهم. أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ شامي ﴿وَمَا أَلَنَّا لَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ﴾ وما نقصناهم ﴿من﴾ ثواب ﴿عملهم من شيء﴾ ﴿أَلَنَّا لَهُمْ﴾ مكّي. أَلَتْ، يَأْلِتُ، وَالَّتْ، يَأْلَتْ لَفْتَانِ ﴿مِنْ﴾ الأولى متعلقة بـ ﴿أَلَنَّا لَهُمْ﴾، والثانية زائدة ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرهون، نفس المؤمن مرهونة بعمله ويجازى به ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وإن لم يقترحوا ﴿يَشْتَرُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ خراً. أي:

لَا لَعَوْفَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيْمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

يتعاطون، ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقبائهم، يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا ﴿لَا لَعَوْفَ فِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأْنِيْمٌ﴾ أي: لا يجري بينهم ما يُلغى. يعني: لا يجري بينهم باطل، ولا مافيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا؛ لأن عقولهم ثابتة فيتكلمون بالحكم والكلام الحسن. ﴿لَا لَعَوْفَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيْمٌ﴾ مكِّي وبصري.

٢٤- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ مملوكون ﴿لَهُمْ﴾ مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ في الصدف. لأنه رطباً أحسن وأزكى. أو: مخزون؛ لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. في الحديث: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ يَنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خِدَامِهِ فَيَجِيههُ أَلْفُ بَيَابِهِ: لَبِّكَ لَبِّكَ»^(١).

٢٥-٢٨- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله. أو: خائفين من نزاع الإيمان وفوت الأمان. أو: من رد الحسنات، والأخذ بالسيئات ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ هي: الريح الحارّة التي تدخل المسام، فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله والمصير إليه - يعنون: في الدنيا - ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبد ولا نعبد غيره، ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب. ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح مدني وعليّ؛ أي: بأنه، أو لأنه.

٢٩- ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ﴿رَبِّكَ﴾ وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّيْصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ

زعموا. وهو في موضع الحال، والتقدير: لست كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك.

٣٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو ﴿شَاعِرٌ نَّبَرَّيْصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، أي: نتظر نوائب الزمان فيهلك؛ كما هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابعة. و﴿أَمْ﴾ في أوائل هذه الآي منقطعة بمعنى: بل، والهمزة.

٣١- ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

٣٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ﴾ عقولهم ﴿هَذَا﴾ التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن، وشاعر، مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يدعوون: أهل الأحلام والتهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

٣٣، ٣٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ﴿بَلْ﴾ رد عليهم. أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم بطلان قولهم، وأنه ليس بمقتول لعجز العرب عنه، وما محمد إلا واحد من العرب ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ مخلق ﴿مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

٣٥، ٣٦- ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير مقدّر ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فلا يأترون ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ فلا يعبدون خالقهما

بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ أي: لا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض.

٣٧، ٣٨- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما، فيخصوا من شأوا بما شأوا ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية، ويبينوا الأمور على مشيئتهم. وبالسین مكّي وشامي ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من يتقدم هلاكه على هلاكهم، وظفرهم في العقابة دونه كما يزعمون. قال الزجاج: ﴿يستمعون فيه﴾ أي: عليه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

٣٩-٤١- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ثم سقه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه؛ أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم^(١)، فزهدهم ذلك في اتباعك ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يقولوا: لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب.

٤٢، ٤٣- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم، في دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم، و أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم، ويحيق بهم مكرهم، وذلك: أنهم قتلوا يوم بدر. أو: المغلوبون في الكيد. من: كايده، فكده ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنهم من عذاب الله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١) أي: أثقلهم وبهظهم.

وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٤٤-٤٦- ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ﴾ الكسف: القطعة. وهو جواب قولهم: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ قد رُكِم، أي: جمع بعضه على بعض يطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ بضم الياء: عاصمٌ وشاميٌّ. الباقيون بفتح الياء. يقال: صعق، فصعق. وذلك عند النفخة الأولى؛ نفخة الصعق، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٧- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَإِنَّ لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ دون يوم القيامة. وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٤٨، ٤٩- ثم أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بأمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراك، ونكلوك. وجمع العين لأن الضمير بلفظ الجماعة. ألا ترى إلى قوله ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَى عِيقٍ﴾ [طه: ٣٩] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة، وهو ما يقال بعد التكبير: سبحانك اللهم وبحمدك. أو من أي مكان قمت. أو من منامك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. ﴿وَأدبار﴾ زيد. أي: في أعقاب النجوم وأثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه ﴿ومن الليل﴾، صلاة العشاءين، ﴿وإدبار النجوم﴾ صلاة الفجر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾

١ ، ٢- ﴿وَالنَّجْمِ﴾ أقسم بالثريا، أو بجنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب، أو انتثر يوم القيامة. وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحق ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: محمد ﷺ. والخطاب لقريش ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ في اتباع الباطل. وقيل: الضلال نقيض الهدى. والغى نقيض الرشد. أي: هو مهتد راشد. وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى.

٣ ، ٤- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، إنما هو وحى من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام. ويجب: بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد وقرّرهم عليه كان كالوحي، لا نطقاً عن الهوى.

٥- ﴿عَلَّمَ﴾ علّم محمداً ﷺ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملكٌ شديد قواه. والإضافة غير حقيقية؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها. وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور. ومن قوته: أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين.

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾

٦-١٠- ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ منظر حسن - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -
﴿فَاسْتَوَى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها
كلما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة دحية. وذلك: أن رسول الله ﷺ
أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ﴿فَاسْتَوَى﴾ له في الأفق الأعلى - وهو
أفق الشمس فملاً الأفق. وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء عليهم السلام في
صورته الحقيقية سوى محمد ﷺ مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء
﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ مطلع الشمس ﴿ثُمَّ دَنَا﴾
جبريل من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾ فزاد في القرب - والتدلي: هو النزول بقرب
الشيء - ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عرييين. وقد جاء التقدير بالقوس،
والرمح، والسوط، والذراع، والباع. ومنه: لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس
مقدار رحمين. وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من
الدنيا وما فيها»^(١). والقِدُّ: السوط. وتقديره: ﴿فَكَانَ﴾ مقدار مسافة قربه مثل
﴿قَاب قَوْسَيْنِ﴾ فحذفت هذه المضافات. ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أي: على تقديرهم؛
كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧]. وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم
ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رحمين أو أنقص. وقيل: بل أدنى
﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجز لاسمه ذكر
لأنه لا يلتبس. كقوله: ﴿مَا تَرَكْتُ عَلَىٰ ظَهْرِيهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿مَا أَوْحَى﴾
تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. قيل: أوحى إليه: «إن الجنة محرمة على الأنبياء
حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك»^(٢).

١١- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد محمد ﴿مَا رَأَى﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل
عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً
لأنه عرفه. يعني: أنه رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق.

(١) رواه البخاري (٢٧٩٣).

(٢) ذكره الزخشري في الكشاف (٤/٤٢٠).

﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ١٢ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ١٣ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ١٤ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ١٥ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ١٦ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٧

وقيل: المرئي هو الله سبحانه. رآه بعين رأسه. وقيل: بقلبه.

١٢- ﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ﴾ أفتجادلونه. من المراء وهو المجادلة. واشتقاقه من: مَرَى الناقية. كَأَنَّ كُلَّ واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه ﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ﴾ حمزة، وعلي، وخلف، ويعقوب. أفتغلبونه في المراء. من: ماريته فمريته. ولما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ فعَدَى بعلى كما تقول: غلبته على كذا. وقيل: ﴿أفتمروهن﴾ أفتجحدونه. يقال: مريته حقّه: إذا جحدته. وتعديته بعلى لا تصحّ إلا على مذهب التضمين.

١٣، ١٤- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرّة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو «مرّة» لأنّ الفعل اسم للمرّة من الفعل، فكانت في حكمها. أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها. وذلك ليلة المعراج ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ الجمهور على أنّها شجرة نبت في السماء السابعة عن يمين العرش. و﴿المنتهى﴾ بمعنى موضع الانتهاء. أو الانتهاء؛ كأنّها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد. وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

١٥- ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنة التي يصير إليها المتقون. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦- ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: رآه ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها. فقد علم بهذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف. فقد قيل: يغشاها الجَمّ الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها. وقيل: يغشاها فراش من ذهب.

١٧- ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ بصر رسول الله ﷺ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا

١٨- ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ الآيات التي هي كبرها وعظماها. يعني: حين رُقي به إلى السماء فأرى عجائب الملكوت.

١٩، ٢٠- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عز وجل؛ هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة؟ ﴿اللّات والعزى ومناة﴾ أصنام لهم. وهي مؤنثات. فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش. وهي فعلة من: لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها، ويعكفون للعبادة. والعزى كانت لغطفان، وهي سمر، وأصلها تأنث الأعز. وقطعها خالد بن الوليد. ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وقيل: لثقيف. وكأنها سميت: مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمني عندها؛ أي: تراق ﴿ومناة﴾ مكّي. مفعلة من النوء. كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ﴿الآخَرَى﴾ هي صفة ذم؛ أي: المتأخرة الوضيعة المقدار. كقوله: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأَوْلَدِهِنَّ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم. ويجوز أن تكون الأوليّة والتقدّم عندهم للّات والعزى.

٢١-٢٣- كانوا يقولون: إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويزعمون: أنّهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات، وكراهتهم لهنّ، فقيل لهم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾. أي: جعلكم الله البنات ولكم البنين ﴿قسمة ضيزى﴾ أي: جائرة، من: ضازه، يضيّزه: إذا ضامه. و﴿ضيّزى﴾ فعلى؛ إذ لا فعل في النعوت. فكسرت الضاد للياء؛ كما قيل: بيض، وهو بوض، مثل: حمر وسود ﴿ضيزى﴾ بالهمز مكّي، من: ضازه، مثل ضازه ﴿إِنْ هِيَ﴾ ما الأصنام ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات؛ لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها، وأشدّ منافاة لها ﴿سَمِيَّتُوهَا﴾ أي: سمّيتم بها - يقال: سمّيته زيدا، وسمّيته بزيد ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا

أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّمْنَا مَلَكِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْاُنْتَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا

أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٣﴾ حجة ﴿٢٤﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴿٢٥﴾ إِنْ تَوَهَّم أَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ ﴿٢٦﴾ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٧﴾ وما تشتهيهم أنفسهم ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٩﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به .

٢٤ ، ٢٥ - ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٥﴾ هي أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار ؛ أي : ليس ﴿٢٤﴾ للإنسان ﴿٢٥﴾ يعني : الكافر ﴿٢٦﴾ ما تمنى ﴿٢٧﴾ من شفاعة الأصنام ، أو من قوله ﴿٢٨﴾ وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ الْحُسْنَى ﴿٢٩﴾ [فصلت : ٥٠] وقيل : هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ أي : هو مالكهما ، وله الحكم فيهما ، يعطي النبوة ، والشفاعة من شاء وارتضى ، لا من تمنى .

٢٦ - ﴿٢٦﴾ وَكَرَّمْنَا مَلَكِي فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴿٢٧﴾ يعني : أَنْ أمر الشفاعة ضيق . فَإِنَّ الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفَعُوا بأجمعهم لأحِدٍ لم تغن شفاعتهم شيئاً قط ولم تنفع ﴿٢٨﴾ إِلَّا ﴿٢٩﴾ إذا شفَعُوا ﴿٢٦﴾ من بعد أن يأذن الله ﴿٢٧﴾ لهم في الشفاعة ﴿٢٨﴾ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿٢٩﴾ الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبادتهم ؟

٢٧ ، ٢٨ - ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ ﴿٢٩﴾ أي : ﴿٢٨﴾ ليسمّون ﴿٢٩﴾ كل واحد منهم ﴿٢٩﴾ تَسْمِيَةً الْاُنْتَى ﴿٢٩﴾ لأنهم إذا قالوا للملائكة : بنات الله ؛ فقد سمّوا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿٢٩﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴿٢٩﴾ أي : بما يقولون . وقرئ ﴿٢٩﴾ بها ﴿٢٩﴾ أي : بالملائكة أو التسمية ﴿٢٩﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴿٢٩﴾ هو تقليد الآباء ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٩﴾ أي : إنما يعرف الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم .

٢٩ ، ٣٠ - ﴿٣٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴿٣١﴾ فأعرض عمن رأيت معرضاً عن ذكر

وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ

الله؛ أي: القرآن ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ذَلِكَ﴾ أي: اختيارهم الدنيا، والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ انتهى علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: ﴿هو أعلم﴾ بالضال والمهتدي ومجازيما.

٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بعقاب ما ﴿عَمِلُوا﴾ من السوء. أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ بالثوبة الحسنی وهي الجنة. أو بسبب الأعمال الحسنی. والمعنى: أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء.

٣٢- ﴿الَّذِينَ﴾ بدل. أو في موضع رفع على المدح. أي: هم الذين ﴿يُجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من الإثم؛ لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر. والكبائر: الذنوب التي يكبر عقابها ﴿كَبِيرٌ﴾ حمزة، وعلي. أي: النوع الكبير منه ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر. كأنه قال: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ منها خاصة. قيل: الكبائر: ما أوعده الله عليه النار. والفواحش ما شرع فيها الحد. ﴿إِلَّا اللَّغَمَ﴾ أي: الصغائر. والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر والفواحش. وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾ جمع جنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوا إلى زكاء العمل، وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تتنوا عليها، واهضموها. فقد علم الله الزكي منكم، والتقي أولاً وآخرأ قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحبنا فتزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز. لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣١﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٣﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٤﴾ أَمْ لَمْ يُبْنِأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٦﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فافتقروا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس .

٣٣-٣٧ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قطع عطيته وأمسك . وأصله : إكداء الحافر . وهو أن تلقاه كُدْيَةً وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر . عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : فيمن كفر بعد الإسلام . وقيل : في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض الكافرين ، وقال له : تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم في النار . قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له ، إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه ، أن يتحمل عنه عذاب الله ، ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ فهو يعلم أن ما ضمنه من عذاب الله حق ؟ ﴿أَمْ لَمْ يُبْنِأْ﴾ يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ أي : التوراة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي : وفي صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ أي : وفّر وأتم ؛ كقوله : ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة : ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كلّ وفاء وتوفية . وقرئ مخففاً . والتشديد مبالغة في الوفاء . وعن الحسن - رضي الله عنه - : ما أمره الله بشيء إلا وفى به . وعن عطاء بن السائب : عهد ألا يسأل مخلوقاً . فلما كذب في النار قال له جبريل - عليه السلام - ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . وعن النبي ﷺ : «وفى عمله كلّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار»^(١) . وهي صلاة الضحى . وروي : ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿الذي وفى﴾ ؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى ﴿حين تظهرون﴾^(٢) . وقيل : وفى سهام الإسلام ، وهي ثلاثون : عشرة في التوبة ﴿التائبون...﴾ وعشرة في الأحزاب ﴿إن المسلمين...﴾ وعشرة في المؤمنين ﴿قد أفلح المؤمنون...﴾ .

(١) قال الحافظ : أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم . (حاشية الكشف ٤/٤٢٧) .

(٢) رواه أحمد (٣/٤٣٩) .

أَلَا نَزَرُ وَزَرٌ ﴿٣٨﴾ وَزَرٌ أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ ﴿٤٤﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ
وَأَبْكَىٰ ﴿٤٥﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٦﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٧﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا
تُمْنَىٰ ﴿٤٨﴾

٣٨-٤٢- ثم أعلم بما في صحف موسى وإبراهيم فقال: ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرٌ وَزَرٌ
أُخْرَىٰ﴾. ﴿نزر﴾ من وزر يَزُرُ: إذا اكتسب وزراً، وهو الإثم. و﴿أن﴾ مخففة
من الثقيلة. والمعنى: أنه ﴿لا نزر﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحل ﴿أن﴾
وما بعدها الجزر بدلاً من ﴿ما في صحف موسى﴾ أو الرفع على هو ﴿ألا نزر﴾
كأن قائلًا قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: ﴿ألا نزر وازرة وزر
أخرى﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلا سعيه.
وهذه أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى. وأما ما صح في الأخبار من
الصدقة عن الميت والحج عنه فقد قيل، إن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على
سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمناً - كان سعي غيره كأنه سعي نفسه؛ لكونه
تابعاً له وقائماً بقيامه. ولأن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه. ولكن إذا نواه
به؛ فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾
أي: يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ثم يجزي العبد سعيه
- يقال: جزاه الله عمله، وجزاه على عمله - بحذف الجار وإيصال الفعل -
ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثم فسره بقوله: ﴿الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه
﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي: هذا كله في الصحف الأولى. والمنتهى: مصدر بمعنى
الانتهاء. أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله: ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾
[آل عمران: ٢٨].

٤٣- ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق الضحك والبكاء. وقيل: خلق الفرح
والحزن. وقيل: ﴿أضحك﴾ المؤمن في العقبى بالمواهب، وأبكاه في الدنيا بالنوائب.

٤٤- ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ قيل: ﴿أمات﴾ الآباء، ﴿وأحيا﴾ الأبناء. أو
﴿أمات﴾ بالكفر ﴿وأحيا﴾ بالإيمان. أو ﴿أمات﴾ هنا ﴿وأحيا﴾ ثمة.

٤٥-٤٩- ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٥﴾ إذا تدفق في الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى ﴿١٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿١٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٢٠﴾ وَثَمُودًا مَّا أَبْقَىٰ ﴿٢١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَىٰ ﴿٢٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٢٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتْمَارَىٰ ﴿٢٥﴾

يقال: مني، وأمني ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى﴾ وأعطى القنية. وهي المال الذي تأثله، وعزمت ألا تخرجه من يدك ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر. وكانت خزاعة تعبدها. فأعلم الله تعالى: أنه رب معبودهم هذا.

٥٠- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ هم قوم هود. وعاد الأخرى إرم. (عاد الأولى) مدني وبصري غير سهل يادغام التنوين في اللام، وطرح همزة الأولى، ونقل ضممتها إلى لام التعريف.

٥١- ﴿وَتَمُودًا مَّا أَبْقَى﴾ حمزة وعاصم. الباكون ﴿وَتَمُودًا﴾. وهو معطوف على ﴿عَادًا﴾. ولا ينتصب بـ ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله، لا تقول: زيداً فضربت. وكذا ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله. والمعنى: وأهلك ثمود فما أبقاهم.

٥٢- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلك ﴿قوم نوح﴾ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى﴾ من عاد وثمود؛ لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه.

٥٣- ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ والقرى التي ائتفتك بأهلها؛ أي: انقلبت. وهم قوم لوط. يقال: أفكه، فائتفك ﴿أَهْوَى﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل - عليه السلام -، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ منصوب بـ ﴿أَهْوَى﴾.

٥٤- ﴿فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى﴾ ألبسها ﴿مَا غَشَّى﴾. تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

٥٥- ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَتْمَارَى﴾ تشكك؟ أبما أولاك من النعم؟ أو بما كفاك من النقم؟ أو: بأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تشكك؟

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفِيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

٥٦- ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد منذر ﴿مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ من المنذرين الأولين. وقال: ﴿الأولى﴾ على تأويل الجماعة. أو: ﴿هذا﴾ القرآن ﴿نذير من النذر الأولى﴾ أي: إنذار من جنس الإنذارات ﴿الأولى﴾ التي أنذر بها من قبلكم. ٥٧- ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿أَفْتَرَيْتَ السَّاعَةَ﴾ [القمر: ١].

٥٨- ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة، أي: مبينة متى تقوم. كقوله: ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة؛ أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى، غير أنه لا يكشفها.

٥٩-٦٢- ﴿أَفِيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعاً ﴿وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ﴾ غافلون، أو لاهون لاهون. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ﴿فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: ﴿فاسجدوا لله﴾ واعبدوه، ولا تعبدوا الآلهة.

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِمَّرٌ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾

١- ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ نصفين. وقرىء (وقد انشق). أي: ﴿أقربت الساعة﴾ وقد حصل من آيات اقترابها: أن القمر قد انشق؛ كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: رأيت حراء بين فلقتي القمر. وقيل: معناه: ينشق يوم القيامة. والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين. ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقلوه متواتراً؛ لأن الطباع جبلت على نشر العجائب؛ لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم.

٢- ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكة ﴿آيَةً﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن الإيمان به ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِمَّرٌ﴾ محكم قوي؛ من المرة: القوة. أو: دائم مطرد. أو: ما زل يذهب، يزول، ولا يبقى.

٣- ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدمه الله ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ كائن في وقته. وقيل: ﴿كل﴾ ما قدر واقع. وقيل: ﴿كل أمر﴾ من أمرهم واقع ﴿مستقر﴾

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ
النُّذُرُ ﴿٢﴾ فَبَقِيَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٌ ﴿٣﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ

أي: سيثبت، ويستقر عند ظهور العقاب والثواب.

٤- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون
الخالية، أو: أنباء الآخرة، وما وُصِفَ من عذاب الكفار ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾
ازدجار عن الكفر. تقول: زجرته، وازدجرته، أي: منعت. والأصل: ازتجر،
ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس،
والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسباً. وهذا في
آخر كتاب سيبويه.

٥- ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل من ﴿مَا﴾ أو على: هو ﴿حِكْمَةٌ﴾ ﴿بَلِغَةٌ﴾ نهاية
الصواب أو: ﴿بالغة﴾ من الله إليهم ﴿فَمَا تُغْنِ النَّذُرُ﴾ ﴿مَا﴾ نفي. والنذر:
مصدر بمعنى الإنذار.

٦- ﴿فَبَقِيَ عَنْهُمْ﴾ لعل مك أن الإنذار لا يغني فيهم. نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ
الدَّاعِ﴾ بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾؛ أو بإضمار اذكر. ﴿الدَّاعِي﴾ ﴿إِلَى الدَّاعِي﴾ سهل،
ويعقوب، ومكي فيهما. ووافق مدني، وأبو عمرو في البوصل. ومن أسقط
الياء اكتفى بالكسرة عنها. وحذف الواو من: ﴿يَدْعُ﴾ في الكتابة لمتابعة اللفظ.
و﴿الدَّاعِي﴾: إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ منكر فظيع، تنكره
النفوس؛ لأنها لم تعهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ﴿نُّكْرٍ﴾ بالتخفيف مكي.

٧- ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾^(١) عراقي غير عاصم. وهو حال من الخارجين. وهو
فعل للأبصار. وذكر كما تقول: يخشع أبصارهم. غيرهم ﴿خُشْعًا﴾ على يخشعن
أبصارهم. وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ويجوز أن يكون في
﴿خُشْعًا﴾ ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه. وخشوع الأبصار كناية عن
الدلة؛ لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿خاشعاً﴾. وهي قراءة: عراقي غير
عاصم كما نص على ذلك.

كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ
 قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا
 أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾

القبور ﴿٧﴾ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ في كثرتهم، وتفرقهم في كل جهة. والجراد مثل في
 الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد.

٨- ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ
 عَسِرٌ﴾ صعب شديد.

٩- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً - عليه
 السلام - ومعنى تكرار التكذيب: أنهم كذبوه تكديماً على عقب تكذيب، كلما
 مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو: كذبت ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ الرسل
 ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا
 نوحاً لأنه من جملة الرسل ﴿وَقَالُوا: مَجْنُونٌ﴾ هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ وازدجر
 عن أداء الرسالة بالشتم وهدد بالقتل. أو: هو من جملة قيلهم. أي: ﴿قَالُوا﴾:
 هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ وقد ازدجرته الجن، وتخطته، وذهبت بلبته.

١٠- ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي: بأني ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي فلم يسمعوا
 مني، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم بعذاب تبعته
 عليهم.

١١- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَفَتَحْنَا﴾ شامي، ويزيد، وسهل، ويعقوب
 ﴿بِمَاءٍ مُثَمَرٍ﴾ منصب في كثرة وتتابع، لم ينقطع أربعين يوماً.

١٢- ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر. وهو
 أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: مياه السماء
 والأرض. وقرئ: (الماءان) أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي ﴿عَلَى أَمْرٍ
 قَدَرٍ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. أو: ﴿على أمر قد قدر﴾ في اللوح
 المحفوظ: أنه يكون. وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

١٣- ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها، وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه:

... .. ولـ كُنَّ قميصي مسرودة من حديد^(١)

أراد: ولكنَّ قميصي درع. ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدرس: جمع دسار، وهو المسمار. فعال. من: دسره: إذا دفعه؛ لأنه يدرس به منفذه.

١٤- ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا، أو بحفظنا. و: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ حال من الضمير في ﴿تَجْرِي﴾ أي: محفوظة بنا ﴿جَزَاءً﴾ مفعول له لما قَدَمَ من فتح أبواب السماء وما بعده. أي: فعلنا ذلك جزاء ﴿لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ وهو نوح عليه السلام. وجعله مكفورا؛ لأنَّ النبيَّ نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح نعمة مكفورة.

١٥- ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة أو الفعلة. أي: جعلناها ﴿آيَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجوديِّ دهرًا طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ متعظ، يتعظ، ويعتبر. وأصله: مذتكر - بالذال والتاء - ولكن التاء أبدلت منها الدال، والدال والذال من موضع، فادغمت الذال في الدال.

١٦- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ﴿ونذري﴾ يعقوب فيهما. وافقه سهل في الوصل. غيرهما بغير ياء. وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة.

١٧- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهّلناه للذكّار والاعتاظ؛ بأن شحّناه

(١) عجز بيت للمتنبي وصدرة: مفرشي صهوة الحصان ولـ.

فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

بالمواعظ الشافية، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ متعظ يتعظ؟ وقيل: ولقد سهلناه للحفظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن.

١٨- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ أي: وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله. أو: إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم.

١٩- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة، أو شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشر. فقد استمر عليهم حتى أهلكهم. وكان في أربعاء في آخر الشهر.

٢٠-٢٢- ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفون آخذاً بعضهم بأيدي بعض، ويتداخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر، فيندسون فيها، فتزعمهم، وتكبيهم، وتدق رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه، وشبهوا بأعجاز النخل؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال. وذكر صفة ﴿نخل﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث؛ كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

٢٣، ٢٦- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا﴾ انتصب ﴿بشراً﴾ بفعل يفسره ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ تقديره: أتبع بشراً واحداً ﴿إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ كان يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ﴿وسعراً﴾ ونيران؛ جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ، والبعد عن الصواب، والسعر: الجنون. وقولهم: ﴿أبشراً﴾ إنكار لأن يتبعوا

أَمْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنِ الْكَذَّابُ
 الْأَشِرُّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنْهَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ
 كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌّ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمَخْتَصِرِ ﴿٣١﴾

مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا: ﴿مَنَا﴾ لأنه إذا كان
 منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا ﴿واحدًا﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً
 واحداً. أو أوردوا ﴿واحدًا﴾ من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم. ويدل عليه
 قوله: ﴿أَمْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وبيننا من هو
 أحق منه بالاختيار للنبوّة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ بطر، متكبر، حمله بطره وطلبه
 التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يوم
 القيامة ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ﴾ أصالح أم من كذبه؟ ﴿ستعلمون﴾ شامي وحمزة
 على حكاية ما قال لهم صالح محبباً لهم. أو هو كلام الله على سبيل الالتفات.

٢٧- ﴿إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فَنَنْهَ
 لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. وهو مفعول له، أو حال ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانظرهم
 وتبصر ما هم صانعون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

٢٨- ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم، لها شرب يوم، ولهم شرب
 يوم. وقال: ﴿بينهم﴾ تغليبا للعقلاء ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌّ﴾ محصور، يحضر القوم
 الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً.

٢٩- ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى﴾ فاجترأ على
 تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة. أو: فتعاطى الناقة فعقرها.
 أو: فتعاطى السيف. وإنما قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧] في آية
 أخرى لرضاهم به؛ أو لأنه عقر بمعونتهم.

٣٠، ٣١- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴿في اليوم الرابع من عقرها
 صَيِّحَةً وَجِدَّةً﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمَخْتَصِرِ﴾.
 والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمختصر: الذي يعمل الخطيرة.
 وما يحتظر به يبس بطول الزمان وتوطؤه البهائم، فيتحطم ويتهشم. وقرأ

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار؛ أي: الخطيرة.

٣٢، ٣٤ - ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿٣٤﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿٣٤﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴿٣٥﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿٣٥﴾ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٦﴾ من الأسحار. ولذا صرفه. ويقال: لقيته بسحر: إذا لقيته في سحر يومه. وقيل: هما سحران. فالسحر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: عند انصداعه.

٣٥ - ﴿نِعْمَةٌ﴾ مفعول له؛ أي: إنعاماً ﴿٣٥﴾ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ نعمة الله بإيمانه، وطاعته.

٣٦ - ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط - عليه السلام - ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالَّذِي﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين.

٣٧، ٣٨ - ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ طلبوا الفاحشة من أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم. وقيل: مسحناها، وجعلناها كسائر الوجه، لا يرى لها شق. روي: أنهم لما عاجلوا باب لوط - عليه السلام - ليدخلوا قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا. ﴿إِنَّا رَسَلْنَا لَكَ لُوطَ بْنَ مَرْيَمَ﴾ فصفقهم جبريل - عليه السلام - بجناحه صفقة، فتركهم يترددون، لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلت لهم ﴿ذُوقُوا﴾ على السنة الملائكة ﴿عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴿أَوَّلَ النَّهَارِ﴾ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿ثَابِتٌ﴾ قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم عذاب الآخرة.

٣٩، ٤٠ - وفائدة تكرير ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكاراً واتعاطاً، وأن يستأنفوا

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ
خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ
وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى

نتيهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه. وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَيَأْتِي آلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كل آية أوردها. وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان.

٤١- ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ موسى، وهارون، وغيرهما من الأنبياء. أو: هو جمع نذير، وهو الإنذار.

٤٢- ﴿كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿مُقْنَدِرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

٤٣- ﴿أَكْفَارَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ﴾ الكفار المعدودين: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون؛ أي: أهم خير قوة، وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقل كفراً وعناداً؟ يعني: أن كفاركم مثل أولئك، بل شرّ منهم أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب المتقدمة: أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله، وأمنتكم بتلك البراءة؟

٤٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ - جماعة أمرنا مجتمع - ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام.

٤٥- ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ﴾ جمع أهل مكة ﴿وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، كما قال: كلوا في بغضٍ بطنكم تَعَفُّوا^(١)

أي: ينصرفون منهزمين. يعني: يوم بدر. وهذه من علامات النبوة.

٤٦- ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم بعد بدر ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى﴾ أشد من

(١) صدر بيت، وعجزه: فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيسٌ.

وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلَّمَا يَبْصُرُ ﴿٥٠﴾

موقف بدر. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يُهْتَدَى لدوائه ﴿وَأَمْرٌ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا أو: أشد. من: المِرة.

٤٧، ٤٨ - ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة. أو في هلاك ونيران ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ يجزون فيها ﴿وَأَمْرٌ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد من الحصى، وذاق طعم الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرماً فكأنها تمسهم مساً بذلك. و﴿سَقَرَ﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف لأنها علم لجهنم، من سقرته النار: إذا لوحته.

٤٩ - ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿كُلٌّ﴾: منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر. وقرئ بالرفع شاذاً. والنصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الجزر وصفاً لشيء، ويكون الخبر ﴿بِقَدَرٍ﴾ وتقديره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مخلوق لنا كائن ﴿بِقَدَرٍ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ هو الخبر، وتقديره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مخلوق لنا ﴿بِقَدَرٍ﴾. فلما تردد الأمر في الرفع عدل إلى النصب. وتقديره: إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ. فيكون الخلق عامّاً لكل شيء. وهو المراد بالآية. ولا يجوز في النصب أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ صفة لشيء؛ لأنه تفسير الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف. والقدر والقدر: التقدير. أي: بتقدير سابق. أو خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ مَقْدَرًا، محكماً، مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو: مَقْدَرًا، مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علمناه حاله وزمانه. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمون في القدر. فنزلت الآية^(١). وكان عمر يحلف أنها نزلت في القدرية.

٥٠ - ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ﴾ إلاً كلمة واحدة. أي: ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ لشيء نريد تكوينه إلاً أن نقول له: كن؛ فيكون ﴿كَلَّمَجَ بِالْبَصْرِ﴾ على قدر ما يلزم أحدكم ببصره. وقيل: المراد بأمرنا: القيامة كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَّمَجَ بِالْبَصْرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِنْ مَّذْكِرٍ﴾ متعظ.

٥٢، ٥٣- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: أولئك الكفار. أي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ مفعول لهم ثابت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظ: فـ ﴿فَعَلُوهُ﴾: في موضع جر نعت لشيء. و﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خبر لكل ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ مسطور في اللوح.

٥٤- ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ وأنهار. اكتفى بـ الجنس. وقيل: هو السعة، والضياء. ومنه: النهار.

٥٥- ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾ عندية منزلة وكرامة، لا مسافة ومماسة، ﴿مُقْنَدٍ﴾ قادر. وفائدة التنكير فيهما: أن يُعْلَمَ: أن لا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته.

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾

١ - ٤ - ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾﴾ أي: الجنس أو آدم أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ عَدَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آلَاءَهُ. فَأَرَادَ أَنْ يَقْدِمَ أَوَّلَ شَيْءٍ مَا هُوَ أَسْبَقَ قَدَمًا مِنْ ضُرُوبِ آلَائِهِ وَصَنُوفِ نِعَمَائِهِ وَهِيَ نِعْمَةُ الدِّينِ. وَقَدَّمَ مِنْ نِعْمَةِ الدِّينِ مَا هُوَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، وَأَقْصَى مَرَاqِيهَا، وَهُوَ إِنْعَامُهُ بِالْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلُهُ، وَتَعْلِيمُهُ، لِأَنَّهُ أَعْظَمُ وَحْيِ اللَّهِ رَتَبَةً، وَأَعْلَاهُ مَنْزَلَةً، وَأَحْسَنُهُ فِي أَبْوَابِ الدِّينِ أَثَرًا. وَهُوَ سَنَامُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَمُصَدِّقُهَا، وَالْعِيَارُ عَلَيْهَا. وَأَخَّرَ ذِكْرَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ عَنْ ذِكْرِهِ. ثُمَّ أَتْبَعَهُ إِيَّاهُ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُ لِلدِّينِ، وَلِيَحِيطَ عِلْمًا بِوَحْيِهِ وَكُتُبِهِ. وَقَدَّمَ مَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَيْهِ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَ مِنَ الْبَيَانِ، وَهُوَ الْمُنْطَقُ الْفَصِيحُ الْمَعْرَبُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ. وَ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مَبْتَدَأٌ. وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ مَعَ ضَمَائِهَا أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ، وَإِخْلَاؤُهَا مِنَ الْعَاطِفِ؛ لِمَجِيئِهَا عَلَى نَمَطِ التَّعْدِيدِ. كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ أَغْنَاكَ بَعْدَ فَقْرٍ، أَعَزَّكَ بَعْدَ ذَلٍّ، كَثَّرَكَ بَعْدَ قَلَّةٍ، فَعَلَ بِكَ مَا لَمْ يَفْعَلْ أَحَدٌ بِأَحَدٍ. فَمَا تَنْكَرُ مِنْ إِحْسَانِهِ؟

٥، ٦ - ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بِحَسَابٍ مَعْلُومٍ، وَتَقْدِيرٍ سَوِيٍّ يَجْرِيَانِ فِي

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾

بروجهما ومنازلهما، وفي ذلك منافع للناس، منها علم السنين والحساب ﴿وَالنَّجْمُ﴾ النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له؛ كالبقول ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق - وقيل: النجم: نجوم السماء - ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده. واتصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنوي لما علم: أَنَّ الحسبان حسبانه، والسجود له لا لغيره، كأنه قيل: ﴿الشمس والقمر﴾ بحسبانه، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ له. ولم يذكر العاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد، لأنَّ الأول وردت على سبيل التعديد تبكيتاً لمن أنكر آلاءه؛ كما يبيكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال المذكور. ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف. وبيان التناسب: أَنَّ الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيتان. فبين القيلين تناسب من حيث التقابل، وَأَنَّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قريتين. وَأَنَّ جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله. فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

٧ - ٩ - ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة، مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه، ومصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه، وملكه، وسلطانه ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان، وقرسطون، ومكيال، ومقياس. أي: خلقه موضوعاً على الأرض؛ حيث علق به أحكام عبادته من التسوية، والتعديل في أخذهم وإعطائهم ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لـ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾. أو هي ﴿أَنَّ﴾ المفسرة ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه.

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَنَكِهَهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾

١٠-١٣- ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة على الماء ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ للخلق، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن - رحمه الله -: الإنس والجن. فهي كالمهاد لهم، يتصرفون فوقها ﴿فِيهَا فَنَكِهَهُ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية الثمر. الواحد: كم بكسر الكاف. أو كل ما يكُم. أي: يغطى من ليفه، وسعفه، وكُفْرَاه. وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره، وجماره، وجذوعه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع أو التبن ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الرزق وهو اللب. أراد ﴿فيها﴾ ما يتلذذ به من الفواكه، والجامع بين التلذذ والتغذي، وهو ثمر النخل، وما يتغذى به وهو الحب ﴿والريحان﴾ بالجر حمزة وعلي. أي: ﴿والحب ذو العصف﴾ الذي هو علف الأنعام، ﴿والريحان﴾ الذي هو مطعم الأنعام. والرفع على ﴿و﴾ ذو ﴿الريحان﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه: ﴿و﴾ فيها ﴿الريحان﴾ الذي يشم ﴿والحب ذا العصف والريحان﴾ شامي، أي: وخلق الحب والريحان. أو: وأخص الحب والريحان ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ﴾ أي: النعم مما عدد من أول السورة. جمع: آلى، وإلى ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين، بدلالة الأنام عليهما.

١٤-١٦- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ أي: الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف. ولا اختلاف في هذا وفي قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِّنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] لاتفاقها معنى؛ لأنه يفيد: أنه خلقه من تراب جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أبا الجن. قيل: هو إبليس ﴿مِّنْ مَّارِجٍ﴾. هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار. من: مرج الشيء: إذا اضطرب، واختلط ﴿مِّنْ نَّارٍ﴾ هو بيان لمارج؛ كأنه قيل: من صاف ﴿من نار﴾ أو مختلط ﴿من نار﴾ أو أراد: ﴿من نار﴾ مخصوصة

فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْتَهِمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

كقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٧، ١٨ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد شرقي الصيف والشتاء ومغربيهما
﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٩، ٢٣ - ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسل البحر الملح والبحر العذب
متجاورين متلاقين، لا فصل بين المائتين في مرأى العين ﴿يَنْتَهِمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من
قدرة الله تعالى ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوزان حديهما، ولا يبغى أحدهما على الآخر
بالممازجة ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخرج منهما ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ مدني وبصري ﴿اللُّؤْلُؤُ﴾
وبلا همز، أبو بكر ويزيد. وهو كبار الدرر ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ صفاره. وإنما قال:
منهما، وهما يخرجان من الملح؛ لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن
يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع
البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة
من محاله. وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٤، ٢٥ - ﴿وَلَهُ﴾ والله ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن. جميع جارية. قال الزجاج: الوقف
عليها بالياء. والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على
بعد. ولكن يروم الكسر في الراء؛ ليدل على حذف الياء ﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات
الشُّرْع. ﴿الْمُنشَآتُ﴾ بكسر الشين، حمزة ويحى، الرافعات الشُّرْع. أو اللاتي
ينشئن الأمواج بجريهن ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل ﴿فَيَأْتِي
ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٦ - ٢٨ - ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿فَانٍ وَبَقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾

وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّيَ آءِآءُ رِيكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَلْهُمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾

ذو العظمة والسلطان - وهو صفة الوجه - ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. وفي الحديث: «الظُّوَا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ»^(١) وروي: أَنَّهُ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَصَلِّي، وَيَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامِ. فقال: «قد استجيب لك»^(٢) ﴿فَإِنِّيَ آءِآءُ رِيكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ والنعمة في الفناء باعتبار أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَصِلُونَ إِلَى النِّعَمِ السَّامِدِ. وقال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يَقْرُبُ الْحَبِيبَ إِلَى الْحَبِيبِ.

٢٩، ٣٠ - ﴿يَسْتَلْهُمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقف عليها نافع. كُلُّ مَنْ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. وَيَنْصَبُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظَرْفًا لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أَي: كُلَّ وَقْتٍ وَحِينَ يَحْدُثُ أُمُورًا وَيَجْدُدُ أَحْوَالًا. كَمَا رَوَى: أَنَّهُ ﷺ تَلَاهَا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَلِكَ الشَّأْنُ؟ فَقَالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ»^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَيْنَةَ: الدَّهْرُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَانِ: أَحَدُهُمَا الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مَدَّةُ الدُّنْيَا، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ، وَالْإِعْطَاءُ وَالْمَنْعُ. وَالْآخَرُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَشَأْنُهُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ شَأْنًا. وَسَأَلَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَزِيرَهُ عَنِ الْآيَةِ فَاسْتَمْلَهَ إِلَى الْغَدِ، وَذَهَبَ كَثِيرًا يَفْكَرُ فِيهَا، فَقَالَ غُلَامٌ لَهُ أَسْوَدٌ: يَا مُوَلَايَ! أَخْبِرْنِي مَا أَصَابَكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَسْهَلُ لَكَ عَلَى يَدَيَّ. فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ: أَنَا أَفْسَرُهَا لِلْمَلِكِ. فَأَعْلَمَهُ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! شَأْنُ اللَّهِ: أَنَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَيَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ. وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيَشْفِي سَقِيمًا، وَيَسْقُمُ سَلِيمًا، وَيَبْتَلِي مُعَافًى، وَيُعَافِي مُبْتَلًى، وَيُعَزِّزُ ذَلِيلًا، وَيَذِلُّ عَزِيزًا، وَيَفْقِرُ غَنِيًّا، وَيَغْنِي فَقِيرًا. فَقَالَ الْأَمِيرُ: أَحْسَنْتَ.

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٥).

(٢) رواه أحمد (٢٣٦/٥) والترمذي (٣٥٢٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان في صحيحه (٦٨٩).

فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾

وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله. وقيل: سوق المقادير إلى المواقيت. وقيل: إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحّ: أن الندم توبة، وقوله: ﴿كَلَّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صحّ: أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة ويكون توبة في هذه الأمة. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وكذا قيل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ مخصوص بقوم إبراهيم وموسى - عليهما السلام - وأما قوله: ﴿كَلَّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شؤون يديها، لا شؤون يتيديها، فقام عبد الله، وقبّل رأسه، وسوّغ خراجه ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣١، ٣٢ - ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدّد: سأفرغ لك، يريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كلّ ما يشغلني عنه. والمراد: التوفّر على النكاية فيه، والانتقام منه. ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أَرادها بقوله: ﴿كَلَّ يَوْمَ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل. ﴿سيفرغ﴾ حمزة وعليّ. أي: الله تعالى ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجنّ؛ سميّا بذلك؛ لأنهما ثقلاً الأرض ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٦ - ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ هو كالترجمة لقوله ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هرباً من قضائي فاخرجوا. ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة وقهر وغلبة. وأتى لكم ذلك؟ وقيل: دلّهم على العجز عن قوتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأفطار اليوم.

فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعِلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٣٨﴾ فَيَأْتِي

وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحرق بهم الملائكة. فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وبكسر الشين مكّي، وكلاهما اللهب الخالص ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان ﴿ونحاس﴾ مكّي وأبو عمرو. فالرفع عطف على ﴿شواظ﴾. والجر على ﴿نار﴾. والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكم لهب خالص من النار، ودخان لتسوقكم إلى المحشر ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ فلا تمنعان منهما ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٧، ٤٥ - ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ انفك بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر. وقيل: أصل لون السماء الحمرة، ولكن من بعدها ترى زرقاء ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت. كما قال: ﴿كالمهل﴾ وهو دردي الزيت. وهو جمع دهن. وقيل: ﴿الدهان﴾ الأديم الأحمر ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * فَيَوْمَئِذٍ أي: فيوم تنشق السماء ﴿لَا يُشْعِلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ أي: ولا جن. فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن؛ كما يقال: هاشم ويراد ولده. والتقدير: لا يسأل إنس ولا جان عن ذنبه. والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلََنَّهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقَفُّوهُ إِنَّمِمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أن ذلك يوم طويل وفيه مواطن، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر. وقال قتادة - رحمه الله -: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾ ليعلم من جهته، ولكن يسأل للتوبيخ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: يؤخذ تارة بالنواصي، وتارة بالأقدام ﴿فَيَأْتِي

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي
 ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا
 جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَتَانِ فَضَاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ
 وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ فِيهِنَّ ﴿٦١﴾ في الجنتين، لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس. أو: في
 هذه الآلاء المعدودة من الجنتين، والعينين، والفاكهة، والفرش، والجَنِّي ﴿قَصِيرَاتُ
 الظرف﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾
 [بكسر الميم: الدوري] ^(١) وعلي: بضم الميم. والطمت: الجماع بالتدمية، ﴿إِنْسٌ
 قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾. وهذا دليل: على أَنَّ الجنَّ يطمثون كما يطمث الإنس ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ﴾ صفاء ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ بياضاً، فهو أبيض من اللؤلؤ
 ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ في الثواب.
 وقيل: ما جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة. وعن إبراهيم الخواص فيه: هل
 جزاء الإسلام؛ إلا دار السلام ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٢، ٧٧ - ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين،
 ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهما من أصحاب اليمين ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَتَانِ﴾
 سوداوان من شدة الخضرة. قال الخليل: الدهمة: السواد ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٤﴾ فِيهِمَا عَيْنَتَانِ فَضَاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ ألوان الفواكه ﴿وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾. والرمان والتمر ليسا من
 الفواكه عند أبي حنيفة - رحمه الله - للعطف؛ ولأن التمر فاكهة وطعام، والرمان
 فاكهة ودواء. فلم يخلصا للتفكه. وهما قالا: إنما عطفنا على الفاكهة لفضلهما؛
 كأنهما جنسان آخران لما لهما من المزية، كقوله: ﴿وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾
 [البقرة: ٩٨] ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾ أي: خيرات.
 فحفظت. وقرئ ﴿خَيْرَاتٍ﴾ على الأصل. والمعنى: فاضلات الأخلاق، حسان

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واستدرك من المطبوع.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ رَبِّكُمَا الْكَافِرُونَ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكُ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الخلق ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ أي: مخدرات. يقال: امرأة قصيرة، ومقصورة، أي: مخدرة. وقيل: الخيام من الدرّ المجوف ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ رَبِّكُمَا الْكَافِرُونَ﴾ قبل أصحاب الجنتين. ودلّ عليهم ذكر الجنتين ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ * مُتَّكِئِينَ ﴿٧٤﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَى رَفْرَفٍ﴾ هو كل ثوب عريض. وقيل: الوسائد ﴿خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ﴾ ديباج، أو: طنافس ﴿حِسَانٍ﴾ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين، حتى قيل: ﴿ومن دونهما﴾، لأنّ ﴿مدهامتان﴾ دون ﴿ذواتا أفنان﴾، و﴿نضاختان﴾ دون ﴿تجريان﴾، و﴿فاكهة﴾ دون ﴿كلّ فاكهة﴾، وكذلك صفة الحور والمتكأ.

٧٨ - ﴿نَبْرَكُ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ ذي العظمة ﴿ذو الجلال﴾ شاميّ صفة للاسم ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ لأوليائه بالإنعام.

روى جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرأ سورة الرحمن فقال: «مالي أراكم سكوتاً؟! الجنّ كانوا أحسن منكم رداً، ما أتيت على قول الله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلّا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذب، فلك الحمد، ولك الشكر»^(١).

وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرّة: ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم؛ ثم: سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنّم؛ وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة، وغلقت عنه أبواب جهنّم.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾

١ - ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة. وقيل: وصفت بالوقوع؛ لأنها تقع لا محالة. فكأنه قيل: إذا وقعت لا بد من وقوعها. ووقوع الأمر: نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه. أي: نزل ما كنت أترقب نزوله. وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بإضمار اذكر.

٢ - ﴿لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ﴾ نفس ﴿كاذبة﴾. أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله، وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يَلَيْسَتِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

٣ - ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: هي ﴿خافضة رافعة﴾ ترفع أقواماً وتضع آخرين.

٤ - ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حركت تحريكاً شديداً حتى يتهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء. وهو بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾. أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال.

وَيُسَبِّحُ الْجِبَالُ بِسَاءٍ ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٨﴾ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٩﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿١٠﴾ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿١١﴾ وَالسَّابِقُونَ
السَّابِقُونَ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٤﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٥﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾

٥- ﴿وَيُسَبِّحُ الْجِبَالُ بِسَاءٍ﴾ وفشت حتى تعود كالسويق. أو: سقت. من:
بَسَّ الغنم: إذا ساقها كقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الْجِبَالُ﴾ [النبا: ٢٠].

٦- ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غباراً ﴿مُنْبَثًا﴾ متفرقاً.

٧- ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. يقال للأصناف التي بعضها من بعض أو يذكر
بعضها مع بعض: أزواج ﴿ثَلَاثَةً﴾ صنفان في الجنة، وصنف في النار. ثم فسر
الأزواج فقال:

٨- ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مبتدأ. وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿مَا
أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر المبتدأ الأول. وهو تعجيب من حالهم
في السعادة، وتعظيم لشأنهم. كأنه قال: ما هم؟ وأي شيء هم؟

٩- ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ﴾ أي: الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم. أو: أصحاب
المنزلة السنية، وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة. من قولك: فلان منى باليمين،
وفلان منى بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعفة. وذلك ليمينهم
باليامن وتشاؤمهم بالشمال. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأهل
النار ذات الشمال ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ﴾ أي: أي شيء هم؟ وهو تعجيب من
حالهم في الشقاء.

١٠، ١١- ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿السَّابِقُونَ﴾ خبره. تقديره: ﴿السابقون﴾ إلى
الخيرات ﴿السابقون﴾ إلى الجنات. وقيل: الثاني تأكيد للأول. والخبر ﴿أُولَئِكَ
الْمُقَرَّبُونَ﴾ والأول أوجه.

١٢- ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أي: هم ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

١٣، ١٤- ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: هم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾. والثلة:
الأمّة من الناس الكثيرة. والمعنى: أن السابقين كثير ﴿من الأولين﴾ وهم الأمم

عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾

من لدن آدم إلى نبينا محمد عليهما السلام ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمة محمد ﷺ. وقيل: ﴿من الأولين﴾ من متقدمي هذه الأمة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخريها. وعن النبي ﷺ: «الثلاثان جميعاً من أمتي»^(١).

١٥- ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير؛ ككثيب، وكثب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة، منسوجة بالذهب، مشبكة بالدّر والياقوت.

١٦- ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿على﴾ وهو العامل فيها. أي: استقرّوا عليها ﴿متكئين﴾ ﴿عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم في أفقاء بعض. وصفوا بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة. و﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال أيضاً.

١٧- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ غلمان. جمع: وليد ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ مُبَقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان، لا يتحولون عنه. وقيل: مقرطون. والخُلْدَةُ: القرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. وفي الحديث: «أولاد الكفار خدام أهل الجنة»^(٢).

١٨- ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب. وهي: أنية لا عروة لها، ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقٍ﴾ جمع إبريق. وهو: ماله خرطوم، وعروة ﴿وَكَأْسٍ﴾ وقدح فيه شراب، وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿مِنْ مَّعِينٍ﴾ من خير تجري من العيون.

١٩- ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها. وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. أو: لا يفرقون عنها ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ ولا يسكرون. نُزِفَ الرجل: ذهب عقله بالسكر ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ بكسر الزاي: كوفي. أي: لا ينفذ شرابهم. يقال: أنزف القوم: إذا فني شرابهم.

(١) رواه الطبري وابن عدي. (حاشية الكشف ٤/٤٥٨).

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٢) وانظر مجمع الزوائد (٧/٢١٩).

وَفَكَهَمَهُ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ
الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا
سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾
وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

٢٠- ﴿وَفَكَهَمَهُ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله.

٢١- ﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون.

٢٢، ٢٣- ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء. أي: ﴿و﴾ فيها
﴿حور عين﴾ أو ﴿و﴾ لهم ﴿حور عين﴾. ويجوز أن يكون عطفًا على
﴿ولدان﴾. و﴿حور﴾ يزيد، وحزة، وعليّ عطفًا على ﴿جَنَاتِ النِّعِيمِ﴾ كأنه
قال: هم في جنات وفاكهة ولحم وحور ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ﴾ في الصفاء، والنقاء
﴿الْمَكُونِ﴾ المصون. وقال الزجاج: كأمثال الدرّ حين يخرج من صدفه، لم يغيره
الزمان واختلاف أحوال الاستعمال.

٢٤- ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كله
جزاء أعمالهم. أو: مصدر. أي: يجزون ﴿جَزَاءً﴾.

٢٥، ٢٦- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هذياناً ﴿إِلَّا
قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ إِلَّا قَوْلًا ذا سلامة. والاستثناء منقطع. و﴿سلاماً﴾ بدل من
﴿قِيلًا﴾ أو مفعول به لـ ﴿قِيلًا﴾. أي: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا
﴿سلاماً سلاماً﴾. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد
سلام.

٢٧، ٢٨- ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿السدر﴾: شجر
النبق. والمخضود: الذي لا شوك له؛ كأنما خضد شوكه.

٢٩- ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز. والمنضود: الذي تضد بالحمل من
أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة.

٣٠- ﴿وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ ﴿٣٤﴾
 إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُمْ أَتْبَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْيَا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾

٣١ - ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جارٍ بلا حدٍّ ولا خدٍّ. أي: يجري على الأرض في غير
 أ حدود.

٣٢، ٣٣ - ﴿وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: كثيرة الأجناس ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع
 في بعض الأوقات كفواكه الدنيا، بل هي دائمة ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن
 تناولها بوجه. وقيل: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ بالأزمان، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بالأثمان.

٣٤، ٣٨ - ﴿وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ﴾ رقيقة القدر. أو: نضدت حتى ارتفعت. أو:
 ﴿مرفوعة﴾ على الأسرة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش.
 ﴿مرفوعة﴾ على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ
 مُتَّكِئِينَ﴾ [يس: ٥٦] ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ ابتدأنا خلقهم ابتداء
 من غير ولادة. فإما أن يراد: اللاتي ابتدئ إنشاءهن، أو: اللاتي أعيد
 إنشاءهن. وعلى غير هذا التأويل أضمر لهن؛ لأن ذكر الفرش - وهي
 المضاجع - دلّ عليهن ﴿فَجَعَلْنَهُمْ أَتْبَارًا﴾ عذارى، كلما أتاها أزواجهن وجدوهن
 أبكاراً ﴿عُرْيَا أَتْرَابًا﴾ حمزة، وخلف، ويحى، وحامد. جمع: عروب، وهي: المتحبة
 إلى زوجها، الحسنة التبعل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن، بنات ثلاث وثلاثين،
 وأزواجهن كذلك. واللام في: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ من صلة ﴿أَنشَأْنَا﴾

٣٩، ٤٠ - ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: أصحاب اليمين ثلثة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ
 الْآخِرِينَ﴾. فإن قلت: كيف قال قبل هذا: ﴿وقيل من الآخرين﴾ ثم قال هنا:
 ﴿وثلثة من الآخرين﴾؟ قلت: ذاك في السابقين، وهذا في أصحاب اليمين،
 وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً. وعن الحسن: سابقو الأمم أكثر
 من سابقي أمتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمة.

٤١ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الشمال والمشامة واحدة.

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

٤٢- ﴿فِي سَمُومٍ﴾ في حرّ نار تنفذ في المسام ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء حارّ متناهي الحرارة.

٤٣- ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود.

٤٤- ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفى لصفتي الظلّ عنه؛ يريد أنّه ظلّ، ولكن لا كسائر الظلال. سمّاه ظلًّا، ثمّ نفى عنه برد الظلّ وروحه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحرّ - وذلك كرمه - ليمحق ما في مدلول الظلّ من الاسترواح إليه. والمعنى: أنّه ظلّ حارّ ضارّ.

٤٥، ٤٦- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعمين. فمنعهم ذلك عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: على الذنب العظيم. أو: على الشرك؛ لأنّه نقض عهد الميثاق. والحنث: نقض العهد المؤكّد باليمين. أو: الكفر بالبعث. بدليل قوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

٤٧- ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تقديره: ﴿أ﴾ نبعث ﴿إذا متنا﴾. وهو العامل في الظرف. وجاز حذفه؛ إذ ﴿مبعوثون﴾ يدلّ عليه. ولا يعمل فيه ﴿مبعوثون﴾؛ لأنّ ﴿إِنْ﴾ والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما.

٤٨- ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. وحسن العطف على المضمر في: ﴿لمبعوثون﴾ من غير تأكيد بنحن، للفاصل الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ لفصل لا المؤكدة للنفي ﴿أَوْ ءَابَاؤُنَا﴾ مدنيّ، وشاميّ.

٤٩، ٥٠- ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿إِلَى مَا وُفَّتْ

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى: من؛ كخاتم فضة. والميقات: ما وقت به الشيء. أي: حد. ومنه: مواقيت الإحرام. وهي: الحدود التي لا يجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

٥١-٥٥- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمَكْذِبُونَ﴾ بالبعث، وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ﴾، ﴿من﴾: لابتداء الغاية ﴿مِنْ زُقُومٍ﴾، ﴿من﴾: لبيان الشجر ﴿فَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ - أنت ضمير الشجر على المعنى، وذكره على اللفظ في ﴿منها﴾ و﴿عليه﴾ ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ﴾ بضم الشين مدني، وعاصم، وحمزة، وسهل. وبفتح الشين غيرهم. وهما مصدران ﴿الْهِيمِ﴾ هي إبل عطاش لا تروى. جمع: أهيم وهيماء. والمعنى: أنه يسלט عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه البطون؛ سلت عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم. وإنما صح عطف الشارين على الشارين - وهما لذوات متفقة وصفتين مختلفتين؛ لأن كونهم شارين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً. فكانتا صفتين مختلفتين.

٥٦- ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ﴾ هو الرزق الذي يعد للنازل تكربة له ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم

الجزاء.

٥٧- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إما بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنه لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم يكذبون به؛ وإما بالبعث؛ لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

٥٨- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ما تمنونه؛ أي: تقذفونه في الأرحام من النطف.

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾

٥٩ - ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تقدرونه، وتصورونه، وتجعلونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

٦٠ - ٦٢ - ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ تقديرًا، وقسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلافٍ وتفاوتٍ؛ كما تقتضيه مشيئتنا. فاختلفت أعماركم من قصير، وطويل، ومتوسط. ﴿قَدَرْنَا﴾ بالتخفيف مكِّي. سبقته بالشيء: إذا أعجزته عنه، وغلبته عليه، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ * عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ * أنا قادرون على ذلك لا تغلبوني عليه. و﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ جمع: مثل؛ أي: ﴿على أَنْ يُبَدِّلَ﴾ منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ - ﴿و﴾ على أَنْ ﴿نُنشِئَكُمْ فِي﴾ خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنا نقدر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم. فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ جمع مثل؛ أي: ﴿على أَنْ يُبَدِّلَ﴾ ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿النشأة﴾ مكِّي، وأبو عمرو ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَنَّ مَنْ قدر على شيء مرة لم يمتنع عليه ثانياً. وفيه دليل صحة القياس؛ حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

٦٣ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ما تحرثونه من الطعام؛ أي: تثيرون أرضه، وتلقون فيها البذر.

٦٤ - ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون. وفي الحديث: «لا يقولن أحدكم: زرع، وليقل: حرث»^(١).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣) والبخاري (١٢٨٩) والبيهقي (١٣٨/٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٧/٨).

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
 أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ
 جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٥- ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ هشيماً متكسراً قبل إدراكه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَعَجَّبُونَ، أو تندمون على تعبكُم فيه وإنفاقكم عليه، أو على ما اقترفتُم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها.

٦٦، ٦٧- ﴿إِنَّا﴾ أي: تقولون: ﴿إِنَّا﴾ - ﴿أَنْتَا﴾ أبو بكر - ﴿لَمُعْرِمُونَ﴾ للزمون غرامة ما أنفقنا. أو مهلكون لهلاك رزقنا. من: الغرام، وهو: الهلاك، ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارفون، محدودون، لا مجدودون، لا حظ لنا، ولا بخت لنا. ولو كنّا مجدودين لما جرى علينا هذا.

٦٨، ٦٩- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي: الماء العذب الصالح للشرب ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السحاب الأبيض، وهو أعذب ماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بقدرتنا؟

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ ملحاً، أو: مرّاً لا يُقدَّر على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلاً ﴿تشكرون﴾. ودخلت اللام على جواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ ونزعت منه هنا؛ لأنَّ ﴿لو﴾ لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتها بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مُخْلِصَةً للشرط كإِنْ، ولا عاملة مثلها، وإنّما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها: أنّ الثاني امتنع لامتناع الأول، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك، ولما شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كلّ أحد به، وتساوي حالي حذفه وإثباته، على أنّ تقدّم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية، ولأنّ هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أنّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأنّ الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قبل: أنّ المشروب إنّما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ
 جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَا أَقْسِمُ
 بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾

٧١ - ٧٣ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد - والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى: الزند، والأسفل: الزنده، شبهوها بالفحل والطروقة - ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ التي منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيراً لنار جهنم، حيث علّقنا بها أسباب المعاش، وعمّمنا بالحاجة إليها البلوى؛ لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها، ويذكرون ما أوعدوا به ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين النازلين في القواء، وهي: القفر. أو: للذين خلت بطونهم، أو مزادهم من الطعام. من قولهم: أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها. بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ﴾ لأنّ النعمة فيه سابقة على جميع النعم. ثمّ بما به قوامه، وهو: الحبّ، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ثمّ بما يعجن به ويشرب عليه، وهو: الماء، ثمّ بما يخبز به، وهو: النار. فحصول الطعام بجموع الثلاثة، ولا يستغني عنه الجسد مادام حيّاً.

٧٤ - ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدلّ. أو أراد بالاسم: الذكر. أي: ﴿فَسَبِّحْ﴾ بذكر ﴿رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه. وقيل: قل: سبحان ربّي العظيم. وجاء مرفوعاً: أنّه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»^(١).

٧٥ - ٧٧ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ أي: فأقسم و﴿لَا﴾ مزيدة مؤكدة، مثلها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرئ (فلا قسم) ومعناه: فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء أدخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسم ثمّ حذف المبتدأ. ولا يصحّ أن تكون اللام لام القسم؛ لأنّ حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها ﴿بِمَوْقِعِ﴾ حمزة،

(١) رواه أحمد (١٥٥/٤) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (٢٩٩/١).

وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

وعليّ. ولعلّ الله تعالى في آخر الليل إذا انحطّت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة، أو: للملائكة عبادات موصوفة، أو: لأنه وقت قيام المتجهدين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها، واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وهو اعتراض في اعتراض؛ لأنه اعتراض به بين القسم والمقسم عليه. وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضي، أو نفاع جمّ المنافع. أو ﴿كريم﴾ على الله، واعتراض بـ ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وصفته.

٧٨- ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَّكْنُونٍ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل. أو من غير المقرّين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم.

٧٩- ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من جميع الأدناس؛ أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون، وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، والمراد: من المكتوب منه.

٨٠- ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أو: وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله، فكأنه في نفسه تنزيل. ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو: هو ﴿تنزيل﴾ على حذف المبتدأ.

٨١- ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ متهاونون به؛ كمن يدهن في بعض الأمر، أي: يلين جانبه، ولا يتصلّب فيه تهاوناً به.

٨٢- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب، أي: وضعتكم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليّ - رضي الله عنه - وهي ^(١)

(١) في الكشاف: وقيل: هي. الكشاف (٥٩/٤).

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿٨٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٩٠﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩١﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩٢﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٥﴾

قراءة رسول الله ﷺ - (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) أي: (تجعلون شكركم) لنعمة القرآن ﴿أنكم تكذبون﴾ به. وقيل: نزلت في الأنواء، ونسبتهم السقيا إليها. والرزق: المطر. أي: ﴿وتجعلون﴾ شكر ما يرزقكم الله من الغيث ﴿أنكم تكذبون﴾ بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

٨٣ - ٨٧ - ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ، أي: الروح عند الموت ﴿الْحُلُقُومَ﴾ مَرَّ الطعام والشراب ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ الخطاب لمن حضر الميت تلك الساعة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿وَمِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾ لا تعقلون ولا تعلمون ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مربوبين. من: دان السلطان الرعية: إذا ساسهم ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ تردون النفس، وهي الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم غير مربوبين مقهورين. ﴿فَلَوْلَا﴾ في الآيتين للتحضيض يستدعي فعلاً، وذا قوله: ﴿ترجعونها﴾ واكتفى بذكره مرة. وترتيب الآية ﴿فَلَوْلَا﴾ ترجعونها ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. و﴿فَلَوْلَا﴾ الثانية مكررة للتأكيد. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يَا أَهْلَ الْمَيِّتِ بِقُدْرَتِنَا وَعِلْمِنَا، أَوْ بِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ. والمعنى: أنكم في جحودكم آيات الله في كل شيء: إِنْ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا مُعْجَزًا قُلْتُمْ: سِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ، وَإِنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا صَادِقًا قُلْتُمْ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَإِنْ رَزَقْنَاكُمْ مَطَرًا يُحْيِيكُمْ بِهِ قُلْتُمْ: صَدَقَ نَوَاءُ كَذَا؛ عَلَى مَذْهَبٍ يُوَدِّي إِلَى الْإِهْمَالِ وَالتَّعْطِيلِ. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَقَّةً قَابِضٌ، وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَعْطِيلِكُمْ، وَكُفْرِكُمْ بِالْحَيِّ، الْمَيِّتِ، الْمُبْدِئِ، الْعَبِيدِ؟!

٨٨، ٨٩ - ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَوَفَّى﴾ المتوفى ﴿مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْأَزْوَاجِ﴾ الثلاثة المذكورة في أول السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ وورق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

٩٠، ٩١ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي:

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلِيَّةً جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فسلامٌ لك﴾ يا صاحب اليمين ﴿من﴾ إخوانك ﴿أصحاب اليمين﴾ أي: يسلمون عليك؛ كقوله: ﴿إِلَّا قِيلَ اسْكُنْ مَا سَكْنَا﴾ [الواقعة: ٢٦].

٩٢ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قيل لهم في هذه السورة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتِيهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾.

٩٣، ٩٤ - ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ * وَنَصْلِيَّةً جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال فيها. وفي هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر كله ملءٌ واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنهم غير مكذِّبين.

٩٥، ٩٦ - ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الحق الثابت من اليقين، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

وروي: أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - دخل على ابن مسعود - رضي الله عنه - في مرض موته فقال له: ما تشتهي؟ فقال: ذنوبي. فقال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال: ألا نأمر بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: ندفعه إلى بناتك. قال: لا حاجة لهن فيه. قد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(١). وليس في هذه السور الثلاث ذكر الله (اقتربت، الرحمن، الواقعة)^(٢).

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٢٦) والحارث بن أبي أسامة كما في المطالب العالية (٣/٣٨٣).

(٢) أي: لفظ الجلالة (الله) لم يرد في هذه السور الثلاث المذكورة.

سُورَةُ الْحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

١- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء في بعض الفواتح ﴿سَبَّحَ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بني إسرائيل بلفظ المصدر، وفي الأعلى بلفظ الأمر، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها. وهي أربع: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل قد عدني باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وَتَسْبِّحُوهُ﴾. وأصله: التعدي بنفسه؛ لأنَّ معنى سبحته: بَعْدَتْهُ عَنِ السَّوْءِ، منقول من سَبَّحَ: إذا ذهب وبعد. فاللام إما أن تكون مثل اللام في: نصحته، ونصحت له، وإما أن يراد بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ اكتسب التسييح لأجل الله ولوجهه خالصاً ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما يتأتى منه التسييح ويصح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من مكلف لم يسبح له عناداً، ﴿لِلْحَكِيمِ﴾ في مجازاة من سبَّح له انقياداً.

٢- ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره. وموضع ﴿يُحْيِي﴾ رفع. أي: هو ﴿يُحْيِي﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء. أو: نصب؛ أي: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ محياً، ومميتاً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣- ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي يبقى

وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ

بعد هلاك كل شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بالدالة الدالة عليه ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس وإن كان مرتباً. والواو الأولى معناها: الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولى والآخرة، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الآخرين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. وهو في جميعها ظاهر وباطن. وقيل: ﴿الظاهر﴾: العالي على كل شيء، الغالب له، من: ظهر عليه: إذا علاه وغلبه ﴿والباطن﴾: الذي بطن كل شيء؛ أي: علم باطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن: «من أيام

الدنيا». ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستة أصلاً؛ ليكون عليها المدار ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ استوى ﴿عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ﴾ ما يدخل في الأرض من البذر، والقطر، والكنوز، والموتى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموماً، وبالفضل والرحمة خصوصاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥، ٦- ﴿لَمْ يَلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ * ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل الليل في النهار، بأن ينقص من الليل، ويزيد في النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

٧- ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ يحتمل الزكاة، والإنفاق في سبيل الله ﴿وَمِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله

فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ
يَبْتَلِي بِهَا خَيْرَكُمْ مِمَّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بخلقه وإنشائه لها. وإنما مولكم إياها للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في
التصرف فيها. فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة
الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهئ عليكم الإنفاق منها، كما
يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه. أو: ﴿جعلكم
مستخلفين﴾ ممن كان قبلكم بتوريثه إياكم، وسيقتل منكم إلى من بعدكم،
فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾.

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هو حال من معنى الفعل في ﴿مالكم﴾ كما
تقول: مالك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؟ أي: ﴿ومالكم﴾ كافرين بالله.
والواو في ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال. فهما حالان متداخلتان. والمعنى: وأي
عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ ﴿و﴾
قبل ذلك ﴿قد أخذ﴾ الله ﴿ميثاقكم﴾ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:
١٧٢]. أو بما ركب فيكم من العقول، ومكنكم من النظر في الأدلة. فإذا لم
تبق لكم علة بعد أدلة العقول، وتنبيه الرسول، فمالكم لا تؤمنون ﴿إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما؟ فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. ﴿أَخِذْ مِيثَاقَكُمْ﴾
أبو عمرو.

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَاتٍ يَبْتَلِي بِهَا﴾ القرآن
﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ الله تعالى أو: محمد بدعوته ﴿مِمَّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات
الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالمد والهمزة، حجازي، وشامي،
وحفص ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: أشد الرحمة.

١٠ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ في ألا تنفقوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
يرث كل شيء فيهما، لا يبقى منه باقٍ لأحدٍ من مالٍ وغيره. يعني: وأي

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ

غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، والجهاد مع رسوله، والله مهلككم، فوارث أموالكم. وهو من أبلغ البعث في الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنافقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ أي: فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله، ودخول الناس في دين الله أفواجا، ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف، لأن قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يدل عليه ﴿أُولِيَّكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح - ﴿و﴾ هم ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١) ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا﴾ أي: كل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. فـ: ﴿كُلًّا﴾ مفعول أول لوعده. و﴿الحسنَى﴾ مفعول ثان. ﴿وكل﴾ شامي. أي: ﴿وكل﴾ وعده ﴿الله الحسنَى﴾: قيل: نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق في سبيل الله. وفيه دليل على فضله وتقدمه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

١١- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب نفسه. والمراد: الإنفاق في سبيله. واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء ﴿فَيُضْعِفُهُ لَمْ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً مضاعفاً من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف ﴿كريم﴾ في نفسه ﴿فَيُضْعَفُهُ﴾ مكّي ﴿فَيُضْعَفُهُ﴾ شامي ﴿فَيُضَاعَفُهُ﴾ عاصم، وسهل ﴿فَيُضَاعَفُهُ﴾ غيرهم. فالنصب على جواب الاستفهام، والرفع على: فهو يضاعفه، أو عطف على ﴿يقترض﴾.

١٢- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو: منصوب بإضمار «اذكر» تعظيماً لذلك اليوم ﴿يَسْعَى﴾ يمضي ﴿نُورُهُمْ﴾ نور

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِشْرَتِكُمْ أَلْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ فِيهَا الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

التوحيد والطاعات. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين؛ كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم، وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشِّرْتُمْ أَلْيَوْمَ جَنَّتٌ﴾ أي: دخول جنات؛ لأن البشارة تقع بالأحداث دون الجثث ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣ - ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ هو بدل من ﴿يوم ترى﴾ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا؛ لأنه يُسْرَعُ بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة ﴿انظُرُونَا﴾ حزة، من: النَّظَرَةُ، وهي الإمهال، جُعِلَتْ اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نُصِبَ منه، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: تقول لهم الملائكة، أو: المؤمنون ﴿ارجعوا﴾ إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور، فالتمسوا هنالك، فمن ثم يقتبس. أو: ﴿ارجعوا﴾ إلى الدنيا ﴿فالتمسوا نوراً﴾ بتحصيل سببه، وهو الإيمان ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بعائط حائل بين شق الجنة وشق النار - قيل: هو الأعراف - ﴿لَمْ يَأْتِ﴾ لذلك السور ﴿بِآيَةٍ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بِآيَةٍ﴾ باطن السور، أو الباب، وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: النور، أو الجنة ﴿وَظَاهِرٌ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ من عنده، ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أي: الظلمة، أو: النار.

١٤ - ﴿يَنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون مرافقتهم في الظاهر ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون ﴿بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتهم في

وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَأَلَيْمٌ لَا يَتَّخِذُ مِنْكُمْ فِدْيَةً
وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتَكُمْ الْآثَرُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلُ

التوحيد ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي﴾ طول الآمال، والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّى جَاءَ
أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وعزكم الشيطان بأن الله عفو كريم،
لا يعذبكم، أو: بأنه: لا بعث ولا حساب.

١٥ - ﴿فَأَلَيْمٌ لَا يَتَّخِذُ﴾ وبالتاء شاميٌّ. ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةً﴾
ما يفندي به ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتَكُمْ﴾ مرجعكم ﴿الْآثَرُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ هي أولى
بكم، وحقيقة ﴿مولاكم﴾ مخراكم؛ أي: مكانكم الذي يقال فيه: هو أولى
بكم؛ كما يقال: هو مثنة للكرم؛ أي: مكان؛ لقول القائل: إنه لكريم ﴿وَيَسَّ
الْمَصِيرُ﴾ النار.

١٦ - ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ من: أنى الأمر، يأتي: إذا جاء إناءه. أي: وقته. قيل:
كانوا مجدين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا
عليه. فنزلت. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما كان بين إسلامنا وبين أن
عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين. وعن أبي بكر - رضي الله عنه -: إن هذه الآية
قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاء شديداً. فنظر إليهم
فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ الْحَقِّ﴾ بالتخفيف: نافع، وحفص. الباقر ﴿نزل﴾. و﴿ما﴾ بمعنى الذي.
والمراد بالذكر ﴿وما نزل من الحق﴾: القرآن؛ لأنه جامع للأمرين للذكر
والموعظة، وأنه حق نازل من السماء ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١)
القراءة بالياء عطف على ﴿تخشع﴾. وبالتاء: رويس على الالتفات. ويجوز أن
يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك:
أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (ولا تكونوا) بالتاء، وهي قراءة: رويس وغيره.

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْحَى الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ

والإنجيل خشعوا لله ورقّت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين. أي: وقليل منهم مؤمنون.

١٧ - ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْحَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحییها كما يحيي الغيث الأرض.

١٨ - ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ ^(١) بتشديد الدال وحده، مكّي، وأبو عمرو. وهو اسم فاعل من: صدّق، وهم الذين صدّقوا الله ورسوله. يعني: المؤمنين. الباقون: بتشديد الدال والصاد وهو اسم فاعل من: تصدّق، فأدغمت التاء في الصاد، وقرئ على الأصل ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو عطف على معنى الفعل في ﴿المصدقين﴾ لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى الفعل، وهو: اصدّقوا. كأنه قيل: ﴿إِنَّ﴾ الذين اصدّقوا ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ والقرض الحسن: أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس، وصحة النية على المستحق للصدقة ﴿يُضْعَفُ لَهُمْ﴾ ﴿يُضْعَفُ﴾ مكّي، وشامي ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: الجنة.

١٩ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: أن المؤمنين بالله ورسله عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثل أجر الصديقين والشهداء، ومثل نورهم. ويجوز أن يكون ﴿والشهداء﴾ مبتدأ و﴿لهم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿المصدقين﴾. وهي قراءة: من ذكر وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨٦/٧ - ٨٧).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أجرهم ﴿٢٠﴾: خبره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

٢٠ - ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ﴿وَلَهُمْ﴾ كلهم الفتيان، ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدهقان ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: مباهاة بهما - والتكاثر: ادعاء الاستكثار - ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ متفتتاً. شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبت الغيث، فاستوى، وقوي، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات. فبعث عليه العاهة، فهاج، واصفر، وصار حطاماً، عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة. وقيل: الكفار: الزراع ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين. يعني: أن الدنيا ليست إلا من محقرات الأمور. وهي: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام. وهي: العذاب الشديد، والمغفرة والرضوان من الله الحميد. والكاف في ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ في محل رفع على أنه خبر بعد خبر. أي: الحياة الدنيا مثل غيث ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ لمن ركن إليها، واعتمد عليها. قال ذو النون: يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا، وإن طلبتموها فلا تحبوها؛ فإن الزاد منها، والمقيل في غيرها.

٢١ - ولما حقر الدنيا وصغر أمرها، وعظم أمر الآخرة، بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك، وهي: المغفرة المنجية من العذاب الشديد، والفوز بدخول الجنة، بقوله: ﴿سَابِقُوا﴾ أي: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقيل: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين.

أَعِدَّتْ لِلذِّبِكِ ءَامَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ
 قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لَّكِنَّا تَأْسَوْنَ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 تَفْرَحُونَ بِمَا ءَاتَكُم

وذكر العرض دون الطول؛ لأن كل ما له عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله. فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط. أو أريد بالعرض البسطة. وهذا ينفي قول من يقول: إن الجنة في السماء الرابعة لأن التي في إحدى السموات لا تكون في عرض السموات والأرض ﴿أَعِدَّتْ لِلذِّبِكِ ءَامَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون. وفيه دليل: على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٢ - ثم بين: أن كل كائن بقضاء الله وقدره بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجذب، وآفات الزروع والثمار. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في موضع الجز، أي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ ثابتة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ - ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ في اللوح - وهو في موضع الحال - أي: إلاً مكتوباً ﴿مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد.

٢٣ - ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه بقوله: ﴿لَّكِنَّا تَأْسَوْنَ﴾ تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها، أو من العافية وصحتها ﴿وَلَا تَفْرَحُونَ﴾ فرح المختال الفخور ﴿بِمَا ءَاتَكُم﴾ أعطاكم. من: الإيتاء. أبو عمرو: ﴿أناكم﴾ أي: جاءكم. من: الإتيان. يعني: أنكم إذا علمتم: أن كل شيء مقدّر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي؛ لأن من علم: أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك. وكذلك من علم: أن بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نياله. وليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ

تصبيه، ويجزن عند مضرة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً. وإنما يذم من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأن من فرح بحظ من الدنيا، وعظم في نفسه؛ اختال، وافتخر به، وتكبر على الناس.

٢٤- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿كُلِّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. كأنه قال: ﴿لا يحب﴾ الذين يبخلون. يريد: الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا، فَلَحِبُّهُمْ لَهُ، وعزته عندهم يزوونه عن حقوق الله، ويبخلون به ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويحضون غيرهم على البخل، ويرغبونهم في الإمساك ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق. وعن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهي عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات، فكيف عنه؟ ﴿الْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. (فإن الله الغني) بترك ﴿هو﴾ مدني وشامي.

٢٥- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج المعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الوحي. وقيل: الرسل الأنبياء، والأول أولى، لقوله: ﴿مَعَهُمْ﴾؛ لأن الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ روي: أن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مَرُّ قَوْمِكَ يَزِنُوا بِهِ ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاء واستيفاء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، ولا يظلم أحد أحداً ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميعة، والمطرقة، والإبرة، وروي: ومعه المَرَّ والمسحاة. وعن الحسن ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ خلقناه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال به ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم، ومعاشهم، وصنائعهم؛ فما من صناعة إلا ﴿و﴾ الحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا

باستعمال السيوف، والرماح، وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. وقال الزجاج: ﴿ليعلم الله﴾ من يقاتل مع رسوله في سبيله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائباً عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ يدفع بقوته، بأس من يعرض عن ملته ﴿عَزِيزٌ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته.

والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة: أنَّ الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام والحدود الدينية، يبين سبل المرشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل. وهي الميزان. ومن المعلوم: أنَّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعة للتعامل بالسَّوية، إنما تحفظ العام على أتباعها بالسيف، الذي هو حجة الله على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو الحديد، الذي وصف بالبأس الشديد.

٢٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ وخصا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء - عليهم السلام - ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أولادهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الوحي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخطَّ بالقلم. يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دلَّ عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا تفصيل لحالهم. أي: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من اهتدى باتباع الرسل و﴿مِنْهُمْ﴾ من فسق؛ أي: خرج عن الطاعة. والغلبة للفساق.

٢٧- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلِهِم﴾ أي: نوح، وإبراهيم، ومن مضى من الأنبياء ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودةً ولبناً ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعظفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ هي ترهبهم في

مَا كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الجال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة. وهي الفعلة المنسوبة إلى
الرهبان. وهو الخائف. فعلان من: رهب، كخشيان من: خشي. وانتصابها بفعل
مضمير يفسره الظاهر تقديره: ﴿و﴾ ابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ أي: خَرَجوها من
عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضا نحن عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ
اللَّهِ﴾ استثناء منقطع. أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان ﴿اللَّهُ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ
رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره؛ لأنه عهد مع الله لا يحل نكته ﴿فَآتَيْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى - عليه السلام -
والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ كافرون.

٢٨- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾
بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ
وإيمانكم بمن قبله ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ وهو النور
المذكور في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٢] الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم
﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢٩- ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ﴾ ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يسلموا، و﴿لَا﴾
مزيدة ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة أصله: أنه ﴿لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾. يعني:
أَنَّ الشَّانَ لَا يَقْدَرُونَ ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما ذكر من
فضل الله من الكفلين، والنور، والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم
ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلاً قط ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ﴾ عطف على ﴿أَن﴾
لا يقدرُونَ - ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: في ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده
﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ﴾ تحاورك. وقرىء بها. وهي: خولة بنت ثعلبة، امرأة أوس بن الصامت، أخي عبادة. رآها وهي تصلي، وكانت حسنة الجسم، فلما سلمت راودها، فأبت فغضب، فظاهر منها. فأنت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في. فلما خلا سني، ونثرت بطني - أي: كثر ولدي - جعلني عليه كأمه. وروي: أنها قالت: إن لي صبيانا صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فقال ﷺ: «ما عندي من أمرك شيء». وروي: أنه قال لها: «حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ. فقال: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدني، كلما قال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»، هتفت، وشكت إلى الله فنزلت^(١) ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ في شأنه ومعناه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤ / ١ - ٢).

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَايَهُمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ وَإِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا

مراجعتكما الكلام. من: حار: إذا رجع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله.

٢- ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ عاصم ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ حجازي وبصري. غيرهم: ﴿يُظَاهِرُونَ﴾. وفي ﴿مِنْكُمْ﴾ توبيخ للعرب؛ لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ﴿مِمَّنْ نَسَايَهُمْ﴾ زوجاتهم ﴿مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ﴾ أمهاتهم المفضل؛ فالأول حجازي، والثاني تميمي ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ يريد: أن الأمهات على الحقيقة الوالدات، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع. وكذا أزواج رسول الله ﷺ لزيادة حرمتهم. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة، فلذا قال: ﴿وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْهَا﴾ أي: تنكره الحقيقة والأحكام الشرعية ﴿وَزُورًا﴾ وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾ لما سلف منهم.

٣- ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ بين في الآية الأولى: أن ذلك من قائله منكر وزور. وبين في الثانية حكم الظهار ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ العود الصيرورة ابتداءً أو بناءً. فمن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] ومن الثاني: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] ويعدى بنفسه كقولك: عدته: إذا أتته وصرت إليه، وبحرف الجر ب: إلى، وعلى، وفي، واللام، كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومنه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: يعودون لـ ﴿نقض﴾ ما قالوا أو لتداركه على حذف المضاف. وعن ثعلب: ﴿يعودون﴾ لتحليل ما حرّموا، على حذف المضاف أيضاً. غير أنه أراد بما قالوا: ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، كقوله: ﴿وَرَبُّكُمْ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أراد المقول فيه، وهو المال والولد. ثم اختلفوا: أن النقض بماذا يحصل؟ فعندنا: بالعزم على الوطء، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة. وعند الشافعي - رحمه الله -: بمجرد الإمساك؛ وهو ألا يطلقها عقيب

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكَ لَكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فِطْطَاعًا سِتِّينَ مَسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ

الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعلية إعتاق رقبة مؤمنة أو كافرة. ولم يحز المدبر، وأم الولد، والمكاتب الذي أدى شيئاً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الضمير يرجع إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها. والمماس: الاستمتاع بها من جماع، أو لمس بشهوة، أو نظراً إلى فرجها بشهوة ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾؛ لأنَّ الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم، حتى لا تعودوا إلى الظهار، وتحافوا عقاب الله عليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وإذا وضع موضع أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالבطن والفخذ، أو مكان الأم ذات رحم محرم منه بنسب، أو رضاع، أو صهر، أو جماع، نحو أن يقول: أنت علي كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي، أو أم امرأتي، أو ابنتها، فهو مظاهر. وإذا امتنع المظاهر من الكفارة، للمرأة أن ترافعه، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر، وأن يجسه. ولا شيء من الكفارات يجبر عليه، ويجس إلا كفارة الظهار. لأنه يضر بها في ترك التكفير، والامتناع من الاستمتاع. فإن مس قبل أن يكفر استغفر الله ولا يعود حتى يكفر. وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس، عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة - رحمه الله -.

٤ - ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعلية صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ۖ فِطْطَاعًا ۖ سِتِّينَ مَسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ

لكل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. ويجب أن يقدمه على المسيس، ولكن لا يستأنف إن جامع في خلال الإطعام ﴿ذَلِكَ﴾ البيان والتعليم للأحكام ﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ لتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليّتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: الأحكام التي

حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَبُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ

وصفنا في الظهار، والكفارة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادون ويشاقون ﴿كِتَبُوا﴾ أخزوا، وأهلكوا ﴿كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ﴿وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

٦ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب بـ ﴿مُهِينٍ﴾، أو بإضمار اذكر، تعظيماً لليوم ﴿اللَّهُ جَمِيعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث، أو مجتمعين في حال واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلاً لهم، وتوبيخاً، وتشهيراً بحالهم، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

٧ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ﴾ من: كان التامة؛ أي: ما يقع ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ النجوى: التناجي. وقد أضيفت إلى ثلاثة، أي: ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى﴾ ولا أقل ﴿مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه. وقد تعالى عن المكان علواً كبيراً.

وتخصيص الثلاثة والخمسة: لأنها نزلت في المنافقين. وكانوا يتحلقون للتناجي مغايطةً للمؤمنين على هذين العددين. فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ﴿وَلَا آدْنَى مِنْ﴾ عددٍ منهم ﴿وَلَا أَكْثَرُ﴾ إلا والله معهم يسمع

أَيُّ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا
عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ بِالْآثِمِ وَالْعُدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا
جَاءُوكَ حِيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ بَصُلُوتُهَا فَيَلْسَنُ الْمَصِيدُ ﴿٨﴾ بِتَأْيِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْآثِمِ
وَالْعُدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

ما يقولون. ولأن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب. وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة، إلى ستة، إلى ما اقتضته الحال. فذكر عزوعلا الثلاثة، والخمسة، وقال: ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ فدل على الاثنين والأربعة. وقال: ﴿ولا أكثر﴾ فدل على ما يقارب هذا العدد ﴿أَيُّ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ بِالْآثِمِ وَالْعُدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، ويريدون أن يغيظوهم، ويوهموهم في نجوهم وتغامزهم: أن غزاتهم غلبوا، وأن أقاربهم قتلوا. فنهاهم رسول الله ﷺ، فعادوا لمثل فعلهم. وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصي بمعصية الرسول ومخالفته. ﴿وَيَتَنَبَّهُونَ﴾ حمزة، وهو بمعنى الأول ﴿وَلَا جَاءُوكَ حِيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني: أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد. والسام: الموت. والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَتَأْيِهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، و﴿يَتَأْيِهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً لعاقبنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ أي: يدخلونها ﴿فَيَلْسَنُ الْمَصِيدُ﴾ المرجع؛ جهنم.

٩ - ﴿يَتَأْيِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالسستم، وهو خطاب للمنافقين. والظاهر: أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِنَّا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْآثِمِ وَالْعُدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ﴾ بأداء الفرائض، والطاعات ﴿وَالْتَّقَوْا﴾ وترك المعاصي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

للحساب، فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر.

١٠- ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوان ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ من تزيينه ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أي: الشيطان. وبضم الياء نافع ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو الحزن ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إلى الله، ويستعيذون به من الشيطان.

١١- ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ توسعوا فيه ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ عاصم. والمراد: مجلس رسول الله ﷺ. وكانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة. كقوله: ﴿مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. مُقَاتِل: في صلاة الجمعة ﴿فَافْسَحُوا﴾ فوسعوا ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، وغير ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين، أو انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أمرتم بالنهوض عنه، أو انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وأعمال الخير ﴿فَانْشُرُوا﴾ بالضم فيهما: مدني، وشامي، وعاصم غير حماد ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ بامثال أوامره، وأوامر رسوله ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والعالمين منهم خاصة ﴿دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وفي الدرجات قولان: أحدهما: في الدنيا في المرتبة، والشرف، والآخر: في الآخرة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يأيتها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(١). وعنه ﷺ: «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين

(١) رواه أحمد (١٩٦/٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣).

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

سنة». وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»^(١). فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله عليه السلام. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير سليمان - عليه السلام - بين العلم والمال والملك، فاختار العلم. فأعطى المال والملك معه. وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم - عليه السلام - يا إبراهيم! إني عليم أحب كل عليم»^(٢). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم؟ وأي شيء فات من أدرك العلم؟. وعن الزبير بن العوام: العلم ذكر، فلا يحبه إلا ذكورة الرجال. والعلوم أنواع، فأشرفها أشرفها معلوماً.

١٢ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي: قبل نجواكم. وهي استعارة ممن له يدان. كقول عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم، ويستنزل به اللثيم. يريد: قبل حاجته ﴿ذَلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأن الصدقة طهرة ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ. وقال علي - رضي الله عنه -: هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم، وسألت رسول الله عليه السلام عشر مسائل فأجابني عنها: قلت: يا رسول الله! ما الوفاء؟ قال: «التوحيد، وشهادة لا إله إلا الله». قلت: وما الفساد؟ قال: «الكفر، والشرك بالله». قلت: وما الحق؟ قال: «الإسلام، والقرآن، والولاية إذا انتهت إليك». قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة». قلت: وما علي؟ قال: «طاعة الله، وطاعة رسوله». قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: «بالصدق واليقين». قلت: وماذا

(١) رواه ابن ماجه (٤٣١٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في العلم. (حاشية الكشاف ٤/٤٩٣).

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جُحُودِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً

أَسْأَلُ اللَّهَ؟ قال: «العافية» قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كل حلالاً،
وقل صدقاً» قلت: وما السرور؟ قال: «الجنة». قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء
الله». فلما فرغت منها نزل نسخها^(١).

١٣ - ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جُحُودِكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه
من الإنفاق الذي تكرهونه؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به، وشق عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفف عنكم، وأزال عنكم المؤاخذه بترك تقديم الصدقة على
المنجاة؛ كما أزال المؤاخذه بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فلا تفرطوا في الصلاة، والزكاة، وسائر الطاعات
﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعد ووعد.

١٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كان المنافقون يتولون اليهود،
وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]
وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يا مسلمون! ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من
اليهود. كقوله ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]
﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: يقولون: والله إنا لمسلمون لا منافقون! ﴿وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون منافقون.

١٥ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ كانوا في الزمان الماضي مصرين على سوء العمل. وهي حكاية ما يقال
لهم في الآخرة.

١٦ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمائهم وأموالهم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٤/٤٩٤).

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ مَحَافِظَهُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَىٰ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

﴿فَصَدُّوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وعدهم العذاب المخزي لكفرهم وصدّهم، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

١٧ - ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً من الإغناء، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١٨ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ أي: الله في الآخرة: أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ في الدنيا على ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ من النفع، أو: يحسبون أنهم على شيء من النفع ثم بأيامهم الكاذبة كما انتفعوا ها هنا ﴿أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ حيث استوت حالهم فيه الدنيا والآخرة.

١٩ - ﴿اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استولى عليهم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ قال شاه الكرمانى: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكير في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنده ﴿أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٢٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله، لا ترى أحداً أذل منهم.

٢١ - ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَأَعْلَىٰ أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي
قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

٢٢ - ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ هو مفعول ثان
لـ: ﴿تجد﴾، أو حال، أو صفة لـ: ﴿قوماً﴾. و﴿تجد﴾ بمعنى تصادف على هذا
﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ خالفه وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ﴾. أي: من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين
يوالون المشركين. والمراد: أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد
بحال، مبالغة في الزجر عن ملاسته، والتوصية بالتصلب في مجانبه أعداء الله
ومباعدتهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم. وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله:
﴿وَلَوْ كَانَ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، وبقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ
فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: اثبتة فيها، وبمقابلة قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ بقوله:
﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: بكتاب أنزله، فيه حياة لهم. ويجوز
أن يكون الضمير للإيمان؛ أي: ﴿بروح﴾ من الإيمان، على أنه في نفسه روح حياة
القلوب به. وعن الثوري: أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان.
وعن عبد العزيز بن أبي رواد: أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه، وتلاها. وقال
سهل: من صتح إيمانه، وأخلص توحيده فإنه لا يأنس بمبتدع، ولا يجالس، ويظهر
له من نفسه العداوة. ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعاً
لطلب عز الدنيا، أو عرضها أذله الله بذلك العز، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك
إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدق فليجرب ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بتوحيدهم الخالص، وطاعتهم
﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة، أو بما قضى عليهم في الدنيا ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ
اللَّهِ﴾ أنصار حقه، ورعاة خلقه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾ الباقون في النعيم
المقيم، الفائزون بكل محبوب، الآمنون من كل مرهوب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير. وذلك: أن النبي ﷺ حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر، قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، وحالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلةً. ثم خرج ﷺ مع الجيش إليهم فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم. فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء، وأذرعات.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بالمدينة. واللام في ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ تتعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾. وهي اللام في

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُوا أَنََّّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ

قوله تعالى: ﴿يَلَيْتَنِی قَدَمْتُ لِیَاقِی﴾ [الفجر: ٢٤] وقوله: جئته لوقت كذا. أي:
أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى أول الحشر: أن هذا أول حشرهم
إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصيبهم جلاء قط. وهم أول من أخرج من أهل
الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو: هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم:
إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. أو: آخر حشرهم حشر يوم القيامة. قال
ابن عباس - رضي الله عنهما -: من شك: أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية،
فهم الحشر الأول، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله ﷺ لما
خرجوا: «امضوا فإنكم أول الحشر، ونحن على الأثر»^(١). فتادة: إذا كان آخر
الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام وبها تقوم
عليهم القيامة. وقيل: معناه: أخرجهم من ديارهم لأول ما حُسر لقتالهم؛ لأنه
أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا﴾ لشدة بأسهم، ومنعتهم،
ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعُدَّتْهم ﴿وَقَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾
أي: ﴿ظَنُوا﴾: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفرق بين هذا التركيب
وبين النظم الذي جاء عليه: أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط
وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصوير ضميرهم اسماً لأن في إسناد
الجملة إليه: دليلاً على اعتقادهم في أنفسهم: أنهم في عزة ومنعة لا يُبالى معها
بأحدٍ يتعرض لهم، أو يطمع في مُعَارَظَتِهِمْ^(٢). وليس ذلك في قولك: وظنوا أن
حصونهم تمنعهم ﴿فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ أي: أمر الله وعقابه. وفي الشواذ ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾
أي: فاتاهم الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم،
وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه رضاعاً ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ﴾ الخوف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخربون ﴿أبو عمرو.
والتخريب والإخراب: الإفساد بالنقض والهدم. والخربة: الفساد. كانوا

(١) رواه البزار والبيهقي كما في الدر المنثور (٨/٨٩).

(٢) أي: مغالبتهم.

فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ

يخربون بواطنها، والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم، وألا تبقى لهم بالمدينة دار، ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخریب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة، وألا يتحصروا بعد جلائهم على بقائهم مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج. وأما المؤمنون فذاعيتهم إلى التخریب إزالة متحصنهم، وأن يتسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين: أنهم لما عرضوهم بنكت العهد لذلك، وكانوا السبب فيه؛ فكأنهم أمروهم به، وكلّفوهم إياه ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي: تأملوا فيما نزل بهؤلاء، والسبب الذي استحقوا به ذلك، فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. وهو دليل على جواز القياس.

٣ - ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي؛ كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ﴾ سواء أُجِّلُوا أو قتلوا ﴿فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الذي لا أشد منه.

٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم: ﴿شَاقُوا اللَّهَ﴾ خالفوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٥ - ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ هو بيان لـ: ﴿ما قطعتم﴾. وحلّ ﴿ما﴾ نصب بقطعتم، كأنه قيل: أي شيء قطعتم. وأنت الضمير الراجع إلى ﴿ما﴾ في قوله ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنه في معنى اللينة. واللينة: النخلة، من: الألوان. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها. وقيل: اللينة: النخلة الكريمة؛ كأنهم اشتقوها من اللين ﴿قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقطعها، وتركها بإذن الله ﴿وَلِيُخْرِىَ الْفٰسِقِينَ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها.

٦ - ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ جعله فيئاً له خاصة ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيلٍ أو ركابٍ منكم على ذلك. والركاب: الإبل. والمعنى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ على تحصيله، وتغنيمه خيلاً، ولا ركاباً، ولا تعبتُم في القتال عليه، وإنما مشيتُم إليه على أرجلكم لأنه على ميلين من المدينة، وكان ﷺ على حمارٍ فحسب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: أن ما خول الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلَّطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسَلِّطُ رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوض إليه، يضعه حيث يشاء، ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوةً وقهراً، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ - ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وإنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنها بيان للأولى. فهي منها غير أجنبية عنها. بين لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة. وزيف هذا القول بعض المفسرين وقال: الآية الأولى نزلت في أموال بني النضير وقد جعلها الله لرسوله خاصة؛ وهذه الآية في غنائم كل قرية تؤخذ بقوة الغزاة. وفي الآية بيان مصرف خمسها فهي مبتدأ ﴿كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً﴾ - ﴿تَكُونُ دُولَةً﴾ يزيد، على كان التامة. والدولة والدولة ما يدول للإنسان؛ أي: يدور من الجد. ومعنى قوله: كي لا يكون دولة ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ كي لا يكون الفيء؛ الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، جداً بين الأغنياء يتكاثرون به ﴿وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه منها ﴿فَانتَهُوا﴾ عنه، ولا تطلبوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه، وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

ﷺ. والأجود أن يكون عامًّا في كلِّ ما أتى رسول الله ﷺ ونهى عنه. وأمر
الفيء داخل في عمومه.

٨ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ - بدل من قوله: ﴿ولذي القربى﴾ والمعطوف عليه. والذي
منع الإبدال من: ﴿الله وللرسول﴾ وإن كان المعنى لرسول الله: أن الله عز وجل
أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنه يترفع برسول
الله عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في
تعظيم الله عز وعلا ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكة. وفيه
دليل: على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأن الله تعالى سَمَّى
المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا﴾ أي: يطلبون الجنة ورضا الله ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ﴿ينصرون﴾
دين الله ﴿و﴾ يعينون ﴿رسوله﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم.

٩ - ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على المهاجرين. وهم الأنصار ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ توطنوا
المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله:

علفتها تبنأ وماء بارداً

أو: وجعلوا الإيمان مستقرًّا ومتوطنًا لهم لتمكّنهم واستقامتهم عليه؛ كما
جعلوا المدينة كذلك. أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في
الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه
مقامه ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة
والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاطروهم
أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى
تزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾
ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

والمحتاج إليه يسمّى: حاجة. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا، ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه. وقيل: ﴿حاجة﴾ حسداً ممّا أعطي المهاجرون من الفداء، حيث خصهم النبي ﷺ به. وقيل: ﴿لا يجدون في صدورهم﴾ مس ﴿حاجة من﴾ فقد ﴿ما أوتوا﴾ فحذف المضافان ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فقر. وأصلها: خصاص البيت، وهي: فروجه. والجملة في موضع الحال. أي: مفروضة خصاصتهم.

روي: أنه نزل برجل منهم ضيف، فنوم الصبية، وقرب الطعام، وأطفا السراج ليشبع ضيفه، ولا يأكل هو.

وعن أنس - رضي الله عنه -: أهدي لبعضهم رأس مشوي، وهو مجهود، فوجهه إلى جاره، فتداولته تسعة أنفس حتى عاد إلى الأول.

أبو زيد: قال لي شاب من أهل بلخ: ما الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا. فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ. بل: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا. والشح: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزّة حريصة على المنع. وأما البخل: فهو المنع نفسه. وقيل: الشح: أكل مال أخيك ظلماً. والبخل: منع مالك. وعن كسرى: الشح أضّر من الفقر؛ لأنّ الفقير يتسع إذا وجد بخلاف الشحيح.

١٠ - ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضاً على ﴿المهاجرين﴾ وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسان. وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة. قال عمر - رضي الله عنه -: دخل في هذا الفياء كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام. فجعل الواو للعطف فيهما. وقرئ ﴿للذين﴾ فيهما ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ قيل: هم المهاجرون

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٧﴾

والأنصار. عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فستبهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقدًا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: الصحابة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب: ما تقول في عثمان، وطلحة، والزبير؟ قال: أقول ما قولنيه الله. وتلا هذه الآية.

١١ - ثُمَّ عَجَبَ نَبِيُّهُ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا؟﴾. أي: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ﴿إلى﴾ عبد الله بن أبيّ وأشباعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير. والمراد: أخوة الكفر ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. روي: أَنَّ ابْنَ أَبِيّ وَأَصْحَابَهُ دَسُّوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ حِينَ حَاصَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَخْرُجُوا مِنَ الْحَصْنِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ لَا نَخْذِلُكُمْ. وَلَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من رسول الله والمسلمين إِنْ حَمَلْنَا عَلَيْهِ. أَوْ: فِي خِذْلَانِكُمْ، وَإِخْلَافَ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنَ النَّصْرَةِ ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم لليهود. وفيه دليل: على صحة النبوة؛ لأنه إخبار بالغيب.

١٢ - ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ وإنما قال: ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم، على الفرض والتقدير. كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزم المنافقون ﴿ثم لا ينصرون﴾ بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم. أَوْ: لينهزم اليهود، ثم لا ينفعهم نصره المنافقين.

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي

١٣ - ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي: أشد مرهوبة. مصدر رهب المني للمفعول. وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ دلالة على نفاقهم. يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم ﴿مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته.

١٤ - ﴿لَا يَقْنَلُونَكُمْ﴾ لا يقدرّون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين: يعني: اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾. ﴿جدار﴾ مكّي، وأبو عمرو ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا. ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة؛ لأنّ الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اليهود والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة، لا ألفة بينها. يعني: أنّ بينهم إحنًا وعداوات فلا يتعاضدون حقّ التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ذَلِكَ﴾ التفرق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ تشّتت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم.

١٥ - ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر. فحذف المبتدأ ﴿قَرِيبًا﴾ أي: استقرّوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ زمنًا ﴿قَرِيبًا﴾ ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. من قولهم: كلاًّ وبيل: وخيم سيّء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار.

١٦ - ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أي: مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال، ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم، كمثل الشيطان؛ إذا استغوى الإنسان بكيده، ثم تبرأ منه في العاقبة. وقيل: المراد استغواؤه قريشاً يوم بدر. وقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٧ - ﴿فَكَانَ عَقِبَهُمَا﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿عاقبتهما﴾ خبر ﴿كان﴾ مقدم. وأن مع اسمها وخبرها، أي: ﴿في النار﴾. في موضع الرفع على الاسم و﴿خالدين﴾ حال ﴿وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ﴾.

١٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفوها ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ نكر النفس تقيلاً للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: يوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له. أو: عبّر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد. وتنكيره لتعظيم أمره. أي: ﴿لغد﴾ لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار - رحمه الله -: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدّمنا، خسرنا ما خلفنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كرّر الأمر بالتقوى تأكيداً. أو: ﴿اتقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل ﴿واتقوا الله﴾ في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وفيه: تحريض على المراقبة؛ لأن من علم: أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

١٩ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا ذكر الله عز وجل وما أمرهم به

فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

﴿فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

٢٠ - ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ هذا تنبيه للناس، وإيدان بأنهم، لفرط غفلتهم، وقلة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم على إثثار العاجلة، واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز العظيم مع أصحاب الجنة والعذاب الأليم مع أصحاب النار، فمن حقهم أن يعلموا ذلك، وينبهوا عليه، كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك. تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدلت الشافعية بهذه الآية: على أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء. وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه، والكافي.

٢١ - ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآن وعظمته: أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن؛ لخضع، أي: لخضع، وتطأطأ، وتصدع. أي: تشقق ﴿من خشية الله﴾. وجائر أن يكون هذا تمثيلاً؛ كما في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ويدل عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي إشارة إلى هذا المثل، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد: توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجه.

٢٢ - ثُمَّ رَدَّ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ وَشَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ فَقَالَ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: السر والعلانية. أو: الدنيا والآخرة. أو: المعلوم والموجود ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

٢٣ - ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ الذي لا يزول ملكه ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه من القبائح. وفي تسبيح الملائكة: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رب الملائكة والروح ﴿السَّلَامُ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه. عن الزجاج ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن. وعن الزجاج: الذي آمِنَ الخلق من ظلمه. أو: المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء، الحافظ له. مُفْعِلٌ، من: الأمن، إلا أن همزته قلبت هاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْجَبَّارُ﴾ العالي العظيم الذي يذل له من دونه. أو: العظيم الشأن في القدرة والسلطان. أو: القهار ذو الجبروت ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عما يصفه به المشركون.

٢٤ - ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ المقدر لما يوجده ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ في الأرحام ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على الصفات العلا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ختم السورة بما بدأ به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته». فأعدت عليه فأعاد عليّ، فأعدت عليه فأعاد عليّ^(١).

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - روي: أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم - يقال لها: سارة - أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قال: احتجت حاجة شديدة. فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها، وحملوها، وزودوها. فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاهها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة. نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، اعلّموا: أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذرکم. فخرجت سارة، ونزل جبريل - عليه السلام - بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعمّاراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد - وكانوا فرساناً - وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها، واخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فأدركوها، فجددت، وحلفت. فهُمُّوا بالرجوع. فقال علي - رضي الله عنه -: والله ما كُذِّبنا، ولا كُذِّب رسول الله ﷺ، وسلّ سيفه. وقال: أخرجي الكتاب، أو تضعي رأسك. فأخرجته من عقاص شعرها - وروي: أن رسول الله ﷺ آمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة؛ هي أحدهم - فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملك

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ

عليه؟» فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكني كنت امرأاً مُلصَقاً في قريش، ولم أكن من أَنفُسِهَا، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت: أن الله ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدقه، وقبل عذره. فقال: عمر - رضي الله عنه -: دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر - رضي الله عنه - فترل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(١). عُدِّي اتخذ إلى مفعوليه، وهما: ﴿عَدُوِّي﴾ و﴿أَوْلِيَاءَ﴾. والعدو: فعول من: عدا؛ كعفو، من: عفا. ولكنه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفيه دليل: على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان ﴿تُلْقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. والتقدير: لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. أو مستأنف بعد وقف، على التوبيخ. والإلقاء: عبارة عن إيصال المودة، والإفضاء بها إليهم. والباء في ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ زائدة، مؤكدة للتعدي؛ كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ثابتة على أن مفعول ﴿تلقون﴾ محذوف. معناه: ﴿تلقون إليهم﴾ أخبار رسول الله ﷺ ﴿بِ﴾ سبب ﴿المودة﴾ التي بينكم، وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ حال من ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أو من ﴿تلقون﴾. أي: لا تتولوهم أو توادونهم؟ وهذه حالهم ﴿بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ دين الإسلام، والقرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم، أو حال من الذين ﴿كفروا﴾ ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ تعليل لـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾ أي: يخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. أي: لا تتولوا أعدائي ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨١ - ٢٨٣). قال الحافظ: وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين. (حاشية الكشف ٥١١/٤).

جَهَنَدًا فِي سَبِيلِي وَأَبْنَعَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَبْسُطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسُّوءَ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ

أوليائي. وقول (١) النحويين في مثله: هو شرط، جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿جَهَنَدًا فِي سَبِيلِي﴾ مصدر في موضع الحال؛ أي: ﴿إِنْ كُتِمَ خَرَجْتُمْ﴾ مجاهدين في سبيلي ﴿وَأَبْنَعَاءَ مَرْضَاتِي﴾ ومبتغين مرضاتي ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: تفضون إليهم بمودتكم سرّاً. أو: ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ﴾ أسرار رسول الله ﷺ ﴿ب﴾ سبب ﴿المودة﴾ وهو استئناف ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. والمعنى: أيّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم: أنّ الإخفاء، والإعلان سيان في علمي، وأنا مطلع رسولي علي ما تسرون؟ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ﴾ أي: هذا الإسرار ﴿وَمِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

٢ - ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ﴾ إِنْ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ﴾ خالصي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسُّوءَ بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا لو ترتدون عن دينكم. فإذا موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم. والماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة. كأنه قيل: وودوا قبل كلّ شيء كفركم وارتدادكم. يعني: أنّهم يريدون أن يلحقوا بكم مضارّ الدنيا والدين، من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض. وردّكم كفاراً، أو: ردكم كفاراً أسبق المضارّ عندهم، وأولها؛ لعلمهم: أنّ الدين أعزّ عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذّالون لها دونه. والعدو أهمّ شيء عنده أن يقصد أهمّ شيء عند صاحبه.

٣ - ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم، وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِئِهِ...﴾ الآية [عبس: ٣٤]. فما لكم

وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

ترفضون حق الله مراعاةً لحق من يفر منكم غداً؟ ﴿يُفْصِّلُ﴾ عاصم ﴿يُفْصِّلُ﴾ حمزة، وعلي. والفاعل هو الله عز وجل ﴿يُفْصِّلُ﴾ ابن ذكوان. غيرهم: ﴿يُفْصِّلُ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٤- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوة في التبري من الأهل ﴿حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في أقواله. ولهذا استثنى منه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين. وقيل: كانوا أنبياء ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ جمع: برىء، كظريف، وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ﴾ بالأفعال، ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ فيحتمل نترك عداوتكم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. وذلك لـ ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: اقتدوا به في أقواله، ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من هداية، ومغفرة، وتوفيق. وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الفتح: ١١] ولكن المراد: استثناء جملة قوله لأبيه. والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له. كأنه قال: استغفر لك، ومافي طاقتي إلا الاستغفار ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متصل بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. وقيل: معناه: قولوا ﴿رَبَّنَا﴾ فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا﴾ أقبلنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنوننا بعذاب ﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الحاكم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْغَفِيُّ الْخَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن
 تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي
 الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

٦ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ثُمَّ كَرَّرَ الْحَثَّ عَلَى
 الْإِتْسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَقَوْمِهِ تَقْرِيراً وَتَأْكِيداً عَلَيْهِمْ. وَلِذَا جَاءَ بِهِ
 مُصَدِّراً بِالْقَسَمِ؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ فِي التَّأْكِيدِ، وَأَبْدَلَ عَنْ قَوْلِهِ ﴿لَكُمْ﴾ قَوْلَهُ ﴿لِمَن كَانَ
 يَرْجُو اللَّهَ﴾ أَي: ثَوَابُهُ أَوْ: يَخْشَى اللَّهَ، وَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يَعْرِضُ عَنْ
 أَمْرِنَا، وَوَالِي الْكُفَّارِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ﴾ عَنِ الْخَلْقِ ﴿الْخَمِيدُ﴾ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ.
 فَلَمْ يَتْرِكْ نَوْعاً مِنَ التَّأْكِيدِ إِلَّا جَاءَ بِهِ.

٧ - وَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، وَتَشَدَّدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي عَدَاوَةِ آبَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ،
 وَجَمِيعِ أَقْرَبَائِهِمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، أَطْمَعَهُمْ فِي تَحَوُّلِ الْحَالِ إِلَى خِلَافِهِ فَقَالَ:
 ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أَي: مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَقْرَبَائِكُمْ
 ﴿مَّوَدَّةً﴾ بَأَن يَوْفِقَهُمْ لِلْإِيمَانِ. فَلَمَّا يَسَّرَ فَتْحَ مَكَّةَ أَظْفَرَ اللَّهَ بِأَمْنِيَّتِهِمْ، فَأَسْلَمَ
 قَوْمُهُمْ، وَتَمَّ بَيْنَهُمُ التَّحَابُ. وَ﴿عَسَى﴾ وَعَدَ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَادَاتِ الْمُلُوكِ، حَيْثُ
 يَقُولُونَ فِي بَعْضِ الْحَوَائِجِ: عَسَى، أَوْ: لَعَلَّ، فَلَا تَبْقَى شَبَهَةٌ لِلْمَحْتَاجِ فِي تَمَامِ
 ذَلِكَ، أَوْ: أُرِيدُ بِهِ إِطْمَاعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ عَلَى تَقْلِيلِ الْقُلُوبِ، وَتَحْوِيلِ
 الْأَحْوَالِ، وَتَسْهِيلِ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَن أَسْلَمَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ.

٨ - ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾
 تَكْرِمُوهُمْ، وَتَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَفِعْلًا. وَحَلَّ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ جَزَّ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ
 ﴿الَّذِينَ لَمْ يَقَاتِلُوكُمْ﴾. وَهُوَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ. وَالتَّقْدِيرُ: ﴿عَنِ﴾ بَرَّ ﴿الَّذِينَ﴾
 ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وَتَقْضُوا إِلَيْهِمْ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَظْلَمُوهُمْ. وَإِذَا نَهَى عَنِ الظُّلْمِ فِي
 حَقِّ الْمَشْرِكِ فَكَيْفَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِ؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

٩ - ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
 مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ
 حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاثَيْتُمُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿٩﴾ هو بدل من ﴿الذين قاتلوكم﴾. والمعنى: لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء. وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث وضعوا التولي غير موضعه.

١٠ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ سمأهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ نصب على الحال ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابتلوهن بالنظر في الأمارت، ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن. وعن ابن عباس: امتحانها: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم، فإنكم وإن رزتم أحوالهن لا تعلمون ذلك حقيقة، وعند الله حقيقة العلم به ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم، وهو الظنّ الغالب بظهور الأمارات، وتسمية الظنّ علماً يؤذن بأنّ الظنّ الغالب، وما يقضي إليه القياس جار مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا تردوهن إلى أزواجهنّ المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا حلّ بين المؤمنة والمشرک لوقوع الفرقه بينهما بخروجها مسلمة ﴿وَأَثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور. ونزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردّ على أهل مكّة من جاء مؤمناً منهم. فأنزل الله هذه الآية بياناً؛ إنّ ذلك في الرجال، لا في النساء؛ لأنّ المسلمة لا تحلّ للكافر. وقيل: نسخت هذه الآية الحكم الأوّل ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ ثمّ نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات ﴿إِذَا ءَاثَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ؛ لأنّ المهر أجر البضع. وبه احتج أبو حنيفة - رحمه الله - على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بصريّ ﴿بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾. العصمة: ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر: جمع كافرة. وهي التي بقيت

وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ كُفَّارٌ دَرَكُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ

في دار الحرب، أو لحقت بدار الحرب مرتدة. أي: لا يكن بينكم وبينهن عصمة، ولا علاقة زوجية. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعتدَّ بها من نسائه؛ لأنَّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهر أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلَسْتُمْ لَهُمْ كُفَّارٌ﴾ من مهر نساءهم المهاجرات ممن تزوجها منا ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أي: جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أو: حال من حكم الله على حذف الضمير. أي: يحكمه الله. أو: جعل الحكم حاكماً على المبالغة. وهو منسوخ، فلم يبق سؤال المهر؛ لا متاً؛ ولا منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ - ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وإن انفلت أحدٌ منهن إلى الكفار - وهو في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (أحد) - ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم - عن الزجاج - ﴿فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم، ولحقن بدار الحرب مهر أزواجهم من هذه الغنيمة ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخ أيضاً.

١٢ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هو حال ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد: وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأنَّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين

وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوْا مِنْ الْآخِرَةِ

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عمّا مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيق ما سلف، ﴿رَحِيمٌ﴾ بتوفيق ما اتتف. وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكّة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه يبایعهنّ عنه بأمره، ويبلغهنّ عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة. فقال ﷺ: «أبايعكنّ على ألا تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً. فقال ﷺ: «ولا يسرقن» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني أصبت من ماله هناتٍ. فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها فقال لها: «إنك لهند» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك! فقال: «ولا يزينن» فقالت: أو تزني الحرّة؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهن» فقالت: ريبناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر - فضحك عمر - رضي الله عنه - حتّى استلقى، وتبسّم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين بيهتان» فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال: «ولا يعصينك في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء - وهو يشير: إلى أنّ طاعة الولاية لا تجب في المنكر^(١) -.

١٣ - ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم السورة بما بدأ به. قيل: هم المشركون ﴿قَدْ يَيسُوْا مِنْ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها؛ لأنهم ينكرون البعث

(١) رواه أحمد (٣٩/٦ و ٥٠ و ٢٠٦) وأبو داود (٣٥٣٢) والنسائي (٢٤٦/٨).

وانظر القصة في أسد الغابة (٥٦٢/٥) والإصابة (٤٠٩/٤) والطبقات (٢٣٦/٨).

﴿كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾

﴿كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ﴾ أي: كما يسو، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم. أو كما يس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة. أي: هؤلاء كسلفهم. وقيل: هم اليهود. أي: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ مغضوباً عليهم ﴿قَدْ يَيْسُوا مِنْ﴾ أن يكون لهم حظ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ لعنادهم رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ مِنْ﴾ موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ بيان للكفار؛ أي: ﴿كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ﴾ الذين قُبِرُوا من خير الآخرة؛ لأنهم تَبَتُّوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

١ ، ٢ - ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه. فنزلت آية الجهاد، فتباطأ بعضهم، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. ﴿لم﴾ هي: لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية، كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، وفيم، ومم، وعم، وإلام، وعلام. وإنما حذفت الألف؛ لأنَّ ما، واللام، أو غيرها كشيء واحد.. وكثُر الاستعمال في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً قال:

علام قام يشتمني جرير؟ *

والوقف على زيادة هاء السكت، أو الإسكان. ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف.

٣ - ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قصد في ﴿كبر﴾ التعجب من غير لفظه كقوله:

غَلَّتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنَّ التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره. وأسند إلى ﴿أن تقولوا﴾ ونصب ﴿مقتاً﴾ على التمييز. وفيه دلالة: على أنَّ قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه. والمعنى: ﴿كبر﴾ قولكم مالا تفعلون مقتاً عند الله. واختير لفظ المقت؛ لأنه أشدَّ البغض. وعن بعض السلف: أنه قيل له: حدثنا. فقال: أتأمروني أن أقول مالا أفعل، فأستعجل مقت الله؟!

٤ - ثُمَّ أَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَحِبُّهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: صاقين أنفسهم، مصدر وقع موقع الحال ﴿كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض. وقيل: أريد به: استواء نياتهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رصَّ بعضه إلى بعض. وهو حال أيضاً.

٥ - ﴿وَإِذْ﴾ منصوب باذكر ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ لِمَ تُوذُونَنِي﴾ بجحود الآيات، والقذف بما ليس في ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضع الحال؛ أي: ﴿لم تؤذوني﴾ عالين علماً يقيناً ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضية علمكم بذلك توقيري، وتعظيمي، لا أن تؤذوني ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ من الهداية. أو: لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم. أو: فلما اختاروا الزيف ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: خذلهم وحرهم توفيق اتباع الحق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي من سبق في علمه: أنه فاسق.

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَتَمُّهُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَتِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَتَمُّهُ ﴿٦﴾ أي: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي. يعني: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر. ﴿بَعْدِي﴾ حجازي، وأبو عمرو، وأبو بكر، وهو اختيار الخليل وسيبويه. وانتصب ﴿مصدقاً﴾ ومبشراً ﴿٦﴾ بما في الرسول من معنى الإرسال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ عيسى، أو محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. (ساحر) حمزة، وعليّ.

٧ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وأي الناس أشد ظلماً ممن يدعو ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾، والسحر: كذب، وتمويه.

٨ - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ هذا تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾. مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه. والمفعول محذوف، واللام للتعليل. والتقدير: ﴿يُرِيدُونَ﴾ الكذب ﴿ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بكلامهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مكّي، وحمزة، وعليّ، وحفص. ﴿مُتَمُّ نُورِهِ﴾ غيرهم. أي: متم الحق، ومُبْلَغُهُ غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل! فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مهوّرٌ بدين الإسلام. وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَتِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ تَنْجِيكُمْ: شامي.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَاتٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

١١- ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تؤمنون﴾ وهو بمعنى: آمنوا عند سيوييه. ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾. ويدل عليه قراءة ابن مسعود: (آمنوا بالله ورسوله واجاهدوا). وإنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم كان خيراً لكم حيثئذ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك، واعتقدتموه أحببتم الإيمان، والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

١٢- ﴿يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَاتٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وخلود. يقال: عدن بالمكان إذ أقام به. كذا قيل ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣- ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم. ثم فسرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل. وهو فتح مكة، والنصر على قریش. أو: فتح فارس، والروم. وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل. وقال صاحب الكشف: «معناه: هل أدلكم على تجارة تنجيكم» ﴿و﴾ على تجارة ﴿أُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾. ثم قال: ﴿نَصْرٌ﴾ أي: هي ﴿نَصْرٌ﴾ ﴿وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تؤمنون﴾ لأنه في معنى الأمر. كأنه قيل: آمنوا، واجاهدوا يشبكم الله، وينصركم، ﴿وبشیر﴾ يا رسول الله ﴿المؤمنين﴾ بذلك. وقيل: هو عطف على «قل» مراداً قيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾.

١٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي: ﴿أنصار﴾ دينه ﴿أنصاراً لله﴾ حجازي، وأبو عمرو ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ظاهره تشبيه

قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

كونهم أنصاراً بقول عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ولكنه محمول على المعنى: أي: ﴿كونوا أنصار الله كما﴾ كان الخواريون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ومعناه: ﴿من﴾ من جندي متوجّهاً ﴿إلى﴾ نصره ﴿الله﴾ ليطابق جواب الخواريين، وهو قوله: ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن الذين ينصرون الله. ومعنى: ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي، ويكونون معي في نصره الله. و﴿الخواريون﴾: أصفاؤه. وهم أول من آمن به. وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل: صفيته، وخالسته. من: الحور، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يحوِّرون الثياب. أي: يبيّضونها ﴿فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ به ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ فقومنا مؤمنهم على كفّارهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فغلبوا عليهم.

* * *

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

١ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقه. يعني: إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الأشباه. أو تسبيح معرفة: بأن يجعل الله بلفظه في كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أو تسبيح ضرورة: بأن يجري الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ أرسل ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: بعث رجلاً أمياً في قوم أميين. وقيل: ﴿منهم﴾ كقوله: ﴿مَنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يعلمون نسبه وأحواله. والأُمِّيُّ: منسوب إلى أمة العرب؛ لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم. وقيل: بدئت الكتابة بالطائف، وهم أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السَّنة، أو الفقه في الدين ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل محمد ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كفر وجهالة ﴿وَإِنْ﴾ خففة من الثقلية، واللام دليل عليها. أي: كانوا في ضلال، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

٣ - ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ مجرور معطوف على ﴿الْأَمْتِينَ﴾ يعني: أنه بعثه ﴿في﴾ الْأَمْتِينَ الذين على عهده ﴿و﴾ في ﴿آخِرِينَ﴾ من الْأَمْتِينَ ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم. وهم الذين بعد الصحابة - رضي الله عنهم - أو: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين. وقيل: هم العجم. أو منصوب معطوف على المنصوب في ﴿وَيَعْلَمُهُمْ﴾ أي: يعلمهم ﴿و﴾ يعلم ﴿آخِرِينَ﴾؛ لَأَنَّ التَّعْلِيمَ إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أميناً من ذلك الأمر العظيم، وتأيدته عليه، واختياره إياه من بين كافة البشر.

٤ - ﴿ذَلِكَ﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً، وهو: أن يكون نبيّ أبناء عصره، ونبيّ أبناء العصور الغواير، هو ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ إعطاءه، وتقتضيه حكمته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٥ - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ كلفوا علمها، والعمل بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ جمع: سفر، وهو: الكتاب الكبير. و﴿يَحْمِلُ﴾ في محلّ النصب على الحال، أو الجزر على الوصف؛ لَأَنَّ الْحِمَارَ كاللثيم في قوله:

ولقد أمر على اللثيم يسبني^(١)

شبه اليهود في أنهم حمله التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها، ثم لم يعملوا

(١) صدر بيت، وعجزه: فأعِفْ ثم أقول لا يعنيني.

يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ قُلْ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ
الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بها، ولم ينتفعوا بآياتها - وذلك: أن فيها نعت رسول الله ﷺ، والبشارة به، ولم
يؤمنوا به - بالحمار حُمْلَ كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري
منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من الكد والتعب. وكلّ من علم ولم يعمل بعلمه
فهذا مثله ﴿يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ﴿ببس﴾ مثلاً ﴿مثل القوم
الذين كذبوا بآيات الله﴾. أو: ﴿بس مثل القوم﴾ المكذبين مثلهم. وهم
اليهود؛ الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحّة نبوة محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وقت اختيارهم الظلم. أو: ﴿لا يهدي﴾ من سبق في
علمه: أنه يكون ظالماً.

٦، ٧ - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ هاد، يهود: إذا تهوّد ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ
وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨] أي: إن كان قولكم حقاً، وكنتم على ثقة فتمنّوا على
الله أن يميّتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه. ثم قال:
﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا من الكفر. ولا فرق بين
«لا» و«لن» في أن كلّ واحدةٍ منهما نفى للمستقبل، إلا أن في «لن» تأكيداً
وتشديداً ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] ومرّة
بغير لفظه ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم.

٨ - ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن
تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محالة. والجملة خبر ﴿إِنْ﴾ ودخلت
الفاء لتضمّن ﴿الذي﴾ معنى الشرط ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي
الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا
تُجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا

٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ النداء: الأذان.
﴿من﴾ بيان لإذا، وتفسير له، ويوم الجمعة: سيد الأيام. وفي الحديث: «من
مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر»^(١) ﴿فَاسْعَوْا﴾
فامضوا. وقرئ بها. وقال الفراء: السعي، والمضي، والذهاب، واحد.
وليس المراد به: السرعة في المشي ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إلى الخطبة عند الجمهور.
وبه استدلل أبو حنيفة - رحمه الله - على أن الخطيب إذا اقتصر على «الحمد لله»
جاز ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا،
وإنما خص البيع من بينها؛ لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند
الزوال. ف قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر
الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الذي نفعه يسير ﴿ذَٰلِكُمْ﴾
أي: السعي إلى ذكر الله ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من البيع والشراء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ - ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: أذيت ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ - أمر بإباحة -
﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الرزق، أو: طلب العلم، أو: عيادة المريض، أو: زيارة
أخ في الله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا﴾ واشكروه على ما وفقكم لأداء فرضه ﴿لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾.

١١ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ تفرقوا عنك إليها. وتقديره:
﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ انفضوا إليها ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ انفضوا إليه، فحذف أحدهما للدلالة
المذكور عليه، وإنما خص التجارة؛ لأنها كانت أهم عندهم.

روي: أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء، فقدم دحية بن خليفة بتجارة

وَتَرْكُوكَ قَائِمًا قُلَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿١١﴾

من زيت الشام، والنبِيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، فما بقي معه إلا ثمانية، أو اثنا عشر. فقال ﷺ: «والذي نفس محمد! بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»^(١). وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، فهو المراد باللّهُو ﴿وَتَرْكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَائِمًا﴾ تخطب. وفيه دليل: على أنّ الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ﴿قُلَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ أي: لا يفوتهم رزق الله بترك البيع، فهو خير الرازقين.

* * *

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٨٦).

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَافَرُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

١ - ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أرادوا شهادة واطأت
قلوبهم فيها ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي: ﴿والله يعلم﴾ إن الأمر كما
يدل عليه قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في
ادعاء المواطأة. أو: إنهم ﴿لكاذبون﴾ فيه؛ لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن
شهادة في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو: إنهم ﴿لكاذبون﴾ عند
أنفسهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون: أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كذب، وخبر
على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

٢ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية من السبي والقتل. وفيه دليل: على أن:
«أشهد» يمين ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الإسلام بالتفجير، وإلقاء
الشبه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم، وصدّهم الناس عن سبيل الله. وفي
﴿سَاءَ﴾ معنى التعجب؛ الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

٣ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: ﴿ذلك﴾
القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا﴾. أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستعجان بالآيمان.

فَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ

أي: ذلك كله ﴿٣﴾ سبب ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثم كفروا﴾ ثم ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير، ونحو ذلك. أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ الآية [البقرة: ١٤] ﴿فَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبرون، أو لا يعرفون صحة الإيمان.

٤ - والخطاب في ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله، أو: لكل من يخاطب ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابن أبي رجلاً جسيماً، صيحاً، فصيحاً، وقوم من المنافقين في مثل صفته. فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن. فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وموضع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ﴾ رفع على هم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ﴾ أو هو كلام مستأنف لا محل له ﴿مُسْنَدٌ﴾ إلى الحائط. شبّهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسند إلى الحائط؛ لأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف، أو جدار، أو غيرهما من مظانّ الانتفاع، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط. فشبّهوا به في عدم الانتفاع. أو: لأنّهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿خُشْبٌ﴾ أبو عمرو، غير عباس وعليّ، جمع: خشبة؛ كبذنة، وبدن. و﴿خُشْبٌ﴾ كثمرة، وثمر ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿كُلَّ صَيِّحَةٍ﴾ مفعول أول. والمفعول الثاني: ﴿عليهم﴾. وتم الكلام. أي: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ﴾ واقعة ﴿عليهم﴾ وضارة لهم لجنهم ورعبهم. يعني: إذا نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة؛ ظنوه إيقاعاً بهم. ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة؛ لأنّ أعدى الأعداء العدو المداجي؛ الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء

فَاحْذَرُهُمْ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفِّكُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢﴾

الدويي ﴿فَاحْذَرُهُمْ﴾ ولا تغتر بظواهرهم ﴿فَتَلَّهُمْ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم. أو: تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّى يُؤَفِّكُونَ﴾ كيف يعدلون عن الحق، تعجباً من جهلهم، وضلالتهم.

٥ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها، وأمالوها إعرافاً عن ذلك واستكباراً ﴿لَوَّأْ﴾ بالتخفيف نافع ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار والاستغفار.

روي: أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع - وهو ماء لهم - وهزمهم، وقتلهم، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر، وسانان الجهني حليف لابن أبي، واقتتلا. فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسانان: يا لأنصار! فأعان جهجاهاً جعاً من فقراء المهاجرين، ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعاً: وأنت هناك! وقال: ما صاحبنا محمداً إلا لئلطم! والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك! أما والله! ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ عني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ. ثم قال لقومه: والله لو أمسكتهم عن جعاً وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم - وهو حدث - فقال: أنت والله الذليل، القليل، المبعض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن، وقوة من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت! فإنما كنت ألعب. فأخبر زيد رسول الله ﷺ. فقال عمر - رضي الله عنه -: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله! فقال: «إذن تُرْعِدُ أَنْفُ كَثِيرَةٍ بِيَثْرٍ» قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً. قال: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟» وقال ﷺ لعبد الله: «أنت صاحب الكلام الذي بلغني». قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا لكاذب. فهو قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فقال الحاضرون: «يا رسول الله! شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. فلما نزلت قال

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

رسول الله ﷺ لزيد: «يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين» فلما بان كذب عبد الله؛ قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلولى رأسه فنزل: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات^(١).

٦ - ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنهم لا يلتفتون إليه، ولا يعتدون به؛ لكفرهم. أو: لأن الله لا يغفر لهم. وقرئ ﴿استغفرت﴾ على حذف حرف الاستفهام؛ لأن ﴿أم﴾ المعادلة تدل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

٧ - ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يتفرقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله الأرزاق والقسم، فهو رازقهم منها؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك، فيهدون بما يزيّن لهم الشيطان.

٨ - ﴿يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين. وهم الأخصاء بذلك، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألسنت على الإسلام وهو العز الذي لا ذلّ معه والغنى الذي لا فقر معه؟ وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨٧) وأصل القصة في الصحيحين.

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا
 مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ
 فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

أَنْ فَيَكُ تِيهًا. قَالَ: لَيْسَ بَتِيهَ، وَلَكِنَّهُ عَزَّة. وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلکم ﴿ءَمْوَالُكُمْ﴾ والتصرف فيها،
 والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب التناج ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ وسروركم بهم
 وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس،
 أو: عن القرآن ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين. وقيل: من
 يشتغل بتثمين أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده،
 ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعوا الباقي بالفاني.

١٠ - ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتبعض. والمراد بالإنفاق: الواجب
 ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ يرى دلائل الموت، ويعاين
 ما يبأس معه من الإمهال، ويتعذر عليه الإنفاق ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هلا
 أخرت موتي ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ - وهو
 جواب ﴿لَوْلَا﴾ - ﴿وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين. والآية في المؤمنين. وقيل: في
 المنافقين. (وأكون) أبو عمرو بالنصب عطفًا على اللفظ. والجزم على موضع
 ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن.

١١ - ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المكتوب في اللوح
 المحفوظ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(١) حماد، ويحيى - والمعنى: أنكم إذا علمتم:
 أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه، وأنه هاجم لا محالة، وأن الله عليم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿يعلمون﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

.....

بأعمالكم فمجازٍ عليها من منع واجب وغيره، لم يبق إلا المسارعة إلى الخروج
عن عهدة الواجبات، والاستعداد للقاء الله.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

١ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 قدّم الطرفان ليدلّ بتقديمها على اختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنّه مبدىء كلّ شيء، والقائم به. وكذا الحمد؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأمّا ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يده.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر، وفاعل له، ومنكم آتٍ بالإيمان، وفاعل له. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: ﴿هو الذي﴾ تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم. وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين. فما بالكم تفرقتم أمماً ﴿فمنكم الكافر ومنكم مؤمن﴾؟ وقدّم الكفر لأنّه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وهو ردّ لقول من يقول بالمتزلة بين المنزلتين. وقيل: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر﴾ بالخلق وهم الدهرية ﴿ومنكم مؤمن﴾ به.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

٣ - ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة البالغة. وهو أن جعلها مقامَ المكلفين، ليعملوا فيجازيهم ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أي: جعلكم أحسن الحيوان كله، وأباهاء بدليل: أَنَّ الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته: أَنَّهُ خلق منتصباً غير منكبٍ. ومن كان دميماً، مشوه الصورة، سمج الخلقة، فلا سماجة ثم، ولكن الحسن على طبقات. فلانحطاطها عما فوقها لا تستملح، ولكنها غير خارجة عن حد الحسن. وقالت الحكماء: شيثان لا غاية لهما: الجمال، والبيان ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ فأحسنوا سرائركم، كما أحسن صوركم.

٤ - ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ نبه بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يُسرُّه العباد ويعلنونه، ثم بعلمه بذات الصدور؛ أَنَّ شيئاً من الكليات، والجزئيات غير خافٍ عليه. فحقه أن يُتَّقَى ويحذر، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد. وكل ما ذكره بعد قوله: ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق، ولا تشكر نعمته.

٥ - ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ الخطاب لكفار مكة ﴿ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ ﴾ أي: ذاقوا وبال كفرهم في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في العقبى.

٦ - ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بآن الشأن والحديث ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أنكروا الرسالة للبشر، ولم ينكروا العبادة للحجر ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالرسول ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أطلق ليتناول كل شيء، ومن جملة إيمانهم وطاعتهم ﴿ وَاللَّهُ غَفِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ على صنعه.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾
 فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
 الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ

٧، ٨ - ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة، والزعم: ادعاء العلم. ويتعدى
 تعدى العلم ﴿أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾: ﴿أَنْ﴾ مع ما في حيزه قائم مقام المفعولين.
 وتقديره: أنهم ﴿لَنْ يُبْعَثُوا﴾ ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد ﴿لَنْ﴾ وهو البعث
 ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أكد الإخبار باليمين. فإن قلت: ما معنى اليمين على شيء أنكره؟
 قلت: هو جائز؛ لأن التهديد به أعظم موقعاً في القلب، فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه
 كائنٌ لا محالة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ﴾ أي: البعث ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هين ﴿فَآمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني: القرآن؛ لأنه يبين حقيقة كل
 شيء، فيهتدى به؛ كما بالنور ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فراقبوا أموركم.

٩ - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ انتصب الظرف بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو بإضمار اذكر ﴿يَوْمِ
 الْجَمْعِ﴾ يجمع فيه الأولون، والآخرين ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ هو مستعار من: تغابن
 القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء
 التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا
 ينزلونها لو كانوا أشقياء. كما ورد في الحديث. ومعنى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾
 - وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم -: استعظام له، وأن تغابنه هو التغابن في
 الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ صفة للمصدر؛
 أي: عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ﴾ وبالنون فيهما: مدني، وشامي
 ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠، ١١ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ شدة، ومرض، وموت أهل، أو إلّا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

شيء يقتضي هما ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه، وتقديره، ومشيته. كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] أو بشرحه للازدياد من الطاعة والخير. أو: ﴿يهدي قلبه﴾ حتى يعلم: أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، وإن ظلم غفر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فعلية التبليغ. وقد فعل.

١٣- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بَعَثَ^(١) لرسول الله ﷺ على التوكل عليه حتى ينصره على من كذبه، وتولى عنه.

١٤- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدو، أو للأزواج والأولاد جميعاً. أي: لما علمتم أنَّ هؤلاء لا يخلون من عدو، فكونوا منهم على حذر، ولا تأمنوا غوائلهم، وشرهم ﴿وَإِن تَعَفَّوْا﴾ عنهم إذا اطلعتهم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿وَتَصَفَّحُوا﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بستر ذنوبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ويكفر عنكم. قيل: إنَّ ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فنبطهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا. فلما هاجروا بعد ذلك، ورأوا الذين سبقوهم قد فقها في الدين،

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فزَيْنَ لهم العفو.

١٥ - ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاءٌ، ومحنةٌ؛ لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم. ولم يدخل فيه ﴿مِنْ﴾ كما في العداوة؛ لأن الكل لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب، وقد يخلو بعضهم عن العداوة.

١٦ - ﴿فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ جهدكم ووسعكم. قيل: هو تفسير لقوله: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما تؤمرون به، وتنهون عنه ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وقال الكسائي: يكن الإنفاق ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾. والأصح: أن تقديره اتوا ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ وافعلوا ما هو خير لها. وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان؛ لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات، وزخارف الدنيا ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ﴾ أي: البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾.

١٧ - ﴿إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنية وإخلاص. وذكر القرض تلطّف في الاستدعاء ﴿يُضْعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً، أو سبعة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل، ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقبل الجليل من ذنب البخيل. أو يُضْعَفُ الصدقة لدافعها، ولا يعجل العقوبة لمانعها.

١٨ - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ أي: يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

أي: ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿الْعَزِيزُ﴾ المعز بإظهار السُّيُوب^(١) ﴿الْحَكِيمُ﴾ في الإخبار عن الغيوب.

* * *

(١) «السيوب»: جمع السَّيْب، وهو العطاء والمال والمعروف.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خُصَّ النَّبِيُّ ﷺ بالنداء، وعُمِّ بالخطاب؛ لأنَّ النَّبِيَّ إمام أُمَّته وقُدوتهم. كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا؛ إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه، وأنه قدوة قومه. فكان هو وحده في حكم كلهم، وساداً مسدّاً جميعهم. وقيل: التقدير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ والمؤمنون. ومعنى: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إذا أردتم تطليقهنَّ. على تنزيل المَقْبَل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه. كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(١). ومنه: كان الماشي إلى الصلاة، والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فطلقوهن مستقبلات ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وفي قراءة رسول الله ﷺ (في قبل عدتهن). وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرانها فقد طلقت مستقبلة لعدتها. والمراد: أن تطلق المدخول بهنَّ من المعتدات بالحيض في طهر لم يجامعن فيه، ثم يُخْلَيْنَ حَتَّى تَنْقُضِيَ عَدَّتَهُنَّ. وهذا أحسن الطلاق ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها بالحفظ، وأكملوها ثلاثة أقرء مستقبلاتٍ كوامل، لا نقصان فيهنَّ. وخوطب

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٤ و ١٩٠ و ٢٧٩) والبخاري (٣٠٥١) ومسلم (١٨٠٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
اللَّهُ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ

الأزواج لغفلة النساء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضي عدتهن
﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج.
وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى. وفيه دليل على أن السكنى
واجب، وأن الحث بدخول دار يسكنها فلان بغير ملك ثابت فيما إذا حلف:
لا يدخل داره. ومعنى الإخراج: ألا يخرجهن البعولة غضباً عليهن، وكراهة
لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن
ذلك، إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهن إن
أردن ذلك ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنى. أي: إلا أن يزنين،
فيخرجن لإقامة الحد عليهن. وقيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه
﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا
تَدْرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها
إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم
عليه، فراجعها. والمعنى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ و
﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ لعلكم تندمون فترجعون.

٢، ٣ - ﴿فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن آخر العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة، والإمساك بالمعروف،
والإحسان. وإن شئتم فترك الرجعة، والمفارقة، واتقاء الضرر، وهو: أن
يراجعها في آخر عدتها، ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها، وتعذيباً لها
﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه؛ لثلا
يقع بينهما التجاحد ﴿ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ لوجهه
خالصاً. وذلك: أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرض
من الأغراض سوى إقامة الحق، ودفع الظلم ﴿ذَلِكَ﴾ الحث على إقامة

يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ

الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إنما ينتفع به هؤلاء ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة. والمعنى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فطلق للسنة، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط، فأشهد ﴿يَجْعَلُ﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجًا﴾ مما في شأن الأزواج من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرج عنه، ويعطه الخلاص ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذَلِكَ يُوَعِظُ بِهِ﴾. أي: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وخلصاً من غموم الدنيا والآخرة. وعن النبي ﷺ: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»^(١) وقال ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ...﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها»^(٢).

وروي: أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له فأتى رسول الله ﷺ فقال: أُسِّرَ ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: «ما أمسى عند آل محمد إلا مد». فاتق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فعاد إلى بيته، وقال لامرأته: إن رسول الله أمرني وإياك أن نستكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت: نعم ما أمرنا به، فجعلا يقولان ذلك، فبينما هو في بيته؛ إذ قرع ابنه الباب ومعه مئة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها. فنزلت هذه الآية^(٣) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كفيه في الدارين ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ حفص. أي: منفذ أمره. غيره: ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾. أي: يبلغ ما يريد، ولا يفوته مراد،

(١) رواه الثعلبي والواحدي. (حاشية الكشف ٥٥٦/٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠).

(٣) رواه الثعلبي، والبيهقي نحوه. (حاشية الكشف ٥٥٦/٤).

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَاللَّهُ يَتَّقِ اللَّهُ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَتَسْكُنُونَهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ

ولا يعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرًا وتوقيتًا. وهذا بيان لوجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره، وتوقيته؛ لم يبق إلا التسليم للقدر، والتوكل.

٤ - ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ روي: أن ناساً قالوا: قد عرفنا عدة ذوات الأقرء؛ فما عدة اللائي لم يحضن؟ فنزلت ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ أشكل عليكم حكمهن، وجهلتم كيف يعتدّن ﴿فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: فهذا حكمهن. وقيل: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ في دم البالغات مبلغ اليأس - وقد قدره بستان سنة، وبخمس وخمسين - أهو دم حيض أو استحاضة؟ ﴿فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾. وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ هن الصغائر. وتقديره: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ فعدتهن ثلاثة أشهر. فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. والنص يتناول المطلقات، والمتوفى عنهن أزواجهن. وعن علي، وابن عباس - رضي الله عنهم -: عدة الحامل المتوفى عنها [زوجها] ^(١) أبعد الأجلين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يسر له من أمره، ويحلل من عقده بسبب التقوى.

٥ - ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ من اللوح المحفوظ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾.

٦ - ثم بين التقوى في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾؛ كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ ف قيل: ﴿أَسْكُنُونَهُنَّ﴾ وكذا وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾.

(١) ليست في الأصل المخطوط.

مِنْ وَجَدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ

هي ﴿من﴾ التبعية، مبعضا محذوف. أي: ﴿أسكنوهن﴾ مكانا ﴿من حيث سكنتم﴾ أي: بعض مكان سكناكم ﴿مِنْ وَجَدِكُمْ﴾ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له. كأنه قيل: ﴿أسكنوهن﴾ مكانا من مسكنكم مما تطيقونه. والوجد: الوسع والطاقة. وقرئ بالحركات الثلاث. والمشهور الضم.

والنفقة والسكنى واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك، والشافعي - رحمهما الله -: لا نفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس: أن زوجها أبت طلاقها. فقال رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»^(١). وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وستة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها. سمعت النبي ﷺ يقول: «لها السكنى والنفقة»^(٢) ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ ولا تستعملوا معهن الضرر ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن، أو يشغل مكانهن، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج ﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَئِكَ حَمَلَ﴾ ذوات أحمال ﴿فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وفائدة اشتراط الحمل: أن مدة الحمل ربما تطول، فيظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل. فنفي ذلك الوهم ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولدا من غيرهن، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فحكمهن في ذلك حكم الأظار. ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهن مالم يبين، خلافا للشافعي - رحمه الله - ﴿وَأَنْتُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ بما يليق بالستة، ويحسن في المروءة. فلا يماكس الأب، ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ﴾ تضايقتن فلم ترض الأم بما ترضع به الأجنبية، ولم يزد الأب على ذلك

(١) رواه الترمذي (١١٨٠) وابن ماجه (٢٠٣٦).

(٢) رواه أحمد (٤١٢/٦) ومسلم (٤٤/١٤٨٠) وأبو داود (٢٢٨٨).

فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا
 ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَنَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
 عَنَتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا
 وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ

﴿فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ فستوجد ولا تُعوز مرضعة غير الأم ترضعه. وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاصرة. وقوله: ﴿له﴾ أي: للأب. أي: سيجد الأب غير معاصرة ترضع له ولده إن عاصره أمه.

٧ - ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات. ومعنى: ﴿قدر عليه رزقه﴾ ضيق. أي: رزقه الله على قدر قوته ﴿لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَنَهَا﴾ أعطاه من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق في المعيشة سعة. وهذا وعد لذي العسر باليسر.

٨، ٩ - ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية ﴿عَنَتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ ﴿نُّكَرًا﴾ مدني وأبو بكر: منكرًا عظيمًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً. والمراد: حساب الآخرة، وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقي في الحقيقة. وما هو كائن فكأن قد كان.

١٠، ١١ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد، وبيان لكونه مترقباً. كأنه قال: ﴿أعد الله لهم﴾ هذا العذاب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه. ويجوز أن يراد: إحصاء السيئات، واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظ، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل، وأن يكون ﴿عت﴾ وما عطف عليه صفة للقرية، و﴿أعد الله لهم﴾ جواباً لـ ﴿كأين﴾ ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١١﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٣﴾

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١١﴾ أي: القرآن. وانتصب ﴿رَسُولًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أرسل رسولاً. أو: هو بدل من ﴿ذِكْرًا﴾ كأنه في نفسه ذكر. أو على تقدير حذف المضاف أي: ﴿قد أنزل الله إليكم﴾ ذا ذكر ﴿رَسُولًا﴾، وأريد بالذكر: الشرف. لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذا شرف ومجد عند الله؛ وبالرسول: جبريل، أو: محمد - عليهما السلام - ﴿يَتْلُوا﴾ أي: الرسول، أو: الله عز وجل ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح. أو: ليخرج الذين علم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر، أو الجهل إلى نور الإيمان، أو العلم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون مدني وشامي ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. وحّد، وجمع، حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب.

١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أجمع المفسرون على أن السموات سبع ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ قيل: ما في القرآن آية تدلّ على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية. وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمئة عام. وغلظ كلّ سماء كذلك. والأرضون مثل السموات. وقيل: الأرض واحدة. إلا أن الأقاليم سبعة ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن ﴿لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام يتعلق بـ ﴿خلق﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هو تمييز. أو: مصدر من غير لفظ الأول. أي: قد علم كلّ شيء علماً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي: أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة - رضي الله عنها - وعلمت بذلك حفصة. فقال لها: «اكتمي عليّ»، وقد حرّمت مارية على نفسي، وأبشرك: أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمّتي». فأخبرت به عائشة. وكانتا متصادقتين. وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاهما بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلقها. واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: راجعها فإنّها صوّامة قوامة، وإنّها لمن نساءك في الجنة^(١).

وروي: أنّه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّنا نشمّ منك ريح المغاير. وكان يكره رسول الله ﷺ الثقل، فحرّم العسل^(٢). فمعناه: ﴿لم تحرم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين،

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه. (حاشية الكشف ٥٦٣/٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٧) ومسلم (١٤٧٤).

تَبَنَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ الْتَبَى إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ

أو: من العسل ﴿تَبَنَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير ل: ﴿تَحَرَّمَ﴾، أو: حال، أو: استئناف. وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَحِيمٌ﴾ قد رحمك، فلم يؤخذك به.

٢ - ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدر الله لكم ما تحللون به أيما نكم. وهي: الكفارة. أو: قد شرع لكم تحليلها بالكفارة. أو: شرع الله لكم الاستثناء في أيما نكم. من قولك: حلل فلان في يمينه: إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله عقبيها، حتى لا يحنث. وتحريم الحلال يمين عندنا. وعن مقاتل: أن رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية. وعن الحسن: أنه لم يكفر؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وإنما هو تعليم للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ سيديكم، ومتولي أموركم. وقيل: ﴿مولاكم﴾ أولى بكم من أنفسكم، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أحل وحرم.

٣ - ﴿وَإِذَا أَسَرَ الْتَبَى إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أفشته إلى عائشة - رضي الله عنها - ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلع النبي ﷺ على إفشائها الحديث على لسان جبريل - عليه السلام - ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكزماً. قال سفيان - رحمه الله -: ما زال التغافل من فعل الكرام. ﴿عَرَفَ﴾ بالتخفيف، علي؛ أي: جازى عليه. من قولك للمسيء: لأعرفن لك ذلك. وقيل: المعرف: حديث الإمامة، والمعرض عنه: حديث مارية. وروى أنه قال لها: «ألم أقل لك: اكنمي علي؟ قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي - فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباه»^(١) - ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ﴾ نبأ النبي حفصة بما أفشيت من السر إلى عائشة - رضي

قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ إِنَّ نُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ ۖ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ

الله عنهما - ﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر ﴿الْخَيْرُ﴾ بالضمائر.

٤ - ﴿إِنْ نُوبًا إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما. وجواب الشرط محذوف. والتقدير: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ فهو الواجب. ودلّ على المحذوف: ﴿فَقَدْ صَعَتْ﴾ مالت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حبّ ما يحبّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ بالتخفيف كوفي. وإن تعاونوا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سرّه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ وليّه وناصره. وزيادة ﴿هُوَ﴾ إيذان بأنّه يتولّى ذلك بذاته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليّه ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صلح من المؤمنين. أي: كلّ من آمن وعمل صالحاً. وقيل: من برىء من النفاق. وقيل: الصحابة. وهو واحد أريد به الجمع. كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس. تريد الجنس. وقيل: أصله: صالحو المؤمنين، فحذفت الواو عن الخط موافقة للفظ ﴿وَالْمَلَكِ ۖ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد نصره الله، وجبريل، وصاحبي المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له. فما يبلغ تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه؟ ولما كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصره الله قال: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

٥ - ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ ﴿يُبَدِّلُهُ﴾ مدنيّ وأبو عمرو. فالتشديد للكثرة ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾. فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهنّ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمّهات المؤمنين؟ قلت: إذا طلقهنّ رسول الله ﷺ لا يذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهنّ من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهنّ ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ مقرّات مخلصات.

فَنَنْتَبِهَنَّ عِبْدَتِ سَيِّحَتٍ نَّتَبَّتِ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

﴿فَنَنْتَبِهَنَّ﴾ مطيعات، فالقنوت: هو القيام بطاعة الله. وطاعة الله في طاعة رسوله ﴿نَّتَبَّتِ﴾ من الذنوب، أو راجعات إلى الله، وإلى أمر رسوله ﴿عِبْدَتِ﴾ لله ﴿سَيِّحَتٍ﴾ مهاجرات، أو صائحات. وقيل للصائم: سائح؛ لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه. فشبّه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ﴿نَّتَبَّتِ وَأَنْكَارًا﴾ إنما وسط العاطف بين الشيات والأبكار دون سائر الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

٦- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ نوعاً من النار لا تتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها، وتعذيب أهلها ﴿مَلَائِكَةٌ﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ في أجرامهم غلظة وشدة، أو غلاظ الأقوال، شداد الأفعال ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ في موضع الرفع على النعت ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ في محلّ النصب على البدل. أي: ﴿لا يعصون﴾ ما أمر الله. أي: أمره. كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣]. أو: لا يعصونه فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وليست الجملةتان في معنى واحد. إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدّون ما يؤمرون به، ولا يتناقضون عنه، ولا يتوانون فيه.

٧- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار: ﴿لا تعذروا﴾ لأنه لا عذر لكم، أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

٨- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة، عن الأخفش - رحمه الله - وقيل: خالصة. يقال: غسل ناصح: إذا خلس من الشمع. وقيل: ﴿نصوحاً﴾ من نصيحة الثوب. أي: توبة ترفو خروك في دينك، وترم

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ

خللك. ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس؛ أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور أثرها في صاحبها، واستعماله الجِد والعزيمة في العمل على مقتضياتها. وبضمَّ النون حماد ويحيى. وهو مصدر، أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحاً. وجاء مرفوعاً: «أَنَّ التوبة النصوح: أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبَن في الضرع»^(١). وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الاستغفار باللسان، والندم بالجنان، والإقلاع بالأركان ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى؛ ولعل، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ﴾ بـ ﴿يُدْخِلَكُم﴾ لا يخزي الله النبي والذين ءامنوا معه فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ في موضع الخبر ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين ﴿وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ - ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالقول الغليظ، والوعظ البليغ. وقيل: بإقامة الحدود عليهم ﴿وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة باللسان ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١٠ - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَقْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محابة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما، فلم يغن الرسولان ﴿عنهما﴾ أي: عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من [الزواج] ^(١) إغناء ما من عذاب الله، ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع﴾ سائر ﴿الداخلين﴾ الذين لا وُصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخلها من إخوانكما من قوم نوح، وقوم لوط.

١١- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هي: آسية بنت مزاحم. آمنت بـموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تعذب: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ - فكانها أرادت الدرجة العالية، لأنه تعالى منزّه عن المكان، فعبرت عنها بقولها: ﴿عِنْدَكَ﴾ - ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: من عمل فرعون، أو: من نفس فرعون الخبيثة، وخصوصاً من عمله، وهو الكفر، والظلم، والتعذيب بغير جرم ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من القبط كلهم. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل، من سير الصالحين.

١٢- ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ المخلوقة لنا ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ

(١) في الأصل المخطوط: أزواج.

رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَعَاقِبَتُهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾

رَبِّهَا ﴿١٢﴾ أي: بصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ بصري، وحفص. يعني: الكتب الأربعة ﴿وَعَاقِبَتُهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾. لما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، غلب ذكره على إناثه، و﴿من﴾ للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت ﴿من القانتين﴾ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى - عليهما السلام -.

ومثل حال المؤمنين في أن وُصلة الكافرين لا تضرهم، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله، بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أن قومها كانوا كفاراً.

وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمر المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين، وألا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وتُسمى الواقعة والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر. وجاء مرفوعاً: «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب»^(١).

١ - ﴿تَبَرَّكَ﴾ تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: في تصرفه الملك، والاستيلاء على كل موجود، وهو مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المقدورات، أو: من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على الكمال.

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿الذي﴾ قبله ﴿وَالْحَيَاةَ﴾ أي: ما يصحّ بوجوده الإحساس، والموت: ضده. ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: ﴿خلق﴾ موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعمّ الأمير والأسير، والحياة التي لا تفني بعليل ولا طبيب، فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لوجه الله.

(١) رواه الطبري وابن مردويه موقوفاً من حديث ابن مسعود. (الدر المنثور ٨/٢٣٢).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنذِرْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنذِرْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

والصواب: أن يكون على السّنة. والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل، وسلّط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح. فما وراءه إلّا البعث والجزاء الذي لا بدّ منه. وقدم الموت على الحياة؛ لأنّ أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فقدم لأنّه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهمّ. ولما قدّم الموت الذي هو أثر صفة القهر، على الحياة التي هي أثر اللطف، قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، ﴿الْغَفُورُ﴾ الستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل.

٣ - ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض. من: طابق التعلل: إذا خصفها طبقاً على طبق. وهذا وصف بالمصدر. أو: على ذات طباق. أو: على طوبقت ﴿طَبَاقًا﴾. وقيل: جمع: طبق، كجمل وجمال. والخطاب في: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ للرسول، أو: لكل مخاطب ﴿مِن تَفَوتٍ﴾ من تفوت حمزة، وعلي. ومعنى البناءين واحد، كالتعاهد والتعهد. أي: من اختلاف واضطراب. وعن السدي: من عيب. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأنّ بعض الشيء يفوت بعضاً، ولا يلائمه. وهذه الجملة صفة لـ «طباقاً». وأصلها ﴿ما ترى﴾ فيهنّ ﴿من تفاوت﴾. فوضع ﴿خلق الرحمن﴾ موضع الضمير، تعظيماً لخلقهنّ، وتنبهها على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو: أنه خلق الرحمن، وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿فَأَنذِرْ الْبَصَرَ﴾ رده إلى السماء، حتّى يصحّ عندك ما أُخبرت به بالمعينة، ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ صدوع وشقوق. جمع: فطر، وهو: الشقّ.

٤ - ﴿ثُمَّ أَنذِرْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كرّر النظر مرّتين أي: ﴿كرتين﴾ مع الأولى. وقيل: سوى الأولى. فتكون ثلاث مرات. وقيل: لم يرد به الاقتصار على مرّتين، بل أراد به التكرير بكثرة. أي: كرّر نظرك، ودقّقه؛ هل ترى خللاً أو

يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٢﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ فِيهَا الْقَوْلَ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٣﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ

عبياً. وجواب الأمر ﴿يَنْقَلِبُ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً، أو بعيداً ممّا تريد. وهو حال من البصر ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل مُعْيٍ، ولم تر فيها خللاً.

٥- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبى. أي: ﴿السماء الدنيا﴾ منكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح. والمصابيح: السرج. فسميت بها الكواكب. والناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح. فقيل: ﴿ولقد زينا﴾ سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي: بأيّ مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به. والرجوم: جمع رجم. وهو مصدر سمي به ما يرمج به. ومعنى كونها: ﴿رجوماً للشياطين﴾ أن يفصل عنها شهاب كقبس يؤخذ من نار، فيقتل الجنّي، أو يخبله؛ لا إنّ الكواكب تزول عن أماكنها؛ لأنها قارّة في الفلك على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

٦- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ فِيهَا الْقَوْلَ﴾ المرجع، جهنّم.

٧- ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ طرحوا في جهنّم، كما يطرح الخطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ لجهنّم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً منكراً، كصوت الحمير. شبه حسيستها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وَهِيَ تَفُورٌ﴾ تغلي بهم غليان الرجل بما فيه.

٨- ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ أي: تتميز، يعني: تتقطع، وتتفرق ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ على الكفار. فجعلت كالمغتظة عليهم استعارة لشدة غليانها بهم ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾

سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهُ أَلَمْ يَكُنْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ﴿١٣﴾

جماعة من الكفار ﴿سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهُ﴾ مالك، وأعوانه من الزبانية، توبيخاً لهم: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نَذِيرٌ﴾ رسولٌ يخوفكم من هذا العذاب.

٩ - ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأنه تعالى أراح عللمهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: فكذبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقولون من وعد، ووعد، وغير ذلك، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: قال الكفار للمنذرين: ما أنتم إلا في خطأ عظيم. فالنذير بمعنى الإنذار. ثم وصف به منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً. وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفار على إرادة القول. ومرادهم بالضلال: الهلاك. أو: سموا جزاء الضلال باسمه؛ كما سُمِّيَ جزاء السيئة والاعتداء سيئة واعتداء. ويسمى المشاكلة في علم البيان. أو: كلام الرسل لهم حكوه للخزنة؛ أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

١٠ - ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالب الحق ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نعقله عقل متأمل ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في جملة أهل النار. وفيه دليل: على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

١١ - ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وبضيم الحاء يزيد، وعلي. فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته. اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم. وانتصابه على أنه مصدر وقع موقع الدعاء.

١٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: الجنة.

١٣ - ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار، والإجهار. ومعناه: ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما. روي:

إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

أَنَّ مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل بما قالوا فيه، ونالوا منه. فقالوا فيما بينهم: أسروا قولكم لثلاث يسمع إله محمد، فنزلت. ثم علله بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بضمايرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟

١٤- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع بأنه فاعل يعلم ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أنكر ألا يحيط علماً بالمضمر، والمسر، والمجهر مَنْ خلقها، وصفته أنه: ﴿اللطيف﴾ أي: العالم بدقائق الأشياء ﴿الخبير﴾ العالم بحقائق الأشياء. وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد. وقال أبو بكر بن الأصم، وجعفر بن حرب: ﴿مَنْ﴾ مفعول، والفاعل مضمر، وهو الله تعالى. فاحتالاً بهذا لنفي خلق الأفعال.

١٥- ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ ليتة، سهلة، مذللة لا تمنع المشي فيها ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها استدلالاً، واسترزاقاً، أو: جبالها، أو طرقها ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: من رزق الله فيها ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

١٦- ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: مَنْ ملكوته ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ لأنها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه، وكتبه، وأوامره، ونواهيها، فكأنه قال: ﴿أأمنتم﴾ خالق السماء وملكه. ولأنهم كانوا يعتقدون النسبة، وأنه في السماء، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه. فقليل لهم على حسب اعتقادهم: ﴿أأمنتم من﴾ تزعمون أنه ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهو متعال عن المكان ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرك.

١٧- ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة ﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾ بدل من بدل اشتمال. وكذا ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتم

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾
 وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾
 يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾
 آمَنَ هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ إِنْ أَمْسَكَ
 رَزَقُهُ

المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

١٨- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم؛ إذ أهلكتهم.

١٩- ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْخَسْفِ وَإِرْسَالِ الْخَاصِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَفَّتْ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممن إذا ضربن بها جنوبهن. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى. أي: يصففن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أو: ﴿صَافَاتٍ﴾ وقابضات. واختيار هذا التركيب باعتبار: أَنَّ أَصْلَ الطَّيْرِ هُوَ صَفُّ الْأَجْنَحَةِ؛ لِأَنَّ الطَّيْرَانَ فِي الْهَوَاءِ كَالسَّابِحَةِ فِي الْمَاءِ، وَالْهَوَاءُ لِلطَّائِرِ كَالْمَاءِ لِلْسَّابِحِ. وَالْأَصْلُ فِي السَّابِحَةِ: مَدُّ الْأَطْرَافِ وَبَسْطُهَا. وَأَمَّا الْقَبْضُ فَطَارِيءٌ عَلَى الْبَسْطِ لِلإِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحَرُّكِ. فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِيءٌ بِلَفْظِ الْفِعْلِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُنَّ صَافَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهُنَّ الْقَبْضُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ؛ كَمَا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ عَنِ الْوُقُوعِ عِنْدَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بِقُدْرَتِهِ. وَإِلَّا فَالْثَقِيلُ يَتَسَفَّلُ طَبْعاً وَلَا يَعْلُو. وَكَذَا لَوْ أَمْسَكَ حَفْظُهُ وَتَدْبِيرُهُ عَنِ الْعَالَمِ لَتَهَافَتَتِ الْأَفْلَاكُ. وَ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ مستأنف، وَإِنْ جَعَلَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿يَقْبِضْنَ﴾ يَجُوزُ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يَعْلَمُ كَيْفَ يَخْلُقُ، وَكَيْفَ يَدَبِّرُ الْعَجَائِبَ.

٢٠- ﴿آمَنَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿هَذَا﴾. وَيَبْدُلُ مِنْ ﴿هَذَا﴾ ﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾. وَمَحَلُّ ﴿يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ رَفْعُ نَعْتٍ لـ: ﴿جُنْدٌ﴾ مَحْمُولٌ عَلَى اللَّفْظِ. وَالْمَعْنَى: مِنَ الْمَشَارِإِ إِلَيْهِ بِالنَّصْرِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى؟ ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مَا هُمْ ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾.

٢١- ﴿آمَنَ هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ إِنْ أَمْسَكَ رَزَقُهُ﴾ ﴿أَمْ مِنْ﴾ يشار إليه، وَيُقَالُ: ﴿هَذَا الَّذِي يَزُرُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ اللَّهُ ﴿رَزَقَهُ﴾؟ وَهَذَا عَلَى التَّقْدِيرِ. وَيَجُوزُ أَنْ

بَلْ لَّجُؤًا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

يكون إشارة إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم: أنهم يحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند الناصر والرازق. فلما لم يتعظوا أضرب عنهم فقال: ﴿بَلْ لَّجُؤًا﴾ تبادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ استكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتبعوه.

٢٢- ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي مُعْتَسِفاً وخبر ﴿مَنْ﴾: ﴿أَهْدَىٰ﴾ أرشد - فأكتب مطاوع كبه، يقال: كيبته فأكتب، مطاوع كبه - ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستوياً منتصباً، سالماً من العثور، والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طريق مستو. وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف للدلالة ﴿أَهْدَىٰ﴾ عليه. وعن الكلبي: عُني بالملك: أبو جهل، وبالسوي: النبي ﷺ.

٢٣- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ خلقكم ابتداءً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصّها؛ لأنها آلات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم؛ لأنكم تشكرون بالله، ولا تخلصون له العبادة، والمعنى: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ شكراً قليلاً. و﴿مَا﴾ زائدة. وقيل: القلة عبارة عن العدم.

٢٤- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحساب والجزاء.

٢٥- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين استهزاء: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به؟ يعني: العذاب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في كونه، فأعلمونا زمانه.

٢٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ﴾ أي: علم وقت العذاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ خَوْفٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ أبين لكم الشرائع.

٢٧- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الوعد. يعني: العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم.

سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

وانتصابها على الحال ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد وجوههم، بأن علقتها الكتابة والمساءة، وغشيتها الفترة والسواد ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي﴾ القائلون الزبانية ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء. أي: تسألون تعجيله، وتقولون: ائتنا بما تعدنا. أو: هو من الدعوى، أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون. وقرأ يعقوب ﴿تَدْعُونَ﴾.

٢٨ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ أي: أمتني؛ كقوله: ﴿إِنْ أَمَرُوا هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من الأصحاب ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأخّر في آجالنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ مؤلم؟ كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نهلك؛ كما تتمنون، فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة عليكم؛ كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار؟ لا بد لكم منه.

٢٩ - ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إليه الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ صدّقناه، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فوضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب - وبالياء: علي - ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ نحن أم أنتم.

٣٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض، لا تناله الدلاء. وهو وصف بالمصدر، كعدل بمعنى: عادل ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جارٍ يصل إليه من أراحه. وتليت عند ملحد فقال: يأتي بالمعول والمعين، فذهب ماء عينيه في تلك الليلة وعمي. وقيل: إنه محمد بن زكريّا المتطبّب. زادنا الله بصيرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾

١ - ﴿ت﴾ الظاهر: أَنَّ المراد به هذا الحرف من حروف المعجم. وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت الذي عليه الأرض، واسمه يهموت، فمشكل؛ لأنه لا بدّ له من الإعراب سواء كان اسم جنس، أو اسم علم. فالسكون دليل على أنه من حروف التَّهْجِي ﴿وَالْقَلَمِ﴾ أي: ما كتب به اللوح، أو: قلم الملائكة، أو: الذي يكتب به الناس. أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يسطره الحفظة، أو: ما يكتب من الخير من كتب. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية. وجواب القسم:

٢ - ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها ف﴿أنت﴾ اسم ﴿ما﴾. وخبرها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾. و﴿بنعمة ربك﴾: اعتراض بين الاسم والخبر. والباء في ﴿بنعمة﴾ يتعلّق بمحذوف. ومحلّه: النصب على الحال، والعامل فيها ﴿بمجنون﴾. وتقديره: ﴿ما أنت﴾ بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. وهو جواب قولهم:

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾
بِآيَاتِكُمُ الْمُفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهْنُوْنَ فَيَذْهَبَ هُنُوْتُ ﴿٩﴾

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٣ - ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثواباً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو: ﴿غير ممنون﴾ عليك.

٤ - ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو ما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن^(١). أي: ما فيه من مكارم الأخلاق. وإنما استعظم خلقه لأنه جاد بالكونين، وتوكل على خالقهما.

٥، ٦ - ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: عن قريب ترى ويرون - وهذا وعد له ووعد لهم - ﴿بِآيَاتِكُمُ الْمُفْتُونُ﴾ المجنون لأنه فتن؛ أي: محن بالجنون. والباء مزيدة. أو: المفتون مصدر كالمعقول؛ أي: ﴿بأيكم﴾ الجنون. وقال الزجاج: الباء بمعنى: في. تقول: كنت ببلد كذا، أي: في بلد كذا. وتقديره: في ﴿أيكم﴾ المفتون؛ أي: في أي الفريقين منكم المجنون، فريق الإسلام، أو فريق الكفر.

٧ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بالعقلاء، وهم المهتدون.

٨ - ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم. وقد أرادوا على أن يعبد الله مدةً والتهتهم مدةً، ويكفوا عنه غوائلهم.

٩ - ﴿وَدُّوْا لَوْ تَدَّهْنُوْنَ﴾ لو تلين لهم ﴿فَيَذْهَبَ هُنُوْتُ﴾ فيلينون لك. ولم ينصب بإضمار أن، وهو جواب التمني؛ لأنه عدل به إلى طريق آخر، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: ﴿ف﴾ هم ﴿يذهنون﴾ يعني: فهم الآن يذهنون لطمعهم في إدهانك.

(١) رواه مسلم (٧٤٦) والنسائي (١٩٩/٣).

وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مِّمَّهِينَ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَامٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

١٠ - ١٦ - ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل - وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف - ﴿مِّمَّهِينَ﴾ حقير في الرأي والتمييز، من المهانة، وهي: القلة، والحقارة. أو: كذاب؛ لأنه حقير عند الناس ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب، طعان، مغتاب ﴿مَّشَامٍ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم. والنميم والنميمة: السعاية ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بخيل. والخير: المال. أو: مناع أهل من الخير. وهو الإسلام. والمراد: الوليد بن المغيرة عند الجمهور. وكان يقول لبنيه العشرة: من أسلم منكم منعتة رفدي ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام ﴿عُتْلٍ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما عدّ له من المثالب ﴿زَنِيمٍ﴾ دعي. وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم^(١)، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتّى نزلت هذه الآية. والنطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها.

روي: أنه دخل على أمه وقال: إن محمداً وصفني بعشر صفات وجدت تسعاً في، فأما الزنيم فلا علم لي به. فإن أخبرتني بحقيقته، وإلا ضربت عنقك، فقالت: إن أباك عتّين، وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده، فدعوت راعياً إلى نفسي فأنت من ذلك الراعي ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَا تَطْعُ﴾. أي: ولا تطعه مع هذه المثالب لـ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾ أي: ليساره وحظه من الدنيا. ويجوز أن يتعلق بما بعده. أي: لـ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ كذب بآياتنا. يدلّ عليه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ﴾ أساطيرُ الأولين. ولا يعمل فيه ﴿قال﴾ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله. ﴿أَنْ﴾ حمزة، وأبو بكر. أي: ألأن كان ذا مالٍ كذب؟ ﴿أَنْ﴾ شامي، ويزيد، ويعقوب، وسهل.

قالوا: لما عاب الوليد النبي ﷺ - كاذباً - باسم واحد، وهو: المجنون،

سَنَسِيئُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

سمّاه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً. فإن كان من عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشر، كان من فضله: أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشراً ﴿سَنَسِيئُهُ﴾ سنكويه ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ على أنفه مهانة له، وعلماً يعرف به. وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأنّ الوسم عليه أبشع. وقيل: خطم بالسيف يوم بدر، فبقيت سمة على خرطوميه.

١٧، ١٨ - ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف والرّمَمَ بدعاء النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشدّد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف»^(١) ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ هم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة بقرية يقال لها: ذُرّوان، وكانت على فرسخين من صنعاء، فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولو عيال. فحلفوا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ في السدَف^(٢)، خفية عن المساكين. ولم يستثنوا في يمينهم. فأحرق الله جنتهم. وقال الحسن: كانوا كفاراً. والجمهور على الأوّل ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء - حال من فاعل «يَصْرِمُنَّهَا» - ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. وسمي استثناء وإن كان شرطاً صورة؛ لأنّه يؤدي مؤدّى الاستثناء من حيث: أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله، و: لا أخرج إلا أن يشاء الله، واحد.

١٩، ٢٠ - ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل عليها بلاء، قيل: أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: في حال نومهم ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ فصارت الجنة ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم. أي: احترقت فاسودّت. أو: كالصبح. أي:

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥/ ٢٩٤).

(٢) «السدف»: الظلمة.

فَنَادَا مُصْحِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾

صارت أرضاً بيضاء بلا شجر. وقيل: كالمصرومة، أي: كأنها صرمت لهلاك ثمرها.

٢١، ٢٢ - ﴿فَنَادَا مُصْحِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ﴿أَنْ أَغْدُوا﴾ باكروا ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ ولم يقل إلى حركم؛ لأن الغدو إليه ليصرموه كان غدواً عليه. أو: ضَمَّنَ الغدو معنى الإقبال. أي: فأقبلوا على حركم باكرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ مريدين صرامه.

٢٣، ٢٤ - ﴿فَأَنْطَلَقُوا﴾ ذهبوا ﴿وَهُمْ يَخْفَتُونَ﴾ يتسازون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا﴾ أي: الجنة. و﴿أَنْ﴾ مفسرة. وقرئ بطرحها بإضمار القول. أي: ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ يقولون: ﴿لَا يَدْخُلْنَهَا﴾ ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾. والنهي عن دخول المسكين نهى عن التمكين. أي: لا تمكّنه من الدخول.

٢٥ - ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ﴾ على جد في المنع ﴿قَدِيرٍ﴾ عند أنفسهم على المنع. كذا عن نفطويه. أو الحرد: القصد والسرعة. أي: ﴿وَعَدُوا﴾ قاصدين إلى جنتهم بسرعتهم ﴿قَادِرِينَ﴾ عند أنفسهم على صرامها وزيّ منفعتها عن المساكين. أو: هو علم للجنة، أي ﴿غَدُوا عَلَى﴾ تلك الجنة ﴿قَادِرِينَ﴾ على صرامها عند أنفسهم.

٢٦، ٢٧ - ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: جنتهم محترقة ﴿قَالُوا﴾ في بديهة وصولهم: ﴿إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ أي: ضللنا جنتنا، وما هي بها؛ لما رأوا من هلاكها. فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمانا خيرها؛ لجنائتنا على أنفسنا.

٢٨، ٢٩ - ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ﴾ هلاً تستنثون؛ إذ الاستثناء: تسبيح؛ لالتقاءهما في معنى التعظيم لله؛ لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له. وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. أو: ﴿لَوْلَا﴾ تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم. كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، فتوبوا عن هذه العزيمة

قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا يُرِيدُنَا إِنَّا كُنَّا
طَٰغِيْنَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٦﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

الخبثه، فعصوه، فغيرهم. ولهذا ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فتكلموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلم به أولاً، وأقروا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف، وترك الاستثناء، ونزوهه عن أن يكون ظالماً.

٣٠، ٣١ - ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوْنَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين، ويحيل كل واحد منهم اللائمة على آخر. ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد بقوله: ﴿قَالُوا يُرِيدُنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِيْنَ﴾ بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء.

٣٢ - ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ وبالتشديد: مدني وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من هذه الجنة. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير، راجون لعفوه. عن مجاهد: تابوا، فأبدلوا خيراً منها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً.

٣٣ - ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي ذكرنا، عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما فعلوا ما يفيضي إلى هذا العذاب.

٣٤ - ثم ذكر ما عنده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص بخلاف جنات الدنيا.

٣٥، ٣٦ - ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ استفهام إنكار على قولهم: لو كان مايقول محمد حقاً فنحن نعطي في الآخرة خيراً مما يعطى هو ومن معه، كما في الدنيا. ف قيل لهم ﴿أ﴾ نحيف في الحكم ﴿فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ كالكافرين؟ ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج - وهو:

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَأَلَهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ
كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

التسوية بين المطيع والعاصي - كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما
شئتم.

٣٧، ٣٨ - ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون في ذلك
الكتاب ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: أن ما تختارونه وتشتهونه لكم. والأصل:
تدرسون أن لكم ما تختارون - بفتح أن - لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه،
وإنما كسرت لمجيء اللام. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله:
﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ * سَأَلَهُ عَلَى نُجُجٍ ﴿[الصفات: ٧٨-٧٩] وتخير الشيء
واختاره: أخذ خيره.

٣٩، ٤٠ - ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالإيمان ﴿بَلِغَةٌ﴾ نعت
﴿إيمان﴾. ويتعلق ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ببالغة. أي: أنها تبلغ ذلك اليوم، وتنتهي
إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. أو بالمقدر
في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لا نخرج عن عهدها
إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون - ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ به
لأنفسكم. وهو جواب القسم؛ لأن معنى: ﴿أَمْ لَكُمْ إيمان علينا﴾ أم أقسمنا
لكم بإيمان مغلفة متناهية في التوكيد ﴿سَأَلَهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَنَّهُمْ بِذَلِكَ﴾
الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل بأنه يكون ذلك.

٤١ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبهم
فيه؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم؛ يعني: أن أحداً لا يسلم لهم
هذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند
الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

٤٢ - ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ناصب الظرف ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أو: اذكر مضمراً،
والجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر وصعوبة الخطب.
فمعنى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر، ويصعب، ولا كشف ثمة

وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

ولا ساق، ولكن كنى به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق. وهذا كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلوله؛ ولا يد ثمة ولا غل، وإنما هو كناية عن البخل. وأما من شبهه فلضيق عطنه، وقلة نظره في علم البيان. ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان من حق الساق أن يعرف؛ لأنها ساق معهودة عنده ﴿وَيَدْعُونَ﴾ أي: الكفار ثمة ﴿إِلَى الشُّجُودِ﴾ لا تكليفاً، ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأن ظهورهم تصوير كصياصي^(١) البقر لا تنشي عند الخفض والرفع.

٤٣ - ﴿خَشِيعَةً﴾ ذليلة - حال من الضمير في ﴿يُدْعَوْنَ﴾ - ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾. أي: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم صغار ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾ على ألسن الرسل ﴿إِلَى الشُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ أي: وهم أصحاء، فلا يسجدون. فكذاك منعوا عن السجود ثمة.

٤٤ - ﴿فَذَرْنِي﴾ يقال: ذرني وإياه أي: كله إليّ فإنني أكفيكه ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ - معطوف على المفعول، أو مفعول معه - ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بالقرآن. والمراد: كل أمره إليّ، وخلّ بيني وبينه، فإنني عالم بما ينبغي أن يفعل به، مطبق له. ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكل عليّ في الانتقام منه. تسلياً لرسول الله ﷺ، وتهديداً للمكذّبين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة. يقال: استدرجه إلى كذا؛ أي: استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه. واستدراج الله تعالى العصاة: أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج. قيل: كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج»^(٢) وتلا الآية.

(١) «الصياصي»: جمع الصبيصة؛ وهي قزن البقر.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٠٧٣).

وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عَنْدهُمْ أَلْفَيْبٌ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْحَوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَذَرِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

٤٥ - ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قويّ شديد. فسمى إحسانه، وتمكينه كيداً، كما سَمَّاهُ استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك. والأصل: أَنَّ معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن. ولا يجوز أن يسمّى الله كائداً وماكراً ومُستدِرجاً.

٤٦ - ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ﴾ غرامة ﴿مُثْقَلُونَ﴾ فلا يؤمنون؟ استفهام بمعنى النفي. أي لست تطمع أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم ذلك، فيمتنعوا لذلك.

٤٧ - ﴿أَمْ عَنْدهُمْ أَلْفَيْبٌ﴾ اللوح المحفوظ - عند الجمهور - ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به.

٤٨ - ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم؛ لأنهم وإن أمهلوا لم يمهلوا ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْحَوْتِ﴾ كيونس - عليه السلام - في العجلة والغضب على القوم حتى لا تبطل ببلائه. والوقف على الحوت؛ لأن ﴿إِذْ﴾ ليس بظرف؛ لما تقدّمه؛ إذ النداء طاعة، فلا ينهي عنه. بل مفعول محذوف. أي: اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربه في بطن الحوت بـ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً. من: كظم السقاء؛ إذا ملاه.

٤٩ - ﴿لَوْلَا أَن تَذَرِكُمْ نِعْمَةً﴾ رحمة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: لولا أَنَّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه، وقبول عذره ﴿لَئِيدٌ﴾ من بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معاتب بزلته. لكنّه رحم، فنبذ غير مذموم.

٥٠ - ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح، ولم تبق له زلة. وقيل: من الأنبياء. وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين. والوجه هو الأول؛ لأنّه كان مرسلًا ونبياً قبله

وَأَن يَكَاذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلَقُنَّكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُوَسَّسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴿٥٢﴾ الآية [الصفات: ١٣٩ - ١٤٠].

٥١، ٥٢ - ﴿وَأَن يَكَاذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلَقُنَّكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ ويفتح الياء، مدني. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقلة واللام علمها. زلقه، وأزلقه: أزاله عن مكانه. أي: قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدة حقهم عليك. وكانت العين في بني أسد. فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كالיום مثله؛ إلا هلك. فأريد بعض العيانيين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك، فقال: لم أر كالיום مثله رجلاً، فعصمه الله عن ذلك. وفي الحديث: «العين حق، وإن العين لتدخل الجمل القدر، والرجل القبر»^(١). وعن الحسن - رضي الله عنه -: رقية العين هذه الآية ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ إِنَّ مُحَمَّدًا ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ حَيْرَةٌ في أمره، وتنفيراً عنه، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس. يعني: أنهم جنتوه لأجل القرآن. وما القرآن إلا موعظة للعالمين. فكيف يجنن من جاء بمثله؟ وقيل: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: ذكره ﷺ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ شرف ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ فكيف ينسب إليه الجنون؟!

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٢١٤) وانظره في فيض القدير (٥٧٤٨) وتذكرة الموضوعات (ص ٢٠٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا

١ - ﴿الْحَاقَّةُ﴾ الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء؛ التي هي آتية لا ريب فيها. من: حق، يحق - بالكسر - أي: وجب.

٢ - ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر الحاقة. والأصل: ﴿الحاقة﴾ ما هي؟ أي: أي شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. أي: حقها أن يستفهم عنها لعظمتها. فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ يعني: أنك لا علم لك بكنهها، ومدى عظمتها؛ لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين. ﴿وما﴾ رفع بالابتداء. و﴿أدراك﴾ الخبر. والجملة بعده في موضع نصب لأنها مفعول ثانٍ لـ: «أدرى».

٤ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ أي: بالحاقة. فوضعت القارعة موضعها لأنهما من أسماء القيامة. وسميت بها؛ لأنها تقرر الناس بالأفزع، والأهوال.

٥، ٦ - ولما ذكرها، وفخمها؛ أتبع ذكر ذلك من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم: ﴿فَأَمَّا

نَمُودُ فَأَهْلِكُوكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾

نَمُودُ فَأَهْلِكُوكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة. واختلف فيها. فقيل: الرجة. وقيل: الصيحة. وقيل: الطاغية - مصدر كالعافية - أي: بطغيانهم. ولكن هذا لا يطابق قوله: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوكُوا بِرِيحٍ﴾ أي: بالدبور؛ لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(١) ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت. من: الصَّرة: الصيحة. أو: باردة، من: الصَّر؛ كأنها التي كثر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديد العصف. أو: عتت على خزانها فلم يضبطوها بإذن الله، غضباً على أعداء الله.

٧ - ﴿سَخَّرَهَا﴾ سلطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾. وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع. جمع: حاسم؛ كشهود. تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كزة بعد أخرى حتى ينحسم. وجاز أن يكون مصدرأ. أي: تحسم حُسُومًا؛ بمعنى: تستأصل استئصالاً ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطب ﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهايها، أو: في الليالي والأيام ﴿صَرْعَى﴾ حال، جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال أخرى ﴿أُعْجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ﴾ جمع: نخلة ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة أو بالية.

٨ - ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ نفس ﴿بَاقِيَةٍ﴾. أو: ﴿مِنْ﴾ بقاء؛ كالطاغية بمعنى: الطغيان.

٩ - ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ تقدمه من الأمم. ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بصري، وعلي. أي: ومن عنده من تَبَّاعه ﴿وَالْمُؤْتَفِكَتُ﴾ قرى قوم لوط، فهي اتفتكت. أي: انقلبت بهم ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعل. أو: بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

١٠ - ﴿فَعَصَوْا﴾ أي: قوم لوط ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لوطاً ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُذُنٌ وَعَيْنٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

شديدة زائدة في الشدة؛ كما زادت قبائحهم في القبح.

١١، ١٢ - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿حَمَلَتُكُمُ﴾ أي: آباءكم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾ في سفينة نوع عليه السلام ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفعلة. وهي: إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عظة وعبرة ﴿وَتَعِبَهَا﴾ وتحفظها ﴿أُذُنٌ﴾ بضم الذال، غير نافع ﴿وَعَيْنٌ﴾ حافظة لما تسمع. قال قتادة: وهي: أذن عقلت عن الله، وانتفعت بما سمعت.

١٣ - ١٥ - ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى. ويموت عندها الناس. والثانية يبعثون عندها ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ دقتا وكسرتا، أي: ضرب بعضها ببعض حتى تندق، وترجع كثيراً مهيلاً، هباءً منبثاً، ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ نزلت النازلة، وهي: القيامة. وجواب ﴿إِذَا﴾: ﴿وَقَعَتِ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾.

١٦، ١٧ - ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ فتحت أبواباً ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسترخية، ساقطة القوة، بعد ما كانت محكمة ﴿وَالْمَلَكُ﴾ للجنس بمعنى الجمع. وهو أعم من الملائكة ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها. واحداً: رجاً، مقصور؛ لأنها إذا انشقت وهي مسكن الملائكة فيلجؤون إلى أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ منهم. واليوم تحمله أربعة. وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة. وعن الضحاك: ثمانية صفوف. وقيل: ثمانية أصناف.

١٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال. شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة، وحال كانت تخفى في الدنيا. وبالباء: كوفي غير عاصم. وفي الحديث: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات. فأما عرضتان: فجداً ومعاذير. وأما الثالثة: فعندها تطير

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَكَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ ﴿٢٤﴾

الصحف، فيأخذ الفائز كتابه يمينه، والهالك كتابه بشماله»^(١).

١٩ - ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض. ﴿مَنْ أَوْفَكَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته^(٢): ﴿هَؤُلَاءِ﴾ اسم للفعل. أي: خذوا ﴿أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ تقديره: ﴿هاؤم﴾ كتابي ﴿أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. والعامل في: ﴿كِتَابِهِ﴾ أقرؤوا عند البصريين؛ لأنهم يعملون الأقرب. والهاء في ﴿كِتَابِهِ﴾ و﴿حِسَابِهِ﴾ و﴿مَالِهِ﴾ و﴿سُلْطَانِهِ﴾ للسكت. وحقها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. وقد استحب إثار الوقف إثارةً لشباتها؛ لثبوتها في المصحف.

٢٠ - ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ علمت. وإنما أُجْرِيَ الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلماً يخلو عن الوسوس والخواطر، وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه ﴿أَفْ مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ معاينٌ حسابي.

٢١ - ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها، ك: لابن.

٢٢ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور. وهو خبر بعد خبر.

٢٣ - ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمارها قريبة من يُريدها ينالها، القاعد كالقائم.

٢٤ - يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أكلاً وشراباً هنيئاً، لا مكروه فيهما، ولا أذى. أو: هنتم هنيئاً - على المصدر - ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ فما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن ابن عباس: هي في الصائمين. أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتكم عن الأكل والشرب لوجه الله.

(١) رواه أحمد (٤/٤١٤) والترمذي (٢٤٢٥) وابن ماجه (٤٢٧٧).

(٢) في الأصل المخطوط: لجماعة.

وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأَرْثُ مَا حَسَابِي ﴿٢٥﴾ وَلَئِنْ أَدْرَاكَ مَا حَسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنَهَا
كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خُدُوهُ فَقُلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثَرَالْجِيمِ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ إِلَّا اللَّهَ الْعَظِيمَ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَخْضَعُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٢٥ - ٢٩ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأَرْثُ مَا حَسَابِي﴾ لما يرى فيه من
الفضائح ﴿وَلَئِنْ أَدْرَاكَ مَا حَسَابِي﴾ أي: ياليتني لم أعلم ما حسابي ﴿يَلَيِّنَهَا﴾ ياليت
الموتة التي متها ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعة لأمري. فلم أبعث بعدها، ولم
ألق ما ألقى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا. فـ ﴿مَا﴾
نفي، والمفعول محذوف. أي: شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ملكي، وتسلطي على
الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ضلّت عني
حجتي؛ أي: بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

٣٠ - ٣٢ - فيقول الله تعالى لخزنة جهنم: ﴿خُدُوهُ فَقُلُوهُ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى
عنقه ﴿ثَرَالْجِيمِ صَلُّوهُ﴾ أدخلوه - يعني: ثم لا تصلّوه إلا الجحيم، وهي: النار
العظمى. أو نصب الجحيم بفعل يفسره ﴿صَلُّوهُ﴾ - ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ طولها
﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ - بذراع الملك، عن ابن جريج. وقيل: لا يعرف قدرها إلا الله -
﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم
الجحيم على التصلية.

٣٣، ٣٤ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل. كأنه قيل: ماله يعذب هذا العذاب الشديد؟
فأجيب بأنه ﴿كَانُوا لَا يَرْجُونَ إِلَّا اللَّهَ الْعَظِيمَ﴾ ولا يخضعون على طعام المسكين على بذل طعام
المسكين. وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأنّ الناس لا يطلبون من
المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله، ورجاء الثواب في
الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم. أي: أنه مع
كفره لا يحرص غيره على إطعام المحتاجين. وفيه دليل قوي على عظم جرم
حرمان المسكين؛ لأنه عطفه على الكفر، وجعله دليلاً عليه، وقرينة له، ولأنه
ذكر الخضّ دون الفعل ليعلم: أنّ تارك الخضّ إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل
أحق. وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه -: أنه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا. وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعاً، والكافرون لا يرحمون؛ لأنه قسم الخلق صنفين، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين، ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَسَابِيهِ﴾، وصنفاً منهم أهل الشمال، ووصفهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّهٗ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ﴾. وجاز أن الذي يعاقب من المؤمنين إنما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه.

٣٥- ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يدفع عنه، ويحترق له قلبه.

٣٦- ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾ غسالة أهل النار. فغسلين من: الغسل. والنون زائدة. وأريد هنا: ما يسيل من أبدانهم من الصيد والدم.

٣٧- ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا. وخطيء الرجل: إذا تعمّد الذنب.

٣٨، ٣٩- ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الملائكة والأرواح. فالحاصل: أنه أقسم بجميع الأشياء.

٤٠-٤٢- ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: محمد ﷺ، أو: جبريل عليه السلام. أي: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدعون ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما تقولون ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾. وبالبايع فيهما: مكّي، وشامي، ويعقوب، وسهل. ويتخفيف الذال: كوفي غير أبي بكر. والقلة في معنى العدم. يقال: هذه أرض قلما تنبت؛ أي: لا تنبت أصلاً. والمعنى: لا تؤمنون، ولا تذكرون البتة.

٤٣- ﴿نَزِيلٌ﴾ هو ﴿تنزيل﴾. بياناً؛ لأنه قول رسول نزل عليه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَنُذَكِّرُ * لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

٤٤ - ٤٦ - ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام. فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخصّ اليمين لأنّ القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره. وإذا أراد أن يوقعه في جيده، وأن يكفحه بالسيف - وهو أشدّ على المصبور لنظره إلى السيف - أخذ بيمينه. ومعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لأخذنا بيمينه. وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه، وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه.

٤٧ - ﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾ الخطاب للناس، أو: للمسلمين ﴿مِّنْ﴾ من ﴿من﴾ زائدة ﴿عَنْهُ﴾ عن قتل محمد ﷺ. وجمع ﴿حَاجِزِينَ﴾ وإن كان وصف ﴿أَحَدٍ﴾؛ لأنّه في معنى الجماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤٨ - ٥١ - ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَنُذَكِّرُ﴾ لعظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ * وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ به، المكذّبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لعين اليقين، ومحض اليقين.

٥٢ - ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله: سبحان الله.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْكَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

١ - ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو النضر بن الحارث. قال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آفِتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أو: هو النبي ﷺ، دعا بنزول العذاب. ولَمَّا ضُمِّنَ سَأَلَ معنى دعا عُدِّي تعديته كأنه قيل: دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من قولك: دعا بكذا: إذا استدعاه، وطلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْكَهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]. و﴿سَأَلَ﴾ بغير همز، مدنيّ وشاميّ. وهو من السؤال أيضاً إلا أنه خَفَّفَ بالتلين. و﴿سَائِلٌ﴾ مهموز إجماعاً.

٢، ٣ - ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة لعذاب. أي ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ كائن ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ لذلك العذاب ﴿دَافِعٌ﴾ رادّ ﴿مِنْكَ اللَّهُ﴾ متصل بواقع. أي: واقع من عنده. أو: بدافع. أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي: مصاعد السماء للملائكة. جمع: مَعْرَج، وهو: موضع العروج.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٣﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٤﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٥﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٦﴾

٤ - ثم وصف المصاعد، وبعد مداها في العلو والارتفاع، فقال: ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد، وبالباء علي ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام. خصه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه. أو: خلق هم حفظة على الملائكة، كما أن الملائكة حفظة علينا. أو: أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من: صلة ﴿تَعْرُجُ﴾ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا لو صعد فيه غير الملك. أو: من: صلة ﴿واقِعَ﴾. أي: يقع ﴿فِي يَوْمٍ﴾ طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم. وهو يوم القيامة. فإما أن يكون استطالة له لشدة على الكفار، أو لأنه على الحقيقة كذلك. فقد قيل: فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة. وما قدر ذلك على المؤمنين إلا كما بين الظهر والعصر.

٥ - ﴿فَاصْبِرْ﴾ متعلق بـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي. وكان ذلك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع، ولا شكوى.

٦، ٧ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: العذاب، أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ مستحيلاً ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ كائناً لا محالة. فالمراد بالبعيد: البعيد من الإمكان، وبالقريب: القريب منه.

٨ - نُصِبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ بـ ﴿قَرِيبًا﴾. أي: يمكن في ذلك اليوم. أو: هو بدل عن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ فيمن علقه بـ ﴿واقِعَ﴾ ﴿كَالْهَيْلِ﴾ كدردي الزيت، أو: كالفضة المذابة في تلونها.

٩ - ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال ﴿جُدُدٌ بَيْضٌ، وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بست وطيرت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِهِمْ يَنْجِيهِ ﴿١١﴾
وَصَنْجَبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا
لَظُلُمٌ لِّلْأَرْضِ لِّلْحَمَى ﴿١٥﴾ تَدْعُوا

١٠ - ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه. وعن البرقي، والبرهجي: بضم الياء. أي: ﴿لَا يُسَال﴾ قريب عن قريب. أي: لا يطالب به، ولا يؤخذ بذنبه.

١١ - ١٤ - ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ صفة. أي: ﴿حِمِيمًا﴾ مبصرين معرفين إياهم. أو: مستأنف. كأنه لما قال: ﴿وَلَا يُسَال حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ قيل: لعله لا يبصره. ف قيل: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا [من تساؤلهم] ^(١). والواو ضمير الحميم الأول. و﴿هُمْ﴾ ضمير الحميم الثاني. أي: يبصر الأحماء الأحماء، فلا يخفون عليهم. وإنما جمع الضميران، وهما للحميمين؛ لأن فاعلاً يقع موقع الجمع ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ يتمنى المشرك. وهو مستأنف. أو: حال من الضمير المرفوع، أو المنصوب من: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِهِمْ﴾ وبالفتح مدني، وعليّ على البناء، للإضافة إلى غير متمكن ﴿يَنْجِيهِ وَصَنْجَبَتِهِ﴾ وزوجته ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الأدين ﴿الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا﴾ تضمه انتهاء إليها. وبغير همز يزيد ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ الافتداء. عطف على ﴿يَفْتَدِي﴾.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء، ولا ينجيه من العذاب ﴿إِنَّهَا﴾ إن النار. ودلّ ذكر العذاب عليها. أو: هو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر. أو: ضمير القصة ﴿لَظُلُمٌ﴾ علم للنار.

١٦ - ﴿نَزَاعَةً﴾ حفص، والمفضل، على الحال المؤكدة. أو: على الاختصاص، للتهويل. وغيرهما بالرفع؛ خبر بعد خبر ل: ﴿إِنَّ﴾. أو على: هي نزاعة ﴿لِلْحَمَى﴾ لأطراف الإنسان كاليدن والرجلين. أو: جمع: شواة. وهي: جلدة الرأس، تنزعها نزعاً فتفرقها، ثم تعود إلى ما كانت.

١٧، ١٨ - ﴿تَدْعُوا﴾ بأسمائهم يا كافر! يا منافق! إليّ إليّ، أو: تهلك. من

(١) في الأصل المخطوط: لتساؤلهم.

مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ رَجَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ
فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ
عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾

قولهم: دعاك الله؛ أي: أهلكك. أو: لما كان مصيره إليها جعلت كأنها دعته ﴿مَنْ أَذْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدِّ حق الله منه.

١٩ - ٢١ - ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أريد به الجنس، ليصح استثناء المصلين منه. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسيره ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. والهلوع: سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع، فقال: قد فسره الله تعالى. ولا يكون تفسير أبين من تفسيره. وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه الناس. وهذا طبعه. وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعه. والشرُّ: الضرُّ، والفقر، والخير: السعة، والغنى، أو: المرض، والصحة.

٢٢، ٢٣ - ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ ﴿أي: صلواتهم الخمس دَائِمُونَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها. عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٤، ٢٥ - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يعني: الزكاة؛ لأنها مقدرة معلومة. أو: صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤدّيها في أوقات معلومة ﴿لِلْسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال، فيحسب غنياً، فيحرم.

٢٦ - ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة.

٢٧، ٢٨ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون. واعترض بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ بالهمز سوى أبي عمرو. أي: لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مُلْكُمِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

٢٩، ٣٠ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴿نَسَائِهِمْ﴾ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ ﴿أَي: إِمَائِهِمْ﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْكُمِينَ﴾ على ترك الحفظ.

٣١ - ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ طلب منكحاً ﴿وَرَآءَهُ﴾ أي: غير الزوجات، والمملوكات
﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدل على
حرمة المتعة، ووطء الذكر، والبهائم، والاستمناء بالكف.

٣٢ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ ﴿لَأَمَانَتِهِمْ﴾: مَكِّيٌّ. وهي تناول أمانات الشرع،
وأمانات العباد - ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: عهودهم. ويدخل فيها: عهود الخلق،
والنذور، والأيمان ﴿رِعُونَ﴾ حافظون، غير خائنين، ولا ناقضين. وقيل:
الأمانات ما تدل عليه العقول، والعهد: ما أتى به الرسول.

٣٣ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ﴾: حفص وسهل ويعقوب ﴿قَائِمُونَ﴾ يقيمونها عند
الحكام بلا ميل إلى قريب وشريف، وترجيح للقوي على الضعيف، إظهاراً
للمصداقة في الدين، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين.

٣٤ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كَرَّرَ ذكر الصلاة لبيان أنها أهم. أو: لأن
إحداها للفرائض، والأخرى للنوافل. وقيل: الدوام عليها: الاستكثار منها.
والمحافظة عليها: ألا تضيع عن مواقيتها. أو: الدوام عليها: أداؤها في أوقاتها.
والمحافظة عليها: حفظ أركانها، وواجباتها، وسننها، وآدابها.

٣٥ - ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. هما خبران.

٣٦، ٣٧ - ﴿قَالَ﴾ كتب مفصلاً أتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ﴾ نحوك. معمول ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين. حال من ﴿الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ عن يمين النبي ﷺ، وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ حال.
أي: فرقاً شتى. جمع: عزة. وأصلها: عزوة، كأن كل فرقة تعتري إلى غير من
تعتري إليه الأخرى، فهم مفترقون.

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُنْقِصُ مِنْهُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ۚ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَاقًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

٣٨ - كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً، ورفقاً رفقاً، يستمعون ويستهنئون بكلامه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلتها قبلهم. فنزلت: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء سوى المفضل ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمؤمنين.

٣٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة المذرة، ولذلك أبهم إشعاراً بأنه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرفون، ويدعون التقدم، ويقولون: لندخل الجنة قبلهم؟ أو معناه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ من نطفة، كما خلقنا بني آدم كلهم: وَمِنْ حُكْمِنَا: ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان. فَلِمَ يطمع أن يدخلها من لا إيمان له؟

٤٠، ٤١ - ﴿وَلَا أُنْقِصُ مِنْهُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ﴾ مطالع الشمس ومغاريها ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ على أن نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين.

٤٢، ٤٣ - ﴿فَذَرَهُمْ﴾ فدع المكذبين ﴿يَحْضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فيه العذاب ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَهُمْ﴾ ﴿يُخْرِجُونَ﴾ بفتح الياء، وضم الراء سوى الأعشى ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سَرَاقًا﴾ جمع: سريع. حال. أي: إلى الداعي ﴿كَانَتْهُمْ﴾ حال ﴿إِلَى نَصَبٍ﴾ شامي، وحفص، وسهل. ﴿نَصَبٍ﴾ المفضل. ﴿نَصَبٍ﴾ غيرهم. وهو: كل ما نصب وعبد من دون الله ﴿يُوفُونَ﴾ يسرعون.

٤٤ - ﴿خَشِيعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُخْرِجُونَ﴾. أي: ذليلة ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ يعني: لا يرفعونها لذلتهم ﴿تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وهم يكذبون به.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقْتُوِرُ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخْزِرَكُمْ إِلَىٰ أَحْسَنِ أَعْيُنٍ

١- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه بالسريانية: الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ خوف. أصله: بأن أنذر. فحذف الجازر وأوصل الفعل. ومحلّه عند الخليل جرّ، وعند غيره نصب. أو ﴿أَنْ﴾ مفسّرة بمعنى: أي؛ لأنّ في الإرسال معنى القول ﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة، أو: الطوفان.

٢- ﴿قَالَ يَقْتُوِرُ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ خوف ﴿مُبِينٌ﴾ أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها.

٣- ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه. و﴿أَنْ﴾ هذه نحو ﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ في الوجهين ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه. وإنما أضافه إلى نفسه؛ لأنّ الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

٤- ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ﴾ جواب الأمر. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أو: للتبعض؛ لأنّ ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام؛ كالقصاص وغيره. كذا في شرح التأويلات ﴿وَيُخْزِرَكُمْ إِلَىٰ أَحْسَنِ أَعْيُنٍ﴾

مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا
وَنَهَارًا ﴿٢﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٣﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا ﴿٥﴾

مُسَمًّى ﴿ وهو وقت موتكم ﴾ ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الموت ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾. أي: ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء
أجلكم، لآمنتكم. قيل: إِنَّ الله تعالى قضى مثلاً: أَنَّ قوم نوح إن آمنوا عَمَرَهُمْ
ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخركم
﴿ إلى أجل مسمى ﴾. أي: تبلغوا ألف سنة. ثم أخبر: أَنَّ الألف إذا جاء
لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت. وقيل: إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك
من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام. فكأنه عليه السلام آمنهم عن
ذلك، ووعدهم: أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا.
أي: أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمى آمنين من عدوكم.

٥، ٦ - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ دائباً بلا فتور ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾
عن طاعتك. ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده، وإن لم يكن الدعاء سبباً
للفرار في الحقيقة. وهو كقوله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾
[التوبة: ١٢٥] والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجز. وكان الرجل يذهب بابنه
إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا، فلا يغرنك، فإن أبي قد أوصاني به.

٧ - ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان بك ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي: ليؤمنوا فتغفر
لهم، فاكتمى بذكر المسبب ﴿ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا
كلامي ﴿ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني كراهة النظر إلى وجه من
ينصحبهم في دين الله ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾
وتعظّموا عن إجابتي. وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم

٨ - ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ مصدر في موضع الحال. أي: مجاهرأ. أو:
مصدر ﴿ دعوتهم ﴾ كقعد القرفصاء؛ لأنّ الجهار أحد نوعي الدعاء. يعني:
أظهرت لهم الدعوة في المحافل.

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

٩ - ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر. فالحاصل: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، وهكذا يفعل الأمر بالمعروف: يتدبىء بالأهون، ثم بالأشد فالأشد. فافتتح بالمناصحة في السر. فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة. فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و﴿ثُمَّ﴾ تدل على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار. والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

١٠ - ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة. فإن كان المستغفر كافراً فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمناً فهو من الذنوب ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ لم يزل غفّاراً للذنوب من ينيب إليه.

١١، ١٢ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثيرة الدور - ومفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث - ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ يزدكم أموالاً وبنيين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبون الأموال والأولاد، فحرّكوا بهذا على الإيمان. وقيل: لما كذّبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين. فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب، ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيك استسقيت! فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر - شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطيء - وقرأ الآيات. وعن الحسن: أن رجلاً شكاً إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع^(١):

(١) هو الربيع بن صبيح، أبو بكر: أول من صنف بالبصرة. كان عابداً ورعاً. خرج غازياً إلى السند فمات في البحر، ودفن في إحدى الجزر سنة (١٦٠ هـ).

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

أتاك رجال يشكون أبواباً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فتلا الآيات.

١٣، ١٤ - ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون الله عظمة، عن الأخفش. قال: والرجاء هنا: الخوف؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس. والوقار: العظمة. أو: لا تأملون له توقيراً. أي: تعظيماً. والمعنى: مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إيتاكم في دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال. أي: مالكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؛ لأنه ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: تارات، وكرات: خلقكم أولاً: نطفاً، ثم: خلقكم علقاً، ثم: خلقكم مضغاً، ثم: خلقكم عظاماً ولحمًا.

١٥ - نَبِّهَهُمْ أَوَّلًا عَلَى النَّظَرِ فِي أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ، ثُمَّ عَلَى النَّظَرِ فِي الْعَالَمِ وَمَا سِوَى فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ الدَّالَّةِ عَلَى الصَّانِعِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ بعضاً على بعض.

١٦ - ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السموات. وهو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات ملابس من حيث إنها طباق. وجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ، كما يقال: في المدينة كذا، وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر - رضي الله عنهم -: إنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات، وظهورهما مما يلي الأرض. فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات لأنها لطيفة لا تحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ مصباحاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره. وضوء الشمس أقوى من نور القمر. وأجمعوا: على أنّ الشمس في السماء الرابعة.

١٧، ١٨ - ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأكم. استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتهم نباتاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر. أي: أيّ إخراج.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّا يَزِيدُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا

١٩ ، ٢٠ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطَةً ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾ لتنتقلوا عليها، كما ينقلب الرجل على بساطه ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة أو مختلفة.

٢١ - ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ أي: السفلة والفقراء ﴿مَن لَّا يَزِيدُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ﴾ أي: الرؤساء أصحاب الأموال، والأولاد. ﴿وَوَلَدُهُ﴾ مكِّي، وعراقي، غير عاصم. وهو جمع ولد، كأسد وأسد ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة.

٢٢ - ﴿وَمَكَرُوا﴾ معطوف على ﴿لَمْ يَزِدْهُ﴾. وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَنْ﴾ لأنه في معنى الجمع. والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين، وكيدهم لنوح، وتخريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ عظيماً. وهو أكبر من الكبائر. وقرئ به. وهو أكبر من الكبير.

٢٣ - ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ على العموم أي: عبادتها ﴿وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بفتح الواو وضمها. وهو قراءة نافع. لغتان. صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس. وهما لا ينصرفان للتعرف ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميّين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر. أي: هذه الأصنام الخمسة على الخصوص. وكأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم. فخصّوها بعد العموم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب. فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمُراد، ونسر لحمير. وقيل: هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلمّا ماتوا صورّوهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة. فلمّا طال الزمان قال لهم إبليس: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

٢٤ - ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾

كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَكًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

[إبراهيم: ٣٦]. أو: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قَالَ﴾ وبعد الواو النائية عنه. ومعناه: ﴿قَالَ نوح ربِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ﴿و﴾ قال ﴿لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال هذين القولين. وهما في محلِّ النصب لأنهما مفعولا ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّا ضَلَكًا﴾ هلاكًا. كقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

٢٥- ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ ﴿خَطَايَاهُمْ﴾ - أبو عمرو. أي: ذنوبهم - ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ عظيمة. وتقديم ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ لبيان: أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، وإدخالهم في النيران، إلّا من أجل خطيئاتهم. وأكد هذا المعنى بزيادة ﴿مَا﴾. وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا. فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهن. والفاء في ﴿فَأَدْخِلُوا﴾ للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض. وهو: فَيَعَالٌ، من: الدَّوْر. وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام.

٢٧- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلّا من إذا بلغ فجر وكفر. وإنما قال ذلك؛ لأن الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٢٨- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ وكانا مسلمين، واسم أبيه: ملك. واسم أمه: شمعاء. وقيل: هما آدم وحواء. وقرئ: ﴿لِوَلَدَيَّ﴾ يريد: ساماً وحماماً ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ منزلي أو مسجدي أو سفيتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنه علم: أن من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة. خصّ

وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا ﴿٢٨﴾

أَوَّلًا مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أُولَى، وَأَحَقُّ بِدَعَائِهِ، ثُمَّ عَمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢٨﴾ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا بَارًا ﴿٢٨﴾ هَلَاكًا، فَأَهْلَكُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعْوَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَغْفِرَةِ، وَآخَرَى عَلَى الْكَافِرِينَ بِالتَّبَارِ. وَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ فِي حَقِّ الْكَفَّارِ بِالتَّبَارِ. فَاسْتَحَالَ أَلَّا تَسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ.

وَاخْتَلَفَ فِي صِبْيَانِهِمْ حِينَ أَغْرَقُوا. فَقِيلَ: أَعْقَمَ اللَّهُ أَرْحَامَ نَسَائِهِمْ قَبْلَ الطُّوفَانِ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ صَبِيٌّ حِينَ أَغْرَقُوا. وَقِيلَ: عَلَّمَ اللَّهُ بَرَاءَتَهُمْ فَأَهْلَكُوا بِغَيْرِ عَذَابٍ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾

١ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أَنَّ الأمر والشأن. أجمعوا على فتح ﴿أنه﴾ لأنه فاعل ﴿أوحى﴾، و﴿أَلَوْ اسْتَقْتُمُوا﴾ [الجن: ١٦] و﴿أَنَّ الْمَسْجِدَ﴾ [الجن: ١٨] للعطف على ﴿أنه استمع﴾ فإن مخففة من الثقيلة. و﴿أَن قَدْ أَتَلَقَوْا﴾ [الجن: ٢٨] لتعدي يعلم إليها، وعلى كسر ما بعد فاء الجزاء وبعد القول نحو ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] و﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ لأنه مبتدأ حكى بعد القول. واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من ﴿أَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبْنَا﴾ إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ٣ - ١٤] ففتحها شامي، وكوفي غير أبي بكر، عطفاً على ﴿أنه استمع﴾ أو على محل الجار والمجرور في ﴿فَأَمَّا رَبُّهُ﴾ [الجن: ٢] تقديره: صدقناه، وصدقنا: أنه تعالى جد ربنا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن: ٤] إلى آخرها. وكسرها غيرهم عطفاً على ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ وهم يقفون على أواخر الآيات ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي ﷺ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ عجباً بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمه،

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جَدْرَيْنَا مَا أَخَذَ صَاحِبَهُ
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾

وصحة معانيه. والعجب ما يكون خارجاً عن العادة. وهو مصدر وضع موضع العجيب.

٢ - ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ولما كان الإيمان به إيماناً بالله، وبوحدانيته، وبراءة من الشرك، قالوا: ﴿لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ من خلقه. وجاز أن يكون الضمير في ﴿به﴾ لله تعالى؛ لأن قوله: ﴿بِرَبِّنَا﴾ يفسره.

٣ - ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جَدْرَيْنَا﴾ عظمته. يقال: جدّ فلان في عيني، أي: عظم. ومنه قول عمر، أو أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا، أي: عظم في عيوننا ﴿مَا أَخَذَ صَاحِبَهُ﴾ زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الجن والإنس.

٤ - ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، أو إبليس - إذ ليس فوقه سفيه - ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ كفراً لبعده عن الصواب. من: شطّ الدار، أي: بعدت. أو: قولاً يميز فيه عن الحق. وهو نسبة صاحبة الولد إليه. والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره.

٥ - ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قولاً ﴿كَذِبًا﴾ أو مكذوباً فيه. أو: نصب على المصدر؛ إذ الكذب نوع من القول. أي: كان في ظننا: أنّ أحداً لن يكذب على الله بنسبة صاحبة الولد إليه. وكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم.

٦ - كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوف من الأرض قال: أعوذ بسيّد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد: كبير الجن - فقال: ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً، وسفهاً، وكبراً بأن قالوا: سدنا الجن والإنس. أو: فزاد الجن الإنسان

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا
حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَمْ
يُشَاهَبَا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ

﴿رهقاً﴾: إثماً لاستعاذتهم بهم. وأصل الرهق: غشيان المحذور.

٧ - ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأن الجن ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾
بعد الموت. أي: أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم بسماع القرآن
اهتدوا، وأقروا بالبعث. فهلاً أقررتم كما أقروا!

٨ - ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. واللمس:
المسّ. فاستعير للطلب؛ لأنّ الماسّ طالب متعرّف ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا حَرَسًا
شَدِيدًا﴾ جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسون. جمع: حارس. ونُصِبَ على التمييز.
وقيل: الحرس اسم مفرد في معنى الحراس، كالخدم في معنى الخدام، ولذا
وصف بشديد. ولو نظر إلى معناه لقل: شداداً ﴿وَشُهَبًا﴾ جمع: شهاب. أي:
كواكب مضيئة.

٩ - ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا﴾ من السماء قبل هذا ﴿مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماع
أخبار السماء. يعني: كنّا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل
المبعث ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ﴾ يريد الاستماع ﴿الْآنَ﴾ بعد المبعث ﴿يَجِدْ لَمْ﴾ لنفسه
﴿يُشَاهَبَا رَصَدًا﴾ صفة لشهاباً، بمعنى: الراصد. أي: يجد شهاباً راصداً له
ولأجله. أو: هو اسم جمع للراصد على معنى: ذوي شهابٍ راصدين بالرجم،
وهم الملائكة الذين يرجونهم بالشهب، ويمنعونهم من الاستماع. والجمهور على
أنّ ذلك لم يكن قبل مبعث محمد ﷺ. وقيل: كان الرجم في الجاهلية. ولكن
الشياطين كانت تسترق في بعض الأوقات فمنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث
النبي ﷺ.

١٠ - ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ عَذَابٌ﴾ عذاب ﴿أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بعدم استراق السمع
﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً ورحمة.

١١ - ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأبرار المتقون ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ فحذف

كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ ؕ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ۚ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

الموصوف. وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه. أو أرادوا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا﴾ بيان للقسمة المذكورة. أي: كنا ذوي مذاهب متفرقة أو أديان مختلفة. والقدد جمع: قدة، وهي القطعة. من: قددت السير؛ أي: قطعته.

١٢ - ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ أيقنا ﴿أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ لن نفوته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال. أي: لن نعجزه كائنين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أينما كنا فيها ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: ﴿ولن نعجزه﴾ هارين منها إلى السماء. وهذه صفة الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

١٣ - ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ﴾ ﴿فَ﴾ هو ﴿لَا يَخَافُ﴾ - مبتدأ وخبر - ﴿بَحْصًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: ولا ترهقه ذلة. من قوله: ﴿وَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفيه دليل: على أن العمل ليس من الإيمان.

١٤ - ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المؤمنون ﴿وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ الكافرون الجاثرون عن طريق الحق قسط: جار. وأقسط: عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ طلبوا هدى. والتحري: طلب الأحرى. أي: الأولى.

١٥ - ﴿وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقوداً. وفيه دليل: على أن الجني الكافر يعذب في النار. ويتوقف في كيفية ثوابهم.

١٦ - ﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا﴾ ﴿وَأَنْ﴾ خففة من الثقيلة. يعني: وأنه. وهو من جملة الموحى. أي: أوحى إلي أن الشأن لو ﴿أَسْتَقْمُوا﴾ أي: القاسطون ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ كثيراً. والمعنى: لو سعنا عليهم الرزق. وذكر الماء الغدق؛ لأنه سبب سعة الرزق.

لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

١٧ - ﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ القرآن، أو: التوحيد، أو: العبادة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء: عراقي غير أبي عمرو: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً. مصدر صعد. يقال: صعد، صعداً، وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعبذب أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يطيقه. ومنه قول عمر - رضي الله عنه -: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح. أي: ما شق عليّ.

١٨ - ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ من جملة الموحى. أي: أوحى إليّ: ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ أي: البيوت المبنية للصلاة فيها ﴿لِلَّهِ﴾. وقيل: معناه: ﴿وَلِ﴾ لأن المساجد لله فلا تدعوا ﴿على أَنَّ اللام متعلقة بلا تدعوا. أي: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ في المساجد؛ لأنها خالصة لله ولعبادته. وقيل: المساجد أعضاء السجود وهي: الجبهة، واليدان، والركبتان، والقدمان.

١٩ - ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ إلى الصلاة. وتقديره: فأوحى إليّ أنه لما قام عبد الله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبد، ويقرأ القرآن. ولم يقل نبي الله، أو رسول الله؛ لأنه من أحب الأسماء إلى النبي ﷺ، ولأنه لما كان واقعاً في كلامه ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع، أو: لأن عبادة عبد الله ليست بمستبعد حتى يكونوا عليه لبداً ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جماعات. جمع: لبدة. تعجباً مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجاباً بما تلاه من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله.

٢٠ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ وحده - (قال) غير عاصم وحمة - ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ في العبادة. فلم تتعجبون وتزدحمون عليّ؟

٢١ - ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ مضرة ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ نفعاً. أو: أراد بالضرر الغي، بدليل قراءة أبي (غيّاً ولا رشداً) يعني: لا أستطيع أن أضركم، وأن أنفعكم. لأن الضار والنافع هو الله.

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

٢٢ - ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يدفع عني عذابه أحدٌ إن عصيته؛ كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَصُرْنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ.

٢٣ - ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء من: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾. أي: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾. و﴿قُلْ: إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه. وقيل: ﴿بَلَاغًا﴾ بدل من: ﴿ملتحدًا﴾. أي: ﴿لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ منجى ﴿إِلَّا﴾ أن أبلغ عنه ما أرسلني به. يعني: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، فإن ذلك ينجيني. وقال الفراء: هذا شرط وجزاء وليس باستثناء. وإن منفصلة من لا، وتقديره: إن لا أبلغ بلاغًا. أي: إن لم أبلغ لم أجِدَ مِنْ دُونِهِ ملتجأ ولا مجرأ لي، كقولك: إن لا قياماً ففعوداً. والبلاغ في هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عطف على ﴿بَلَاغًا﴾ كأنه قيل: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ إلا التبليغ والرسالات. أي: إلا أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله. ناسباً لقوله إليه، وأن أبلغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان. و﴿مَنْ﴾ ليست بصلة للتبليغ؛ لأنه يقال: بلغ عنه. إنما هي بمنزلة ﴿مَنْ﴾ في ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١] أي: ﴿بَلَاغًا﴾ كائناً ﴿مَنْ﴾ الله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ترك القبول بما أنزل على الرسول، لأنه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ وحّد في ﴿لَهُ﴾ وجمع في ﴿خَالِدِينَ﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

٢٤ - ﴿حَتَّىٰ﴾ يتعلّق بمحذوف دلّت عليه الحال. كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون. أي: الكافر لا ناصر له يؤمّد، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبيأؤه عليهم السلام.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

٢٥ - ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ ما أدري ﴿أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي﴾ وبفتح الياء حجازي وأبو عمرو ﴿أَمَدًا﴾ غاية بعيدة. يعني: أنكم تعذبون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حال، أم مؤجل.

٢٦، ٢٧ - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له. فإنه يطلعه على غيبه ما شاء. و﴿من رسول﴾ بيان لمن ارتضى. والولي إذا أخبر بشيء فظهر فهو غير جازم عليه. ولكنه أخبره بناءً على رؤياه أو بالفراسة. على أن كل كرامة للولي فهي معجزة للرسول. وذكر في التأويلات: قال بعضهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجّمة، وليس كذلك فإنّ فيهم من يصدق خبره. وكذلك المتطببة يعرفون طبائع النبات، وذا لا يعرف بالتأمل، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره، وبقي علمه في الخلق ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ يدخل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ الوحي.

٢٨ - ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: الرسل ﴿رَسُولَكَ رَحْمَتِ رَبِّهِمْ﴾ كاملة، بلا زيادة ولا نقصان إلى المرسل إليهم. أي: ليعلم الله ذلك موجوداً حال وجوده، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد. وحد الضمير في ﴿من بين يديه﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾، وجمع في ﴿أَبْلَغُوا﴾ لمعناه ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار. فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟ و﴿عددًا﴾ حال. أي: وعلم كل شيء معدوداً محصوراً. أو مصدر في معنى: إحصاء.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

١ - ٤ - ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ أي: المترمل. وهو الذي ترمّل في ثيابه، أي: تلفّف بها. بإدغام التاء في الزاي. وكان النبي ﷺ نائماً بالليل مترملاً في ثيابه، فأمر بالقيام للصلاة بقوله: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ * نِصْفَهُ * بدل من ﴿الليل﴾. و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من: ﴿نِصْفَهُ﴾ تقديره: ﴿قم﴾ نصف الليل ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من نصف الليل ﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف - بضم الواو، غير عاصم وحزة ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين. والمراد: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت، وبين أن يختار أحد الأمرين. وهما: النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن جَعَلْتَ ﴿نِصْفَهُ﴾ بدلاً من ﴿قَلِيلًا﴾ كان تخييراً بين ثلاثة أشياء: بين قيام نصف الليل تاماً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه. وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل. وإلا فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف. ولهذا قلنا: إذا أقر: أَنَّ لفلان عليه ألف درهم إلا قليلاً: أنه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ بين

تَرْتِيلاً ﴿١﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ

وفصل. من: الشجر المرتل، أي: المفلج. أو: اقرأ على تودة بتبيين الحروف، وحفظ الوقوف، وإشباع الحركات ﴿تَرْتِيلاً﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه لا بد منه للقارئ.

٥ - ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ سننزل عليك ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: القرآن؛ لما فيه من الأوامر، والنواهي؛ التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين. أو: ﴿ثَقِيلًا﴾ على المنافقين. أو: كلاماً له وزن، ورجحان، ليس بالسفساف الخفيف.

٦ - ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ بالهمز سوى ورش: قيام الليل، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - فهي مصدر من: نشأ: إذا قام، ونهض، على «فاعلة» كالعافية. أو: العبادة التي تنشأ بالليل؛ أي: تحدث. أو: ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة فساعة. وكان زين العابدين يصلي بين العشاءين ويقول: هذه ناشئة الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾^(١) وفاقاً، شامي، وأبو عمرو. أي: يواطىء فيها قلب القائم لسانه. وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. غيرهما ﴿وَطْأً﴾ أي: أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لطرد النوم في وقته، من قوله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»^(٢) ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسد مقالاً، وأثبت قراءة؛ لهدو الأصوات، وانقطاع الحركات.

٧ - ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تصرفاً، وتقلباً في مهماتك، وشواغلك، ففرغ نفسك بالليل لعبادة ربك. أو: فراغاً طويلاً لنومك وراحتك.

٨ - ﴿وَادْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره في الليل والنهار. وذكر الله يتناول: التسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلاة، وتلاوة القرآن، ودراسة العلم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطع إلى عبادته عن كل شيء، والتبتل: الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره. وقيل: رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: (وطاء) وهي قراءة: شامي وأبي عمر؛ كما بين.

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣) ومسلم (٦٧٥).

تَبَيَّنَا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ
وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا
أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

﴿تَبَيَّنَا﴾ في اختلاف المصدر زيادة تأكيد. أي: بتلك الله، فتبتل. أو جيء به مراعاة لحق الفواصل.

٩ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالرفع، أي: هو ﴿رَبُّ﴾. أو: مبتدأ، خبره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وبالجذر شامي، وكوفي غير حفص، بدل من ﴿رَبُّكَ﴾. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: على القسم بإضمار حرف القسم، نحو: الله لأفعلن. وجوابه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كقولك: والله لا أحد في الدار إلا زيد. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ولياً، أو كفيلاً بما وعدك من النصر. أو: إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب، وأن لا إله إلا هو ﴿فاتَّخِذْهُ﴾ كافياً لأمورك. وفائدة الفاء: ألا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار؛ إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار.

١٠ - ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ في من الصاحبة والولد، أو فيك من الساحر والشاعر ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ جانبهم بقلبك، وخالفهم مع حسن المخالفة، وترك المكافأة. وقيل: هو منسوخ بآية القتال.

١١ - ﴿وَذَرْنِي﴾ أي: كلهم إليّ فأنا كافهم ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ رؤساء قريش. مفعول معه. أو: عطف على ﴿ذَرْنِي﴾ أي: دعني وإياهم ﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾ التمتع. وبالكسر: الإنعام. وبالضم: المسرة ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلًا﴾ إلى يوم بدر، أو: إلى يوم القيامة.

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ للكافرين في الآخرة ﴿أَنْكَالًا﴾ قيوداً ثقالاً. جمع: نكل ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً محرقة ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ الذي يتشبث في الحلقوم، فلا يُسَاغ. يعني: الضريع، والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخلص وجعه إلى القلب. وروي: أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق^(١). وعن الحسن: أنه أمسى صائماً فأتى

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/١٣٥).

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ أَلَسَمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ.

بطعام فعرضت له هذه الآية: فقال: ارفعه. ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له، فقال: ارفعه. وكذا الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني وغيره فجاءوا، فلم يزالوا، حتى شرب شربة من سويق.

١٤ - ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما في ﴿لدينا﴾ من معنى الفعل. أي: استقر للكفار ﴿لدينا﴾ كذا وكذا يوم ﴿تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تتحرك حركة شديدة ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا﴾ رملاً مجتمعاً. من: كسب الشيء إذا جمعه. كأنه فعيل بمعنى: مفعول ﴿مَهِيلًا﴾ سائلاً بعد اجتماعه.

١٥، ١٦ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى - عليه السلام - ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي: ذلك الرسول، إذ النكرة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً غليظاً. وإنما خص موسى - عليه السلام - وفرعون - عليه اللعنة - لأن خبرهما كان منتشرأ بين أهل مكة لأنهم كانوا جيران اليهود.

١٧ - ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾. أي: ﴿فكيف تتقون﴾. عذاب يوم كذا ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ هنا؟ أو: ظرف. أي: ﴿فكيف﴾ لكم التقوى في يوم القيامة ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ في الدنيا؟ أو: منصوب بـ ﴿كفرتهم﴾ على تأويل جحدتم. أي: ﴿فكيف﴾ لكم ﴿تَتَّقُونَ﴾ الله وتحشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؟ لأن تقوى الله: خوف عقابه ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ﴾ - صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. والعائد محذوف. أي: فيه - ﴿شِيبًا﴾ من هوله وشدته. وذلك حين يقال لآدم - عليه السلام -: قم فابعث بعث النار من ذريتك. هو جمع: أشيب. وقيل: هو على التمثيل للتهويل. يقال: في الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال.

١٨ - ﴿أَلَسَمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضاً. أي: ﴿السما﴾ على

كَانَ وَعَدُّهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَهُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ تُخِصُّوه فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

عظمها وإحكامها تنفطر فيه، أي: تنشق، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ والتذكير على تأويل السماء بالسقف. أو: ﴿السماء﴾ شيء ﴿منفطر﴾ وقوله: ﴿به﴾ أي: بيوم القيامة. يعني: أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم، وهوله؛ كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿كَانَ وَعَدُّهُ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول، وهو: اليوم؛ أو: إلى الفاعل، وهو: الله عز وجل ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً.

١٩ - ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء اتعظ بها، واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

٢٠ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ أَقْلٍ﴾ فاستعير الأدنى - وهو الأقرب - للأقل؛ لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياء وإذا بعدت كثر ذلك ﴿مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ بضم اللام سوى هشام ﴿وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ منصوبان. عطف على ﴿أدنى﴾ مكِّي وكوفي. ومن جرهما عطف على ﴿ثُلثي﴾ ﴿وَطَآئِفَهُ﴾ عطف على الضمير في ﴿تقوم﴾ وجاز بلا توكيد؛ لوجود الفاصل ﴿مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾. أي: ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ولا يقدر على تقدير الليل والنهار، ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده. وتقديم اسمه عز وجل مبتدأً مبنياً عليه لـ ﴿يُقَدِّرُ﴾ هو الدال على أنه مختص بالتقدير. ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم. فنزل: ﴿عَلِمَ أَنْ تُخِصُّوه﴾ لن تطبيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة، وفي ذلك حرج ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فخفف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿فَاقْرَءُوا﴾ - في الصلاة، والأمر للوجوب - أو في غيرها، والأمر للندب ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾. روى أبو حنيفة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: من قرأ مئة آية في ليلة لم يكتب من الغافلين. ومن قرأ مئتي آية كتب من القانتين. وقيل: أراد بالقرآن الصلاة لأنها بعض أركانها. أي: فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل. وهذا ناسخ للأول. ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس. ثم بين الحكمة في

عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَىٌّ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُوا مَا يَشَاءُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

النسخ، وهي تعذر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَىٌّ﴾ أي: أنه. مخففة من الثقيلة. والسين بدل من تخفيفها وحذف اسمها. ﴿مَرَضَىٌّ﴾ فيشق عليهم قيام الليل ﴿وَأَخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون ﴿يَلْتَمِعُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يضربون﴾ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿وَأَخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. سوى بين المجاهد والمكتسب؛ لأن كسب الحلال جهاد قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء. وقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: ما خلق الله مائة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبي رجل أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله ﴿فَأَقْرَعُوا مَا يَشَاءُ مِنْهُ﴾ كثر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتُوا﴾ الواجبة ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ - بالنوافل - والقرض لغة: القطع، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى. وإنما أضافه إلى نفسه لثلاثي يمن على الفقير فيما يتصدق عليه. وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة، فلا يكون له عليه مئة، بل المنة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ﴾ أي: ثوابه. وهو جزاء الشرط ﴿عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ مما خلفتم وتركتم. فالمفعول الثاني لتجدوه ﴿خَيْرًا﴾ و﴿هو﴾ فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأن «أفعل من» أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأجزل ثواباً ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من السيئات، والتقصير في الحسنات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿رَحِيمٌ﴾ يخفف عن أهل الجهد والتوفيق.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾

١، ٢ - روى جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد! إنك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً. فنظرت فوقى، فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض» - يعني: الملك الذي ناداه - «فرعبت ورجعت إلى خديجة - رضي الله عنها - فقلت: دثريني، دثريني». فدثرته خديجة. فجاء جبريل وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(١) أي: المتلفف بشيابه، من: الدثار. وهو: كل ما كان من الثياب فوق الشعار. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. وأصله: المتدثر. فأدغم ﴿قُمْ﴾ من مضجعك. أو: ﴿قم﴾ قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنْذِرْ﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. أو: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد. وقيل: سمع من قريش ما كرهه، فاغتم فتغطى بثوبه مفكراً؛ كما يفعل المغموم. فقل له: يا أيُّها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدثار؛ قم فاشتغل بالإنذار؛ وإن آذاك الفجَّار.

(١) رواه البخاري (٤٩٢٣، ٤٩٢٤) ومسلم (١٦١) (٢٥٧، ٢٥٨).

وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٢﴾ وَيَايَاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ مَّيْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾

٣- ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختصَّ ربك بالتكبير. وهو: التعظيم. أي: لا تُكبر في عينك غيره، وقل: عند ما يعرفونك من غير الله: الله أكبر. وروي: أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبرت خديجة، وفرحت، وأيقنت أنه الوحي^(١). وقد يحمل على تكبير الصلاة. ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره.

٤- ﴿وَيَايَاكَ فَطَهِّرْ﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأن الصلاة لا تصح إلا بها. وهي الأولى في غير الصلاة. أو: فقصر مخالفة للعرب في تطويلهم الثياب، وجزمهم الذبول؛ إذ لا يؤمن معه إصابة النجاسة. أو: طهر نفسك مما يستقذر من الأفعال. يقال: فلان طاهر الثياب: إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب، وفلان دنس الثياب للغادر؛ ولأن من طهر باطنه يطهر ظاهره ظاهراً.

٥- ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء يعقوب، وسهل، وحفص. وغيرهم بالكسر: العذاب. والمراد: ما يؤدي إليه ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي: اثبت على هجره؛ لأنه كان بريئاً منه.

٦- ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾ بالرفع. وهو منصوب المحلّ على الحال. أي: لا تعط مستكثراً رانياً لما تعطيه كثيراً. أو: طالباً أكثر ممّا أعطيت؛ فإنك مأمور بأجل الأخلاق، وأشرف الآداب. وهو من: منّ عليه: إذا أنعم عليه. وقرأ الحسن ﴿تستكثّر﴾ بالسكون جواباً للنهي.

٧- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه، وكلّ مصبور عليه، ومصبور عنه.

٨- ١٠- ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نفخ في الصور. وهي: النفخة الأولى. وقيل: الثانية ﴿فَذَلِكَ﴾ إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ ﴿يَوْمٌ مَّيْمٌ﴾ مرفوع المحلّ، بدل من «ذلك» ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر. كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. والفاء في على

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِيسِيرٍ ﴿١٥﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٧﴾ وَبَنِينَ
شُهُودًا ﴿١٢﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

﴿فإذا﴾ للتسيب، وفي ﴿فذلك﴾ للجزاء؛ كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير، يلقون في عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه. والعامل في ﴿فإذا﴾ ما دل عليه الجزاء. أي: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ عسر الأمر ﴿على﴾ الْكَافِرِينَ. وأكد بقوله ﴿غَيْرِيسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين. أو: ﴿عسير﴾ لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

١١-١٤- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: كله إلي. يعني: الوليد بن المغيرة. وكان يلقب في قومه بالوحيد. ﴿ومن خلقت﴾ معطوف، أو مفعول معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الباء في ﴿ذرنى﴾. أي: ذرنى وحدي معه، فإنني أكفيك أمره. أو: من التاء في ﴿خلقت﴾ أي: خلقتة وحدي، لم يشركني في خلقه أحد. أو: من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَنْ﴾ أي: خلقتة منفرداً بلا أهل، ولا مال، ثم أنعمت عليه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً. أو: مُمدداً بالنماء. وكان له الزرع، والضرع، والتجارة. وعن مجاهد: كان له مئة ألف دينار. وعنه: أن له أرضاً بالطائف لا ينقطع ثمرها ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة لغناهم عن السفر. وكانوا عشرة أسلم منهم خالد، وهشام، وعمارة ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاه والرياسة، فأتممت عليه نعمتي الجاه المال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

١٥-١٦- ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ استبعاداً أو استنكاراً لطمعه وحرصه، أي: يرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر. وقال الحسن: ﴿أن أزيد﴾ أي: أن أدخله الجنة، فأعطيه مالا وولداً، كما قال: ﴿لَأَوْتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] ﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقطع لرجائه. أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم. فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ للقرآن ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً جاحداً. وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائله قال: لم لا يزايد؟ فقل: إنه جحد آيات النعم، وكفر بذلك نعمته. والكافر لا يستحق المزيد.

سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا

١٧ - ﴿سَأَرْهُقُهُ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عقبة شاقة المصعد، وفي الحديث: «الصعود: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً»^(١).

١٨ - ٢٠ - ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ تعليل للوعيد، كأنه تعالى عاجله بالفقر والذل، بعد الغنى والعز، لعناده؛ ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب؛ لبلوغه بالعناد غايته، وتسميته القرآن سحراً. يعني: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقوله، وهياًه ﴿فَقِيلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كزر للتأكيد. و﴿ثُمَّ﴾ يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول.

٢١ - ٢٣ - ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه الناس، أو فيما قَدَّرَ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبض، والكلوح ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عنه أو عن مقامه وفي مقاله. و﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ عطف على ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ والدعاء اعتراض بينهما. وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ في المعطوفات لبيان: أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

٢٤ - ٢٥ - ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يروى عن السحرة. روي: أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه يعلو وما يعلو. فقالت قريش: صباً والله الوليد. فقال أبو جهل - وهو ابن أخيه -: أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزينا، وكلمه بما أحماه. فأتاهم، فقال: يزعمون: أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يُخْنَقُ؟ ويقولون: إنَّه كاهن، فهل رأيتموه قط يتكهن؟ ويزعمون: أنه شاعر. فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ ويزعمون: أنه كذاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ وما الذي يقوله إلا سحر يؤثر عن مسيلمة، وأهل بابل. فارتج النادي فرحاً، وتفرقوا متعجبين منه. وذكر الفاء دليل على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله نطق بها من غير تلبث ﴿إِنَّ هَذَا

إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين؛ لأن الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

٢٦ - ٢٨ - ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ سادخله. بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ تهويل لشأنها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: هي ﴿لَا تَبْقِي﴾ لحماً ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عظماً. أو: ﴿لَا تَبْقِي﴾ شيئاً يُلْقَى فيها إلا أهلكته ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ ه هالكاً، بل يعود كما كان.

٢٩ - ﴿لَوْحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي لوحَةٌ ﴿لِلْبَشَرِ﴾ جمع: بشرة، وهي: ظاهر الجلد. أي: مسوَّدة للجلود أو محرقة لها.

٣٠ - ﴿عَلَيْهَا﴾ على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: يلي أمرها ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكاً عند الجمهور. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفّاً. وقيل: نقيباً.

٣١ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لأنهم خلاف جنس المعذبين، فلا تأخذهم الرأفة والرقّة؛ لأنهم أشدّ الخلق بأساً. فللواحد منهم قوة الثقلين ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاء واختباراً ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، حتّى قال أبو جهل لما نزلت ﴿عليها تسعة عشر﴾: ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدهم؟! فقال أبو الأشدّ - وكان شديد البطش - : «أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين». فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد، مع أنّه لا يطلب في الأعداد العلل: إن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر خازن جهنم. وهو مالك، وهو الأكبر. وقيل: في سقر تسعة عشر دركاً، وقد سلط على كلّ درك ملك. وقيل: يعذب فيها بتسعة عشر لونا من العذاب، [وعلى] ^(١) كلّ لون ملك موكل. وقيل: إنّ جهنم تحفظ بما تحفظ

لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَن يَشَاءُ

به الأرض من الجبال. وهي تسعة عشر. وإن كان أصلها مئة وتسعين إلا أن غيرها ينشعب عنها ﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين. فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا: أنه منزل من الله ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد - وهو عطف على ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ - ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدقوا سائر ما أنزل. أو: يزدادون يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف أيضاً. وفيه تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان؛ إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دلاً على انتفاء الارتياب، ثم عطف على ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ أيضاً ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المشركون. فإن قلت: النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية. قلت: معناه: وليقول ﴿المنافقون﴾ الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بمكة: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب. وذا لا يخالف كون السورة مكية. وقيل: المراد بالمرض: الشك، والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين. و﴿مَثَلًا﴾ تمييز لهذا، أو: حال منه، كقوله: ﴿هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة، وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلاً. والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟ وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر، لا عشرين؟ وغرضهم إنكاره أصلاً، وأنه ليس من عند الله، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ الكاف نصب. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى. أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى - يعني: إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا، وهدى المؤمنين بتصديقه ورؤية الحكمة في ذلك - ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء. وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله بالهداية

وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْزَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشْرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

والإضلال. ولما قال أبو جهل: أما لرَبِّ محمد أعوان إلا تسعة عشر؟! نزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ﴾ لفطر كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعزُّ عليه تتميم الخزنة عشرين. ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ﴿وَمَا هِيَ﴾ متصل بوصف سقر. و﴿هي﴾ ضميرها أي: ﴿وما﴾ سقر وصفتها ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ أي: تذكرة للبشر. أو: ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

٣٢ - ٣٧ - ﴿كَلَّا﴾ إنكار - بعد أن جعلها ذكراً - أن تكون لهم ذكراً لأنهم لا يتذكرون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف. وغيرهم: ﴿إِذَا دَبَرَ﴾ ودبر بمعنى: أدبر. ومعناها: ولَّى وذهب. وقيل: ﴿أدبر﴾ ولَّى ومضى. و﴿دَبَرَ﴾ جاء بعد النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْزَرَ﴾ أضاء. وجواب القسم ﴿إِنَّهَا﴾ إن سقر ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هي جمع: الكبرى. أي: ﴿لِإِحْدَى﴾ البلايا، أو الدواهي ﴿الكبرى﴾. ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهن واحدة في العظم، لا نظيرة لها؛ كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء ﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من ﴿إِحْدَى﴾. أي: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى﴾ الدواهي إنذاراً؛ كقولك: هي إحدى النساء عفاً. وتُبدل من ﴿لِلْبَشْرِ﴾ بِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ بإعادة الجار ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه. وعن الزجاج: إلى ما أمر أو عَمَّا نهى.

٣٨ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ هي ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقل: رهين. لأن فعلاً بمعنى مفعول، يستوى فيه المذكر والمؤنث. وإنما هي: اسم بمعنى: الرهن؛ كالشئمة بمعنى: الشتم؛ كأنه قيل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ رَهْنٌ. والمعنى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ رَهْنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك.

٣٩ - ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي: أطفال المسلمين؛ لأنهم لا أعمال لهم يرتنون بها. أو: إلا المسلمين؛ فإنهم فكوا رقابهم بالطاعة؛ كما يخلص الرهن رهنه بأداء الحق.

فِي جَنَّتٍ يَسْأَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ
الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَظْمًا يَنْصُرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ
الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ
مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

٤٠ - ٤٢ - ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ أي: هم ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ﴿يَسْأَلُونَ﴾
* عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْهُمْ. أَوْ: يَتَسَاءَلُونَ غَيْرَهُمْ عَنْهُمْ﴾ مَا
سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿أَدْخَلَكُمْ فِيهَا. وَلَا يُقَالُ: لَا يَطَابِقُ قَوْلُهُ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾
- وهو سؤال للمجرمين - قَوْلُهُ: ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمَجْرِمِينَ﴾ وهو سؤال عنهم،
وإنما يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سَلَكَكُمْ؟ لَأَنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾
ليس ببيان للتساؤل عنهم. وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم؛ لَأَنَّ
المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم:
﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُنْ مِنَ الْمَصَلِّينَ﴾. إِلَّا أَنَّهُ اخْتَصَرَ كَمَا هُوَ نَهْجُ
الْقُرْآنِ. وَقِيلَ: ﴿عَنِ﴾ زِيَادَةً.

٤٣ - ٤٨ - ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي: لم نعتقد فرضيتها ﴿وَلَوْ نَكُنَّ نَظْمًا
يَنْصُرُونَ﴾ كَمَا يَطْعَمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ الْخَوْضُ: الشَّرْعُ فِي
الْبَاطِلِ، أَيْ: نَقُولُ الْبَاطِلَ وَالزُّورَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ الْحِسَابُ
وَالْجَزَاءُ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الْمَوْتُ ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ،
وَالنَّبِيِّينَ، وَالصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُا لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْكَافِرِينَ. وَفِيهِ دَلِيلٌ ثَبُوتِ الشَّفَاعَةِ
لِلْمُؤْمِنِينَ. فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعَةِ
وَمُضَرٍّ»^(١).

٤٩ - ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ﴾ التَّذْكِيرُ، وَهُوَ: الْعِظَةُ؛ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿مُعْرِضِينَ﴾
مُؤَلِّينَ. حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ. نَحْوُ: مَالِكٌ قَائِمًا؟

٥٠، ٥١ - ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ﴾ أَيْ: حُمُرُ الْوَحْشِ. حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي
﴿مُعْرِضِينَ﴾ ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ شَدِيدَةُ الْنفَارِ، كَأَنَّهَا تَطْلُبُ الْنفَارَ مِنْ نَفُوسِهَا. وَبِفَتْحِ

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْخَفِيرَةِ ﴿٥٦﴾

الفاء مدنيّ، وشاميّ؛ أي: استتفرها غيرها ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ حال. و«قد» معها مقدّرة. والقسورة: الرماة، أو: الأسد. فعولة من القسر. وهو: القهر والغلبة. شبّوها في إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر بحمر جدّت في نفاها.

٥٢ - ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ. وذلك: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتّى تأتي كلّ واحد منا بكتب من السماء، عنوانها: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتّباعك ونحوه قوله: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كلّ رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار.

٥٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات. ثم قال: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف. ٥٤ - ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ رَدَّعَهُمْ عن إعراضهم عن التذكرة. وقال: إنّ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية.

٥٥ - ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ﴾ أي: ﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينساه فعل، فإنّ نفع ذلك عائد إليه.

٥٦ - ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وبالتاء: نافع ويعقوب ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلّا وقت مشيئة الله، أو: إلّا بمشيئة الله ﴿هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْخَفِيرَةِ﴾ في الحديث: «هو أهل أن يتقى، وأهل أن يغفر لمن اتّقه»^(١).

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

١ - ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أقسم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - .
و﴿لَا﴾ صلة؛ كقوله: ﴿ثَلَاثَ عَشَرَ﴾ [الحديد: ٢٩] وقوله:
في بئر لا حَوْرٍ سَرَى وما شعر
وقوله:

تَذَكَّرْتُ لَيْلٍ فَاعْتَرَنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ ضَمِيرُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ
وعليه الجمهور. وعن الفراء ﴿لَا﴾ ردّ لإنكار المشركين البعث، كأنه قيل:
ليس المراد كما تزعمون، ثم قيل: أقسم بيوم القيامة. وقيل: أصله: ﴿لَأَقْسِمُ﴾
كقراءة ابن كثير، على أَنَّ اللامَ للابتداء، و: ﴿أَقْسِمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي:
لأنا أقسم. ويقويه: أَنَّهُ في الإمام بغير ألف، ثم أشبع فظهر من الإشباع ألف.
وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب، وقد يفارقه.

٢ - ٣ - ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أَنَّهُ قسم آخر. وعن الحسن:
أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، فهي صفة ذم، وعلى القسم صفة

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٢﴾ بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ ﴿٤﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ فَإِذَا رَاقَ الْبَصَرُ ﴿٦﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٧﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٨﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿٩﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١٠﴾ إِلَيْنَا رِكْ يَوْمَئِذٍ الْمُنْفَرُّ ﴿١١﴾ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٢﴾

مدح، أي: النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى. وقيل: هي نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنة. وجواب القسم محذوف. أي: لتبعثن. دليله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث ﴿أَلَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب.

٤- ﴿بَلَىٰ﴾ أوجبت ما بعد النفي. أي: ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَدَرِينٌ﴾ حال من الضمير في نجمع. أي: نجمعها ﴿قَادِرِين﴾ على جمعها وإعادتها كما كانت. أو: قادرين ﴿عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرها، فكيف بكبار العظام؟

٥- ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ﴿لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

٦- ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة.
٧- ١٠- ﴿إِذَا رَاقَ الْبَصَرُ﴾ تحير فرعاً. وفتح الراء مدني: شَخَصَ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه، أو: غاب. من قوله: ﴿لَنَسْفَقْنَا بِهِ﴾ [القصص: ٨١] وقرأ أبو حيوه بضمة الخاء ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب. أو: جمعا في ذهاب الضوء. أو: يجمعان فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ هو مصدر. أي: الفرار من النار. أو: المؤمن أيضاً من الهول. وقرأ الحسن بكسر الفاء. وهو يحتمل المكان والمصدر.

١١، ١٢- ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ﴿إِلَيْنَا رِكْ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُنْفَرُّ﴾ مستقر العباد. أو: موضع قرارهم من جنة أو نار، مفوض ذلك إلى مشيئته، من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار.

١٣- ﴿يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ من عملٍ عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ ما لم يعمل.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ لَا تَحْرَكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾

١٤ - ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ شاهدٌ. والهاء للمبالغة، كعلامة. أو: أنه لأنه أراد به جوارحه؛ إذ جوارحه تشهد عليه. أو: هو حجة على نفسه. والبصيرة: الحجة. قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وتقول لغريك: أنت حجة على نفسك، وبصيرة. رفعٌ بالابتداء، وخبره ﴿على نفسه﴾ تقدّم عليه. والجملة خبر ﴿الإنسان﴾ كقولك: زيد على رأسه عمامة. والبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك المؤكل عليه.

١٥ - ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ ولو أرخى ستوره. والمُعذار: الستر. وقيل: ولو جاء بكلّ معذرة ما قبلت منه، فعليه من يكذب عذره. والمعاذير ليس بجمع معذرة؛ لأنّ جمعها معاذر. بل هي: اسم جمع لها. ونحوه: المناكير في المنكر.

١٦، ١٧ - ﴿لَا تَحْرَكَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ بالقرآن. وكان ﷺ يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلّت منه. فقيل له: ﴿لَا تَحْرَكَ﴾ لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ ﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة؛ ولئلا يتفلّت منك. ثم علّل النهي عن العجلة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك ﴿وقرآنَهُ﴾ وإثبات قراءته في لسانك. والقرآن: القراءة. ونحوه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

١٨، ١٩ - ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريل - فجعل قراءة جبريل قراءته - ﴿فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: قراءته عليك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

٢٠، ٢١ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث. أو: ردع لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكار لها عليه. وأكده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتُم من عجل، وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها ﴿وتذرون الآخرة﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ لَهَا رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَاللَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾

تعملون لها. والقراءة بالتاء فيهما مدني وكوفي.

٢٢، ٢٣ - ﴿وَجُوهٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ حسنة ناعمة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بلا كيفية، ولا جهة، ولا ثبوت مسافة، وحمل النظر على الانتظار لأمر ربها، أو لثوابه، لا يصح؛ لأنه يقال: نظرت فيه: أي: تفكرت. ونظرته: انتظرته. ولا يعدى بإلى إلا بمعنى الرؤية. مع أنه لا يليق الانتظار في دار القرار.

٢٤، ٢٥ - ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٍ﴾ كالحة شديدة العبوس، وهي: وجوه الكفار ﴿تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعلٌ هو في شدته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقصم فقار الظهر.

٢٦ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت؛ الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة؛ التي تبقون فيها مخلدين ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح. وجاز وإن لم يجزلها ذكر؛ لأن الآية تدل عليها ﴿التَّرَاقِيَ﴾ العظام المكتنفة لشجرة النحر عن يمين وشمال. جمع: ترقوة.

٢٧ - ﴿وَقِيلَ لَهَا رَاقٍ﴾ يقف حفص على ﴿من﴾ وقيفة. أي: قال حاضرو المحتضر بعضهم لبعض: أيكم يرقيه مما به؟ من: الرقية، من حد: «ضرب» أو: هو من كلام الملائكة: أيكم يرقى بروحه: أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟ من الرقي، من حد «علم».

٢٨ - ﴿وَضَنَّ﴾ أيقن المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذي نزل به هو: فراق الدنيا المحبوبة.

٢٩ - ﴿وَاللَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التوت ساقاه عند موته. وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تُلْفَانِ في أكفانه. وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن الساق مثل في الشدة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هما هتان: هم الأهل والولد، وهم القدوم على الواحد الصمد.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ ﴿٣٥﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتْلَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ
يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٨﴾ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴿٣٩﴾ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴿٤٠﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٤١﴾ أَلَمْ يَكُنْ
نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٤٢﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٤٣﴾ لَجَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٤﴾

٣٠ - ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ﴾ هو مصدر: ساقه. أي: مساق العباد إلى حيث أمر الله، إما إلى الجنة، أو إلى النار.

٣١، ٣٢ - ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ بالرسول والقرآن ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ الإنسان - في قوله: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ - ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَقَتْلَىٰ﴾ عن الإيمان. أو: ﴿فلا صدق﴾ ماله. يعني: فلا زكاه.

٣٣ - ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر. أصله: يتمطط. أي: يتمدد؛ لأن المتبختر يمد خطاه، فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة.

٣٤، ٣٥ - ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ﴿فَأَوَّلَىٰ﴾ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ كَرَّرَ للتأكيد. كأنه قال: ويل لك، فويل، ثم ويل لك، فويل. وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار.

٣٦ - ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أَيْحَسِبُ الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يبعث، ولا يجازى؟

٣٧ - ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بالياء: ابن عامر، وحفص. أي: يراق المني في الرحم. وبالتالي: يعود إلى النطفة.

٣٨ - ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فخلق الله منه بشراً سوياً.

٣٩ - ﴿لَجَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: من المني الصنفين.

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿١١﴾

٤٠ - ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة؟ وكان ﷺ إذا قرأها يقول: «سبحانك، بلى»^(١).

* * *

(١) رواه أبو داود (٨٨٧).

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

١- ﴿هَلْ أَتَى﴾ قد مضى ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ آدم - عليه السلام - ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أربعون سنة مصوراً قبل نفخ الروح فيه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لم يذكر اسمه، ولم يدر ما يراد به؛ لأنه كان طيناً يمرّ به الزمان. ولو كان غير موجود لم يوصف بأنه قد أتى عليه حين من الدهر. وحلّ ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ النصب على الحال من ﴿الإنسان﴾. أي: أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ غير المذكور.

٢- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: ولد آدم - وقيل: الأول ولد آدم أيضاً. و﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ على هذا: مدة لبثه في بطن أمه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس - ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نعت، أو: بدل منها. أي: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] قد امتزج فيها الماءان. ومشجه، ومزجه: بمعنى. و﴿نطفة أمشاج﴾ كبرمة أعشار. فهو لفظ مفرد غير جمع؛ ولذا وقع صفة للمفرد. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال. أي: خلقناه مبتلين. أي: مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ذا سمع وبصر.

٣- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يبيننا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع ﴿إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٤﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٦﴾

شَاكِرًا ﴿٢﴾ مؤمنًا ﴿٢﴾ وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢﴾ كافرًا، حالان من الهاء في ﴿هديناه﴾. أي: إن شكر أو كفر فقد هديناه السبيل في الحالين. أو من ﴿السبيل﴾ أي: عرفناه السبيل ﴿إِمَّا﴾ سبيلًا ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا﴾ سبيلًا ﴿كَفُورًا﴾. ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

٤- ولما ذكر الفريقين أتبعهما ما أعدّ لهما فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا﴾ جمع سلسلة. بغير تنوين: حفص، ومكي، وأبو عمرو، وحمة. وبه؛ ليناسب ﴿أَغْلَلًا وَسَعِيرًا﴾ إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب: غيرهم ﴿وَأَغْلَلًا﴾ جمع غُلّ ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً موقدة.

٥، ٦- وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع: ير، أو: بار، كرت، وأرباب، وشاهد، وأشهد. وهم الصادقون في الإيمان، أو: الذين لا يؤذون الذر، ولا يضمرون الشر. ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ خمر. فنفس الخمر تسمى: كأساً. وقيل: الكأس: الزجاجة إذا كانت فيها خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾ ماءً كافورًا. وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور، ورائحته، وبرده ﴿عَيْنًا﴾ بدل منه ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: منها، أو: الباء زائدة، أو: هو محمول على المعنى. أي: يلتذ بها. أو: يروى بها. وإنما قال أولاً: بحرف ﴿مِنْ﴾ وثانياً بحرف الباء؛ لأن الكأس مبتدأ شربهم، وأول غايته. وأما العين فيها يمزجون شرابهم فكأنه قيل: يشرب عباد الله بها الخمر ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم. وهو جواب مَنْ عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟ والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات؛ لأن مَنْ وفى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا، من: استطار الفجر.

وَيُطْعَمُونَ أَلْطَّامَ عَلَى حَيْهٍ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

٨ - ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَّامَ عَلَى حَيْهٍ﴾ حب الطعام، أي: مع الاشتهااء والحاجة إليه. أو: على حب الله ﴿ومسكينًا﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿ويَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له ﴿وأَسِيرًا﴾ مأسوراً مملوكاً أو غيره.

٩ - ثم عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: لطلب ثوابه. أو: هو بيان من الله عز وجل عمّا في ضمائرهم؛ لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾ هديّة على ذلك ﴿وَلَا شُكْرًا﴾ ثناء. وهو مصدر، كالشكر.

١٠ - ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ أي: إنّنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة. أو: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فتصدّقنا لوجهه حتّى نأمن من ذلك الخوف ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء. نحو: نهارك صائم. والقمطرير: الشديد العبوس؛ الذي يجمع ما بين عينيه.

١١ - ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ صانهم من شدائده ﴿وَلَقَّعَهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجّار ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ فرحاً في القلوب.

١٢ - ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيثار.

نزلت في عليّ، وفاطمة، وفضّة - جارية لهما -: لما مرض الحسن والحسين - رضي الله عنهم - نذروا صوم ثلاثة أيّام. فاستقرض عليّ - رضي الله عنه - من يهوديّ ثلاثة أصوع من الشعير فطحنّت فاطمة - رضي الله عنها - كلّ يوم صاعاً وخبزت، فأثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً، ولم يذوقوا إلّا الماء في وقت الإفطار^(١) ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً فيه مأكّل هنيء ﴿وَحَرِيرًا﴾ فيه ملبس بهي.

(١) قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق، فهذا وأشباهه عامتها مفتعلة. (نواذر الأصول ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧).

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ

١٣ - ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الأسرة. جمع: الأريكة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: غير راثين ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير، فظلها دائم، وهواؤها معتدل، لا حرّ شمس يحمي، ولا شدة برد تؤذي. وفي الحديث: «هواء الجنة سحسج لا حرّ ولا قو»^(١). فالزمهرير: البرد الشديد. وقيل: القمر. أي: الجنة مضيئة، لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

١٤ - ﴿ودَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ قريبة منهم ظلال أشجارها. عطف على ﴿جَنَّةٍ﴾. أي: ﴿و﴾ جنة أخرى ﴿دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾. كأنهم وعدوا جنتين؛ لأنهم وصفوا بالخوف - بقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ - ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَذُلَّتْ﴾ سخرت للقائم والقاعد والمتكيء. وهو حال من ﴿دَانِيَةً﴾ أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم. أو: معطوفة عليها، أي: ﴿ودَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ ومذلة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها. جمع: قُطْف ﴿نَذِيلًا﴾.

١٥، ١٦ - ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب. والآنية: جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضة - جمع: كوب، وهو: إبريق لا عروة له - ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ كان تامة. أي: كوتت فكانت قوارير بتكوين الله. نصب على الحال - ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي: مخلوقة من فضة، فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها، وصفاء القوارير وشفيفها؛ حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قوارير كل أرض من تربتها. وأرض الجنة فضة. قرأ نافع، والكسائي، وعاصم، وفي رواية أبي بكرٍ بالتنوين فيهما، وحمزة، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص بغير تنوين فيهما، وابن كثير بتنوين الأول. فالتنوين في الأول لتناسب الآي

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤/٦٧٠).

قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ

المتقدمة، والمتأخرة، وفي الثاني لإتباعه الأول. والوقف على الأول قد قيل، ولا يوثق به؛ لأن الثاني بدل الأول ﴿قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ ﴿قوارير من فضة﴾ أي: أهل الجنة قدروها على أشكال مخصوصة، فجاءت كما قدروها تكرمة لهم، أو: السقاة جعلوها على قدر ري شاربها، فهي ألذ لهم، وأخف عليهم. وعن مجاهد: لا يُفيض، ولا يغيض.

١٧، ١٨ - ﴿وَتُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ * عَيْنًا - بدل من ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ - ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿تُسَمَّى﴾ تلك العين ﴿سَلْسِيلًا﴾. سميت العين ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذه وتستطيه؛ و﴿سَلْسِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها. قال أبو عبيدة: ماء سلسيل: أي: عذب طيب.

١٩ - ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين. أو: ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾. وتخصيص المنثور لأنه أزين في النظر من المنظوم.

٢٠ - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ظرف. أي: في الجنة. وليس لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعول ظاهر، ولا مقدر ليشيع في كل مرئي. تقديره: ﴿وَإِذَا﴾ اكتسبت الرؤية في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً. يروى: «أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»^(١). وقيل: ملك لا يعقبه هُلك. أو: لهم فيها ما يشاؤون، أو يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون في الدخول عليهم.

٢١ - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير في ﴿يطوف عليهم﴾.

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمِنْهُمْ

أي: ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ عاليًا للمطوف عليهم ﴿ثياب﴾. وبالسكون: مدني، وحمزة، على أنه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. أي: ما يعلوهم من ملابسهم ﴿ثياب سندس﴾ رقيق الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ جمع: أخضر ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ. برفعهما؛ حملًا على الثياب، نافع، وحفص. وبجرهما؛ حمزة، وعلي، حملًا على ﴿سندس﴾. ويرفع الأول، وجر الثاني، أو عكسه: غيرهم ﴿وَحُلُّوْا﴾ عطف على ﴿ويطوف عليهم﴾ ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾. وفي سورة الملائكة ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣] قال ابن المسيب: لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضة، وآخر من ذهب، وآخر من لؤلؤ. ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص. وقيل: إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من الوسائط، فإذا هم بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكفٍّ من غيب إلى عبد ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا؛ لأن كونها رجسًا بالشرع، لا بالعقل، ولا تكليف ثم. أو: لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة^(١)، وتدوسه الأقدام الدنسة.

٢٢ - يقال لأهل الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُم جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً، مقبولاً، مرضياً عندنا؛ حيث قلتم للمسكين، واليتيم، والأسير: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾.

٢٣، ٢٤ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لأن، تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس النبي ﷺ: أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفزقاً إلا حكمةً وصواباً. ومن الحكمة: الأمر بالمصابرة ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالة، واحتمال الأذية، وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة ﴿وَلَا تَطْعَمِنْهُمْ﴾ من الكفار للضجر من تأخر

(١) «الوضر»: الدرن والدسم.

ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَادَّكَّرَ أَسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ
لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَیْجُوعُونَ الْعَاجِلَةَ یَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ یَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ
أَتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

الظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ ركباً لما هو إثم، داعياً لك إليه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فاعلاً لما هو كفر
داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم، أو كفر،
أو غير إثم، ولا كفر. فنهى أن يساعدهم على الأولين دون الثالث. وقيل:
الآثم: عتبه؛ لأنه كان ركباً للمآثم والفسوق. والكفور: الوليد، لأنه كان
غالياً في الكفر والجحود. والظاهر: أن المراد كلُّ آثم وكافر. أي: لا تطع
أحدهما. وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما، ومتفرقاً.
ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما؛ لأن الواو للجمع فيكون منهيّاً عن
طاعتهما، لا عن طاعة أحدهما. وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى ولا. أي: ولا تطع أثماً
ولا كفوراً.

٢٥، ٢٦ - ﴿وَادَّكَّرَ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ صلّ له ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾
صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصلّ صلاة العشاءين
﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه، أو نصفه، أو
ثلثه.

٢٧ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ﴾ قدامهم، أو خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً لا يعبؤون به، وهو
يوم القيامة؛ لأنّ شدائده تثقل على الكفار.

٢٨ - ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم. عن ابن عباس
- رضي الله عنهما - والفراء ﴿وَلِإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: ﴿إِذَا شِئْنَا﴾
إهلاكهم أهلكناهم و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ﴾ في الخلقة ممن يطيع.

٢٩ - ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ السورة ﴿تَذْکِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾
بالتقرب إليه بالطاعة له واتباع رسوله.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

٣٠، ٣١ - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتخذ السبيل إلى الله - وبالياء، مكِّي، وشامي، وأبو عمرو - ومحلُّ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ النصب على الظرف أي: إلا وقت مشيئة الله. وإنما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك. وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة، والعصيان، والكفر، والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال، ﴿حَكِيمًا﴾ مصيباً في الأقوال والأفعال، ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هم المؤمنون ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته؛ لأنها برحمته تنال. وهو حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: قد شاء أن يدخل كلاً في رحمته؛ لأنه شاء إيمان الكل. والله تعالى أخبر أنه يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين - لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها - ونصب بفعل يفسره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، نحو: أوعد، وكافأ.

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ شَرْكَا ﴿٣﴾ فَالْفَرْقَاتِ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَنْذَرًا ﴿٦﴾

١ - ٧ - ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ شَرْكَا ﴿٣﴾ فَالْفَرْقَاتِ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَنْذَرًا ﴿٦﴾﴾ أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن نفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل، فالقن ﴿ذكرًا﴾ إلى الأنبياء - عليهم السلام - ﴿عذرا﴾ للمحقين ﴿أو تَنْذَرًا﴾ للمبطلين. أو: أقسم بريح عذاب أرسلهن، فعصفن، وبريح رحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن بينه - كقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُمْ كِسْفًا﴾ [الروم: ٤٨] - فالقن ﴿ذكرًا﴾ إِمَّا ﴿عذرا﴾ للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم، واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإِمَّا إنذاراً للذين لا يشكرون، وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السببية ﴿عرفًا﴾ حال. أي: متتابعة كعرف الفرس، يتلو بعضه بعضاً. أو مفعول له. أي: أرسلن للإحسان والمعروف. و﴿عصفا﴾ و﴿نشراً﴾ مصدران ﴿أو تَنْذَرًا﴾ أبو عمرو، وكوفي، غير أبي بكر، وحماد. والعذر والنذر مصدران من: عذر إذا محا الإساءة، ومن: أنذر إذا خوف، على فعل؛ كالكفر والشكر.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
 سُيِّفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
 الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَلَبَّ يَوْمٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾

وانتصابهما على البدل من ﴿ذكرًا﴾؛ أو على المفعول له ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إن الذي
 توعدنه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَفْعٍ﴾ لكائن، نازل، لا ريب فيه. وهو جواب
 القسم. ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم.

٨- ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ محيت، أو ذهب بنورها. وجواب ﴿فَإِذَا﴾ محذوف.
 والعامل فيها جوابها، وهو وقوع الفصل ونحوه. و﴿النجوم﴾ فاعل فعل
 يفسره: ﴿طمست﴾.

٩- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ فُتِحَتْ فكانت أبواباً.

١٠- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ قلعت من أماكنها.

١١- ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ﴾ أي: (وقَّت) كقراءة أبي عمرو، أبدلت الهمزة من
 الواو. ومعنى توقيت الرسل: تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على
 أممهم.

١٢- ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ أخرت وأمهلت. وفيه تعظيم لليوم، وتعجيب من
 هوله. والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

١٣- ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل. وهو اليوم الذي يفصل فيه بين
 الخلائق.

١٤- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره.

١٥- ﴿وَلَبَّ﴾ مبتدأ - وإن كان نكرة. لأنه في أصله مصدر منصوب ساد
 مسدّ فعله ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه
 للمدعو عليه، ونحوه: ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] - ﴿يَوْمِذٍ﴾ ظرفه
 ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بذلك اليوم، خبره.

١٦- ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ الأمم الخالية المكذبة.

١٧- ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ مستأنف بعد وقف. وهو وعيد لأهل مكة. أي:

كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴿٢٧﴾ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ثم﴾ نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين؛ لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم.

١٨ - ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل من أجرم.

١٩ - ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أوعدنا.

٢٠، ٢٢ - ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ حقير، وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الماء ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ مقر يتمكن فيه، وهو الرحم. ومحل ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الحال؛ أي: مؤخرًا إلى مقدار من الوقت ﴿معلوم﴾ قد علمه الله وحكم به، وهو تسعة أشهر، أو ما فوقها، أو ما دونها.

٢٣ - ﴿فَقَدَرْنَا﴾ فقدرناه ذلك تقديرًا ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ فنعم المقدرون له نحن. أو ﴿فقدرونا﴾ على ذلك ﴿فنعم القادرون﴾ عليه نحن. والأول أحق لقراءة نافع، وعليّ بالتشديد، ولقوله: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٩].

٢٤ - ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة الفطرة.

٢٥، ٢٦ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هو من: كَفَت الشيء؛ إذا ضمه وجمعه. وهو اسم ما يكفت، كقولهم: الضمام لما يضم. وبه انتصب ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ كأنه قيل: كافته ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾. أو: بفعل مضمر يدل عليه ﴿كِفَاتًا﴾ وهو تكفت. أي: تكفت ﴿أَحْيَاءً﴾ على ظهرها ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في بطنها. والتكثير فيهما للتفخيم. أي: تكفت ﴿أَحْيَاءً﴾ لا يعدون ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ لا يحصرون.

٢٧، ٢٨ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ جبالًا ثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عذبًا ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النعم.

٢٩ - ﴿أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال للكافرين يوم القيامة: سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذبون.

أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا
يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ

٣٠- ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾ دخان جهنم ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب. وهكذا الدخان العظيم يتفرق ثلاث فرق.

٣١- ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ نعت ﴿ظِلٍّ﴾. أي: لا مُظِلٌّ من حرّ ذلك اليوم وحرّ النار ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ في محل الجز. أي: وغير مغن عنهم ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾ ﴿مِنْ﴾ حرّ ﴿اللهب﴾ شيئاً.

٣٢-٣٤- ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ في العظم. وقيل: هو الغليظ من الشجر. الواحدة قَصْرَةٌ ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ﴾ (١) كوفيٌّ، غير أبي بكر. جمع جَمَلٍ. ﴿جِمَالَاتٍ﴾ غيرهم. جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر. أي: سود تضرب إلى الصفرة. شُبّه الشرر بالقصور، لعظمه وارتفاعه، وبالجمل للعظم والطول واللون ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأنّ هذه صفتها.

٣٥- ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وقرئ بنصب اليوم. أي: ﴿هَذَا﴾ الذي قصّ عليكم واقعٌ يؤمّنذ. وسئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] فقال: في ذلك اليوم مواقف: في بعضها يختصمون، وفي بعضها لا ينطقون. أو: ﴿لا ينطقون﴾ بما ينفعهم. فجعل نطقهم كلا نطق.

٣٦، ٣٧- ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منخرط في سلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

٣٨-٤٠- ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، والمحسن والمسيء بالجزاء

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿جِمَالَةٌ﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْقَهُمْ مَائِشَتُهُمْ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكِعُوا لَا يَزْكِعُوكَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿جَمَعْتَكُمْ﴾ يا مكذبي محمد ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ والمكذبين قبلكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة
في دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ﴾ فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب. والكيد
متعدّد، تقول: كدت فلاناً: إذا احتلت عليه ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

٤١-٤٥- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن عذاب الله ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ جمع ظلّ ﴿وَعُيُونٍ﴾
جارية في الجنة ﴿وَفَوْقَهُمْ مَائِشَتُهُمْ﴾ أي: لذيذة مشتهاة ﴿كُلُّوا وَأَشْرَبُوا﴾ - في موضع
الحال من ضمير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِي ظِلَالٍ﴾. أي: هم
مستقرون ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ مقولاً لهم ذلك - ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة.

٤٦، ٤٧- ﴿كُلُّوا وَتَمَنَّعُوا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه
التهديد، كقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قَلِيلًا﴾ لأنّ متاع الدنيا قليل
﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ كافرون. أي: إنّ كلّ مجرم يأكل ويتمتع أليماً قلائل، ثمّ يبقى في
الهلاك الدائم ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالمنعم.

٤٨، ٤٩- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكِعُوا﴾ اخشعوا لله، وتواضعوا له بقبول وحيه
وإتباع دينه، ودعوا هذا الاستكبار ﴿لَا يَزْكِعُوكَ﴾ لا يخشعون، ولا يقبلون
ذلك، ويصرون على استكبارهم. أو: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ صلّوا لا يصلّون ﴿وَيَلَّ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأمر والنهي.

٥٠- ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إنّ لم يؤمنوا
بالقرآن مع أنّه آية مبصرة، ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية، فبأي كتاب
بعده يؤمنون؟! *

سُورَةُ النَّبَأِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوْ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

١ - ٣ - ﴿عَمَّ﴾ أصله ﴿عن ما﴾. وقرئ بها. ثم أدغمت النون في الميم فصار ﴿عَمَّا﴾ وقرئ بها. ثم حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام. وعليه الاستعمال الكثير. وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً. أو: يسألون غيرهم من المؤمنين. والضمير لأهل مكة. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ أي: البعث. وهو بيان للشأن المفخم. وتقديره: ﴿عَمَّ يتساءلون﴾؟ يتساءلون ﴿عن النبأ العظيم﴾ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين، وكانوا جميعاً يسألون عنه. فالمسلم يسأل ليزداد خشيةً، والكافر يسأل استهزاءً.

٤، ٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف، أو: التساؤل هزواً ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً: أن ما يتساءلون عنه حق ﴿تُوْ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرر الردع للتشديد. و﴿ثم﴾ يشعر بأن الثاني أبلغ من الأول، وأشد.

أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَنَّا أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا تَوْمَكُمُ
 سُبُلًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
 شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا
 وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾

٦ - ١٦ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة؟ فلم تنكرون قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ أو قيل لهم: لم فعل هذه الأشياء؟ والحكيم لا يفعل عبثاً، وإنكار البعث يؤدي إلى أنه عابث في كل ما فعل؟ ﴿مِهْدًا﴾ فراشاً فرشها لكم حتى سكتموها، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ للأرض لثلاثيم بكم، ﴿وَخَلَقْتَنَّا أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَجَعَلْنَا تَوْمَكُمُ سُبُلًا﴾ قطعاً لأعمالكم، وراحة لأبدانكم. والسبت: القطع ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ سترأ يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم، ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة. أي: محكمة، قوية، لا يؤثر فيها مرور الزمان، أو: غلاظاً غلظ كل واحدة مسيرة خمسمئة سنة ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مضيئاً وقادراً، أي: جامعاً للنور والحرارة. والمراد: الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: السحاب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. ومنه: أعصرت الجارية: إذا دنت أن تحيض. أو: الرياح؛ لأنها تنشئ السحاب وتدرّ أخلافه. فيصح أن تجعل مبدأاً للإنزال. وقد جاء: أن الله تعالى يبعث الرياح، فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ منصّباً بكثرة ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبز والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلاً ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة الأشجار. واحدها: لفّ، كجذع، وأجذاع، أو: لفيف، كشریف، وأشراف. أو: لا واحد له، كأوزاع. أو: هي جمع الجمع. فهي: جمع لفّ. ولفّ جمع لَفَّاء، وهي: شجرة مجتمعة. ولا وقف من ﴿أَلَمْ نجعل﴾ إلى ﴿أَلْفَافًا﴾. والوقف الضروري على ﴿أَوْتَادًا﴾ و﴿مَعَاشًا﴾.

١٧ - ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحق والمبطل ﴿كَانَ مِيقَتَنَا﴾

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيَبْثُنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾

وقتاً محدوداً، ومُنْتَهَى معلوماً لوقوع الجزاء، أو: ميعاداً للثواب والعقاب.

١٨ - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ أو: عطف بيان ﴿فِي الصُّورِ﴾ في القرن ﴿فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حال. أي: جماعات مختلفة. أو: أمم، كل أمة مع رسولها.

١٩ - ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ خفيف، كوفي. أي: شقت لتزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فصارت ذات أبواب، وطرق، وفروج، وما لها اليوم من فروج.
٢٠ - ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

٢١، ٢٥ - ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقاً عليه ممر الخلق، فليؤمن يمر عليها والكافر يدخلها. وقيل: المرصاد: الحذ الذي يكون فيه الرصد، أي: هي حد الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب، وهي مأبهم. أو: هي مرصاد لأهل الجنة، ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأن مجازهم عليها ﴿لِلطَّاغِينَ مَنَابًا﴾ للكافرين مرجعاً ﴿لِيَبْثُنَ﴾ ماكثين - حال مقدرة من الضمير في ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ حزمة: ﴿لَبِثُنَ﴾. واللَّبْث أقوى؛ إذ اللابث من وجد منه اللَّبْث وإن قل، واللَّبْث من شأنه اللَّبْث والمقام في المكان ﴿فِيهَا﴾ في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف جمع: حَقْب. وهو الدهر. ولم يرد به عدد محصور بل الأبد، كلما مضى حَقْب تبعه آخر إلى غير نهاية. ولا يستعمل الحقب والحُقْبَةُ إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها. وقيل: الحقب ثمانون سنة. وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة: ﴿لَابِثُنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: غير ذائقين. حال من ضمير ﴿لَابِثُنَ﴾. فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عذبوا فيها بمنع البرد والشراب بدلوا بأحقاب آخر فيها عذاب آخر. وهي: أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها. وقيل: هو من: حقب عامنا إذا قل مطره وخيره، وحقب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه:

إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ

أحقاب. فينتصب حالاً عنهم. أي: لابئين فيها حَقِيبين ولا يذوقون فيها برداً ولا شراباً تفسير له. وقوله: ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾^(١) استثناء منقطع أي: ﴿لا يذوقون﴾ في جهنم أو: في الأحقاب ﴿برداً﴾ روحاً ينفس عنهم حرَّ النار، أو نوماً. ومنه: منع البرد ﴿ولا شراباً﴾ يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حيماً﴾ ماءً حاراً يحرق ما يأتي عليه ﴿وغساقاً﴾ ماء يسيل من صديدهم. وبالتشديد كوفي غير أبي بكر.

٢٦، ٢٧ - ﴿جَزَاءً﴾ جوزوا جزاءً ﴿وَفَاقًا﴾ موافقاً لأعمالهم. مصدر بمعنى الصفة، أو: ذا وفاق. ثم استأنف معللاً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يخافون محاسبة الله إياهم. أو: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً. ٢٨ - ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ تكذيباً. وفعال في باب فعل كُله فاش.

٢٩، ٣٠ - ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ نصب بمضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ مكتوباً في اللوح. حال، أو: مصدر في موضع إحصاء. أو: أحصينا في معنى: كتبنا. لأن الإحصاء يكون بالكتابة غالباً. وهذه الآية اعتراض؛ لأن قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات. أي: ﴿فَذُوقُوا﴾ جزاءكم. والالتفات شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. في الحديث: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»^(٢).

٣١ - ٣٥ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مَفْعَلٌ من: الفوز يصلح مصدراً، أي: نجاة من كل مكروه، وظفراً بكل محبوب. ويصلح للمكان، وهو الجنة. ثم أبدل منه بدل البعض من الكل فقال: ﴿حَدَائِقَ﴾: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر. جمع:

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿وَعَسَّاقًا﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٤٨/٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم والثعلبي. (حاشية الكشف ٤/٦٩٠).

وَأَعْتَبْنَا ﴿٢١﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٢٢﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٢٣﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٢٤﴾ جَزَاءُ مَن
 رَبَّكَ عَطَا حِسَابًا ﴿٢٥﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٢٦﴾ يَوْمَ
 يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ
 الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴿٢٨﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا

حديقة ﴿وَأَعْتَبْنَا﴾ كروماً - عطف على ﴿حَدائق﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نواهد ﴿أَزْرَابًا﴾ لَدَاتِ
 مستويات في السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مملوءة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة. حال من
 ضمير خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا كِذْبًا﴾ الكسائي: خفيف بمعنى مكاذبة.
 أي: لا يكذب بعضهم بعضاً. أو: لا يكاذبه.

٣٦ - ﴿جَزَاءُ﴾ مصدر. أي: جزاءهم جزاء ﴿مِنَ رَبِّكَ عَطَا﴾ مصدر، أو: بدل
 من ﴿جزاء﴾ ﴿حِسَابًا﴾ صفة. يعني: كافياً. أو على حسب أعمالهم.

٣٧ - ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ بجزءهما، ابن عامر، وعاصم،
 بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾. ومن رفعهما فـ ﴿رَبُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره
 ﴿الرَّحْمَنُ﴾. أو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ صفته و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر. أو: هما خبران. والضمير في
 ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السموات والأرض، وفي ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ الله تعالى. أي:
 لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلا بإذنه. أو: لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى
 خوفاً.

٣٨ - ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلته ظرفاً لـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا تقف على ﴿خطاباً﴾
 وإن جعلته ظرفاً لـ ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تقف ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل، عند الجمهور.
 وقيل: هو ملك عظيم، ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه
 ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ حال. أي: مصطفين ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلائق ثم خوفاً
 ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام، أو: الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ حقاً. بأن قال
 المشفوع له: لا إله إلا الله في الدنيا. أو: لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب في
 أمر الشفاعة.

٣٩ - ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ مرجعاً
 بالعمل الصالح.

٤٠ - ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في الآخرة؛ لأن ما هوآت

يَوْمَ يُنْظَرُ أَلْمَرَّةُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿١٨١﴾

قريب ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلْمَرَّةُ﴾ أي: الكافر - لقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ - ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشر - كقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿[آل عمران: ١٨١-١٨٢] وتخصيص الأيدي، لأن أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل ألا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضممر لزيادة الظم. أو: ﴿المرء﴾ عام. وخص منه الكافر. و﴿ما قدمت يدها﴾ ما عمل من خير وشر. أو: هو المؤمن لذكر الكافر بعده، وما قدم من خير. و﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿قدمت﴾ أي: ﴿ينظر﴾ أي شيء ﴿قدمت يدها﴾؟ أو: موصولة منصوبة بـ ﴿ينظر﴾ يقال: نظرت. يعني: نظرت إليه. والراجع من الصلة محذوف. أي: قدمته ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلّف. أو: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ في هذا اليوم، فلم أبعث. وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتصر للجَمَاء من القرناء، ثم يرده تراباً، فيودّ الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يتمنى أن يكون كآدم مخلوقاً من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين.

* * *

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالْمُتَّقِنَاتِ سَبْحًا ﴿٤﴾
فَالْمُدْرِبَاتِ شُرًّا ﴿٥﴾

١ - ٥ - ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالْمُتَّقِنَاتِ سَبْحًا ﴿٤﴾﴾
سَبْحًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْرِبَاتِ شُرًّا ﴿٥﴾ لا وقف إلى هنا، ولزم هنا؛ لأنه لو وصل لصار ﴿يوم﴾ ظرف ﴿المدبرات﴾ وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم. أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ﴿غرقًا﴾ أي: إغراقًا في النزاع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها، ومواقع أظفارها. وبالطوائف التي تنشطها، أي: تخرجها. من: نشط الدلو من البئر: إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع، فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر ﴿أمرًا﴾ من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم، أو دنياهم؛ كما رسم لهم. أو: بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعًا، تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها؛ لأنها عراب، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط: إذا خرج من بلد إلى بلد. والتي تسبح في جريها، فتسبق إلى الغاية، فتدبر أمر الغلبة والظفر. وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه. أو: بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب. وإغراقها في النزاع: أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب. والتي تخرج من برج إلى برج، والتي تسبح في الفلك

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتَّبِعُهَا الرّٰادِفَةُ ﴿٢﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٣﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٤﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمْ رَدُّوْهُمْ فِي الْحَافِرَةِ ﴿٥﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً ﴿٦﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿٧﴾

من السيّارة، فتسبق، فتدبر أمراً من علم الحساب. وجواب القسم محذوف، وهو: لتبعثن، للدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

٦-٩- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك ﴿الرّٰاجِفَةُ﴾ حركة شديدة - والرجف: شدة الحركة ﴿الراجفة﴾ النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها؛ لأنها تضطرب بها الأرض؛ حتى يموت كل من عليها - ﴿تَتَّبِعُهَا﴾ حال عن ﴿الراجفة﴾ ﴿الرّٰادِفَةُ﴾ النفخة الثانية؛ لأنها تردف الأولى، وبينهما أربعون سنة والأولى تمت الخلق، والثانية تحييهم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ قلوب منكري البعث ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة. من: الوجيف، وهو الوجيب. وانتصاب ﴿يوم ترجف﴾ بما دلّ عليه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ﴿يوم ترجف﴾ وجفت القلوب. وارتفاع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بالابتداء. و﴿واجفة﴾ صفتها ﴿أَبْصَرُهَا﴾، أي: أبصار أصحابها ﴿خَشِيعَةٌ﴾ ذليلة لهول ما ترى، خبرها.

١٠، ١١ - ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: منكرو البعث في الدنيا، استهزاء وإنكاراً للبعث: - ﴿أَيْنَا لَمْ رَدُّوْهُمْ فِي الْحَافِرَةِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: أنردّ بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنّا؟ والحافرة: الحالة الأولى. يقال لمن كان في أمر، فخرج منه، ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى. ويقال: النقد عند الحافرة. أي: عند الحالة الأولى. وهي: الصفقة. أنكروا البعث، ثم زادوا استعباداً، فقالوا: ﴿أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً﴾ بالية. ﴿ناخرة﴾ كوفي غير حفص و﴿فَعِلٌ﴾ أبلغ من فاعل. يقال: نخر العظم، فهو نخر، وناخر. والمعنى: أنردّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظماً بالية؟ و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف، وهو: نبعث.

١٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿تِلْكَ﴾ رجعتنا ﴿إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة

ذات خسران، أو: خاسر أصحابها. والمعنى: أنها إن صحّت وبعثنا فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها. وهذا استهزاء منهم.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَنِي ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى
رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾

١٣- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلق بمحذوف. أي: لا تحسبوا تلك الكثرة صعبة على الله عز وجل؛ فإنها سهلة هيته في قدرته، فما هي إلا صيحة واحدة. يريد: النفخة الثانية. من: زجر البعير: إذا صاح عليه.

١٤- ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها. وقيل: الساهرة: أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو: بيت المقدس، أو: أرض مكة، أو: جهنم.

١٥- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب. والتشريف للمخاطب به.

١٦- ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ حين ناداه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ اسمه.

١٧- ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ تجاوز الحد في الكفر والفساد.

١٨، ١٩- ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَنِي﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان؟ وبتشديد الزاي حجازي ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿فَتَخْشَى﴾؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وعن بعض الحكماء: اعرفوا الله، فمن عرف الله، لم يقدر أن يعصيه طرفه عين. فالخشية ملاك الأمر. من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر. ومنه الحديث: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»^(١). بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض؛ كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، ليستدعيه باللطف في القول، ويستنزله بالمداواة من عتوه؛ كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤].

فَارْتُءِ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾

٢٠ - ٢٢ - ﴿فَارْتُءِ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: فذهب فأرى موسى فرعون العصا. أو: العصا، واليد البيضاء؛ لأنهما في حكم آية واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى، وسماهما ساحراً وسحراً ﴿وَعَصَى﴾ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ تولى عن موسى ﴿يَسْعَى﴾ يجتهد في مكايده. أو: لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسرع في مشيته، وكان طيئاشاً خفيفاً.

٢٣، ٢٤ - ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿فَنَادَى﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ لا رب فوقي. وكانت لهم أصنام يعبدونها. ٢٥ - ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ عاقبه الله عقوبة الآخرة. والنكال: بمعنى التنكيل، كالسلام: بمعنى التسليم. ونصبه على المصدر؛ لأن أخذ بمعنى: نكل. كأنه قيل: نكل الله به ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ أي: الإحراق ﴿وَالْأُولَى﴾ أي: الإغراق. أو: ﴿نَكَالَ﴾ كلمتيه ﴿الْآخِرَةِ﴾ - وهي: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ - ﴿وَالْأُولَى﴾ وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وبينهما أربعون سنة، أو: ثلاثون، أو: عشرون.

٢٦ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ الله.

٢٧ - ٢٩ - ﴿أَنتُمْ﴾ يا منكري البعث ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً، وإنشاء ﴿أَمِ السَّمَاءِ﴾ أي: أم السماء ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ أي الله. ثم بين البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أعلى سقفها. وقيل: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمئة عام ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ فعدلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أبرز ضوء شمسها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأن الليل ظلها، والشمس سراجها.

٣٠، ٣١ - ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها، وكانت مخلوقة غير مدحوة،

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسَهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتْ
الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ
طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾

فدحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام. ثم فسر البسط فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ كلاها؛ ولذا لم يدخل العاطف على ﴿أخرج﴾. أو: ﴿أخرج﴾ حال بإضمار قد.

٣٢، ٣٣ - ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَهَا﴾ أثبتها. وانتصاب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ بإضمار: دحا، وأرسي على شريطة التفسير ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ﴾ فعل ذلك تمتعاً ﴿لَكُمْ ولأنعامكم﴾.

٣٤ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ الداهية العظمى؛ التي تطم على الدواهي، أي: تعلقو، وتغلب. وهي: النفخة الثانية، أو: الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

٣٥ - ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ بدل من ﴿إذا جاءت﴾. أي: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه يتذكرها، وكان قد نسيها ﴿مَا سَعَى﴾ «ما»: مصدرية. أي: سعيه. أو: موصولة.

٣٦ - ﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت ﴿لِمَن يَرَى﴾ لكل راء؛ لظهورها ظهوراً بيئاً.

٣٧ - ٣٩ - ﴿فَأَمَّا﴾ جواب ﴿فإذا﴾. أي: إذا ﴿جاءت الطائفة﴾، فإن الأمر كذلك ﴿مَنْ طَغَى﴾ جاوز الحد فكفر ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة باتِّباع الشهوات ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ مأواه. والألف واللام بدل الإضافة. وهذا عند الكوفيين. وعند سيبويه والبصريين ﴿هي المأوى﴾ له.

٤٠، ٤١ - ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: علم أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ الأمانة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ المُرْدِي. أي: زجرها عن اتِّباع الشهوات. قيل: هو الرجل يهتّم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

والهوى: ميل النفس إلى شهواتها ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي المرجع.

٤٢ - ﴿يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها. أي: إقامتها. يعني: متى يقيمها الله تعالى، ويثبتها؟

٤٣، ٤٤ - ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم، وتعلمهم به؟ أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبين وقتها في شيء؛ كقولك: ليس فلان من العلم في شيء. وكان رسول الله ﷺ لم يزل يذكر الساعة، ويسأل عنها حتى نزلت، فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها. أي: أنهم يسألونك عنها؛ فلحرصك على جوابهم؛ لا تزال تذكرها، وتسأل عنها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ منتهى علمها متى تكون، لا يعلمها غيره. أو: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم عنها. أي: ﴿فِيمَ﴾ هذا السؤال؟ ثم قال: ﴿أنت من ذكراها﴾ أي إرسالك - وأنت آخر الأنبياء - علامة من علاماتها، فلا معنى لسؤالهم عنها. ولا يبعد أن يوقف على هذا على ﴿فِيمَ﴾. وقيل: ﴿فِيمَ أنت من ذكراها﴾ متصل بالسؤال. أي: يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟ ويقولون: أين أنت من ذكراها؟ ثم استأنف، فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾.

٤٥ - ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائد لها ﴿منذر﴾ منون، يزيد، وعيَّاش.

٤٦ - ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا﴾ أي: الساعة ﴿لَوْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: ضحى العشي. استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول؛ كقوله: ﴿لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله: ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وإنما صحت إضافة الضحى إلى العشي للملاسة بينهما؛ لاجتماعهما في نهار واحد. والمراد: أن مدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن أحد طرفي النهار عشيته أو ضحاها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ﴿٤﴾

١، ٢ - ﴿عَبَسَ﴾ كَلَح. أي: النبي ﷺ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ لَأَن جَاءَهُ - ومحلُّه نصب لأنَّه مفعول له. والعامل فيه ﴿عَبَسَ﴾ أو ﴿تَوَلَّى﴾ على اختلاف المذهبين ﴿الْأَعْمَى﴾ عبد الله بن أمِّ مكتوم. وأمُّ مكتوم أمُّ أبيه، وأبوه شريح بن مالك. أتى النبي ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام. فقال: يا رسول الله علِّمني مما علمك الله! وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه. فتزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعده، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي»^(١) واستخلفه على المدينة مرتين.

٣، ٤ - ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء دارياً بحال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾ لعلَّ الأعمى يتطهر بما يسمع منك من دنس الجهل. وأصله: يتزكَّى، فأدغمت التاء في الزاي. وكذا ﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ يتعظ ﴿فَنَنْفَعَهُ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى، جواباً ل: «لعلَّ». وغيره رفعه عطفاً على ﴿يَذْكُرُ﴾ ﴿الذِّكْرَى﴾ ذكراك. أي:

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٧).

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَإِنَّ لَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقَ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَإِنَّ عَنَّهُ لَتَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا ﴿١١﴾ إِنَّهَا لَنَذْكُرُهُ ﴿١٢﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٣﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٤﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٥﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٦﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٧﴾ قُلْ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٨﴾

موعظتك. أي: إنك لا تدري ما هو مترقب منه؛ من ترك، أو تذكر. ولو دريت لما فرط ذلك منك.

٥ - ٧ - ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أي: من كان غنياً بالمال ﴿فَإِنَّ لَمْ تَصَدَّى﴾ تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه. ﴿تَصَدَّى﴾ بإدغام التاء في الصاد، حجازي ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقَ﴾ وليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام. إن عليك إلا البلاغ.

٨ - ١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله، أو الكفار، أو الكبوة؛ كعادة العميان ﴿فَإِنَّ عَنَّهُ لَتَلَهَّى﴾ تتشاغل. وأصله: تلهى. وروي: أنه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني. وروي: أن الفقراء في مجلس الثوري كانوا أمراء.

١١ - ﴿كَلَّا﴾ ردع. أي: لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا﴾ إن السورة، أو: الآيات ﴿نَذْكُرُهُ﴾ موعظة يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

١٢ - ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ فمن شاء الله أن يذكره. أو ذكر الضمير؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. والمعنى: فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى.

١٣ - ١٦ - ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفة لتذكره. أي: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هي في صحف ﴿مُكْرَمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماء، أو: مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ عن مس غير الملائكة، أو عما ليس من كلام الله ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتبة - جمع: سافر. أي: الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح - ﴿كِرَامٍ﴾ على الله، أو: عن المعاصي ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. جمع: بار.

١٧ - ﴿قُلْ لِلْإِنْسَانِ﴾ لعن الكافر، أو: هو أمية، أو: عتبة ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ استفهام توبيخ، أي: أي شيء حمله على الكفر؟ أو: هو تعجب، أي: ما أشد كفره!

مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴿١٨﴾ مِنْ تُطْفِئُ خَلْقَهُ فَقَدَرْتُمْ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُمْ فَأَقْبَرْتُمْ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
إِذَا شَاءَ أَنْشَرْتُمْ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾
وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفُكْهَةً وَأَبَا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُعْمِكُوا ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾

١٨ ، ١٩ - ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ﴾ من أي حقيق حقيق ﴿خلقه﴾؟ وهو استفهام، ومعناه: التقرير. ثم بين ذلك الشيء فقال: ﴿مِنْ تُطْفِئُ خَلْقَهُ فَقَدَرْتُمْ﴾ على ما يشاء من خلقه.

٢٠ - ﴿ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُ﴾ نصب السيل بإضمار يسر. أي: ثم سهل له سبيل الخروج من بطن أمه. أو بين له سبيل الخير والشر.

٢١ - ﴿ثُمَّ أَمَانَهُمْ فَأَقْبَرْتُمْ﴾ جعله ذا قبر يوارى فيه، لا كالبهائم، كرامة له. قبر الميت: دفنه. وأقبره: أمره أن يقبره ومكنه منه.

٢٢ - ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرْتُمْ﴾ أحياء بعد موته.

٢٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان.

٢٤ - ولما عدد النعم في نفسه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره!

٢٥ - ﴿أَنَا﴾ بالفتح، كوفي، على أنه بدل اشتغال من الطعام. وبالكسر، على الاستئناف، غيرهم ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر من السحاب.

٢٦ - ٣٢ - ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات ﴿فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالبر والشعير وغيرهما مما يتغذى به ﴿وَعَبَا﴾ ثمرة الكرم - أي: الطعام والفاكهة - ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبة - سمي بمصدر قضبه. أي: قطعه؛ لأنه يقضب مرة بعد مرة ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ * وحدائق ﴿غُلْبًا﴾ غلاظ الأشجار. جمع: غلباء ﴿وَفُكْهَةً﴾ لكم ﴿وَأَبَا﴾ مرعى لدوابكم ﴿مَنَّاعًا﴾ مصدر. أي: منفعة ﴿لَكُمْ وَلَا تُعْمِكُوا﴾.

٣٣ ، ٣٧ - ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ صيحة القيامة؛ لأنها تصخ الأذان. أي:

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَدِيقِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَوَجُوهُهُمُ الْمُسْفِرَةُ ﴿٣٨﴾ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهُهُمُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تصمها. وجوابه محذوف لظهوره ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ لتبعات بينه وبينهم، أو: لاشتغاله بنفسه ﴿وَصَدِيقِيهِ﴾ وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ بدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة، والبنين، لأنهم أحب. قيل: أول من يفر من أخيه: هابيل، ومن أبويه: إبراهيم، ومن صاحبتة: نوح، ولوط، ومن ابنه: نوح - عليهم السلام - ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ في نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره.

٣٨، ٣٩ - ﴿وُجُوهُهُمُ الْمُسْفِرَةُ﴾ مضيئة، من قيام الليل، أو من آثار الضوء ﴿ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: أصحاب هذه الوجوه - وهم المؤمنون - ضاحكون مسرورون.

٤٠، ٤١ - ﴿وُجُوهُهُمُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه.

٤٢ - ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل هذه الحال ﴿هُمُ الْكَافِرَةُ﴾ في حقوق الله ﴿الْفَجَرَةُ﴾ في حقوق العباد. أو: لما جمعوا الفجور إلى الكفر، جمع إلى سواد وجوههم الغبرة.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ
عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾

١ - ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهب ضوءها. من: كُوِّرَت العمامة: إذا لففتها. أي: يلف ضوءها لفاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق. وارتفاع ﴿الشمس﴾ بالفاعلية. ورافعها: فعل مضمر يفسره: ﴿كُوِّرَتْ﴾ لأنَّ «إذا» يطلب الفعل؛ لما فيه من معنى الشرط.

٢ - ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ تساقطت.

٣ - ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت. أو: ﴿سُيِّرَتْ﴾ في الجوّ تسيير السحاب.

٤ - ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء. وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿عُطِّلَتْ﴾ أهملت، عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحال لعزّتها عندهم، ويعطلون ما دونها. ﴿عطلت﴾ بالتخفيف، عن البرّي.

٥ - ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كلّ ناحية. قال قتادة: يحشر كلّ شيء حتّى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردّت تراباً، فلا يبقى منها إلّا ما فيه

وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾

سرور لبني آدم؛ كالتطاووس ونحوه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: حشرها: موتها. يقال: إذا أبحفت السنة بالناس وأموالهم: حشرتهم السنة.

٦ - ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿سُجِّرَتْ﴾ مكِّي وبصريٌّ. من سجر التنور: إذا ملأه بالخطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً. وقيل: ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار.

٧ - ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت كل نفس بشكلها: الصالح مع الصالح في الجنة، والطالح مع الطالح في النار. أو: قرنت الأرواح بالأجساد. أو: بكتبها وأعمالها. أو: نفوس المؤمنين بالخور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين.

٨، ٩ - ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ﴾ المدفونة حية. وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق، وخوف الاسترقاق ﴿سُيِّلَتْ﴾ سؤال تلطف، لتقول: بلا ذنب قُتِلَتْ. أو: لتدخل على قاتلها. أو: هو توبيخ لقاتلها بصرف الخطاب عنه، كقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦] ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وبالتشديد يزيد. وفيه دليل: على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب.

١٠ - ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾^(١) فتحت. وبالتخفيف مدني، وشامي، وعاصم، وسهل، ويعقوب. والمراد صحف الأعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب. ويجوز أن يراد ﴿نُشِرَتْ﴾ بين أصحابها، أي: فرقت بينهم.

١١ - ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف.

١٢ - ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾^(٢) أوقدت إيقاداً شديداً، وبالتشديد، شامي،

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿نُشِرَتْ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويحيى، والأعمش، وخلف، معجم القراءات القرآنية (٨٣/٨).

(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿سُعِّرَتْ﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: ابن =

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ ﴿١٦﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ ﴿١٨﴾ الْجَوَارِ الْكُنُسِ ﴿١٩﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿٢٠﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٢١﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٢﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٣﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ

ومدني، وعاصم، غير حماد، ويحيى، للمبالغة.

١٣، ١٤ - ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ أدنيت من المتقين كقوله: ﴿وَأُنْزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فهذه اثنتا عشرة خصلة: ست منها في الدنيا، والبقية في الآخرة، ولا وقف مطلقاً من أول السورة إلى ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ لأن عامل النصب في ﴿إذا الشمس﴾ وفيما عطف عليه، جوابها وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس. ولضرورة انقطاع النفس على كل آية جوز الوقف ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشر.

١٥ - ٢١ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لا زائدة ﴿بِالْخُنُسِ﴾ بالرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوله ﴿الْجَوَارِ﴾ السيارة ﴿الْكُنُسِ﴾ الغيب. من: كنس الوحش: إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها: رجوعها. وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أقبل بظلامه، أو: أدبر، فهو من الأضداد ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ امتد ضوءه. ولما كان إقبال الصبح يلازمه الروح والنسيم، جعل ذلك نفساً له مجازاً. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ - أي: جبريل عليه السلام. وإنما أضيف القرآن إليه؛ لأنه هو الذي نزل به - ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلف، لا يعجز عنه، ولا يضعف ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ عند الله ﴿مَكِينٍ﴾ ذي جاه ومنزلة - ولما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن، قال: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ ليدل على عظم منزلته ومكانته ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات يطيعه من فيها. أو: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند الله: يطيعه ملائكته المقربون يصدر عن

أَمِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُنِيِّ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

أمره، ويرجعون إلى رأيه ﴿أَمِينَ﴾ على الوحي .

٢٢ - ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعم الكفرة . وهو عطف على جواب القسم .

٢٣ - ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته ﴿بِالْأَفْقِ الْمُنِيِّ﴾ بمطلع الشمس .

٢٤ - ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ﴾ محمد على الوحي ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل . من الضنّ، وهو: البخل . أي: لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحُلُوان، بل يعلمه كما عُلِّم، ولا يكتُم شيئاً ممّا عُلِّم . ﴿بِظَنِينٍ﴾ مكّيّ، وأبو عمرو، وعليّ . أي: بمتهم فينقص شيئاً ممّا أوحى إليه، أو يزيد فيه . من: الظنّة . وهي: التّهمّة .

٢٥ - ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ طريد . وهو كقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] أي: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة .

٢٦ - ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بُنيّات الطريق: أين تذهب؟ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحقّ، وعدولهم عنه إلى الباطل . وقال الزجاج: معناه: فأين طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيّئت لكم؟ وقال الجنيّد: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ عنا، وإن من شيء إلا عندنا؟

٢٧، ٢٨ - ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للخلق ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي: القرآن ذِكْرٌ لمن شاء الاستقامة . يعني: أن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المتفعون بالذكر . فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً .

وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٩ - ﴿وَمَا نَشَاءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق

أجمعين .

* * *

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ

١ - ٥ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت ﴿وَإِذَا
الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض، وصارت البحار بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثَتْ﴾ بحث وأخرج موتاها. وجواب إذا: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس برّة
وفاجرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عملت من طاعة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت فلم تعمل، أو:
﴿ما قدمت﴾ من الصدقات ﴿و﴾ ما ﴿أخّرت﴾ من الميراث.

٦، ٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ﴾ قيل: الخطاب لمنكري البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: شيء خدعك حتى ضيعت ما وجب عليك مع
كرم ربك؛ حيث أنعم عليك بالخلق، والتسوية، والتعديل؟ وعنه عليه السلام حين
تلاها: «غره جهله»^(١). وعن عمر رضي الله عنه: غره حمقه. وعن الحسن: غره
شيطانه. وعن الفضيل: لو خطبته؛ أقول: غرتني ستورك المرخاة. وعن
يحيى بن معاذ: أقول: غرتني برك بي سالفاً وآناً ﴿فَسَوَّنَكَ﴾ فجعلك مستوى

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (حاشية الكشف ٧١٥/٤).

فَعَدَّكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا

الخلق سالم الأعضاء ﴿فَعَدَّكَ﴾^(١) فصيرك معتدلاً متناسب الخلق، من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض، وبعضها أسود. أو: جعلك معتدل الخلق، تمشي قائماً، لا كالبهائم. وبالتخفيف كوفيٌّ. وهو بمعنى: المشدّد. أي: عدل بعض أعضائك ببعض؛ حتى اعتدلت، فكنت معتدل الحلقة متناسباً.

٨ - ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ «ما»: مزيد للتوكيد؛ أي: ﴿رَكَّبَكَ﴾ في أيِّ صورةٍ اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن، والقبح، والطول، والقصر. ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها لأنها بيان لـ ﴿عَدَّكَ﴾. والجَارُ يتعلّق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ على معنى وضعك في بعض الصور ومكّنت فيها. أو بمحذوف. أي: ﴿رَكَّبَكَ﴾ حاصلًا في بعض الصور.

٩ - ١٢ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أصلاً. وهو الجزاء، أو: دين الإسلام، فلا تصدّقون ثواباً، ولا عقاباً ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا كَنِينِينَ﴾. يعني: أنكم تكذبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون أعمالكم لتجاوزوا بها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يخفى عليهم شيءٌ من أعمالكم. وفي تعظيم الكتبة بالشّناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه^(٢) عند الله من جلائل الأمور. وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين. وعن الفضيل: أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

١٣ - ١٦ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن المؤمنين لفي نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وإن الكفار لفي النار ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يدخلونها يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿فَعَدَّكَ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وجعفر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/٨٩).

(٢) في الأصل المخطوط زيادة لفظ «من» ولا معنى له.

يَعَايِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ
نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

يَعَايِينَ ﴿١٦﴾ أي: لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ - ١٩ - ثم عظم شأن يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فكرر للتأكيد والتهويل. وبينه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه. وإنما تملك الشفاعة بالإذن. ﴿يَوْمُ﴾ بالرفع مكّي وبصري. أي: هو ﴿يوم﴾ أو: بدل من ﴿يوم الدين﴾. ومن نصب فبإضمار اذكر. أو: بإضمار يدانون؛ لأنّ الدين يدلّ عليه ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلاّ لله تعالى وحده، فهو القاضي فيه دون غيره.

* * *

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

١ - ٣ - ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للذين يخسون حقوق الناس في الكيل، والوزن ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة. ولما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل ﴿على﴾ مكان من للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلق ﴿على﴾ بـ ﴿يستوفون﴾ ويقدم المفعول على الفعل؛ لإفادة الاختصاص. أي: يستوفون على الناس خاصة. وقال الفراء: من وعلى يعتقان في هذا الموضع؛ لأنه حق عليه. فإذا قال: اكتلت عليك؛ فكأنه قال: أخذت ما عليك. وإذا قال: اكتلت منك؛ فكأنه قال: استوفيت منك. والضمير المنصوب في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ راجع إلى الناس، أي: كالوا لهم، أو: وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. وإنما لم يقل: أو اتزنوا، كما قيل: ﴿أو وزنوهم﴾ اكتفاء. ويحتمل: أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يزغزون، ويحتالون في الملاء. وإذا أعطوا كالوا، أو وزنوا؛ لتمكنهم من البخس في النوعين ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون. يقال: خسر الميزان وأخسره.

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا
إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّجِنَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾

٤ - ٦ - ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يعني: يوم القيامة. أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخاً. وليست ﴿أَلَا﴾ هذه للتنبيه. وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجترأ على التطفيف. كأنهم لا يخطر عليهم، ولا يَحْمَنُونَ تخميناً: أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة. ولو ظنوا أنهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن. وعن عبد الملك بن مروان: أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لَهُ: قَدْ سَمِعْتَ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُتَطَفِّينَ - أَرَادَ بِذَلِكَ: أَنَّ الْمُتَطَفَّفَ قَدْ تَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ الْعَظِيمُ الَّذِي سَمِعْتَ بِهِ - فَمَا ظَنُّكَ بِنَفْسِكَ وَأَنْتَ تَأْخُذُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِلَا كَيْلٍ وَلَا وَزْنَ؟! وَنَصَبَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بـ: ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لِأَمْرِهِ وَجَزَائِهِ. وَعَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُمَا: أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ. فَلَمَّا بَلَغَ هُنَا بَكَى نَحِيبًا، وَامْتَنَعَ مِنْ قِرَاءَةِ مَا بَعْدَهُ.

٧ - ٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه. أي: رَدَعَهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّطْفِيفِ، وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى أَنَّهُ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَتَابَعَ عَنْهُ وَيَنْدَمَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَتْبَعَهُ وَعِيدَ الْفَجَارِ عَلَى الْعُمُومِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ صَحَافُ أَعْمَالِهِمْ ﴿لَفِي سِجِّينَ﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّجِنَ﴾ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ كِتَابِ الْفَجَارِ بِأَنَّهُ فِي سَجِّينَ، وَفَسَّرَ سَجِّينًا بِكِتَابِ مَرْقُومٍ. فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ كِتَابَهُمْ فِي كِتَابِ مَرْقُومٍ، فَمَا مَعْنَاهُ؟ قُلْتَ: سَجِّينَ: كِتَابٌ جَامِعٌ هُوَ دِيْوَانُ الشَّرِّ، دُونَ اللَّهِ فِيهِ أَعْمَالُ الشَّيَاطِينِ، وَالْكَفَرَةِ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ. وَهُوَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ، مَسْطُورٌ بَيِّنُ الْكِتَابَةِ، أَوْ: مُعْلَمٌ، يَعْلَمُ مَنْ رَأَاهُ: أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ، مِنْ: رَقْمِ الثِّيَابِ: عَلَامَتُهَا. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا كُتِبَ مِنْ أَعْمَالِ الْفَجَارِ مُثَبَّتٌ فِي ذَلِكَ الدِّيْوَانِ. وَسَمِّيَ: سَجِّينًا، فَعِيلًا مِنْ: السَّجَنِ، وَهُوَ: الْحَبْسُ وَالتَّضْيِيقُ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الْحَبْسِ وَالتَّضْيِيقِ فِي جَهَنَّمَ، أَوْ: لِأَنَّهُ مَطْرُوحٌ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِغَةِ فِي مَكَانٍ وَخْشٍ مَظْلَمٍ، وَهُوَ مَسْكَنُ إِبْلِيسَ وَذَرَّتِيَّتِهِ. وَهُوَ: اسْمُ عِلْمٍ مَنْقُولٍ مِنْ وَصْفٍ؛ كَحَاتَمٍ، مَنْصَرَفٍ لَوْجُودِ سَبَبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: الْعِلْمِيَّةُ فَحَسَبَ.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
 إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا
 إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

١٠ - ١٣ - ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يخرج المكتوب ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ * الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿الجزء والحساب﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ ﴿بذلك اليوم﴾ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ مجاوز للحد، أَثِيمٍ ﴿مكتسب للإثم﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴿أي: القرآن﴾ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿أي أحاديث المتقدمين. وقال الزجاج: ﴿أساطير﴾ أباطيل، واحدها: أسطورة، مثل: أحذوثة، وأحاديث.

١٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول. ﴿بَلْ﴾ نفى لما قالوا. ويقف حفص على ﴿بَلْ﴾ وقيفة ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ غطاها كسبهم. أي: غلب على قلوبهم حتى غمرها ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي. وعن الحسن - رضي الله عنه -: الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب. وعن الضحاك: الرين: موت القلب. وعن أبي سليمان - رحمه الله -: الرين والقسوة زماما الغفلة، ودواؤهما: إيمان الصوم. فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿إِنَّهُمْ عَنْ﴾ أي: رؤية ﴿رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ لمنعون. والحجب: المنع. قال الزجاج: في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم وإلا لا يكون التخصيص مفيداً. وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العقبى عن رؤيته. قال مالك بن أنس - رحمه الله -: لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه. وقيل: ﴿عن﴾ كرامة ﴿رَبِّهِمْ﴾ لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة. والأول أصح؛ لأن الرؤية أقوى الكرامات، فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها.

١٦ - ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلو النار.

١٧ - ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ﴿هذا﴾ العذاب هو ﴿الذي كنتم﴾ تكذبون به في الدنيا وتتكرون وقوعه.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرَقُّونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾

١٨ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ ما كتب من أعمالهم. والأبرار: المطيعون الذين لا يطففون، ويؤمنون بالبعث؛ لأنه ذكر في مقابلة ﴿الفجار﴾ وبين الفجار بأنهم المكذبون بيوم الدين. وعن الحسن - رضي الله عنه -: البر: الذي لا يؤذي الذر ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير؛ الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلاح الثقلين. منقول من جمع: عَلِيٌّ، فَعِيلٌ، من العلو. سمي به؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة. أو: لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له.

١٩ - ٢١ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ما الذي أعلمك يا محمد ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [أي شيء] ^(١) هو؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يشهده المُرَقُّونَ ﴿تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء إذا رفع.

٢٢ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ تنعم في الجنان.

٢٣ - ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ الأسرة في الحجال ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

٢٤ - ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التنعم وطراوته.

٢٥، ٢٦ - ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ شراب خالص ﴿مَخْتُومٍ﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ ﴿

تختم أوانيه بمسك يدل الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا. أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه. أو: ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك. أي: توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه. (خاتمته) عليٌّ ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الرحيق، أو النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليغرب الراغبون. وذا إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات، والانتهاز عن السيئات.

(١) في الأصل المخطوط: أيش.

وَمَزَاجُهُم مِّن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا أُنْقِلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ
أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾

٢٧- ﴿وَمَزَاجُهُم﴾ ومزاج الرحيق ﴿مِّن تَسْنِيمٍ﴾ هو علم لعين بعينها سميت بالتسليم؛ الذي هو مصدر: ستمه: إذا رفعه، لأنها أرفع شراب في الجنة. أو: لأنها تأتيهم من فوق، وتنصب في أوانيهم.

٢٨- ﴿عَيْنًا﴾ حال أو نصب على المدح ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾. عن ابن مسعود رضي الله عنه: يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ كفروا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاء بهم.

٣٠- ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم، وعيياً لهم. قيل: جاء عليّ - رضي الله عنه - في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله ﷺ.

٣١- ﴿وَإِذَا أُنْقِلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي: إذا رجع الكفار إلى منازلهم ﴿أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم. وقرأ غير حفص ﴿فاكهيين﴾ أي: فرحين.

٣٢- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أي: خدع محمد ﷺ هؤلاء، فضلوا، وتركوا اللذات، لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال.

٣٣- ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ وما أرسل الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع غيرهم وتسفيه أحلامهم.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَى الْكَافِرِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

٣٤ - ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ثم، كما ضحكوا منهم هنا مجازاة.

٣٥ - ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾. أي: ﴿يضحكون﴾ منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزة والاستكبار، وهم ﴿على الأرائك﴾ آمنون. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: هلموا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم.

٣٦ - ﴿هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَى الْكَافِرِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر؟!.

* * *

سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾

١ - ٥ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ تصدّعت، وتشقّقت ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربّها إلى الانشقاق، ولم تأب، ولم تمتنع ﴿وَحُقَّتْ﴾ وحقّ لها أن تسمع وتطيع لأمر الله؛ إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت، وسوّيت باندكاك جبالها وكلّ أمتٍ فيها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ رمت ما في جوفها من الكنوز والموتى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلت غاية الخلو، حتى لم يبق شيء في باطنها؛ كأنّها تكلفت أقصى جهدها في الخلو. يقال: تكرّم الكريم: إذا بلغ جهده في الكرم، وتكلّف فوق ما في طبعه ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخلّيها ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع. وحذف جواب ﴿إِذَا﴾ ليذهب المقدّر كلّ مذهب، أو: اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويد والانفطار، أو: جوابه: ما دلّ عليه ﴿فملاقية﴾. أي: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ لاقى الإنسان كدحه.

٦ - ٨ - ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جاهد ﴿إِلَى﴾ لقاء ربك ﴿كَدْحًا﴾ وهو الموت، وما بعده من الحال الممثلة باللقاء ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ الضمير للكدح، وهو: جهد النفس في العمل، والكدّ فيه؛ حتّى يؤثر فيها.

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِإِيمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا
أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ﴿١٦﴾

والمراد: جزاء الكدح إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ. وقيل: لقاء الكدح: لقاء
كتاب فيه ذلك الكدح. يدل عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِإِيمِينِهِ﴾ أي: كتاب
عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً هيناً، وهو: أن يجازى على الحسنات،
ويتجاوز عن السيئات. وفي الحديث: «من يحاسب يعذب» فقليل: فأين قوله:
﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذلكم العرض. من نوقش في الحساب
عذب»^(١).

٩- ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين،
أو: إلى أهله ﴿في الجنة من الحور العين﴾ ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحاً.

١٠- ١٢- ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تغلّ يمينه إلى عنقه، وتجعل
شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾
يقول: وا ثبوراه! والثبور: الهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ - عراقي غير عليّ - ﴿سَعِيرًا﴾
أي: ويدخل جهنم.

١٣- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا﴾ بالكفر، يضحك ممن
آمن بالبعث. قيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتع هواه راتعاً.

١٤- ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُورَ﴾ لن يرجع إلى ربّه تكديباً بالبعث. قال ابن عباس
- رضي الله عنها -: ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبتها: حوري.
أي: ارجعي.

١٥- ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿لَنْ يَحْجُورَ﴾. أي: ﴿بلى﴾ ليحورن ﴿إِنَّ
رَبَّهُ كَانَ بِهِ﴾ وبأعماله ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه، فلا بد أن يرجعه فيجازيه عليها.

١٦ - ١٩ - ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة، أو الحمرة

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع، وضم. والمراد: ما جمعه من الظلمة والنجم. أو: ما عمل فيه من التهجد وغيره ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم بدرأ - افعل من الوسق - ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول. فالطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه. ومنه قيل للغطاء: الطبق. ويجوز أن يكون جمع: طبقة. وهي: المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. أي: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أحوالاً بعد أحوال؛ هي: طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض، وهي: الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها. ومحل ﴿عن طبق﴾ نصب على أنه صفة لـ ﴿طَبَقًا﴾ أي: ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزاً لـ طبق. أو: حال من الضمير في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾ مجاوزين لـ طبق. وقال مكحول: في كل عشرين عاماً تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وفتح الباء: مكّي وعليّ، وحمزة. والخطاب له ﷺ: أي: ﴿طَبَقًا﴾ من أطباق السماء بعد ﴿طبق﴾ أي: في المعراج.

٢٠، ٢١ - ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمالهم ألا يؤمنوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون.

٢٢، ٢٣ - ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ بالبعث والقرآن ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون من الكفر وتكذيب النبي ﷺ. أو: بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

٢٤، ٢٥ - ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع. أو: غير منقوص.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ ﴿٣﴾

١ - ٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هي: البروج الاثنا عشر. وقيل: النجوم. أو: عظام الكواكب ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ﴾ أي ﴿وشاهد﴾ في ذلك اليوم ﴿ومشهود﴾ فيه. والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود فيه: ما في ذلك اليوم من عجائبه. وطريق تنكيرهما إمّا ما في قوله ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كأنه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود. وإمّا للإبهام في الوصف، كأنه قيل: ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتنه وصفهما. وقد كثرت أقاويل المفسرين فيهما. فقيل: محمد ﷺ ويوم القيامة. أو: عيسى عليه السلام - وأمه؛ لقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أو: أمة محمد، وسائر الأمم. أو: الحجر الأسود والحجيج. أو: الأيتام، والليالي، وبنو آدم، للحديث: «ما من يوم إلا وينادي: أنا يوم جديد، وعلى ما يفعل في شهيد. فاغتنمني»^(١). أو: الحفظة وبنو آدم. أو: الله تعالى والخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْ فَيُشْهِدُكَ﴾ [الفتح: ٢٨] أو: الأنبياء ومحمد

(١) رواه الديلمي (٦١٦٠) بنحوه.

قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ

عليهم السلام. وجواب القسم محذوف يدلّ عليه ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ أي: لعن. كأنّه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون. يعني: كفّار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وهو: [جمع] ^(١) خدّ أي: شقّ عظيم في الأرض. روي عن النبي ﷺ: «أنّه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضمّ إليه غلاماً ليعلمه السحر. وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها. فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص. وعمي جليس للملك فأبرأه. فأبصره الملك فسأله: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّي. فغضب، فعذّبه، فدلّ على الغلام، فعذّبه، فدلّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدّ بالمنشار. وأبى الغلام فذهب به إلى جبل لي طرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم، فطاحوا، ونجا. فذهب به إلى قرقور ^(٢)، فلجّجوا به ليغرقوه، فدعا فانكأفت بهم السفينة، فغرقوا. فقال للملك: لست بقاتلي حتّى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كناتي، وتقول: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه، فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: آمنا برّب الغلام. فقبل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فخذ أخدوداً، وملأها ناراً، فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيّ، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبيّ: يا أمّاه! اصبري، فإنك على الحق. فألقي الصبيّ وأمّه فيها ^(٣).

٥ - ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتغال من ﴿الأخدود﴾ ﴿ذَاتِ الْوُوقُودِ﴾ وصف لها بأنّها عظيمة، لها ما يرتفع به لهبها من الخطب الكثير، وأبدان الناس.

٦ - ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿قتل﴾ أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصل المخطوط.

(٢) «الْقَرْقُور»: السفينة العظيمة.

(٣) رواه أحمد (٥/١، ١٣) ومسلم (٣٠٠٥).

هَمْ عَلَيْهِمْ قُعُودٌ ﴿١﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٢﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٣﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فُتِمَ لَهُمْ تَبَوُّؤُهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٥﴾

﴿هَمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الكفار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ جلوس على الكراسي.

٧ - ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك: أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَفْرُطْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وفوض إليه من التعذيب.

وفيه: حث للمؤمنين على الصبر، وتحمل أذى أهل مكة.
٨، ٩ - ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان كقوله:

ولا عيب فيهم غير أَنَّ سيوفهم
وقوله:

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِنَّكَ لَا أَنْتَهُمْ يَحْمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وقرأ ﴿نَقَمُوا﴾ بالكسر. والفصح هو الفتح.

﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ذكر الأوصاف التي تستحق بها أن تؤمن به، وهو كونه: عزيزاً، غالباً، قادراً، يخشى عقابه، حميداً، منعماً، يجب له الحمد على نعمته، ويرجى ثوابه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكل من فيهما يحق عليه عبادته، والخشوع له تقريراً؛ لأن ما نَقَمُوا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيدٌ لهم. يعني: أَنَّهُ عِلْمُ مَا فَعَلُوا، وهو مجازيهم عليه.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار، وأحرقوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا؛ لما روي: أَنَّ النَّارَ

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا

انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين. أي: بلوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين: المفتونين، وأنَّ للفاتنين عذابين في الآخرة؛ لكفرهم، ولفتنتهم.

١١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الذين صبروا على تعذيب الأخدود. أو هو عام.

١٢ - ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف. فإذا وصف بالشدة؛ فقد تضاعف، وتفاقم. والمراد: أخذ الظلمة والجبابة بالعذاب والانتقام.

١٣ - ﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً. دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه. أو: أوعد الكفرة بأنه يعيدهم؛ كما أبدأهم؛ ليبطش بهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء، وكذبوا بالإعادة.

١٤ - ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لأوليائه. وقيل: الفاعل بأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

١٥ - ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكة ﴿الْمَجِيدُ﴾^(١) حمزة، وعليٌّ على أنه صفة للعرش. ومجد الله: عظيمته. ومجد العرش: علوه وعظمه.

١٦ - ﴿فَعَالٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿لِمَا يُرِيدُ﴾ تكوينه، فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد.

١٧ - ٢٠ - ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ خبر الجموع الطاغية في الأمم الحالية ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود. وأراد بفرعون: إياه وآله. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسول، وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالكسر، وهي قراءة من ذكرهم.

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ ١٩ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ٢٠ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ ٢١ ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ ٢٢

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ واستيجاب للعذاب، ولا يعتبرون بالجنود، لا لحفاء حال الجنود عليهم، لكن يكذبونك عناداً ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه. والإحاطة بهم من ورائهم مثل؛ لأنهم لا يفوتونه؛ كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به.

٢١، ٢٢ - ﴿بَلْ هُوَ﴾ هذا الذي كذبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ شريف، عالي الطبقة في الكتب، وفي نظمه، وإعجازه، ليس كما يزعمون: أنه مفترى، وأنه أساطير الأولين ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من وصول الشياطين ﴿محفوظ﴾ نافع صفة للقرآن. أي: من التغيير والتبديل. واللوحة عند الحسن: شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هو: من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، قلمه نور، وكل شيء فيه مسطور. مقاتل: هو: على يمين العرش. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حجر ملك كريم.

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

١ - ٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ عَظُمَ قَدْرُ السَّمَاءِ فِي أَعْيُنِ الْخَلْقِ لَكُونِهَا مَعْدَنُ رِزْقِهِمْ، وَمَسْكَنُ مَلَائِكَتِهِ، وَفِيهَا خَلْقُ الْجَنَّةِ، فَأَقْسَمَ بِهَا وَبِالطَّارِقِ. والمراد: جنس النجوم، أو: جنس الشهب التي يَرْجَمُ بِهَا لِعَظَمِ مَنْفَعَتِهَا. ثُمَّ فَسَّرَهُ بِالنَّجْمِ الثَّاقِبِ. أي: المضيء، كَأَنَّهُ يَثْقُبُ الظَّلامَ فَيَنْفِذُ فِيهِ. وَوَصَفَ بِالطَّارِقِ؛ لِأَنَّهُ يَبْدُو بِاللَّيْلِ، مَا يَقَالُ لِلَّاتِي لَيْلًا: طَارِقٌ. أو: لِأَنَّهُ يَطْرُقُ الْجَنِّيَّ، أي: يَصْكَه. وَجَوَابُ الْقِسْمِ ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لِأَنَّ ﴿لَمَّا﴾ إِنْ كَانَتْ مُشَدَّدَةً بِمَعْنَى إِلَّا، كَقِرَاءَةِ عَاصِمٍ، وَحِزَّةٍ، وَابْنِ عَامِرٍ، فَتَكُونُ ﴿إِنْ﴾ نَافِيَةً أَيْ: مَا ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ إِلَّا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. وَإِنْ كَانَتْ مُخَفَّفَةً كَقِرَاءَةِ غَيْرِهِمْ، فَتَكُونُ ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. أَيْ: ﴿إِنْ كُلِّ نَفْسٍ﴾ لَعَلَّيْهَا ﴿حَافِظٌ﴾ يُحَفِّظُهَا مِنَ الْآفَاتِ أَوْ يُحَفِّظُ عَمَلَهَا وَرِزْقَهَا وَأَجَلَهَا إِذَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ مَاتَ. وَقِيلَ: هُوَ كَاتِبُ الْأَعْمَالِ. فَمَا زَائِدَةٌ. وَاللَّامُ فَارِقَةٌ بَيْنَ النَّافِيَةِ وَالْمُخَفَّفَةِ. وَ﴿حَافِظٌ﴾ مُبْتَدَأٌ وَ﴿عَلَيْهَا﴾ الْخَبَرُ. وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ﴿كُلِّ﴾ وَأَيْتُهُمَا كَانَتْ فَهِيَ مِمَّا يَتَلَقَّى بِهِ الْقِسْمُ.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾

٥ - ٧ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أمره بالنظر في أول أمره، ليعلم: أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الجزاء، ولا يُملِي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. و﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ استفهام. أي: من أي شيء خلق؟. جوابه: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾. الدفق: صبٌّ في دفع. والدفق في الحقيقة لصاحبه، والإسناد إلى الماء مجاز. وعن بعض أهل اللغة: دفقت الماء دفقاً: صببته. ودفق الماء بنفسه؛ أي: انصبَّ. ولم يقل: من ماءين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وهي: عظام الصدر؛ حيث تكون القلادة. وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

٨، ٩ - ﴿إِنَّهُ﴾ إن الخالق، لدلالة ﴿خُلِقَ﴾ عليه. ومعناه: إن الذي خلق الإنسان ابتداءً من نقطة ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿لَقَادِرٌ﴾ لبين القدرة، لا يعجز عنه؛ كقوله: إنني لفقير. ونصب ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ - أي: تكشف - بـ ﴿رَجْعِهِ﴾، أو: بمضمّر دلّ عليه قوله ﴿رَجْعِهِ﴾. أي: مبعثه ﴿السَّرَائِرُ﴾ ما أسر في القلوب من العقائد، والنيات، وما أخفى من الأعمال.

١٠ - ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ للإنسان ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ في نفسه على دفع ما حلّ به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعينه ويدفع عنه.

١١ - ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: المطر. وسُمّي به لعوده كل حين.

١٢ - ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدّع عنه الأرض من النبات.

١٣، ١٤ - ﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن ﴿لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ فاصل بين الحقّ والباطل كما قيل له: فرقان ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾ باللعب والباطل. يعني: أنه جدّ كله، ومن حقّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلمّ بهزل، أو يتفكّه بمزاح.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَهُمُ رُؤُوسًا﴾ ﴿١٧﴾

١٥ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكائد في إبطال أمر الله، وإطفاء نور الحق.

١٦ - ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، فسمي جزاء الكيد: كيداً، كما سمي جزاء الاعتداء والسيئة: اعتداءً، وسيئة، وإن لم يكن اعتداءً وسيئةً. ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا على وجه الجزاء كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

١٧ - ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل به ﴿أَتَيْنَهُمُ﴾ أنظرهم.. فكرر، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿رُؤُوسًا﴾ إمهالاً يسيراً. ولا يتكلم بها إلا مصغرة. وهي من: رادت الريح، ترود، رُوداً: تحركت حركةً ضعيفةً.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾

١ - ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ نَزَّ ذاته عما لا يليق به . والاسم : صلة ، وذلك بأن يفسَّر ﴿الأعلى﴾ بمعنى العلو؛ الذي هو القهر ، والاعتدار ، لا بمعنى العلو في المكان . وقيل : قل : سبحان ربي الأعلى . وفي الحديث : لما نزلت قال ﷺ : «اجعلوها في سجودكم»^(١) .

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي : ﴿خلق﴾ كلَّ شيء ﴿فسوى﴾ خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم . أو : سواه على ما فيه منفعته ، ومصلحته .

٣ - ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي : ﴿قَدَّرَ﴾ لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه ، وعزَّفه وجه الانتفاع به . أو : ﴿فهدي﴾ وأضلَّ . ولكن حذف «وأضلَّ» اكتفاءً ، كقوله : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل : ٩٣] ﴿قَدَّرَ﴾ عليّ .

٤ - ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبت ما ترعاه الدواب .

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (٢٩٩/١) .

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾
وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَنْجِبُهَا
الْأَشْقَى ﴿١١﴾

- ٥ - ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ يابساً هشيماً ﴿أَحْوَى﴾ أسود. فـ ﴿أَحْوَى﴾ صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾.
- ٦ ، ٧ - ﴿سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ سنعلمك القرآن حتى لا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسخه. وهذا بشارة من الله لنبية أن يحفظ عليه الوحي؛ حتى لا ينفلت منه شيء؛ إلا ما شاء الله أن ينسخه، فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته. وسأل ابن كيسان النحويّ جنيداً عنه فقال: ﴿فلا تنسى﴾ العمل به فقال: مثلك يصدر. وقيل: قوله: ﴿فلا تنسى﴾ على النهي. والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿السَّيْلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. أي: فلا تغفل قراءته، وتكريره، فتنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسيكه برفع تلاوته ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: إنك تجهر بالقرآن مع قراءة جبريل - عليه السلام - مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه، وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر. أو: ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان. أو: يعلم ما أسررتهم وما أعلنتهم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم.
- ٨ - ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوف على ﴿سنقرئك﴾ وقوله: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض. ومعناه: ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل. يعني حفظ الوحي. وقيل: للشرعية السمحة التي هي أيسر الشرائع، أو: نوفّقك لعمل الجنة.
- ٩ - ﴿فَذَكِّرْ﴾ عطف بالقرآن ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ جواب ﴿إِنْ﴾ مدلول قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾. قيل: ظاهره شرط، ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم. وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] غير مشروط بالنفع.
- ١٠ ، ١١ - ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ سيتعظ ويقبل التذكرة ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ الله وسوء العاقبة ﴿وَيَنْجِبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر، أو: الذي هو أشقى الكفرة؛ لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

١٢، ١٣ - ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ يدخل نار جهنم. والصغرى: نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة يتلذذ بحياته. وقيل بـ ﴿ثُمَّ﴾: لأن الترجع بين الحياة والموت أقطع من الصلي، فهو متراح عنه في مراتب الشدة.

١٤ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ نال الفوز ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الشرك، أو: تطهر للصلاة، أو: أدى الزكاة. تفعل من الزكاة، كتصدق من الصدقة.

١٥ - ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وكبر للافتتاح ﴿فَصَلَّى﴾ الخمس. وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة عطف عليها، وهو يقتضى المغايرة؛ وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ذكر معاده ووقوفه بين يدي ربه فصل له. وعن الضحاك: ﴿وذكر اسم ربه﴾ في طريق المصلى ﴿فصلى﴾ صلاة العيد.

١٦ - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون. والمخاطب به الكافرون. دليله: قراءة أبي عمرو ﴿يؤثرون﴾ بالياء.

١٧ - ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أفضل من نفسها وأدوم.

١٨ - ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ «هذا»: إشارة إلى قوله ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾. أي: إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. أو: إلى ما في السورة كلها. وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة.

١٩ - ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من ﴿الصحف الأولى﴾. وفي الأثر: وفي صحف إبراهيم - عليه السلام -: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسان، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا ﴿٤﴾ حَامِيَةٌ ﴿٥﴾

١ - ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. وقيل: النار. من قوله: ﴿وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

٢ - ٦ - ﴿وَجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكفار. وإنما خصّ الوجه؛ لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثرا في الوجه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الحزي والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جزؤها السلاسل، والأغلال، وخوضها في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعودٍ من نار، وهبوطها في حذور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء، والتذت بها، وتنعمت، فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنها خشعت لله، وعملت، ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجد الواصب ﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ حَامِيَةٌ ﴿تدخل ناراً﴾ قد أحميت مدداً طويلة، فلا حرّ يعدل حرّها ﴿تَصَلَّى﴾

تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ

أبو بكر وأبو عمرو ﴿تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ من عين ماء قد انتهى حرُّها. والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه. والمراد: أصحابها؛ بدليل قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وهو نبت يقال لِرَطْبِهِ: الشَّبْرُق. فإذا يبس فهو ضريع. وهو سمٌّ قاتل. والعذاب ألوان، والمعدَّبون طبقات. فمنهم أكلة الزقوم. ومنهم أكلة الغسلين. ومنهم أكلة الضريع. ولا تناقض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلَيْنِ﴾ [الحاقة: ٣٦].

٧- ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ مجرور المحل؛ لأنه وصف ﴿ضريع﴾ ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾. أي: منفعتا الغذاء متنفيتان عنه، وهما: إمطة الجوع، وإفادة السمن في البدن.

٨- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين. ولم يقل: ووجوه؛ لأنَّ الكلام الأوّل قد طال وانقطع ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعمة في لين العيش.

٩- ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أذاهم إليه من الكرامة والثواب.

١٠- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ من علوّ المكان أو المقدار.

١١- ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب، أو: الوجوه ﴿فِيهَا لَغِيَةً﴾ أي: لغواً، أو: كلمة ذات لغو، أو: نفساً تلغو. لا يتكلّم أهل الجنة إلّا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ﴿لَا يُسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ مكّيّ، وأبو عمرو. ﴿لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ نافع.

١٢- ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة؛ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

١٣- ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار، أو: السمك؛ ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربّه من الملك والنعيم.

١٤- ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب. وهو القدح. وقيل: آنية لا عروة لها

مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارُ مَصْفُوفَةٍ ﴿١٥﴾ وَزُرَّائِي مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم؛ ليتلذذوا بها بالنظر إليها. أو: موضوعة على حافات العيون نعدة للشرب.

١٥- ﴿وَنَارُ﴾ وسائل ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مسورة واستند إلى الأخرى.

١٦- ﴿وَزُرَّائِي﴾ وبسط عراض فاخرة. جمع: زُرِّيَّة ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة، أو: مفرقة في المجالس.

١٧- ٢٠- ولما أنزل الله تعالى هذه الآيات في صفة الجنة، وفسر النبي ﷺ: بأن ارتفاع السرر يكون مئة فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها، وطول النمارق كذا، وعرض الزرابي كذا؛ أنكر الكفار وقالوا: كيف يصعد على هذا السرير، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول النمارق هذا الطول، وتنسبط الزرابي هذا الانبساط، ولم نشاهد ذلك في الدنيا؟ فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة، ثم تترك حتى تركب، و يحمل عليها، ثم تقوم. فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء الإبل، ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعا بعيد المدى بلا إمساك وعمد، ثم نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق، فكذلك الأكواب، ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبا ثابتا، فهي راسخة لا تميل مع طولها، فكذا النمارق، ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحها بتمهيد وتوطئة، فهي كلها بساط واحد، ينسبط من الأفق إلى الأفق، فكذا الزرابي. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى﴾ هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق؛ حتى لا ينكروا اقتداره على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول، ويؤمنوا به، ويستعدوا للقائه. وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب وحث لهم على الاستدلال. والمرء إنما يستدل بما تكثر مشاهدته له. والعرب تكون في البوادي، ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال، والإبل أعز أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

الحيوانات؛ لأنها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهي: النسل، والدرّ، والحمل، والركوب، والأكل بخلاف غيرها، فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمته، لا تعازٍ ضعيفاً، ولا تمنع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق؛ لتنوء بالأوقار، وجعلها بحيث تترك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وتجرها إلى البلاد الشاحطة^(١). وصبرها على احتمال العطش؛ حتى إنَّ ظمأها^(٢) ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل نابت في البراري ممّا لا يريعه سائر البهائم.

٢١ - ﴿فَذَكِّرْ﴾ هم بالأدلة ليتفكروا فيها ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

٢٢ - ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ بمتسلط. كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿بمصيّر﴾ مدني، وبصري، وعاصم، وعليّ.

٢٣، ٢٤ - ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ الاستثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم. ولكن من تولى منهم، وكفر بالله؛ فإن الله الولاية عليه والقهر، فهو يعذبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾. أي: ﴿فَذَكِّرْ... إلّا من﴾. انقطع طمعك من إيمانه و ﴿تَوَلَّى﴾ فاستحق العذاب الأكبر. وما بينهما اعتراض.

٢٥ - ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم. وفائدة تقديم الظرف: التشديد في الوعيد، وأنَّ إِيَابَهُمْ ليس إلّا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

٢٦ - ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم بها جزاء أمثالهم. و﴿على﴾ لتأكيد الوعيد لا للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء.

* * *

(١) «الشاحطة»: البعيدة.

(٢) «الظم»: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد.

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④

١ - ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ﴾ [المدثر: ٣٤]. أو: بصلاة الفجر.

٢ - ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة. أو: العشر الأول من المحرم. أو: من الأواخر من رمضان. وإنما نكرت لزيادة فضيلتها.

٣ - ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها. أو: شفع هذه الليالي ووترها. أو: شفع الصلاة ووترها. أو: يوم النحر؛ لأنه اليوم العاشر، ويوم عرفة؛ لأنه اليوم التاسع. أو: الخلق والخالق ﴿وَالْوَتْرِ﴾ حزة وعليٌّ. وبفتح الواو غيرهما، وهما لغتان. فالفتح حجازيٌّ. والكسر تميميٌّ.

٤ - بعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال: ﴿وَاللَّيْلِ﴾. وقيل: أريد به ليلة القدر ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي. وياء ﴿يسر﴾ تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة. وسأل واحدٌ الأخفش عن سقوط الياء، فقال: لا، حتى تخدمني سنة. فسأله بعد سنة فقال: الليل لا يسري، إنما يسرى فيه،

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾

فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقةً. وقيل: معنى ﴿يسري﴾ يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أي: ينام فيه.

٥ - ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مقسم به ﴿لِذِي حَجْرٍ﴾ عقل؟ سُمِّيَ به؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّيَ عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنه يعقل، وينهى. يريد: هل يحقُّ عنده أن يُعْظَمَ بالإقسام بها؟ أو: ﴿هل في﴾ إقسامي بها إقسام ﴿لذي حجر﴾؟ أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه؟ أو: هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذي عقل ولب؟ والمقسم عليه محذوف. وهو قوله: ليعذبن. يدل عليه قوله: ﴿ألم تر﴾ إلى قوله: ﴿فصَبَّ عليهم رَبُّكَ سوط عذاب﴾.

٦، ٧ - ثم ذكر تعذيب الأمم التي كذبت الرسل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان؟ وهو استفهام تقرير. قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد. كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى. و﴿إرم﴾: تسمية لهم باسم جدهم. ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. فأرم عطف بيان لعاد، وإيذان: أنهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها. ويدل عليه قراءة ابن الزبير ﴿بعادٍ*إِرمَ﴾ على الإضافة. وتقديره: بعاد أهل إرم؛ كقوله: ﴿وَسَكَلَ الْقَرِيَّةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. و﴿ذات العمداء﴾ إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى: أنهم كانوا بدويين أهل عمد. أو: طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة. وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين.

وروي: أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد، فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة. وكان عمره تسعمئة سنة. وهي: مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار. ولما تم

الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدَادِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْإِلْدَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾

بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابه: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصص عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد. وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر، أشقر، قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فأبصر ابن قلابه [فقال] ^(١): هذا والله ذلك الرجل ^(٢).

٨ - ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدَادِ﴾ أي: مثل عادٍ في قوتهم، وطول قامتهم. كان طول الرجل منهم أربعمئة ذراع. أو: لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا.

٩ - ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ﴾ قطعوا صخر الجبال، واتخذوا فيها بيوتاً. قيل: أول من نحت الجبال والصخور ثمود. وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة ﴿بِالْوَادِ﴾ بوادي القرى.

١٠ - ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ أي: ذي الجنود الكثيرة. وكانت لهم مضارب كثيرة يضربونها إذا نزلوا. وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها؛ كما فعل بآسية.

١١، ١٢ - ﴿الَّذِينَ﴾ في محلّ النصب على الذم. أو: الرفع على: هم الذين. أو: الجز على وصف المذكورين عاد، وثمود، وفرعون ﴿طَعَوْا فِي الْإِلْدَادِ﴾ تجاوزوا الحد ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (ابن قلابه) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخلل، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته. انظر تفسير ابن كثير (٦٠٢/٤).

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا

١٣ - ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه؛ إذ الصب يشعر بالدوام، والسوط بزيادة الإيلام. أي: عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً.

١٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ﴾ هو المكان الذي يُرصد؛ أي يترقب فيه الرّصد. مفعال، من: رصده. وهذا مثل؛ لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، وأنه عالم بما يصدر منهم، وحافظه، فيجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١٥ - ٢٠ - ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق عليه وجعله بمقدار بلغته ﴿فَقَدَرَ﴾ شامي، ويزيد ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي: الواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمه العاجلة. وهو قد عكس. فإنه إذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر قال: ربي أكرمني. أي: فضّلني بما أعطاني. فيرى الإكرام في كثرة الحظ من الدنيا. وإذا امتحنه بالفقر فقدّر عليه رزقه ليصبر قال: ربي أهانني فيرى الهوان في قلة الحظ من الدنيا؛ لأنه لا تهمه إلا العاجلة وما تلذه وتنعّمه فيها. فردّ عليه زعمه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته، بل الإكرام في توفيق الطاعة، والإهانة في الخذلان. وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾ ودخول الفاء لما في ﴿أَمَّا﴾ من معنى الشرط. والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير. كأنه قيل ﴿فَأَمَّا الإنسان﴾ فقايل ربي أكرمني وقت الابتلاء. وكذا ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني خبر المبتدأ وتقديره: ﴿وَأَمَّا﴾ هو ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ ربه. وسمى كلا الأمرين - من بسط الرزق وتقديره - ابتلاء؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر. وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وإنما أنكر قوله: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾. مع أنه أثبت به بقوله ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ لأنه قال على قصد خلاف

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاتِ أَكْثَلًا ﴿١٩﴾ وَتَحْبُوتُ أَمْالَ حِبَا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ
الْإِنْسَنُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

ما صححه الله عليه وأثبتته وهو قصده إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له
لاستحقاقه كقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] وإنما أعطاه الله
تعالى ابتلاءً من غير استحقاق منه.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: بل هناك شرٌّ
من هذا القول. وهو أن الله يكرمهم بالغنى فلا يؤذون ما يلزمهم فيه من إكرام
اليتيم بالمبرة، وحض أهلهم على طعام المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ﴾ الميراث
﴿أَكْثَلًا﴾ ذالماً. وهو الجمع بين الحلال والحرام. وكانوا لا يورثون النساء
والصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿وَتَحْبُوتُ أَمْالَ﴾. يقال: حبه وأحبه
بمعنى ﴿حَبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق ﴿رَبِّي﴾ حجازي،
وأبو عمرو ﴿يكرمون﴾ ﴿ولا يحضون﴾ ﴿ويأكلون﴾ ﴿ويحبون﴾ بصري.

٢١ - ٢٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك، وإنكاراً لفعلهم. ثم أتى بالوعيد،
وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾
إذا زلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكاً بعد دك. أي: كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ - تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه. فإن
واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر
بحضور عساكره وخواصه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أمره وقضاؤه
﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: ينزل ملائكة كل سماء، فيصطفون صفّاً بعد صف،
محدثين بالجن والإنس ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قيل: إنها بُرزت لأهلها كقوله:
﴿وَبُرِّزَتِ الْحَجِجُ لِلْعَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقيل: هو مُجْرَى على حقيقته. ففي
الحديث: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف
ملك يجرونها»^(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَنُ﴾ أي: يتعظ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ومن

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ
جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

أين له منفعة الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أي: يا ليتني قدّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية.

٢٥، ٢٦ - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَقَفَاهُ أَحَدًا﴾. قال صاحب الكشف: لا يعذب أحدٌ أحدًا كعذاب الله، ولا يوثق أحدٌ أحدًا كوثاق الله ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ عليّ. وهي قراءة رسول الله ﷺ. ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره. والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف، وهو الكافر. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ أحدٌ مثل عذابه ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعناده.

ثم يقول الله تعالى للمؤمن: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ﴾ إكراماً له، كما كلم موسى عليه السلام، أو يكون على لسان ملك ﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة؛ التي لا يستفرّجها خوف ولا حزن. وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنة إلى الحق؛ التي سكّنها ثلج اليقين، فلا يخالجهما شك. ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي: (يا أيُّتها النفس الآمنة المطمئنة) - وإنما يقال لها عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ﴾ موعِد ﴿رَبِّكَ﴾ أو ثواب ربك ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله بما أوتيت ﴿مَرْضِيَةً﴾ عند الله بما عملت ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلوكهم ﴿وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾ معهم. وقال أبو عبيدة: أي: مع عبادي، وبين عبادي. أي: خواصّي؛ كما قال: ﴿وَأَدْخِلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقيل: النفس: الروح. ومعناه: ﴿فادخلي في﴾ أجساد ﴿عبادي﴾ لقراءة عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - (في جسد عبدي). ولما مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم ير على خلقته، فدخل في نعشه، فلما دُفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يُدر من تلاها. قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب الذي صلبه أهل مكة. وقيل: هي عامة للمؤمنين؛ إذ العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾

١ ، ٢ - ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وبما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: ومن المكابدة: أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد. يعني: مكة كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت [لرسول]^(١) الله وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سأل رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. واعترض بأن وعده فتح مكة تميماً للتسليّة والتنفيس عنه فقال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك: أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له، وما فتحت على أحد قبله، ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرم ما شاء: قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صُبابة وغيرهما. وحرم دار

(١) في الأصل المخطوط: من رسول.

وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٢﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ

أبي سفيان ونظير قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ في الاستقبال قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلِإِثْمِهِمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال: أَنَّ السورة مكية بالاتفاق. وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟!

٣ - ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما آدم - عليه السلام - وولده. أو كلّ والدٍ وولده. أو: إبراهيم - عليه السلام - وولده ﴿وما﴾ بمعنى مَنْ أو بمعنى الذي.

٤ - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم ﴿فِي كَبَدٍ﴾ مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعن ذي النون: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء، مدعواً إلى الائتمار والانتهاة.

٥، ٦ - والضمير في ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ لبعض صناديد قريش؛ الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد. ثم قيل: هو أبو الأشد. وقيل: الوليد بن المغيرة. والمعنى: أیظنّ هذا الصنديد القوي في قومه، المتضعف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه. ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، وإنه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ أي: كثيراً. جمع: بُدْءة. وهو ما تلبّد. أي: كثر واجتمع. يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالی.

٧ - ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً. يعني: أَنَّ الله تعالى كان يراه، وكان عليه رقيباً.

٨ - ١٠ - ثم ذكر نعمة عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المراثيات ﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، المفضيين إلى الجنة والنار. وقيل: الثديين.

١١ - ١٧ - ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ

ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يعني فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب، أو إطعام اليتامى، والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة، وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه مرضي نافع عند الله، لا أن يهلك ماله لبدأ في الرياء والفخار. وقلما تستعمل «لا» مع الماضي إلا مكررة. وإنما لم تكرر في الكلام الأوضح؛ لأنه لما فسر اقتحام العقبة بثلاثة أشياء صار كأنه أعاد «لا» ثلاث مرات. وتقديره: فلا فك رقبة، ولا أطلع مسكيناً، ولا آمن. والاقترام: الدخول والمجازاة بشدة ومشقة. والقحمة: الشدة. فجعل الصالحة عقبة، وعملها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة، ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة والله شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، أو عدوه الشيطان. والمراد: بقوله: ﴿ما العقبة﴾: ما اقتحامها؟ ومعناه: أنك لم تدر كنه صعوبتها على النفس، وكنه ثوابها عند الله. وفك الرقبة: تخليصها من الرق، أو الإعانة في مال الكتابة ﴿فك رقبة أو أطلع مكّي، وأبو عمرو، وعليّ، على الإبدال من ﴿اقتحم العقبة﴾. وقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض. غيرهم: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ على: اقتحامها ﴿فك رقبة أو إطعام﴾. والمسغبة: المجاعة. والمقربة: القرابة. والمترية: الفقر. مفعلات من سغب: إذا جاع. وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب، فيكون مأواه المزابيل. ووصف اليوم بذي مسغبة؛ كقولهم: هم ناصب. أي: ذو نصب ومعنى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي: داوم على الإيمان. وقيل: ﴿ثم﴾ بمعنى الواو: وقيل: إنما جاء بـ«ثم» لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ إذ الإيمان هو السابق على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به ﴿وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، والمحن التي يبتلى بها المؤمن ﴿وتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالتراحم فيما بينهم.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

١٨ - ٢٠ - ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقرآن، أو بدلائلنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أصحاب الشمال. والميمنة والمشأمة: اليمين والشمال. أو اليمن، والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهن ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ^(١) وبالهمز: أبو عمرو، وحمزة، وحفص. أي: مطبقة. من: أوصدت الباب، وأصدته: إذا أطبقته، وأغلقتة.

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٨/ ١٥٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾

- ١ - ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها.
- ٢ - ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ تبعها في الضياء والنور. وذلك في النصف الأول من الشهر يخلف القمر الشمس في النور.
- ٣ - ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلى الشمس، وأظهرها للرئين. وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكْ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].
- ٤ - ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يستر الشمس، وتُظلم الآفاق.

والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتفاق. وكذا الثانية عند البعض. وعند الخليل: الثانية للعطف؛ لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز. ألا ترى: أنك لو جعلت موضعها كلمة الفاء، أو ثم لكان المعنى على حاله. وهما حرفا عطف. فكذا الواو. ومن قال: إنها للقسم احتجّ بأنها لو كانت

وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾

للعطف لكان عطفاً على عاملين؛ لأن قوله ﴿والليل﴾ - مثلاً - مجرور بواو القسم. و﴿إذا يغشى﴾ منصوب بالفعل المقدّر الذي هو أقسم. فلو جعلت الواو في ﴿والنهار إذا تجلّى﴾ للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جزأً، و﴿إذا تجلّى﴾ معطوفاً على ﴿إذا يغشى﴾ نصباً. فصار كقولك: إنّ في الدار زيداً والحجرة عمراً. وأجيب: بأنّ واو القسم تنزلت منزلة الباء والفعل حتّى لم يجز إبراز الفعل معها. فصار كأنّها العاملة نصباً وجزأً، وصارت كعامل واحد له عملاق. وكلّ عامل له عملاق يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق. نحو: ضرب زيدٌ عمراً وبكرٌ خالدًا فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها. فكذا هنا.

٥ - ٨ - و﴿ما﴾ مصدرية في ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا﴾ و﴿نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: وبنائها، وطحوها. أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة - عند البعض. وليس بالوجه لقوله: ﴿فألهمها﴾ لما فيه من فساد النظم. والوجه فيه: أن تكون موصولة، وإنّما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفية؛ كأنه قيل: ﴿والسماء﴾ والقادر العظيم الذي بناها ﴿ونفس﴾ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. وإنّما نكرت النفس؛ لأنّه أراد نفساً خاصّة من بين النفوس وهي نفس آدم؛ كأنه قيل: وواحدة من النفوس. أو: أراد كلّ نفس، والتذكير للتكثير كما في: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] ﴿فألهمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها، أي: أفهمها: أن أحدهما حسنٌ والآخر قبيحٌ.

٩ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ - جواب القسم. والتقدير: لقد أفلح. قال الزجاج: صار طول الكلام عوضاً عن اللام. وقيل: الجواب محذوف، وهو الأظهر. تقديره: لَيْدَمَدَمَنْ الله عليهم. أي: على أهل مكّة، بتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنّهم كذبوا صالحاً. وأمّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فألهمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء - ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهرها الله، وأصلحها، وجعلها زاكيةً.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيبُهُمْ فَسْوَنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

١٠ - ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ أغواها الله. قال عكرمة: أفلحت نفس زكّاه الله. وخابت نفس أغواها الله. ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النقص، والإخفاء بالفجور. وأصل دسى: دسس. والياء بدل من السين المكررة.

١١ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ بطغيانها؛ إذا الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

١٢ - ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ حين قام لعقر الناقة ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود: قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً. و﴿إِذِ﴾ منصوب بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو بالطغوى.

١٣ - ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصب على التحذير. أي: احذروا عقرها ﴿وَسُقْيَاهَا﴾؛ كقوله: الأسد الأسد.

١٤ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الناقة. أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً؛ كقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أهلكتهم هلاك استئصال ﴿يَذِيبُهُمْ﴾ بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم الرسول، وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّنَهَا﴾ فسوى الدمدمة عليهم، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

١٥ - ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة. أي: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعه من أحد؛ كما يخاف من يعاقب من الملوك؛ لأنه فعل في ملكه، ومملكه ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] (فلا يخاف مدنيّ، وشاميّ).

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَالْفَقْرَ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾

١ - ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ المَغْشَى إمَّا الشمس من قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو: النهار من قوله: ﴿يُغْشَى أَلَيْلُ النَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو: كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

٢ - ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل.

٣ - ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والقادر العظيم القدرة؛ الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد.

٤ - وجواب القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إن عملكم لمختلف. وبيان الاختلاف فيما فصل على أثره.

٥ - ٧ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ حقوق ماله ﴿وَالْفَقْرَ﴾ ربّه فاجتنب محارمه ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ بالملة الحسنی، وهي: ملة الإسلام، أو: بالمشوبة الحسنی، وهي: الجنة. أو: بالكلمة الحسنی وهي: لا إله إلا الله ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ فسنيته للخلة اليسرى، وهي: العمل بما يرضاه ربّه.

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾

٨، ١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بماله ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ عن ربه فلم يتقه، أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ بالإسلام، أو: الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ للخلة المؤدية إلى النار، فتكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشدّه. أو سقى طريقة الخير ياليسرى؛ لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشرّ بالعسرى؛ لأنّ عاقبتها العسر. أو: أراد بهما طريقي الجنة والنار.

١١ - ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك. و﴿تَرَدَّى﴾ تفعل، من الردى، وهو: الهلاك. أو: ﴿تَرَدَّى﴾ في القبر، أو: في قعر جهنم. أي: سقط.

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ إنّ علينا الإرشاد إلى الحقّ بنصب الدلائل، وبيان الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ فلا يضرنا ضلال من ضلّ، ولا ينفعنا اعتداء من اهتدى. أو: إنّهما لنا، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق.

١٤، ١٨ - ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ تتلهب، ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿إِلَّا الْكَافِرَ الَّذِي كَذَّبَ الرَّسُولَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴿الْأَتْقَى﴾ المؤمن ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّى﴾ من الزكاة. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياء، ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة. و﴿يَتَزَكَّى﴾ إن جعلته بدلاً من ﴿يُؤْتِي﴾ فلا محلّ له؛ لأنّه داخل في حكم الصلة. والصلات لا محلّ لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يُؤْتِي﴾ فمحله النصب. قال أبو عبيدة: ﴿الْأَشْقَى﴾ بمعنى: الشقيّ وهو الكافر. و﴿الْأَتْقَى﴾ بمعنى: التقى. وهو المؤمن؛ لأنّه يختصّ بالصليّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنّه نكر النار فأراد ناراً مخصوصةً بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ لأن المتقي يُجَنَّبُ تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَجُزَّى ﴿١٩﴾ إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

خاصّة. وقيل: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما فقليل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي، كأنّ النار لم تخلق إلّا له، وقيل: الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة، كأنّ الجنّة لم تخلق إلّا له. وقيل: هما أبو بكر - رضي الله عنه - وأبو جهل. وفيه بطلان زعم المرجئة؛ لأنهم يقولون: لا يدخل النار إلّا كافر.

١٩، ٢٠ - ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَجُزَّى إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهِ رَبِّهِ﴾ أي: ﴿وما لأحدٍ﴾ عند الله نعمة يجازيه بها؛ إلّا أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربّه، فيجازي عليه ﴿الْأَعْلَى﴾ هو الرفيع بسلطانه، المنيع في شأنه وبرهانه. ولم يرد به العلوّ من حيث المكان. فذا آية الحدّثان.

٢١ - ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ مَوْعِدٌ بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه. وهو كقوله تعالى لَنِيَّهٖ رَضَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

* * *

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَى ﴿٤﴾

١ - ٣ - ﴿وَالضُّحَى﴾ المراد به: وقت الضحى، وهو: صدر النهار حين ترتفع الشمس. وإنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي فيها السحرة سجداً. أو: النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي: سكن. والمراد سكون الناس والأصوات فيه. وجواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أي: ما تركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبك. والتوديع مبالغته في الودع؛ لأن من ودَّعَكَ مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي: أَنَّ الْوَحْيَ تَأَخَّرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَّاماً، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَدَّعَهُ رَبَّهُ، وَقَلَاهُ. فنزلت^(١). وحذف الضمير من ﴿قَلَى﴾ كحذفه من الذكريات في قوله: ﴿وَالَّذِكْرُ لِلَّهِ كَثِيرٌ وَالَّذِكْرُ لِلَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذكريات. ونحوه ﴿فَأَوَى﴾ ﴿فَهْدَى﴾ ﴿فَأَغْنَى﴾. وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

٤ - ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي: ما أعد الله لك في الآخرة من المقام

(١) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشف ٤/٧٦٦).

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا

المحمود، والحوض المورد، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا. وقيل: وجه اتصاله بما قبله: أنه لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله مواسلك بالوحي إليك، وأنت حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، أخبره: أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك؛ لتقدمه على الأنبياء، وشهادة أمته على الأمم، وغير ذلك.

٥ - ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، وغير ذلك ﴿فَتَرْضَى﴾. ولما نزلت قال ﷺ: «إذا لا أرضى قطّ وواحد من أمتي في النار»^(١). واللام الداخلة على ﴿سوف﴾ لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة. والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. ونحوه ﴿لأقسم﴾ فيمن قرأ كذلك؛ لأنّ المعنى: لأنا أقسم، وهذا لأنها إذا كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلّا مع نون التوكيد. فتعيّن أن تكون لام الابتداء، ولامه لا تدخل إلّا على المبتدأ والخبر. فلا بدّ من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا، كذا ذكره صاحب الكشاف. وقال صاحب الكشف: هي لام القسم، واستغني عن نون التوكيد؛ لأنّ النون إنّما تدخل ليؤذن: أنّ اللام لام القسم لا لام الابتداء. وقد علم: أنه ليس للابتداء؛ لدخولها على ﴿سوف﴾ لأنّ لام الابتداء لا تدخل على سوف. وذكر: أنّ الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأنّ العطاء كائن لا محالة وإن تأخر.

٦ - ثمّ عدّد عليه نعمه من أوّل حاله، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلّا الحسنى وزيادة الخير، ولا يضيق صدره، ولا يقلّ صبره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم. والمنصوبان مفعولاه. والمعنى: ألم تكن يتيمًا حين مات أبواك ﴿فَقَاوَى﴾ أي: فأواك إلى عمك أبي طالب، وضمّك إليه، حتّى كفلك، وربّاك.

٧ - ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: غير واقفٍ على معالم النبوة، وأحكام الشريعة،

(١) رواه الخطيب في تلخيص المشابه. (الدر المنثور ٨/ ٥٤٢).

فَهْدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وما طريقه السمع ﴿فَهْدَىٰ﴾ فعرفك الشرائع والقرآن. وقيل: ضلّ في طريق الشّام حين خرج به أبو طالب فردّه إلى القافلة. ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حقّ، ووقوع في غيٍّ. فقد كان ﷺ من أوّل حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

٨ - ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجة - رضي الله عنها -
أو: بما أفاء عليك من الغنائم.

٩ - ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقّه لضعفه.

١٠ - ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ﴾ فلا تزجر، فأبذل قليلاً، أو: ردّ جميلاً. وعن السديّ: المراد: طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره.

١١ - ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: حدّث بالنبوة التي آتاك الله. وهي أجلّ النعم. والصحيح أنها تعمّ جميع نعم الله عليه. ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع.

* * *

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

١ - ﴿اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك. ولذا عطف عليه ﴿وَضَعْنَا﴾ اعتباراً للمعنى. أي: فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، حتى وسع هموم النبوة، ودعوة الثقلين. فأزلنا عنه الضيق، والخرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملئ حكمة وعلماً.

٢ - ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها. وقيل: هو زلة لا نعرفها بعينها. وهي: ترك الأفضل مع إتيان الفاضل. والأنبياء يعاتبون بمثلها. ووضع عنه: أن غفر له. والوزر: الحمل الثقيل.

٣ - ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه، وهو صوت الانتقاض.

٤ - ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطب، والتشهد، وفي غير موضع من القرآن ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وفي تسميته: رسول الله، ونبي الله. ومنه: ذكره في كتب الأولين.

وفائدة ﴿لك﴾ ما عرف في طريقة الإبهام والإيضاح؛ لأنه يفهم بقوله: ﴿ألم نشرح لك﴾ أن ثم مشروحا، ثم أوضح بقوله: ﴿صدرك﴾ ما علم مبهما، وكذلك: ﴿لك ذكرك﴾ و﴿عنك وزرك﴾.

٥، ٦ - ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: إن مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين ﴿يسرا﴾ بإظهار إيّاك عليهم حتى تغلبهم. وقيل: كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه: أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله. فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثم قال: ﴿إن مع العسر يسرا﴾ كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ﴿فإن مع العسر﴾ الذي أنتم فيه ﴿يسرا﴾. وجيء بلفظ ﴿مع﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية، وتقوية القلوب. وإنما قال ﷺ عند نزولها: «لن يغلب عسر يسرين»^(١) لأن العسر أعيد معرّفاً فكان واحداً؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى. واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى. فصار المعنى: ﴿إن مع العسر﴾ يسرين. قال أبو معاذ: يقال: إن مع الأمير غلاماً، إن مع الأمير غلاماً. فالأمير واحد ومعه غلامان. وإذا قيل: إن مع الأمير الغلام، إن مع الأمير الغلام. فالأمير واحد والغلام واحد. وإذا قيل: إن مع أمير غلاماً، إن مع أمير غلاماً، فهما أميران وغلامان. كذا في «شرح التأويلات».

٧ - ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿فإذا فرغت﴾ من صلاتك فاجتهد في الدعاء. واختلف: أنه قبل السلام أو بعده. ووجه الاتصال بما قبله: أنه لما عدّد عليه نعمه السالفة، ووعدّه الآئفة، بعثه على الشكر

وَلِئَلَّيْكَ فَارْغَبَ

والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ولا يُخلَى وقتاً من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى .

٨ - ﴿وَلِئَلَّيْكَ فَارْغَبَ﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله، متوكلاً عليه .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾

١ - ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة. روي: أنه أهدى لرسول الله ﷺ طبق من تين، فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من القُقرس»^(١) وقال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفرة»^(٢). وقال: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»^(٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو تينكم هذا وزيتونكم. وقيل: هما جبلان، بالشام ينبتانهما.

٢ - ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ أضيف الطور وهو: الجبل إلى سينين، وهي: البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب.

(١) رواه أبو نعيم في الطب (ص ٨٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط. (مجمع الزوائد ٢/ ١٠٠).

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

٣ - ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مَكَّةُ ﴿الْأَمِينِ﴾، من: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وأمانته: أنه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم، ومولد عيسى - عليهما السلام -، ومنشؤه. والطور: المكان الذي نودي منه موسى - عليه السلام - ومَكَّةُ: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد نبينا، ومبعثه ﷺ. أو: الأولان قَسَمَ بمهبط الوحي على عيسى - عليه السلام - والثالث على موسى - عليه السلام - والرابع على محمد ﷺ.

٤ - وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ - وهو جنس - ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته، وتَسْوِيَةٍ لأعضائه.

٥ - ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفلى خلقاً وتركيباً. يعني: أقبح مَنْ قُبَحَ صورةً، وهم أصحاب النار. أو: أسفل من سفلى من أهل الدرجات. أو: ﴿ثم رددناه﴾ بعد ذلك التقويم والتحسين ﴿أسفل﴾ من سفلى في حسن الصورة والشكل، حيث نكسناه في خلقه فقوَّس ظهره بعد اعتداله، وابتيض شعره بعد سواده، وتشنَّ جلده^(١)، وكلَّ سمعه وبصره، وتغيَّر كل شيء منه، فمشيه دليف^(٢)، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خَرَفُ.

٦ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين. والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع. أي: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب غير منقطع على

(١) «تشنن»: ييس.

(٢) «دليف»: أي: متقارب الخطو.

فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق، والقيام بالعبادة.

٧ - والخطاب في: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْدِّينِ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع، والبرهان الساطع بالجزاء. والمعنى: إن خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشراً سوياً، وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر على خلق الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته. فما سبب تكذيبك بالجزاء؟ أو: لرسول الله ﷺ. أي: فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟ «فما» بمعنى: مَنْ.

٨ - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ وعيد للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهل له. وهو من الحكم: القضاء.

* * *

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد - رحمه الله - هي: أول سورة نزلت. والجمهور على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم.

١، ٢ - ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال. أي: ﴿اقرأ﴾ مفتتحاً ﴿باسم ربك﴾ قل: باسم الله، ثم اقرأ. ﴿الذي خلق﴾ لم يذكر لخلق مفعولاً لأن المعنى: ﴿الذي﴾ حصل منه الخلق، واستأثر به، لا خالق سواه. أو: تقديره: خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق. وليس بعض المخلوقات بتقديره أولى. وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه، ولأن التنزيل إليه. ويجوز أن يراد ﴿الذي خلق﴾ الإنسان، إلا أنه ذكر مبهماً، ثم مفسراً تفخيماً لخلقه، ودلالة على عجيب فطرته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وإنما جمع ولم يقل: من علقه؛ لأن الإنسان في معنى الجمع.

٣ - ٥ - ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٢﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٤﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٥﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٦﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿٧﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٩﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ تَوَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَلَّا يَكْفُكُمُ اللَّهُ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٢﴾ إِلَٰهَ الْغَايِبِ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَنِيُّ ﴿١٤﴾

ينعم على عباده النعم، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه. وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الكتابة ﴿بِالْقَلَمِ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فدل على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة. وما دوت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة، إلّا بالكتابة. ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلّا أمر القلم والخط لكفى به.

٦- ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر، لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة.

٧- ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني، وعلمتني. ومعنى الرؤية: العلم. ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين ﴿أَسْتَفْقَى﴾ هو المفعول الثاني.

٨- ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ تهديه للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات. و﴿الرجعى﴾ مصدر بمعنى: الرجوع. أي: إن رجوعك إلى ربك، فيجازيك على طغيانك.

٩- ١٤- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ أي ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أبا جهل ينهى محمداً ﷺ عن الصلاة ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ أي: ﴿إِنْ كَانَ﴾ ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الناهي مكذباً بالحق، متولياً عنه، كما نقول نحن ﴿أَلَّا يَكْفُكُمُ اللَّهُ يَرَىٰ﴾ ويطلع على أحواله من هداة وضلاله، فيجازيه على حسب حاله. وهذا وعيد. وقوله: ﴿الذي ينهى﴾ مع الجملة الشرطية مفعولا ﴿أَرَأَيْتَ﴾، وجواب الشرط

كَلَّا لَئِنْ لَزَّ بَنَتَهُ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطْعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

محدوف، تقديره: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني. وهذا كقولك: إن أكرمتك أكرمتني؟ و﴿أَرَأَيْتَ﴾ الثانية مكررة زائدة للتوكيد.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام. ثم قال: ﴿لَئِنْ لَزَّ بَنَتَهُ﴾ عما هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته ولنسحبته بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. وَكَبَّتُهَا في المصحف بالألف على حكم الوقف. واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنها ناصية المذكور.

١٦ - ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية. لأنها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازي. فهما لصاحبها حقيقة. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء.

١٧، ١٨ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ * سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم. والمراد: أهل النادي. روي: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَنُحِمْ؟! فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت^(١). والزبانية لغة: الشرط. الواحد: زبينة. من: الزبن. وهو: الدفع. والمراد: ملائكة العذاب. وعنه ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً»^(٢).

١٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل. ﴿لَا نُطْعُهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [القلم: ٨] ﴿وَأَسْجُدْ﴾ ودم على سجودك. يريد: الصلاة ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود؛ ف «إِنْ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ»^(٣). كذا الحديث.

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٤٩).

(٢) رواه أحمد (٣٧٠ / ٢) ومسلم (٢٧٩٧).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

١ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ عظم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه. ورفع مقدار الوقت الذي أنزل فيه روي: أنه أنزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ثم كان ينزله جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها. والقدر: بمعنى التقدير. أو سُمِّيَتْ بذلك لشرفها على سائر الليالي. وهي ليلة السابع والعشرين [من رمضان] ^(١). كذا روى أبو حنيفة - رحمه الله - عن عاصم، عن زَرٍّ: أَنَّ أَبِي بَنِ كَعْبٍ - رضي الله عنه - كان يحلف على ﴿لَيْلَةٍ﴾: أَنَّهَا لَيْلَةُ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، وعليه الجمهور. ولعلَّ الداعي إلى إخفائها: أن يحجب من يريد بها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها. وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمه الأعظم، وساعة الإجابة في الجمعة، ورضاه في الطاعات، وغضبه في المعاصي. وفي الحديث: «من أدركها يقول: اللهم إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» ^(٢).

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠).

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَوْثُورُ ﴿٤﴾ فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٥﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٦﴾

٢، ٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها. ثم بين له ذلك بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر. وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم. وذكر في تخصيص هذه المدة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر. فعجب المؤمنون من ذلك وتقصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة هي خيرٌ من مدة ذلك الغازي.

٤ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَوْثُورُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض ﴿وَالرُّوحُ﴾ - جبريل - عليه السلام - أو خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلا تلك الليلة. أو: الرحمة ﴿فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ﴾ أي تنزل ﴿من﴾ أجل ﴿كل أمر﴾ قضاء الله لتلك السنة إلى قابل. وعليه وقف.

٥ - ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة. خبر ومبتدأ. أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير. ويقضي في غيرها بلاء وسلامة. أو: ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلّمون على المؤمنين. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنةً إلا سلّموا عليه في تلك الليلة ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر. وبكسر اللام عليّ، وخلف. وقد حُرِّمَ من السلام الذين كفروا.

* * *

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

١ - ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى. فأهل الرجل: أخص الناس به، وأهل الإسلام: من يدين به ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنْفَكِينَ﴾ منفصلين عن الكفر. وحذف؛ لأن صلة ﴿الذين﴾ تدل عليه ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة. والمراد: محمد ﷺ. يقول: لم يتركوا كفرهم حتى بُعث محمد ﷺ. فلما بُعث أسلم بعض، وثبت على الكفر بعض.

٢ - ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: محمد ﷺ. وهو بدل من البينة ﴿يَتْلُو﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُطَهَّرَةً﴾ من الباطل.

٣ - ﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتِبَ﴾ مكتوبات ﴿قِيمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل.

٤ - ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فمنهم من أنكر

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

نبوته بغياً وحسداً، ومنهم من آمن. وإنما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أولاً بينهم وبين المشركين؛ لأنهم كانوا على علم به؛ لوجوده في كتبهم. فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٥ - ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق ﴿حُنَفَاءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة القيمة.

٦، ٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ * ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ونافع يهزهما. والقراء على التخفيف. والنبي والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.

٨ - ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إقامة ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرضا ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

وقوله ﴿خير البرية﴾ يدل على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة لأن البرية: الخلق. واشتقاقها من برأ الله الخلق. وقيل: اشتقاقها من البرى، وهو التراب. ولو كان كذلك لما قرؤوا البريئة بالهمز. كذا قاله الزجاج.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

١ - ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: حركت زلزالها الشديد الذي ليس بعده.
وقرىء بفتح الزاي. فالكسور: مصدر، والمفتوح: اسم.

٢ - ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها وموتاهها. جمع: ثقل، وهو: متاع البيت. جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

٣ - ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تنزل وتلفظ موتاهها أحياء، فيقولون ذلك، لما يظهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢].
وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث. فأما المؤمن فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]

٤ - ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾. وناصبهما ﴿تُحَدِّثُ﴾. أي: ﴿تُحَدِّثُ﴾ الخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فحذف أول المفعولين؛ لأن المقصود ذكر تحديثها الأخبار،

يَأْن رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

لا ذكر الخلق. قيل: ينطقها الله، ونخبر بما عمل عليها من خير وشر. وفي الحديث: «تشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها»^(١).

٥ - ﴿يَأْن رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي: «تحدث أخبارها» بسبب إحياء ربك ﴿لَهَا﴾ أي: إليها، وأمره إيّاها بالتحديث.

٦ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين. أو: يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم.

٧ - ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نملة صغيرة ﴿خَيْرًا﴾ تميز ﴿يَرَهُ﴾ أي: ير جزاءه.

٨ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قيل: هذا في الكفار، والأول في المؤمنين. ويحكى: أن أعرابياً آخر ﴿خيراً يره﴾. فقيل له: قدمت وأخرت فقال:

خُذَا بَطْنَ هَرَشَى أَوْ قَفَّاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبِي هَرَشَى لَهْنٍ طَرِيقُ

وروي: أن جدّ الفرزدق أناه ﷺ ليستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال: «حسبي حسبي»^(٢). وهي أحكم آية، وسميت الجامعة.

* * *

(١) رواه أحمد (٣٧٤/٢) والترمذي (٣٣٥٣) والحاكم (٥٣٢/٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٦٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٩٦/٨).

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ
بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

١ - ٨ - ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا﴾ أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه حكاه فقال: أخ، أخ. وانتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ على يَضْبَحُنْ ضَبْحًا ﴿فَأَلْمُورِيَّتِ﴾ توري نار الحباب^(١). وهي: ما ينقذ من حوافرها ﴿قَدْحًا﴾ قاذحات صاكات بحوافرها الحجارة. والقذح: الصك. والإبراء: إخراج النار. تقول: قذح فأورى. وقذح فأصلد^(٢). وانتصب ﴿قَدْحًا﴾ بما انتصب به ﴿ضَبْحًا﴾ ﴿فَأَلْمُغِيرَتِ﴾ تغير على العدو ﴿صُبْحًا﴾ في وقت الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى: توسطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، أو: للعدو الذي دل عليه: ﴿والعاديات﴾. وعطف ﴿فَأَثَرْنَ﴾ على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه؛

(١) «الحباب»: اسم رجل بخيل، كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا به المثل حتى قالوا: نار الحباب؛ لما تقدحه الخيل بحوافرها.

(٢) «أصلد»: صوت ولم يخرج ناراً.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ
لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم
بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

لأنَّ المعنى: واللاتي عدون، فأورين، فأغرن، فأثرن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفور. أي: أنه لنعمة ربّه خصوصاً لشديد الكفران ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنَّ الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾. يشهد على نفسه. أو: إنَّ الله على كنوده لشاهد، على سبيل الوعيد ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإنّه لأجل حبِّ المال لبخيلٌ ممسك. أو: وإنّه حبُّ المال لقويٌّ، وهو لبُّ عبادة الله ضعيف.

٩ - ١١ - ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ بعث ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من الموتى. و﴿مَا﴾ بمعنى مَنْ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ميز ما فيها من الخير والشر ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر؟ وخصَّ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنَّ الجزاء يقع ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

١ ، ٢ - ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿الْقَارِعَةُ﴾ خبره . والجمله خبر المبتدأ الأول ، وكان حقه : ما هي . وإنما كرر تفخيماً لشأنها .

٣ - ﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي : أي شيء أعلمك ما هي ؟ ومن أين علمت ذلك ؟

٤ - ﴿يَوْمَ﴾ نصب بمضمر دلّت عليه ﴿القارعة﴾ أي : تفرع ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ . شبههم بالفراش في الكثرة ، والانتشار ، والضعف ، والذلة ، والتطاير إلى الداعي من كل جانب ؛ كما يتطاير الفراش إلى النار . وسمي فراشاً لتفرشه ، وانتشاره .

٥ - ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وشبه الجبال بالعهن - وهو الصوف المصبغ ألواناً - لأنها ألوان ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر : ٢٧] وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها .

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

٦ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ باتباعهم الحق، وهي: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. أو: جمع ميزان. وثقلها: رجحانها.

٧ - ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا، أو: مرضية.

٨ ، ٩ - ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ باتباعهم الباطل ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ فمسكنه ومأواه النار. وقيل للمأوى: أم على التشبيه؛ لأن الأم مأوى الولد ومفزع.

١٠ ، ١١ - ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴾ الضمير يعود إلى هاوية. والهاء للسكت. ثم فسرها فقال: ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ بلغت النهاية في الحرارة.

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

١ - ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ شغلکم التباري في الكثرة، والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله.

٢ - ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى أدرككم الموت على تلك الحال، أو: حتى زرتم المقابر، وعددت من في المقابر من موتاكم.

٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همّه ولا يهتم بدينه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر، أو عند النزع سوء عاقبة ما أنتم عليه.

٤، ٥ - ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف. أي: ﴿لو تعلمون﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علم الأمر اليقين. أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف، ولكنتكم ضلال جهلة.

لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا عَلَيْنِ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦ - ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هو جواب قسم محذوف. والقسم لتوكيد الوعيد ﴿لَتَرْوُنَّ﴾ بضم التاء شامي، وعلي.

٧ - ﴿ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا﴾ كرره معطوفاً بشم تغليظاً في التهديد، وزيادة في التهويل. الأول بالقلب، والثاني بالعين ﴿عَلَيْنِ الْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته.

٨ - ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ عن الأمن والصحة فيم أفنيتموهما، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - . وقيل: عن التنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وعن الحسن: ما سوى كن يؤويه، وثوب يواريه، وكسرة تقويه. وقد روي مرفوعاً.

* * *

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

١ - ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: (والصلاة الوسطى صلاة العصر) في مصحف حفصة - رضي الله عنها - ولأنَّ التكليف في أدائها أشق؛ لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعاشهم. أو: أقسم بالعشيِّ كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة. أو: أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

٢ - وجواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان لفي خسران من تجارتهم.

٣ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وسعدوا ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله، وطاعته، واتباع كتبه، ورسله ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما ييلو به الله عباده ﴿وتواصوا﴾ في الموضعين فعل ماضٍ معطوف على ماضٍ قبله.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾

١ - ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي: الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: من يعيهم مواجهة. وبناءً فَعَلَةٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مِنْهُ. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكانت عادته الغيبة. وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد. ويجوز أن يكون السبب خاصاً، والوعيد عاماً، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح.

٢ - ﴿الَّذِي﴾ بدل من كل. أو نصب على الذم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿جَمَعَ﴾ شامي، وحمزة، وعليّ مبالغة. وهو مطابق لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ أي: جعله عُدَّةً لحوادث الدهر.

٣ - ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت. أو: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم. فأما المال فما أخلد أحداً فيه.

كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٢﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ ﴿٣﴾ الَّتِي تَطْلُعُ
عَلَى الْأَفْنِدَةِ ﴿٤﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٥﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٦﴾

٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسابه. ﴿لَيُبَدِّلَنَّ﴾ الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقي فيها.

٥ - ٧ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعجيب وتعظيم ^(١) ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي نار الله ﴿الْمَوْقِدَةُ﴾ نعتها ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشدّ ألماً منه بأدنى أذى يمسه. فكيف إذا أطلعت عليه نار جهنم، واستولت عليه؟ وقيل: خصّ الأفئدة؛ لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة. ومعنى اطلاع النار عليها: أنها تشتمل عليها.

٨ - ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: النار، أو الحطمة ﴿مُّوَصَّدَةٌ﴾ مطبقة.

٩ - ﴿فِي عَمَدٍ﴾ ^(٢) بضمين كوفي غير حفص. الباقون ﴿فِي عَمَدٍ﴾ وهما لغتان في جمع: عماد، كإهاب وأهب، وحمار وحر ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: تؤصد عليهم الأبواب، وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق. في الحديث: «المؤمن كيتس فطن، وقاف مثبّت، لا يعجل، عالم، ورع. والمنافق همزة، لمزة، حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب، وفيم أنفق» ^(٣).

* * *

(١) في الأصل المخطوط: تعذيب، والمثبت من المطبوع، وهو أنسب.

(٢) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿عُمَدٍ﴾ وهي: حمزة، والكسائي، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٢٣٥/٨).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٦٥٤٤) وانظره في فيض القدير (٩١٥٨).

سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفِيلِ

١ - ﴿الْفِيلُ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ﴾ لا بـ ﴿الْفِيلُ﴾ لما في ﴿كَيْفَ﴾ من معنى الاستفهام. والجملة سدّت مسدّ مفعولي ﴿تَرَى﴾. وفي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب. أي: عَجَبَ اللهُ نبيّه من كفر العرب، وقد شاهدت هذه العظيمة من آيات الله. والمعنى: إنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿يَا أَصْحَابَ الْفِيلِ﴾.

روي: أن أبرهة بن الصَّبَّاح ملك اليمن من قبل أَصْحَمَةَ النجاشي، بنى كنيسةً بصنعاء، وسَمَّاهَا: الْقُلَيْس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلاً، فأغضبه ذلك. وقيل: أجبجت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح، فأحرقتها، فحلف ليهدمن الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه: محمود - وكان قوياً عظيماً - واثنان عشر فيلاً غيره. فلما جاء مُغَمَّسَ خَرَجَ إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبأ جيشه، وقدم الفيل، فكانوا كلّموا وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن هرولاً، فأرسل الله طيراً، مع كلّ طائر حجر في منقاره، وحجران في رجله أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة. فكان الحجر يقع على رأس الرجل،

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، ففروا، وهلكوا. وما مات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه. وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يخلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقصّ عليه القصّة، فلما أتمّها وقع عليه الحجر، فخر ميتاً بين يديه.

وروي: أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير، فخرج إليه فيها. فعظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيّد قریش، وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك، وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود^(١) أخذ لك! فقال: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ سيمنعه.

٢ - ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضليل وإبطال. يقال: ضلّل كيده: إذا جعله ضالاً ضائعاً. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل؛ لأنه ضلّل ملك أبيه. أي: ضيّعه. يعني: أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس، ليصرفوا وجوه الحاجّ إليه فضلّل كيدهم بإيقاع الحريق فيه. وكادوه ثانياً بإرادة هدمه، فضلّل [كيدهم]^(٢) بإرسال الطير عليهم.

٣ - ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ حزائق^(٣)، الواحدة: إباله. قال الزجاج جماعات من ها هنا، وجماعات من ها هنا.

٤ - ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿يرميهم﴾ أي: الله، أو: الطير؛ لأنه اسم جمع مذكّر. وإنما يؤنّث على المعنى ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ﴾ هو معرّب من: «سَنَكُ كُلُّ» وعليه الجمهور، أي: الآجر.

٥ - ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ زرع أكله الدود.

(١) «الدّود»: جماعة الإبل بين الثلاث والعشر.

(٢) ليست في الأصل المخطوط.

(٣) أي: جماعات، وحزائق: جمع خزقة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قَرِيشَ

١ - ﴿لَا إِلَافَ قَرِيشَ﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾. أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط. أي: إن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. أو بما قبله أي: ﴿لَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ﴿لإيلاف قريش﴾ يعني: أن ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف. وهذا كالتضمنين في الشعر، وهو: أن: يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل. ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما. والمعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترمواهم فضل احترام؛ حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترأ أحد عليهم. وقيل المعنى: اعجبوا ﴿لإيلاف قريش﴾. (لإلاف قريش) شامي، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال: ألفته، إلفا، وإلafa. وقريش: ولد النضر بن كنانة. سمّوه بتصغير القرش. وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن فلا تطاق إلا بالنار. والتصغير للتعظيم. فسمّوا بذلك لشدة بهم، ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل:

إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

من القرش، وهو الكسب؛ لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

٢ - ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أطلق الإيلاف، ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه. ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به. وأراد رحلتي الشتاء والصيف. فأفرد لأمن الإلباس.

وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون، ويتجرون. وكانوا في رحلتهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله، فلا يُتعرَّضُ لهم، وغيرهم يُغارُ عليهم.

٣، ٤ - ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ والتنكير في ﴿جوع﴾ و﴿خوف﴾ لشدةهما. يعني: ﴿أطعمهم﴾ بالرحلتين ﴿من جوع﴾ شديد كانوا فيه قبلهما ﴿وآمنهم من خوف﴾ عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو: خوف التخطف من بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف، والعظام المخرقة ﴿وآمنهم من﴾ خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

١ ، ٧ - ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ أي: هل ﴿رأيت الذي يكذب﴾ بالجزء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَلِكَ﴾ الذي يكذب بالجزء هو ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى، ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يبعث أهله ﴿على﴾ بذل ﴿طعام المسكين﴾. جعل علم التكذيب بالجزء، منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضعيف. أي: لو آمن بالجزء، وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه، ولم يقدم على ذلك. فحين أقدم عليه دلّ أنه مكذب بالجزء. ثم وصل به قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني بهذا: المنافقين. أي: لا يصلّونها سرّاً؛ لأنهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلّونها علانية رياءً. وقيل: ﴿فويل﴾ للمنافقين ﴿الذين﴾ يدخلون أنفسهم في جملة المصلّين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يريدون بها قربة إلى ربهم، ولا تأدية لفرض. فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا

يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدّون الفرائض، ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة.

وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل: في صلاتهم؛ لأنّ معنى «عن»: أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين. ومعنى «في»: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس. وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره.

والمراعاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله، وهم يُروّنه الثناء عليه والإعجاب به. ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض. فمن حقّها الإعلان بها، لقوله ﷺ: «ولا غُمَّة في فرائض الله»^(١). والإخفاء في التطوّع أولى. فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. والماعون: الزكاة. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما يتعاونُ في العادة بين الناس من القدر، والدلو، والمقدّحة، ونحوها. وعن عائشة رضي الله عنها: الماء، والنار، والملح.

* * *

(١) قال في: الكشف (٨٠٥/٤): لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

١ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو فاعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنة أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الرُّبْد. حافته الزبرجد، وأوانيه من فضة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الخير الكثير. فقيل له: فَإِنَّ نَاساً يَقُولُونَ: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير.

٢ - ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فاعبد ربك، الذي عزك بإعطائه، وشرفك، وصانك من ممن الخلق، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿وَانْحَرْ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها.

٣ - ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ﴾ إِنَّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير لا أنت؛ لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك. وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر. يبدأ بذكر الله، ويثنى بذكرك. ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتَر، إنما الأبتَر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة. قيل: نزلت في العاص بن وائل. سَمَاهُ: الأبتَر. والأبتَر: الذي لا عقب له. وهو خبر إن. و﴿هُوَ﴾ فصل.

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾

١ - ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ المخاطبون كفرة مخصوصون، علم الله أنهم لا يؤمنون.

روي: أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلمّ فاتبع ديننا وتتبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً، ونعبد إلهك سنة. فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك. فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش، فقرأها عليهم، فأيسوا^(١).

٢، ٣ - ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لست في حالي هذه عابداً ما تعبدون ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ الساعة ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ يعني: الله.

٤، ٥ - ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ولا أعبد فيما أستقبل ما عبدتم ﴿وَلَا أَنْتُمْ﴾ فيما تستقبلون ﴿عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. وذكر بلفظ ﴿مَا﴾ لأنّ المراد به: الصفة. أي: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. أو: ذكر بلفظ ﴿مَا﴾ ليتقابل

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٨٠٨/٤).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِي دِينِ ﴿٦﴾

اللفظان. ولم يصح في الأول «مَنْ» وصح في الثاني «مَا» بمعنى الذي.

٦ - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِي دِينِ﴾^(١) لكم شرككم ولي توحيد. ويفتح الياء نافع وحفص.

روي: أن ابن مسعود - رضي الله عنه - دخل المسجد والنبي ﷺ جالس، فقال له: «نابذ يا ابن مسعود» فقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾. ثم قال له في الركعة الثانية: «أخلص». فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾. فلما سلّم قال: «يا ابن مسعود سلّ تجب».

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿ولِي﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٢٥٧/٨).

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١ - ﴿إِذَا﴾ منصوب بسبح، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة وروي: أنها نزلت في أيام التشريق بمضى في حجة الوداع ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر: الإعانة والإظهار على العدو. والفتح: فتح البلاد. والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب، أو: على قريش وفتح مكة، أو: جنس نصر الله للمؤمنين، وفتح بلاد الشرك عليهم.

٢ - ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ هو حال من الناس على أن ﴿رَأَيْتَ﴾ بمعنى: أبصرت، أو عرفت، أو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت ﴿فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ هو حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾. وجواب إذا ﴿فسبح﴾. أي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إيتاك على من ناوأك، وفتح البلاد، ورأيت أهل اليمن يدخلون في ملة الإسلام جماعات كثيرة بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين.

٣ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله حامداً له، أو: فصل له

وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّكُمْ كَانَتْ نَوَابِئًا ﴿٢﴾

﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دم على الاستغفار ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ﴾ ولم يزل ﴿نَوَابِئًا﴾.

ويروى: أنّ عمر - رضي الله عنه - لما سمعها بكى، وقال: الكمال دليل الزوال، وعاش رسول الله ﷺ سنتين بعدها.

* * *

سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

١ - ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ التباب: الهلاك. ومنه قولهم: أشابة أم تابة؟ أي: هالكة من الهرم. والمعنى: هلكت يداه، لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ وهلك كله. أو جعلت يداه هالكيتين، والمراد هلاك جملة كقوله: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقوله:

جَزَانِي جَزَاءُ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ، وَقَدْ فَعَلَ
وقد دلَّ عليه قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - (وقد تب). روي: أنه لما نزل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ رقي الصفا، وقال: يا صباحاه، فاستجمع إليه الناس من كل أوب، فقال ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإنني نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تباً لك. ألهذا دعوتنا؟ فنزلت^(١). وإنما كناه

(١) رواه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

والتكنية تكريمة لاشتهاره بها دون الاسم، ولكراهة اسمه، فاسمه عبد العزى، ولأن ماله إلى نار لهب، فوافقت حاله كنيته، ﴿أبي لهب﴾ مكّي.

٢ - ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ ﴿مَا﴾ للنفي ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوع. وما موصولة، أو مصدرية. أي: ومكسوبه أو وكسبه. أي: لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه. أو: ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿ما كسب﴾، ولده. وروي: أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً؛ فانا أفندي منه نفسي بمالي، وولدي.

٣ - ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ سيدخل ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ البرجمي عن أبي بكر. والسين للوعيد. أو: كائن لا محالة؛ وإن تراخى وقته ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ توقّد.

٤ - ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ هي: أم جميل، بنت حرب، أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنتثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس. ونصب عاصم ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ على الشتم. وأنا أحب هذه القراءة. وقد توسّل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل. وعلى هذا يسوغ الوقف على ﴿وامرأته﴾ لأنها عطفت على الضمير في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أي: سيدخل هو وامرأته. والتقدير: أعنى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. وغيره رفع ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ على أنها خبر ﴿وامرأته﴾. أو: هي ﴿حَمَّالَةُ﴾.

٥ - ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ حال، أو خبر آخر. والمسد الذي قتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان، أو جلد، أو غيرهما. والمعنى: ﴿في جيدها حبل﴾ ممّا مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك، وتربطها في جيدها؛ كما يفعل الخطّابون، تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الخطّابات؛ لتجزع من ذلك، ويجزع بعلمها، وهما في بيت العزّ والشرف، وفي منصب الثروة والجلّة.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

١ - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿هو﴾ ضمير الشأن. و﴿الله أحد﴾ هو الشأن؛ كقولك: هو زيد منطلق. كأنه قيل: الشأن هذا، وهو: أن الله واحد لا ثاني له. ومحلُّ ﴿هو﴾: الرفع على الابتداء. والخبر هو الجملة، ولا يحتاج إلى الرجوع؛ لأنه في حكم المفرد في قولك: زيد غلامك؛ في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك: أن قوله: ﴿الله أحد﴾ هو الشأن الذي ﴿هو﴾ عبارة عنه. وليس كذلك: زيد أبوه منطلق، فإن زيد والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بد مما يصل بينهما.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قالت قریش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه. فتزلت. يعني: الذي سألتموني وصفه ﴿هو الله﴾. وعلى هذا ﴿أحد﴾: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو ﴿أحد﴾. وهو بمعنى: واحد، وأصله وَحَدٌ، فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً. والدليل على أنه واحد من جهة العقل: أن الواحد إما أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون. فإن

اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

كان كافياً؛ كان الآخر ضائعاً، غير محتاج إليه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً. وإن لم يكن كافياً فهو ناقص، ولأنّ العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، والفاعل الواحد كافٍ، وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد، فيفضي ذلك إلى وجود أعدادٍ لا نهاية لها، وذا محال. فالقول بوجود إلهين محال، ولأنّ أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر، أو لا يقدر. فإن قدر لم يزل كونه المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً. ولأنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود، فإن لم يقدر واحدٌ منهما على إيجاده كان كلّ واحدٍ منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً. وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً. وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجد بالتعاون، فيكون كلّ واحدٍ منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر، فيكون كلّ واحدٍ منهما عاجزاً. وإن قدر كلّ واحدٍ منهما على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال. وإن لم يبق فحينئذٍ يكون الأوّل مزيلاً قدرة الثاني، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرّفه، فلا يكون إلهاً. فإن قلت: الواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته، فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً. قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً. وأمّا الشريك فما نفذت قدرته، بل زالت قدرته بسبب قدرة الغير فكان ذلك تعجيزاً.

٢ - ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو فَعَلَ بمعنى مفعول من: صمد إليه: إذا قصده. وهو السيّد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: ﴿هو الله﴾ الذي تعرفونه، وتقرون بأنّه خالق السموات والأرض، وخالقكم، وهو واحد لا شريك له، وهو الذي يصمد إليه كلّ مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو: الغني عنهم.

٣ - ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ لأنّه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كلّ مولود محدث وجسم. وهو قديم لا أول لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الوساطة بينهما. ولو

وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

كان حادثاً لافتقر إلى محدث. وكذا الثاني، الثالث. فيؤدّي إلى التسلسل، وهو باطل. وليس بجسم لأنه اسم للمتركب. ولا يخلو حينئذ من أن يتّصف كلّ جزء منه بصفات الكمال فيكون كلّ جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بالهين. أو غير متّصف بها بل بأضدادها من سمات الحدث، وهو محال.

٤ - ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكافئه أحد. أي: لم يماثله.

سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى. فقوله: ﴿هو الله﴾ إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها. وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأنّ الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي؛ لأنّ المتّصف بالقدرة والعلم لا بدّ وأن يكون حياً. وفي ذلك وصفه بأنه سميع، بصير، مريد، متكلم، إلى غير ذلك من صفات الكمال، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها، وهو نقائص، وذا من أمارات الحدث، فيستحيل اتّصاف القديم بها. وقوله: ﴿أحد﴾ وصفٌ بالوحدانية، ونفي الشريك، وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات، والمتوحد بعلم الخفيات. وقوله: ﴿الصمد﴾ وصف بأنه ليس إلّا محتاجاً إليه. وإذا لم يكن إلّا محتاجاً إليه فهو غني لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كلّ أحد. وقوله: ﴿لم يلد﴾ نفياً للشبه والمجانسة. وقوله: ﴿لم يولد﴾ نفياً للحدث، ووصفٌ بالقدم، والأولية. وقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ نفياً أن يماثله شيء. ومن زعم أن نفي الكفاء - وهو المثل - في الماضي لا يدلّ على نفيه للحال، والكفار يدّعون في الحال؛ فقد تاه في غيّه؛ لأنّه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة؛ إذ الحادث لا يكون كفواً للقديم. وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك، والتشبيه، والتعطيل. والسورة تدفع الكل كما قرّنا.

واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقراً؛ أي: خبراً؛ لأنّه لما كان محتاجاً إليه قدّم ليعلم من أول الأمر أنّه خبر لا فضلة؛ وتأخيرها إذا كان لغواً؛ أي: فضلة؛ لأنّ التأخير مستحق للفضلات. وإنّما قدّم في الكلام الأفضح؛

لأن الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري، وهذا المعنى مصبّه ومركزه هذا الظرف، فكان الأهمّ تقديمه.

وكان أبو عمرو يستحبّ الوقف على ﴿أحد﴾ ولا يستحبّ الوصل. قال عبد الوارث: على هذا أدركنا القراء. وإذا وصل نوّن، وكسر، أو حذف التنوين كقراءة ﴿عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿كُفُوا﴾ بسكون الفاء والهمزة: حمزة وخلف ﴿كُفُوا﴾ مثقلة غير مهموزة، حفص. الباقيون: مثقلة مهموزة. وفي الحديث: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»^(١) لأن القرآن يشتمل على توحيد الله، وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ. وهذه السورة تجرّدت للتوحيد والصفات، فقد تضمّنت ثلث القرآن. وفيه دليل شرف علم التوحيد. وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم، ويتضع بضعته؟! ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته. وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله؟! اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك والعاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المُكْرَمين بلقائك. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال: «قد وجبت» ف قيل: يا رسول الله ما وجبت؟! قال: «وجبت له الجنة»^(٢).

* * *

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٧).

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: الصبح، أو الخلق، أو: هو وادٍ في جهنم، أو: جب فيها.

٢ - ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: النار، أو الشيطان. و﴿مَا﴾ موصولة، والعائد محذوف. أو: مصدرية، ويكون الخلق بمعنى المخلوق. وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿مِنْ شَرِّ﴾ بالتنوين. و﴿مَا﴾ على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من ﴿شَرِّ﴾ أي: من شر خلقه. أي: من خلق شر. أو: زائدة.

٣ - ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق: الليل إذا كثف ظلامه. ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوذني بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»^(١). ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده.

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿١﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

٤ - ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النفاثات: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، ويرقن. والنفث: النفخ مع ريق. وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر، وظهور أثره.

٥ - ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه؛ لأنّه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسف على الخير عند الغير.

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأنّ شرّ هؤلاء أشدّ. وختم بالحسد ليعلم أنّه شرّها. وهو أوّل ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل. وإنّما عرّف بعض المستعاذ منه ونكّر بعضه؛ لأنّ كلّ نفّاث شريرة؛ فلذا عرفت النفاثات؛ ونكّر غاسق؛ لأنّ كلّ غاسق لا يكون فيه الشرّ. إنّما يكون في بعضٍ دون بعض. وكذلك كلّ حاسد لا يضر. وربّ حاسدٍ يكون محموداً كالحسد في الخيرات.

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: مربيهم ومصلحهم.

٢ - ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم.

٣ - ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ معبودهم. ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرة واحدة؛ لأنّ قوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ * إله الناس ﴿عطف بيان﴾ ﴿لرب الناس﴾. لأنّه يقال لغيره: رب الناس، ومالك الناس، وأما ﴿إله الناس﴾ فخاصّ لا شركة فيه. وعطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار. وإنّما أضيف الربّ إلى الناس خاصة، وإن كان ربّ كلّ مخلوق، تشريفاً لهم، ولأنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس. فكأنّه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس برّبهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم. وقيل: المراد بالناس الأوّل: الأطفال، ومعنى الربوبية يدلّ عليه، وبالثاني: الشباب، ولفظ الملك المنبئ عن السياسة يدلّ عليه، وبالثالث: الشيخوخ، ولفظ الإله المنبئ عن العبادة يدلّ عليه، وبالرابع: الصالحين، إذ الشيطان مولع بإغوائهم،

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٣﴾

وبالخامس: المفسدين؛ لعطفه على المعوذ منه.

٤ - ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى: الزلزلة. وأما المصدر: فوسواس - بالكسر - كالزلزال. والمراد به: الشيطان. سمي بالمصدر: كآته وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه. أو أريد ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفي ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس. منسوب إلى الخنوس وهو: التأخر، كالعواج، والبتات. لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

٥ - ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ في محل الجر على الصفة. أو: الرفع، أو: النصب على الشتم. وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على ﴿الخَنَّاسِ﴾.

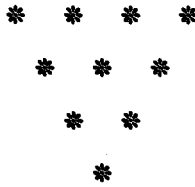
٦ - ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، على أن الشيطان ضربان: جنّي، وإنسي، كما قال: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وعن أبي ذر - رضي الله عنه - : أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس؟

روي: أنه ﷺ سحر فمروض. فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه: ما باله؟ فقال: طُب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة في جُفٍّ طلعة، تحت راعوفة في بئر ذي أروان. فانتبه ﷺ، فبعث زبيراً، وعليّاً وعماراً - رضي الله عنهم - فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجفّ فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فنزلت هاتان السورتان، فكلّما قرأ جبريل آية انحلت عقدة، حتى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة، كأنما نشط من عقال. وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كلّ داء

يؤذيك^(١) ولهذا جؤزوا الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ، لا بما كان بالسريانيّة، والعبرانيّة، والهنديّة، فإنّه لا يحلُّ اعتقاده والاعتماد عليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شرّ ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه أرسله ﴿يَا هُدَيِّ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه الملجأ والمآب.



الفهارس الحلمية

(١) فهرس الأحاديث النبوية

(٢) فهرس الآيات للجزء الثالث

حرف همزة الوصل

- «اتخذ الله إبراهيم خليلاً» ٣٩٩/١
- «اتقوا الشُّرك الأصغر» ٣٢٣/٢
- «اتلو القرآن وابكوا» ٣٤٢/٢
- «اجعلوها في ركوعكم» ٤٢٨/٣
- «اجعلوها في سجودكم» ٦٣٠/٣
- «احبسوا عليَّ الرِّكْبَ» ٦٩١/١
- «اختلط الإيمان بلحمه ودمه» ٢٣٦/٢
- «ارجعي حتى أنظرَ ما يُحدث الله» ٣٣٣/١
- «ارفعوا طعامكم» ٤١/٣
- «استوصوا بالنساء خيراً» ٣٤٥/١
- «اسقه عسلاً» ٢٢٢/٢
- «اصبروا فإنني لم أُمِر بالقتال» ٤٤٣/٢
- «افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة» ٥٥١/١
- «اقروا الزهراوين البقرة وآل عمران» ٣٢٥/١
- «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ» ٣٤٢/٣
- «اكتمي عليَّ» ٥٠٣/٣
- «التمسوا الرزق بالنكاح» ٥٠٢/٢
- «امضوا فإنكم أوَّل الحشر» ٤٥٥/٣
- «اهجهم، فوالذي نفسي بيده» ٥٨٩/٢
- «اتنوني غداً أخبركم» ٢٩٦/٢

حرف همزة القطع

- «أبايعكن على ألا تشركن» ٤٧٢/٣
- «أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك» ٤٩١/٢
- «أبق على نفسك» ٣٥٦/٢
- «أبكي على أصحابك» ٦٥٧/١
- «أبو عبدة أمين هذه الأمة» ٢٤٠/٢
- «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ٨٩/٢
- «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم» ٢٧٩/١
- «أجل، هي شجرة أخي يونس» ١٣٧/٣
- «أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله» ٤٨/٢
- «أحلت لنا ميتتان ودمان» ١٥١/١
- «أخبرني عن ربنا» ١٤٦/٢
- «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن» ١٧٧/٣
- «إذا أنعم الله على عبده نعمة» ٣٥٧/١
- «إذا دخل أهل الجنة الجنة» ١٨/٢
- «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح» ٥٣٥/١
- «إذا رأوا منازلهم في الجنة» ٣٣٦/٢
- «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد» ٥٢٥/٣
- «إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلة فسدَّ دوه» ١٩٨/٣
- «إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا» ٣٨١/١
- «إذاً لا أرضى قطُّ وواحد» ٦٥٤/٣
- «أرجى خمساً، وآوى أربعاً» ٣٩/٣
- «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم» ١٥/٢
- «أريدُ منك أن تقول: لا إله إلا الله» ٦٥٠/٢
- «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم» ٢٢٩/٢
- «أطَّت السماء وحق لها أن تئط» ٢٤٥/٣

- «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب» ١٤٤/٣
- «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» ٨٦/٣
- «ألا أنبئكم بخير أعمالكم» ٦٧٩/٢
- «ألا إن الذين قبل الوصية» ٣٣٧/١
- «ألا إن القوة الرمي» ٦٥٤/١
- «ألا إنها النخلة» ١٧٢/٢
- «ألا لا يحجّن بعد هذا العام مشرك» ١٢٢/١
- «ألحقوا الفرائض بأهلها» ٤٢٢/١
- «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ» ٢٣٦/١
- «ألظفوا بياذا الجلال والإكرام» ٤١٣/٣
- «الله أكبر» ٥٦٢/٣
- «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» ٧٠٤/٢
- «اللهم اخسفهما بما شئت» ١٤٧/٢
- «اللهم اشدّد وطأتك على مضر» ٥٥٦ و ٥٢١ و ٢٨٨/٣
- «اللهم أعم أبصارهم» ٦٨١/١
- «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» ٤٢٨/١
- «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» ٧٠٤/١
- «اللهم لا تكنني إلى نفسي طرفة عين» ٢٧١/٢
- «ألم أقل لك اكتمي عليّ؟» ٥٠٤/٣
- «أليس كانوا يُحلّون لكم» ٢٦٢/١
- «أليس اليهود عبدوا عزيزاً» ٤٢١/٢
- «أمّا أوّل أشراط الساعة» ٣١٠/٣
- «أما والذي أحلف به لأمثلن» ٢٤٢/٢
- «أؤمنون أنتم؟!» ٧١٠/١
- «أنا ابن الذبيحين» ١٣٢/٣
- «أنا دعوة أبي إبراهيم» ١٣٠/١
- «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ٥٩٦/٢

- «أنت الفاروق» ٣٦٨/١
- «أنتَ ومالكُ لأبيكَ» ٥٢٠/٢
- «إنك لعريض القفا» ١٦٢/١
- «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً» ٥٧٣/١
- «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليَّ» ١٦٣/١
- «إنما أنا رحمة مهداة» ٤٢٣/٢
- «إنما أنا لكم مثل الوالد» ٤٥٧/٢
- «إن الأحزاب سائرون إليكم» ٢٥/٣
- «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين» ٧٠٣/١
- «أن الجنَّ كانت تسترقُ السَّمعَ» ٣١٧/٣
- «إن الجنة محرمة على الأنبياء» ٣٩٠/٣
- «أن الحمد والنعمة لك» ٢٣/٣
- «أن أدنى أهل الجنة منزلة» ٥٨٠ و ٣٨٥/٣
- «إن أقرب ما يكون العبد إلى ربّه إذا سجد» ٦٦٤/٣
- «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله» ٦٧٩/٢
- «أن التوبة النصوح: أن يتوب» ٥٠٧/٣
- «إن الذي أمشاهم على أقدامهم» ٢٧٩/٢
- «إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز» ٧٩/٣
- «إن شاء الله» ٣١٢/١
- «إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس» ٦٥٤/١
- «إن صلاته ستنهاه» ٦٧٩/٢
- «إن صلاته لتردعه» ٦٧٩/٢
- «إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها» ٨٩/٢
- «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يسّ» ١١٥/٣
- «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدو» ٢٠٠/٣
- «إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد» ٢٢٨/٣
- «إن الله تعالى سمّاني في القرآن» ٩٥/٣

- «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة» ١٧١/٢
- «إن الله تعالى يقبل توبة العبد» ٢٤٢/١
- «إن الله حلّو يُحبُّ الحلاوة» ٤٧١/١
- «إن الله عزَّ وجلَّ أخرج من صُلب آدم» ٧٠٠/٢
- «إن الله عفا عن أمتي ما حدّثت به أنفسها» ٢٣١/١
- «إن الله كتب عليكم الحجَّ» ٢٧٧/١
- «إن الله لينصر هذا الدين» ٥٠٤/٢
- «إن الله وكلَّ بي مَلَكَيْنِ» ٤٤/٣
- «إن الله يحب الحيي الحليم» ٢٢٣/١
- «إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته» ٥٦٨/٣
- «إن من عبادي المؤمنين من لا يُصلح إيمانه» ٢٥١/٣ و ٦٨٥/٢
- «إن المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس» ٢٧٥/١
- «إن المؤمن إذا خرج من قبره» ٨/٢
- «أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق» ٥٥٧/٣
- «أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الرِّكاب قال» ٢٦٦/٣
- «أنه كان لبعض الملوك ساحر» ٦٢٣/٣
- «إنها ستكون هجرة بعد هجرة» ٤١٢/٢
- «إنها شجرة الحنظل» ١٧٢/٢
- «إنها الصلاة التي شُغل عنها سليمان» ٢٠٠/١
- «إنكم في منازلكم» ٢٧/٣
- «إني ذاكر لك أمراً» ٢٨/٣
- «إني على جناح سفر» ٧٠٩/١
- «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها» ٤٩٨/٣
- «أوحى الله إلى إبراهيم» ٤٥٠/٣ و ٣٣٨/٢
- «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم» ١٢٧/١
- «أعيزكما بكلمات الله الثَّامة» ١٢٣/٢
- «أولاد الكفَّار خدام أهل الجنة» ٤٢١/٣

- «أولئك جنٌ نصيبين» ٣١٨/٣
 «أوله سفاح، وآخره نكاح» ٤٨٨/٢
 «إياكم وعقوق الوالدين» ٢٥٣/٢
 «أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساءً...؟!» ٣٥٢/٢
 «الأنصار شعار والناس دثار» ٢٨٥/١

حرف الباء

- «باسم الله أرقبك» ٧٠٠/٣
 «بارك الله فيما أعطيت» ٦٩٧/١
 «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة» ٣٣٦/٣
 «بدء أمره أنه وجد في الكتب» ٣١٧/٢
 «بُعِثت بين يدي الساعة» ٧٠/٣
 «بل الله خير وأبقى» ٦١٤/٢
 «بل للناس عامة» ٨٩/٢
 «بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلا قليلاً» ٢٧٥/٢
 «بيننا أنا في المسجد الحرام» ٢٤٤/٢
 «بيننا رجل مستلق على فراشه» ٣٢١/١
 «البلاء موكل بالقول» ٣٥٤/٣

حرف التاء

- «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ٦٩٦/٢
 «تشهد على كل واحد بما عمل» ٦٧٠/٣
 «تعوذي بالله من شر هذا» ٦٩٧/٣
 «تقول النار للمؤمن» ٣٤٧/٢
 «تنزلوا على حكمي» ٢٧/٣

حرف الناء

- «ثم تعود روحه في جسده» ١٧٢/٢

- «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا» ١٥/٢
 «الثلاثان جميعاً من أمتي» ٤٢١/٣

حرف الجيم

- «جاء الحق وزهق الباطل» ٧١/٣
 «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يُخاصمونهُ» ٤٠٧/٣
 «جبريل...» ١١٣/١
 «جريان، والذيال، والطارق، وقابس...» ٩٤/٢

حرف الحاء

- «حُبِّبَ إلي من دنياكم ثلاث» ٢٧٦/١
 «حسبنا» ٣٥٩/١
 «حسبي، حسبي» ٦٧٠/٣
 «الحديث في المسجد يأكل الحسنات» ٧١١/٢
 «الحرائر صلاح البيت» ٣٥٠/١
 «الحمد رأس الشكر» ٢٩/١
 «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُيَّةَ الجاهلية» ٣٥٧/٣
 «الحمى حظ كل مؤمن من النار» ٣٤٧/٢

حرف الخاء

- «خذوا عني قد جعلَ الله لهن سبيلاً» ٣٤٠/١
 «خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرتُ» ٣٨/٣
 «خلقَ الله الجنة فقال لها» ٤٥٨/٢
 «خلق الله خلقه في ظلمة» ٤٨٩/١
 «خُلقت المرأة من الرجل» ٣٢٧/١
 «خير المال سكة مأبورة» ٢٥٠/٢
 «الخيلُ معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» ١٥٤/٣

حرف الدال

- «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ٣٨/١
 «دعي الصلاة أيام أقرائك» ١٨٩/١
 «الدعاء هو العبادة» ٢١٨/٣
 «الدنيا حلوة خضرة» ١١/٢

حرف الذال

- «ذلك لا ينفعه، وكنت أرجو» ٦٩٩/١
 «ذلكم العرض، من نوقش الحساب» ٦٢٠/٣
 «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» ٣٠/٢
 «ذو بطنٍ خارجةٍ جارية» ٩١/٣

حرف الراء

- «رحم الله أخي يوسف» ١١٩ و ١١٣/٢
 «رضا الله في رضا الوالدين» ٢٥٣/٢
 «رؤيا الأنبياء وحي» ٢٦٢/٣
 «الرشوة في الحكم» ٤٤٨/١
 «الرعد مَلَكٌ موَكَّلٌ بالسحاب» ١٤٦/٢
 «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً» ٣٠/٢

حرف الزاي

- «زُد في الخطر، وأبعد في الأجل» ٦٩٠/٢
 «الزكاة فنطرة الإسلام» ١٧/٢

حرف السين

- «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج» ٨٨/٣

- «سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين» ٣٣/١
- «سألت الله تعالى ألا يبعث على أمتي عذاباً» ٥١٢/١
- «سُئِلَ أي الأعمال أفضل» ٦٧٩/٢
- «سئل رسول الله ﷺ عن حقيقة الروح» ٢٧٤/٢
- «سئل رسول الله ﷺ عن الروح» ٢٩٦/٢
- «سئل النبي ﷺ عن الأنبياء» ٤٤٧/٢
- «سباب المؤمن فسوق» ١٦٩/١
- «سبحان الله مقلب القلوب» ٣٢/٣
- «سبحانك! بلى» ٥٧٥/٣
- «سبقك بها عكاشة» ٥٨٣/١
- «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» ٧١٦/٢
- «سُمِّيَ ذا القرنين لأنه طاف» ٣١٦/٢
- «سياحُ أمتي الصيامُ» ٧١٣/١
- «سيد البشر آدم، وسيد العرب...» ٢١١/١
- «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» ٥٧٤/١
- «الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة» ٨٥/٢
- «السابق يدخل الجنة بغير حساب» ٨٨/٣

حرف الشين

- «شارب الخمر كعابد الوثن» ٤٧٣/١
- «شاهت الوجوه» ٦٣٧/١
- «شغلونا عن الصلاة الوسطى» ٢٠٠/١
- «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ٨٧/١
- «شيبطني هود» ٨٨/٢

حرف الصاد

- «صح بالناس» ٦٧٢/١

- «صدقة تصدَّق الله بها عليكم» ٣٩٠/١
 «صدقتك على المسكين صدقة» ١٥٣/١
 «صل من قطعك» ٦٢٧/١
 «الصَّعُود: جبل من نار» ٥٦٤/٣

حرف الطاء

- «طلاق الأمة تطليقتان» ١٨٩/١
 «طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب» ٦٢١/٦

حرف الظاء

- «الظلم ظلمات يوم القيامة» ١٩٣/٣

حرف العين

- «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل» ٤٤٩/٣
 «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق» ١٥٥/١
 «علموا أرقاءكم سورة يوسف» ١٤٠/٢
 «على ملة إبراهيم» ٢٤٥/١
 «عليك بآخر الحشر» ٤٦٤/٣
 «عَيَّرَت نساء النبي ﷺ أم سلمة» ٣٥٤/٣
 «العجماء جبار» ٤١٥/٢
 «العين حقٌّ، وإنَّ العين لتدخل» ٥٢٧/٣

حرف الغين

- «غَرَّه جهله» ٦١٠/٣

حرف الفاء

- «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السَّامَ» ٢٥/١

- «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي» ٢٥/١
 «فإنها تغرب في عين حامية» ٣١٧/٢
 «فضل العالم على العابد» ٤٤٩/٣

حرف القاف

- «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة» ١٥٥/٣
 «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» ٢٦/١
 «قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين» ٣٠٩/٣
 «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً» ٢٤٤/١
 «قتلتموه إرادة ما معه» ٣٨٦/١
 «قد استجيب لك» ٤١٣/٣
 «قدم النبي ﷺ المدينة فصلَّى نحو بيت المقدس» ١٤٠/١
 «قد وجبت له الجنة» ٦٩٦/٣
 «قرناء السوء شر من شياطين الجن» ٥٣١/١
 «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما» ٦٤٠/٢
 «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ٢٣٣/٢
 «قل وروح القدس معك» ٥٨٩/٢
 «قيام العبد من الليل» ٩/٣
 «القتلى سواء» ٤٥٣/١
 «القرآن حبل الله المتين» ٢٧٩/١
 «القلبُ يجزع، والعين تدمع» ١٣٠/٢

حرف الكاف

- «كان أناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون من صلاة المغرب» ٩/٣
 «كان ذلك حلالاً لإبراهيم» ٢٧٤/١
 «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران» ٦٥/١
 «كان رسول الله ﷺ يقرأ كلَّ ليلة» ١٩٦/٣

- «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر» ٢٠١/٢ و ٨٦/١
- «كان رسول الله ﷺ يأكل الدجاج والفالوذح» ٤٧١/١
- «كان رسول الله ﷺ يدير الماء على مرفقيه» ٤٣٠/١
- «كان عمر رضي الله عنه يحب ضرب الحجاب» ٤٢/٣
- «كان ﷺ إذا أفصح الغلام» ٢٨٤/٢
- «كان ﷺ خلقه القرآن» ٥١٩/٣
- «كان ﷺ يقول إذا أصبح» ٣٩٥/٣
- «كان يكره رسول الله ﷺ التقل» ٥٠٣/٣
- «كانوا أهل قرية لثاماً» ٣١٣/٢
- «كانوا ثمانية: نوح وأهله» ٥٩/٢
- «كذب النسابون» ١٦٤/٢
- «كرامة الكتاب ختمه» ٦٠٢/٢
- «كلا إن عماراً ملئ إيماناً» ٢٣٦/٢
- «كل حلالاً، وقل صدقاً» ٤٥١/٣
- «كل عبادي خلقت حنفاء» ٦٩٩/٢
- «كل مولود يولد على الفطرة» ٦٩٩/٢
- «كلوا، فلو قلت: إن فاكهة» ٦٥٩/٣
- «كما تدين تُدان» ٢١٤/٣
- «كما تكونوا يولى عليكم» ٢٤٧/١
- «كنتُ على جبل حراء فنوديتُ» ٥٦١/٣
- «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» ٦٤٤/٢

حرف اللام

- «لزوال الدنيا أهون على الله» ٣٨٥/١
- «لقاب قوس أحدكم من الجنة» ٣٩٠/٣
- «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» ٣٦٧/١
- «لقد عجبت من يوسف وكرمه» ١١٦/٢

- «للمتكلف ثلاث علامات» ١٦٧/٣
- «لما أخذ الله قريش بالسنين» ٤٧٦/٢
- «لما أصيب إخوانكم بأحد» ٣١٠/١
- «لما نزلت هذه الآية ما كلم النبي» ٣٤٧/٣
- «لمن لم يُبَيِّت الصيام» ١٩٧/١
- «لن يغلب عسرٌ يسرين» ٦٥٧/٣
- «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبوها» ٩٨/١
- «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً» ٤٣٥/٣
- «لو دعا نادية لأخذته الزبانية» ٦٦٤/٣
- «لو قالت كما قالت لهداه الله تعالى» ٦٣٠/٢
- «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة» ٧٢/١
- «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» ٩٨/١
- «لو نزل عذاب من السماء» ٦٥٧/١
- «لو يعلم العبد قدر عفو الله» ١٩٢/٢
- «لها السكنى والنفقة» ٥٠٠/٣
- «ليت شعري ما فعل أبوي؟» ١٢٥/١
- «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» ١٩٨/٢

حرف الميم

- «ما اصطيذ حوت في البحر» ٢٥٩/٢
- «ما أجد أحداً أوثق في نفسي» ٣٣/٣
- «ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» ١٨٧/٣
- «ما أدِّي زكاته فليس بكثر» ٦٧٧/١
- «ما أصرَّ من استغفر» ٢٩٤/١
- «ما أنا بطارد المؤمنين» ٥٠٦/١
- «ما تشاور قوم قطُّ إلا هُذوا» ٣٠٦/١
- «ما حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم» ٦٨٠/٢

- «ماذا تسألوني» ١٤٤/٣
- «ما السموات السبع في الكرسي» ٢١١/١
- «ما عندي من أمرك شيء» ٤٤٤/٣
- «ما قرئت هذه الآية في دار» ٢١١/١
- «ما كنتَ جديراً بذلك» ١٦١/١
- «مالك؟ إن عادوا لك فعدْ لهم» ٢٣٦/٢
- «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما» ٣٥٦/٣
- «مالي أراكم سكوتاً» ٤١٨/٣
- «ما من رجل يرفع صوته بالغناء» ٧١١/٢
- «ما من مكروب يدعو» ٤١٨/٢
- «ما منكم من أحد إلا وله منزلان» ٤٦٠/٢
- «ما من مولود يُولد إلا والشيطان يمسه» ٢٥١/١
- «ما من يوم إلا ويُنادي» ٦٢٢/٣
- «ما نقصت زكاه من مال قطُّ» ٢٢٥/١
- «مخرجاً من شبهات الدنيا» ٤٩٨/٣
- «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ٦٠١/٣
- «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة» ٤٩/١
- «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم» ٦٥٦/١
- «مسح رسول الله ﷺ على ناصيته» ٤٣٠/١
- «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» ٦٨٧/٣
- «مفاتيح الغيب خمس» ٧٢٣/٢
- «ملوك الجنة من أمتي» ٢٤٦/١
- «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» ٤١٦/١
- «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ١٥٥/١
- «المعدة بيت الداء» ٥٦٤/١
- «المؤمن أكرم على الله من الملائكة» ٢٦٩/٢
- «المؤمن كيّس فطنٌ» ٦٧٩/٣

- «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته» ١٤٤/١
- «من استرعى الذئب ظلم» ١٢٨/١
- «من آذى جاره ورَّثه الله داره» ١٦٦/٢
- «من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة» ٣٢١/١
- «من أحب أن يكون أقوى الناس» ٩٢/٢
- «من أدركها يقول: اللهم إنك عفوٌ» ٦٦٥/٣
- «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني» ٣٨١/٣
- «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر» ٢٨١/١
- «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً..» ١٩٩/٢
- «من بلغه القرآن فكأنما رأى محمد ﷺ» ٤٩٥/١
- «من تصدَّق بدم فما دونه كان كفارة له» ٤٥٠/١
- «من حفر لأخيه جباً» ٩٣/٣
- «من حلف على يمين فرأى غيرها» ١٨٧/١
- «من خاف أدلج» ٥٩٧/٣
- «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبَّ» ٨٨/٢
- «من سرَّه أن يكون أكرم الناس» ٣٥٧/٣
- «من شأنه أن يغفر ذنباً» ٤١٣/٣
- «من الشُّرك الخفي أن يصلِّي الرجل لمكان الرجل» ١٨٨/٣
- «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» ١٥٩/١
- «من صبر على حرِّ مكة ساعة» ٢٧٧/١
- «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض» ٦٨٣/٢ و ٣٨٨/١
- «من قال حين يُصبح: فسبحان الله..» ٦٩٥/٢
- «من قال لا إله إلا الله كان له» ٣٥٢/٢
- «من قتل قتيلاً فله سلبه» ١٩٨ و ٣٩/١
- «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة» ٢٣٤/١
- «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة» ٢١٠/١
- «من قرأ آية الكرسي عند منامه» ٢١١/١

- «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى» ٢٤٢/١
- «من قرأ ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة» ١٣/٣
- «من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام» ٥٥٣/١
- «من قرأ سورة الكهف» ٣٢٣/٢
- «من قرأ سورة الإخلاص» ٦٩٦/٣
- «من قرأ سورة الواقعة» ٤٣١/٣
- «من قرأ يسَ أمام حاجته» ١١٥/٣
- «من قرأ هاتين الآيتين حتى يُمسي» ٢١١/١
- «من قرأها في ليلة جمعة» ٢٨٦/٣
- «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب» ٥١٠/٣
- «من قرأهما بعد العشاء الآخرة» ٢٣٤/١
- «من كتّم علماً عن أهله ألجمه الله» ٣١٩/١
- «من كثرت صلاته بالليل» ٣٤٥/٣
- «من كُسر أو عرج فقد حلَّ» ١٦٧/١
- «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه» ٢٩٣/١
- «من لقي الله تعالى لا يُشرك به شيئاً» ٣٦٤/١
- «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه» ٣٥٤/١
- «من لم يستشف بالقرآن» ٢٧٣/٢
- «من مات في أحد الحرمين بُعث» ٢٧٦/١
- «من مات يوم الجمعة كتب الله له» ٤٨٢/٣
- «من منع زكاة ماله يصير حيّة» ٣١٦/١
- «من نوقش الحساب عُذّب» ١٥١/٢
- «من هداه الله للإسلام، وعلمه القرآن» ٢٨/٢

حرف النون

- «نُصِرْتُ بالصَّبَا» ٥٢٩ و ٣٧٨ و ١٩/٣ و ٦٤٩/١
- «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا» ٢٠/٣

- «نعم، كل شيء يؤدي المؤمن فهو مصيبة» ١٤٤/١
 «نعم، ويبيعك ويدخلك جهنم» ١١٣/٣
 «نعم، الإنابة إلى دار الخلود» ١٧٦/٣
 «نعم السواك الزيتون» ٦٥٩/٣
 «نفث في روعي» ٢٦٢/٣

حرف الواو

- «واشدد وطأتك على مضر» ٤٢٤/٢
 «وأعفوا اللّحي» ٥٨٨/١
 «والذي نفس محمد بيده! إن الرجل من أهل الجنة» ٧٠/١
 «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا» ٤٨٣/٣
 «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلّى» ٢٦١/١
 «والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ» ٢٤٥/٢
 «والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم» ٢٦٥/٢
 «والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه» ٣١٣/٣
 «ولا غمّة في فرائض الله» ٦٨٥/٣
 «وأنا أقسم ألا أحلّهم» ٧٠٦/١
 «وأى شيء أقول؟» ٤١٩/١
 «وفي عمله كل يوم بأربع ركعات» ٣٩٥/٣
 «وما يدريك يا عمر! لعلّ الله» ٤٦٦/٣
 «ويل للأعقاب من النار» ٤٣٠/١
 «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» ٣٢٠/١
 «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها» ١٤٨/١
 «ويل واد في جهنم» ١٠٤/١
 «الورود: الدخول» ٣٤٧/٢

حرف الهاء

- ١٣٢/١ «هذا بقية آبائي»
- ١٢٨/١ «هذا مقام إبراهيم»
- ٤٥٥/١ «هذا وذووه، لو كان الإيمان»
- ٢٣٢/٣ «هذا وقومه، والذي نفسي بيده»
- ٥٤٩/١ «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان»
- ٤٠٢/١ «هذه قسمتي فيما أملك»
- ٥٩٢/٣ «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»
- ٤٦٢/٢ «هكذا أنزلت»
- ٥٧٩/٣ «هواء الجنة سحسج لا حر ولا قُر»
- ٣٥٥/٣ «هو أن تذكر أخاك بما يكره»
- ٥٦٩/٣ «هو أهل أن يُتقى»
- ٣٣٢/٢ «هو الجدول»
- ٢٧٨/٣ «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»
- ٣٨٥/١ «هي جزاؤه إن جازاه»
- ٦٥٩/٣ «هي سواكي وسواك الأنبياء»
- ٣٠/٢ «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم»

حرف «لا»

- ٤١/٢ «لا أشك ولا أسأل»
- ٣٥٤/٣ «لا أفخر على أحد في الحساب»
- ٦٥٨/٢ «لا، إلا كما يضّر العضاة الخبط»
- ٧٦/٣ «لا تزال يد الله مبسوطة»
- ٣٠٤/٣ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»
- ٥٠٠/٣ «لا سكنى لك ولا نفقة»
- ٥٤١/٢ «لا صلاة إلا بطهور»

- «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن» ٢٥/١
- «لا صيام لمن لم يعزم الصيام» ١٩٧/١
- «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ٣٦٨/١
- «لا عبادة كالتفكير» ٣٢١/١
- «لا غرار في تسليم» ٣٨١/١
- «لا غمة في فرائض الله» ٣٣/٢
- «لا كبيرة مع الاستغفار» ٢٩٤/١
- «لا يُتم بعد البلوغ» ١٠٥/١
- «لا يُتم بعد الحلم» ٣٢٧/١
- «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره» ٢٢٦/١
- «لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله» ٧١/٢
- «لا يقرأ أهل الجنة إلا طه ويس» ٣٩٢/٢
- «لا يقولن أحدكم زرعن» ٤٢٦/٣
- «لا ينبغي أن يُسجد لأحد» ٢٦٨/١
- «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته» ٢٨٨/١
- «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد» ٨٠/١
- «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها» ٢٨١/٣

حرف الباء

- «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين...» ٦٨١/١
- «يا بني عبد المطلب!» ٥٨٦/٢ و ٦٩١/٣
- «يا جبريل ما منعك أن تزورنا» ٣٤٤/٢
- «يا عثمان! ما سألتني عنها أحد» ١٩١/٣
- «يا علي! أشقى الأولين» ٥٨٢/١
- «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» ٥٠٢/٢
- «يا ويح ثعلبة» ٦٩٦/١
- «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» ٣٤٦/١

- «يَسْرُوا وَلَا تُعْصِرُوا» ٦٢٦/١
- «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أصناف» ٥٣٧/٢
- «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات» ٥٣٠/٣
- «يفعل البارُّ ما شاء أن يفعل» ٢٥٣/٢
- «يُقَالُ للكافر يوم القيامة» ٢٧٣/١
- «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز» ١٠٩/٣
- «يقول الله تعالى: من أهان لي ولياً» ٤٤٤/١
- «يُنَادِي منادٍ يوم القيامة» ٢٥٩/٣ و ٢٩٣/١
- «ينزل عيسى خليفة على أمتي» ٢٥٩/١
- «يهون يوم القيامة على المؤمنين» ٥٣٤/٢
- «يُؤْتَى بجَهَنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمام» ٦٤١/٣

فهرس الآيات

الموضوع	الصفحة
(٣٢) السجدة	
تفسير الآيات (١ - ٣)	٥
تفسير الآيات (٤ - ٧)	٦
ت	
فسير الآيات (٨ - ١١)	٧
تفسير الآيات (١٢ - ١٤)	٨
تفسير الآيات (١٥ - ١٧)	٩
تفسير الآيات (١٨ - ٢٢)	١٠
تفسير الآيات (٢٣ - ٢٦)	١١
تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)	١٢
تفسير الآية (٣٠)	١٣
(٣٣) الأحزاب	
تفسير الآية (١)	١٤
تفسير الآيات (٢ - ٤)	١٥
تفسير الآيتين (٥ - ٦)	١٧
تفسير الآية (٧)	١٨
تفسير الآيتين (٨ - ٩)	١٩
تفسير الآية (١٠)	٢٠
تفسير الآيات (١١ - ١٣)	٢١

٢٢	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٢٣	تفسير الآيات (١٦ - ١٩)
٢٤	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٢٥	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٢٦	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦)
٢٧	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٢٨	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٢٩	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٣٠	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)
٣١	تفسير الآية (٣٦)
٣٢	تفسير الآية (٣٧)
٣٣	تفسير الآية (٣٨)
٣٤	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٣٥	تفسير الآيات (٤١ - ٤٤)
٣٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٨)
٣٧	تفسير الآية (٤٩)
٣٨	تفسير الآية (٥٠)
٣٩	تفسير الآية (٥١)
٤٠	تفسير الآية (٥٢)
٤١	تفسير الآية (٥٣)
٤٣	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٦)
٤٤	تفسير الآيتين (٥٧ - ٥٨)
٤٥	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٤٦	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٤٧	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٨)
٤٨	تفسير الآيات (٦٩ - ٧٢)
٤٩	تفسير الآية (٧٣)

(٣٤) سبأ

٥١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٢	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٥٣	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٥٤	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٥٥	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٥٦	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٥٧	تفسير الآية (١٤)
٥٨	تفسير الآية (١٥)
٥٩	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٦٠	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٦١	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٦٢	تفسير الآية (٢٤)
٦٣	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
٦٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٦٥	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٦٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٦٧	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٦٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٦٩	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٧٠	تفسير الآية (٤٦)
٧١	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
٧٢	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٧٣	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)

(٣٥) فاطر

٧٥	تفسير الآية (١)
٧٦	تفسير الآيتين (٢ - ٣)

٧٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٧٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٧٩	تفسير الآية (١٠)
٨٠	تفسير الآية (١١)
٨١	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٨٢	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٨٣	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٨٤	تفسير الآيات (١٩ - ٢٢)
٨٥	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٦)
٨٦	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٨٧	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٨٨	تفسير الآية (٣٢)
٨٩	تفسير الآية (٣٣)
٩٠	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٩١	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٩٢	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٩٣	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
	(٣٦) يس
٩٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٩٦	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٩٧	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٩٨	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٩٩	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
١٠٠	تفسير الآيات (١٧ - ٢٢)
١٠١	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٩)
١٠٢	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)
١٠٣	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)

١٠٤	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٩)
١٠٥	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٤)
١٠٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٩)
١٠٧	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٥)
١٠٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٦١)
١٠٩	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٦)
١١٠	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
١١١	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
١١٢	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٦)
١١٣	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٨)
١١٤	تفسير الآيات (٧٩ - ٨١)
١١٥	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)

(٣٧) الصفات

١١٦	تفسير الآيات (١ - ٤)
١١٧	تفسير الآيات (٥ - ٨)
١١٨	تفسير الآيات (٩ - ١١)
١١٩	تفسير الآيات (١٢ - ١٨)
١٢٠	تفسير الآيات (١٩ - ٢٥)
١٢١	تفسير الآيات (٢٦ - ٣٣)
١٢٢	تفسير الآيات (٣٤ - ٤٣)
١٢٣	تفسير الآيات (٤٤ - ٥٠)
١٢٤	تفسير الآيات (٥١ - ٥٩)
١٢٥	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٦)
١٢٦	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٤)
١٢٧	تفسير الآيات (٧٥ - ٨٢)
١٢٨	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٩)
١٢٩	تفسير الآيات (٩٠ - ٩٤)

١٣٠	تفسير الآيات (٩٥ - ١٠٢)
١٣١	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٥)
١٣٢	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
١٣٣	تفسير الآيات (١٠٨ - ١١٢)
١٣٤	تفسير الآيات (١١٣ - ١١٨)
١٣٥	تفسير الآيات (١١٩ - ١٣٠)
١٣٦	تفسير الآيات (١٣١ - ١٤٣)
١٣٧	تفسير الآيات (١٤٤ - ١٤٩)
١٣٨	تفسير الآيات (١٥٠ - ١٥٨)
١٣٩	تفسير الآيات (١٥٩ - ١٦٦)
١٤٠	تفسير الآيات (١٦٧ - ١٧٣)
١٤١	تفسير الآيات (١٧٤ - ١٨٠)
١٤٢	تفسير الآيتين (١٨١ - ١٨٢)

(٣٨) ص

١٤٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
١٤٤	تفسير الآيات (٣ - ٥)
١٤٥	تفسير الآيات (٦ - ١٠)
١٤٦	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
١٤٧	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)
١٤٨	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
١٤٩	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
١٥٠	تفسير الآية (٢٣)
١٥١	تفسير الآية (٢٤)
١٥٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
١٥٣	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
١٥٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
١٥٥	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)

١٥٦	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٨)
١٥٧	تفسير الآيات (٣٩ - ٤٢)
١٥٨	تفسير الآيتين (٤٣ - ٤٤)
١٥٩	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٦)
١٦٠	تفسير الآيات (٤٧ - ٥٣)
١٦١	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٩)
١٦٢	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٣)
١٦٣	تفسير الآيات (٦٤ - ٧٠)
١٦٤	تفسير الآيات (٧١ - ٧٥)
١٦٥	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
١٦٦	تفسير الآيات (٧٩ - ٨٧)
١٦٧	تفسير الآية (٨٨)

(٣٩) الزمر

١٦٨	تفسير الآيات (١ - ٣)
١٦٩	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
١٧٠	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
١٧١	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
١٧٢	تفسير الآية (١٠)
١٧٣	تفسير الآيات (١١ - ١٥)
١٧٤	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
١٧٥	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
١٧٦	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
١٧٧	تفسير الآية (٢٤)
١٧٨	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
١٧٩	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
١٨٠	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
١٨١	تفسير الآيتين (٣٧ - ٣٨)

١٨٢	تفسير الآيات (٣٩ - ٤٢)
١٨٤	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٦)
١٨٥	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
١٨٦	تفسير الآية (٥٠)
١٨٧	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
١٨٨	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٦)
١٨٩	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)
١٩٠	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
١٩١	تفسير الآيتين (٦٤ - ٦٥)
١٩٢	تفسير الآيتين (٦٦ - ٦٧)
١٩٣	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
١٩٤	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
١٩٥	تفسير الآيتين (٧٣ - ٧٤)
١٩٦	تفسير الآية (٧٥)
	(٤٠) غافر
١٩٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
١٩٨	تفسير الآية (٤)
١٩٩	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٢٠٠	تفسير الآية (٧)
٢٠١	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٠٢	تفسير الآية (١١)
٢٠٣	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٢٠٤	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٢٠٥	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
٢٠٦	تفسير الآيات (٢١ - ٢٥)
٢٠٧	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٢٠٨	تفسير الآية (٢٨)

٢٠٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٢١٠	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
٢١١	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٢١٢	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٠)
٢١٣	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٢١٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٧)
٢١٥	تفسير الآيات (٤٨ - ٥١)
٢١٦	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٦)
٢١٧	تفسير الآيات (٥٧ - ٥٩)
٢١٨	تفسير الآيتين (٦٠ - ٦١)
٢١٩	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٦)
٢٢٠	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٢)
٢٢١	تفسير الآيات (٧٣ - ٧٧)
٢٢٢	تفسير الآيات (٧٨ - ٨٠)
٢٢٣	تفسير الآيات (٨١ - ٨٣)
٢٢٤	تفسير الآيتين (٨٤ - ٨٥)
	(٤١) فصلت
٢٢٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٢٢٦	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٢٢٧	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٢٨	تفسير الآية (١١)
٢٢٩	تفسير الآية (١٢)
٢٣٠	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٢٣١	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٢٣٢	تفسير الآيات (١٨ - ٢١)
٢٣٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٢٣٤	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٩)

٢٣٥	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٢٣٦	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٥)
٢٣٧	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٢٣٨	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٢٣٩	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٤)
٢٤٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧)
٢٤١	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٠)
٢٤٢	تفسير الآيتين (٥١ - ٥٢)
٢٤٣	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)
	(٤٢) الشورى
٢٤٤	تفسير الآيات (١ - ٤)
٢٤٥	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٢٤٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٢٤٧	تفسير الآية (١١)
٢٤٨	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٢٤٩	تفسير الآية (١٥)
٢٥٠	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٢٥١	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٢٥٢	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٢٥٣	تفسير الآية (٢٤)
٢٥٤	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٢٥٥	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٢٥٦	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٢٥٧	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٦)
٢٥٨	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٠)
٢٥٩	تفسير الآيات (٤١ - ٤٤)
٢٦٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٨)

٢٦١	تفسير الآيات (٤٩ - ٥١)
٢٦٢	تفسير الآية (٥٢)
٢٦٣	تفسير الآية (٥٣)
	(٤٣) الزخرف
٢٦٤	تفسير الآيات (١ - ٥)
٢٦٥	تفسير الآيات (٦ - ١٠)
٢٦٦	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
٢٦٧	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٢٦٨	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٢٦٩	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٢٧٠	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٢٧١	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣٢)
٢٧٢	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
٢٧٣	تفسير الآيات (٣٧ - ٣٩)
٢٧٤	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٥)
٢٧٥	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٩)
٢٧٦	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٢٧٧	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٧)
٢٧٨	تفسير الآية (٥٨)
٢٧٩	تفسير الآيات (٥٩ - ٦٣)
٢٨٠	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٩)
٢٨١	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٥)
٢٨٢	تفسير الآيات (٧٦ - ٨٠)
٢٨٣	تفسير الآيات (٨١ - ٨٤)
٢٨٤	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٨)
٢٨٥	تفسير الآية (٨٩)

(٤٤) الدخان

٢٨٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
٢٨٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٢٨٨	تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٢٨٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٨)
٢٩٠	تفسير الآيات (١٩ - ٢٣)
٢٩١	تفسير الآيات (٢٤ - ٣١)
٢٩٢	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٧)
٢٩٣	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٣)
٢٩٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٨)
٢٩٥	تفسير الآيات (٤٩ - ٥٥)
٢٩٦	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٩)

(٤٥) الجاثية

٢٩٧	تفسير الآيات (١ - ٥)
٢٩٨	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٢٩٩	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٣٠٠	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
٣٠١	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)
٣٠٢	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٣٠٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٣٠٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)
٣٠٥	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٣)
٣٠٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)

(٤٦) الأحقاف

٣٠٧	تفسير الآيات (١ - ٤)
٣٠٨	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٣٠٩	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)

٣١٠	تفسير الآية (١١)
٣١١	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٣١٢	تفسير الآية (١٦)
٣١٣	تفسير الآية (١٧)
٣١٤	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٣١٥	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٣١٦	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٣١٧	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٣١٨	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣١٩	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٥)

(٤٧) محمد

٣٢١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٣٢٢	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٣٢٤	تفسير الآيات (٥ - ١١)
٣٢٥	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٣٢٦	تفسير الآيات (١٦ - ١٩)
٣٢٧	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٣٢٨	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٣٢٩	تفسير الآيات (٢٦ - ٣٠)
٣٣٠	تفسير الآيات (٣١ - ٣٥)
٣٣١	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)

(٤٨) الفتح

٣٣٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٣٣٤	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٣٣٥	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٣٣٦	تفسير الآية (١١)
٣٣٧	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)

٣٣٨	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٣٩	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٣٤٠	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٣٤١	تفسير الآية (٢٥)
٣٤٢	تفسير الآية (٢٦)
٣٤٣	تفسير الآية (٢٧)
٣٤٤	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
	(٤٩) الحجرات
٣٤٦	تفسير الآية (١)
٣٤٧	تفسير الآية (٢)
٣٤٨	تفسير الآية (٣)
٣٤٩	تفسير الآية (٤)
٣٥٠	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٣٥١	تفسير الآيتين (٧ - ٨)
٣٥٢	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٣٥٣	تفسير الآية (١١)
٣٥٥	تفسير الآية (١٢)
٣٥٦	تفسير الآية (١٣)
٣٥٧	تفسير الآية (١٤)
٣٥٩	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٣٦٠	تفسير الآية (١٨)
	(٥٠) ق
٣٦١	تفسير الآيات (١ - ٣)
٣٦٢	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٣٦٣	تفسير الآيات (٨ - ١٥)
٣٦٤	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٦٥	تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)

٣٦٦		تفسير الآيات (٢٤ - ٢٨)
٣٦٧		تفسير الآيات (٢٩ - ٣٢)
٣٦٨		تفسير الآيات (٣٣ - ٣٧)
٣٦٩		تفسير الآيات (٣٨ - ٤١)
٣٧٠		تفسير الآيات (٤٢ - ٤٥)

(٥١) الذاريات

٣٧١		تفسير الآيات (١ - ٦)
٣٧٢		تفسير الآيات (٧ - ١٣)
٣٧٣		تفسير الآيات (١٤ - ٢٠)
٣٧٤		تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٣٧٥		تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٣٧٦		تفسير الآيات (٢٦ - ٣٠)
٣٧٧		تفسير الآيات (٣١ - ٣٨)
٣٧٨		تفسير الآيات (٣٩ - ٤٥)
٣٧٩		تفسير الآيات (٤٦ - ٥٢)
٣٨٠		تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦)
٣٨١		تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)

(٥٢) الطور

٣٨٢		تفسير الآيات (١ - ٧)
٣٨٣		تفسير الآيات (٨ - ١٦)
٣٨٤		تفسير الآيات (١٧ - ٢٣)
٣٨٥		تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٣٨٦		تفسير الآيات (٣٠ - ٣٦)
٣٨٧		تفسير الآيات (٣٧ - ٤٣)
٣٨٨		تفسير الآيات (٤٤ - ٤٩)

(٥٣) النجم

٣٨٩		تفسير الآيات (١ - ٥)
-----	-------	----------------------

٣٩٠	تفسير الآيات (٦ - ١١)
٣٩١	تفسير الآيات (١٢ - ١٧)
٣٩٢	تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)
٣٩٣	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٣٩٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣٩٥	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٧)
٣٩٦	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٦)
٣٩٧	تفسير الآيات (٤٧ - ٥٥)
٣٩٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٦٢)

(٥٤) القمر

٣٩٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٠٠	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٤٠١	تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٤٠٢	تفسير الآيات (١٣ - ١٧)
٤٠٣	تفسير الآيات (١٨ - ٢٤)
٤٠٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٣١)
٤٠٥	تفسير الآيات (٣٢ - ٤٠)
٤٠٦	تفسير الآيات (٤١ - ٤٥)
٤٠٧	تفسير الآيات (٤٦ - ٥٠)
٤٠٨	تفسير الآيات (٥١ - ٥٥)

(٥٥) الرحمن

٤٠٩	تفسير الآيات (١ - ٥)
٤١٠	تفسير الآيات (٦ - ٩)
٤١١	تفسير الآيات (١٠ - ١٥)
٤١٢	تفسير الآيات (١٦ - ٢٧)
٤١٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٤١٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)

٤١٥		تفسير الآيات (٣٤ - ٤٢)
٤١٦		تفسير الآيات (٤٣ - ٥٦)
٤١٧		تفسير الآيات (٥٧ - ٧٠)
٤١٨		تفسير الآيات (٧١ - ٧٨)
		(٥٦) الواقعة
٤١٩		تفسير الآيات (١ - ٤)
٤٢٠		تفسير الآيات (٥ - ١٤)
٤٢١		تفسير الآيات (١٥ - ١٩)
٤٢٢		تفسير الآيات (٢٠ - ٣٠)
٤٢٣		تفسير الآيات (٣١ - ٤١)
٤٢٤		تفسير الآيات (٤٢ - ٥٠)
٤٢٥		تفسير الآيات (٥١ - ٥٨)
٤٢٦		تفسير الآيات (٥٩ - ٦٤)
٤٢٧		تفسير الآيات (٦٥ - ٧٠)
٤٢٨		تفسير الآيات (٧١ - ٧٥)
٤٢٩		تفسير الآيات (٧٦ - ٨٢)
٤٣٠		تفسير الآيات (٨٣ - ٩١)
٤٣١		تفسير الآيات (٩٢ - ٩٦)
		(٥٧) الحديد
٤٣٢		تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٣٣		تفسير الآيات (٤ - ٧)
٤٣٤		تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٤٣٥		تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٣٦		تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٤٣٧		تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
٤٣٨		تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٤٣٩		تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)

٤٤٠	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٤٤١	تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٤٤٢	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٤٤٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)

(٥٨) المجادلة

٤٤٤	تفسير الآية (١)
٤٤٥	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٤٤٦	تفسير الآية (٤)
٤٤٧	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٤٤٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٤٤٩	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٤٥٠	تفسير الآية (١٢)
٤٥١	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٤٥٢	تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٤٥٣	تفسير الآية (٢٢)

(٥٩) الحشر

٤٥٤	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٤٥٦	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٤٥٧	تفسير الآية (٧)
٤٥٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٤٥٩	تفسير الآية (١٠)
٤٦٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٦١	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٤٦٢	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٤٦٣	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)
٤٦٤	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)

(٦٠) الممتحنة

٤٦٥	تفسير الآية (١)
٤٦٧	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٤٦٨	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٤٦٩	تفسير الآيات (٦ - ٩)
٤٧٠	تفسير الآية (١٠)
٤٧١	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٧٢	تفسير الآية (١٣)

(٦١) الصف

٤٧٤	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٧٥	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٤٧٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٤٧٧	تفسير الآيات (١١ - ١٤)

(٦٢) الجمعة

٤٧٩	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٤٨٠	تفسير الآيات (٣ - ٥)
٤٨١	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٤٨٢	تفسير الآيات (٩ - ١١)

(٦٣) المنافقون

٤٨٤	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٨٥	تفسير الآية (٤)
٤٨٦	تفسير الآية (٥)
٤٨٧	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٤٨٨	تفسير الآيات (٩ - ١١)

(٦٤) التغابن

٤٩٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
-----	-----------------------

٤٩١	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٤٩٢	تفسير الآيات (٧ - ١١)
٤٩٣	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٤٩٤	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)

(٦٥) الطلاق

٤٩٦	تفسير الآية (١)
٤٩٧	تفسير الآية (٢)
٤٩٨	تفسير الآية (٣)
٤٩٩	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٥٠١	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٥٠٢	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)

(٦٦) التحريم

٥٠٣	تفسير الآية (١)
٥٠٤	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٥٠٥	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٥٠٦	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٥٠٧	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٥٠٨	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)

(٦٧) الملك

٥١٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥١١	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٥١٢	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٥١٣	تفسير الآيات (٩ - ١٣)
٥١٤	تفسير الآيات (١٤ - ١٧)
٥١٥	تفسير الآيات (١٨ - ٢١)
٥١٦	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٧)
٥١٧	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)

(٦٨) القلم

٥١٨	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥١٩	تفسير الآيات (٣ - ٩)
٥٢٠	تفسير الآيات (١٠ - ١٥)
٥٢١	تفسير الآيات (١٦ - ٢٠)
٥٢٢	تفسير الآيات (٢١ - ٢٨)
٥٢٣	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٦)
٥٢٤	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٢)
٥٢٥	تفسير الآيتين (٤٣ - ٤٤)
٥٢٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٥٠)
٥٢٧	تفسير الآيتين (٥١ - ٥٢)

(٦٩) القلم

٥٢٨	تفسير الآيتين (١ - ٥)
٥٢٩	تفسير الآيتين (٦ - ١٠)
٥٣٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٨)
٥٣١	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٤)
٥٣٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٣٤)
٥٣٣	تفسير الآيتين (٣٥ - ٤٣)
٥٣٤	تفسير الآيتين (٤٤ - ٥٢)

(٧٠) المعارج

٥٣٥	تفسير الآيات (١ - ٣)
٥٣٦	تفسير الآيات (٤ - ٩)
٥٣٧	تفسير الآيات (١٠ - ١٧)
٥٣٨	تفسير الآيات (١٧ - ٢٨)
٥٣٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٧)
٥٤٠	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٤)

(٧١) نوح

٥٤١	تفسير الآيات (١ - ٤)
٥٤٢	تفسير الآيات (٤ - ٨)
٥٤٣	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٥٤٤	تفسير الآيات (١٣ - ١٨)
٥٤٥	تفسير الآيات (١٩ - ٢٤)
٥٤٦	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)

(٧٢) الجن

٥٤٨	تفسير الآية (١)
٥٤٩	تفسير الآيات (٢ - ٦)
٥٥٠	تفسير الآيات (٧ - ١١)
٥٥١	تفسير الآيات (١٢ - ١٦)
٥٥٢	تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٥٥٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٥٥٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)

(٧٣) المزمّل

٥٥٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٥٥٦	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٥٥٧	تفسير الآيات (٩ - ١٣)
٥٥٨	تفسير الآيات (١٤ - ١٨)
٥٥٩	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)

(٧٤) المدثر

٥٦١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٦٢	تفسير الآيات (٣ - ٩)
٥٦٣	تفسير الآيات (١٠ - ١٦)
٥٦٤	تفسير الآيات (١٧ - ٢٤)

٥٦٥		تفسير الآيات (٢٥ - ٣١)
٥٦٧		تفسير الآيات (٣٢ - ٣٩)
٥٦٨		تفسير الآيات (٤٠ - ٥٠)
٥٦٩		تفسير الآيات (٥١ - ٥٦)

(٧٥) القيامة

٥٧٠		تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٧١		تفسير الآيات (٣ - ١٣)
٥٧٢		تفسير الآيات (١٤ - ٢١)
٥٧٣		تفسير الآيات (٢٢ - ٢٩)
٥٧٤		تفسير الآيات (٣٠ - ٣٩)
٥٧٥		تفسير الآية (٤٠)

(٧٦) الإنسان

٥٧٦		تفسير الآيات (١ - ٣)
٥٧٧		تفسير الآيات (٤ - ٧)
٥٧٨		تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٥٧٩		تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٥٨٠		تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٥٨١		تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٥٨٢		تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
٥٨٣		تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)

(٧٧) المرسلات

٥٨٤		تفسير الآيات (١ - ٦)
٥٨٥		تفسير الآيات (٧ - ١٧)
٥٨٦		تفسير الآيات (١٨ - ٢٩)
٥٨٧		تفسير الآيات (٣٠ - ٣٨)
٥٨٨		تفسير الآيات (٣٨ - ٥٠)

(٧٨) النبأ

٥٨٩	تفسير الآيات (١ - ٥)
٥٩٠	تفسير الآيات (٦ - ١٧)
٥٩١	تفسير الآيات (١٨ - ٢٤)
٥٩٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٣٢)
٥٩٣	تفسير الآيات (٣٣ - ٤٠)

(٧٩) النازعات

٥٩٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٥٩٦	تفسير الآيات (٦ - ١٢)
٥٩٧	تفسير الآيات (١٣ - ١٩)
٥٩٨	تفسير الآيات (٢٠ - ٣٠)
٥٩٩	تفسير الآيات (٣١ - ٤٠)
٦٠٠	تفسير الآيات (٤١ - ٤٦)

(٨٠) عبس

٦٠١	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٠٢	تفسير الآيات (٥ - ١٧)
٦٠٣	تفسير الآيات (١٨ - ٣٣)
٦٠٤	تفسير الآيات (٣٤ - ٤٢)

(٨١) التكويد

٦٠٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٠٦	تفسير الآيات (٦ - ١٢)
٦٠٧	تفسير الآيات (١٣ - ٢١)
٦٠٨	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨)
٦٠٩	تفسير الآية (٢٩)

(٨٢) الانفطار

٦١٠	تفسير الآيات (١ - ٧)
-----	----------------------

٦١١ تفسير الآيات (٨ - ١٦)

٦١٢ تفسير الآيات (١٧ - ١٩)

(٨٣) المطففين

٦١٣ تفسير الآيات (١ - ٣)

٦١٤ تفسير الآيات (٤ - ٩)

٦١٥ تفسير الآيات (١٠ - ١٧)

٦١٦ تفسير الآيات (١٨ - ٢٦)

٦١٧ تفسير الآيات (٢٧ - ٣٣)

٦١٨ تفسير الآيات (٣٤ - ٣٦)

(٨٤) الانشقاق

٦١٩ تفسير الآيات (١ - ٦)

٦٢٠ تفسير الآيات (٧ - ١٦)

٦٢١ تفسير الآيات (١٧ - ٢٥)

(٨٥) البروج

٦٢٢ تفسير الآيات (١ - ٣)

٦٢٣ تفسير الآيات (٤ - ٦)

٦٢٤ تفسير الآيات (٧ - ١٠)

٦٢٥ تفسير الآيات (١١ - ١٩)

٦٢٦ تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)

(٨٦) الطارق

٦٢٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٢٨ تفسير الآيات (٥ - ١٤)

٦٢٩ تفسير الآيات (١٥ - ١٧)

(٨٧) الأعلى

٦٣٠ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣١ تفسير الآيات (٥ - ١١)

٦٣٢ تفسير الآيات (١٢ - ١٩) (٨٨) الغاشية

٦٣٣ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣٤ تفسير الآيات (٥ - ١٤)

٦٣٥ تفسير الآيات (١٥ - ٢٠)

٦٣٦ تفسير الآيات (٢١ - ٢٦)

(٨٩) الفجر

٦٣٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣٨ تفسير الآيات (٥ - ٧)

٦٣٩ تفسير الآيات (٨ - ١٢)

٦٤٠ تفسير الآيات (١٣ - ١٧)

٦٤١ تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)

٦٤٢ تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦)

(٩٠) البلد

٦٤٣ تفسير الآيتين (١ - ٢)

٦٤٤ تفسير الآيات (٣ - ١٤)

٦٤٥ تفسير الآيات (١٥ - ١٧)

٦٤٦ تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)

(٩١) الشمس

٦٤٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٤٨ تفسير الآيات (٥ - ٩)

٦٤٩ تفسير الآيات (١٠ - ١٥)

(٩٢) الليل

٦٥٠ تفسير الآيات (١ - ٧)

٦٥١ تفسير الآيات (٨ - ١٨)

٦٥٢ تفسير الآيات (١٩ - ٢١)

(٩٣) الضحى

٦٥٣		تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٥٤		تفسير الآيات (٥ - ٧)
٦٥٥		تفسير الآيات (٨ - ١١)

(٩٤) الشرح

٦٥٦		تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٥٧		تفسير الآيات (٥ - ٧)
٦٥٨		تفسير الآية (٨)

(٩٥) التين

٦٥٩		تفسير الآيتين (١ - ٢)
٦٦٠		تفسير الآيات (٣ - ٦)
٦٦١		تفسير الآيتين (٧ - ٨)

(٩٦) العلق

٦٦٢		تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٦٣		تفسير الآيات (٤ - ١٤)
٦٦٤		تفسير الآيات (١٥ - ١٩)

(٩٧) القدر

٦٦٥		تفسير الآية (١)
٦٦٦		تفسير الآيات (٢ - ٥)

(٩٨) البينة

٦٦٧		تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٦٨		تفسير الآيات (٥ - ٨)

(٩٩) الزلزلة

٦٦٩		تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٧٠		تفسير الآيات (٥ - ٨)

	(١٠٠) العاديات
٦٧١	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٢	تفسير الآيات (٦ - ١١)
	(١٠١) القارعة
٦٧٣	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٤	تفسير الآيات (٦ - ١١)
	(١٠٢) التكاثر
٦٧٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٦	تفسير الآيات (٦ - ٨)
	(١٠٣) العصر
٦٧٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١٠٤) الهمزة
٦٧٨	تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٧٩	تفسير الآيات (٤ - ٩)
	(١٠٥) الفيل
٦٨٠	تفسير الآية (١)
٦٨١	تفسير الآيات (٢ - ٥)
	(١٠٦) قريش
٦٨٢	تفسير الآية (١)
٦٨٣	تفسير الآيات (٢ - ٤)
	(١٠٧) الماعون
٦٨٤	تفسير الآيات (١ - ٧)
	(١٠٨) التكاثر
٦٨٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١٠٩) الكافرون
٦٨٧	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٨٨	تفسير الآية (٦)

	(١١٠) النصر
٦٨٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١١١) المسد
٦٩١	تفسير الآية (١)
٦٩٢	تفسير الآيات (٢ - ٥)
	(١١٢) الإخلاص
٦٩٣	تفسير الآية (١)
٦٩٤	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٦٩٥	تفسير الآية (٤)
	(١١٣) الفلق
٦٩٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٩٨	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
	(١١٤) الناس
٦٩٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
٧٠٠	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٧٠٤	فهرس الأحاديث النبوية
٧٢٥	فهرس الآيات